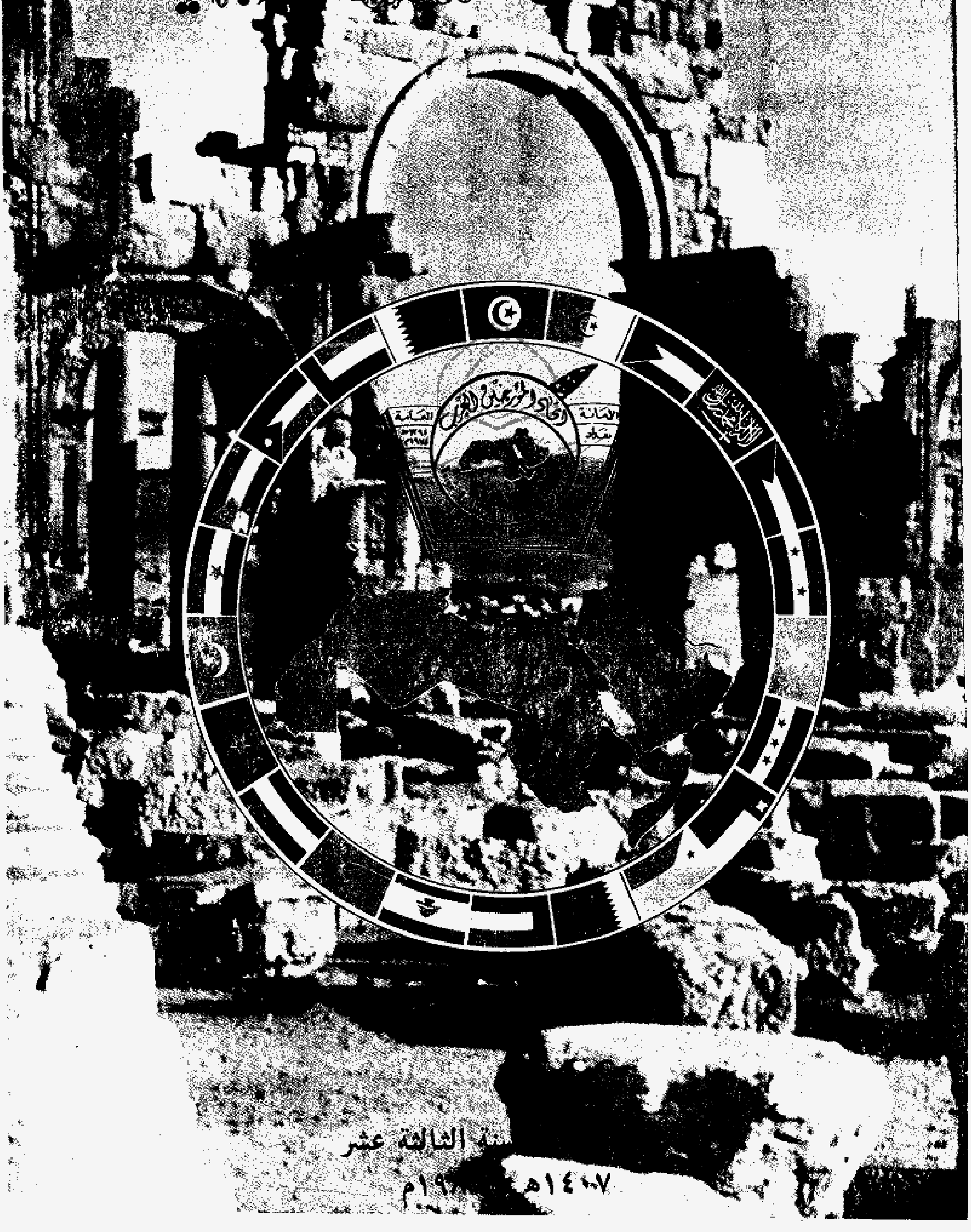
المؤرخ العربي



...نة الثالثة عشر

١٤٠٧هـ ...١٩...م

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

العدد ٣٤ ـ السنة الثالثة عشر
١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

شروط نشر البحوث في المجلة

١. ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحث.
٢. ان يكون منسجما مع اهداف اتحاد المؤرخين العرب.
٣. ان لايزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة.
٤. ان لايكون قد سبق نشره او قبل للنشر في مجلة اخرى، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير.
٥. تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.
٦. يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل ان يكون مختصرا، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.
٧. يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين.
٨. بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات او الندوات او كان مستلا من رسالة او اشراف عليها مقدم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث.
٩. لامور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من اول هامش في البحث الى اخر هامش فيه ، وتعطي تسلسلا واحدا.
١٠. يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص ، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.
١١. رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبر عن اراء اصحابها مع التأكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لاتسترجع الى اصحابها في حالة عدم نشرها.
١٢. يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه ، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية.

ترسل البحوث باسم مدير التحرير
ص.ب: (٤٠٨٥) بغداد ــ الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ــ اتحاد المؤرخين العرب
ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ . الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (٥٠) دينارا، وفي خارج العراق (١٥٠) دولاراً امريكياً.
٢ . للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينارا، وفي خارج العراق (٦٠) دولارا امريكيا.
٣ . لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دينارات، وفي خارج العراق (٣٠) دولارا امريكيا.

مجلة المؤرخ العربي
العنوان:
اتحاد المؤرخين العرب
ص . ب: ٤٠٨٥
العراق: بغداد

بطاقة الاشتراكات

١٥٠ دولار للمؤسسات الرسمية
٦٠ دولار للمؤرخين
٣٠ دولار لطلبة التاريخ

ارجوا قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

يرجى ارسال قائمة بالحساب
تجدون طيا صكاً بقيمة .... دولار
الاسم: ....
العنوان: ....
المدينة: ....
القطر: ....
التاريخ: ....

Subscription Card

Please enter my subscription for

One year $ 150.00 for Institutions
$ 60.00 for Historians
$ 30.00 for Studies of History

Please bill me

Check enclosed for $........................
Name........................
Address........................
City........................Country........................
Date........................

Address:

Union of Arab Historians
P.O.Box: 4085
Baghdad - Iraq



محتويات العدد (٣٤)

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

عرض الرسائل الجامعية

تعريف ببعض الكتب

من ملفات المؤرخين العرب

من نشاطات الاتحادات العلمية

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

قراءات أرشيفية
في الوثائق التاريخية الهولندية المكتشفة حديثاً
وفي الصراع الدولي على الخليج العربي

احمد جلال التدمري

مدير مركز الدراسات والوثائق
الديوان الأميري ــ رأس الخيمة

مقدمة

واجه الخليج العربي منذ القدم هجمات أجنبية وأطماعاً دولية للسيطرة عليه واقتناص ثرواته، ولاتخاذه معبراً للتجارة بين الشرق والغرب. وبعد أن كان الخليج أشبه بالبحيرة العربية تقطن سواحله شرقيها وغربيها القبائل العربية المعروفة بأصالتها وبعراقتها، انتشرت على شواطئه الشرقية وبعض جزره المراكز الأجنبية من برتغالية وانجليزية وهولندية وفارسية. حتى كانت حملات التحرير العربية التي أجلت البرتغاليين وواجهت الفرس والانجليز والهولنديين.

إن البحث عن الوثائق والمعلومات التاريخية المسندة يبقى هاجساً دائماً يراود كل باحث ودارس في هذا الميدان، لربط الأحداث والكشف عن الحقائق والتوثق من الروايات التي جلها ذات مصادر أجنبية.

وخلال البحث والتنقيب عن الوثائق التاريخية ذات الصلة بخليجنا العربي، وبتعاون من الجهات الأرشيفية الرسمية عثرت على عدد من الوثائق الهولندية التي كانت مجهولة. ونظراً لأهميتها التاريخية وجدت من واجبي كباحث أن أُضَمِّن هذه الدراسة بها.

ودراستي هذه بمثابة المطالعة للوثائق التاريخية عن مرحلة حساسة من تاريخنا تشمل فترة القرنين السابع والثامن عشر الميلادي، ومن ثم الربط بينها في نسيج يوضح حقيقة الوقائع ومسيرة الأحداث لتعكس في النهاية صورة عن الماضي القريب والبعيد الذي لازالت مؤثراته وذيوله ممتدة الى واقعنا الحاضر وربما الى المستقبل المعاش قريبه وبعيده.

القوة البحرية العربية في الخليج العربي

شغل القواسم منذ مطلع القرن السابع عشر زعامة البحر وقيادة السفن الحربية إبان عهد الدولة اليعربية. إضافة إلى أن سفنهم التجارية كانت تجوب الخليج وشواطئ شرق إفريقيا وموانئ الهند، والبحر الأحمر.

وفي أواخر عهد اليعاربة برز القواسم ومن خلفهم قبائل الساحل كأبطال نضال ضد المستعمرين وكزعماء في الساحل الشرقي والغربي وجزر(١) الخليج العربي ومن خلال زعامتهم القبلية التي انفردوا بها في الساحل الشرقي للخليج منطقة بندر لنجة وجزيرة قشم وما جاورها وساحل الشميلية على الشاطئ الشرقي للامارات المطل على خليج عمان والتي ازدهرت فيها مدن دبا وكلبا وخورفكان... وكذلك الشاطئ الغربي للامارات مثل مدن رأس الخيمة والشارقة، كان للقواسم دور مشهود في مقارعة الغزاة ودحر المحتلين.

أطلق أسم الهولى على القبائل العربية التي تقطن الساحل الشرقي للخليج العربي ومعظمها من قبائل آل سميط والعثوب والدواسر والمرازيق وآل بوعلي والمطاريش في بوشهر والزعاب في بندر ريق، إضافة الى القواسم الذين نركز وجودهم في جزيرة قشم وبندر لنجة ولاراك وما جاورها. إلى جانب وجودهم في مدن الساحل الغربي للخليج.

لقد كان التماسك العربي في حوض الخليج العربي شرقيه وغربيه قوياً في مقارعة الاحتلال البرتغالي وفي التماسك بين القبائل العربية على كلتا الضفتين وفي المناطق الداخلية لعمان مما أضاف لدولة اليعاربة قوة مكنتها من إنجاز الكثير من المهام التحريرية. في عام ١٦٢٠ تمكن العرب بالتعاون مع الفرس من طرد البرتغاليين من موقع احتلوه على الساحل الغربي للخليج قرب جلفار ــ رأس الخيمة (٢) الا أن الفرس هادنوا بعد ذلك البرتغاليين وعقدوا معهم في عام ١٦٢٥ إتفاقية صلح اعترف فيها البرتغاليون بانتقال هرمز وقشم الى الشاه عباس مقابل حصولهم على نصف العوائد الجمركية في كنج بالقرب من لنجة. وهكذا ساءت العلاقات العربية الفارسية بسبب مهادنة الفرس للبرتغاليين وخاصة أن البرتغاليين لم يزالوا يحتفظون بقوات لهم في برج حصين قرب جلفار، مما جعل هذا التحالف ينقلب الى احتلال فارسي لحصن الصير واحتلال برتغالي لحصن آخر بالقرب من جلفار، إضافة الى وجود سفن حربيةبرتغاليةفي ميناء جلفار. وهكذا كان لزاماً على القوات العربية في عهد الامام ناصر بن مرشد أن تتوجه لتحرير هذه المواقع من المحتلين(٣) حيث وقعت معارك عنيفة في مواجهة القوات الفارسية والبرتغالية. ورغم التمركز القوي والمحصن للقوات الفارسية والبرتغالية فقد تمكنت القوات اليعربية بقيادة/ علي بن احمد من تحرير حصن الصير بعد معارك رهيبة سارع خلالها البرتغاليون بإمداد الفرس بالأسلحة والسفن إضافة الى إطلاقهم نيران مدافعهم على القوات العربية المحاصرة للحصن. تدعيماً من البرتغاليين للفرس، وكادوا بهذا الدعم أن يحولوا بين العرب وبين تحرير الحصن، إلا أن شجاعة القوات العربية وتصميم قائدها على النصر أو الموت أدى الى تمكنه من الاستيلاء على الحصن وطرد المحتلين منه(٤).

وبإحراز القوات العربية اليعربية لذلك النصر وتلك المعركة تمكنت من حصر النفوذ البرتغالي داخل القلعة التي تقوقعوا فيها حيث أجبروا فيما بعد وإثر معارك ضدهم على الاستسلام للقوات العربية وطلب الأمان.

إن روح العرب العمانيين العالية وتصميمهم على النصر واسترداد الحقوق والذود عن حياض الأرض والمياه العربية جعلتهم يتبوؤون مكانة عالية في المنطقة وبلغت القوة البحرية العربية بالذات في عهد الامام سيف بن سلطان اليعربي أقصى قوة لها فأخذ بمقاتلة القوى المعادية.. البرتغاليين في المحيط الهندي والفرس في مياه الخليج العربي(٥). فقد تحركت قوة بحرية عربية قوامها الف وخمسمائة مقاتل لمهاجمة منطقة كنج الخاضعة للفرس القريبة من بندر لنجة العربي على الشاطئ الشرقي للخليج

العربي. وقضت هذه القوة على قوات الفرس واستولت على الكثير من الثروات وكبدتهم خسائر فادحة، مما أدى بالفرس الى طلب العون من الوكالة الانجليزية لوقف أو إعاقة القوات العربية من التقدم نحو فارس ومن ثم لمهاجمة مسقط. وكان الهولنديون أيضاً على استعداد لتقديم المساعدة للفرس مقابل أن تقدم السلطات الفارسية لهم تسهيلات تجارية، إلا أن الفرس تراجعوا عن فكرة مهاجمة مسقط(٦) لتقديرهم بأن الهجوم لن تكون نتائجه في صالحهم.

واستمرت بعد ذلك محاولات تكوين جبهة فارسية برتغالية ضد التفوق البحري العربي في أواخر القرن السابع عشر. في عام ١٦٩٦ وصلت الانباء الى الامام سيف بأن هناك اتفاقاً بين الفرس والبرتغاليين لمهاجمة مسقط. ولهذا بادر الامام بشن هجوم مفاجئ على أكبر المراكز البرتغالية في منطقة مانجالور فقضى بذلك على محاولتهم في مهدها ومنع الحليفين من بلوغ أهدافهما(٧).

وإثر هذه المعركة يئس الفرس من الدعم البرتغالي فتوجهوا إلى القوى البحرية الجديدة في الخليج وهي الانجليزية والهولندية يطلبون مساعدتها ضد اليعاربة. الا أن الانجليز وقفوا على الحياد في الصراع العربي الفارسي نظراً لعدم تعرض قوات الامام سيف للتجارة والسفن الانجليزية.

وفي عام ١٧٠٧ قام الاسطول العربي بأسر عدد من السفن والقوارب الفارسية، وفي عام ١٧٢٠ استولى الاسطول على عدة جزر من أهمها جزيرة قشم، وقد أغضب ذلك الفرس فأرسلوا جيشاً يقوده/ علي خان/ الى بندر عباس لاستعادة هذه الجزر، لكن غزو الافغانيين لبلاد فارس أرغم هذه القوة على التراجع نحو كرمان دون أن تحقق شيئا من مهمتها(٨).

لم تكن للفرس قوة بحرية خالصة منهم، لذلك حاولوا لتحقيق اهدافهم الاستعانة بالبلرتغاليين والانجليز والهولنديين والفرنسيين، ليحاربوا بدلا منهم(٩). وباعتبار أن سكان الخليج العربي على شاطئيه الشرقي والغربي معظمهم من العرب وان القبائل الفارسية موطنها البلاد الداخلية والجبال. لذلك لجأ نادر شاه ملك الفرس الى العرب عندما قرر إعداد اسطول حربي ليواجه به البرتغاليين. فجند منهم بحارة ونواخذة لذلك الاسطول. لكنه لم يستطع استغلالهم وتوجيههم لمحاربة أشقائهم العرب في مسقط والساحل العماني. فإن شعورهم القومي وإنتائهم العربي جعلهم يرفضون محاربة أبناء جلدتهم رغم السيطرة الفارسية عليهم وعلى بلدانهم ورغم عملهم تحت راية ذلك الاسطول. لذلك شهدت حملات الاسطول الفارسي ضد العرب عصياناً من البحارة العرب وتمرداً عنيفاً كثيراً ما أدى الى إيقاع ضربات بذلك الاسطول وبالبحرية الفارسية مما جعلها كثيراً ما تخفق في هجماتها على السواحل والموانئ والجزر العربية.

وذكرت وثيقة هولندية اكتشفت حديثاً تناولت معلومات دونها المعتمد الهولندي في بندر عباس في ١٧٣٨/١٠/٨ جاء فيها:ــ وردت أنباء من جيش الشاه في الجانب الغربي العربي للخليج حول الانتصارات على الفرس، مثل طرد العرب للفرس من مسقط ووضعهم تحت الحصار في جلفار براً وبحراً مع بحريتهم. لهذا السبب فإن حركة التنقل للفرس قد أغلقت، كما أن سفن الشاه قد حوصرت. وبمعركة بحرية أحرقت بعضها على الشاطئ. ومن السفن الفارسية التي انحرفت الى الشاطئ السفينة الكبيرة /فالتي شاه/ بينما هوجمت ايضاً سفينة بريطانية ضخمة كانت قد أجرت إلى الفرس. وكانت حتى ذلك الوقت لازالت في ميناء جلفار وقد أسر قائدها واثنين من بحارتها..(١٠)

وكان من نتائج حملات نادر شاه على عمان لاحتلال مسقط تمرد البحارة العرب في الاسطول الفارسي، وقاموا بقتل القائد الفارسي /علي خان/ في مسقط، واستولوا على عدد من قطع الاسطول الفارسي وهاجموا مدينة باسيدو في جزيرة قشم ثم توجهوا نحو خورفكان طلباً لحماية الحاكم القاسمي.

وكانت ردة الفعل قاسية على نادر شاه فطلب النجدة من الهولنديين والانجليز الذين أمدوه

بسفنتين حربيتين هولنديتين وحوالي عشرين سفينة من نوع الغراب، وتوجهت هذه القوة مع سفن أخرى أعدها تقي خان القائد الفارسي نحو رأس الخيمة وخورفكان لمقاتلة القواسم. وفي ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٤٠ التقت قوات تقي خان بالاسطول القاسمي فكانت الغلبة للقواسم مما اضطر الحملة الفارسية الهولندية الى الانسحاب لجزيرة قشم فلحقها الاسطول القاسمي وأجبرها على الهرب الى ميناء كينج الفارسي. وعاد بعدها الاسطول القاسمي الى قواعده سالماً(١١).

ولكن ذلك لم يترك لنادر شاه أن ييأس، فأخذ يتابع تحرك السفن العربية وعين قائداً بحرياً جديداً هو السردار/ فردي خان الذي تحرك الى جزيرة قيس عندما علم بأن البحارة العرب المتمردين على الاسطول الفارسي السابق ينزلون فيها. واصطحب معه سفينتين هولنديتين كان قد احتجزهما في بندر عباس. وبوصول القائد الفارسي الى جزيرة قيس ومعه قواته واسطوله التحم في قتال شديد مع البحارة العرب أصيب خلالها السردار بجرح قاتل مات على إثره وتراجع اسطوله خاسراً إلى بندر عباس.

وقد أدت الخسائر المتواصلة لاسطول نادر شاه والفشل الذي مني به الى تخلي نادر شاه عن إنشاء قوة بحرية فارسية في منطقة الخليج العربي. ولم يكن ذلك مفاجأة للقوة الاجنبية في الخليج فقد تنبأ بذلك الفشل وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في بندر عباس حين قال:ـ [إننا نعتقد بأن مشروع نادر شاه في تأسيس الاسطول الفارسي غير ناجح. وان نجاح الاسطول الفارسي سيتوقف على تعاون العرب مع الفرس، أما الفرس فإنهم بطبيعتهم يكرهون ركوب السفن.](١٢) ويقول السير بيرسي المهتم بالشئون الفارسية مؤكداً جهل الفرس بشئون البحر وعلل هذه الظاهرة تعليلا جغرافياً. إذ لاحظ أن السواحل الشرقية للخليج العربي مفصولة عن الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة(١٣) يقطن خلفها الفرس، في حين كان معظم القانطين على الساحل الشرقي للخليج من العرب.

ورغم محاولات نادر شاه وغيره من ملوك الفرس القضاء على الوجود العربي على الشاطئ الشرقي للخليج بإحلال القبائل الفارسية مكانهم فإن هذه السياسة لم تنجح تماما فقد بقي للعرب وجود.

لم يوهن التحالف العدواني الانجليزي الهولندي الفارسي من عزيمة العرب، بل زادهم تصميماً على التضحية والفداء. ويقول جان جاك بيربي في وصف أعمالهم الفدائية:ـ (وأخذوا يقومون بأعمالهم تلك وهم مرتاحو الضمير، لانهم إنما يفعلونها لتحرير بلادهم.) ويقول مالكولم:ـ (ولو كنت أسيراً لديهم وقدمت لهم كل ما تملك مقابل حياتك، رفضوا ذلك بإباء وشمم.. وقالوا:ـ إننا لانسرق الأحياء.(١٤)

شكل تحرير مدينة جلفار في عام ١٩٣١ من الاحتلال الفارسي والبرتغالي نصراً مؤزراً للدولة اليعربية. وقد كان ذلك الجيش العربي مسنداً بالقواسم الذين شاركوا في تلك المعركة، وقد برز في ذلك الزعيم القاسمي ـ كايد بن عدوان ـ الذي شارك في القتال(١٥) ثم برزالقائدالقاسمي رحمة بن مطر خلال الأحداث الداخلية وخاصة في وقائع معركة المصنعة أو معركة بركا في عام ١٧٢٣. وكان قد وطد ملكه في رأس الخيمة في موقع المعيريض أحد أحياء مدينة رأس الخيمة اليوم. ثم توسع في إمارته حتى شملت خورفكان(١٦).

ويذكر أيضاً أن قوة يعربية اتجهت في عام ١٧١٦ الى جزيرة قشم وفي طريقها توحدت مع قوات قاسمية أرسلها الشيخ رحمة بن مطر من بلدة الصير ـ رأس الخيمة ـ بهدف السيطرة على الجزيرة وتحريرها من الاحتلال الفارسي، حيث أن سكان الجزيرة من القبائل العربية من بني معين وغيرهم.. وقد تمكنت القوات اليعربية القاسمية من النزول في الجزيرة والسيطرة عليها، وأسس القواسم فيها محطة تجارية(١٧) ثم حاولت هذه القوات العربية السيطرة على هرمز، إلا أنها لم تنجح، فتركتها واتجهت لتجهيز نفسها والاستعداد لتحرير البحرين.

وبقيادة السلطان بن سيف الثاني توجهت

قوات الدولة اليعربية والقواسم في صيف عام ١٧١٧ نحو البحرين لتخليصها من الاحتلال الفارسي. وبعد قتال طويل وعنيف بين الطرفين تكبدا فيها خسائر فادحة في الأرواح والمعدات هرب القائد الفارسي من البحرين إلى فارس. فدخلها الأمام سلطان بن سيف بقواته ومعه مراكب الغواصين البحرينيين، وبنى هناك قلعة عراد الشهيرة.(١٨)

ويذكر أنه في عام ١٧٢٤ تولى الشيخ رحمة بن مطر زعامة القواسم بعد وفاة أبيه وسجل مطر بطولة مشهودة في حملة بحرية غادرت في عام ١٧٢٦ رأس الخيمة لاستعادة جزيرة قشم فنزلت القوات القاسمية في ميناء باسيدو مما أثار مخاوف شركة الهند الشرقية البريطانية التي أرسلت وحدات بحرية مكونة من السفينة (بريطانيا (BRITANNIA)) والسفينة (بنغال (BANGAL)) وسفن أخرى أخف منها للحراسة. وبعد معارك شديدة انسحب القواسم الى الصير في رأس الخيمة، وارسل الانجليز وفداً الى الشيخ مطر ليفاوضه بدفع تعويضات عن الخسائر البريطانية بسبب تلك العملية. وعلى ما يذكر بأن تلك الحادثة هي أول صدام مسلح مباشر بين الانجليز والقواسم؟(١٩).

وكما هو معهود من الحمية العربية عند دولة اليعاربة والقبائل العربية في الخليج العربي والتي شهد لها التاريخ بطولاتها عندما طاردت قوات اليعاربة البرتغاليين من سواحل إفريقيا الشرقية، فأجلتهم عن زنجبار وممباسة في سنة ١٦٦٢ فعاشت تلك البلاد في استقرار وازدهار إلى أن امتد التسلط البريطاني في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر الى شرق أفريقيا. مما دعا بزعماء تلك البلاد الى الاستنجاد بسليل زعماء البحار في الخليج وبحر العرب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي فكتبوا(٢٠) يستنجدونه على المستعمرين الانجليز الذين حلوا ببلائهم على العباد والبلاد في تلك البقاع. ومما جاء في رسالتهم الى الشيخ سلطان:ــ «الموصوف بأقل صفاته. المعروف برشح صفاته سلطان بن صقر القاسمي حرسه الله في حياته من فضيحة وفقر، وفي آخرته عن السعير وصقر. ومراد الورقة السلام عليكم وايصال أخبارنا إليكم وتذكير طاعتنا وشوقنا لديكم، أقول لك يا أمير المؤمنين متع الله بحياتكم المسلمين وأيد الله بك الدين ونصر بجندك المجاهدين فإن ملوك أهل الاسلام ضيعوا الشريعة، ولينوا أركانها المنيعة، ونادوا سلاطين الكفار، واستمدوا على أهل الأمصار حتى أنزلوا القرين في عدن سمية الجنة وأقدم مسكن. أحلهم الله دار البوار وانتقم منهم بعذاب النار وذلك من الرعب المقذوف في قلوبهم، وهذا من جملة عيوبهم والواجب عليكم تقويمهم، لاقامة الحنيفية وإظهارها ولذب رافضيها عنها وإشهارها ونحن أهل بادية وأصحاب ماشية. لكننا أولو قوة وأولو بأس شديد وأصحاب جرد ومرد وعد عديد لكننا ناؤون عن الساحل لانصله إلا بشق الأنفس والرواحل. لكن بحمد الله قد طلع من الساحل نجم ثاقب وأسد رابض راقب، لزم وألزم التوحيد ونفى الشرك والتنديد وهو السلطان الصالح الناصح الحاج العاقل فارح. سلمه الله وحياه وحرسه وهداه وبياه، فصار واسطة بين الطرفين ومأوى لكلا الفرقين. وقد بحث هو وسلاطين المسلمين بالاستخبار وساس قوانينهم باعتبار. فتحصل له من مناقبك ما أسر خواطره، وحرك مشاعره ولميثاقه مع محمد بن سالم بن على، عليه رحمة ربه العلى عن المنكر وذكرهم بهول القيامة والمحشر وأطع الله وأطع الرسول. اذ كل راع عن رعيته مسئول، وجاهد الكفار والمنافقين وأقم الحدود على الكافرين والزناة والسارقين فلايجوز لك أن تهادن الكفار فوق أربعة أشهر، ووجب علينا إتباع الأمير الموحد المجاهد الامر الناهي القائم المساعد ونحن معدودون من رعيتك ومستريحون بمعيتك فساعدنا بيدك ولسانك، لقوله صلى الله عليه وسلم (المؤمنون يد واحدة على من سواهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا). ونحن، محتاجون إلى مدد وحتى كلامك يكفينا إذا أمرت السواعي المسافرة إلينا، أن يقوموا معنا ويجاهدوا في سبيل الله، بحيث إذا جاؤا عندنا مايخالف أحد من

الصومال لأنهم يهابون إذا سمعوا أن السلطان ابن صقر قائم للجهاد فيهابون ويقولون كلهم نحن من رعيته هذه السواعي المسافرة تكفينا بحول الله وقوته وما ترى أن شاء الله إلا وهم داخلون تحت طاعته في سنة واحدة. ولايضر هذا البعد الذي بيننا لأن السواعي مقربة تحمل إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

واضافت الرسالة :ـ

فاجتهد في ضم ملك الصومال الى ملكك فان المملكة سعادة لمن أدى حقها شقاوة لمن طغى وآثر الحياة الدنيا. فيجب عليك أن تعاوننا باليد واللسان ويجب علينا السمع والطاعة... فيجب عليك أن تمدنا برجال وأموال. وتساعدنا بسواعي وأقوال، لأنك اذا أمرت السواعي المسافرة، والرجال المسافرة بالتناقيق والسفن ويحاربون معنا، الكلاب والكفار والعفن.

فنسأل لك بوجه الله الذي لايجوز رد السائلين به أن تساعدنا وتمدنا بالاعانة الواجبة عليك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما معناه (ان الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه) ويجب علينا السمع والطاعة، وعلى الله نصر المؤمنين فالله... الله لاتتساهل في كلامنا هذا فانه مجلب الظفر ومعلم النصر ومكسب الاجر وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

«ان الله بالغ امره، انا لننصر رسلنا والذين آمنوا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، أن الله قوى عزيز وكان حقا علينا نصر المؤمنين، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون والغالبون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، وما يعلم جنود ربك الا هو».

وقد نزلت من البادية البعدى، الى قرى الساحل القربى، عند الحاج الأفخر، والسلطان الأعز فازح حرسى. وأنا منتظر منك سعده الى الفتوح والأمر كله لله واليه يرجع الأمر كله. وجيوش البادية علينا، ولو تبغي ثلاثين ألف خيال لكن مالنا قوة في البحر غير الحاج فارح. لكن أصحابه وبنو أعمامه لايقومون للحق ويحسدون عليه، واذا جاءت سواعي منكم وذكروا أنك قائم معنا يهتابون ولا يتكلمون بكلمة، ولايقدرون أن يخالفوننا، فان لم تقدر ترسل لنا سعده مستعدة، فالله الله، قل للمسافرين الجائين من أراضيهم، أرسلنا السلطان صقر لنجاهد الكفار الذين في أرض الصومال مع الحاج على والحاج فارح، فان ذلك ينفعنا نفعا جما، وإن لك فيه أجرا لما. فأعينونا بقوة حتى نجاهد الصومال وندخلهم في الاسلام والايمان باذن الله الرحمن، ونملك فيهم بعون الله الملك المعبود لما سمعنا فيك من الخصال الحميدة والمناقب العديدة والفضائل السعيدة، والفواضل المفيدة فأحببنا أن نكون لك عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين.

وذكرت المصادر التاريخية أن الشيخ سلطان بادر الى مد يد العون والمساعدة ولم يتأخر عن تلبية نداء إخوانه في الدين في الصومال فأرسل هم مايمكن إرساله من الرجال والسفن.(٢١)

التجارة واجهة للغزو :

اعتمدت هولندا وانجلترا في دخولها إلى البحار الشرقية ومنطقة الخليج العربي على أسلوب تشكيل شركات تجارية خاصة أو مشتركة مع السلطات الحكومية في موطنها. حتى يكون تعاملها مع تلك البقاع مقبولا ومرحبا به من الأهالي ومن زعماء تلك البلاد. في حين فشلت الاساطيل الحربية الغازية التي قصدت احتلال بلدان أو جزر بالقوة ومن ثم تسير مصالحها التجارية كما فعل البرتغاليون.

لهذا استطاع الانجليز والهولنديون التسلل إلى منطقة الخليج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي إفريقيا. رغم أنهم وفروا لسفنهم التجارية ولمقار وكالتهم الحماية العسكرية. مما حولهم فيما بعد إلى مستعمرين ومحتلين لبعض تلك المناطق.

وكمثال على ما تقدم سبق لتاجر إنجليزي يدعى/ ريتشارد شان Richard Chan أن أسس في عام ١٥٥٥ شركة تحت اسم (شركة روسيا)(٢٢) إثر رحلته البرية الى روسيا في عام ١٥٥٣ ومن ثم

رحلة لبعثة شركته الى بلاد فارس برئاسة انتوني جانكسون. للحصول على الحرير الفارسي وكان ذلك في عام ١٥٦١.

وكذلك رحلة التاجر الانجليزي/ نيو بري New Beria في عام ١٥٨٠ عبر بلاد الشام والتي اعقبتها رحلة أخرى رافقه فيها عدد من التجار الانجليز مثل/ رالف فينش ووليام ديداز وجيمس سنوري. وقد أثمرت هذه الرحلات عن قيام معاملات تجارية مفيدة...

وفي حين كان التجار الهولنديون يقومون بدور تجار التجزئة بشرائهم البضائع الشرقية من لشبونة وبيعها في الدول الأوروبية الأخرى(٢٣)، كان البرتغاليون يحتكرون التجارة مع الشرق ويسيطرون على تلك البلاد وعلى الطرق الموصلة إليها.

وفي ١٦٠٠/١٠/٣ أسس مجموعة من التجار الانجليز شركة خاصة للاتجار مع الشرق مباشرة لاستيراد التوابل والحرير والعقاقير والعطور واللؤلؤ والجوهرات مقابل تصدير البضائع الانجليزية من المنسوجات القطنية والنحاس والقصدير. واختاروا أسما لها هو (محافظ وشركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية) تحول فيما بعد الى/ شركة الهند الشرقية(٢٤). واتخذت هذه الشركة شكلا رسمياً إثر إصدار الملكة اليزابيث الأولى مرسوما يمنحها الحق المطلق في احتكار التعامل التجاري مع الشرق.

وبذلك اقتحمت هذه الشركة أبواب الهند ومن ثم بلاد فارس ومنطقة الخليج العربي حيث اكتسبت مكانة وقوة بما لقيته من دعم عسكري ورسمي بريطاني جعلها تتحكم في المنطقة وأدت الى دخول الاستعمار البريطاني إلى معظم مناطق شرق السويس. مستعينة بالتحركات السياسية والصلات الدبلوماسية ومن ذلك ما عرضه مبعوث الملك جيمس على الشاه عباس في عام ١٦١٧ لانشاء مؤسسات تجارية إنجليزية في فارس مقابل تعهد بريطانيا بالوقوف عسكرياً الى جانب فارس إذا تعرضت لغزو أجنبي(٢٥).

وإثر بدء انحسار التسلط البرتغالي على منطقة الخليج العربي أخذ الهولنديون والانجليز في التقدم للحلول مكان البرتغال في المنطقة. مخالفين بذلك الامر البابوي(٢٦) الذي منح ممتلكات الشرق للبرتغاليين وممتلكات الغرب للاسبان. وهما الدولتان الأكبر سطوة واتساعاً في اكتشافاتها البحرية وتجارتها الخارجية.

وبينما كان التجار في البلاد الواطئة يتعاملون مع التجار البرتغاليين في لشبونة كتجار تجزئة فيقومون بتصريف بضائعهم في البلاد الواطئة والبلاد الاوروبية الاخرى، وكنتيجة لما واجهوه من مضايقات في تجارتهم مع البرتغاليين إضافة الى ضعف التسلط البرتغالي اتجهوا للتعامل مباشرة مع بلاد الشرق.

ففي عام ١٥٩٢ عقد كبار التجار الهولنديين اجتماعاً في امستردام قرروا فيه إنشاء شركة للتجار مع الهند ونظراً للسرية المطلقة التي فرضها البرتغاليون على الطريق الى الهند. انتدبت الهيئة التجارية الهولندية عنها المستر/ كورنيليوس دي هوتمان الى لشبونة لجمع المعلومات حول التجارة البرتغالية مع الهند. كما استطاعت الشركة الهولندية الحصول على المعلومات المطلوبة من الأسقف الهولندي/ هيوبن ڤان لينشوتن Hubhen Van Linschoten (٢٧) الذي نشر بعد عودته في عام ١٥٩٢ من رحلة الى الهند كأمين سر لكبير أساقفة حوا البرتغالي الذي كان يعرف نقاط القوة والضعف في تعامل البرتغاليين مع بلاد الشرق ومن ذلك أسرار الطريق الى الهند، وقد ضمت هذه المعلومات نتائج أبحاثه ودراساته مع ملحق خاص أوضح فيه المعلومات البحرية عن حركة السفن التجارية والرياح والتيارات والموانئ والجزر في الطريق الى الهند.

وفي عام ١٥٩٤ إجتمع تسعة من تجار شمال هولندا في أمستردام لمتابعة الموضوع وقرروا تأسيس شركة اطلقوا عليها اسم [شركة الأراضي البعيدة Company of Far land](٢٨) وأرسلوا في عام ١٥٩٨ اسطولا تجارياً الى جزر الهند الشرقية عبر طريق الرجاء الصالح لاحتكار تجارة التوابل

في الشرق يحمل تفويضاً رسمياً من الحكومة الهولندية بالعمل الحربي والسياسي والتجاري.

حقق الاسطول نجاحاً عظيماً فقد استطاع فتح ارخبيل جزر الهند للتجارة مع هولندا بعد أن عبر رأس الرجاء الصالح وعقد اتفاقية تجارية بين هولندا وملك بانتام كما حقق ارباحاً مالية بلغت أكثر من ٨٠ الف فلورين. وذلك بالرغم من فقدانه عدداً كبيراً من بحارته وغرق إحدى سفنه.

ويعزو المؤرخون نجاح هذا الاسطول الى خبرة ودراية قائده/ كورنيلس هوتمان Cornelis Houtman الذي سبق له زيارة الشرق عدة مرات وجمع معلومات مهمة عن الطرق البحرية للشرق.

وتوالت رحلات الأساطيل التجارية الهولندية الى الشرق حتى انه قدر عدد السفن التجارية الهولندية التي زارت الشرق وجنوب شرق آسيا في عام ١٦٠١ بخمس وستين سفينة، سيطر الهولنديون خلالها على عدد من المستعمرات البرتغالية في أرخبيل أندونيسيا وأنشأوا عددا من المستعمرات في تلك الأرجاء.

وأمام هذا النجاح والتوسع الهولندي تنادى التجار الهولنديون الى اجتماع في ١٦٠٢/٣/٢٠ بتوجيه من الرئيس الهولندي/ جوهان فان أولدن بارنوفلت Johan Van Olden Bornovelt وقرر التجار توحيد مؤسساتهم تحت اسم شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ٦,٥ مليون فلورين. وتم دعم الشركة بمرسوم أصدره مجلس طبقات الأمة يمنح بموجبه الشركة حق احتكار التجارة في الشرق وخولها سلطات واسعة في عقد المعاهدات والمحالفات والاتفاقيات لفتح ماتشاء من الأراضي وتأسيس القواعد وغير ذلك لمدة واحد وعشرين عاماً.(٢٩)

واستطاع الهولنديون كسب ود الدولة العثمانية من خلال اعترافهم بتبعية اليمن للدولة العثمانية، وقامت السفينة الهولندية /تاسو/ بقيادة بيتر فاندون بروكة بزيارة موانئ اليمن ووصل الى مسقط. وحصل على كتاب من باشا صنعاء يأمر فيه رعاياه باستقبال الهولنديين في كل مكان.

ونجح الهولنديون بعقد معاهدة في عام ١٦٠٤ مع امبراطور ملبار الهندي تنص على طرد البرتغاليين من الهند.

وفي عام ١٦١٨ أصدر السلطان العثماني فرمانا يخول الهولنديين حق مزاولة التجارة بالبحر الأحمر، لكن الهولنديين استولوا على مجموعة من السفن البرتغالية التجارية مما أثار سخط تجار عمان وجنوب الجزيرة مما أدى الى قيام السلطات العثمانية بطرد المعتمديات التجارية في جنوب الجزيرة وعدم تجديد امتيازتها(٣٠).

ونجح الهولنديون ايضاً في الاتفاق مع شاه فارس ــ الشاه عباس ــ على حصولهم على حصة من الحرير الفارسي. والذي لم يستطع الا الموافقة باعتبارهم ساهموا مع الانجليز في عام ١٦٢٥ بالحرب ضد البرتغاليين وفي إجبارهم على التخلي عن هرمز. فكان ذلك الاتفاق بداية لتوطيد أقدام الهولنديين في منطقة الخليج العربي. وبوفاة الشاه عباس في عام ١٦٢٩ خسر الانجليز صديقاً وفياً لهم. في حين وطد الهولنديون أقدامهم في فارس واستطاعوا أن ينتزعوا من الانجليز حصة الأسد بتجارة الحرير. ولم يبزغ عام ١٦٤٠ حتى كان للهولنديين مركز الصدارة في الخليج العربي ويهيمنون على التجارة مع بلاد فارس. بينما كان البرتغاليون مازالوا يحاولون دون جدوى استرجاع منزلتهم التي فقدوها في الخليج(٣١).

الحملات ضد العرب:

لقد كان اندفاع القوى الأجنبية للسيطرة على الخليج العربي ذات محورين الأول فارسياً والثاني أوروبياً مع تدخل هذين المحورين ضمن دائرة واحدة يعمل الفرس على إشغالها كلية عن طريق التحالف مع أية قوة أوروبية تزحف نحو الخليج العربي للسيطرة عليه وضرب القوى العربية فيه ومن ثم الانفراد بالهيمنة على المنطقة(٣٢) .

في مطلع القرن السادس عشر اندفع البرتغاليون نحو البحار العربية للتحكم بها

والاستيلاء على منافذ التجارة العربية بين الشرق والغرب. فكان احتلال جزيرتي هرمز وقشم ومن ثم فرض البرتغاليون سيطرتهم على موانئ الخليج العربي في كلا ساحليه. وقابل ذلك التحرك تحرك فارسي مماثل تزعمته الأسرة الصفوية التي تسلمت السلطة في بلاد فارس عام ١٥٠٠ فالتقت تطلعاتها مع الغزو البرتغالي وتوجت ذلك بمعاهدة تحالف عسكري للعمل المشترك في عام ١٥١٥. نصت على أن تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول أيدي الفرس لشن هجوم على البحرين وعلى القطيف(٣٣) وإستمرت تلك العلاقة حتى ظهور الهولنديين والانجليز في مطلع القرن السابع عشر كقوى جديدة في المنطقة الأمر الذي أدى الى متغيرات في التوجه السياسي الفارسي حيث عمل الشاه عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) على استثمار الوضع الجديد للضغط على البرتغاليين كي ينسحبوا من البحرين ليكون بديلهم في احتلالها.

ومما رجح كفة الهولنديين على الانجليز طوال القرن السابع عشر تقريباً.. أن الانجليز رفضوا الاشتراك بأي عمليات عسكرية مع الفرس ضد الدولة العثمانية أو ضد البرتغاليين نظراً لمصالحهم الأخرى في مناطق غير منطقة الخليج. وهذا ماسبب لهم مشاكل في فارس استغلها الهولنديون لصالحهم(٣٤) الا أن الهولنديين عانوا بعد ذلك بعض المضايقات وخاصة بعد الاحتلال الأفغاني لايران في عام ١٧٢٢ حيث وجه الأفغان انذاراً للهولنديين في عامن ١٧٢٧ بإغلاق وكالتهم في بندر عباس خلال مدة لاتتجاوز اسبوعاً(٣٥).

وفي خضم ذلك الوفاق بين الفرس وكل من الانجليز والهولنديين على حساب عرب الخليج واقتناصاً لحقوقهم الوطنية والاقليمية. واستلاباً لارزاقهم ومعيشتهم وتجارتهم. كونت دولة اليعاربة اسطولا بحرياً قوياً ـ كما أشرنا سابقاً ـ للذود عن حياض الوطن وتحرير المواقع والبلدان التي تعرضت للاحتلال البرتغالي والفارسي. ولمقاومة الغزو البحري الأجنبي المعادي للموانئ والأسواق التجارية.

من هنا كانت المحاولات الفارسية والهولندية والانجليزية لقهر الاسطول العربي اليعربي. الا أن هذه المحاولات في كثير من الاحيان لم تنجح وكان مصيرها الفشل في حين أخذ الاسطول يزداد قوة وسطوة، خاصة بعد ملاحقته البرتغاليين وانتزاع ممباسا منهم في ١٦٩٨/١٢/١٤ حيث كانت هذه المعركة بمثابة النهاية للتفوق البرتغالي. فازدادت ثقة العرب بأنفسهم وبحقوقهم بعد الانتصارات المتلاحقة التي أحرزوها في شرق إفريقيا والهند. حتى أن رئيس شركة الهند الشرقية الانجليزية وصفهم:ـ (بأنهم أصبحوا شديدي الغطرسة، ولايوجد من يمنعهم من القيام بشن هجمات على كل السفن التجارية باستثناء سفن شركة الهند الشرقية ذاتها لاقتناعهم بتفوق اسطول الشركة على اسطولهم)(٣٦).

لكن اقتناع رئيس شركة الهند الشرقية بتخوف الاسطول العربي من الاسطول الانجليزي لم يذهب بعيداً. حيث أن السفن الانجليزية لم تنج من هجمات السفن العربية فقد هاجمت سفينتان عربيتان في تلك الفترة احدى السفن الانجليزية الخاصة وكانت محملة بالمنتوجات الهندية في طريقها الى بندرعباس. وهي أول حادثة معروفة يتعرض فيها البحارة العرب للسفن الانجليزية.

وكان الفرس في محاولات دائمة للسيطرة على موانئ الخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي مستغلين توافق المصالح مع الحملات الأوروبية على منطقة الخليج، مستعينين تارة بالبرتغاليين وتارة بالانجليز وأخرى بالهولنديين ورابعة بالفرنسيين. وكانت تلك القوى تتصرف وفق ما تمليه عليها مصالحها وعلاقاتها سواء المحلية أو الخارجية.

ومن ذلك أن حاولت السلطات الفارسية في صيف عام ١٦٩٩ الحصول على مساعدات فرنسية ضد العرب العمانيين بعد أن رفض كل من الانجليز والهولنديين تقديم المساعدة، وفشل البرتغاليون أيضاً في تقديم مساعدات فعالة للقوات البحرية الفارسية. فبعث محمد مؤمن معتمد الدولة الفارسية مذكرة للملك لويس الرابع عشر للدخول

بحلف عسكري مع فرنسا لاحتلال مسقط، وقد نصت المذكرة على:ـ ان مشروع الاحتلال يحتاج الى ثلاثين الف جندي وعدد من السفن لنقلهم الى الساحل العماني، واشترط أن تكون نفقات الحملة مناصفة بين الدولتين وكذلك الغنائم التي يحصل عليها الطرفان المتحالفان. وتناولت المذكرة ايضاً التفصيلات الى حد أنها أوضحت ما سوف يسلم للفرنسيين من حصون حول مسقط، وما يختص به الفرس. فللفرنسيين حصنا جلالي وماراني بينما يحتل الفرس بقية الحصون الداخلية(٣٧). ولكن هذا الحلف لم تنفذه، فجدد الشاه بعد ذلك عروضه للفرنسيين فأرسل في عام ١٧٠٣ خطابا الى الملك لويس الرابع عشر لانشاء علاقات دبلوماسية بين الدولتين على مستوى السفراء لتنسيق العلاقات الاقتصادية وغيرها بين البلدين. وأدت الاتصالات الى عقد اتفاقية عامة في عام ١٧٠٨ أتبعها الشاه في عام ١٧١٥ بمبعوثه/ محمد رضا بك سفيراً له لدى فرنسا والذي طلب لدى مقابلته الملك الفرنسي لويس الرابع عشر أن تبادر فرنسا بإرسال اسطول الى مياه الخليج ليقاتل في صفوف الفرس من أجل احتلال عمان(٣٨) بناء على الوعد الشفوي الذي قدمه السفير الفرنسي ميشيل الى الشاه في وقت سابق. ولم ينجح الفرس هذه المرة أيضاً في جلب الاسطول الفرنسي لمساعدتهم ضد العرب فقد وجد الفرنسيون أن ذلك ليس في صالحهم لاسيما وأن الاسطول العربي ذو شدة وبأس.

لقد كان للاسطول اليعربي وبحارته الاقوياء من القواسم وغيرهم هيبة في البحر وفي مواجهة الأعداء مما جعل الانجليز والهولنديين يحسبون لأية خطوة يخطونها ضد العرب مباشرة أو مدهم يد المساعدة للدولة الفارسية، يحسبون الف حساب حتى أن القائد الانجليزي الكسندر هاملتون وصف الأسطول العربي في تلك الفترة وصفاً دقيقاً حين قال بأن الاسطول العربي في عام ١٧١٥ كان يتكون من سفينة كبيرة تحمل أربعة وسبعين مدفعاً وسفينتين أقل حجماً تحمل كل منها ستين مدفعاً، وواحدة أخرى ثبت عليها خمسين مدفعاً. وثماني عشر سفينة صغيرة تحمل كل منها ما بين أربعة الى ثمانية مدافع. وبفضل هذه القوة البحرية مد العرب نفوذهم من رأس قران حتى البحر الأحمر. وكما يقول د. صلاح العقاد في كتابه - التيارات السياسية - إنه رغم رابطة الدين التي جمعت بين العرب والفرس فإن الصراع كان شديداً في ذلك الوقت ولم يتردد حكام فارس من الاستعانة بالقوات الأوروبية لمهاجمة العرب، وفي النهاية كان الأوروبيون هم المستفيدون من هذا الصراع(٣٩).

وواصل الاسطول العربي حملاته التحريرية للذود عن الارض العربية وتحريرها من الاحتلال فقد أرسل الامام سلطان بن سيف اليعربي في عام ١٧١٧ حملة الى جزر البحرين لتحريرها من الاحتلال وقد تمكنت هذه الحملة من طرد الفرس من الجزيرة وتابعت مسيرتها الى الجزر المحتلة الأخرى وتتبعت السفن الفارسية على الساحل الشرقي للخليج حتى حاصرت جزيرة قشم وركزت على مدينة لافت وهرمز. وفي عام ١٧١٧ كادت هرمز أن تسقط في أيدي البحارة العرب(٤٠) لولا تدخل البرتغاليين الذين هرعوا لمساعدة الفرس بقوة كبيرة، وفك الحصار عن هرمز ومن ثم الاستيلاء على البحرين ثانية.

وفي عام ١٧١٩ وصل أسطول برتغالي آخر الى الخليج ودارت معارك عنيفة بينه وبين الاسطول العربي، اضطرت فيها السفن العربية للانسحاب الى رأس الخيمة.

ثم كان الاحتلال الأفغاني لايران في اكتوبر ١٧٢٢ فزالت الدولة الصفوية وسادت الفوضى البلاد الفارسية وعم الاضطراب وكسدت التجارة وتوقفت حركة الصادر والوارد. وهكذا ايضاً كان شأن الدولة اليعربية التي سادتها الخلافات والانقسامات.

ورغم الظروف الصعبة المحيطة بالمنطقة من اضطرابات وصدامات وتدخلات أجنبية عدوانية. فقد استمر الاسطول العربي بقيادة القواسم في حروبه ضد الغزو الاجنبي للخليج ووقفت السفن العربية بكل صلابة تواجه الاطماع الشرسة الرامية للسيطرة على الجزر والموانئ العربية.

ولاستعادة مكانتهم قدم الهولنديون مساعدات عسكرية بحرية كبيرة الى الفرس ضد العرب الذين كانوا يغيرون على مواقع عربية على الساحل الشرقي للخليج لتخليصها من الاحتلال الأجنبي كما قدم الهولنديون المساعدة للفرس في عام ١٧٣٧ في حملة بحرية ضد قبائل البلوش بقيادة الملك دينار.

وفي عام ١٧٤٠ قدم الهولنديون مساعدات بحرية للقائد الفارسي/ محمود تقي خان ضد البحارة العرب العاملين في الاسطول الفارسي ـ الذي سبق ذكره ـ ولاستعادة السفن الفارسية التي يسيطر عليها العرب. ولكنهم فشلوا في ذلك(٤١).

كما استعان نادر شاه بالهولنديين ضد القائد الفارسي محمود تقي خان حاكم بندر عباس. وكافأهم على ذلك بان قدم لهم التسهيلات التجارية وسمح لهم بإنشاء مقيميه تجارية في ميناء بوشهر سنة ١٧٤٧، وبعث الهولنديون بعد ذلك بسفينة هولندية كبيرة الى بندر عباس من تبانيا بقيادة مينهر سكوند يورت M. Secondeiwort يرافقه عدد كبير من الجنود الهولنديين مجهزين بأحدث المعدات القتالية وكميات ضخمة من البضائع بهدف إدخال الفزع في نفوس الأهالي وخاصة في نفوس القبائل العربية. وكذلك ليسوقوا بضائعهم. ولكنهم في وقت لاحق أصيبوا بخيبة أمل لأن العرب لم يأبهوا لقوة الهولنديين. في ٢٣ ابريل ١٧٥٣ هجم عرب جزيرة قشم على السفينة الهولندية/ نانسي Nancy بالقرب من ميناء لافت واستولى عبد الشيخ حاكم الجزيرة على معظم حمولتها قبل إغراقها.

ومع أن السلطات الهولندية لم تكل في محاولتها للمحافظة على ما وصلت إليه من مكانة وسلطة في منطقة الخليج العربي فقد وجدت أن بقاءها في بندر عباس أصبح مستحيلا مما اضطرها لاغلاق وكالتها في بندر عباس سنة ١٧٥٩(٤٢).

الهولنديون وعرب الخليج

عندما قرر الهولنديون فتح أسواق لهم ومراكز تجارية في بلاد الشرق عامة والخليج العربي خاصة. اتجهوا للتعامل في أهم المواد والسلع التجارية رواجاً في كلا الاتجاهين فكان حصولهم على التوابل والحرير واللؤلؤ يمثل قمة النجاح، كما أن بيعهم لمنسوجاتهم الصوفية في أسواق المناطق الباردة يعتبر أيضاً قمة النجاح. ولهذا الغرض فقد كانت هولندا أكثر القوى إسهاماً في تصفية الوجود البرتغالي في البحار الشرقية في نهاية القرن السادس عشر وبالتالي كانت أكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية. حتى أنه لم يحل عام ١٦٤٠ الا وكانت البضائع الهولندية تغرق أسواق بندر عباس وتنتشر في المنطقة. ومن ذلك استطاع الهولنديون ان يحققوا أرباحاً طائلة عن طريق احتكارهم لتجارة التوابل فقد كانت سفنهم تجوب الموانئ العربية والهندية بحرية تامة(٤٣).

وتتابعت بعدها اعمال تدعيم النفوذ الهولندي في الخليج فقد هاجم اسطولهم جزيرة قشم في عام ١٦٤٥ وأعلن سيادته عليها واضطر الشاه الى الاعتراف بهذه السيادة.

ومن منطلق العداء المشترك للوجود البرتغالي فقد ساد العلاقات الهولندية اليعربية العمانية لون من الود، بدى واضحاً بإعراب الهولنديين عن سرورهم لاسترداد العرب العمانيين مدينة مسقط من البرتغاليين في عام ١٦٥٠ وقد أدى ذلك الى زيادة وتضخم التجارة الهولندية في المنطقة.

واستمراراً لسياسة التفاهم بين الطرفين قدم الامام سلطان بن سيف الأول في عام ١٦٥١ عرضاً مغرياً للهولنديين يختص بتسهيل انتقال بضائعهم عبر الاراضي العمانية الى البصرة بدلا من بندر عباس ـ جامبرون ـ وكان لهذا العرض أهمية كبرى للطرفين.

وفي عام ١٦٥٤ وضع الهولنديون خطة لارسال تجارتهم الى جلفار ـ رأس الخيمة ـ لشراء اللؤلؤ. فقد جاء في تقرير(٤٤) للحاكم العام الهولندي في

بتافيا الى مدراء الشركة في هولندا بتاريخ ١١ نوفمبر ١٦٥٤ حول تجارة اللؤلؤ في منطقة جلفار، بقوله:ـ

«برأينا أنه إذا فخامتكم ترغبون في المضي بهذه التجارة، فإنه يتوجب إرسال شخصين ماهرين ومختصين من التجار القديرين الى البحرين أو الى جزر جلفار قبل بعض الوقت من بدء موسم الصيد ـ الغوص ـ المعتاد، حيث يتم صيد هذه الجوهرات. ومن الواجب إبلاغهما بالبقاء من بداية موسم الصيد حتى نهايته. وهكذا يتعرفون شخصياً على طريقة العمل التجاري المتبع في تجارة اللؤلؤ.

وتعتبر هذه الوثيقة بمثابة الاشارة الى أولى الخطوات المتخذة لتأسيس علاقات تجارية بين الواطئة ـ البنولوكس ـ وبلاد الامارات الخليجية. ورغم أن تجارة اللؤلؤ الهولندية لم تلق النجاح المرتجى، الا أن الهولنديين كانوا في كثير من الأحيان يدرسون إمكانية إقامة علاقات تجارية مع العرب الذين وجدوا فيهم تجاراً متفهمين لطبيعة هذا العمل وأكثر وداً من التجار الفرس المتشددين(٤٥).

وكما أسلفنا بأن الهولندين جاؤوا الى الخليج في عام ١٦٢٣ الى جانب البريطانيين وانشأوا لهم مركزاً في بندر عباس حيث كانت شواطئ الامارات آنذاك لازالت خاضعة للنفوذ البرتغالي. وكنتيجة لاتساع التجارة الهولندية مع بلاد فارس قام الانجليز بتحريض الشاه عليهم، وقد نجحوا في ذلك مما أدى الى قيام الاسطول الهولندي بغارة تأديبية على بندر عباس في عام ١٦٨٤ التي كانت خاضعة للشاه آنذاك.

لم يكن اليعاربة على استعداد لاستبدال السيادة البرتغالية بسيادة هولندية خاصة مع وجود قوة بحرية عربية يمثلها الاسطول العربي الذي يجوب مياه الخليج العربي والمحيط الهندي ناشراً الرعب والذعر في قلوب الشركات الأجنبية في هذه البقاع.

وكان طبيعياً أن يحدث احتكاك بين الهولنديين واليعاربة والذي بدأ منذ عام ١٦٩٥ وما بعدها. حيث أخذت السفن اليعربية تهاجم السفن الهولندية في مياه الخليج وفي مياه المحيط. وتفاقم الصراع بين العرب والهولنديين الى حد كبير، ويرجع ذلك الى نشوب صراع بين البحارة العرب والفرس مما جعل الفرس الذين ليس لهم قبل بالبحر أن يستعينوا بالهولنديين ضد البحارة العرب الذين ثاروا على الفرس بعد أن تعاقدت معهم على العمل تحت رايتها ولكنهم قتلوا قائدهم الفارسي إثر توجيههم لمقاتلة أشقائهم العرب في مسقط. فاستولوا على الاسطول الذي كان يتكون من ثلاث سفن كبيرة وثلاث سفن صغيرة ومركب شراعي بساريتين. فاستنجدت الحكومة الفارسية بالهولنديين الذين سارعوا بسفينتين على كل منها عشرون مدفعاً، بحثاً عن الثوار العرب واشتبكوا معهم في معركة حامية كان من نتيجتها أن أغرق العرب إحدى السفينتين وعاد الهولنديون الى قاعدتهم دون أن يحققوا شيئاً لحليفتهم دولة الفرس.

ومدت بعدها الشركة الهولندية الفرس بسفينتين من نوع الغراب لمواجهة القوة العربية وإثر ذلك دارت مناوشات بين الجانبين أفزعت القوة الحليفة فسارعت الى الفرار واللجوء الى ميناء كنج.

وتشير الكتابات التاريخية الى أن الهولنديين لم يكونوا يثقون بالفرس الا أنهم قدموا لهم مساعداتهم تلك طمعاً في منحهم إحدى جزر الخليج العربي لاتخاذها مركزاً مستقلا لهم عن جميع القوى المحلية(٤٦).

أما عن رأس الخيمة التي كانت معروفة آنذاك باسم /جلفار/ والتي تحررت من النفوذ البرتغالي في عام ١٦٣١ فقد بدأت بعد ذلك التاريخ تستعيد مكانتها التجارية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت جلفار في حوالي عام ١٧٠٠ مركزاً مهما للتجارة الدولية حيث عمل الهولنديون على التعامل معها(٤٧). الا أنه لم تكن لديهم الرغبة في منافسة العرب في تجارتهم ذلك أن العرب هم أنفسهم تجارة وتجار يستطيعون تقديم البضائع بأسعار أرخص من التجار الأوروبيين.

ومن بين أوجه التعاون ما أشار إليه تقرير لرئيس المؤسسة الهولندية في (جامرون) الى الحاكم

العام الهولندي في الهند الشرقية بتاريخ ٢٧ يناير ١٧٠٢ تتعلق بسفينة هولندية متوجهة من الهند الى جلفار ـ رأس الخيمة ـ حيث واجهت السفينة طقساً سيئاً من أمواج عالية وعاصفة رعدية. مما اضطرها للرسو في بارسالور وانزال حمولتها من البضائع ووضعها في مقر شركة الهند الشرقية الهولندية هناك انتظاراً لتحسن الطقس وعندها حملت السفينة بضائعها إضافة الى بضائع أخرى لتاجر عربي ولاثنين من سكان (كانورا) متوجهين الى جلفار(٤٨).

إن النمو التجاري للدولة اليعربية ونمو الموانئ العربية مسقط وجلفار والبحرين وحصولها على مكانة تجارية مؤثرة جعلتها في طليعة الفعاليات الاقتصادية العربية آنذاك جعل هذا النمو وما اكتسبته عمان من قوة كان ذلك سبباً مثيراً وداعياً للغضب في بلاد فارس. مما أدى الى معارك حربية والى قيام تحالفات بين الفرس والبرتغاليين ضد العرب. ومن ذلك كانت هناك معركة بحرية في رأس الخيمة في عام ١٧١٨ والتي حاول فيها البرتغاليون حصار البحرية العربية هناك، ولكن دون فائدة. وفي الجهة المقابلة من الخليج كان شيخ رأس الخيمة رحمة بن مطر قد حاصر جزيرة هرمز لمدة طويلة، ولكنه لم يكن مستعداً لمواصلة هذا الحصار حتى يجبر القلاع فيها على الاستسلام(٤٩).

وقد كشف رسالة بعث بها الشيخ رحمة بن مطر ـ القاسمي ـ الى المعتمد الهولندي في الخليج بتاريخ ١٧١٨/٢/٢١ أعرب فيها الشيخ رحمة عن مشاعر الود والصداقة والاعتزاز بالعلاقات الودية بينه وبين الهولنديين. وأبدى اعتذاره عن مصادرة البحارة القواسم لمركب أجنبي فيه ثلاثة أشخاص أجانب، اتضح فيما بعد ان المركب هولندي. وأنه لذلك اطلق سراحه وسراح الأشخاص الثلاثة(٥٠).

ثم كان رد المعتمد الهولندي المفعم بعبارات الود والشكر لاطلاق سراح المركب والأشخاص الثلاثة المشار اليهم وكذلك الاعراب عن المطالبة بإطلاق سراح محتجزين آخرين أجانب لدى القواسم في لاراك.

ومما يعكس تلك العلاقات ايضاً رسالة بعث بها رئيس المؤسسة الهولندية في بندر عباس في شهر اكتوبر من عام ١٧٢٨ الى مبعوث المؤسسة في جزيرة هرمز جاء فيها:ـ إن الشيخ رحمة الرئيس القوى لجلفار. هو رجل معروف جداً لي. وقد حاول التملك في هرمز. وإنه عندما يريد ذلك الرجل تأسيس مكانته هناك، فإنه من الممكن أن يساهم كثيراً في إنجاح التجارة في هرمز لأن ذلك الصديق معروف بأنه من أغنى الأغنياء ومن أقوى التجار في الجزيرة العربية. وفي المنطقة المحيطة بنا بالذات (الخليج الأدنى). وانه إذا كان شخصياً سيحضر الى هرمز (واني غير متأكد من ذلك وفيما إذا كان بقاءه في هرمز ملائماً لشعبه) فإنه من الامور الممتازة أن نقدم له الود(٥١).

لقد ساعد الهولنديون الشيخ العربي/ راشد بن مطر زعيم قبيلة القواسم آنذاك برأس الخيمة ـ جلفار ـ لتثبيت سلطته وحكمه في جزيرة قشم. وقد أنشأ الشيخ راشد في هذه الجزيرة قوة تجارية صغيرة مستقلة وفعالة.

فقد أحب الهولنديون الشيخ راشد إلا أن الانجليز فعلى العكس من ذلك تعاونوا مع الفرس ضده، ولكن راشد كان قوياً فقد حمى نفسه لمدة طويلة، والشيخ راشد اقام علاقات مع الادارة الهولندية في بندر عباس فقد كان هناك مراسلات بينهما محفوظة حتى الآن في خزائن الارشيف الهولندي. ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها في ١٧٣٢/٥/١٧ من جزيرة قشم جاء فيها:ـ(٥٢)

بعد التحيات.

لقد وصلتني رسالة سعادتكم الأفخم في الوقت المناسب، وكنت جداً سعيداً باستلامها، ولكن من جهة أخرى كنت آسفاً لعدم تمكني من الكتابة اليكم مبكراً من قبل لأن مسؤوليات عديدة حالت دون ذلك...

وقال:ـ إني اطلب من سعادتكم بكل الصداقة أن لاتعتقدوا بأني خائف من وصول محمد على خان مع قوة عسكرية كبيرة الى الاراضي المنخفضة في البلاد.. إن نفسي مرتاحة لأني لم أوذي أحداً، فكل ما عملته هو إقامة بلدة صغيرة ممتازة ومزدهرة جداً

تجارياً حيث لجأ اليها الفقراء واللاجئين المنهكين الذين كان همهم إيجاد مأوى يعيشون فيه.

لهذا لاأجد أي سبب للخوف أو الاكتراث، بل على العكس.. إني أجد الوقت مناسب لأعلن بأنه من حقي السعي لأخذ عرشه رداً على عدائه الأعمى..

كما انى أقيم بمكان محصن تحصيناً عظيماً حيث لايوجد هناك ما يدعو للخوف. أدعو الله أن يمنح جلالة ملككم الصحة الدائمة والسعادة في الحياة. ولمعلومات سعادتكم فإن الشهبندر، ميرزا محمد هو عضيد جيد ومساعد جيد لي..وتضمن الرسالة الكثير من عبارات الصداقة والود.

ورغم ذلك الود فقد كان الهولنديون يهبون وفق ماتمليه عليهم مصالحهم الى تقديم مساعداتهم للحملات الفارسية في حروبها ضد البحرين وساحل عمان، ففي عام ١٧٤٠ قام الاسطول الهولندي بمظاهرة عسكرية على إثر التمرد الذي قام به البحارة العرب في بعض قطع الاسطول الفارسي في ذلك العام. فقد ارسل وكيل مجلس جامبرون ـ بندر عباس ـ رسالة بهذا الخصوص بتاريخ ١٧٤١/١٢/١٠ إلى رئاسته قال فيها:ـ «ثار العرب في خدمة البحرية الفارسية وأخذوا بعضاً من السفن، لهذا قام الهولنديون بضرب الثوار العرب باثنتين من سفنهم، ولكنهم لم يكسبوا سوى القليل».

ووصف تقرير(٥٣) كتبه الهولنديان المقيان في جزيرة خرج T.F. Vankniphausen و J. Vander Hulst في عام ١٧٥٦ وصف منطقة الساحل الغربي للخليج العربي بين القطيف والصير ـ رأس الخيمة حالياً ـ فقال:ـ هناك ثلاثة مواقع بارزة على الساحل وهي:ـ الصير، جوهار، والشارقة. والتي يجلب لها الرز والتمر من البصرة ليباع الى عرب الصحراء والى غواصي اللؤلؤ.

الصير.. كما هو معروف محصنة جيداً وفيها عدد من المدافع ويسكنها عرب من قبيلة الهولا ـ المسمون بالقواسم. ويحكمها الشيخ رحمة بن مطر الذي يقال له أيضاً الشيخ كايد. وقد أيدته مختلف قبائل البدو العربية الصحراوية.

ويعتبر الشيخ رحمة في الواقع الأقوى في شيوخ وحكام عرب الهولا وقد سلح من جماعته أربعمائة رجل في مدينة الصير التي يتبعها ميناء جيد قادر على احتواء أكبر المراكب. وهناك تحت امرته حوالي ستين مركباً أغلبها كبيرة وواسعة ومزودة بكل الاحتياجات بشكل جيد.

وفي السنة الماضية لذلك التاريخ قام الشيخ رحمة بالتعاون مع ملا علي شاه حاكم بندر عباس الذي تربطه به قرابة المصاهرة. بحملة بحرية أعاد فيها مدينة لافت في جزيرة قشم الى السلطة العربية.

الهوامش

١ ـ عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٢.
٢ ـ دولة اليعاربة، د. عائشة السيار ص ٣٠ نقلا عن Dennis OP. Cit. P. 210
٣ ـ Ross. OP. Cit. P. 160
٤ ـ Badger: OP. Cit P. 67 & Miles OP. P. 204
٥ ـ Badger: OP. Cit. P. 66
٦ ـ لوريمر ج١، ص ١٢٧.
٧ ـ Ibid P. 220
٨ ـ Leckhart, Nadir Shah's Compaigns in Oman 1737 - 1744 P. 160
٩ ـ Dr. Slot. In the land of the White Tower, P. 6
١٠ ـ الوثيقة محفوظة في الارشيف ـ القسم الهولندي تحت رقم VOC 2476 - 182
١١ ـ Lockhart: Nadir Shah P. 184
١٢ ـ I.O.R.G 129 - 5 - 15th September 1740
١٣ ـ د. عبد الأمير محمد أمين، ص ٢٥
١٤ ـ جان جاك بيربي ـ الخليج العربي ص ٤٠.
١٥ ـ مخطوطة الجواهر واللآلي في تاريخ عمان الشمالي، عبد الله صالح المطوع.
١٦ ـ المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ـ فالح حنظل، ص ١٠٩.
١٧ ـ نفس المصدر السابق ص ١٢٦.
١٨ ـ دور القواسم في الخليج العربي، د. صالح العابد ص ٨٨.
١٩ ـ ابن زريق ـ الشعاع الشائع ص ٣١٤ ـ ٣١٥، وعائشة السيار ـ دولة اليعاربة ص ١٩٠.
٢٠ ـ كتاب وثائق عن الصومال، الحبشة وارتيريا ـ احمد برخت ماح ص ١٨٢.
٢١ ـ نفس المصدر ص ١٨٥.
٢٢ ـ وردت تفاصيلها في كتاب Haklay, Richard Voyages & Discoveries P. 91
٢٣ ـ Steensgard. OP. P. 121
٢٤ ـ لوريمر ج١، ص ٢٣.
٢٥ ـ د. خانبابا بياني، خليج فارس وربزبان صفوية، ص ٩٨.
٢٦ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولي في الخليج العربي ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
٢٧ ـ C.R. Boxer. The Dutch Seaborne Empire 1660 - 1800 P. 22
٢٨ ـ C.R. Boxer OP. Cit P. 233
٢٩ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولي في الخليج العربي ص ١٤٦.
٣٠ ـ جاكلين بيرين ـ اكتشاف جزيرة العرب، ص ٨٢.
٣١ ـ الخليج العربي. قدري قلعجي، ص ٣٨٦.
٣٢ ـ د. علاء الدين نورس ـ السياسة الايرانية في الخليج العربي ص ٧.
٣٣ ـ Lorimer, OP. Cit. Vol. 1, Part 1 A PP. 4- 5
٣٤ ـ ج.ج لوريمر ج١، ص ٦٢ ـ ٦٣.
٣٥ ـ د. محمود علي الداود ـ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ص ١٦.
٣٦ ـ Bruce's Annals- Vol. III P. 439

٣٧ ـ لورنس لوكهارت ـ انقراض سلسلة صفوية، ص ٥٠٩ ـ ٥١٠.
٣٨ ـ د. محسن عزيزي ص ١٢.
٣٩ ـ د. صلاح العقاد، ص٤٩.
٤٠ ـ سليمان الباروني ص ٥٦.
٤١ ـ محمد حسين قدوسي ـ نادر نامة ص ٢٠٢.
٤٢ ـ لوريمر ج١، ص ٢١٧.
٤٣ ـ دولة اليعاربة، د. عائشة السيار، ص ١٧٥.
٤٤ ـ وثيقة من الارشيف الهولندي رقم **Voc Vol. 1208**
٤٥ ـ تقرير لقبطان السفينة الهولندية (ميركات) عن رحلة لها في موانئ الساحل العماني ـ الامارات ـ رقم التقرير في الارشيف **Voc. 1259**

٤٦ ـ **Saldanha, Public Department Diary No. 10 of 1736, 1737 P. 56**
٤٧ ـ د. سلوت **Dr. B.J. Slot - in the land of the White Tower P. 3**
٤٨ ـ تقرير رئيس المؤسسة الهولندية في جامرون، تحت رقم ١٦٦٧ في الارشيف الهولندي..
٤٩ ـ د. سلوت ـ المرجع السابق ـ ص ٥.
٥٠ ـ الرسالة موثقة تحت رقم **Vol. 1913 P. 437 - 438**
٥١ ـ وردت الرسالة في الوثيقة رقم **Voc. 2114 - 3657**
٥٢ ـ الرسالة محفوظة في الارشيف الهولندي تحت رقم **Voc. 2254 P. - 1274 - 1278**
٥٣ ـ جاء هذا التقرير ضمن الوثيقة المعنونة ب **B - 23 - 1889 Aanwinsten le afdeling**

الاحتلال الفرنسي للجنوب الليبي

د. رجائي ريادة
دائرة التاريخ جامعة اليرموك / الاردن

الجنوب الليبي، يعتبر جزءا لايتجزأ من الصحراء الكبرى الافريقية، وقد استطاعت فرنسا احتلاله عسكريا بعد فترة وجيزة من حدوث الحرب العالمية الثانية، وبذلك انجزت مشروعها التي بدأت به منذ نهايات القرن التاسع عشر وهو السيطرة على الصحراء الكبرى بما فيها الجنوب الليبي، وفي هذا البحث سأتناول الكيفية التي تمت فيها السيطرة العسكرية الفرنسية على الجنوب الليبي والادارة العسكرية التي فرضتها عليه، ولما لم تكن القوى الأخرى بعيدة عن اطماع فرنسا في تلك المنطقة فكان لابد من العرض التاريخي لذلك الصراع الذي نشأ بين فرنسا وتلك القوى، كتمهيد لموضوع هذا البحث.

أولا: الاطماع الفرنسية في الجنوب الليبي والصحراء الكبرى من ١٨٩٠ وحتى ١٩١٤.

ان اهتمامات فرنسا في الصحراء الكبرى قديمة، لقد بدأت منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم زاد هذا الاهتمام بدءا من عام ١٨٩٠، وكانت هذه الاهتمامات تصطدم غالبا مع دول أخرى هي بريطانيا والمانيا، لقد عقدت عام ١٨٨٠ معاهدة بين انجلترا والمانيا حددت مصير شرقي افريقيا، ومعاهدة اخرى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٨٩٠ نتج عنها تقسيم غربي افريقيا(١)، وجاء في أحد بنود هذه المعاهدة «تعترف انجلترا بنفوذ فرنسا من البحر المتوسط حتى باروا على النيجر خط ساي على الساحل الغربي لبحيرة تشاد، ويقوم مفوضو الدولتين بتحديد الحدود وتثبيت مناطق النفوذ في غرب وجنوب النيجر العليا والوسطى وجنوبها»(٢).

وهذه المعاهدة كانت هامة بالنسبة لفرنسا وكذلك لبريطانيا، فبالنسبة لفرنسا فقد حددت لها منطقة نفوذ واسعة وأتاحت لها من ان تتمكن

من الوصول الى بحيرة تشاد التي تعد مفتاحا للمناطق الافريقية الاخرى، وقد أصبحت تشاد فيما بعد نقطة التجمع لممتلكات فرنسا الافريقية، اما أهميتها بالنسبة لبريطانيا، فقد سمحت لها المعاهدة ان تحصل على باب لافريقيا الوسطى، السيكوتو والنيجر وبنوي، لكن خطورة هذه المعاهدة تكمن في أن بريطانيا تعترف «بأن المنطقة الواقعة جنوب البحر المتوسط منطقة نفوذ فرنسية (جنوب البحر المتوسط) الى غابة ساي النيجر وباروا على بحيرة تشاد»(٣). وفي اعتقادي ان هذه المعاهدة كانت من اهدافها ايجاد تفاهم فرنسي بريطاني حول تقسيم المنطقة الى مناطق نفوذ.

واعقب ذلك ان فرنسا بدأت تعمل على تنفيذ تلك المعاهدة بالاستيلاء عليها، والنفوذ الى الصحراء يجب ان يكون من الشمال او من الغرب، وهذايتطلب ان تضع يدهاعلى غات وغدامس(٤)، وهي مناطق تابعة للحكم العثماني.

في هذا الوقت أخذت الدولة العثمانية تدرك خطورة الاطماع الفرنسية في المنطقة، خاصة في حوض تشاد، ولخوف الدولة العثمانية من اطماع فرنسا في الجنوب الليبي، حيث كانت تعتبر تشاد من دواخل هذا الجنوب حيث تنتمي لكتلة جغرافية واحدة، فقد أخذ الباب العالي يطالب في نوفبر ١٨٩٠ ان تتنازل فرنسا عن منطقة جانت(٥). وهذا الموقف جعل فرنسا تدرك انه لتحقيق اطماعها في الجنوب الليبي، سيؤدي الى الصدام مع الدولة العثمانية. وفي هذه الفترة، وجدت فرنسا انه يمكن تحقيق هدفها عن طريق السيطرة على الصحراء من الغرب، وكان امامها دولتان، الاولى دولة احمدو التي اسسها الشيخ الحاج عمر(٦)، والثانية هي دولة ساموري، أما دولة احمدو فقد هزمتها فرنسا بعد عدة هجمات خلال عامي ١٨٩٠ و١٨٩٣ وبذلك فتحت طريق تمبكتو امام الفرنسيين، وفي عام ١٨٩٤ استولت وحدة فرنسية على المدينة. اما دولة ساموري، فقد هزمت بعد مقاومة عنيفة، لبعدها عن الساحل وصعوبة الحصول على السلاح، فزالت تلك الدولة، وبذلك تم فتح طريق النفاذ الى الصحراء والسودان في غربي افريقيا، وتحقيق ايضا النفوذ السياسي على المنطقة بمعاهدة جديدة عقدت بين فرنسا وانجلترا عام ١٨٩٨(٧). ولم تكن معاهدة ١٨٩٨(٨) سوى تعديل لمعاهدة ١٨٩٠، وخاصة تعديل خط سايباروا بخط ساي ــ زندر باروا، وتوحدت الممتلكات الفرنسية في شمال وغرب افريقيا بالارتباط الصحراوي، وفي تلك الاثناء كان يحكم تشاد رابح منذ عام ١٨٩٣، فكان اقامة الترابط في غرب افريقيا ووسطها الفرنسيين تتعلق بالتفاهم مع انجلترا حول بعض التنازلات، وحل مشكلة رابح(٩). والتفاهم مع انجلترا تم اثر مفاوضات جرت في ذلك الوقت، تنازلت فيها فرنسا عن بحر الغزال والنيل الاعلى، وبدلا من النفوذ الانجليزي على دارفور تأخذ فرنسا اقليم واداي في تشاد الحالية باغرمي وكانم والندي وبورقو وتيبستي، مقابل ان تبتعد فرنسا عن موضوع مصر وما يتصل به من جوانب اخرى(١٠). وفي هذه المفاوضات كان يهم فرنسا ان تبتعد بريطانيا عن الصحراء الكبرى التي كانت شغلهم الشاغل، ويهم بريطانيا ان تبتعد فرنسا عن السودان ومنابع النيل لعلاقتها بالمشكلة المصرية، وبعد تحديد الاطماع بين الدولتين حسب الأسس التي اشرنا اليها عقدت معاهدة جديدة في ٢١ مارس ١٨٩٩، وفي أربع مواد جاءت في المعاهدة(١١)، صيغت فيها المناطق التي ترغب بها كل الدولتين خاصة تلك التي تتعلق بالصحراء الكبرى والتي كانت من نصيب فرنسا، واعتبر الفرنسيون ان حصولهم في هذه المعاهدة على تشاد وتيبستي تربطان افريقيا الفرنسية وتؤمنان السيطرة على طرق القوافل التجارية.

أما تنفيذ تلك المعاهدة، فكان يرتبط بتصفية دولة رابح(١٢)، وكان رابح هذا قد بدأ استقراره في منطقة تشاد بين عام ١٨٩٣ وعام ١٨٩٦، وتمكن من توسيع سلطاته على حساب الاراضي التشادية، وقد بلغ من القوة في تلك الفترة الى حد جعل المهدى في السودان يدعوه للانضمام اليه، ولكن رافعا اكتفى برفع شعار المهدية (لا اله الا الله

والله أكبر ولله الحمد)(١٣)، والواقع ان القوى الاسلامية في المنطقة ادركت خطورة المحاولات الفرنسية الجادة في السيطرة على الصحراء الكبرى حسب ما جاء في الاتفاقيات السابقة، ولكن الذى ظهر من واقع الأحداث التاريخية ان هذه القوى لم تنجح في التنسيق بينها للتصدى لهذا الخطر.

لقد بدأت الحملات العسكرية الفرنسية تصل الى تشاد سنة ١٨٩٩ وبذلك بدأ الاحتكاك المباشر مع الجنوب الليبي لأن الارتباط الجغرافى والبشرى واضح بين هذا الجنوب وتشاد، وكان هدف فرنسا هو القضاء على رابح في الوقت الذى تسعى فيه لوضع معاهدة ١٨٩٩ مع بريطانيا موضع التنفيذ، واستغلت فرنسا الظروف السياسية، فالسلاطين والأمراء الفارون امام رابح والذين فقدوا ملكهم على يده تحالفوا مع الفرنسيين، وتمكنت فرنسا بهذا التحالف من القضاء على رابح بالرغم من المقاومة العنيفة التي ابداها حيث قتل في ٢٢ ابريل من عام ١٩٠٠ في معركة عاجري قرب انجامينا(١٤)، ثم تمكنت من القضاء على ابنه فضل الله الذي ظل يقود المقاومة بعد أبيه عام ١٩٠١(١٥).

وكان يجب على فرنسا بعد ذلك ان تحتل كانم ووداي وبورتو وتيبستي، ولكن هذا الأمر كان يحتم عليها التفاهم مع الدولة العثمانية اولا بسبب دعوى حقوق على هذه المناطق وثانيا التفاهم مع ايطاليا التي كانت تراقب التحركات في ولاية طرابلس، ولذلك فان العمل الفرنسي سيكون ضمن هذين الاطارين.

علمت الدولة العثمانية بمعاهدة ٢١ مارس ١٨٩٩ من برقية تلقتها من سفيرها في باريس جاء فيها «ان اتفاقا قد تم حول دواخل ليبيا وطرق القوافل لتكون تحت النفوذ »(١٦). وكان يجب على الدولة العثمانية ان تتحرك لتواجه هذا الخطر، وكان هذا التحرك دبلوماسيا عن طريق سفرائها في كل من لندن وباريس، فكتب الباب العالى الى سفرائه في هذه العواصم«ان مناطق كانم ووداي وتيبستي وبورنو وشمال شرق بحيرة تشاد وطرق القوافل بين مرزق وتشاد قد تركت للنفوذ الفرنسي، وهذا يمس المصالح العثمانية، فعلى السفراء ان يعرضوا ذلك على وزراء الخارجية وان يستفسروا منهم عن نص المعاهدة»(١٧).

ان المواجهة الفرنسية مع الدولة العثمانية لم تتجاوز في هذه المرحلة التحرك الدبلوماسي الذي وضعته الدولة العثمانية، ولذلك فقد كان على فرنسا ان تسوي حساباتها مع ايطاليا وتؤجل الصدام مع العثمانين فقد كانت ايطاليا احدى الدول الأوروبية المعارضة للأطماع الفرنسية في مراكش، ومنذ سنة ١٨٨٠ وفرنسا تحاول جاهدة أخذ موافقة الدول الأوروبية ومنها ايطاليا للانفراد بمراكش والسيطرة عليها او تقسيمها فيا بينها وبين اسبانيا على أسوأ حال، وفعلا اجرى دلكاسيه (Delcass'e) وزير خارجية فرنسا مباحثات مع ايطاليا من اجل ذلك في عام ١٨٩٨، ولكن هذه المباحثات قطعت في ابريل من عام ١٨٩٩ حيث اشار وزير الخارجية الايطالية الى وجوب الحصول من فرنسا على تأكيدات مكتوبة تسمح لها باطلاق يدها في طرابلس(١٨)، ومما لاشك فيه ان توقيع فرنسا لمعاهدة ١٨٩٩ مع بريطانيا كانت ايضا من ضمن العوامل التي ادت الى قطع الاتصالات بين فرنسا وايطاليا والى تدهور العلاقات بين الطرفين.

لكن هذه الاتصالات استؤنفت(١٩)، وفي ٢٣ اكتوبر ١٨٩٩ كان ديلكاسيه على استعداد لاعطاء ايطاليا تأكيدات مكتوبة حول ليبيا، وفي المقابل تقوم ايطاليا بتأييد مطالب فرنسا في مراكش وجرت المفاوضات على هذا الأساس وتبودلت الرسائل بين وزير الخارجية الايطالي وكاميل باريير Ca. Barrer'e السفير الفرنسي في روما امتدت ما بين ٤ يناير ١٩٠١ و٣٠ حزيران ١٩٠٢ وتم الاتفاق في ١نوفمبر ١٩٠٢ على اساس ان ايطاليا اعطت فرنسا حرية العمل الكاملة في مراكش مقابل اعطاء فرنسا ايطاليا حرية العمل في طرابلس وبشكل متساو بين الطرفين(٢٠).

ومن ذيول هذا الاتفاق، تقديم فرنسا تعهدا لايطاليا يقوم على اساس ان فرنسا لن تجتاز الحدود التي رسمت في معاهدة ٢١ مارس ١٨٩٩

والمتعلقة بطرابلس وبنغازي، أي ان الجنوب الليبي ترك ضمن منطقة النفوذ الفرنسي، مقابل ذلك تعهدت ايطاليا لفرنسا بعدم الاهتمام لقضية المغرب(٢١). وعلى أثر ذلك تحسنت العلاقات بين الدولتين واستطاعت فرنسا ازاحة ايطاليا من طريقها على اساس انها كانت دولة معارضة لاتفاق ٢١ مارس ١٨٩٩ وانحصر الاهتمام الايطالي بطرابلس وبدا وكأنها في ذلك الوقت غير مهتمة بالجنوب الليبي.

وبذلك تكون فرنسا قد استطاعت التفاهم مع انجلترا وايطاليا واجلت الصدام مع الدولة العثمانية حيث انحصر هذا الصدام في المجال الدبلوماسي والدولة العثمانية كانت صاحبة السيادة على الجنوب الليبي وما يحاذيه من مناطق تدخل في الصحراء الكبرى.

لكن، ونتيجة للتطورات الاخيرة، فقد قامت الدولة العثمانية من طرفها بارسال الجنود الى بيلما التي هى اهم منطقة على طريقي السودان غات والسودان مرزق، وكان قد سبق ذلك احتلال فرنسا لكانم مما زاد من قلق الدولة العثمانية، حيث اصبح لديها شعور بوجود خطر فرنسي على وجودها في الجنوب الليبي، لذلك قامت بارسال مذكرة مطولة الى حكومة فرنسا في ٢١ مارس ١٩٠٢ على اساس ان ما فيها يثبت حقوق الدولة العثمانية فى الجنوب الليبي ومايحيط به من الصحراء الكبرى(٢٢). وتحرك القوات العثمانية نحو بيلما كان من اجل مواجهة الموقف المتمثل فى احتلال فرنسا لكانم ولدعم التحرك السياسي العثماني، وكانت الحكومة العثمانية قد كلفت متصرف فزان بارسال هذه القوات التي كانت في غالبيتها من الليبيين، كما قامت بتحصين غات وجعلها متصرفية(٢٣)، في الوقت الذى ابلغت فيه الدولة العثمانية سفيرها في باريس بأن بيلما وما يحيط بها من الصحراء الكبرى هي جزء من ليبيا وقد ارسلت اليها الراية العثمانية قبل اربعين عاما وانها منذ بضعة ايام قامت سلطات فزان بارسال الجنود اليها من اجل اثبات ذلك(٢٤).

لم توافق فرنسا على اعطاء الجهود السياسية العثمانية أى اعتبار واعتبرت التحرك العسكرى العثماني اعتداء على مناطق اصبحت تابعة لها ووضعت خطة عسكرية لمواجهة ذلك بالرغم مما ابداه العثمانيين من حسن نيه، فحاولت فرنسا مابين ١٩٠٢و١٩٠٦ ان تبسط سيطرتها على تجارة الصحراء والسودان وان تضع الطوارق تحت نفوذها، وبعد تجارب عديدة خاضتها في هذا المجال بدأت تحاول الدخول من جهة الجنوب بالتعاون مع القوات الافريقية التي كانت تعمل في خدمتها(٢٥)، وهزمت الطوارق (الهوغار) في تيت فياهاغار(٢٦)، واسفرت هذه المعركة عن احتلال بلاد الهوغار ودخول جزء منهم تحت الحكم الفرنسي. اما طوارق الازقر في غات فقد دخلوا حسب رغبتهم تحت الحكم العثماني، في الوقت الذى ارسل فيه الفرنسيون سرية الى ثارات مركز تجمع الأزقريين، في الوقت الذى غادر فيه رؤساء الأزقر الواحة واذ لمس الفرنسيون الجو العدائي الذى قابلهم به السكان مما جعل السرية الفرنسية تغادر جانت((Djanet))، في ٢١ ايار ١٩٠٥(٢٧).

وتضاعفت تحركات فرنسا في الصحراء بعد حصول التفاهم الفرنسي الانجليزي بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤(٢٨). فأخذت تحاول السيطرة على ما تبقى من الاماكن التي حددتها معاهدة ١٨٩٩ فاحتلت جانت وبيلما، وبالمقابل حرك العثمانيون وحدة عسكرية نحو جانت وحاولوا احتلالها كما وضعوا كتيبة في باراداي(٢٩)، ولكن فرنسا احتجت على ذلك بمذكرة قدمها السفير الفرنسي في استانبول في ٣٠ مايو عام١٩٠٦وجاءت فيها « ان المناطق التي خصصت لفرنسا في اتفاقية ١٨٩٩ ليست من مناطق الدولة العثمانية وانها ستقاتل تلك القوات التي ارسلت الى جانت بالقوة المسلحة». والحقت الحكومة الفرنسية المذكرة السابقة بمذكرة ثانية طلبت فيها وقف التحرك العثماني نحو جانت خشية وقوع اشتبكات مؤسفة، وفي مذكرة ثالثة قدمت بتاريخ ٢٣ يوليو١٩٠٦ جاء فيها «ان جانت اصبحت منذ عام ١٩٠٥ فرنسية، وان احتلال مناطق تابعة للنفوذ الفرنسي من الناحيتين

العملية والحقوقية سيجر وراءه مسؤولية كبرى»(٣٠).

وعلى اثر هذه التطورات قررت كل من الدولة العثمانية وفرنسا اتباع سياسة الوضع الراهن في منطقة جانت، ووجدت هذه الدول ان تحديداً للحدود لابد منه خاصة منذ عام ١٩٠٨، حيث لاحظت الدولة العثمانية ان الزمن يسير في مصلحة فرنسا وان تأخير تحديد الحدود يزيد من فقدان الممتلكات، أما بالنسبة لفرنسا فقد كان الوقت يقترب للتحرك في المغرب وايطاليا ترتقب الفرصة للاستلاء على ليبيا، وبناء على ذلك تمت الموافقة على تشكيل لجنة مشتركة للاجتماع في طرابلس من اجل تحديد الحدود.

بدأت فرنسا تضغط على الباب العالى ليعقد المؤتمر في وقت مبكر، ووافق على عقد المؤتمر في ١١ ديسمبر عام ١٩١١(٣١)، وكانت فرنسا تلح في تلك الاثناء على انهاء مشكلة الصحراء والجنوب الليبي مع الدولة العثمانية حتى تتفرغ للمسألة المراكشية التي بلغت ذروتها في صيف عام ١٩١١ في الوقت الذى بدأت فيه ايطاليا هجومها على ليبيا في اكتوبر من نفس العام ايضا، ومن ناحية اخرى فقد كانت للدولة العثمانية هدف في تخطيط الحدود وهو ان امتلاك تيبستي وبوركو والندى، وبقاء تلك الأماكن داخل الحدود الليبية هو من حقوق الدولة العثمانية، لأن هذه الاماكن تابعة لدواخل ليبيا ولم تستول عليها أى دولة أروبية قط(٣٢).

وفى تلك الاثناء وبينما كانت تجرى الاستعدادات لاجتماع لجنة تحديد الحدود، قام العثمانيون باجراءات وقائية حيث احتلوا بارادای في تيبستي وبعثو بحاكم (قائمقام) للاستقرار في عين جالاكه، واتصلوا مع حاكم دي بورنو من اجل الوقوف ضد الفرنسيين، لأن تيبستي وبوركو كانتا تشكلان مفتاحا لوسط افريقيا، ولذلك وعن طريق تلك الاجراءات الوقائية حاولت الدولة العثمانية فرض سيطرتها على تلك المناطق واحتجت فرنسا على ذلك عن طريق العقيد لارجو(Largeau) قائد منطقة تشاد(٣٣).

لكن هذه الاجراءات العثمانية جاءت متأخرة وضعيفة، في الوقت الذى اشتدت الحرب الايطالية/العثمانية التي انتهت بهزيمة العثمانيين، فلم يبق أى ارتباط بين الدولة العثمانية وهذه المناطق وتحت اصرار الفرنسيين غادر ممثلو السلطة المحلية لتلك المناطق، كما أودت الحرب الايطالية العثمانية بجميع الاستعدادات لمؤتمر تحديد الحدود، وكانت الدولة العثمانية قد اضطرت الى التنازل عن حقوقها في ليبيا بموجب معاهدة لوزان التي وقعتها مع ايطاليا في ١٥ اكتوبر ١٩١٢(٣٤). فانقطعت الصلة بينها وبين هذه المناطق نهائيا.

ثانيا:الجنوب الليبي بين الحربين العالميتين

لم تستقرالأمور في الجنوب الليبي حسب رغبة ايطاليا الا في سنة ١٩٣٠(٣٥)،حيث استطاع الايطاليون احتلال فزان وغات(٣٦)، وذلك عن طريق الجنرال غراتزياني(Graziani) وجعلوا من سبها العاصمة الادارية لفزان، بعد أن كانت مرزق هي العاصمة في عهد العثمانيين(٣٧).

وفي الوقت الذي كان يحاول الايطاليون تثبيت اقدامهم في فزان وغات كانت فرنسا تشرف على جزء كبير من تاسيلي، حيث كان بها من الهجانة لحراسة المنطقة والمسماه مهرست (Mehariste) ومتمركزة في البركت من اقليم غات، وعلى اساس اتفاق قد تم ما بين فرنسا وايطاليا في ١٢ ديسمبر ١٩١٩ والذي نجم عن تبادل الرسائل ما بين بيشون (Pichon) وبوين(Boin) ولونجار(Longare)، فان ايطاليا اعتبرت ان الواحات التي تقع في اقليم غات وهي البركت والفهوت تعود لها(٣٨). أما بالنسبة لغدامس(٣٩)، فان القوات الايطالية لم تستطع السيطرة عليها الا في سنة ١٩٢٤ بقيادة الكولونيل فولبيني (Foulbini)(٤٠). وبذلك سيطر الايطاليون عاى الجنوب الليبي ما بين

١٩٢٤و١٩٣٠، كما استطاعوا ان يجعلوا من غات وغدامس حاجزا حقيقيا يفصل الجنوب الليبي عن تونس والجزائر الفرنسيتين(٤١).

وبالرغم من ضعف النفوذ الايطالي في دواخل ليبيا، الا ان ايطاليا حاولت ان تستغل الظروف السياسية لتجد لها منفذا الى تشاد حتى قبل ان تثبت اقدامها وتسيطر على هذه الدواخل عسكريا وتشجعت في عام ١٩١٩ وحاولت أن تربط ليبيا وتشاد بخط حديدى(٤٢).

وفي الثلاثينات، زادت التحركات الايطالية وكان موسوليني في السلطة فعقدت ايطاليا اتفاقيات مع فرنسا ومع بريطانيا(٤٣)، ومن خلال هذه الاتفاقيات حاول موسوليني ان يمد النفوذ الايطالي الى الصحراء الكبرى وبالأحرى الى تشاد خاصة بعد ان كانت ايطاليا قد اكملت سيطرتها على الجنوب الليبي، ولكن هذه الدول وخاصة فرنسا المسيطرة على معظم الصحراء الكبرى كانت تدرك اهداف موسوليني، في الوقت الذى كانت فيه فرنسا تراقب الوضع في الجنوب الليبي، لتنقض عليه في الوقت المناسب، وقد بدأت تدرك خطورة الوجود الايطالي في الجنوب الليبي على وجودها في الصحراء الكبرى. لذلك فان محاولات موسوليني لم تنجح.

وفي هذا المساق يقول برنارد فيرنير (Bernard Vernier)، «من أنه لو تم تحقيق هذه الاتفاقيات سببت ايطاليا لفرنسا خطرا عسكريا، لأن ما يفصل بين ايطاليا في الجنوب الليبي وفرنسا في الصحراء الكبرى عمق ٢٠٠ كم، أى أن المسافة بين واحة القطرون في فزان جنوبي سبها وحتى تيبستس لو سيطر عليها موسوليني لهدد الوجود الفرنسي، لأنه بهذه السيطرة سيتمكن من وسائل المواصلات ما بين باراداي وسهل يي((Yebbi)) في بورقو باتجاه فايا وعين جالاكا، وهذه قواعد متقدمة للفرنسيين، يريد موسوليني ان يسيطر عليها للانطلاق نحو تشاد»(٤٤).

لكن، وقد ظهر بعد ذلك ان فرنسا كانت منتبهة لموسوليني وكانت تجهز هذه القواعد في تشاد لتجعل منها مراكز انطلاق نحو الجنوب الليبي، وهذا ما حدث في الحرب العالمية الثانية.

ثالثا: العمليات العسكرية الفرنسية في الجنوب الليبي

باندلاع الحرب العالمية الثانية، دخل جنوبي ليبيا والمنطقة كلها تحت ظروف جديدة، ووجدت فرنسا في هذه الظروف ان الفرصة مواتية لها لاحتلال جنوبي ليبيا واكمال سيطرتها على الصحراء الكبرى، وهذه الظروف الجديدة تتمثل بانضمام ايطاليا الى المانيا ضد الحلفاء، كما أن فرنسا كانت قد سقطت امام تقدم الجيوش الألمانية في يونيو ١٩٤٠، وترتب على ذلك حكومة فرنسية موالية لألمانيا تحت اسم حكومة فيشي، وفي ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ وقعت كل من فرنسا والمانيا الهدنة(٤٥). وفي نفس الوقت رفض الجنرال ديجول ((De Gaulle)) الاعتراف بالهزيمة وثار ضد حكومة فيشي، وبدأت حركة فرنسا الحرة، وصدر اعلان عن الجنرال ديجول من برازافيل في الكونجو بتاريخ ٢٧ من تشرين الأول عام ١٩٤٠ يتضمن مرسومين صادرين عنه بوصفه قائدا للفرنسيين الأحرار باقامة مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية وتعيين اعضائه من قبل المسؤولين الفرنسيين المؤهلين في المستعمرات الفرنسية الذين يقررون الأنضمام للحركة(٤٦).

لقد وافقت الحكومة البريطانية على الخطوات التي قام بها ديجول والتعامل معه بصفته أنه زعيم تلك الحركة، كما وافقت على التعاون مع قوات فرنسا الحرة للحرب ضد الأعداء المشتركين، أو في المسائل الاقتصادية التي تهم الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار(٤٧)، واعقب ذلك تأسيس حكومة في المنفى في لندن عرفت بحكومة فرنسا الحرة هيمنت على المستعمرات الفرنسية في افريقيا الاستوائية وافريقيا الوسطى.

وفي اعتقادى ان تعاون بريطانيا مع ديجول في هذه المرحلة المتقدمة من ظهور حركة فرنسا الحرة من العوامل الرئيسية التي جعلت ديجول يسير قدما في

مخططاته الذي أخذ يعدها من أجل دحر ايطاليا في الجنوب الليبي وربط هذا الجنوب مع الصحراء الكبرى، كما كان هذا التعاون مهما للطرفين خاصة في ميدان العمليات العسكرية في ليبيا بشكل خاصة وفي شمالي افريقيا بشكل عام.

لقد تشجع ديجول بهذه الظروف وتلك العوامل، فأصدر بيانا وعد فيه سكان المستعمرات الفرنسية في افريقيا الاستوائية وافريقيا الوسطى بالاستقلال في حالة خروج فرنسا الحرة منتصرة في نهاية الحرب العالمية الثانية،واستطاع بالتالي ان يستغل شعوب هذه المستعمرات في المجهود الحربي الفرنسي باستثمار مواردها البشرية والمادية، وتفويت مثل هذه الفرصة على حكومة فيشي، وذهب بعيدا في وعوده عندما وعد تلك المستعمرات بتطوير اقتصادياتها وسياساتها(٤٨).

وفي ٢٧ أغسطس (آب)١٩٤٠ أعلن ديجول أن تشاد تعتبر في نظره نموذجا يحتذى في الامبراطورية(٤٩)، فقد كان يعدها للقيام بدور هام في المنطقة وهو ان تكون نقطة انطلاق وتموين للقوات الفرنسية التي ستنطلق نحو جنوبي ليبيا، ولذلك عين الجنرال الفرنسي ليكليرك (Leclerc) قائدا للقوات الفرنسية التي ستنطلق من فورت لامي في تشاد لمهاجمة الجنوب الليبي، واصبحت وظيفته «قائد قوات تشاد» وعلى أساس ان تتوجه قواته في البداية باتجاه الكفرة ومرزق، وتنفيذ ذلك انيط بالمفوض الفرنسي في برازافيل بالكونغو وهو دي لارمينا (D' Larmina)، وذلك حسب ماجاء في برقية من الجنرال ديجول الى المفوض المذكور والصادرة من لندن بتاريخ ٢٣ كانون الاول ١٩٤٠(٥٠). واعدت القيادة العسكرية الفرنسية برنامجاً على النحو التالي: غارات سريعة على شكل «اضرب واهرب» وتقوم بها الهجانة من تيبستي على تيبرجيري جنوب فزان، وعمليات استطلاعية هجومية آلية مشتركة من الفرنسيين والبريطانيين باتجاه واحة الكبير الى الشرق من مرزق، ثم عمليات استطلاع هجومية آلية لاحقة وفي الوقت نفسه باتجاه العوين، واذا اسفرت هذه العمليات عن نتائج مرضية، تتقدم القوات الالية وقوات الهجانه وعلى نطاق واسع باتجاه الكفرة(٥١).

ولوضع هذه الخطة موضع التنفيذ قامت القيادة العسكرية بتأمين الوقود والقنابل في القواعد العسكرية الأمامية، وصحب ذلك تجهيز سيارات للشحن لنقل المشاه من تشادبالاضافة الى غارات استطلاعية على الكفرة،حيث أكدت هذه الغارات وجود عدمن الطائرات الايطالية على أرض مطار الكفرة(٥٢)، بعدها قامت القوات الفرنسية وبمساعدة من القوات البريطانية بالهجوم على المركز الايطالي في مرزق جنوبي فزان ونتج عن هذا الهجوم احتلال المطار(٥٣). وفي هذا الهجوم لقي العقيد الفرنسي دغنانو (d' ornano) مصرعه(٥٤). وفي اليوم التالي لهذا الهجوم تم الاستيلاء على قلعة تراغن(٥٥).

ولنجاح هذه العمليات العسكرية، حول الفرنسيون اهتمامهم نحو الكفرة، وكانوا بهذه العمليات الاولى قد شاغلوا الايطاليين في جنوبي فزان، حتي يتحركوا نحو الكفرة، وأعطى الجنرال ديلارمينا تعلياته الى ليكليرك بضرب مواقع الايطاليين فيها من الجو، وقام الايطاليون برد نشيط على الغارات الفرنسية الجوية، لكن قام ليكليرك بمهاجمة الكفرة ليلة السابع من شباط(فبراير) ١٩٤١ بفرزة آلية خفيفة قامت بأعمال التدمير في المطار وعادت تحمل عدد من الاسرى وبعض الوثائق والمعلومات الهامة، وبعد هذه العملية أعطى ديلارمينا تعلياته بأن تراقب الكفرة مراقبة دقيقة وان يعد ليكليرك العدة لاحتلالها في أسرع وقت(٥٦). وفعلا استطاع الفرنسيون احتلال الكفرة ونستدل على ذلك من برقية مرسلة من ديلارمينا الى الجنرال ديجول في ٢آذار (مارس)(٥٧) وفي ٥آذار (مارس) أصدر ديلارمينا بلاغا رسميا أكد فيه احتلال الكفرة وسيطرة القوات الفرنسية على الواحة بكاملها والقيام بأعمال الادارة فيها(٥٨).

وقبل الخوض في الاحتلال الفرنسي لفزان، نشير الى خلاف بريطاني فرنسي، وهو خلاف ظهرت بوادره قبل احتلال الكفرة وبعده، فقد جاء في برقية من ديلارمينا الى الجنرال ديجول«ولقد أكدنا للقيادة البريطانية أكثر من مرة أننا سنترك الكفرة لهم ما دامت تمت الى منطقة

نفوذ السودان المصرى/الانجليزي»(٥٩). وهذه البرقية بينت أن القيادة البريطانية كانت تحاول الضغط على الفرنسيين من أجل التخلى عن الكفرة بعد احتلالها، وهذا يفسر الاشتراك البريطاني في عملية احتلالها، فالسيطرة البريطانية على الكفرة كان مهما للقيادة العسكرية البريطانية، وهذه البرقية بينت أن القيادة البريطانية كانت تحاول الضغط على الفرنسيين من أجل التخلي عن الكفرة بعد احتلالها، وهذا يفسر الاشتراك البريطاني في عملية احتلالها، فالسيطرة البريطانية على الكفرة كان مهما للقيادة العسكرية البريطانية، ويقول ايوجينجوارنير(eugene Guernier) «هذه السيطرة تؤدى الى افساد نظام الاتصالات الجوية الايطالية بين ليبيا وارتيريا واثيوبيا، كما يمكن للطائرات البريطانية أن تقلع من الكفرة وتشن هجماتها الجوية على برقة»(٦٠).

لكن ديجول، لم يوافق ان تكون الكفرة تحت السيطرة العسكرية البريطانية، على اساس ان فرنسا كانت تعمل على السيطرة على جميع الجنوب الليبي، بما فيه الكفرة،هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالكفرة كانت مهمة ايضا لفرنسا، فحسب المنظور الفرنسي يمكن ان تكون قاعدة للانطلاق نحو فزان، فالكفرة وما يحيط بها من واحات تمثل الجناح الشرقي والعمق الاستراتيجي لفزان، فمنها تستطيع القوات الفرنسية الاندفاع نحوها، كما يمكن لفرنسا ان تجعل منها منطقة عازلة بين فزان ومناطق النفوذ البريطانية في مصر والسودان، كذلك فان ظهير الكفرة هي برقة، تلك المنطقة التي كانت محط انظار بريطانيا، وكانت تعد العدة العسكرية لاحتلالها.

لذلك فان برقية ديلارمينا السابقة أثارت القلق عند ديجول، وهذا ما تؤكده البرقية الجوابية التي بعثها ديجول الى ديلارمينا(٦١)، والتي اشار فيها الى الاتفاقية الايطالية البريطانية المصرية التي تم الموافقة عليها في روما في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٣٤ بعد تبادل المذكرات بين الدول المعنية(٦٢)، كما اكدت هذه البرقية الموقف الحازم الذي وقفه ديجول قبل احتلال الكفرة من الضغوط البريطانية حول هذا الموضوع. لكن بعد احتلال الكفرة ظهر ان الجنرال ديجول لم يكن على استعداد للدخول مع بريطانيا في نزاع حول الكفرة، على أساس ان الوقت غير مناسب لمثل هذا النزاع، كذلك فان الوقت غير مناسب للبحث في مستقبل الكفرة(٦٣). هذا في الوقت الذى أعلم فيه تشرشل رئيس الوزارة البريطانية أن القوات الفرنسية التي احتلت الكفرة لاتزال بها وان فرنسا قامت بتعزيز المجموعة الصحراوية التي اتمت احتلال الكفرة تحسبا للطوارئ » واخيرا تم حل الخلاف حول الكفرة باتفاق عقد ما بين قيادة الشرق الاوسط وهي قيادة انجليزية وبين ديجول وذلك بان تتمركز حامية فرنسية/انجليزية مشتركة في الكفرة ويرفع العلمان الفرنسي والانجليزي حتي تتم تسوية الصلح(٦٥).

واثر هذه التسوية بدأت القيادة الفرنسية خطوتها التالية وهي التقدم نحو فزان الهدف الرئيسي من الهجوم الفرنسي(٦٦)، الذى انطلق اساسا من تشاد، حيث كانت قد جرت قبل احتلال الكفرة عمليات عسكرية على مستوي ضيق في فزان كانت في أساسها عمليات استطلاعية من أجل معرفة قوة الايطاليين فيها، وكانت القيادة الفرنسية قد أدركت من تلك العمليات أنه لابد من الهجوم اولا علي الكفرة واحتلالها وهذا ما تم، بعدها تنطلق نحو فزان والتي تبين ان فيها قوات ايطالية وافرة العدد قوية التسليح(٦٧).

لذلك وجدت القيادة الفرنسية انه لإنجاح خطة الهجوم على فزان يجب ان يتزامن هذا الهجوم مع الهجوم البريطاني على طرابلس ليخفف الضغط على القوات الفرنسية المتقدمة صوب فزان، ويؤكد هذه الخطة الجنرال ديجول ببرقيتين: الاولى الى الجنرال ديلارمينا والتي جاء فيها «يجب ان يحملنا تقدم البريطانيين باتجاه طربلس على توقع انهيار كل مقاومة ايطالية في ليبيا، وقد نجد امامنا في القريب العاجل الفرصة مفتوحة لتثبيت اقدامنا في فزان والسعي من هناك الى غات وغدامس»(٦٨). والبرقية الثانية الى ليكليرك وجاء فيها «عليك ان تتصرف باتفاق مع اللواء الكسندر (Alexander) القائد العام لمنطقة عمليات الشرق الاوسط بحيث تستطيع ان تتلقى الدعم الجوى بكثافة عند التوجه الى فزان في أبعد تقدير وهو وصول حلفائنا الى خليج سرت، أطلب من قائد الاركان الامبراطورية ان يعطى الى الجنرال الكسندر التعليمات اللازمة

لتنسيق تحركك مع الجيش الثامن الانجليزى واحتمال تدخل قوات الجنرال ايزنهاور»(٦٩).
وبعد هذا التنسيق العسكرى، حدث الهجوم الرئيسي على فزان بدءاً من ٢٢ ديسمبر (كانون الاول)١٩٤٢، فأعيد احتلال مناطق كانت قد احتلتها القوات الفرنسية مع بداية الهجوم الفرنسي على الجنوب واضطرت الى الانسحاب منها مثل أم الأرانب والقطرون(٧٠)، حيث ركزت تلك القوات هجومها على الكفرة. وفي الهجوم الرئيسي، تم احتلال مرزق بواسطة العقيد اجنولد(Ignold) وكذلك سبها المركز الرئيسي الايطالي في فزان،وأذاع الجنرال ليكليرك بلاغا رسميا تحت رقم(١٥) وتاريخه ١٢ يناير(كانون الثاني)١٩٤٣ اعلن فيه ذلك(٧١).
وكانت ابعد نقطة وصلت فيها القوات الفرنسية هي مزدا الواقعة على بعد ١٠٠ ميل جنوبي طرابلس والتي تم احتلالها في ٢١ يناير ١٩٤٣(٧٢).
ومنذ مطلع ١٩٤٣ أن بدأت الفوضى تدب بالقوات الايطالية التي كانت متمركزة في فزان(٧٣)، ولم تجد القوات الفرنسية تلك المقاومة التي وجدتها في بداية هجومها على الجنوب الليبي، وحقيقة ذلك أن ما حدث للقوات الايطالية في هذه المرة يعود الى التنسيق الذى كان موجودا بين تحرك القوات الفرنسية نحو فزان وبين تحرك القوات الانجليزية نحو طرابلس بالاضافة الى اندحار قوات المحور في الشمال الافريقي في تلك المرحلة من مراحل الحرب العالمية الثانية، لقد حدث الاحتلال الفرنسي لفزان ما بين ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ و٢١ يناير ١٩٤٣ في الوقت الذى كان فيه الجيش الثامن البريطاني يتقدم على طول الساحل ويتأهب لدخول طرابلس، والقوات الفرنسية التي دخلت فزان كانت تأتمر بأوامر القائد الاعلى للقوات المسلحة في الشرق الاوسط(٧٤).
أما بالنسبة لغات، فقد احتلتها قوات فرنسية كانت قد قدمت من جنوبي الجزائر(٧٥)، أى ان هذه القوات لم تكن ضمن القوات التي اندفعت نحو الكفرة وفزان والتي كانت متمركزة اساسا في تشاد.
لقد كان على القوات الفرنسية ان تقوم بخطوتها العسكرية الاخيرة وهي السير نحو غدامس الهدف الاخير في العملية العسكرية لاحتلال الجنوب.
وكان منذ بداية عام ١٩٤٢ قد حدثت احتكاكات عسكرية فرنسية ايطالية في منطقة غدامس، ويعود ذلك لأهمية غدامس الجغرافية قرب الحدود التونسية الجزائرية، مما جعلها منطقة احتكاك مباشر، فبعد ان أعلنت ايطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا الى جانب المانيا، حسبت ايطاليا الف حساب لمنطقة غدامس الحساسة والتي تقع على مرمى البصر من القوات الفرنسية المتواجدة في الحدين التونسي والجزائري، ففرضت حصارا شديدا على غدامس ووضعت فيها كثيرا من العتاد الحربي وما يتطلبه الوضع من القوة العسكرية البشرية، وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) جهز الحاكم الايطالي بغدامس العقيد (زاني) ثلاثمائة جندى اكثرهم من الليبيين المجندين في الجيش الايطالي وهاجم حامية (فورسان) التونسية التي تبعد عن غدامس حوالي ١٣ كم داخل الحدود التونسية واستولى عليها، ثم عاد منها، وهاجم بعد ايام حامية (ماركسن) الجزائرية الواقعة على بعد ٢٠ كم شمالي غربي غدامس وعاد بعدها الى غدامس(٧٦).
وقد رد الفرنسيون على تلك الهجمات الايطالية بغارة جوية على غدامس يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ ودمرت ما يزيد عن مائتي منزل، واستشهد تحت انقاضها العديد من الليبيين، بينما لم يصب احد من الايطاليين، ولكن بعد هزيمة قوات المحور في ليبيا وتحولها الى تونس ترك الايطاليون غدامس يوم ١٢ يناير ١٩٤٣، حيث اصدر العقيد زاني اوامره للجنود الايطاليين بمغادرة غدامس(٧٧).
لذلك عندما دخلت القوات الفرنسية غدامس، لم تكن فيها قوة ايطالية يحسب لها حساب وبالتالي فان المعلومات التي وصلت الى الجنرال ليكليرك من غدامس والتي اشارات الى خلو غدامس والحدود الليبية مع تونس والجزائر من القوات الايطالية كانت صحيحة(٧٨). اما القوات

الفرنسية التي دخلت غدامس اولا فقد كانت قوات الماريشال بيتان (Petan) والقادمة من الجزائر، حيث كانت الجزائر لازالت تتبع حكومة فيشي الموالية لألمانيا وكانت هذه القوات بقيادة دي بزاك،وقدر عددها بحوالي ١٥٠٠ جندي وضابط، أما قوات الفرنسيين الأحرار فقد وصلت الى غدامس بعد ذلك(٨٠). ويقول بول مونييه«لقد كان العلم الثلاثي الفرنسي يرفرف فوق برج الحامية التي احتلتها قوات دي بزاك، ولكن الرياح العاصفة التي كانت تعصف بقوة منعت الضابط الفرنسي جيرو (Giraud) من مشاهدة العلم، حيث كان يتوقع وجود علم ايطالي، الا عندما اقترب كثيرا من برج المراقبة(٨١).

وحدث بعد ذلك ان انضمت قوات دي بزاك القادمة من الجزائر مع قوات ليكليرك القادمة من فزان وواصلت زحفها مجتمعة الى درج وسيناون، ولم تتوقف الا ببرق النصف الحد الاداري بين سيناون ونالوت، وذلك لأن القوات الانجليزية كانت قد احتلت نالوت وبرق النصف، واعتبرت تلك النقطة حدا فاصلا بين طرابلس وفزان(٨٢)، وفي هذا الوقت كانت قد ارسلت كتيبة فرنسية بقيادة الرقيب فيريه (Ferret) لتلتقي مع الجيش الثامن الانجليزي بقيادة الجنرال الكسندر، ومكثت هذه الكتيبة نحو ثلاثة ايام في جبل نفوسة قبل أن تدخل طرابلس في ٢٥ يناير ١٩٤٣(٨٣). لقد كان دخول الكتيبة الى طرابلس كقوة رمزية من الفرنسيين تمثل هدفا معنويا اكثر منه هدفا ماديا وهذا ماقصد اليه الجنرال ديجول.

مما سبق نلاحظ ان القوات الفرنسية التي بدأت عملياتها العسكرية في الجنوب الليبي، استطاعت ان تحتل هذه المنطقة ما بين أواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ وكانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ بجميع مناطق فزان وغات وغدامس بالاضافة الى الكفرة وقامت بعد ذلك مباشرة بتطبيق ادارة عسكرية في هذه المناطق متفاهمة مع بريطانيا.

ولكن قبل التعرض لتلك الادارة يجدر بنا الخوض في موضوع الخلاف الذي ظهر بين الفرنسيين والانجليز حول فزان والذي بدأ مباشرة بعد انهاء الخلاف حول الكفرة وبالرغم من التنسيق العسكرى بين الطرفين حول العمليات العسكرية في فزان،وأسباب هذا الخلاف تعود الى اختلاط الامور العسكرية بعضها ببعض في مناطق تتصل بمناطق اخرى لم تنته الحرب فيها حتى تعقد اتفاقيات بين مناطق النفوذ ولعدم الثقة بين الطرفين والناجمة عن اختلاط الاطماع السياسية فبالرغم من التنسيق العسكرى بين بريطانيا وفرنسا في الحرب العالمية الثانية بشكل عام الا ان عدم الثقة بينهما كانت متأصلة ونشأ عن ذلك مشاكل بينهما حتى في مناطق أخرى من المناطق التي كانت تجرى فيها ميادين الحرب ضد دول المحور(٨٤).

لقد أخذت بريطانيا تحاول ايجاد نوع من التفاهم مع فرنسا حول فزان من أجل ان يكون لها فيها موطئ قدم، مادامت فزان ستكون غنيمة حرب بالنسبة لها، ولكن فرنسا لم تعطى هذا الموضوع اهتماما في الوقت الذي تعتبر فيه فزان مهمة بالنسبة اليها، فقد ارسل ديجول برقية الى الجنرال ليكليرك في ٢ديسمبر ١٩٤٢ جاء فيها «وصلتني برقيتك المؤرخة في ٢٨ نوفمبر في موضوع الاقترحات البريطانية بخصوص فزان، لقد بعثت لك بالامس برقية في نفس الموضوع وستكون فزان نصيب فرنسا في معركة افريقيا، فهي الربط الجغرافي بين جنوب تونس وتشاد، عليك ان ترد اى تدخل بريطاني بدون قيد ولاشرط في هذه المنطقة بأي صفة سواء كان سياسيا أو اداريا أو نقديا، ايا كانت الطلبات البريطانية في قضية فزان، عليك ان ترد عليهم مثلما كنت تفعل سابقا، بأنها تحت مسؤلية الجنرال ديجول»(٨٥). ولذلك فقد رفض ديجول طلب مكتب الخارجية الذي قدم اليه للموافقة على تعيين ضابطين سياسيين بريطانيين لادارة فزان، حيث كان الجنرال الكسندر قد بعث أوامر باسمه لتنفيذ ذلك في فزان، اسوة بالمناطق الأخرى. ولم يكتف ديجول برفض هذا الطلب فقط وانما قام باعلام الحكومة البريطانية بأن العمليات العسكرية في فزان ستنفذ فقط عن طريق فرنسي

وبواسطة قوات فرنسية، وبأن من حق القيادة الفرنسية بالتالي ان تدير وحدها اقليم العدو، ووجود ضابطيين سياسيين بهذا الخصوص مخالف لما هو متفق عليه بين فرنسا الحرة وبريطانيا(٨٦). ولكن تم حل الخلاف بين الطرفين بعد اتفاق في ١٥ ديسمبر (كانون الاول)١٩٤٢ ما بين القوات الفرنسية المحاربة بقيادة الجنرال ليكليرك ومونتغري قائد الجيش الثامن البريطاني وذلك بأن تكون المناطق الواقعة ما بين خط عرض ٢٨ شمالا وخط طول ١٨ شرقا مناطق تابعة لفرنسا وتشمل مناطق غدامس ودارج وسيناون ومرزق وغات وهون بالاضافة الى الكفرة(٨٧)، وتشمل معظم الجنوب الليبي، وبموجب هذا الاتفاق جرت العمليات العسكرية الفرنسية ابتداء من ٢٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٢ وانتهاء بدخول المفرزة الفرنسية الرمزية طرابلس مع القوات الانجليزية في أواخر يناير ١٩٤٣، كذلك قام ديجول بموجب هذا الاتفاق وعين قائدا فرنسيا مؤقتا لمنطقة فزان هو الكولونيل دي لونج (De Lange) ووافقت بريطانيا على هذا التعيين(٨٨).

وعقب الاحتلال الفرنسي للجنوب الليبي، وجه ديجول رسالة الى اهالي المنطقة المسلمين(٨٩)، اشعرهم فيها ان جنوبي ليبيا اصبح مرتبطا بمناطق النفوذ الفرنسية الأخرى في الصحراء وتكون فرنسا بذلك قد حققت هدفها الرئيسي من عملياتها العسكرية في الجنوب الليبي.

رابعا: الادارة العسكرية الفرنسية في الجنوب:

مع نهاية شهريناير ١٩٤٣ اصبحت ليبيا مقسمة الى ثلاثة مناطق عسكرية محتلة، برقة وطربلس تتبعان بريطانيا وجنوبي ليبيا شاملا فزان والمناطق الاخرى التي ذكرناها سابقا ويتبع فرنسا، وذلك كنتيجة مباشرة لدحر القوات الايطالية في ليبيا وبموجب الاتفاقيات العسكرية المعقودة بين بريطانيا وفرنسا(٩٠).

لقد اتفقت الدولتان على أن يتم تطبيق انظمة ادارية عسكرية فى تلك المناطق المحتلة، على أساس ان الاتفاقيات السابقة هي اتفاقيات مؤقتة يسري مفعولها لحين صدور قرار من الدول الكبرى يتعلق بمصير المستعمرات الايطالية، والحجة التي استمدت منها هاتان الدولتين شرعية ادارتها لهذه الأقاليم هي معاهدة لاهاي لعام ١٩٠٧ والتي تنظم ما يحتله العدو من أراضي وهذه المعاهدة منحت لهم سلطات تشريعية وادارية كاملة في انتظار التسوية النهائية عن طريق معاهدة صلح مع ايطاليا(٩١). أما اصول الادارة العسكرية الفرنسية التي وضعت لمناطق الجنوب فقد جاءت من مصدرين، الأول مما كان مطبقا في تونس والجزائر، والثاني ما كان موجودا اصلا عند الاتراك او الايطاليين في الجنوب. فقد ربطت السلطات الفرنسية الجنوب الليبي اداريا بجنوب الجزائر، فاتبعت فيه نفس الاسلوب المطبق في صحراء جنوب الجزائر المؤلفة بشكل خاص من ادارة عسكرية مباشرة مع ضباط يقودون حاميات محلية ولهم صفة ضباط سياسيين واداريين، لكن هذا لم يمنع الفرنسيين من احتفاظ الاحتلال العسكرى الفرنسي ببعض مظاهر النظام الاداري الايطالي الذى كان يعتمد على «المدير» وهو الذى كان يدير مجموعة من القرى لمنطقة طبيعية واحدة او قبيلة من الرحل، وتشمل مهمات المدير كل القضايا المتعلقة بالأوامر داخل المديرية، ولايخضع للادارة الفرنسية الا في مسائل الجباية والمسائل الفنية والتنظيم العام، وهو الذى يرجع له البت في النزاعات البسيطة والمحلية ويحيل كل القضايا المتعلقة بالشرع الى القاضي، اما القضايا الجنائية فيحيلها الى الادارة الفرنسية ويساعده في عمله كاتب، ويوجد تحت تصرفه شيخا في كل قرية او جزء من القبيلة(٩٢).
أما المتصرف، وهي الوظيفة التي كانت موجودة

في عهد الاتراك والتي الغيت في عهد الايطاليين فقد اعيدت في عهد الادارة الفرنسية، وقامت السلطات العسكرية الفرنسية بتقسيم الجنوب الليبي الى ثلاثة اقسام هي:

١ ـ فزان: ويحكمها حاكم عسكري يعينه وزير الداخلية الفرنسي بالاتفاق مع وزير الحربية، ويرأس القوة العسكرية بالاضافة الى مسئولية الادارية ويرتبط بالحاكم العام في الجزائر. وكان هذا الحاكم يكلف بوضع الميزانية والاشراف على الاشغال الكبرى وتسيير الاقتصاد وحفظ النظام العام ويساعده في مهمته ثلاث ضباط للشئون الاسلامية(٩٣). وقسمت فزان الى الفروع التالية:

أ ـ فرع الشاطئ ويشمل مديريات براك ورحل المقارحة والحساونة والبرغن وادري.

ب ـ فرع سبها ـ اوباري ويشمل مديريات سبها وبنت بية واوباري والطوارق الرحل أو داغن والطوارق الرحل امنفها ساتن.

ج ـ فرع مرزق ويشمل مديريات مرزق وأوادي اتبه والتراغن وام الارانب وزويلة والقطرون وتجمع التوبو الرحل(٩٤).

وكان الحكام الفرنسييون في اقليم فزان يباشرون اعمالهم من خلال المديرين والمشايخ الذين اوكلت اليهم مهمة جمع الضرائب وفض المشاحنات(٩٥). كما استطاعت السلطات العسكرية الفرنسية ان تؤكد ادارتها في فزان من خلال الوسيط الذي اوجدته وهو العائلات المحلية والموظفين(٩٦).

٢ ـ غات: قبل الاحتلال الفرنسي كانت غات تتبع القطرون سياسيا، ثم ضمتها السلطات الفرنسية الى جانت التي كانت تحت الحكم الفرنسي، ثم الحقت المنطقة كلها بالادارة العسكرية الفرنسية المباشرة لاقليم جنوب الصحراء الجزائري(٩٧)، وبذلك تكون غات قد فصلت عن فزان واصبح لها مركز سياسي خاص.

أما النظام الاداري الذي طبق في غات فقد كان على اساس انها فرع اداري لها قائد يسمى قائد فرع الاجر (des Ajjer) وهو تابع لمناطق الواحات العسكرية ويساعده في غات ضابط مساعد وضابط مترجم، وفي سرد اليس ضابط صف ورئيس مركز في البركت ضابط مسلم ورئيس مركز، وبالنسبة للقبائل، فقد وضع لها نظام اداري يقوم على اساس ان يعين على رأس كل مجموعة مستقرة او من الرحل قائدا يتقاضى مرتبه من الحكومة في الجزائر وبالاتفاق مع السكان انفسهم، ويقوم هذا القائد بالاتصال مع السلطة الفرنسية للبت في المسائل التي تخص التموين ومصالح قبيلته(٩٨).

٣ ـ غدامس: فصلت غدامس اداريا عن طرابلس عقب الاحتلال الفرنسي مباشرة بوضع حد اداري بينها وبين نالوت في برق النصف واعتبرت تلك المنطقة ايضا حدا فاصلا بين طرابلس وفزان، ثم ضمت غدامس لجنوب تونس على اساس ان تكون تابعة لسلطة الحاكم العسكرى المباشر والذى يشرف على المناطق الجنوبية لتونس ومركزه في قابس(٩٩). ويعاونه حاكم محلي من الفرنسيين، وكان اول حاكم فرنسي هو القبطان دي بزاك الذي نقل من منصبه في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٣ وعين حاكم مدني مكانه اسمه نوطريل وتعاقب بعده حكام آخرين(١٠٠) وبذلك تكون فرنسا قد احتلت عسكريا جميع الجنوب الليبي وفرضت عليه ادارة عسكرية فرنسية.

خاتمة:

كانت فرنسا تنظر الى الجنوب الليبي نظرة خاصة، لكونه يشكل امتدادا حيويا لمنطقة نفوذها في الصحراء الكبرى، فالجنوب الليبي يعتبر من الناحية الجغرافية والبشرية امتدادا طبيعيا للصحراء الكبرى.

لقد استطاعت فرنسا وبعد مساومات مع الدول الأخرى الأروبية، وخاصة بريطانيا ان تسيطر على معظم الصحراء الكبرى وتربطها مع افريقيا الغربية وافريقيا الاستوائية وتمثلت هذه المساومات باتفاقيات فرنسية / بريطانية، وهذا النجاح الذي حققته فرنسا مع نهاية القرن التاسع عشر، جعلها

تتطلع الى الجنوب الليبي، فبدأت التدخل في الجنوب الليبي من اجل ان تلحق بالصحراء الكبرى كمنطقة نفوذ لها ومن اجل ان تربطه بمستعمراتها في شمالي افريقيا (تونس والجزائر ومراكش)، وهذا التدخل جعلها تصطدم مع قوى أخرى كان اولها الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على الجنوب الليبي وكذلك مع قوى أخرى أروبية وخاصة ايطاليا.
أنتهزت فرنسا ظروفا دولية وأحداث تاريخية، جعلتها تسير في مشاريعها الاستعمارية في الجنوب الليبي الى الامام، ومنها الحرب الايطالية /العثمانية والحرب العالمية الاولى وفي تلك الأثناء تفاهمت ايضا مع بريطانيا، وكذلك جعلت من تشاد قاعدة عسكرية هامة واعدتها لتكون نقطة انطلاق لقواتها نحو الجنوب الليبي عندما تأتي الفرصة السانحة.
لقد جاءت هذه الفرصة باندلاع الحرب العالمية الثانية والتي انضمت فيها ايطاليا الى المانيا ضد الحلفاء وايطاليا كانت المسيطرة على الجنوب الليبي، وانطلقت قوات فرنسا الحرة من تشاد صوب الجنوب الليبي بقيادة الجنرال ليكليرك فاحتلت الجنوب الليبي ما بين يناير (كانون الثاني) ١٩٤١ وينـاير (كانون الثاني) ١٩٤٣ وبالتعاون مع القوات البريطانية وبالتنسيق مع الجيش الثامن البريطاني الذي هزم رومل في العلمين في ١ ـ٢ فبراير (شباط) ١٩٤٢، ففي الوقت الذي كانت تقاتل فيه القوات البريطانية مع الفرنسيين الأحرار لاحتلال الكفرة كانت تتقدم القوات البريطانية التابعة لقيادة الشرق الاوسط نحو طرابلس والتي وصلتها في الاسبوع الأخير من يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣ وبعد يومين دخلت مفرزة فرنسية الى طرابلس ايضا.
لقد جعلت فرنسا من الجنوب الليبي بعد احتلاله جسرا يصل بين مستعمراتها في الشمال الافريقي ومستعمراتها في باقي افريقيا، فتحقق بذلك هدفا استراتيجيا طالما سعت اليه بالاضافة الى فوائد اقتصادية وسياسية ، وهذا الانجاز الذي حققته حركة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديجول أعطاها قوة معنوية ومادية، مما جعلها تقف في صف واحد مع دول الحلفاء الأخرى قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

الهوامش

(١) أحمد ابراهيم دياب: لمحات من التاريخ الافريقي الحديث(الرياض:دار المريخ، ١٩٨١)، ص١٤١.

(٢) بنود هذه المعاهدة جاءت في:

Ministere Des Affaires, Documents
Diplomatiques arrangments, Actes et Conventions Concernant le Nord, l' ouest et le Centre l' Afrique.

(٣) H. Schirmer, "les voies de penetration au Soudan" Annales de Geographie, 1981, No. 16.

(٤) Bernard vernier, "le Statute du Fezzan", Politique Etrangere, May 1947, P. 189.

(٥) Ibid. P. 193

(٦) للتوسع في هذا الموضوع حول ما يتعلق بدولة احمدو وعلاقتها بالفرنسيين راجع:

J.C. Anene, The International boundaries of Nigeria 1885 - 1960, (London: Longman Group, 1970), P. 251.

(٧) عبد الرحمن تشايجي: الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة على اعزازي، (طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطالي، ١٩٨٢)، ص١٥٣ _١٥٤.

(٨) جاءت نصوص هذه المعاهدة في:

Minestere Dea Affaires Etrangeres,
Document Diplomatiques Afrique, Arrangements actes et Conventions le Nord l' ouet et le centre de l' Afrique. 1881- 1898, Paris, 1898, P. 233.

(٩) عبد الرحمن تشايجي، المرجع السابق، ص١٥٤.

(١٠) Bernard Vernier, OP. cit., P. 192.

(١١) Ministere Des Pffaires Etraugeres, Document Diplomatique, Affaires du Haut Nil et Du Bahrel Gazal, Paris, 1899, No. 20.

(١٢) كان رابح ابن إمرأة من الرقيق ظهر في جيش زبير باشا كمتطوع، ثم ضابطا، وفي سنة ١٨٧٨ ترك شرق السودان مع مجموعة من اتباعه المسلمين وبدأ حياة المغامرات حيث وصل الى بورنو في ١٨٩٣.
انظر: J.C. Anene, OP. cit., P. 260.

(١٣) ابراهيم صالح بن يونس: تاريخ الاسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم (القاهرة: مطبعة الحلبي ١٩٧٦) ص١٧٠ ويذكر المؤرخ التركي تشايجي ان رابحا تقرب من الشيخ السنوسي ضد الخطر الفرنسي المحدق وان الشيخ السنوسي وظفه بالجهاد ضد الفرنسيين باسم السلطان العثماني وليستدل على ذلك بأن اعلاما تركية شوهدت ترفرف بين صفوف رابح في اثناء الحرب العالمية فيما بعد مع فرنسا. راجع: تشايجي(ص١٦٠ _١٦١.

(١٤) سعيد بعد الرحمن الحنديري: العلاقات الليبية التشادية١٨٤٣ _١٩٧٥، (طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطالي،١٩٨٣) ،ص٧٨.

(١٥) نفس المرجع، ص٧٨. يذكر تشايجي في كتابه السالف الذكر، ص١٦١، ان تصفية دولة رابح نهائيا تمت في معركة قوسيري على ضفة نهر منشاري.

(١٦) أ:ت ٥٢٠ من س باريس الى و٢٣٠ _١٨٩٩/٣ رقم ٢٣ نقلا من تشايجي، ص١٦٣. هذه المرسلات جاءت في كتاب تشايجي، ولذلك سأشير الى هذه الوثائق حسب ما جاءت في هذا المرجع، ولذلك فلن اشير لهذا المرجع مرة أخرى في المراسلات التالية فهو المصدر الوحيد الذي جاءت فيه ويشار اليها برمز أ.ت.

(١٧) أ.ت ٥٢٠ برقيتان من الوزير بتاريخ ١٨٩٩/٣/٢٨ احداهما الى باريس والثانية الى س لندن رقم ٣٦.

(١٨) J.C. Hurwitz: The Middle East and North Africa in world Politics, A documentary Record, (New Haven and London: Yale University Press, 1975) P. 477.

(١٩) يذكر(Hurwitz)ان الاتصالات تمت هذه المرة مع وزير خارجية ايطالي جديد صديق لفرنسا هو ماركويز اميليو فينوستا (Marquis Emilo Visconti Venosta). Ibid, P. 477 Ibid, PP. 478 - 482.

(٢٠) ونصوص هذه المراسلات والمباحثات بنصها الفرنسي في:
Ministere des Affaires Etrangeres, Documents diplomatiques Francais, 1871 - 1914. 2nd series, Vol. 1, No 17, pp. 20 - 23. Vol. 2, pp. 390 - 395.

(٢١) تشايجي، ص١٧٨ _١٧٩. في تلك الاثناء استطاعت ايطاليا التفاهم مع انجلترا بتوقيع اتفاقية ايطالية/انجليزية في ١٢ مارس عام ١٩٠٢ لتجنب اية معارضة انجليزية للاطماع الايطالية في طرابلس والتفاهم الايطالي الفرنسي. انظر E. Serra, l' intesa Mediterrania del 1902 Una Fasa risoltira nei rapporti, 1957.

(٢٢) انظر نص هذه المذكرة في تشايجي، ص١٩٢ _١٩٥.

(٢٣) حول التحركات العسكرية العثمانية راجع: نفس المرجع، ص١٩٩ وما بعدها.

(٢٤) أ.ت ٥٢٣ من والي باريس ١٩٠٢/٥/٥ رقم ١٩٦٣.

(٢٥) Martel A. Gabes, Port Cararanier du Sahara Algirien (1899 - 1914) Trav.d l' inst. de Rech. Sah, t. xix, 1960, p. 219.

(٢٦) Gautier (E.F), la conquete du sahara, Essai de Psychologie Politique, Paris, 1910, P. 12.

(٢٧) Gardel. (H.G), les Taureq Ajjer (Alger : 1962), P. 213.

(٢٨) انظر نصوص هذا الاتفاق في: Hurwitz, OP. cit., PP. 507 - 510 ويمكن معرفة النتائج السياسية لهذا الاتفاق في: محمد رفعت:تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، (القاهرة: دار المعارف ١٩٥٩)، ص٨١ _٨٢ وكذلك:لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، (موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ) ص٣٤٩ _ ٣٥٠.

(٢٩) Ministere Des Affaire Etrangeres, Documents deplomatiques Francaise, Service d'imformati;on et de Press, Notes Documentaries Et Etudes, No. 936, P. 3.

(٣٠) انظر نصوص هذه المذكرات في تشايجي، ص٢١٥ _٢١٧.

(٣١) أ.ت المذكرة الفرنسية المؤرخة في ١٩١١/٨/٩، رقم ١٠٧.

(٣٢)انظر: تشايجي، ص٢٣٨ _٢٣٩.

(٣٣) حول اسباب اتخاذ هذه الاجراءات الوقائية راجع:
J. Ferrandi, la verite' Sur l'occipation furque au Borkou dans l' Tebesti et l' emnddy, (Paris:1930) PP. 23 - 26
Bernard Vernier, OP. cit., P. 193.

(٣٤) محمد عبد الكريم الوافي: الطريق الى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الايطالي لليبيا، (طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٧٧)، ص٢١٤.

(٣٥) للتوسع في هذا الامر راجع: مجلة الشهيد، العدد ١٤، سنة١٩٨٣، ص٢٨٦.

(٣٦) يتألف اقليم غات من عدة واحات اكبرها غات نفسها ثم البركت والفيهوت وايسين واخيرا والعونيات.

(٣٧) Ministere Des Affaires, Etrangeres, Service d' information et de presse, P. 3.

(٣٨) Ministere Des Affaires Etrangeres, Service d'information et de presse, le region de Ghat et serdeles, Notes et etudes documentaires, 1948. n. 936, p. 3

(٣٩) غدامس هي ذلك الجزء الذى يقع في جنوب ليبيا، حيث يحدها شرقا بلدة درج وغربا الحدود الجزائرية وشمالا الحدود التونسية الجزائرية وجنوبا غات.

(٤٠) بشير قاسم يوشع: غدامس ملامح وصور (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٣)، ص١١١ _١١٢.

(٤١) J. Depois: Le Fezzan, Encyclobedia Coloniale et martime, Vol 2, 1948, P. 364.

(٤٢) Bernard Vernier, OP. cit., P. 193.

(٤٣) هذه الاتفاقيات جاءت في: نفس المرجع، ص١٩٣.

(٤٤) نفس المرجع، ص١٩٥.

(٤٥) محمد كمال الدسوقي، الحرب العالمية الثانية، (مصر:دار المعارف، ١٩٦٨)، ص١٢٣.

(٤٦) حول نص هذين المرسومين راجع: مذكرات الجنرال ديجول عن الحرب العالمية الثانية ج٢، تعريب خيري حماد، (بغداد: مكتبة المنار، ١٩٦٤)، ص٦٠ _٦٢، (كتاب وثائق).

(٤٧) هذا ما جاء في رسالة من تشرشل رئيس الوزارة البريطانية، الى الجنرال ديجول، لندن، ٢٤ كانون الاول ١٩٤٠_ انظر نص هذه الرسالة في مذكرات الجنرال ديجول ج٢، ص٩٥ _٩٦.

(٤٨) جون هاتش: تاريخ افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، ترجمة عبد العليم السيد منسي (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩)، ص٣٨.

(٤٩) مذكرات الجنرال ديجول، ج٢، ص٣٨ _٣٩.

(٥٠) نفس المصدر، ص٩٤.

(٥١) جاءت هذه الخطة في برقية من الجنرال دي لارمينا الى الجنرال ديجول في لندن، برازفيل ٢٥ كانون الاول ١٩٤٠. مذكرات الجنرال ديجول ج٢، ص٩٦ _٩٧. والكفرة هي واحة كبيرة تحيط بها مجموعة من الواحات الصغيرة وتشكل الجزء الشرقي من جنوب ليبيا.

(٥٢) برقية من الجنرال ليكليرك قائد قوات تشاد الى الجنرال ديجول بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٤٠. مذكرات الجنرال ديجول، ص٩٧ _١٠١.

(٥٣) برقية من الجنرال دي لارمينا صادرة من فورت لامي في ٣٠ كانون الثاني(يناير) ١٩٤١ الى الجنرال ديجول.

(٥٤) Eugene Guernier, Afrique Equatoriale Francaise dans la querre, l' effort de querre, la participation militaire, Paris, 1950, p. 70 (Encyclopedie Coloniale et martime)

(٥٥) Paul Moynet (Le capitaine) : Les Campaynes Du Fezzan Publications De La France Combattante, No. 54, londres, 4 Carlton Gardens, p. 11.

(٥٦) برقية الجنرال دي لارمينا في برازافيل الى الجنرال ديجول في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤١. مذكرات الجنرال ديجول ص١٢٧ _١٢٨.

(٥٧) نفس المصدر، ص١٣٦. وللتوسع في موضوع احتلال الكفرة راجع: Jean Pichon, la question de libye dans le reglement de la paix (Paris: J. Peynonet et eit, 1945) p. 290.

(٥٨) انظر: مذكرات الجنرال ديجول، ص١٣٦.

(٥٩) نفس المصدر، ص١٢٨.

(٦٠) Eugene Guernier, op. cit., p. 71

(٦١) انظر نص هذه البرقية في: مذكرات الجنرال ديجول، ص١٣٣.

(٦٢) حول هذه الاتفاقيات انظر: K.S Sandford, Western Frontiers of Libya, " Geographical Journal " 99, 1942, pp. 29 - 40

(٦٣) هذا ماجاء في برقية الجنرال ديجول الى لارمينا في برازافيل. راجع نص هذه البرقية في مذكرات الجنرال ديجول، ص١٣٨.

(٦٤) برقية من ديجول الى تشرشل، نفس المصدر ص١٨٢.

(٦٥) Jean Pichon, OP. cit., P. 290

(٦٦) هذا ما اكدته برقية الجنرال ديجول الى ليكليرك، لندن في ١٤ تشرين الثاني (نوفبر) ١٩٤٢ أنظر نص هذه البرقية في: Charles De Gaulle Memoirs duguerre, 1 unit'e 1942 - 1944, Evreux (EURC) Librairie plon 1956, p. 403

(٦٧) هذا ما جاء في برقية الجنرال ليكليرك المرسلة الى ديجول، مذكرات الجنرال ديجول ص١٤٠ _١٤١.

(٦٨) نفس المصدر، ص١٣٢.

(٦٩) Charles De Gaulle, op. cot., p. 403.

(٧٠) Paul Moynet, OP. cit., p. 47.

(٧١) Ibid., P. 45

(٧٢) Georg Kirk: Survey of International Affairs, The Middle East in the War (London, Oxford University Press, 1952) p. 402.

(٧٣) J. Despois, OP. cit., P. 362

(٧٤) G. Lirk, OP. cit., P. 402

(٧٥) J. Depois, P. 362

(٧٦) عاد زاني من (فورسان) ومعه ٣٥ اسيراً عربياً اكثرهم من المزاريق المجندين في الجيش الفرنسي وخمسة فرنسيين. أما من (ماركسن) فقد عاد ومعه بعض الاسرى من المجندين الجزائريين. انظر: بشير قاسم يوشع، غدامس، ملامح وصور (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر)، ص١٢٧.

(٧٧) نفس المرجع، ص١٢٨ _١٢٩. وحول هذا الموضوع يذكر باول مونييه(Paul Maynet) أنه بعد خروج زاني من غدامس توجه الى طرابلس حيث بدا له ان طرابلس ستكون اكثر امنا. Paul , op. cit, p. 38

(٧٨) Ibid, P. 38

(٧٩) الماريشال بيتان هو الذى ترأس حكومة فيشي الموالية للألمان، وهى الحكومة التي عارضها الجنرال ديجول.

(٨٠) يوجد اختلاف حول تاريخ دخول الفرنسيين الاحرار الى غدامس فبينما يذكر باول مونيه في كتابه « " Les Campagnes Du Fezzan " »، ص٣٨ أن دخولهم كان يوم ٢٦ يناير ١٩٤٣، فان بشير قاسم يوشع يذكر في كتابه المذكور سابقا ص١٣٢ أن دخولهم كان يوم ١٥ يناير ١٩٤٣ أى بعد يومين من دخول قوات الماريشال بيتان، وفي اعتقادى ان التاريخ الاخير هو الصحيح.

(٨١) Paul Maynet, P. 39

(٨٢) بشير قاسم يوشع، ص١٣٣.

(٨٣) Paul Maynet, p. 47.

(٨٤) المعروف ان عدم الثقة بين بريطانيا وفرنسا استمرت حتى بعد انتهاء الحرب الثانية، فقد بقي ديجول وخاصة في الاوقات التي استلم فيها رئاسة الجمهورية في فرنسا يشك في بريطانيا ويناصبها العداء في احوال كثيرة وكان موقفه هذا في اساسه ناجما عن تصرفات بريطانيا نحوه في الحرب العالمية الثانية.

(٨٥) Charles De Gaulle OP. cit., P. 423

(٨٦) Ibid, P. 423

(٨٧) G. Kirk, OP. cit, P. 402

(٨٨) Bernard vernier, P. 191

(٨٩) نص هذه الرسالة في G. Kirk, P. 402

(٩٠) كان آخر هذه الاتفاقيات اتفاق عقد بين الجنرال الكسندر الانجليزي والجنرال ليكليرك الفرنسي في ٢٦ يناير ١٩٤٣. راجع في هذا الموضوع في Majid Khaduri, Modern Libya, Astudy of political development (Baltimare John Hopkins press, 1963) , P. 50

(٩١) هنري حبيب: ليبيا بين الماضي والحاضر، ترجمة شاكر ابراهيم، (طرابلس: المنشأة الشعبية، ١٩٨١)، ص٧٠ _٧١.

(٩٢) Ministere Des Affaires Etrangeres, Service d' informatisn et de press, la Documentation Francaise, 26 juin 1948, Le Fessan, Notes Documentaires et etudes, No. 936, P. 5

(٩٣) وللتوسع في هذا الموضوع راجع: صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة (القاهرة:معهد البحوث والدراسات التاريخية، ١٩٧٠)، ص٥٧.
وكذلك: Majid Khaduri, OP, cit., P. 51

(٩٤) Ministere Des Affaires Etrangeres, Jervice d' informa d' information et de press, Le Fezzan. p. 6.

(٩٥) سامي حكيم: استقلال ليبيا بين جامعة الدول العربية والأمم المتحدة (القاهرة: الانجلو المصرية، ١٩٧٠) ص١٠٣.

(٩٦) Majid Khaduri, p. 51

(٩٧) Area hand book service, libua acountry study, the American University, Washington D. C. 1979, p. 36
J. Despois, op. cit P. 51

(٩٨) Ministere Des Affaires Etrangeres, Service d' information et de pres, la region du chat et serdeles, 1948, No. 937, p. 4

(٩٩) Ibid., PP. 4 - 5
وللتوسع في هذا الموضوع، راجع: بشير قاسم يوشع، ص١٣٣ وما بعدها

(١٠٠) نفس المرجع ، ص١٣٧.

التأصيل الحضاري
الطريق الأوفق لاستيعاب العلم والتكنولوجيا والإبداع في استثمارهما للتنمية الشاملة

الدكتور / رياض حامد الدباغ
رئيس الجامعة المستنصرية

إن استقراء متأنيـــاً لمسيرة الحضارة الانسانية يوصلنا الى ان هذه الحضارة كانت تراكمية في جوانبها المعرفية والخبرية والمادية.. وبرزت بوادر المدنية (Civilization) تمثل مظهرها المقنن المعتمد على توظيف الامكانيات المادية وغيرالمادية في سبيل تنظيم حياة الانسان وعلاقته بالمجتمع وبالتنظيم الاجتماعي

اما الحضارة نفسها (Culture) فهي عصارة الاصالة انتقلت من جيل الى جيل، وشذبت من بعض عناصرها ومقوماتها لضمان استمرارها في المواءمة مع متطلبات الحياة المتجددة باستمرار، ولكنها ظلت محتفظة بروحها وبقيمها وبنسيجها المتآلف المميز، واستمرت الحياة الانسانية مدعومة ومؤطرة بمقومات حضارات الامم، حتى ظهرت الصناعة، فأسرعت من وتيرة الحياة، ومن سرعة التغيرات في النظام القيمي وفي ركائز الحضارة الانسانية وثوابتها، فكان ان ظهرت الايديولوجيات المختلفة التي اعتاشت زمنا طويلا على نتاج الفعل الانساني ومعطيات الصناعة والنهضة الصناعية التي غيرت وجه الحياة الى منعطفات لم تألفها، فكان من آثارها النقلة الاجتماعية (Social Mobility)والتغير الاجتماعي والانتشار المعرفي والتراكم الخبري الذي ولد مزيدا من التراكم ومزيدا من الانجرار نحو الانتفاع الأمثل من هذه المعطيات فظهر بون شاسع بين حضارة وحضارة... وبرزت حضارات غنية بخبراتها المتجددة وبمصادرها للإغناء والتأصيل، وحضارات تفتقر الى مقومات التطوير ولاتمتلك الا الأصول والجذور...

ومن هنا بدأت الانسانية تتعرض لمشكلات لم تألفها من قبل، وهي مشكلات التنمية، وكيف يمكن الموازنة بين متطلبات الحياة وبين معطيات الحضارة. وتعقدت مشكلات التنمية يوما بعد يوم.. وبالقدر الذي اتسعت به الهوة بين التقدم والتخلف، كان تعقيد هذه المشكلات.

وتفاقمت هذه المشكلات بدخول الانسان عصر ما بعد الصناعة والتحكم الآلي فيها والسيبرناتيك، والانتقال من العلم الى فن العلم (التكنولوجيا) كقرين لتسريع حركة العلم من جهة وحركة الحياة من جهة ثانية.. وقد يثار السؤال: أما زالت هذه الحركة قائمة ومتسارعة بنفس التعجيل؟ ام أن هناك عناصر يمكن ان تستدرك هذا الأمر وتتدخل في مسارها؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يمكننا أن نقول: نعم، إنه الانسان نفسه الذي بنى الحضارة فتعملقت بجهده، يمكنه ان يعيد البناء او يواصله ويتفوق فيه ثانية.

إذن فالانسان هو الذي يلعب الدور الاساس في التنمية الشاملة، وفي امتلاخ مقومات التقدم من واقع التخلف، بالرجوع الى الأصالة واستنهاض عناصرها، والإيمان بأن التقدم والتطور ليس إلهاما ووحياً بل هو نتاج جهد إنساني مبدع حيثما تتوفر إمكانية إحداثها.

ومن هنا غدا الانسان عصب التنمية «هدفا ووسيلة» وكلما تعمقت مشكلات الحياة المعاصرة

وتعددت مجالات الاختناقات فيها برز دور الانسان اكثر فأكثر في ديمومة الحياة واضفاء البهجة اليها.. ويبدو ان الانبهار بالنتاج التكنولوچي وبمعطيات الحركة العلمية والتكنولوچية قد اعشت بعض البصائر قبل الابصار، فتوهم اصحابها بأن النتاج الحضاري التكنولوچي حكر لحضارة دون اخرى ولمجتمع امتلك المقومات المادية دون اخر لم يمتلك تلك المقومات، وان وراء ذلك بشر يختلفون (نوعيا) عن غيرهم، ويغيب عنهم ان اولئك البشر لايختلفون عن غيرهم بغير الارادة والمثابرة والاخلاص وفي كمية الخبرة واستيعابها واسلوب توظيفها.ولذلك فأن اية امة او حضارة اذا ماستمرأت البقاء في الظل والاقتتات على فتات الحضارات الاخرى، فأنها تفتقد يوما بعد يوم تلك الوشائج التي تربطها بأصالتها، ولايمضي وقت طويل حتى تغدو مجرد تاريخ وذكرى خاوية من مقومات الادامة والاحياء.

اذب، هل نشتري التكنولوچيا ام ننقل ام نبتدع؟ هذا هو الموقف. ولكن اين هي الوقفة التي تستدرك وتستنهض فتستثمر وتنطلق؟ ان الوقفة هي في استعادة النظر الى:

١) ان التكنولوچيا والعلم نتاج انساني لايمكن شراؤهما، لانها في تغير وتطور مستمرين، واي شراء لنتاجات التكنولوچيا يولد تقليدا ويزيد من هوة التخلف ويبعد شقة اللحاق بالركب العالمي يوما بعد يوم، كما ويجعل المجتمع المستورد لها مجتمعا مستهلكاً واسيرا لتوجهاتها..

٢) أن التكنولوچيا ليست معزولة عن المجتمع، وان استخداماتها ليست بمعزل عن ايديولوچية المجتمع وتوجهاته وقيمه، اي ان الحضارة هي الاطار في حسن توظيف التكنولوچيا. وبغياب التأصيل الحضاري تكون النتاجات التكنولوچية (ايا كانت اجهزة، معدات، مصانع...الخ) دخيلة على ذلك المجتمع وتمثل قيدا اخر من قيود التخلف والتبعية، بل وتضيف تبعية علمية الى انماط التبعيات الاخرى..

٣) ان مواجهة التدفق الحضاري التكنولوچي لاتكون بنقل او شراء التكنولوچيا بل بالبدء بتنمية نابعة من الذات واستحضار القوى الذاتية للامة لتطوير القوى العلمية والتكنولوچية، وهذا لايمنع الافادة القصوى من الاخرين، ولايمنع اختزال مراحل التقدم التي اصلوها بجد فأوصلتهم الى ماهم فيه لان نقل التكنولوچيا او شراءها لايعني نقل العلم والحضارة، ولايؤدي اليه، في الوقت الذي يطلب فيه نفاذ العلم الى اوصال المجتمع واستلهام الاصالة الحضارية في استخدامه وتوظيفه..

٤) ان مهمة استدراك الهوة هي مهمة تربوية في الاساس، فالمستقبل جني الحاضر كما ان الحاضر غرس الماضي، فالجيل الذي يركن الى الانتقال اللفظي للمعرفة لايتوقع منه ان يبدع، اما الجيل الذي يتأمل في ماضيه ويتعرف على مكامن الاصالة في حضارته، فيستنبط منها اهدافه ورؤاه المستقبلية، ويوظف المعرفة في هذا السياق، ولايركن الى النقل دون الاستيعاب والاضافة..هو ذلك الجيل الذي يمثل مُناخا جيدا للابداع والتطوير واكتشاف الذات (فكشف الذات هو كسب للذات)، وتقدير طموح المستقبل في ضوء امكانات الحاضر وامجاده ومقومات الماضي واصالته، وهو الذي تتجسد فيه مقولة الرفيق القائد صدام حسين، حفظه الله، (نكسب الشباب لنضمن المستقبل) فالامة التي تكسب عناصر ديمومتها، وهم الشباب، بتربية صحيحة ذات اطار فكري وثقافي نابع من جذور الارض وتاريخ الامة، امة يقدر لمستقبلها الازدهار...

٥) ان قدرات الانسان العقلية وقابلياته على الابداع غير محددة، ولاتقترن بقدراته الجسدية المحدودة اصلا، لان النتاج العلمي والتكنولوجي بخاصة والنتاج الحضاري الانساني بعامة لم تكن نتاج عضلات بل كانت نتاج عقول مبدعة، ومن هنا تبرز اهمية النظام التعليمي في تأطير القوى العقلية والابداعية وتوجهها واستثارها وتوظفها، فالانظمة التي تؤكد على المحافظة دون التحدي وعلى الركون الى ماهو كائن دون التطلع الى ماينبغي ان يكون.. لاتنتج الامزيدا من الاعداد المضافة الى افواج المتخرجين الذين يزيدون اعباء المجتمع

ويعرقلون خطوات تقدمه وتطويره.. ولذلك فأن النظام التعليمي ينبغي ان يكون نظاما يدعو الى الابداع ذي الاصالة، ويساعد على التغيير والتطوير، ولايكتفي بالاشارة اليها، ويقاوم التحجر والانشداد غير المبرر الى التلقي دون الارسال ولعل في مقولة الرفيق القائد صدام حسين -حفظه الله- خير دليل على هذا الامر.

اذ يقول (نحن لاننسخ الماضي ولانستنسخه) فالماضي معين ومنهل لنا نأخذ منه مانسارع به خطانا الى امام، وندع مايثقل هذه الخطى.

ان التنمية العلمية والتكنولوجية تبدو كهدف بارز من اهداف النظم التعليمية، ولكن الاخذ بأسبابها يدعونا الى التأكيد بأن هناك «تغذية ارتدادية» بينها وبين السياسة التعليمية في الجوانب الاتية:

أ. في اهداف التعليم.

ب. في محتوى التعليم.

ج. في نهج التعليم واسلوبه (اي استخدام طرق النشاط او الاكتشاف بدلا من طرق التعلم التقليدية القائمة على الحفظ والتقليد).

د. في بنية النظام التعليمي: (اي مدى ملاءمة بنية النظام التعليمي للسمات الاساسية لمجتمع حديث يتميز بتطبيق العلم والتكنولوچيا والتحرك الاجتماعي).

هـ. في انتشار التعليم.

و. في اجهزة التوجيه في التعليم.

ز. في المعزى الاجتماعي للتعليم.

ومن هذا يتضح ان التفاعل بين استهداف التقدم العلمي والتكنولوچي والسياسة التعليمية امر لايعني الجامعات فحسب، بل يشمل مستويات ومراحل التعليم كافة، ومع هذا، فأن الجامعات تحتل مكانا بارزا ومهما في هذا السياق، نظرا لانها، في اغلب البلدان، هى التى تهيئ المكان الذي يجمع بين الوظائف التعليمية ووظائف البحوث والتنمية، والذي يتم فيه تشكيل قيادات تنموية وطنية جديرة لتستجيب لمتطلبات العلم والتكنولوچيا وحسن استخدام واستثمار معطياتها..

وحري بنا في هذا المقام، ان نستذكر ان الحاجة الى استخدام التكنولوچيا برزت لمواجهة اربعة انواع من المطالب الرئيسية:

أ. مطالب اجتماعية وسياسية: (في ربط التعليم بالمجتمع، وتجاوز الوقوف عند تأكيدات الفلسفات المثالية على العقل والخبرة (لذاتها) .

ب. مطالب اقتصادية: (في توسيع القاعدة الاستثمارية للمناشط الاقتصادية المختلفة. ومنها التربية باعتبارها استثمار بعيد المدى).

ج. مطالب ثقافية: (في مواجهة الانفجار المعرفي وتوسيع قاعدة المعلومات).

د. مطالب تخطيطية: (في التعامل مع الانفجار السكاني وزيادة الطلب على الخدمات بأنواعها المختلفة).

وبعد،

فأن التأصيل للفعل والنتاج يتمحور حول الانسان الذي يتناغم مع ايقاع العصر، ولاينسى طريقة سيره وطريق سيره، والذي يعيش الحياة بابعادها الكاملة ولايعيش على هامشها..

ولعل فيما توصل اليه مؤتمر العلم والتكنولوچيا من مصطلحي العلم الخارجي Exogenous والعلم النابع من الذات Endogenous ، توضيحا لبعض جوانب هذا الموضوع. فالمعرفة هى انعكاس العالم الخارجي على العقل الانساني، اما العلم فهو ينبع من الذات اى من داخل الانسان. وفي تلاقيهما (المعرفة والعلم) تتكون مادة الابداع ويتهيأ مناخ الابتكار، وعندما تتوقف العملية الداخلية فأن النمو العقلي والتطور يتوقفان وينغلق باب العلم.

ومن هنا نجد ان التعلم ليس في كمية المعرفة التي يستجمعها الانسان، لان هناك الات واجهزة ووسائل تستطيع ان تحتفظ وتختزن كميات اكبر بكثير مما يمكن ان يخزنه الانسان، بل ان العبرة في التعلم المنشود ان يكون متجها نحو مناغاة الابداع واستنهاض قوى الابتكار والتحدي المعرفي لديه، وان يكون الانسان مسيطرا على الجهاز او الالة لاان يبقى اسيرهما، وان يدير الجهاز لاأن يديره الجهاز. فالآلات والاجهزة التى صنعت بتكنولوچيا متقدمة والتى تستطيع اتخاذ القرارات لاتمثل بديلا للانسان

الذي يتفوق عليها بقدراته المتجددة على الابداع والابتكار..

وتأسيسا على ذلك فأن هذا الاستقراء المسهب يوصلنا الى اهمية النقلة النوعية التي يشهدها التعليم العالي بتوجه الجامعات نحو تنفيذ استراتيجية التعليم العالي في خلق منهج يستهدف الاصالة والرصانة للمدرسة العراقية، والذي يهدف الى بناء انسان مبدع ومبتكر مؤمن ومستوعب لعقيدة الثورة وقائدها الرفيق القائد صدام حسين ،حفظه الله، ليؤدي هذا الانسان دوره القيادي في عملية النهوض الحضاري، واستكمال البناء الاشتراكي القومي الذي بدأ منذ ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز القومية الاشتراكية..

وفي الوقت الذي نستلهم مقومات التطور والنمو من هذه الاستراتيجية فأن طموحنا لايقف عند تنفيذها في اطار التعليم العالي بل يتجاوز ذلك الى ان تتجه مراحل التعليم الاخرى بل والنظام التربوي في العراق الى بناء هذا الانسان المبدع ليكون اداة للتنمية في العراق ولاعلاء بنائه والحفاظ على اصالته الحضارية ودوره الحضاري في حياة الامم..

الثورة الفلسطينية الكبرى
١٩٣٦ ـ ١٩٣٩
في الوثائق العراقية

د. عباس عطية جبار
كلية الاداب / جامعة بغداد

المقدمة

على الرغم مما كتب عن الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، فانها مازالت بأمس الحاجة الى البحث والتعمق في جوانبها المختلفة لكونها من الثورات القومية المهمة التي عبر بها الشعب العربي الفلسطيني عن رفضه للمخططات الاستعمارية الرامية الى تهويد فلسطين والقضاء على عروبتها. وعلى الرغم من قلة وثائق القنصلية العراقية في فلسطين، الا انها تكتسب اهمية تاريخية كبرى، لانها تناولت موضوعات مهمة تتصل بجوانب حيوية من الثورة المذكورة.

فقد اشارت تلك الوثائق الى طبيعة الثورة القومية عندما حاولت قيادتها انذاك ان يأخذ العرب دورهم الايجابي فيها، فكانت ظاهرة التوجه القومي الفلسطيني، نحو الاقطار العربية كالعراق والسعودية والاردن، كما تناولت نشاط المجاهدين «الثوار» وكفاحهم المسلح ضد قوى الاحتلال البريطاني، وتدفق المتطوعين العراقيين بقيادة فوزي القاوقجي. والقت الوثائق العراقية الاضواء على دور القيادة الفلسطينية المتمثلة باللجنة العربية العليا ورئيسها محمد امين الحسيني في تحريك الاحداث. ومما يزيد من أهمية تلك الوثائق كونها كتبت في وقت الاحداث فكان القنصل العراقي يبعث بتقاريره عن تطورات الوضع السياسي الفلسطيني وما استجد فيه من امور واحداث، فهي بهذا شاهد عيان لمرحلة الثورة الفلسطينية الكبرى. ويمكن في ضوئها فهم حقائق كثيرة عن تطور وتصاعد الثورة، والحالة النفسية التي كان عليها الشعب العربي الفلسطيني وهو يصارع قوى الاستعمار البريطاني والغزو الصهيوني الاستيطاني.

شهدت فترة أواخر عهد الانتداب البريطاني على العراق، اهتماماً عراقيا واضحاً بتطور العلاقات العراقية ـ الفلسطينية، وكان مبعث هذا الاهتمام الذي اتخذ طابعاً رسميا هو الاستفادة من الموانى الفلسطينية لتصدير منتجات العراق الزراعية والنفطية، واستيراد مايحتاج اليه من البضائع المختلفة، ولهذا طرحت في أواخر العشرينات فكرة مشروع «سكة حديد بغداد ـ حيفا». وقد عجل

على ظهور هذه الفكرة الى حيز الدراسات والمناقشات هو مشروع مد انابيب النفط العراقي الى موانئ البحر المتوسط وامكانية الاستفادة من سكة الحديد في نقل المواد والانابيب اللازمة بدلا من السيارات(١). كما رأت الحكومة العراقية بان الخط الحديدي سيؤمن للعراق فوائد عديدة منها نقل صادراته ووارداته باقل كلفة واكثر سرعة، وسيعمل على تقريب الشعبين العراقي والفلسطيني «ويوحد مساعيها في سبيل الكفاح والدفاع»(٢). وفي ١٤آذار ١٩٣١ طلبت الحكومة العراقية من المندوب السامي البريطاني في العراق (فرانسيس همفريز F-Hamphrgs) بان يقترح على حكومة فلسطين بان تعقد مع الحكومة العراقية اتفاقا بشأن نقل البضائع العراقية عبر فلسطين(٣). وقد ابدت حكومة فلسطين استعدادها لتقديم التسهيلات لتوريد البضائع العراقية في حيفا ومرورها بفلسطين(٤). وجرت مفاوضات طويلة بين دائرتي المندوب السامي - ثم السفير البريطاني - في العراق وفي فلسطين انتهت في ١٦آذار ١٩٣٤ بتوقيع عدة اتفاقيات اقتصادية(٥).

وبالاضافة الى هذا التوجه الرسمي نحو فلسطين لأهميتها الحيوية بالنسبة للعراق، كان هناك توجه واهتمام شعبي كبير بقضية فلسطين كقضية قومية تهم الشعب العراقي في الصميم. فقد أخذ العراق يتابع باهتمام شديد تطورات القضية الفلسطينية وكفاح شعبها العربي وتصديه للاستعمار والصهيونية.

وكانت بواكر هذا الاهتمام قد ظهرت منذ أواسط العشرينات وقد تجلى بشكل خاص في ميدان الصحافة، حيث لعبت عدد من الصحف الوطنية وعلى راسها صحيفة «الاستقلال» لصاحبها ورئيس تحريرها عبد الغفور البدري دوراً كبيراً في تنبيه الاذهان الى الحركة الصهيونية واخطارها الكبيرة على مستقبل فلسطين والامة العربية(٦). واصبح ذلك الاهتمام اكثر وضوحاً في أواخر العشرينات حينما هب الشعب العراقي لنصرة الشعب العربي الفلسطيني في مظاهرات صاخبة، وقد تجلى ذلك في حادثتين مهمتين في تاريخ العراق المعاصر، وهما حادثة «ألفرد موند A.Mond» في ٨شباط ١٩٢٨(٧)، وانتفاضة ١٩٢٩ المعروفة بانتفاضة البراق(٨). واستمر هذا الاهتمام بالقضية الفلسطينية في التصاعد حتى اصبح أحد العوامل الاساسية التي فجرت انتفاضة ٢ مايس ١٩٤١ التحررية في العراق.

كان لتطور علاقات العراق الاقتصادية مع فلسطين والاهتمام الشعبي الكبير بالقضية الفلسطينية اثرهما الكبير في حمل الحكومة العراقية على فتح قنصلية لها في فلسطين. ففي منتصف سنة ١٩٣٥ تم فتح القنصلية المذكورة في حيفا وعين الشيخ كاظم الدجيلي نائباً للقنصل منقولا لها من القنصلية العراقية في بيروت(٩).

وقبل تناول طبيعة الوثائق العراقية عن الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وتطوراتها لابد من ذكر الاحداث التي شهدتها فلسطين خلال فترة الثلاثينات التي تعد من الفترات المهمة في تاريخ فلسطين المعاصر. فقد كان لتدفق الهجرة الصهيونية، واصرار الحكومة البريطانية على تحقيق رغبات الصهاينة بتهويد فلسطين، واقامة كيانهم فيها، ونشاط الصهاينة انفسهم بشراء الاراضي العربية وطرد اصحابها العرب منها، وتصاعد استفزازاتهم كالتدريب العسكري السافر والاعتداء على القرى العربية والسكان في المدن الكبرى كلها عوامل دفعت بالشعب العربي لتصعيد الكفاح من اجل الحفاظ على عروبة فلسطين، والتصدي للمخططات الامبريالية والصهيونية، فقام بتفجير الانتفاضات والثورات كانتفاضة عام ١٩٣٣، وحركة الشيخ عز الدين القسام في تشرين الثاني ١٩٣٥. ثم قيام الشعب العربي الفلسطيني بتفجير ثورته الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩، فقد احدثت الاعتداءات الصهيونية في اواسط نيسان ١٩٣٦ على العرب رد فعل عنيف لدى الشعب العربي الفلسطيني، حيث بادر بتأليف اللجان القومية في جميع المدن والقرى الفلسطينية. وفي ٢١ نيسان ١٩٣٦ دعا زعماء الاحزاب السياسية الخمسة(١٠) لاعلان الاضراب العام(١١). وفي ٢٥ نيسان اجتمع قادة الاحزاب العربية وقرروا تشكيل لجنة عليا

برئاسة محمد امين الحسيني للاشراف على الحركة الوطنية واتخذوا قراراً بالاستمرار في الاضراب العام الى ان تعدل الحكومة البريطانية عن سياستها. وأوضحوا مطالبهم في رسالة بعثوا بها الى المندوب السامي وهي:ـ منع الهجرة اليهودية، وانتقال الاراضي العربية الى اليهود، وتشكيل حكومة وطنية تكون مسؤولة امام مجلس نيابي(١٢). ولم يمض على بدء الاضراب سوى أيام قليلة حتى أخذت بوادر الثورة تظهر، اذ بدأت بالقاء المتفجرات، وتقطيع الاسلاك، ونسف انابيب النفط، واقتناص العناصر الصهيونية ورجال الشرطة البريطانية، وتدمير المواصلات، وغيرها من الاساليب الثورية.

وتوسلت الحكومة البريطانية بمختلف الوسائل والاساليب للقضاء على الثورة، فلجأت الى اسلوب القمع العسكري، واستعمال القوة والبطش ضد العرب تارة، واستعمال اساليب المراوغة تارة اخرى لكسب الوقت لامرار مخططها الرامي الى تهويد فلسطين وتسليمها للصهاينة، فشجعت الملوك العرب على التدخل والتوسط لايقاف الثورة والاضراب، دون ان تعطي تعهداً واضحاً بتغيير سياستها في فلسطين(١٣). وقد تزامن مسعى بريطانيا هذا مع الضغط الذي مارسه محمد امين الحسيني على الملوك العرب للتدخل في ايجاد حل للمشكلة الفلسطينية يؤمن الحقوق العربية، الذي ظهر خلال رسائله الكثيرة اليهم. وبعد استجابة الشعب العربي الفلسطيني للنداء الذي وجهه الملوك العرب في ٨ تشرين الاول ١٩٣٦، ارسلت الحكومة البريطانية اللجنة الملكية المعروفة بلجنة (بييل Peel) لدراسة اسباب الثورة ووضع التوصيات اللازمة عنها. فاقترحت اللجنة المذكورة تقسيم فلسطين الى ثلاث اقسام عربية، ويهودية، وثالثة تحت الانتداب البريطاني. وقد قوبل قرار التقسيم هذا بمعارضة شديدة من قبل الشعب العربي في فلسطين والاقطار العربية الاخرى. واتخذت عصبة الامم في ١٦ أيلول ١٩٣٧ قراراً يخول بريطانيا بتهيئة خطة مفصلة لتقسيم فلسطين. وبناء على هذا القرار شكلت الحكومة البريطانية لجنة فنية في شباط ١٩٣٨ برئاسة جون وودهيد، وهي المعروفة ب (اللجنة الفنية لتقسيم فلسطين) أو (لجنة وودهيد" John Woodhead ")، وقد احتوى تقريرها على مشاريع ودراسات عديدة للتقسيم، واهم ما جاء فيه رفضها اقتراح اللجنة الملكية لتقسيم فلسطين، وذلك للصعوبات السياسية والادارية والمالية التي تترتب على قيام دولتين مستقلتين في فلسطين. وبعد نشر تقرير اللجنة الفنية للتقسيم اعلنت بريطانيا بان «ايجاد دولتين مستقلتين للعرب واليهود اقتراح غير عملي»، واذاعت عن عزمها الى عقد مؤتمر في لندن للوصول الى اتفاق مع ممثلي العرب واليهود بدل التقسيم(١٤). وتم عقد مؤتمر لندن خلال الفترة من ٧ شباط وحتى ١٥ آذار ١٩٣٩. وقد ادى الفشل في التوصل الى حل يتفق عليه العرب واليهود، وتوقع اندلاع حرب عالمية جديدة، بالحكومة البريطانية الى ان تعلن من جانبها الحل الذي ارتأته لقضية فلسطين، فاصدرت في ١٧ مارس ١٩٣٩ بياناً عن سياستها في فلسطين، وهو الذي عرف بالكتاب الابيض لعام ١٩٣٩(١٥).

تناولت الوثائق العراقية الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ من زوايا عديدة، اهمها مسألة التوجه القومي الفلسطيني نحو العراق، والدور الكبير الذي لعبه العراق في مسألة ايقاف الاضراب والثورة والتوسط لايجاد الحل المطلوب للقضية الفلسطينية. ووصف دقيق لتطورات الوضع السياسي الراهن في فلسطين فترة نشوب الثورة وخاصة في مرحلتها الاولى ١٩٣٦.

كان للروابط القومية التي تربط ابناء العراق وفلسطين والاهتمام الكبير الذي اولاه العراق لقضية فلسطين منذ بداية العشرينات وعلى كافة المستويات رسمية كانت أم شعبية، وحصول العراق على استقلاله عام ١٩٣٢ بموجب معاهدة ١٩٣٠، وانفتاحه على الاقطار العربية(١٦). وتنامي فكرة القومية العربية في العراق منذ بداية الثلاثينات(١٧). كلها عوامل كان لها الاثر الكبير في ازدياد وتصاعد التوجه القومي الفلسطيني نحو العراق، وعقد الآمال الواسعة عليه في انقاذ فلسطين من السيطرة الاستعمارية البريطانية

والغزو الصهيوني الاستيطاني.

عبرت وثائق عديدة مهمة للغاية عن ذلك التوجه القومي نحو العراق وتأتي في المقدمة الرسائل العديدة المسهبة التي ارسلها زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية محمد امين الحسيني الى الملك غازي، وهذه الرسائل تكتسب اهمية تاريخية كبيرة لكونها عرضت وبشكل دقيق ومركز تاريخ فلسطين منذ احتلالها من قبل بريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى، وعبرت عن وجهة نظر القيادة الفلسطينية انذاك بشأن الوضع السياسي القائم في فلسطين، والقرارات التي اتخذتها بشأن القضايا المطروحة امامها. ومن بين هذه الرسائل رسالته المؤرخة في ٢١ مايس ١٩٣٦ التي ارسلها بسبب اعلان الشعب العربي الفلسطيني اضرابه الكبير في اواخر نيسان ١٩٣٦. وقد اشار فيها الى اشتراك الفلسطينيين مع اخوانهم العرب في الحرب العالمية الاولى، لينالوا استقلالهم ضمن الوحدة العربية استناداً الى العهود المقطوعة للامة العربية، الا انهم فوجئوا بادراة استعمارية انكليزية مدعمة بسياسة صهيونية ترمي الى حكم البلاد حكماً استعمارياً مباشراً، وتهويد فلسطين واغراقها باكثرية صهيونية لاقامة الكيان الصهيوني.ثم استعراض كفاح الشعب العربي الفلسطيني ومقاومته لتلك السياسة. كما اشار الى تعنت الحكومة البريطانية وتحيزها الواضح للصهاينة، وانه من نتيجة هذه السياسة اصبح عدد اليهود اربعمائة الف، بعد ان كانوا في بدء الاحتلال البريطاني خمسين الفاً، واستيلائهم على الاراضي الجيدة، وذكر السبب الذي ادى بالعرب الى اعلان الاضراب، وهو الاعتداء الذي وقع عليهم في «مدينة تل ابيب» من قبل اليهود. وبين المطالب الاساسية للشعب العربي الفلسطيني التي من اجلها اعلن اضرابه ويتضح ذلك من قوله ان «العرب عازمون على الاستمرار في الاضراب الى ان تبدل السياسة المتبعة في البلاد تبديلا اساسياً، فتمنع الهجرة اليهودية اليها، ويمنع بيع الاراضي العربية لليهود منعاً باتاً وتشكيل حكومة وطنية دستورية تكفل للعرب كيانهم القومي واستقلالهم وحريتهم في بلادهم مستسلهين كل صعب ومتحملين كل حرمان وتضحية، ومفضلين فناء قريباً شريفاً على فناء آجل فيه الذل والمسكنة والهوان. واختتم الحسيني رسالته مؤكداً مسألة عدم التكافؤ بين قوة العرب المحدودة في فلسطين و «القوتين العظمتين العالميتين الدولة البريطانية، وقوة يهود العالم»»، وان فلسطين بحاجة قصوى الى مساعدة الاقطار العربية والاسلامية للوقوف بوجه الاطماع الصهيونية الخبيثة في فلسطين(١٨).

وبمناسبة وصول اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بييل) للتحقيق في الاسباب التي ادت الى الاضراب والثورة، أرسل الحسيني بتاريخ ٣١ تشرين الاول ١٩٣٦ رسالة الى الملك غازي بين فيها بانه ينبغي عرض القضية الفلسطينية كقضية قومية وان ترتكز على الاساس الذي ارتكزت عليه قضايا الاقطار العربية المماثلة حتى يتمكنوا من استقبال عهد جديد من الكيان القومي الذي يضمن لهم القوة والسعادة والكرامة. واشار الى النداء الذي وجهه الملوك العرب لوقف الاضراب والثورة حيث أكد بان «اللجنة العربية العليا بحاجة الى تلقي التعليمات والنصائح في الموقف الذي ينبغي عليها ان تقفه امام اللجنة الملكية». واقترح على الملك غازي اثناء وجود اللجنة الملكية ارسال مندوب أو اكثر من قبل الملوك العرب والامراء كي تشترك في «وضع الاسس والخطط اللازمة في بسط القضية الفلسطينية وتوجيهها في الاتجاه الصحيح» بالاضافة الى ان وجود المندوبين العرب سيكسب القضية قوة ودعماً معنوياً كبيراً(١٩). الا ان الملوك والامراء العرب لم يأخذوا بهذا الاقتراح رغم وجاهته واهميته.

لقد استغلت بريطانيا توقف الثورة في فلسطين فأخذت توجه ضربات قوية لتصفية الثورة واحتوائها. وقد اشار الحسيني الى هذا الامر في رسالته المؤرخة في ١ تشرين الثاني ١٩٣٦، كما اشار الى حالة القلق والاستياء التي عمت صفوف الشعب العربي من اجراءات السلطة البريطانية اذ قال «انه على الرغم من ايقاف الثورة والاضراب الا ان الحكومة البريطانية لم تخط خطوة واحدة

مقابل خطوة العرب في وقف الاضراب والثورة وخاصة في وقف الهجرة اليهودية». وان فلسطين تعيش في حالة قلق عام، فقانون الطوارئ مازال قائماً. وفي السجون عدد كبير جداً ممن حكم عليهم بموجب ذلك القانون، ولم يتم الافراج عن المعتقلين، ولم تلغ الغرامات على القرى والمدن، والخوف قد استولى على النفوس من ان تعمد السلطات البريطانية الى التفتيش عن المشتبه بهم، وان الهيئات اليهودية نشطة جداً في اصدار تصاريح جديدة لهجرة يهودية جديدة وناشد الملك غازي ببذل الجهد لتحقيق المطالب التالية: «وقف الهجرة اليهودية بجميع اصنافها، الغاء قانون الطوارئ، العفو عن كل محكوم بسبب الاضطرابات، اطلاق سراح بقية المعتقلين والمنفيين، الغاء الغرامات المفروضة بسبب الاضرابات، توقف التعقيبات والتحقيقات بحق المتهمين والمظنونين الذين هم تحت المحاكمة، منع تجديد الفزع والاضطرابات وذلك بعدم البحث والتفتيش عن المجاهدين والاسلحة»(٢٠)

ومن الوثائق المهمة المذكرة الاساسية التي قدمتها اللجنة العربية العليا نيابة عن عرب فلسطين الى اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بييل)، وقد ارسل الحسيني نسخة منها الى الملك غازي واصفاً تلك المذكرة بانها «تصور قضية فلسطين العربية تصويراً صادقاً وتصف ما وقع على حقوق العرب وكيانهم من جراء سياسة الانتداب الانكليزي والوطن القومي اليهودي من اجحاف واضرار، وفيها مطالب العرب الاساسية التي يعتقد العرب في فلسطين ان حقوقهم وكيانهم لا يصانان الا بتحقيقها» وقد ذكرت اللجنة العربية العليا «ان كل معالجة فرعية أو كل تعديلات ثانوية لايمكن ان تحل قضية فلسطين العربية ويضمن للعرب حقوقهم وكيانهم في بلادهم، ويدفع عنهم الاخطار التي تحدق بهم والاضرار التي وقعت عليهم، وان عرب فلسطين لا يمكنهم ان يطمئنوا الى مستقبلهم من النواحي القومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الا بحل قضيتهم ضمن الاسس الآتية:ـ

١. وقف الهجرة اليهودية وقفاً تاماً وفي الحال.
٢. منع انتقال الاراضي العربية الى اليهود منعاً باتاً وفي الحال.
٣. العدول عن تجربة الوطن القومي الفاشلة التي الحقت بكيانهم وحقوقهم الاضرار والاخطار.
٤. انهاء عهد الانتداب وتبديله بمعاهدة تقوم بموجبها حكومة وطنية دستورية تنظر في مصالح البلاد الحقيقية وتضمن لجميع السكان الوطنيين الامن والسعادة والتقدم.
٥. اعادة النظر في جميع النتائج التي نتجت عن سياسة الانتداب والوطن اليهودي على ضوء مصالح البلاد وسكانها وامنها ومستقبلها»(٢١).

ومن رسائل الحسيني المهمة الرسالة المؤرخة في ١٩ تموز ١٩٣٧ وفيها بين موقف اللجنة العربية العليا التي يرأسها من تقرير اللجنة الملكية البريطانية القاضي بتقسيم فلسطين، وناقش الاخطار والنتائج الوخيمة التي تترتب على تطبيق قرار التقسيم، وتناول شرح طبيعة تلك الاخطار على كافة الاصعدة من سياسية واقتصادية واجتماعية على عرب فلسطين خصوصاً، والاقطار العربية عموماً، واشار في ختام رسالته تلك الى ردود الفعل التي تركها التقرير في فلسطين والعالم العربي والاسلامي. واكد بان «عرب فلسطين سوف لن يخدعوا وانهم ادركوا وبكل سرعة المقاصد السيئة والمؤامرات المبيتة ضدهم والسموم المقدمة لهم في كؤوس من العسل»، وناشد الملك غازي بان يعمل بكل جد وقوة على احباط مشروع التقسيم والاقرار بحقوق العرب وسيادتهم الكاملة في بلادهم عن طريق انهاء عهد الانتداب، وابداله بمعاهدة على غرار ما تم في سوريا والعراق ومصر، وتوقيف الهجرة وبيع الاراضي ريثما يتم وضع المعاهدة التي تضمن حفظ مصالح بريطانيا وحماية الاقليات اليهودية وحقوقهم ومركزهم في المملكة العربية المقبلة»(٢٢).

ولم تكن مراسلات محمد امين الحسيني هي الوحيدة التي عبرت عن التوجه الفلسطيني نحو العراق، فقد اشارت تقارير القنصلية العراقية الكثيرة الى مظاهر عديدة لذلك التوجه فحينما قام

وفد عراقي من النواب والمحامين في ربيع عام ١٩٣٦ بزيارة الى فلسطين ومصر قوبل بحفاوة وتكريم كبيرين من الجمهور الفلسطيني، واقيمت على شرفه الحفلات والمآدب الكبرى، حيث القيت الكلمات والقصائد التي تناولت اوضاع فلسطين بسبب التسلط البريطاني ــ الصهيوني، وعلق الخطباء الآمال الواسعة على العراق «لتخليص فلسطين من يد الانكليز واليهود، وانه لانجاة لفلسطين اذا لم ينجدها العراق»(٢٣). وتكرر هذا الامر مرة أخرى حين عودة الوفد العراقي من مصر، اذ اكد الخطباء والشعراء دور العراق المهم في مساعدة فلسطين وانقاذها من الخطر الصهيوني(٢٤).

ومما يدل على شدة التوجه القومي الفلسطيني نحو العراق مقابلة قيادة الثورة الفلسطينية وزعماء حركتها الوطنية للقنصل العراقي والاعراب له عن رغبتهم بنقل القنصلية العراقية من حيفا الى القدس. واشار القنصل في تقريره المؤرخ ١٦ آذار ١٩٣٦ الى ذلك التوجه قائلا «في الحقيقة ان الافكار العربية في فلسطين أخذ توجهها الى العراق يزداد يوماً فيوماً، وفتح قنصلية للعراق في القدس، أو نقل هذه القنصلية اليها مما يعود على العراق بفائدة كبيرة لاتقدر بمقدار، فضلا عن الاتصال بالقوم مباشرة من عرب ويهود وانكليز. مما يسهل الوقوف على افكارهم، ويفهم الانسان من مجالستهم ومحادثتهم مالم يفهمه من الجرائد»(٢٥).

ولم تكن السلطة البريطانية ترغب في نقل القنصلية العراقية خوفاً من ازدياد علاقاتها ونشاطها مع عرب فلسطين، فأخذت تتلكأ لفترة من الزمن في اعطاء الموافقة على نقل القنصلية من حيفا الى القدس. وعندما طلبت ذلك الحكومة العراقية بناء على الحاح الشخصيات الوطنية الفلسطينية في القدس. ابدى حاكم حيفا لدى مقابلته لنائب القنصل العراقي تاسفه لذلك، واضاف بان العراق يحتاج الى قنصلية في حيفا لاهمية المنطقة. وبين نائب القنصل بان «السلطات البريطانية في فلسطين لاترغب في نقل القنصلية الى القدس خوفاً من تدخلها في الحركات الوطنية أو تدخل الوطنيين فيها»(٢٦).

ومن مظاهر التوجه الفلسطيني الاخرى قيام جماعة من اصحاب الصحف الفلسطينية مثل الدفاع، الجامعة الاسلامية، فلسطين، الجامعة العربية وبعض الشخصيات الوطنية بطلب دعم العراق لهم معنوياً ومالياً، حيث بينوا «بانهم كانوا قد تعودوا ان يقبضوا مخصصات وبعناوين مختلفة من صاحب الجلالة المرحوم الملك فيصل. وقد انقطعت هذه المخصصات بعد موته». وايد نائب القنصل وجاهة الطلب واهميته للعراق، واقترح على الحكومة العراقية تخصيص مبلغ يتراوح بين ٢٠٠ ــ ٣٠٠ دينار سنوياً لصرفه كمخصصات سرية وللدعاية للعراق في فلسطين»(٢٧).

وتحدثت وثائق عديدة عن مظاهر أخرى للتوجه القومي الفلسطيني نحو العراق، اهمها متابعة الشعب العربي الفلسطيني وقيادته الوطنية واهتمامه الشديد بما يجري في العراق من تطورات سياسية كاستقالة الوزارات العراقية واعادة تشكيلها، وحدوث انقلاب ١٩٣٦، ومصرع الملك غازي عام ١٩٣٩، وغيرها من التطورات السياسية التي كانت السمة البارزة لفترة الثلاثينات في العراق. وكانت متابعة الشعب العربي الفلسطيني واهتمامه الشديد بتطورات الوضع السياسي في العراق نابعة من الاحساس بالتخوف لما ستتركه تلك التطورات من تأثير كبير على الموقف العراقي الرسمي من قضية فلسطين. ان الوثائق التي تناولت تلك المظاهر من التوجه الفلسطيني نحو العراق عديدة وكثيرة، ويكاد لايخلو تقرير عام من الاشارة اليها(٢٨).

ونتيجة لهذا التوجه القومي نحو العراق. والضغط الكبير الذي مارسه الشعب العراقي على الحكومة العراقية للحفاظ على عروبة فلسطين وانقاذها من الغزو الصهيوني الاستعماري واهمية فلسطين الاقتصادية بالنسبة للعراق، وخاصة وانها كانت المنفذ البحري الوحيد للنفط العراقي. كلها عوامل ادت الى ان تشهد فلسطين وبشكل خاص خلال فترة الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ حضوراً عراقياً واسعاً وكبيراً، واتخذ ابعاداً واشكالا عديدة اهمها الدعم العسكري للثورة في فلسطين،

والمساعدات المالية الكبيرة، والجهود الدبلوماسية، حيث بذل ساسة العراق جهودهم من اجل ايجاد حل للقضية الفلسطينية، وتشير الوثائق العراقية الى ذلك الجهد الذي بذلته الوزارات العراقية من اجل ايجاد الحل المطلوب. وتمتد البدايات الاولى للتحرك الدبلوماسي العراقي الى وزارة ياسين الهاشمية الثانية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، حيث لعب وزير خارجيتها نوري السعيد دوراً مهماً في هذا الصدد. وتكتسب التقارير والمذكرات التي رفعها نوري السعيد الى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي حول توسط العراق في حل قضية فلسطين، وكذلك المداولات التي اجراها مع اطراف عديدة عربية كانت أو صهيونية اهمية تاريخية كبرى لكونها تعمقت في جذور القضية الفلسطينية، وبهذا كشفت حجم المؤامرة التي يتعرض لها الشعب العربي الفلسطيني. كما انها حددت وبشكل دقيق الموقف الرسمي العراقي خلال فترة الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩(٢٩).

أما الشكل الأخر من وثائق القنصلية العراقية التي تناولت الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦، فهو عبارة عن تقارير عامة رفعها القنصل العراقي في فلسطين الى وزارة الخارجية العراقية، في اوقات مختلفة. ويقع التقرير الواحد في عدة صفحات، ويتضمن موضوعات عديدة اهمها شرحه لتطورات الموقف السياسي الراهن، وخاصة تطورات الثورة الفلسطينية. وتكمن اهمية هذه التقارير في كونها تشرح اوضاع فلسطين السياسية شرحاً دقيقاً ومركزاً. وبالنظر لعلاقة القنصل العراقي القوية مع القيادة الفلسطينية والشخصيات البارزة الفلسطينية، فانها ضمت معلومات مهمة تناولت موضوعات عديدة اهمها تسليط الاضواء على نشاط الثوار «المجاهدين» وكفاحهم المسلح ضد سلطات الاحتلال البريطانية، كالقائهم القنابل على السيارات، ومراكز الشرطة، ونسف السكك الحديدية وتدمير انابيب النفط(٣٠). واشار التقرير العام المؤرخ في ٧ أيلول ١٩٣٦ الى المعركة الكبيرة التي جرت في مدينة طولكرم واستمرت لمدة اثنتي عشرة ساعة، اسقط فيها الثوار طائرتين حربيتين، وقتل عدد من الجنود البريطانيين، واستشهاد عشرة من العرب، وجرح سته، وكان يقودها فوزي القاوقجي ومعه مائة من المتطوعين العراقيين واكد القنصل استناداً الى ما ذكرته بعض الصحف العربية واليهودية من كون الحرب قد اصبحت «حرباً نظامية»»(٣١).

ويلاحظ ان الثوار العرب كانوا يطالبون بضرورة عقد مؤتمر عام يضم اللجنة العربية العليا واللجان القومية في المدن للنظر في الموقف السياسي العام، وتدارس سير الاضراب والثورة، الا ان اللجنة العربية العليا كانت ترى عدم جدوى عقد المؤتمر العام(٣٢). وحينما وصل وزير الخارجية العراقي (نوري السعيد) فلسطين للتوسط في القضية الفلسطينية، لاحظت اللجنة العربية العليا فتور الحالة السياسية، فاسرعت وأصدرت بياناًذكرت فيه بانها «قررت بالاجماع توكيل وزير الخارجية العراقي في المذاكرة مع الحكومة البريطانية». وطلبت من الشعب المثابرة على الاضراب بشدة حتى تنال البلاد حقوقها. ووصف التقرير الفرح الكبير الذي عم الاوساط العربية من البيان المذكور ونشاط الثوار في الهجوم على المستعمرات الصهيونية والجنود، ونسف انابيب النفط(٣٣).

وتناولت تقارير أخرى نشاطات قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية المتمثلة باللجنة العربية العليا ورئيسها محمد امين الحسيني كعقدها للاجتماعات العديدة في مقرها في القدس، وما يقوم به اعضاؤها من اتصالات وجولات في المدن الفلسطينية ومواقفهم بشأن القضايا المطروحة(٣٤). ومما يلاحظ في هذا الصدد صعوبة اتخاذ القرار المناسب، وذلك بسبب الاختلاف الشديد في وجهات نظر اطراف القيادة الفلسطينية، فعندما قررت اللجنة العربية العليا مقاطعة لجنة بييل، أظهر الشعب العربي الفلسطيني تحمساً شديداً للقرار المذكور، الا ان أعضاء اللجنة العربية العليا لم يكونوا متفقين على المقاطعة، فقد ذكر تقرير القنصلية العراقية بأن محمد عزة دروزة،

وعوني عبد الهادي كانا من انصار المقاطعة الاشداء(٣٥).

ومنذ شهر ايلول ١٩٣٦ أخذت السلطة البريطانية تصعد من اجراءاتها القمعية التعسفية لتصفية الثورة والقضاء عليها فاتبعت اسلوب التهديد والوعيد ضد الشعب العربي الفلسطيني اذ اصدرت وزارة الخارجية البريطانية في ٧ أيلول ١٩٣٦ بيانا حول الوضع السياسي في فلسطين منذ بداية الاضراب في ١٩ نيسان ١٩٣٦ وعزم الحكومة البريطانية على ارسال اللجنة الملكية للتحقيق في الاسباب التي ادت الى الاضراب والثورة. واشار الى قيام «الملوك والامراء العرب وذوي المقامات العالية في البلاد المجاورة» في استعمال نفوذهم لتهدئة الحالة في فلسطين. وان الحكومة البريطانية لن تسمح باستمرار الاضطرابات وقامت بارسال نجدات كبيرة وعهد بقيادتها الى «الليفتننت جنرال ج ج ديل DiII » مدير العمليات والاستخبارات العسكرية في وزارة الحرب البريطانية سابقاً(٣٦). وقد ترك البيان المذكور وقعاً سيئاً على الرأي العام الفلسطيني وبشكل خاص الصحف العربية التي هاجمته هجوماً عنيفاً، ووجدت فيه تحيزاً واضحاً للصهيونية، اما بالنسبة للصهاينة فقد افرحهم ذلك البيان، وطالبوا الحكومة البريطانية اعلان الاحكام العرفية، وطرد الموظفين البريطانيين الذين لايتعاونون مع الصهاينة.(٣٧)

وكانت السلطة البريطانية قد شكلت في المدن الفلسطينية المهمة محاكم عسكرية، واصدرت تلك المحاكم احكاماً جائرة ضد العرب. وقد اشار القنصل العراقي الى تحيز تلك المحاكم الى جانب الصهاينة وذكر حالات عديد من هذا التحيز(٣٨). ومن الاجراءات التعسفية التي ارتكبتها السلطة البريطانية في حيفا هو القاء القبض على الشيخ فرحات السعدي وتقديمه للمحكمة العسكرية. والحكم عليه بالاعدام في سجن حيفا يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٣٧. وقد ترك هذا الحكم صدى كبيراً ووقعاً مؤلماً لدى الشعب العربي الفلسطيني(٣٩).

وشنت السلطة البريطانية حملة عنيفة ضد الصحف الوطنية فقامت بتعطيل الصحف العربية بسبب نشاطها الوطني(٤٠).

وسلطت التقارير العامة للقنصلية العراقية الاضواء على الاعمال الارهابية التي ترتكبها العناصر والمنظمات الصهيونية الارهابية كوضع المتفجرات في المحلات العامة، والقاء القنابل على السيارات مما ادى الى استشهاد وجرح عدد من المواطنين العرب(٤١).

ورصدت القنصلية العراقية الصحف الصهيونية وما تنشره من مقالات وحملات ضد العراق ومواقفه القومية من قضية فلسطين، فقد شنت الصحف الصهيونية حملات عنيفة ضد العراق بسبب قبول بعض الشباب الفلسطيني في المعاهد العسكرية العراقية. وقد ادت تلك الحملات بمعاون مدير شرطة حيفا المجئ الى القنصلية العراقية واستفسر عن صحة الاخبار التي تناقلها اليهود ومفادها بان «مئات من شبان فلسطين العرب يسافرون كل يوم الى العراق للدخول في الجيش العراقي». وسأل عما اذا كانت القنصلية العراقية قد منحت سمات دخول الى العراق. وقد اجاب القنصل العراقي بان القنصلية قد منحت «أكثر من عشرين سمة» لتجار فلسطين وشاب واحد ذهب للسياحة، وطمأن القنصل العراقي معاون مدير شرطة حيفا بان «القوانين العراقية تمنع دخول غير العراقي في الجيش العراقي». وانه لاصحة لهذه الاخبار والاشاعات(٤٢).

وكتب قنصل العراق في فلسطين الى وزارة الخارجية العراقية مخبراً اياها بقيام جريدة (الها آرتس) الصهيونية بنشر مقالة هاجمت فيها الحكومة العراقية هجوماً عنيفاً قائلة ان «الحكومة العراقية تسهل على العراقيين الذهاب الى فلسطين لينضموا الى الثوار، وطلبت الجريدة من حكومة فلسطين بان تحتج على الحكومة العراقية بسبب موقفها هذا، ومنع العراق من هذه الحركات»(٤٣).

وضمت الوثائق العراقية تقارير ومراسلات لشخصيات فلسطينية وعربية معروفة في الميادين السياسي والادبي عبرت فيها عن موقفها ووجهة

نظرها بشأن القضية الفلسطينية ومن اهم تلك التقارير والمراسلات، التقرير الذي رفعه رشيد الحاج ابراهيم مدير البنك العربي في حيفا، وهو تقرير واسع يقع في سبع عشرة صفحة، وقد طبع على شكل كراس يحمل عنوان «القضية الفلسطينية امام الوفد العراقي بمناسبة زيارته حيفا ــ فلسطين يوم الخميس ٢٦ آذار ١٩٣٦»، تناول فيه الروابط القومية التي تربط ابناء فلسطين مع اخوانهم العرب وتطورات القضية الفلسطينية منذ عام ١٩١٧، واكد رشيد الحاج ابراهيم في تقريره ضرورة توجه جهود العراقيين الى التصدي للغارة الصهيونية على فلسطين، والوقوف بوجه التغلغل الصهيوني الذي سيكون عقبة أداء امام طموحات الامة العربية في وحدتها وتحريرها وبناء مستقبلها(٤٤).

ومن المرسلات المهمة الرسالة التي ارسلها الاديب العربي المعروف امين الريحاني المؤرخة في ٥ أيار ١٩٣٦. التي اشار في بدايتها الى ماتشهده فلسطين من مآسي ودمار بسبب اصرار الانكليز على تنفيذ وعد بلفور ١٩١٧، وذهب الريحاني بانه من نتيجة محاولة الانكليز على تنفيذ الوعد المذكور هو نشوب «الثورات الدامية المتوالية، فقد حدث في مدة ثماني عشرة سنة خمس ثورات عربية في فلسطين، وكانت كل ثورة اشد هولاً وويلاً مما تقدمها». واكد حق العرب الوطني القومي التاريخي القانوني، الذي يستند الى المواثيق الدولية كتعهد الحكومة البريطانية الى الملك حسين ١٩١٦ بتأسيس دولة عربية تشمل فلسطين وسورية والعراق. وتصريح الحكومتين البريطانية والفرنسية ١٩١٨. واقترح الريحاني على الملك غازي بان يغتنم فرصة تتويج ملك بريطانيا«ادوارد»لكي يمارس ضغطاً على حكومته لايقاف «الهجرة الصهيونية الى فلسطين عشر سنوات على الاقل ليصفي الجو للمفاوضات الجديدة»(٤٥).

وهنالك رسائل مهمة وكثيرة ارسلت الى الملك غازي، تناول فيها مرسلوها معاناة الشعب العربي الفلسطيني بسبب الهجرة الاستعمارية البريطانية ــ الصهيونية، واشاروا الى مظاهر القسوة والبطش التي ترتكبها القوات البريطانية من قتل وتشريد وهدم للدور وغيرها. كما اشاروا الى صمود الشعب العربي الفلسطيني البطولي بوجه القوات البريطانية والعصابات الصهيونية، وناشدوا الملك غازي للعمل على مساعدة فلسطين وانقاذها من المخاطر والمصاعب التي تتعرض لها(٤٦).

الهوامش

١. جريدة العراق العدد ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٨.

٢. المركز الوطني للوثائق ملف رقم ١٧١٢ ـ وع وثيقة تسلسل ٥ ـ ٦. وقد مر مشروع سكة حديد بغداد ـ حيفا بمراحل عديدة، ودارت حوله مفاوضات طويلة وواسعة، انتهت بصرف النظر عنه. وسنرمز للمركز الوطني للوثائق ب (م.و.و).

٣. م.و.و : ملف رقم ٩٠٩ ـ وع ، وثيقة تسلسل ٨.

٤. المصدر نفسه.

٥. عبد الرازق الحسيني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث ص ص ١٨ ـ ١٩. وقد وقع الاتفاقيات المندوب البريطاني في فلسطين (ارثر واكل موب) الذي قدم الى بغداد بصحبة السكرتير العام لحكومة فلسطين في ١٦ آذار ١٩٣٤. وظهرت اهتمامات ومواقف مهمة للملك فيصل الاول، والحكومة العراقية بالقضية الفلسطينية خلال فترة العشرينات اهمها التصدي للنشاط الصهيوني في العراق وفي فلسطين، ومساعدة الشعب العربي الفلسطيني مادياً ومعنوياً في كفاحه التحرري ضد الاستعماريين البريطاني والصهيوني. للتفاصيل عن هذا الموضوع انظر كتاب الباحث: العراق والقضية الفلسطينية ١٩٣٢ ـ ١٩٤١ بغداد ١٩٨٣، ص ص ٣٣ ـ ١٠١.

٦. من الصحف الوطنية الاخرى التي تناولت الحركة الصهيونية واخطارها على فلسطين والامة العربية : الرافدان، العالم العربي، المفيد.

٧. الفردموند : من زعماء الحركة الصهيونية البارزين ومن رجال الاعمال والسياسة البريطانيين المعروفين. قدم الى فلسطين في اواخر كانون الثاني ١٩٢٨، لدراسة الازمة الاقتصادية وانعكاسها على الحركة الصهيونية.فقام بزيارة العراق في ٨ شباط ١٩٢٨. تلبية لدعوة وجهت اليه من الملك فيصل الاول. قوبلت زيارته بردود فعل عنيفة من قبل الشعب العراقي عبرت عنها المظاهرات الصاخبة التي اندلعت يوم قدومه في ٨ شباط ١٩٢٨.

٨. انتفاضة البراق ١٩٢٩. وهي الانتفاضة التي فجرها الشعب العربي الفلسطيني في اواسط آب ١٩٢٩، واستمرت حتى الاسبوع الاول من ايلول ١٩٢٩، وذلك بسبب ادعاءات الصهيونيين في حائط البراق الذي يحد المسجد الاقصى من الغرب، ويتمتع بقدسية كبيرة عند المسلمين. وقيامهم باستفزازات عديدة ضد المسلمين وخاصة تلك التي قاموا بها في اواسط آب ١٩٢٩، حيث رفعوا العلم الصهيوني، وانشادهم النشيد الصهيوني وسبهم المسلمين، مما دفع بالعرب بالرد عليهم. وجرت مصادمات دموية عنيفة بين العرب والصهيونيين. وجردت السلطة البريطانية حملات عسكرية كبيرة اشتركت قواتها البرية التي استقدمتها من قواعدها في قناة السويس، وقواتها الجوية، واسطولها البحري ضد الشعب العربي الفلسطيني الأعزل، وتوسلت باساليب عنيفة لاخماد الانتفاضة.

٩. فاروق صالح العمر، من اوراق القنصلية العراقية في حيفا، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية العدد ٣٨ ـ ٣٩ لسنة ١٩٨٠ ص ٣٩ .

١٠. ظهرت في فلسطين في اواسط الثلاثينات خمسة احزاب سياسية هي :ـ

ـ حزب الدفاع الوطني برئاسة راغب النشاشيبي.
ـ الحزب العربي الفلسطيني برئاسة جمال الحسين.
ـ حزب الشباب برئاسة يعقوب الغصين.
ـ حزب الاصلاح برئاسة حسين فخري الخالدي.
ـ حزب الكتلة الوطنية برئاسة عبد اللطيف صلاح.

١١. تاريخ فلسطين السياسي تحت الادارة البريطانية ـ المذكرة التي قدمتها الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٧ الى لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين ترجمة د. فاضل حسين ١٩٥٦، ص ٣٣.

١٢. عادل حسن غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ ـ ١٩٣٦ القاهرة ١٩٧٤، ص ٣٠٩.

١٣. محمود كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩، بيروت ١٩٧٤ ص ٤٢١، والملوك العرب هم: الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، والملك غازي ملك العراق والامام يحيى حميد الدين امام المملكة اليمنية المتوكلية. والامير عبد الله بن الحسين امير شرقي الاردن.

١٤. تاريخ فلسطين السياسي تحت الادارة البريطانية، المصدر السابق ص ٤٣.

١٥. لقد بينت الحكومة البريطانية في كتابها المذكور بان هدفها هو اقامة دولة فلسطينية مستقلة خلال فترة عشر سنوات ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة. وقررت تحديد الهجرة اليهودية نهائياً. فاعلنت السماح لاخر مرة بهجرة خمس وسبعين الف يهودي. كما أعلنت عن عزمها على معالجة مشكلة الاراضي باصدار تشريعات تمنع أو تحدد أو تبيح انتقال الاراضي لليهود.

١٦. نشط العراق بعد عقد معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا وبتوجيه من الملك فيصل في تطوير علاقاته مع الاقطار العربية الشقيقة، تم تاليف وفد برئاسة رئيس الوزراء نوري السعيد وعضوية كل من طه الهاشمي رئيس اركان الجيش، وموفق الألوسي مدير الامور الخارجية في وزارة الخارجية، واحمد المناصق سكرتير وزارة الدفاع لمفاتحة المملكة العربية السعودية والاردن واليمن حول اقامة حلف عربي. ولما لم يجد الوفد العراقي استجابة للفكرة المذكورة والمعارضة الشعبية التي جوبهت بها الفكرة اكتفى الوفد بعقد معاهدات «صداقة وحسن جوار» مع تلك الاقطار.

١٧. تعتبر بداية الثلاثينات هي بداية التحرك القومي الجاد حيث شهدت هذه الفترة اهتماماً بالحركة القومية العربية تمثل في نشاط العناصر القومية في عقد الاجتماعات، والقاء المحاضرات وتنظيم السفرات، والتي اسفرت عن تشكيل منظمتين قوميتين هما منظمة الجوال (١٩٣٣) ونادي المثنى بن حارثة الشيباني (١٩٣٥).

١٨. م.و.و : ملف رقم ٩٩٧ ــ وع، وثيقة تسلسل ٨٤ ــ ٨٥.
١٩. م.و.و : ملف رقم ٩٩٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٩ ــ ٧٠.
٢٠. م.و.و : ملف رقم ٩٩٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٧ ــ ٦٨.
٢١. م.و.و : ملف رقم ٩٩٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ٢٦ ــ ٢٧.
٢٢. م.و.و : ملف رقم ٩٩٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٧٩ ــ ١٨٦.
٢٣. م.و.و : ملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٤٤.
٢٤. م.و.و : ملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٦.
٢٥. م.و.و : ملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٤٣.
٢٦. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ٣٠، فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص ٤٠.
٢٧. م.و.و : ملف رقم ٧٦٧ ــ وع، وثيقة تسلسل ٣٦، فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص ص ٥٠ ــ ٥١.
٢٨. على سبيل المثال نذكر الوثائق التالية : ــ م.و.و :
ــ ملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٢
ــ ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ٢٠٧ ــ ٢٠٨
ــ ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٤، ٢٣، ٢٥، ٦٣، ٦٦.
ــ ملف رقم ٩٩٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٣.
٢٩. للاطلاع على تفاصيل الجهود الدبلوماسية الواسعة التي بذلها ساسة العراق خلال فترة الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، راجع كتاب الباحث الموسوم ب «العراق والقضية الفلسطينية ١٩٣٢ ــ ١٩٤١» الباب الثاني، الفصول: من الاول حتى الرابع ص ص ١٠٣ ــ ٣٩٧.
٣٠. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ١١٥.
٣١. م.و.و : ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٦٥، وفوزي القاوقجي هو ضابط سوري عمل في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى، كما عمل في الجيش الفرنسي بعد احتلال سوريا ١٩٢٠ للثورة السورية لعام ١٩٢٥. وقد حكمت عليه السلطات الفرنسية بالاعدام مما حمله على الهرب الى المملكة العربية السعودية، ثم قدم الى العراق في اواسط الثلاثينات، حيث عمل مدرساً في الكلية العسكرية، واستقال في عام ١٩٣٦ ليلتحق بالثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦.
٣٢. م.و.و : ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٦١، وملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٧.
٣٣. م.و.و : ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٦٣.
٣٤. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ٦٣، وملف رقم ٩٩٠ وثيقة تسلسل ١٥١ ــ ١٥٢، وملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ٢.
٣٥. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ٤٦ ــ ٤٧، وقد ارادت اللجنة العربية العليا من مقاطعتها وعداً من الحكومة البريطانية بوقف الهجرة، وقيام حكم ذاتي في فلسطين، الا ان الحكومة العراقية والملك غازي نصحا اللجنة العربية العليا بضرورة ترك المقاطعة، وان العراق سيسعى لدى الحكومة البريطانية للحصول على حقوق فلسطين.

٣٦. م.و.و : ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٧٠، ١٧٨.
٣٧. المصدر نفسه.
٣٨. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٤٧.
٣٩. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ١١٥، والشيخ فرحان السعدي هو أحد وجهاء مدينة حيفا، وكان متقدماً في السن (ثمانون عاماً) وحكم عليه بالاعدام بسبب حيازته لبندقية قديمة.
٤٠. م.و.و : ملف رقم ٩٩٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٥١.
٤١. م.و.و : ملف رقم ١٠٢٢ ــ وع، وثيقة تسلسل ٧.
٤٢. م.و.و : ملف رقم ٧٧٠ ــ وع، وثيقة تسلسل ٢٤.
٤٣. م.و.و : ملف رقم ٧٦٩ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٨٠ ــ ١٨٢.
٤٤. م.و.و : ملف رقم ٧٦٨ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٠٢.
٤٥. م.و.و : ملف رقم ٩٩٧ ــ وع، وثيقة تسلسل ٩٥ ــ ٩٧.
٤٦. م.و.و : ملف رقم ٩٩٧ ــ وع، وثيقة تسلسل ١٧٣ ــ ١٧٤، رسالة المجاهد الفلسطيني سليم عبد الرحمن رئيس لجنة الشباب، وعضو اللجنة القومية في مدينة طولكرم.
ووثيقة تسلسل ٣٣ رسالة عبد اللطيف صلاح رئيس حزب الكتلة الوطنية.
ووثيقة تسلسل ١٤٢ ــ ١٤٣ مذكرة عبد الحميد سعيد الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين.
ووثيقة تسلسل ١٠٧ مذكرة زكي الخطيب امين السر العام للجبهة الوطنية المتحدة في سوريا.

السيطرة الأجنبية والتغير الأجتماعي
دراسة للوطن العربي

د . عطا محمد صالح زهرة
كلية الاقتصاد / جامعة قار يونس

مقدمة

تدخل دراسة الظاهرة الاستعمارية ضمن محاولة فهم واقع المجتمع العربي من مختلف الجوانب، وتحديد مكانه في السياق التاريخي، ومعرفة العوامل التي تقف خلف انحداره وتخلفه، لتحديد مدى استعداده لتجاوز أوضاع التخلف، والسبل الكفيلة بذلك.

وتحاول هذه الدراسة تناول أثر السيطرة الاجنبية في تحديد مسار عملية التغير الاجتماعي من جانب وتحديد نطاق هذا الاثر في البناء الاجتماعي من جانب آخر. وتشمل السيطرة الاجنبية، وفقا لهذه الدراسة ، نفوذ المماليك الاتراك منذ خلافة المعتصم بن هارون الرشيد، والحكم المملوكى ثم الحكم العثماني وأخيراً السيطرة الاستعمارية.

ونتناول هذا الموضوع فى خمس نقاط رئيسية: تحدد الاولى مفهوم البناء الاجتماعى وعملية التغير كاطار عام. وتقدم الثانية الدولة العربية فى صدر الاسلام كمعيار للتغير الاجتماعى فتعرف بالبناء السياسي والبناء الاجتماعى والاقتصادى والشخصية القومية. وتتعرف الثالثة على اتجاهات التغير فى ظل نفوذ المماليك والحكم المملوكى. وتتابع النقطة الرابعة مسار التغير فى ظل الحكم العثماني وتبين النقطة الخامسة أثر السيطرة الغربية.

أولا: البناء الاجتماعي وعملية التغير

أ ـ البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية:

يقصد بالبناء الاجتماعي Social Structure ذلك النسيج من العلاقات الاجتماعية الدائمة والمستقرة في المجتمع والذى يبدو على هيئة انساق اجتماعية Social Systems

ومع أن الانساق الاجتماعية تختلف من مجتمع لآخر وفقا للمعايير المرتبطة بمفهومى التقدم والتطور بحيث يجرى التميز بين مجتمع بدائى وآخر متحضر، فانها تدور عموما حول أسس ثابتة كالروابط الاجتماعية وأصول الحكم والعلاقات الاقتصادية. وعلى ذلك يضم البناء الاجتماعي انساقا عديدة كالنسق القرابى، والنسق السياسى والنسق الاقتصادى.(١)

وهذه الانساق هى عبارة عن نظم محورية شاملة «..يتألف كل منها من الداخل من نظم اجتماعية جزئية Social Instirution

يمثل كل منها أنماط الافعال الاجتماعية المنظمة والمستقرة والهادفة لتحقيق أهداف محددة ومعينة في المجتمع. فالنسق القرابي الشامل يتألف من نظام الانحدار ونظام الزواج ونظام العائلة. والنسق الاقتصادي يتألف من الداخل من نظام الملكية ونظام الانتاج ونظام التبادل والتوزيع ونظام تقسيم العمل. وهكذا بالنسبة لبقية الانساق التي تؤلف البناء الاجتماعي..(٢)

ولكل نسق وظيفة اجتماعية يسعى من خلالها الى تحقيق أهداف محددة. كما أنه تجرى في إطاره عملية ضبط حركة الافراد وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية Social Relationships وتحديد أدوارهم داخل المجتمع. وتعدد الانساق الاجتماعية يعني تعدد الوظائف الاجتماعية وتباين الادوار التي يقوم بها الافراد والتي تنعكس على ممارستهم لنشاطاتهم المختلفة.(٣)

ووضوح الاهداف الخاصة بكل نسق لايعني انفصال كل نسق عن الآخر اذ أن ممارسة هذه الانساق لوظائفها داخل المجتمع لايمكن أن تتم الا من خلال التفاعل المستمر بين الافراد حيث تنجم عن ذلك التفاعل عمليات تصاغ من خلالها الضوابط التي تشكل الاطار العام الذي تتحدد به تصرفات الافراد ومظاهر سلوكهم وانشطتهم.(٤)

ان المجتمع كاطار يحدد العلاقات التي تنشأ بين أفراده هو الذي يفرض هذا التداخل والتفاعل في العلاقات الاجتماعية، ذلك لانه يتضمن حدود البيئة الطبيعية من جانب وحدود البيئة الاجتماعية من جانب آخر. فالفرد الواحد وهو يقوم بدوره في المجتمع يتحرك ضمن نطاق الانساق الاجتماعية القائمة. ومع أن مواقف الافراد تتباين بتباين الادوار التي يقومون بها، الا انها تتحدد بقواعد اجتماعية معينة مما يجعلها تتفاعل مع بعضها البعض بشكل يعكس درجة عالية من التوافق والانسجام.(٥)

ذلك أن حياة الافراد في اطار المجتمع تعني أنهم يرتبطون بتجارب واحدة، وتجمع بينهم وحدة المشاعر، ويشتركون في مجموعة من العادات والتقاليد والاعراف:وهذه جميعها تعبر عن قيم اجتماعية تنتظم فيما يعرف بسلم القيم. أنهم يجسدون حياة ثقافية واحدة تنعكس في انماط سلوكية معينة تحدد ملامح الشخصية القومية.(٦)

ولا تقتصر العلاقة بين الانساق الاجتماعية على التداخل والتفاعل فهي تقوم على اساس التكافل الوظيفي، اذ لايمكن لاى منها أن يحقق وحده كافة الاهداف الاجتماعية. وهذا أمر طبيعي لان كل عنصر من عناصر البناء الاجتماعي عبارة عن وحدة جزئية فيه. يؤكد ذلك عالم الاجتماع «ريد فيلد» اذ يرى :«...أن عناصر البناء الاجتماعي..تعمل كنسق متكامل لايمكن فهم أي عناصر أو أي علاقة إلا من خلال الكل، فهي تؤلف وحدات جزئية ضمن اطار بناء اجتماعي كلي، وأن تفاوتت وتباينت في درجات التعقيد.(٧)

ب الانساق الاجتماعية والتوازن الاجتماعي :

ان الترابط والتكامل الوظيفي بين عناصر البناء الاجتماعي يفترض قيام واستمرار حالة من التوازن فيما بينها. أي أن تعمل كافة الانساق الاجتماعية القائمة بنفس القدرة من الكفاءة اللازمة لسير العملية الاجتماعية في الاتجاه الذي يحقق الاهداف المنشودة. ونكوص أي منها لابد أن يؤثر سلبيا في كفاءة الانساق الاخرى مما يعني اختلالا في التوازن بين الانساق داخل البناء الاجتماعي.(٨)

ويرجع تخلف أحد الانساق عن غيره الى إختلال التوازن الداخلي بين النظم الجزئية التي يتألف منها ذلك النسق. ولا يختلف الامر فيما يتعلق باسباب حدوث الاختلال الداخلي وتأثيراته عنه في اختلال التوازن بين الانساق الاجتماعية عموما.(٩)

ويظل الاختلال في التوازن بين الانساق الاجتماعية قائما طالما لم يستطع أي من الطرفين _النسق المتخلف من جانب والانساق الاخرى من جانب آخر_ جذب الطرف الاخر إليه بصورة نهائية إن حالة الاختلال في التوازن لا تستمر الى ما لا نهاية، اذ لابد من عودة التوازن بصورة أو بأخرى، فاما أن تعمل الانساق في البناء الاجتماعي على التأثير في ذلك النسق الضعيف، فتنتهي حالة النكوص، وأما أن يؤدي ضعف أحد الانساق الاجتماعية الى

ضعفها جميعا.
وفى ظل اختلال التوازن بين الانساق الاجتماعية يكون المجتمع غير قادر على الحركة الطبيعية مما يعرقل سير العملية الاجتماعية فى اتجاه الاهداف المنشودة. كما يكون أكثر عرضة من غيره لتأثير المتغيرات الموضوعية التى تجد طريقها اليه بسهولة. ولا يختلف الامر عندما يكون التوازن قائما على انساق اجتماعية ضعيفة، لانه يعنى تخلفا عاما فى مختلف جوانب الحياة مما يترتب عليه عجز المجتمع عن مقاومة تأثير المتغيرات الموضوعية التى تتجه اليه بشكل أو بآخر.(١٠)
ج - اتجاهات التغير الاجتماعى :
من الطبيعى ان يخضع البناء الاجتماعى للتغير الدائم فهو ينمو ويضمحل، كما انه يتجدد ليتواءم مع الظروف والاوضاع التي يمربها المجتمع. والتغير الاجتماعى بهذا المعنى عملية استجابة مستمرة لظروف الحياة، تؤثر فى بناء المجتمع ووظائفه.»(١١)
ويشير علماء الاجتماع الى أن التغير الاجتماعى يكون على أنماط ثلاثة فهو أما أن ياخذ شكل خط بيانى متصاعد دائما، وأما ان يجرى التصاعد مؤقتا عندما يكون عرضة للتحول الى اتجاه معاكس، أو أن ياخذ شكل منحنى متموج. إن النمط الاول يبدو فى التغير التكنولوجى بوجه عام، ذلك أن نطاق المعرفة متزايد باستمرار، والانتقال من استخدام الحصان والعربة الى السيارة والطائرة وكذلك تتابع المخترعات كالهاتف والاذاعة المسموعة والمرئية والحاسب الالى أمثلة على ذلك، والنمط الثانى يبدو فى التغيرات الاقتصادية والسكانية كازدهار التجارة الدولية ثم انكماشها ونمو المدن ثم اضمحلالها أما النمط الثالث فيبدو فى التغير «الدورى» لحياة المجتمعات الذى يقترب من صورة تغير حياة الافراد حيث الميلاد والشباب والنضج ثم التدهور والوفاة. وقد يبدو هذا النمط فى تغير مشابه لأيقاع الامواج كالحركات السياسية المحافظة والراديكالية ومقاييس السلوك التى تتأرجح بين الكبت الزائد والتحرر الزائد وكذلك موجات «الموضة» التى تطغى أحيانا وتنحسر احيانا.(١٢)

وفى اطار هذه الانماط يجرى الحديث عن عناصر التطور كالتقدم والارتقاء للايحاء بالاتجاه نحو الامام، أو عن عناصر آخرى كالنكوص والارتداد للايحاء بالاتجاه الى الخلف حسب مقاييس محددة.(١٣)

ثانيا: الدولة العربية فى صدر الاسلام كمعيار للتغير الاجتماعى

أ - البناء السياسي :
يؤرخ لمولد الامة العربية بظهور الاسلام،(١٤) فقد لعب هذا الدين الحنيف دورا بارزا في بلورة الوجود القومي العربى، اذ أنه لاول مرة فى التاريخ تتحقق للعرب وحدة حقيقية سواء على مستوى اللغة أو العقيدة أو الوحدة السياسية.
فقد تراجعت اللهجات المحلية فى شبه جزيرة العرب وأصبحت اللغة العربية السائدة باعتبارها لغة القرآن الكريم.(١٥) وانتشرت هذه اللغة فى البلاد العربية مع حركة الفتح الاسلامى. فكان إستخدامها فى العراق سريعا لان تأثير الثقافة اليونانية فى هذا القطر كان أقل من غيرها وفى سورية أختفت اللغة الآرامية مع نهاية القرن التاسع وفى القرن العاشر أنتشرت الكتابة بالعربية بين أقباط مصر. وسادت اللغة العربية فى معظم أجزاء السودان وفى السنوات التى تلت فتح شمال افريقيا أخذت اللغة العربية فى الانتشار فى هذا الجزء من الوطن العربى.(١٦)
وانتهت عبادة الاصنام فى شبه جزيرة العرب حيث حل الايمان بالخالق الواحد محل الوثنية والتعدد. ومع إنتشار الاسلام ضمن الفتوحات العربية الاسلامية أصبح الدين الجديد العامل الرئيسى الذى يؤلف بين قلوب العرب المسلمين.(١٧)
ولم تعد القبائل العربية وحدات سياسية حيث أسس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دولة عربية اسلامية. وأكد خلفاؤه من بعده على وحدتها القومية والسياسية والادارية. ففى عهد أبي بكر الصديق تم القضاء على الانشقاق القومى الذى حدث فى أعقاب وفاة الرسول حيث عقد الخليفة

أحد عشر لواء لاحد عشر قائدا زحفوا على المرتدين، فقضوا عليهم وأعادوا للدولة وحدتها.(١٨) وفى عهد الفاروق عمر بن الخطاب تم تنظيم جهاز الدولة ومؤسساتها.(١٩)

لقد أستطاعت الدولة العربية الاسلامية خلال فترة لا تزيد عن ثلاثين عاما (٦٢٢ _ ٦٥١م)، ليس الوقوف فى وجه امبراطوريتى الفرس والروم فحسب بل وانتزاع السيادة على المنطقة منها بعد أن احتكرتاها لقرون عديدة، حيث فتح المسلمون بلاد الشام ومصر وطرابلس الغرب وازاحوا نير الروم عن الشرق، وفى عام ٦٥١م هزموا الفرس وبذلك ازاحوا ايضا نير الفرس، ووقفوا فى مواجهة الدولة البيزنطية.(٢٠)

ووضع الدين الاسلامى أسس ومبادئ الحكم . وقدم الرسول والخلفاء الراشدون من بعده القدوة الحسنة والنموذج الفريد للحاكم العادل. فكان الرسول يعلم المسلمين أمور دينهم ودنياهم ويشاورهم فى ادارة شئونهم. وسار على هديه الخلفاء الراشدون.(٢١)

وأستند الحكم الى الشريعة الاسلامية، والاصل فيها أن الحكم لله وحده لاشريك له. ولا قانون الا قانونه.(٢٢) اذ يقول سبحانه وتعالى: «أن الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم» ويقول تعالى فى سورة آخرى: «يقولون هل لنا من الامر من شئ قل إن الامر كله لله».

لكن الله أستخلف الانسان فى الارض حيث يقول تبارك وتعالى: «واذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الارض خليفة». وهى خلافة لجميع المؤمنين حيث يقول سبحانه وتعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض» أى أن الله أستخلف المؤمنين جميعهم وليس فردا أو طبقة. وكل واحد منهم مسئول أمام الله باعتباره خليفة.(٢٣)

وفى نطاق هذا الاستخلاف وضمن حدود الشريعة وأحكامها فوض الله السلطة السياسية للأمة بحيث تكون فى علاقتها بالحاكم مصدر السلطة. ولهذا خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله» وخاطب الرسول بقوله تعالى: «فاعف عنهم وأستغفر لهم وشاورهم فى الامر» وقوله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم». والرسول الكريم يؤكد أن رأى الامة هو الحق والصواب حيث قال: «لاتجتمع أمتى على ضلالة». ولهذا قال أبو بكر عندما ولى الخلافة مخاطبا المسلمين: «أن احسنت فأعينونى، وأن اسأت فقومونى» وقوله قبيل وفاته: «ان الله قد رد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم».(٢٤)

وجعل الله مرجع الحاكم فى الحكم القرآن الكريم لان فيه الخير والعدل وفى هذا يقول سبحانه وتعالى: «ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون». وبذلك تكون الدولة العربية الاسلامية فى صدر الاسلام قد سارت وفقا لاسس ومبادئ جديدة فى ممارسة السلطة السياسية، لم تكن معروفة ليس فقط فى شبه الجزيرة العربية حيث كانت السلطة مطلقة بيد شيخ القبيلة(وانما أيضا فى بلاد الفرس والروم حيث كان الحكم الامبراطورى حكما مطلقا مستبدا.

ب - البناء الاجتماعى والاقتصادى :

أستندت الدولة العربية الاسلامية فى عهودها الزاهرة الى أحكام الشريعة السمحاء التى جاءت لترفع عن الانسان المظالم التى لحقت به فى عهود الجاهلية لتحقق العدل والمساواة بين الناس.

فمن الناحية الاجتماعية تحدد موقع الفرد فى الاسرة وفقا لقواعد واضحة تبين حقوق كل فرد فيها وواجباته. وتحددت علاقات الفرد بإخوانه فى الايمان وبإخوانه فى الانسانية. واقيم النظام الاجتماعى على اساس الالتزام بالقيم الخلقية ووازع الضمير من جانب والالتزام باحكام الشرع من جانب آخر فكان التماسك والترابط الاجتماعى وكان الاستقرار والأمن فى مختلف ارجاء الدولة.(٢٥)

ومن الناحية الاقتصادية أرتفعت قيمة العمل والجهد الفردى من منطلق الاعتراف بمواهب الفرد وحقه المقدس فى جني ثمار عمله وكده وكان ذلك فى اطار الاهتمام بمصلحة الجماعة فقد قرر الاسلام حق المجتمع فى أن يدفع الفرد زكاة ماله استجابة لمقتضيات التضامن والتكافل الاجتماعى. فالنظرة

الاسلامية تقوم على اساس التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.(٢٦)
لذلك لم يعرف المجتمع العربي الاسلامي الطبقية. فقد حرص الاسلام على القضاء على كل ما يمكن أن يؤدي الى الفرقة والتنافس والانقسام. وعمل الخلفاء الراشدون على تجنب كل ما يؤدي الى ذلك. وفي هذا الاطار رفض عمر بن الخطاب اقطاع أرض السواد (العراق) للقادة الذين فتحوها وقال في هذا الخصوص: «فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها، فما يسد به الثغور، وما يكون للارامل والذرية بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق(٢٧) وحذا حذوه علي بن أبي طالب عندما قال في هذا الخصوص: «لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت السواد بينكم» وحذر واليه على مصر، الاشتر النخعي، من الاقطاع حيث أرسل اليه يقول: «ان للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع اسباب تلك الاحوال، ولاتقطعن لاحد من خاصتك وحاشيتك قطيعة».(٢٨)

ج - الشخصية القومية:
تبلورت الشخصية العربية في شبه جزيرة العرب في ظل الحياة القبلية التي استقرت في الجاهلية، وتحت تأثير الظروف القاسية التي فرضتها الطبيعة الصحراوية حيث الاعتماد على الرعي في كثير من المناطق، مما كان يعني بروز رابطة الدم والتعصب لها بصورة مطلقة، اذ كان الفرد في القبيلة ينصر أخاه ظالما أو مظلوما. وكذلك النزاع الشديد في احيان كثيرة على مقومات الحياة والكفاح من أجل البقاء. هذا فضلا عن عدم خضوع الفرد لاية سلطة سياسية غير سلطة شيخ القبيلة.
لذلك قامت الحياة العربية على العصبية والتنافس القبلي والنزاع المستمر فيما عرف بأيام العرب.(٢٩)
وفي هذا الاطار عرف العرب بالشجاعة وحب الحرية، وعدم السكوت على الضيم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد الى جانب الكرم والاريحية والمرؤة والنجدة، وحب الثأر.(٣٠)
وعندما جاء الاسلام هذب هذه الشخصية حيث عمل على اضعاف العصبية والتنافس القبلي. وتجاوز حدود القبيلة الى مفهوم جديد هو الامة. وركيزته في ذلك الدين الحنيف اذ أحل رابطة العقيدة والايمان محل رابطة الدم، واصبح الولاء للامة والدولة بعد أن كان مقصورا على القبيلة. والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار مثال على ذلك. واستبدل فكرة الغزو للثأر أو لطلب الماء والمرعى بفكرة الجهاد في سبيل الله. وبذلك حول الامكانات والطاقات الكامنة في اتجاه جديد وهو الفتح. ووفر بذلك مصادر جديدة للرزق أمام المسلمين. فظلت الشجاعة والاقدام أحدى سمات العرب المسلمين. وحلت الطاعة للرسول الكريم وللخلفاء من بعده محل الخضوع لشيخ القبيلة، وبذلك أصبح الولاء للدولة.(٣١)
وفي ظل المساواة والعدل بين المسلمين أصبحت الحرية تعني للعربي عدم الخضوع لاية سلطة اجنبية، واستقلال بلاد المسلمين، فكانت الحرب وسيلة لحماية الامة والدفاع عن الدولة مما أكد على الصفات الحميدة التي أتصف بها العربي كالمرؤة والنجدة وعدم السكوت على الضيم. والحرب التي نشبت بسبب استنجاد امرأة عربية بالخليفة المعتصم عندما قالت: وامعتصماه مثال على ذلك.
كما تغيرت فكرة الثأر، ذلك انه لما كانت الامة تضم أفرادا من قبائل مختلفة تسير على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أصبح واجب الثأر مسؤلية تقع على المسلم لأخيه المسلم، أي أن الأمة أصبحت مسؤلة عن أخذ الحق لصاحبه وليس الاقرباء، فتحولت فكرة الثأر الى عقوبة مدنية.(٣٢)
لقد أكد الاسلام على الخصال الحميدة فبقي الكرم من صفات العربي.(٣٣) وقد ارتبط بالحكم في عهد الامويين اذ رأوا في انفاق الاموال وسيلة لجمع الناس من حولهم. فكانوا يتسابقون فيه حيث فرض الجوائز واقامة بيوت الضيافة والاكثار من السخاء.(٣٤)
وظل الوفاء بالعهد من صفات العربي بعد الاسلام ذلك أن القرآن الكريم نص عليه في أكثر من آية كريمة حيث يقول سبحانه وتعالى: «واوفوا بعهد الله

اذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها».

كذلك الامر فيما يتعلق بالنجدة والاريحية. يقول جرجي زيدان فى هذا الخصوص: «أما النجدة والاريحية فظلتا فى العصر الاسلامى متأصلتين فى العرب وان اضطر الامويين الى الاغضاء منها فى بعض الاحيان. اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بنى أمية أستبدادا وظلما. وفى اخبارهم كثير من أمثلة ذلك. منها انه جئ الى معاوية فى يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية: «الحمد لله الذى مكننى منك» فقال الرجل: «لاتقل ذلك يامعاوية» قال: «وأى نعمة أعظم من أن يمكننى الله من رجل قتل جماعة من أصحابى فى ساعة واحدة؟ أضرب عنقه يا غلام» فقال الاسير: «اللهم أشهد أن معاوية لم يقتلنى فيك، وانت لاترضى قتلى، وانما يقتلنى فى الغلبة على حطام الدنيا، فان فعل فافعل به ماهو أهله وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله» فقال لم: «ويحك؟ لقد سببت فابلغت ودعوت فأحسنت... خليا عنه».(٣٥)

والايثار فضيلة أكد عليها الاسلام أيضا فهى من الصفات الانسانية الرفيعة حيث يؤثر الانسان غيره على نفسه. وقصة كعب بن هامة الايادى الذى آثر على نفسه أعرابيا فأسقاه ما فى سقائه من ماء وظل هو يواجه الموت ظمأً، وموقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذى آثر المسلمين على نفسه وزوجه حيث قدم ماله وحلى زوجه لبيت المال وعاش عيشة الشظف والزهد، هما مثالان على ذلك.(٣٦)

ورفع الاسلام مكانة الأدب والعلم. فكان الخلفاء يجلون أهل الادب والعلم وينزلونهم منزلة رفيعة، ويقربونهم منهم، ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم، مما أتاح لهم فرص الابداع الحضارى فبرزوا فى مختلف العلوم والفنون، وأنعكس ذلك فيما ألفوا من كتب فى الفلك والطب والرياضيات وعلوم الدين والادب. وكانت لهم مخترعاتهم كالساعة والالات للرفع والجر والنقل. هذا فضلا عما أتقنوه من صناعات كصناعة البسط والسكر والورق والزجاج.(٣٧)

بهذه الشخصية أقام العرب حضارة راقية تجاوزت حضارات الامم الاخرى كالحضارة الهندية والفارسية واليونانية. فقد تميزت الحضارة العربية الاسلامية عن غيرها بالتوازن بين قيم ظلت بالنسبة للحضارات الاخرى متناقضات لاسبيل الى التوفيق بينها.

لقد وازنت الحضارة العربية الاسلامية بين الروحانية والمادية ولم تفرق فى أى منها ويظهر ذلك فى الاهتمام بأمور الدين وأمور الدنيا فى حين أختفى كل أثر للجوانب الدنيوية فى الحضارات الشرقية ذات الطابع الروحانى كالحضارة الهندية. وتحول الدين فى الحضارة الاوروبية الى دنيا. ووازنت بين أسلوب «النقل» فى المعرفة وبين إعمال «العقل» فيها. بينما أعتمدت الحضارة اليونانية على «العقل» وأغفلت أمكانية النقل. وأعتمدت الحضارة الاوروبية التى تأثرت بالمسيحية على أسلوب النقل وأغفلت العقل. ويظهر التوازن فى الاهتمام بالعمل الذهنى والعمل اليدوى. بينما أحتقرت الحضارة اليونانية العمل اليدوى فقصرته على الرقيق ورفعت مكانة العمل الذهنى الى حد التقديس.

لقد ربطت الحضارة العربية الاسلامية بين الايمان والعقل فكان من علمائها من أشتغل بالتجارة ومن فلاسفتها من أشتغل بالطب ومن فلكييها من أشتغل بالملاحة، وكان من جغرافييها الرحالة. ويظهر التوازن أيضا بين الفرد والجماعة بحيث لاتطغى الجماعة على الفرد ولايستبد الفرد بالجماعة. والرابطة بين مصلحة الجانبين على أساس عدم الحاق الضرر بأى منها. وكان التوازن قائما بين مفهومى السلم والحرب تحت شعار الحق والعدل ذلك أن الامة العربية ليست متوحشة تقوم على الغزو، وليست مهيضة الجناح ترضى بالذل وتستكين للغزاة.(٣٨)

ثالثا: المماليك والتغير الاجتماعى

أ ـ البناء السياسى :

يعتبر دخول المماليك الاتراك فى الجيش من أبرز العوامل التى أثرت فى حياة الدولة العربية الاسلامية من جميع النواحى. فقد تحولوا من قوة

أراد بها الخليفة المعتصم أن تكون أداة قمع يستخدمها ازاء الجهات التى تخرج عن طاعته،(٣٩) وأداة توازن بين العرب والموالى وغيرهما من العناصر والاجناس المتصارعة والمتنافسة فى الدولة، تحولوا الى قوة حاكمة ومهيمنة على السلطة السياسية.

لقد أكثر المعتصم من شراء المماليك الاتراك وأقامة المعسكرات لهم بحيث كانت لهم مدينة كاملة هى «سامراء»، وكانت تابعة لبغداد عاصمة الدولة العباسية، ولكن سامراء أصبحت منذ عام ٨٣٦م العاصمة الفعلية، وباتت بغداد تابعة لها بعد أن أصبح المماليك يملكون القدرة على عزل الخلفاء وتعيين من يدين لهم بالطاعة.(٤٠)

لقد إنفرد المماليك بالحكم والهيمنة على السلطة ومقاليد الامور فى الدولة ففى عهد الخليفة المتوكل «..كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل: «وصيف» و «بغا» و «كيغلغ» و«ياجور» و «بايكباك» و«بكالبا» و«يارجوخ» و«اصفجون» و«طاشتمر» و« كنجور» و«تكيف» و«أغرقشر» .. و«ابن كنداجيق» و«اساتكين» .. وأستاثرت هذه القيادة مع مماليكها واعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها، دون العامة، بل وزادت أثرتها فاستاثرت بهذه الثروة أحيانا دون عامة الجند والمماليك..»(٤١)

وفى عام ٨٦١م قتل الجند الاتراك المتوكل وأحلوا محله المنتصر بالله محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد. لكن المنتصر بالله أراد أن ينشر العدل فى ربوع الدولة. ولما كان ذلك غير ممكن بدون استرداد سلطته، كخليفة، من القادة الاتراك فقد حاول التخلص منهم اذ طلب من «وصيف» وهو أكثرهم قوة أن يتحرك على رأس جيش لمحاربة الروم، غير أن القادة الاتراك أدركوا ما يرمى اليه فتآمروا عليه مع طبيبه فقتله، وبذلك تخلصوا منه وولوا الخلافة للمستعين بالله أحمد بن محمد بن هارون الرشيد (٨٦٢م ـ٨٦٦م). فكان ألعوبة بايديهم. ومع ذلك خلعوه وقتلوه، وجاءوا بالمعتز بالله الزبير جعفر المتوكل فاستمر فى الحكم ثلاث سنوات حيث خلعوه وسجنوه ثم قتلوه. وحاول بعده المهتدى بالله (٨٦٩م ـ ٨٧٠م) أن يحدث بعض التغيرات بعد أن أستقطب عامة الناس وحظى بتأييد الذين كانوا يطالبون برد السلطة اليه وبتحسين الاوضاع فى الدولة. لكن قادة المماليك الاتراك تمكنوا من احتواء حركة الجند وقتلوا الخليفة بعد أقل من عام من تنصيبه.(٤٢)

وقد ترتب على ذلك :

أولا: خروج الحكم من يد العرب واستبداد المماليك الاتراك به، حيث لم يعد للخليفة العباسى أى دور فى ممارسة السلطة. ولم يكن سوى واجهة شكلية ورسمية يحركونها كما يشاؤون ويشكل على وسافر.

ثانيا: غياب الاستقرار السياسى. وذلك نتيجة للتغير المستمر للخلفاء الذى بات أحد سمات تلك الفترة من حياة الدولة العباسية. فقد كانت عملية التغيير هدفا فى حد ذاته وما فعله المماليك بالمستعين بالله على استكانته مثال على ذلك.(٤٣)

ثالثا: اندلاع الانتفاضات والثورات فى مناطق مختلفة من الدولة أهمها:(٤٤)

* ثورة أبو الحسين يحى بن عمر الذى ينحدر من نسل جعفر بن ابى طالب عام ٢٤٨هـ فى الكوفة، ثم ثورة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن على بن ابى طالب بعد عامين. * ثورة الزنج التى قادها على بن محمد.

* ثورة الحسين بن زيد، الذى ينحدر من نسل على بن أبى طالب، عام ٢٤٩هـ فى طبرستان وجرجان التى أنتهت بقيام دولة له فيها أستمرت حتى ٢٧٠هـ

* اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن على بن ابى طالب عام ٢٥٠هـ فى قزوين.

ثم كانت الانقسامات فى الدولة العباسية حين ظهرت دولة البويهيين عام ٩٤٥م ودولة السلاجقة عام ١٠٥٥، والدولة الحمدانية ٩٤٤ ـ ١٠١٥ والدولة الفاطمية (٩٠٩ ـ ١١٧١م).

ب البناء الاقتصادى والاجتماعى :

رغم أن الخلفاء الامويين كانوا يمنحون أقاربهم وأنصارهم أراضى من قتل أو هرب من الاستقراطيين أو الاقطاعيين الفرس والبيزنطيين

مما حول اشراف القبائل الى ارستقراطية حضرية مالكة،(٤٥) الا أن الاقطاع لم يظهر كسمة بارزة فى الدولة العربية الاسلامية الا فى تلك الفترة التى سيطر فيها المماليك الاتراك على الحكم.(٤٦)
صحيح أن الاقطاعات كانت قائمة على أساس الانتفاع وليس التملك. بمعنى أن الاقطاعى لم يكن يملك حق الرقبة وأنما كان يملك فقط حقوق الارتفاق مما جعل الاقطاع فى الشرق يختلف عن نظيره فى الغرب. لكن النتيجة واحدة فيما يتعلق بالظلم الذى حاق بالفلاحين. وكان الكثير من الاقطاعيين يهملون اقطاعياتهم فيردونها بعد خرابها الى الحكام ويستعيضون عنها أقطاعيات آخرى مما أدى الى تدهور الاوضاع الاقتصادية وفساد الاحوال الاجتماعية.(٤٧)
فالفلاحون مضطرون الى دفع الرسوم التى كانت ترهقهم. هذا الى جانب الالتزامات الاخرى المتنوعة التى كانوا يؤدونها بحكم العادة للاقطاعيين كالضيافة والهدايا. وإذا إضطر بعض الفلاحين لترك الاراضى والهروب فإنهم كانوا يؤدونها بحكم العادة للاقطاعيين كالضيافة والهدايا. وإذا إضطر بعض الفلاحين لترك الاراضى والهروب فانهم يعادون قسرا. بحيث بات العمل فى فلاحة الارض أمرا الزاميا، وأضحى الفلاح عبدا لمن اقطع فى ناحيته. يقول أحد من أرخوا لعهود الاقطاع: «وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين، أى خلال ثلاث سنوات، يلزم ويعاد الى القرية قهرا، ويلزم بشد الفلاحة، والحال فى غير الشام أشد منه فيها...».(٤٨)
وقد اثر اندلاع الثورات وحدوث الانقسامات فى الدولة العباسية فى الحركة التجارية سواء على الصعيد المحلى أو فى النطاق الدولى مما أدى الى اضعاف القوى الاجتماعية التى تعتمد على النشاطات التجارية واثر كذلك على نشاط الفئات الاخرى كاصحاب الحرف والصناعات اليدوية.(٤٩)
وأمتد تأثير سيطرة المماليك على الحكم الى الحياة الفكرية ذلك أن هذه الفئة غريبة عن العرب ومتخلفة فكريا. لذلك كانت معادية للفكر والاراء المستنيرة فتم إضطهاد العلماء والمفكرين وبذلك توقفت النهضة العلمية.(٥٠) ثم كان الجمود والتراجع الذى بلغ ذروته عندما برزت الدويلات الانفصالية كدولة البويهيين ودولة السلاجقة.(٥١) لقد عوضت بعض الدويلات بقوتها وطابعها القومى وعمقها الحضارى بعض مالفتقدته الامة العربية لكن ذلك كان مجرد تأجيل لدخول الحضارة العربية الاسلامية طور الانحطاط الذى مهد للغزو الصليبى.(٥٢)
ورغم أن الغزو الصليبى أنتهى بالقضاء على آخر معاقل الصليبيين وتطهير الارض العربية منهم عام ١٢٩٠ ، فان العرب لم يتمكنوا من الارتفاع بمستواهم الحضارى ذلك أن المماليك وهم الذى قادوا العرب الى النصر حولوا الارض العربية الى «اقطاع حربى» لرؤساء الجند وأمراء العسكر منهم. وأستعبدوا الناس وكثيرا ما استخدموهم فى أعمال السخرة.(٥٣)
وكانت سيطرة نظام الاقطاع تعنى مزيدا من الانقسام والتفتت حيث قامت الحواجز بين الامارات الاقطاعية التى كانت تسمى «السنجقيات» و«الكشوفيات» وأصبحت لكثير منها اجهزتها المتميزة المستقلة عن السلطة المركزية. ففى مصر على سبيل المثال أختفت الوحدات الادارية التى كانت قائمة منذ عهود بعيدة وتعددت أنواع العملة والمكاييل والمقاييس وظل الامر كذلك حتى مجئ محمد على حيث وحدها.(٥٤)
لقد تبلورت ملامح المجتمع الاقتصادى ويرى فيه الدكتور ابراهيم طرخان ثلاث طبقات كبرى هى .(٥٥) «رجال السيف أو الطبقة الحربية الارستقراطية بعناصرها المختلفة، ورجال القلم من موظفى الديوان والقضاة ورجال التعليم وأهل التصوف وطلاب العلم، وأرباب الحرف المختلفة بين تجارة وصناعة وزراعة.
ويقع المواطنون سواء من المصريين أو الشاميين أو الحجازيين أو اليمنيين، وكذلك المستوطنون والواردون من الفرنجة والجنوبيين والبنادقة والمغاربة وغيرهم من الخاضعين للمماليك ضمن الطبقتين

الاخيرتين.»

وعادت النعرة القبلية الى الظهور فى عهد المماليك. وتمتع شيوخ القبائل باستقلال محلى محدود. وكانت العلاقات بينهم وبين المماليك عدائية لانهم كانوا يتحينون الفرص للاغارة على اقطاعيات الامراء لنهبها وتخريبها. وواجه المماليك تحركات القبائل بالقمع.(٥٦)

وفى الجانب العلمى أختفى الخلق أو الابداع وأقتصر النشاط الفكرى على «الجمع» و «التصنيف» و «التدوين» و «التنقيح» . وتميز العصر المملوكى «بالحفظ» و«الشروح والحواشي» على «المتون» . ولم يكن للفلاسفة والعلماء مكان. أما الفقهاء والدراويش فقد حول المماليك معظمهم الى مجرد موظفين. ومن مظاهر الانحطاط قيام جند الغزو المماليك عام ١١٧٦ أى فى عهد الامير بهاء الدين قراقوش، بتبديد مكتبة القاهرة الفاطمية التى كانت تضم ٢,٦٠٠,٠٠٠ كتاب، أى قبل تدمير هولاكو لمكتبة بغداد عام ١٢٥٨م.(٥٧)

وكثرت التكايا وأماكن التصوف وانتشرت الخرافات بعد أن ساد الجهل واستقرت العادات والتقاليد والاعراف التى هى أقرب الى الجاهلية كالاعتقاد بالسحر، كما كثرت الاساطير الدينية(٥٨) كأسطورة المنتظر.

ج_ الشخصية القومية :

كان لابد أن تترك هذه الاوضاع اثرا واضحا فى القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع العربى . وقد أحدثت بالفعل تغييرا كبيرا فيها. انعكس بشكل واضح فى السلوك العام بحيث بدأ هذا السلوك تعبيرا عن سمات جديدة ابرزها :

أولا : اللامبالاة : حيث أختفى الاهتمام بالقضايا العامة بين الناس. ولم يعد يوجد بينهم من يملك القدرة على الوقوف فى وجه الحاكم ليقوّم اعوجاجه. لقد اتسعت الهوة بين الحاكم والمحكومين. ذلك أن الرعب والخوف عم بين الناس نتيجة لاستبداد المماليك وجورهم. وتفشت جرائم الغش والتزييف والسرقة والقتل والجرائم الخلقية. لذا كان هم الناس ليس الحكم ولكن ضمان سلامة أرواحهم وأرزاقهم وممتلكاتهم(٥٩).

ثانيا : الفردية : بمعنى تغليب المصلحة الذاتية على المصلحة العامة. وتعود هذه السمة الى الاوضاع التى سادت منذ سيطرة المماليك على الحكم والتى أدت الى غياب الثقة بين الناس. فقد عاش الانسان العربى فى ظل التحكم المملوكى لنفسه ولاسرته فقط ولا مفر فى ذلك فهو يرى فى السلطة السياسية أداة للعسف والقمع. ولم يكن من الممكن تجاوز إطار الاسرة والاقارب فى مجال التعاون الى الاطار الاوسع فى ظل غياب الثقة والطمأنينة.(٦٠)

رابعا: العثمانيون وعملية التغير الاجتماعى

أ_ البناء السياسى :

عندما زحف الاتراك العثمانيون على البلاد العربية كان الوطن العربى فى حالة تفكك وانحلال. فالعراق يخضع لحكم الصفويين فى إيران. وبلاد الشام ومصر تحت حكم المماليك الذين وصل نفوذهم الى الحجاز واليمن. أما الاجزاء الاخرى من شبه جزيرة العرب فقد كانت مستقلة تحكم وفقا للتنظيمات القبلية. وفى السودان كانت دولة الفونج تحاول توحيد بلاد وادى النيل فى دولة عربية اسلامية. وتباينت الاوضاع السياسية فى شمال افريقيا. فقد سيطر فرسان القديس يوحنا على ليبيا من عام ١٥٣٠_١٥٥١م .كما ظلت الدولة الحفصية قائمة فى تونس حتى عام ١٥٣٤م وحكم أمراء بنو عبد الوديد الجزائر فترة طويلة من الزمن حتى سقطت فى يد الاسبان .وفى المغرب الاقصى سيطر أمراء بنو واطس على منطقة فاس حتى عام ١٥٥٠م بينما كانت الاسرة الشريفة تحكم اجزاء آخرى.(٦١)

لقد دخل السلطان سليم الاول سورية وهزم المماليك فى معركة «مرج دابق» قرب حلب عام ١٥١٦م، ودخل فى العام التالى مصر وقضى على دولة المماليك، مما دفع شريف مكة الى تسليمه مفاتيح الاراضى المقدسة ومنحه لقب خادم الحرمين الشريفين.(٦٢) وتوغل العثمانيون شرقا وجنوبا وغربا فاستولوا على العراق عام ١٥٣٤م، وعدن عام ١٥٤٧ والاحساء عام ١٥٥٥م. وأمتد

سلطانهم فى المغرب العربي الى ليبيا عام ١٥٥١، والى وهران وتلمسان فى الجزائر عام ١٥٥٦م.(٦٣) وبقيت بلاد المغرب الاقصى خارج حدود الدولة العثمانية. وفى الاجزاء التى تمت السيطرة عليها كان النفوذ العثمانى مقصورا على المناطق الساحلية فى طرابلس وتونس والجزائر، لان طبيعة البلاد الجغرافية جدت من توغل العثمانيين فى المناطق الداخلية.

كذلك ظل قلب شبه جزيرة العرب بعيدا عن الحكم العثمانى. فمن الثابت أن نَجْد لم تشهد حكم ولاة عثمانيين. ولم تقم فيها أى حامية تركية. لقد تركت السلطنة العثمانية حكم هذا الاقليم لامرائه يحكمونه بالطريقة القبلية طالما لم يعلنوا عداءهم للدولة. فاستقر حكم نجد في عدد من الاسر المشهورة مثل آل معمر في العينية وآل زامل فى الخرج وآل دواس فى الرياض وآل سعود فى الدرعية(٦٤). وقد تمتع بعض الولاة بقدر كبير من القوة سمح لهم ليس فقط بتجاهل السلطان بل والاتصال بالدول الاجنبية المناوئة له كما فعل الامير فخر الدين المعنى الثانى.وقد واجهه بعضهم وحاربوا كما فعل امراء آل سعود وكما فعل محمد على بك الذى أوشك على القضاء على الخلافة العثمانية لولا تدخل الدول الاوروبية. وفى الجزائر كان الحكام يملكون القدرة على ابرام المعاهدات مع الدول الاجنبية دون الرجوع الى السلطان.(٦٥)

ب البناء الاقتصادى والاجتماعى :

كانَ الحكم العثمانى حكما مطلقا بصفة عامة حيث الاوامر السلطانية هى القوانين التى تدار وفقا لها شئون البلاد . فتأثر الحكم وخاصة فى فترات الانحطاط بنزوات السلاطين واستبدادهم وفساد الحاشية المحيطة بهم. واستغل السلاطين مبدأ الخلافة لتقوية نفوذهم، وتدعيم الاوامر والقرارات الصادرة عنهم، من منطلق ان السلطان هو أمام المسلمين، وقد جرى استرضاء بعض القضاة والائمة والمشايخ لما لهم من تأثير فى عامة الناس، فكانت تصدر الفتاوى الشرعية لتعزيز قرارات السلطان فيما يرى من الامور.(٦٦)

لذا تعتبر فترة الحكم العثمانى استمراراً لمرحلة التراجع والانحطاط للحضارة العربية الاسلامية. فقد سار المجتمع العربى خطوات أبعد مما كان عليه من قبل فى طريق التخلف، وفى مختلف الميادين حيث تدهورت الاوضاع الاقتصادية، وعم الجهل وظهرت الانقسامات الاجتماعية.

١) تدهور الاوضاع الاقتصادية :

ان متابعة أوضاع الولايات العربية خلال أربعة قرون تبين بوضوح أنه لم يجر من الناحية الفعلية، سوى استبدال حاكم مملوكى بآخر عثمانى. مما كان يعنى استمرار النظام الاقطاعى.(٦٧) لكن هذا النظام برز أكثر ما يكون وضوحا بعد أن فسدت أحوال جيش الانكشارية، حيث أصبحت الحكومة العثمانية فى العاصمة غير قادرة على السيطرة على الامور. مما ساعد الولاة والاقطاعيين على تحقيق أطماعهم. وأضحت القوة العسكرية فى ايديهم أداة يستخدمونها لبلوغ أغراضهم الشخصية. فعمت الفوضى وساد الفساد. ولم يعد الحكام والولاة يعنون الا بجمع المال وتوسيع حدود ولاياتهم. وكان الباب العالى يمنح الايالات والسناجق لمن يقدم له أموالا أكثر. ما دفع الولاة الى التسلط على الاهالى لكى يوفوا بالتزاماتهم تجاه السلطان من جانب ويشبعوا رغباتهم فى الثراء من جانب آخر،(٦٨) مما أدى الى اهمال الزراعة والصناعة. واستمر العمل فيها بوسائل واساليب بدائية وترتب على ذلك تدهور الاوضاع فى هذين القطاعين.

٢) تفشى الأمية :

لم يكن الاتراك العثمانيون أهل حضارة، فقد جاءوا الى بلاد الاناضول بدواً، وانشغلوا عن العلوم بالفتوحات واستمروا على بداوتهم، ولذلك وقفوا عاجزين أمام متطلبات الحضارة.(٦٩) وشجعوا الافكار القائمة على الخرافة لانهم كانوا ينفرون من الفلسفة والمعارف العقلية. فلم يقتصر الامر، بخصوص الحركة العلمية على ركونهم الى التقليد وانعدام الابداع بل تعدى ذلك الى أهمال التأليف عموما بحيث لم يتجاوز عدد المطبوعات العثمانية فيما بين عامى ١٧٢٨ _١٨٣٠ أربعين كتابا تغلب على معظمها الشعوذة والخرافات.(٧٠)

ولقد اثر تدهور الحركة العلمية على نظام التعليم

الطبي بشكل خاص. يقول الدكتور علي حسون في هذا الخصوص: «وعندما دخلت الدولة مرحلة الضعف والانحطاط وهن النظام التعليمي الطبي وأضحى عاجزا عن تطوير برامجه حسب واقع العالم الحديث، ولم تعد المدارس العثمانية قادرة على اللحاق بحركة النهضة الاوروبية الحديثة. وساء الوضع بعد حكم السلطان سليمان القانوني. ولم يعد تدفق العلوم والمعارف الى المدارس كافيا واستمرت الامور تتدهور حتى غدت الاستاذية تاتي بالوراثة والالقاب تمنح لعلماء ليسوا على مستوى المسؤلية والكفاءة. وأدى الانحطاط والتفسخ في الميادين الاكاديمية الى تدني مستوى الطب العثماني.»(٧١)

كما أدى عدم الاهتمام بالتعليم عموما الى تفشي الجهل على نطاق واسع، والاعتقاد بالسحر، وانتشار الشعوذة، يكفي أن نشير الى أن الناس اعتقدوا عندما شاهدوا المنطاد يحلق فوق العاصمة العثمانية لاول مرة بأنه نوع من السحر.(٧٢) والى اعتبار التعليم العسكري وفقا للنظم الحديثة، وإدخال الاسلحة الاوروبية الحديثة الى الجيش نوعا من البدع والتشبه بالكفار يجب مقاومته.(٧٣)

٣) الانقسامات الاجتماعية :

لقد ساعدت حالة التخلف على سيطرة فئة قليلة من الاقطاعيين وكبار التجار على مقدرات البلاد وخيراتها، وحرمان الغالبية العظمى منها، مما كان يعني انتشار الفقر بين الناس.

كما عملت السياسة العثمانية على ظهور النعرات الطائفية وبخاصة في بلاد الشام، حيث ضمت هذه البلاد طوائف إسلامية عديدة كالسنة والدروز والشيعة والنصيرية، وطوائف مسيحية عديدة ايضا كالموارنة والروم والارثوذكس والأرمن وغيرهم والى جانبهم الطائفة اليهودية.(٧٤)

أن السياسة العثمانية القائمة على رغبة الدولة في حكم جبل لبنان حكما مباشرا هي التي لعبت دورا بارزا في زرع بذور الطائفية. فقد كانت الدولة تحرض طائفة على آخرى لكي تضعف الطائفتين، الدرزية والمارونية، فيعود الجبل الى قبضتها لكن هذه السياسة أدت الى نتائج عكسية. لقد أيد العثمانيون الدروز في الفتنة الاولى التي وقعت بين الطائفتين عام ١٨٤١م. وأنتهت الازمة بقيام نظام القائمقاميتين، واحدة للدروز وآخرى للموارنة، لكن الامور لم تستقر اذ أن هذا النظام هيأ المناخ لتفجير الصراع مرة تلو الاخرى بين الطائفتين بدلا من إنتهائه فكانت الفتنة الثانية عام ١٨٤٥م وفتنة عام ١٨٥٩م ومذابح عام ١٨٦٠م ومانجم عنها من تطبيق للحكم الذاتي في الجبل.(٧٥)

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية اعترفت للطوائف غير الاسلامية بشخصية معنوية من خلال ترك تنظيم الشئون الدينية والقضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية لرؤساء تلك الطوائف بحيث تتمتع البطاركة بسلطات تجعل من البطركية بمثابة دولة داخل الدولة. الا ان معاملة الحكومة للمسيحيين كانت في اطار تحديد طبيعتهم من حيث المواطنة ففي حين كانت تسمى المسلمين «تبعة» نجدها تطلق على غير المسلمين لفظ «رعايا» لتشير الى طوائف تحتل مرتبة ثانوية تعيش في أمان بفضل عطف السلطة العثمانية ورعايتها، مع أن هذا اللفظ كان يطلق في عهود قوة الدولة على جميع المواطنين لكنه أصبح مقتصرا على غير المسلمين في فترات تخلف الدولة وضعفها ليعني لهم مكانة فيها شئ من الحطة والمهانة بالمقارنة مع المسلمين.(٧٦)

وترتب على ذلك أوضاع معينة سواء في العيش أو في السلوك اذ فرض على غير المسلمين العيش في بيوت أقل ارتفاعا من بيوت المسلمين والتقيد بلباس خاص لتمييزهم عنهم. ولم تكن تقبل شهادة غير المسلم على المسلم في أية قضية وعلى أي وجه. ونجمت عن ذلك بطبيعة الامر مساوئ كثيرة سواء فيما يتعلق بعلاقة المواطنين ببعضهم البعض أو فيما يتعلق بنظرة غير المسلمين الى الدولة ذاتها من منطلق الشعور بالغربة.(٧٧)

لقد أخذت الطوائف المسيحية تتطلع الى الدول الاوروبية لحمايتها وممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لاصلاح احوالها. وعملت هذه الدول على الاستفادة من هذه الاوضاع فادعت فرنسا حق حماية الكاثوليك بينما أدعت بريطانيا حق حماية

البروتستانت واعتبرت روسيا نفسها حامية للارثوذكس. ومن الطبيعي أن تستغل القوى الاجنبية هذه الاوضاع لصالحها.(٧٨)

ج الشخصية القومية :

لقد كان الحكم العثماني أمتداداً للحكم المملوكي من حيث تاثيره السلبي في الشخصية العربية. فقد باتت القيم الاجتماعية السائدة في ظله قيماً «لاتعبر عن الرغبة في التجديد.» لقد تضاءلت القيم الروحية وتلك القيم التي ترتبط بالتضحية والمثابرة والاعتماد على النفس، وانعكس ذلك على السلوك العام فاصبح يتميز، اضافة الى السمات السابقة، بسمات اخرى ابرزها:

أولا : الانفعال : وهو سمة ملازمة لحياة البداوة لكنه ظهر كنتيجة للجهل وتفشي الخرافات، حيث ساد التفكير العاطفي، وأختفى التفكير العلمي الذي يستند الى الحقائق والاستدلال المنطقي، مما جعل السلوك الاجتماعي قائما على التخبط والارتجال.(٧٩)

والانفعال، كما هو معروف، يذهب بالجهد الانساني ويجعله مجرد مجهود عابر يرتبط بموقف معين ثم سرعان مايفتر ويزول. مما يعني أن المشكلة المقترنة بذلك الموقف لاتجد طريقها الى وعي الانسان في اطار التنبؤ بها والتخطيط لمواجهتها وحلها، وانما يفاجأ بها بعد أن تبلغ نتائجها المقررة لها، فتكون استجابته النفسية لها انفعالا سرعان ما ينتهي بالهدوء والنسيان، فتبقى المشكلة قائمة بكل نتائجها واثارها.(٨٠)

ثانيا : النزوع الغيبي : بمعنى احالة كل موقف من أي جانب من جوانب الحياة الى قوة خافية قاهرة. ولابد من التنبيه الى أن هذا النزوع كطراز للتفكير ليس مبعثه الايمان بالله، وانما الخرافات التي اقترنت بممارسات بعض المسلمين. فعندما اقترن النزوع الغيبي بالايمان بالله في صدر الاسلام أصبح طاقة قومية هائلة أقام العرب بفضله دولة مترامية الاطراف، وكانت لهم حضارة راقية. اذ لم يكن الايمان ينفصل عن العمل(٨١) ولكن بعد تفشي الخرافات اصبح النزوع الغيبي الخضوع والانقياد لكل ذي سلطان. وتبرير ذلك الخضوع من زاوية دينية كأن يقول الناس في ظل وجود حاكم ظالم بان هذه هي ارادة الله. وانه لو لم يرد ذلك الامر لما كان. وعليه لابد من التسليم والخضوع لذلك الحاكم من منطلق الاستجابة لارادة الله. وهو امر يتنافى مع جوهر الدين الذي يدعو الى العدل ومقاومة الظلم.

ثالثا : النفور من العمل اليدوي : ليس فقط من جانب أهل البادية وانما أيضا من جانب أهل المدن: واذا كان احجام البدوي عن الزراعة وممارسة الحرف اليدوية يرتبط بطبيعة حياته حيث التنقل والترحال، والشعور بإمكانية الحصول على مايشاء بالاغارة على القرى اذا لزم الامر، فان احجام أبن المدينة بصفة عامة عن العمل اليدوي يرجع الى اواخر الحكم العثماني حيث ساد الميل الى العمل الوظيفي باعتباره يعني الثقافة والسلطة والراحة. ولكن بعد أن أتسعت وكثرت المرافق في البلاد العربية عاد الناس الى مزاولة العمل في الحرف والصناعات المختلفة.(٨٢)

خامسا : السيطرة الغربية

مع أن البلاد العربية ظلت أثناء الحكم العثماني بعيدة عن التماسك الحقيقي فقد حافظت على درجة من الوحدة عبرت عنها مظاهر محددة أبرزها ولاء المواطنين للدولة العثمانية ووحدة البناء الاقتصادي فضلا عن الوحدة الثقافية.

لكن هذه المظاهر أختفت مع السيطرة الاستعمارية لان اثار تلك السيطرة تجاوزت الجانب السياسي الى الجانب الاقتصادي والاجتماعي وما ارتبط بذلك من تشويه للشخصية القومية.

١) التمزق السياسي :

تعتبر السيطرة الاستعمارية العامل المباشر في التمزق الذي أصاب الوطن العربي، واذا نحينا جانبا الخطوات الاستعمارية الاولى التي قامت بها كل من البرتغال واسبانيا(٨٣) نجد أن بريطانيا وفرنسا قامتا بالدور الرئيسي في هذا المجال والى جانبها ايطاليا، سواء من خلال النشاطات الفردية لكل من هذه الدول الثلاثة أو من خلال الجهود المشتركة.(٨٤)

فقد بدأ اهتمام بريطانيا بالشرق مبكراً عندما ظهرت اهمية الخليج العربي والبحر الاحمر ومصر في تأمين حركة الملاحة الى ممتلكاتها في الهند فمنذ أواخر القرن الثامن عشر أخذت تتدخل في شئون أمارات الخليج. بدأت بمسقط عام ١٧٩٨م ثم رأس الخيمة عام ١٨٢٠م والبحرين عام ١٨٧١ والكويت عام ١٨٩٩م. وأحتلت عدن عام ١٨٣٩م. كما عملت على بسط نفوذها على مصر وأحتلتها عام ١٨٨٢م.

وبدأت فرنسا نشاطاتها الاستعمارية باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م ثم اتجهت نحو تونس، فعملت على الحصول على العديد من الامتيازات ثم احتلت هذا البلد عام ١٨٨١م. وكانت منذ أن احتلت الجزائر تتحرش بمراكش ونجحت في بسط حمايتها عليها عام١٩١٢م.

وبفضل الجهود الاستعمارية المشتركة للدول الثلاثة تم اقتسام الصومال منذ أواخر القرن الماضي، كما استطاعت ايطاليا احتلال ليبيا عام ١٩١١م في اطار الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٢م حيث وافقت الاخيرة على المطامع الايطالية في هذا القطر العربي مقابل السكوت على النوايا الفرنسية في مراكش.

ووفقا لاتفاق سايكس بيكو المبرم بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٦م تم تقسيم البلاد العربية في آسيا بعد احتلالها. وكان نظام الانتداب تغطية للسيطرة الاستعمارية وفي ظله قسمت بلاد الشام الى قسمين، شمالي وجنوبي، وضع الاول تحت الانتداب الفرنسي ووضع الثاني تحت الانتداب البريطاني. كما بسطت بريطانيا نفوذها على العراق. وانتهت السيطرة الاجنبية بتقسيم هذه البلاد فظهرت في بلاد الشام دول: سورية ولبنان والاردن. وتم اغتصاب الجزء الجنوبي وانشاء الكيان الصهيوني في فلسطين. وحصل العراق على استقلاله.

٢) التمزق الاقتصادى :

وفي ظل السيطرة السياسية اختفت الوحدة الاقتصادية التي استمرت طيلة العهد العثماني. فبعد أن كانت البضائع تنتقل بحرية وتدفع قيمتها بعملة واحدة هي الليرة الذهبية الثابتة، اقيمت الحواجز الجمركية وتعددت العملات المتداولة بتعدد المستعمرين. فاضطربت أوضاع التجارة بسبب هذه الحواجز حيث صعوبات تحويل العملات وتقلبها وتدهور قيمتها وبخاصة الفرنك الفرنسي وظهور الازمات الاقتصادية. وأضحت البلاد العربية بعد الحرب العالمية الاولى أكثرسوءاً مما كانت عليه أيام العثمانيين. وبعد أن حصلت البلاد العربية على استقلالها أصبح الانفصال الاقتصادى بين الدول العربية _باستثناء سورية ولبنان_ تماما كالانفصال بين الدول الاجنبية.(٨٥)

وعن طريق السيطرة الاستعمارية دخل رأس المال الاجنبي الى جميع القطاعات. وقد سعت الشركات الاجنبية الى استغلال الثروات العربية وفي الوقت الذى عملت فيه على تحطيم أسس العلاقات الانتاجية التقليدية كالروابط الاسرية والعلاقات العشائرية، فانها أعاقت نشوءعلاقات جديدة. وأقامت بعض المؤسسات الاقتصادية كالبنوك والشركات التجارية والسياحية وبعض المنشآت الاخرى.(٨٦)

وفي معظم البلاد العربية أضحى راس المال الاجنبي القطاع المسيطر مستندا الى قاعدة اجتماعية صغيرة جدا. ففيما عدا بلاد المغرب التي شكل المستوطنون الاجانب فيها القاعدة الاجتماعية لهذا القطاع، فانه كان «يجرى تحت اشراف جماعات محدودة نسبيا من الاداريين والمهندسين او التقنيين الاجانب ذوى المرتبات العالية وبعض الاداريين الذين لابد منهم..»(٨٧)

لقد وقف رأس المال الاجنبي في وجه تطور المجتمعات العربية لانه لم يكن معنيا بطبيعة الحال باقامة صناعات محلية متطورة. فهو امتداد للاقتصاد الاجنبي،ووظيفته ودوره في المشاركة في تطور ذلك الاقتصاد من خلال التغلغل في الاقتصاد العربي وربطه باقتصاد الدول الغربية الصناعية.

ويظهر اثررأس المال الاجنبي في الاقتصاد العربي في اهمال الزراعة واتجاه رأس المال المحلي الى

القطاعات غير المنتجة بصورة رئيسية وعدم الاهتمام بالصناعة فقد ظلت العلاقات في معظم المناطق الزراعية شبه اقطاعية. ونتج عن بدائية الاساليب المتبعة في الزراعة، وعدم السعي الى تطورها، انخفاض انتاجية العمل الزراعي وانتشار البطالة، واندفاع الكثير من الفلاحين الى المدن، مما زاد في ضعف الزراعة وتدهورها.(٨٨)

ولم تكن الصناعة أحسن حالا فقد كان رأس المال المحلي عاجزا عن أقامة صناعات وطنية متطورة، وذلك لصغر حجمه وعدم قدرته على تلبية متطلبات بناء مشاريع صناعية حديثة، فضلا عن افتقار البرجوازية الوطنية العربية الى الخبرة والتكنولوجيا الحديثة. فانصرف الرأسماليون المحليون الى توظيف اموالهم في المجالات التي تدر عليهم أرباحا طائلة في زمن قصير كالتجارة وقطاعات الانتاج الصغيرة وبعض الصناعات الخفيفة. مما كان يعني نشوء قطاع راسمالي محلي هزيل يوجهه ويؤثر فيه الى حد كبير الرأسمال الاجنبي.(٨٩)

لقد ظل الاقتصاد العربي ،بصفة عامة، اقتصادا زراعيا بسبب أهمال السلطات الاستعمارية، والى ذلك الحد الذي أثر على قرارات الحكومات العربية التي نشأت عقب الاستقلال.(٩٠)

٣)الغزو الثقافي :

استهدفت السيطرة الغربية الثقافة العربية كجزء من عملية تفتيت الشخصية القومية، وذلك لان الثقافة تكون أحد ملامح هذه الشخصية. فقد عمل الاستعمار الاوروبي على طمس معالم الهوية القومية التي تميز العرب عن غيرهم. وسارت جهوده في خطين متوازيين : محاربة الثقافة العربية من جانب ونشر الثقافة الغربية من جانب آخر.

لقد عملت السلطات الاستعمارية على محاربة اللغة العربية من خلال تشجيع اللهجات المحلية وتحويلها الى لغات قومية لتحل محل اللغة العربية الفصحى، ولتصبح أساس التعلق بقوميات مناهضة للقومية العربية ومجال الاشارة الى مجموعات لغوية مختلفة ثم الايحاء اليها -أي تلك المجموعات- بحقها في تشكيل كيانات سياسية مستقلة خاصة بها.(٩١)

كما عمل المستعمر على احلال لغته محل اللغة العربية. فقد حاول الفرنسيون احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في المدارس والدوائر الحكومية وفي الحياة اليومية في المغرب العربي عموما وفي الجزائر بصورة خاصة.(٩٢) وكانت محاولتهم في سورية ولبنان على نطاق أضيق. وعملت بريطانيا على نشر لغتها في المناطق التي استعمرتها. ولا يختلف الامر بالنسبة لايطاليا.

كما أخذت السلطات الاستعمارية تشرف على وضع البرامج التعليمية والثقافية وعلى تأليف الكتب الخاصة بها. وذلك لافساح المجال أمام الثقافة الغربية للتغلغل في الحياة العربية على حساب الثقافة العربية والتراث العربي، وترتب على ذلك نشؤ أجيال من الشباب العربي تلقّت ثقافة موجهة. مما أدى الى ظهور الكثير من الموالين للثقافة الغربية والمدافعين عنها رغم بعدها عن الروح العربية.(٩٣)

ولذا نجد القوى المعادية للامة العربية تتحدث عن انفصال المثقفين العرب عن جماهيرهم. «باتاي «مثلا وهو احد الكتاب الصهياينة يصور «..المثقفين العرب على انهم نخبة ادى بها اقتباس لغة الغرب وثقافته الى الانفصال عن الجماهير الجاهلة التقليدية. مما يؤدي الى ما يسميه..(هامشية المثقف العربي)، فالمثقف العربي يعيش على هامش المجتمعين العربي والغربي مهما تمكن من ثقافتيهما. ومع الاحساس بالهامشية تجاه مكانته في المجتمعين ياتي الاحساس بالالتباس فهو لايعرف الى أي المجتمعين يميل لان جسمه وجهده في مجتمعه أما عقله وهواه فمع مجتمع آخر..».(٩٤)

٤) تشويه الشخصية القومية :

لايقتصر تاثير السيطرة الاستعمارية على الجوانب السابقة بل يتعدى ذلك الى عملية تشويه متعمدة للشخصية العربية تبدو واضحة في نواحي عديدة ابرزها:

أولا: التقليل من أهمية الحضارة العربية الاسلامية: وذلك من خلال المبالغة في تاثير الحضارة اليونانية في الحضارة العربية لتبدو أقل قيمة منها. ولتقتصر قيمة حضارتنا في التاريخ الانساني على حفظ

التراث اليونانى ونقله الى أوروبا كما يقول موريس كروزيه فى موسوعة «تاريخ الحضارات العام» الصادرة عن جامعة السوربون. حتى ان بعض الكتاب لايرون هذه القيمة فالمؤرخ جورج دوبى يرى أن العرب قدموا تفسيرا مشوها للتراث اليونانى، ولم يكن فى مقدور اوروبا الاستفادة من هذا التراث الا بعد استبعاد ذلك التفسير. ويبدو واضحا أن فى هذا الزعم تشويه لاعمال الكندى وابن رشد وابن سينا وجهودهم فى التوفيق والتفريق بين الفلسفة والدين.(٩٥)

وبعض الذين لاينكرون فضل المفكرين العرب على الحضارة الاوروبية يحاولون ربطهم بهذه الحضارة فيجرى فصل ابن رشد مثلا عن الحضارة العربية وربطه بالهلينية والعقل اليونانى وينظر الى ابن خلدون كحالة شاذة فى تاريخ الفكر العربى.(٩٦) لذلك تجد مفكرين غربيين مثل أرنست ينان يرون أن تخلف العرب يرجع الى الاسلام فهو يقول كان «..الاسلام والمسيحية الشرقية السياسية سببا فى التأخر والتخلف». ويقصر الابداع الحضارى على العرق الارى فيقول: «فهذه المقدرة على الانتاج الحضارى مقصورة على العرق الآرى، والساميون بتمثلهم الدينى البسيط الذى تشكل المسيحية البدائية الشرقية أحد روافده يمثلون ازدراء الفنون والفكر الحر.. يمثلون جمود العقيدة وتبسيطية الايمان».(٩٧)

ثانيا : اشعارنا بأن ما علق بنا من سلبيات فى فترات التخلف والانحطاط هو أصيل فى شخصيتنا. فالكتابات الغربية المغرضة والصهيونية العنصرية تشير باستمرار الى أن تخلف العرب يرجع الى «طبيعتهم الجامدة غير القابلة للتطور والمعادية للعلم والتفكير الموضوعى».(٩٨)

ثالثا : اشعارنا بالدونية : بالسعى المستمر لخلق القناعات لدى شبابنا بان الانسان العربى أقل مستوى «بطبيعته» من الانسان الاوروبى. وأن وجود الاول لايمكن ان يكون الا بفضل الثانى. بزعم أنه لايمكن أن يكون لنا استقلالنا الثقافى. لقد كان الغرض تكريس التبعية وتبرير استمراريتها.

الخاتمة

نلخص مما تقدم الى تأكيد الامور التالية:

أولا : أن العرب لم يكونوا مجرد بدو رحل، فقد كانوا فى الجاهلية بدوا وحضرا. وأقاموا دولا ذات حضارات رفيعة. وظهر الاسلام فى مكة وهى حضرية رغم أن أساس التنظيم الاجتماعى هو القبيلة.(٩٩)

ثانيا : أن الاسلام طبع شخصية العرب بطابعه بعد أن أكد على أفضل ما لديهم من الشمائل. فقد حثهم على العمل وطلب العلم، وارتفع بهم درجات كبيرة فى مجال الابداع الحضارى.

ثالثا : أن العرب استوعبوا ما وصلت اليه الحضارات السابقة. ولولاهم لما أنتقلت مظاهر الحضارة اليونانية الى روما. ثم تجاوزت ما وصلت اليه هذه الحضارة فكانت حضارتهم أكثر رقيا.

رابعا : أن السمات السلبية التى تبدو اليوم ضمن ملامح الشخصية العربية هى ليست أصيلة فى العرب. فقد تشكلت نتيجة لتراكم ظروف وأوضاع اقترنت بسيطرة عناصر أجنبية على الحكم فى الدولة العربية الاسلامية وانطواء العرب تحت الحكم العثمانى. فقد اختل جهاز الحكم بعد أن أخفق العباسيون فى تحقيق التعاون والتفاهم بين العرب والفرس حيث تم الاعتماد على عناصر غير عربية فى قيادة الجيش. وبدل أن يكون المماليك أداة فى يد الخليفة العباسى أصبح الاخير أداة فى ايديهم. وترك هذا الوضع اثره فى عملية التغير الاجتماعى حيث سارت هذه العملية فى نفس الاتجاه فى ظل الحكم المملوكى ومن بعده الحكم العثمانى.

خامسا : أن الكتابات الغربية المغرضة عملت على تشويه الشخصية العربية(١٠٠) وجرى

تفسير آراء ابن خلدون فى مقدمته بصورة مشوهة. فالشعويون استشهدوا بها ليزعزعوا ايمان الشباب فى مزايا أمتهم. كقوله بأن (العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب) و (أن العرب أبعد الناس عن الصنائع) غير أن ابن خلدون استخدم كلمة العرب ليشير الى البدو الرحل ولم يقصد بها العرب كافة فهو يقول عنهم «فغاية الاحوال كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له»(١٠١)

سادسا : أنه تقع على المفكرين العرب مسؤلية ماعلق بالشخصية العربية من شوائب. وتنقيتها مما أصابها من تشويه بحيث تصبح شخصية فاعلة قادرة على جعل التقدم والتطور محور العملية الاجتماعية الامر الذى يمكن أمتنا من مواجهة التحديات الحضارية بكل قوة وصلابة.

الهوامش

(١) د. علاء الدين جاسم البياتى، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة الاعلمى- ١٩٧٥، ص٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) قارن د . مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥، ص١٧٨.

(٤) قارن د . السيد محمد بدوى، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٧، ص٣٦.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر المرجع السابق، ص٥٣ وما بعدها.

(٦) مصطفى الخشاب، مرجع سابق ، ص ١٦٥.

(٧) ورد فى علاء الدين، مرجع سابق، ص ص ٥١، ٥٢.

(٨) قارن مصطفى الخشاب، المرجع المشار اليه، ص ١٨٨.

(٩) قارن رأى ابن خلدون فى اسباب خراب العمران في سهيل عثمان ومحمد درويش، من مقدمة ابن خلدون، دمشق، وزارة الارشاد القومى، ١٩٧٨، ص ص ٢٦٠ ـ ٢٦٨، ٢٧٨ وما بعدها.

(١٠) قارن د . مصطفى حجازى، التخلف الاجتماعى، الطبعة الاولى، بيروت، معهد الانماء العربى، ١٩٧٦، ص ص ٤٠، ٩٣ وما بعدها.

(١١) لمزيد من التفاصيل أنظر السيد بدوى، مرجع سابق، ص ٨٧ وما بعدها وكذلك مصطفى الخشاب، مرجع سابق، ص ١٨٨ وما بعدها.

(١٢) ر. م ماكيفر وشارلز بدج، المجتمع، الكتاب الثالث، ترجمة الدكتور السيد محمد العزاوى وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١، ص ٨٩٣ وما بعدها.

(١٣) انظر على سبيل المثال د . حافظ الجمالى، «مفهوم التقدم فى التاريخ الحضارى العربى» ، وندوة «التخلف والتقدم» فى مجلة الوحدة، العدد ٢، السنة الاولى، المجلس القومى للثقافة العربية، طرابلس /ليبيا، نوفمبر ١٩٨٤، ص ٥ وما بعدها.

(١٤) د . محمد كامل ليلة، المجتمع العربى والقومية العربية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٦، ص ص ١٦، ١٧.

(١٥) نور الدين حاطوم، يقظة القومية العربية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨، ص ص ١٩، ٢٠.

(١٦) محمد كامل ليلة، المرجع المشار اليه، ص ٥٠ وما بعدها.

(١٧) د . محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية الاسلامية، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٩، ص ١٣٢ وما بعدها.

(١٨) د . محمد عماره، العرب والتحدى، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة، ١٩٨٠، ص ٤٤.

(١٩) د . عبد العزيز الدورى، مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠، ص ص ٧، ٥٥.

(٢٠) محمد عماره، المرجع المشار اليه، ص ص ٤٦، ٤٨.

(٢١) د . أحمد شلبى، الاسلام والوعى الاسلامى، ام درمان، جامعة ام درمان ، مطبعة مخيمر، ١٩٦٧، ص ١١

(٢٢) د . محمد كامل ليلة، فلسفة الاسلام السياسية ونظام الحكم فيه، المجلة المصرية للعلوم السياسية، العدد ٢٢، القاهرة، الجمعية المصرية للعلوم السياسية، يناير ١٩٦٣، ص ١٣٥.

(٢٣) فتحى عبد الكريم، الدولة والسيادة فى الفقه الاسلامى، القاهرة، مكتبة وهبة، ص ١٨٨ ومابعدها.
(٢٤) المرجع السابق، ص ٢١٢ وما بعدها.
(٢٥) د . محمد كامل ليلة، فلسفة الاسلام السياسية ونظام الحكم فيه، مرجع سابق، ص ١٥٩.
(٢٦) المرجع السابق، ص ١٥٩.
(٢٧) جمال محمد جودة، العرب والارض فى العراق فى صدر الاسلام، مكان ودار النشر غير معروف، د . ت . ص ٨٦.
(٢٨) د. ابراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ١١.
(٢٩) أنظر محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، أيام العرب فى الجاهلية، الطبعة الاولى، القاهرة، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ١٩٤٢.
(٣٠) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، الجزء الخامس، القاهرة، دار الهلال، د .ت ، ص ص ٦١،٦٢.
(٣١) قارن عبد العزيز الدورى، مرجع سابق، ص ٤٠.
(٣٢) المرجع السابق، ص ٤١.
(٣٣) انظر محب الدين الخطيب، مع الرعيل الاول، الطبعة الثانية، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٧٨هـ ، ص ١٩٥ ومابعدها.
(٣٤) جرجى زيدان، مرجع سابق، ص ص ٦٧، ٦٩.
(٣٥) المرجع السابق، ص ص ٧٠، ٧١.
(٣٦) محب الدين الخطيب، مرجع سابق، ص ٢٦٢ وما بعدها.
(٣٧) جرجى زيدان، مرجع سابق، ص ٤٩.
(٣٨) محمد عماره، مرجع سابق، ص ١٦ وما بعدها.
(٣٩) قارن هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامى والغرب، ترجمة د . أحمد عبد الرحيم، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ص ٣٤، ٣٥.
(٤٠) محمد عماره، مرجع سابق، ص ١٣٢.
(٤١) المرجع السابق، ص ١٣١.
(٤٢) المرجع السابق، ص ١٣٣ وما بعدها.
(٤٣) انظر لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين السلاجقة والخليفة فى بغداد: د . أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة فى التاريخ والحضارة، الطبعة الاولى، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٥، ص ص ١٥٨، ١٦٦.
(٤٤) محمد عماره، مرجع سابق، ص ص ١٣٧، ١٣٨.
(٤٥) عبد العزيز الدورى، مرجع سابق، ص ٨٦.
(٤٦) ابراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ٢١.
(٤٧) المرجع السابق، ص ص ٢٣، ٢٤.
(٤٨) المرجع السابق، ص ٢٥٢.
(٤٩) محمد عماره، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٥٠) المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٥١) انظر حول عدم الاستقرار وتدهور الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والعلمية: احمد حلمى، مرجع سابق، ص ص ١٩٥، ٢٠٧، ٢٧٣ وما بعدها.
(٥٢) محمد عماره، مرجع سابق، ص ١٣٩.
(٥٣) المرجع السابق ، ص ١٥٣.
(٥٤) المرجع السابق، ص ١٥٦.
(٥٥) ابراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ص ٢٩٩، ٣٠٠.
(٥٦) المرجع السابق، ص ص ٣٣٧، ٣٣٨.
(٥٧) محمد عماره، مرجع سابق، ص ص ١٥٨، ١٥٩.
(٥٨) حول انتشار الاساطير الدينية انظر محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام، الطبعة الرابعة، القاهرة، مؤسسة الخانجى، ١٩٦٢، ص ٣٥٩ وما بعدها.
(٥٩) قارن سهيل عثمان، مرجع سابق، ص ١١٤، ١١٥.
(٦٠) قارن جبران شامية، قضايانا العربية، بيروت، دار الريحانى للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص ٩.
(٦١) د. رأفت غنيمى الشيخ، فى تاريخ العرب الحديث، الطبعة الاولى، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٥، ص ص ١٥، ١٦.
(٦٢) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ترجمة د. ناصر الدين الاسد ود. احسان عباس، الطبعة الرابعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤، ص ٧٨.
(٦٣) ساطع الحصرى، البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٠، ص ٩.
(٦٤) رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ١٩٦.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٢٥ وما بعدها.
(٦٦) ساطع الحصرى، مرجع سابق، ص ص ٥٣، ٥٤، ٩٧.
(٦٧) قارن هامتلون جب، مرجع سابق، ص ص ٦٧، ٦٨.
(٦٨) ساطع الحصرى، مرجع سابق، ص ص ٤٩، ٥٠.

(٦٩) د . على حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، الطبعة الاولى، المكتب الاسلامى، ١٩٨٢، ص ٧٩ وما بعدها.
(٧٠) محمد عماره، مرجع سابق، ص ١٩٦، ٢٥٠.
(٧١) على حسون، المرجع المشار اليه، ص ٣٣٥.
(٧٢) المرجع السابق، ص ٨١.
(٧٣) ساطع الحصرى، مرجع سابق، ص ٧٩.
(٧٤) عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية فى ولاية سورية، ١٨٦٤ _ ١٩١٤، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢٩٠ وما بعدها.
(٧٥) د . عبد العزيز نوار، وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث، بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤، ص ٣٥.
(٧٦) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، الطبعة الثانية ، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٢، ص ٣٥.
(٧٧) ساطع الحصرى، مرجع سابق، ص ص ٧٩، ٨٠.
(٧٨) المرجع السابق، ص ٨٠.
(٧٩) انظر محمد وهبي، ازمة التمدن العربى، الطبعة الاولى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٦، ص ٣٣ ومابعدها.
(٨٠) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٨١) المرجع السابق، ص ٣٨.
(٨٢) د . محى الدين صبحى، ملامح الشخصية العربية فى التيار الفكرى المعادى للامة العربية، لندن، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨، ص ٨٥ ومابعدها.
(٨٣) محمود كامل المحامى، الدولة العربية الكبرى، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٢٢٧ ومابعدها.
(٨٤) رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ٣٧٦ ومابعدها.
(٨٥) نجلاء عز الدين، العالم العربى، ترجمة محمد عوض وآخرون، الطبعة الثانية، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ص ٤٣٨.
(٨٦) د . خضر زكريا، المؤشرات الاقتصادية _ الاجتماعية فى الوطن العربى، مجلة دراسات عربية، العدد ٦ ، السنة ١٩ ، ابريل ١٩٨٣، ص ص ٧٣، ٧٤.
(٨٧) المرجع السابق، ص ٧٥.
(٨٨) قارن د. هنرى عزام، التحضر والنمو الاقتصادى فى الوطن العربى، مجلة المستقبل العربى، العدد ٥٢، السنة ٦، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، يونيو ١٩٨٣، ص ١٠٨.
(٨٩) خضر زكريا، المرجع المشار اليه، ص ٧٩.
(٩٠) انظر جبران شاميه، مرجع سابق، ص ٤.
(٩١) د . نديم البيطار، حدود الاقليمية الجديدة، الطبعة الاولى، بيروت، معهد الانماء العربى، ١٩٨١، ص ١٧
(٩٢) قارن محى الدين صبحى، مرجع سابق، ص ٨٥ وما بعدها.
(٩٣) د . عز الدين فوده، المجتمع العربى، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٦، ص ٢٢.
(٩٤) محى الدين صبحى، مرجع سابق، ص ص ٨٥، ٨٦.
(٩٥) المرجع السابق، ص ص ١٩٠، ١٩٤.
(٩٦) د . وجيه كوثرانى، الغزو الثقافى الممهد والتوافق مع الاستعمار الحديث فى الوطن العربى، مجلة شئون عربية، العدد ٢٧ ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية، تونس، آيار ١٩٨٣، ص ١٣٠.
(٩٧) ورد فى المرجع السابق، ص ١٣٠.
(٩٨) محى الدين صبحى، مرجع سابق المقدمة.
(٩٩) قارن عبد العزيز الدورى، مرجع سابق، ص ص ٣٧، ٧٩.
(١٠٠) لمزيد من التفاصيل أنظر د . سمير نعيم (تنظيم ندوة) «الشخصية العربية والتحدى الحضارى» مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الثانى، السنة ١١، حزيران/يونيو ١٩٨٣، ص ٢٥ ومابعدها.
(١٠١) ساطع الحصرى، آراء واحاديث فى التاريخ والاجتماع، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص ١٩٩.
الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص ١٩٩.

حركة عدم الانحياز وتطور الأولويات
دراسة في اشكالية العلاقة بين الاستعمار والفراغ

الدكتور/ فوزي أحمد تيم
قسم العلوم السياسية ــ كلية الاقتصاد
جامعة قار يونس

(١) مقدمة نظرية

نشأة وأهداف عدم الانحياز

يختلف مفهوم عدم الانحياز عن مفهوم الحياد الذي نشأ كمفهوم قانوني في القرن التاسع عشر والذي أنبثق من الرغبة في تجنب الصراعات بين القوى الدولية المتصارعة(١)، ووقوفها في موقف وسط بينها يبعد عن الاولى بقدر مايبعد عن الثانية بهدف تجنب الويلات التي يجرها الصراع، ومن ثم فقد سمى هذا الحياد بالحياد القانوني أو السلبي(٢).

أستناداً الى ما سبق يمكن القول أن الحياد القانوني يتفق مع نظرية التوازن أو الوسط في العلاقات الدولية التي تعني بالنسبة للدولة تجنب الجموح والاندفاع.

أما فكرة عدم الانحياز فهي احدي الظواهر المستجدة في العلاقات الدولية التي ظهرت في منتصف القرن العشرين وانبثقت من المعركة التي خاضتها شعوب آسيا وأفريقيا ضد الاستعمار والسيطرة الاجنبية، أى أنه وليد حركة التحرر الوطني ونتيجة للشخصية المستقلة للدول حديثة الاستقلال(٣)، اذ قام بعد انتهاء التحالف المرحلي السوفيتي الامريكي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ــ والذي جاء لمواجهة السياسة العدوانية للنازية ــ نظامان أجتماعيان متناقضان سعي كل منها لتدعيم موقعه كدولة عظمي عن طريق حشد أكبر عدد من الدول التي تسير في ركابه لتطويق الاخر أو لمواجهة عملية التطويق(٤) رغم اختلاف الباعث عند كل منها.

وقد تمثلت نقطة البدء في عملية الاستقطاب الدولي في مبادرة الولايات المتحدة الامريكية بأعلان ما سمي ــ مبدأ ترومان ــ عام ١٩٧٤ والذي يهدف الى تقديم المعونة للدول المتحالفة مع الولايات المتحدة عسكرياً واقتصادياً في سبيل أحكام طوق الحصار على الاتحاد السوفيتي حيث تجلى هذا التحالف بقيام منظمة حلف شمال الاطلسى عام ١٩٤٩(٥).

شهدت الفترة هذه في الوقت نفسه تحرر مئات الملايين من البشر من السيطرة الاستعمارية المباشرة، وقيام دول جديدة مستقلة تسعى لتأكيد

استقلالها الوطني وتنمية شخصيتها القومية، وتدعيم ذلك بتنمية أقتصادية تكون بمثابة مضمون حقيقي للاستقلال السياسي. الا أن الاستقطاب الدولي الذي نشأ نتيجة لصراع القوتين العظمتين كان يحول بأستمرار دون تحقيق الدول حديثة الاستقلال لعملية التنمية بشكل فاعل في حال ارتباطها بأي من المعسكرين أضافة الى أنه ــ الارتباط ــ يمثل قيداً على حريتها في مجال العلاقات الدولية، ومن هنا نشأت فكرة عدم الانحياز.

بيد أن هذا لايعني أن الاستقطاب الدولي وما نتج عنه من حرب باردة هو السبب الوحيد الذي أدى الى قيام فكرة عدم الانحياز كما تسعى لتكريس ذلك بعض الدراسات الغربية(٦) في محاولة منها لتقليص الدور المتطور لدول عدم الانحياز بحجة أن الحرب الباردة قد أنتهت مما يستتبع بالضرورة أندثار الظواهر التي واكبت مسيرتها ومنها عدم الانحياز، ان الحرب الباردة لم تكن السبب الوحيد لقيام فكرة عدم الانحياز، اذ لو كان ذلك صحيحاً لأنقضى هذا المفهوم بزوال الاسباب التي دعت لقيامه، فالمفهوم هذا أضافة الى أن الاستقطاب الدولى كان أحد عوامل قيامه الا أنه جاء كتعبير عن نزعة أجتماعية تاريخية طويلة الامد للبشرية المعاصرة تتعلق بالتطلعات الواسعة لدى الشعوب التي أستعمرت وذلك من أجل تأمين حقها في التطور الاجتماعي والسياسي وفقاً للطريق الذي أختارته لنفسها وبنفسها دون الخضوع أو الارتباط بأي من القوى العظمى أقتصادياً وسياسياً، ولتستطيع أن تحدث تطور في العلاقات الدولية بنأى عن أن تكون صياغتها حكراً على قوتين أثنتين فقط(٧).

ان مفهوم عدم الانحياز لايعني الوقوف من المتناقضات الدولية موقف اللامبالاة، بل يؤكد على المشاركة الفعالة في الاحداث الدولية من أجل استتباب الامن والسلام الدوليين وفقا لميثاق الامم المتحدة، والتعبير الحر عن المواقف والقيام بدور طليعي على الساحة الدولية وتقديم النصيحة للقوى العظمى وممارسة التأثير الديبلوماسي النفسي بل والخلقي عليها(٨).

من هنا يظهر الاختلاف بين فكرة عدم الانحياز والمفهوم السابق للحياد، مما يؤكد أن عدم الانحياز لم يكن عملية بحث براغماتي عن نقطة متساوية الابعاد بين الكتل المتصارعة، وانما هو نضال من أجل تحرير واستقلال الشعوب، ومن أجل حقها في أن تحدد بنفسها شكل النظام الاجتماعي والسياسي الذي تنتهجه، أى من أجل الغاء كافة أشكال التبعية السياسية والاقتصادية للشعوب، وكافة أنواع التدخل الخارجي في شؤونها الداخلية.

وقد تركزت القضايا الاساسية لعدم الانحياز حول مشكلة الحرب والسلام، والقضاء على التوتر الدولي وحول عملية التنمية والخروج من التخلف(٩).

ويمكن تحديد القيم الاساسية لعدم الانحياز بشكل أكثر توسيعا بما يلي:(١٠)

١. العمل على دعم السلام والامن الدوليين بما في ذلك تحقيق نزع السلاح والحد من التأزم الدولي وتخطي التكتلات المنحازة والقضاء على النزعات المحلية وأقامة مناطق سلام وتعاون وتسوية الخلافات سلميا.

٢. العمل على دعم الاستقلال الوطني بما في ذلك الكفاح ضد التبعية بكافة صورها.

٣. ضمان التنمية الاقتصادية والاجتماعية المناسبة لدول العالم ككل أى الانتصار على التخلف والكفاح في سبيل الاستقلال الاقتصادي والحد التدريجي من الفجوة الفاصلة بين الشمال الغني والجنوب الفقير.

٤. النضال في سبيل دعم ديمقراطية العلاقات الدولية واقرار نظام دولي يقوم على مبادئ التعاون الدولي على قدم المساواة بين الجميع.

وقد تم التعبير الاول عن هذه السياسة ــ عدم الانحياز ــ من قبل رئيس وزراء الهند «جواهر لال نهرو» في الجمعية التشريعية في ١٤ كانون الاول ــديسمبر ــ ١٩٤٧ حين أكد على التزام بلاده بعدم الارتباط بأية كتلة سياسية دولية(١١)، وبذا فقد أتسمت السياسة الخارجية للهند بنبذ مبدأ سياسات الكتل والاحلاف العسكرية.

كما أستخدمه جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤

عقب توقيع أتفاقيات جلاء القوات البريطانية عن مصر وبالتالي استكمال الاستقلال السياسي حين أعلن أن الهدف الثاني بعد الجلاء يتمثل في عدم الارتباط بأى حلف أو بمعاهدات الدفاع المشترك، وقد تم التعبير بشكل واضح عن هذه السياسة في أول يونيو ١٩٥٦ حين أعلن عبد الناصر أن سياسة بلاده تتمثل في عدم الانحياز والمعاونة في اقامة سلام دائم(١٢).

كما أستخدم «تيتو» تعبير التعايش السلمي الفعال في معرض أشارته الى موقف بلاده من القوتين العظمتين(١٣).

التسميات المختلفة لعدم الانحياز

أخذت فكرة عدم الانحياز عدة مسميات قبل أن تستقر عند تحديدها النهائي والمتمثل في الحياد الايجابي Positive Neutrality اذ أطلق عليها في السابق «منطقة اللاحرب» أو التعايش السلمي أو عدم الانحياز، أما المرة الاولى التي ذكر فيها اصطلاح الحياد الايجابي فقد كانت في ٢٦ يوليو ـ تموز ـ ١٩٥٦ على لسان عبد الناصر(١٤). أما في ميدان العلاقات الدولية فقد جاء الاستخدام الاول لهذا الاصطلاح في البيان المشترك الذي صدر عقب اجتماع عدد من الرؤساء العرب في القاهرة في ٢٧ فبراير ١٩٥٧ حيث ورد في البيان «أن الدول العربية المجتمعة قد ازدادت قوة بوعي شعوبها، وازدادت ايمانا بسلامة اهدافها ورسوخ فكرتها لتؤكد ما سبق أن أعلنته عن عزمها على تجنب الامة العربية مضار الحرب الباردة، والبعد بها عن منازعاتها والتزام سياسة الحياد الايجابي محافظة بذلك على مصالحها القومية، وكذلك تؤكد أن الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الامة العربية على هدى أمنها الحقيقي وخارج نطاق الاحلاف الاجنبية»(١٥).

أما التعريفات التي وضعت لتحديد الموضوع فهي كثيرة ومتشابهة في نفس الوقت لانها تركزت حول تعريفه انطلاقا من أهدافه، ونورد تعرفين اثنين لعدم الانحياز قد يعبران بشكل دقيق عن المفهوم:

ـ هو الامتناع عن التورط أو الارتباط بالتكتلات الدولية والاحتفاظ بحرية الحكم على تصرفات الدول والمشاركة الايجابية في السياسة الدولية دونما أعتبار الى معسكر بذاته(١٦).

ـ هو تعبير عن ثورية جديدة تنطلق من الثقة بالنفس والاعتماد على الذات والشعور بالمسؤلية التاريخية ورفض التبعية والتزام المعيار الموضوعي الذي يحدد درجة قرب السياسات الدولية وبعدها على ضوء مواقف الدول الكبرى من القضايا المصيرية للشعوب المضطهدة المجزأة المتخلفة المستغلة(١٧).

(٢) مفهوم عدم الانحياز لدى الاباء الموجدين:

تفاعل عاملان اساسيان ليعطيا فكرة عدم الانحياز زخما خاصا في اطار الواقع الدولى وهما:ـ

أ ـ طبيعة العلاقات الدولية التي قامت على التكتل وسياسة الاحلاف.

ب ـ شخصية بعض قادة العالم الثالث الذين أستطاعوا لعب دور هام على الساحة الدولية خاصة في مناهضة الاستعمار والنضال من أجل التحرر ورفض التبعية، حيث أعطيت طبيعتهم القيادية وأمكانات بلادهم لهذه الفكرة الزخم المنشود.

وسنقتصر على أهم ثلاثة من هؤلاء القادة الذين يعتبروا الاباء الموجدين لفكرة عدم الانحياز سواء من حيث الفكرة أو الحركة، وكيف اداروا سياسات بلادهم في خضم التحالفات، ومما يؤكد الاهمية المعطاة لدورهم أن غيابهم عن المسرح الدولي أدى الى فقدان حركة عدم الانحياز لقياداتها الدينامية، ومن ثم تراجع تأثيرها أضافة الى عوامل أخرى طرأت على الساحة الدولية قادت الى تطور أولويات حركة عدم الانحياز.

اولا : جواهر لال نهرو:

لم تكن الحرب الباردة هي المتغير الاساسي الذي قاد نهرو الى فكرة عدم الانحياز، بل تفاعلت مجموعة من العوامل لتقوده اليها منها الافكار البوذية، وقيم العدالة والحرية التي تسود المجتمع الهندي(١٨)

وقد أعتبر نهرو النظام الدولي القائم بما يعنيه من سيطرة للامبريالية واستغلال للشعوب الفقيرة وتمركز القوة في معسكرين متضادين(١٩) أهم الامراض التي ينبغي معالجتها من أجل ايجاد مجتمع دولي جديد يقوم على السلام وتتمتع فيه الشعوب بحقها في الحرية والاستقلال السياسي من جهة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية بغية القضاء على التخلف من جهة ثانية.

وقد أقتنع نهرو أن قضية السلام والتي مثلت له الاولوية الاولى مهددة بالخطر في ظل تمركز القوة على شكل ثنائي وقيام كل من المعسكرين بتقوية نفوذه في مواجهة الطرف الاخر عن طريق ضم وحدات جديدة في النظام الدولى الى فلكه مما سيؤدي الى تصاعد الحرب الباردة وتحولها الى حرب ساخنة، وقد تأكدت قناعته عمليا نتيجة سعي الولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص الى اقامة حزام من الاحلاف العسكرية ضد الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية وزرع قواعدها واسلحتها الذرية في تلك المناطق(٢٠) لذا فقد أعتبر أن التعايش السلمي بين كافة النظم السياسية المختلفة أمر ممكن ومطلوب من أجل قضية السلام.

من هنا رفض نهرو الارتباط بأى من المعسكرين معتبراً أن عدم الانحياز سيوفر جوا مناسبا لاقامة علاقات دولية لاتكون القوة عاملها الاساسي، بيد أن عدم الانحياز لم يعن لديه الابتعاد عن الفعل في الساحة الدولية، أو الوقوف بشكل سلبي في مواجهة المشاكل الناجمة عن الصراع بين المعسكرين بل الوقوف الى جانب قضايا الحرية والعدالة ومواجهة اى تحد أو انتهاك لها، في هذه الحالة لايمكن الوقوف بشكل سلبي أو حيادي(٢١) أى أن عدم الانحياز لديه كان سياسة أيجابية نحو السلام، وقد جاء التاكيد العملى لهذا الموقف في دعم الهند لقوات حفظ السلام الدولية في عدد من مناطق الصراع منها غزة والكونغو بوحدات عسكرية(٢٢).

لم يقتصر سعي نهرو لتغيير النظام الدولى التقليدى من أجل قضايا الحرية والاستقلال على العلاقات السياسية فقط، بمعني الاستقلال الشكلي وعودة الجيوش الاستعمارية الى بلادها وازالة القواعد العسكرية فهذا لم يكن الهدف النهائي له، بل اراد لهذا الاستقلال أن يمتد الى كافة مجالات الحياة لدى كافة الشعوب، وقد جاء تبلور هذا الموقف المبكر لديه والساعي الى اعادة صياغة العلاقات غير المتكافئة في النظام الدولي بكافة فروعه بما يحقق مصالح الشعوب النامية نتيجة لطبيعة تكوينه الثقافي الذي قاده الى التأثر ببعض المبادئ الاشتراكية(٢٣)، والى طبيعة المجتمع الهندي الذي يقوده والمتصف بالفقر والتميز على حد سواء نتيجة للسيطرة الامبريالية(٢٤).

لقد وعى نهرو الطبيعة المتغيرة والمتطورة للحياة الدولية المعاصرة، وتغير وسائل الاستعمار والامبريالية في السيطرة على الشعوب واستغلالها، حيث تبين لديه أن الدول الاستعمارية بعد أن طورت في أساليب السيطرة أصبحت على استعداد لمنح الاستقلال الشكلي للشعوب، مما قاده الى التفكير في المشاكل الملحة التي يجب أن تعالج عقب الاستقلال والمتمثلة فيما يلى:(٢٥)

ــ النظم الاجتماعية الموروثة باعتبارها عقبة في طريق الحرية والاستقلال.

ــ مطالب الاقليات المختلفة في تحقيق هويتها الذاتية في اطار الدولة.

ــ مشاكل الحدود بين الدول حديثة الاستقلال والتي قام الاستعمار برسمها بشكل لايحقق الاماني القومية.

ــ التخلف بكافة أشكاله.

ــ طبيعة القوى التي تسيطر على أجهزة التمويل العالمية.

نستطيع مما سبق القول أن نهرو لم يعتبر سياسة

عدم الانحياز موقفا انتهازيا قادته اليه المصلحة الآنية في حقبة التمركز الثنائي للقوة، بل كان نتيجة لنظرة متعمقة لواقع المشاكل التي تعيشها الشعوب النامية وللواقع الدولي القائم على علاقات غير متكافئة.

ومن هنا يمكن القول أن الارهاصات المبكرة للدعوة الى نظام دولي جديد قد احتوتها أفكار نهرو ومواقفه.

ثانيا: جوزيف بروز تيتو:

شكل الاستقلال الوطني المتغير الأساسي في مواقف تيتو، وقد أعتبر الارتباط بعلاقات تبعية مع أي من القوى الخارجية تهديدا خطيرا لاستقلال ووحدة يوغسلافيا ولطريقها المستقل في بناء الاشتراكية القائم على التسيير الذاتي، ومن هنا فقد عمل على اقامة علاقات مع المعسكرين دون الوقوع في علاقة تبعية مع أي منهما مما أعطاه قدرة على الفعل والتأثير في السياسة الدولية.

أما الاهمية المعطاة لموقف تيتو فتنبع من كونه أحد القادة الملتزمين بالفكر الماركسي دون أن يلتزم بالنمط السوفيتي أو يخضع لسيطرة مركزية من موسكو، أضف الى ذلك أن يوغسلافيا دولة أوروبية علاوة على تمتعها بموقع جغرافي هام بين القوى المتصارعة.

وقد أدى أعتناق تيتو لفكرة عدم الانحياز الى اكسابها بعدا ايدلوجيا سيؤثر فيما بعد على طبيعة الاهداف التي تبنتها الحركة علاوة على امتداد هذه الفكرة الى القارة الاوروبية بحيث غدت الدعوة لعدم الانحياز ذات بعد عالمي(٢٦).

ثالثا: جمال عبد الناصر

أ ــ مفهوم عدم الانحياز لديه:

أن الموقع الجغرافي الذي تحتله مصر كمنطقة تتوسط القوى المتصادمة من حيث الامتداد الارضي جعل الحياد بالنسبة لها مسألة اساسية حتى تستطيع الاحتفاظ على استقلالها في مواجهة تلك القوى، الا أن حياد مصر لم يظهر الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو رغم أن هذه السياسة كانت تسير بشكل بطئ في السنتين الاولتين للثورة، بل أن مفهوم الحياد عند قادة الثورة لم يكن يتجاوز الوقوف في مواجهة عودة أى سيطرة أجنبية على مصر، ولم يبدأ مفهوم الحياد يأخذ الحاحا الا في عام ١٩٥٤ عندما أعلن جمال عبد الناصر أن الهدف الثاني لمصر بعد الجلاء هو عدم الارتباط باى حلف أو بالدفاع المشترك مع أية دولة أجنبية(٢٩).

وقد شهد عام ١٩٥٥ نقطة التحول في مفهوم الثورة للحياد حيث أخذ مضمونا اكثر ايجابية بسبب الاحباط الذي مني به قادة الثورة نتيجة رفض الدول الغربية تقديم المساعدة لمصر الا بشروط تنال من استقلالها السياسي وسيادتها الوطنية، كما تواكب هذا المفهوم الجديد للحياد مع تبلور الشخصية القيادية لعبدالناصروحصوله على تأييد الجماهير العربية نتيجة لمواقفه السياسية وانتقاله الى اعتناق القومية العربية كايديولوجية(٣٠) حيث أصبح الحياد نتيجة للنجاح الذي أحرزته الثورة على طريقة ــ الحياد ــ جزءا أصيلا من الايديولوجية الرسمية للثورة، كما أصبح نتيجة لقيادة عبد الناصر لحركة القومية العربية جزءا اصيلا كذلك من فكر القومية العربية التي تهدف الى تحرير المنطقة العربية من كافة اشكال التبعية الاجنبية، ودون ان تكون كمحاولة قسرية وذلك لتقدير كافة قادة الحركة القومية العربية في مختلف الاقطار العربية للنتائج

الايجابية التي نتجت عن سياسة عبد الناصر المتعلقة بعدم الارتباط بأى من المعسكرين(٣١). بيد أن الاهمية الكبرى في اعتناق عبد الناصر لفكرة عدم الانحياز تأتي من ان الفكرة لم تقتصر على المنطقة العربية بذاتها، بل أصبحت ترتبط بالسياسة العالمية بشكل عام، اذ انها ترمي عن طريق عدم الارتباط بالاحلاف العسكرية الى تدعيم منطقة العالم غير المنحاز والعمل على توسيعها حتى تتقلص رقعة البلاد المنحازة مما يؤدي الى تخفيض حدة التوتر الدولي ويبعد شبح الحرب(٣٢).

الا أن هذا لايعني أن عبد الناصر كان يسعى الى اقامة كتلة ثالثة تقف بين الكتلتين العظمتين، فغرض السلام الذي يسعى الى تحقيقه ستكون موضع شك اذا قامت كتلة ثالثة تناقض الكتلتين العظمتين، لذا فقد رفض عبد الناصر في مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد في بلغراد في سبتمبر ١٩٦١ الراى الذي ينادى بضرورة انشاء منظمة دولية تجمع شمل الدول غير المنحازة اذ ذكر في خطابه امام المؤتمر انه لاينبغي أن يكون في طريقة عمل هذا المؤتمر ولا فيما يصل اليه من قرارات، ولافيما يتركه بعد ذلك من آثار على الراى العام العالمي ما يمكن أن يوحي من قريب أو من بعيد بأن الدول الملتزمة بسياسة عدم الانحياز تصنع بنشاطها كتلة دولية ثالثة(٣٣).

أما فهم عبد الناصر لدور عدم الانحياز فيتمثل بالعمل على ازالة الصراع بين الكتلتين المتناقضتين والتنبيه الى مخاطره، وبذلك فعدم الانحياز لديه ليس موقفا انتهازيا يقصد منه الحصول على أكبر قدر من المزايا نتيجة اللعب على المتناقضات بين القوى العظمى، كذلك فقد عنى المفهوم لديه ضرورة الفعل النشط في كافة مشاكل العصر وطرح الحلول لها دون أن يتقيد بأى التزام مسبق عدا مبادئ السلام التي تقوم على العدل. كما حرص عبد الناصر على الا يقتصر مفهوم عدم الانحياز على العلاقات السياسية الدولية، بل لابد ان يتعداه ليشمل المفهوم النواحي الاقتصادية والعمل على ايجاد نظام اقتصادي دولى عادل(٣٤).

بذا يكون عبد الناصر من اوائل دعاة اقامة نظام اقتصادي دولى جديد يختلف عن النظام السائد الذي يتم عن طريقه استغلال خيرات شعوب الدول النامية عن طريق التبادل غير المتكافئ بين الدول المتطورة والدول النامية، وقد حدد عبد الناصر اهداف عدم الانحياز بما يلي(٣٥):

أ ــ أقرار التعايش السلمي بين الدول.
ب ــ تطوير الحياد في كل دولة من الدول التي تعتنق عدم الانحياز.
ج ــ مساعدة الشعوب المستعمرة من أجل حصولها على حريتها.

ب ــ مفهوم عبد الناصر للعلاقة بين الكتلتين من خلال عدم الانحياز

أعتبر عبد الناصر أن توطيد الصداقة مع كل من الكتلتين أو أحداهما لايؤثر سلبيا على سياسة عدم الانحياز طالما أن هذه الصداقة لاتتمثل في أحلاف عسكرية ولاتحد من الحرية في أتخاذ القرارات(٣٦)، لذا فان هذه السياسة تستدعي اتخاذ المواقف النشطة حيال أية قضية دولية سواء تسبب ذلك في مواجهة مع احدى الكتلتين أو في تقوية عرى الصداقة، مما يعنى ان المواقف السياسية التي اتخذتها مصر حيال السياسات الامبريالية التي تقوم بها الولايات المتحدة الامريكية في المنطقة العربية أو في أى جزء من العالم لاتنقص من قيمة عدم انحيازها، كما أن شعور مصر بالصداقة نحو الاتحاد السوفيتي أكثر مما تشعر به نحو الولايات المتحدة لايمثل اخلالا بعدم الانحياز لقيام سياسة عدم الانحياز على العمل لمساعدة الشعوب المضطهدة من أجل تحقيق حريتها، وهذا ما يعمل من أجله الاتحاد السوفيتي انطلاقا من مصلحته العقيدية والاستراتيجية المعادية للاستعمار(٣٧).

أضافة لذلك هناك عدة أسباب آخرى تجعل تطبيق مفهوم عدم الانحياز يميل لمواجهة الغرب

وتطوير الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وتتمثل فيما يلي:ـ(٣٨)

١. معارضة مصر لسياسة القواعد العسكرية والاحلاف التي تحاول الامبريالية اقامتها في المنطقة العربية.
٢. الدعم المتواصل للحركات الثورية العربية الذى يقوم به عبد الناصر في مواجهة الانظمة «المحافظة» العربية الموالية للامبريالية.
٣. انتهاج مصر على المستوى الداخلي للاشتراكية مما أدى الى انهاء المصالح الاجنبية الاقتصادية بها.
٤. موقف الولايات المتحدة والدول الغربية بشكل عام من أقامة الكيان الصهيوني في فلسطين واستمرار دعمه وضمان تفوقه.

(٣) معيار عدم الانحياز

لم يرس مؤتمر باندونج ـ المؤتمر الاسيوى الافريقي ـ قواعد أو ضوابط لعدم الانحياز باعتباره لم يكن مؤتمر لدول عدم الانحياز رغم أن الفكرة الاساسية قد انطلقت منه، كما أنه لم يكن بالمستطاع في ذلك المؤتمر من الناحية العلمية ارساء مثل تلك القواعد نتيجة لاختلاف مواقف وتوجهات الدول التي حضرته حيث ضم عدد من الدول المرتبطة باحلاف عسكرية أو معاهدات ثنائية، أى أن المواقف تجاه القوى العظمى كانت متناقضة في المؤتمر رغم أنه عقد في جو مشبع بالكراهية للاستعمار بسبب حرب كوريا وحروب الهند الصينية وسياسة الاحلاف والحرب الباردة والتنافس الاستعماري على الاسواق والمواد الاولية...

ويمكن توضيح طبيعة ذاك المؤتمر بالشعار الذى طرحه رئيس أندونيسيا «أحمد سوكارنو» له وهو «الوحدة من خلال الاختلاف والتعارض».

أما المعايير الاساسية لعدم الانحياز فقد تم ارساؤها في المؤتمر التحضيري لدول عدم الانحياز الذى عقد في القاهرة في الفترة بين ٣ ــ ١٣ يونيو ١٩٦١ تحضيرا لمؤتمر بلغراد، حيث تم على اساسها استبعاد عدد من الدول لارتباطها مع أى من المعسكرين، وقد تمثلت هذه المعايير فيما يلي:
١. أن تكون الدولة قد انتهجت سياسة مستقلة، قائمة على تعايش الدول ذات النظم الاجتماعية والسياسية المختلفة وعلى عدم الانحياز أو اظهرت اتجاها يؤيد هذه السياسة.
٢. أن تؤيد حركات التحرر.
٣. ألا تكون عضوا في حلف عسكرى جماعى عقد في نطاق الصراع بين الدول الكبرى.
٤. الا تعقد اتفاقية ثنائية مع دولة كبرى في نطاق الصراع الدولى.
٥. الا تكون قد سمحت لدولة اجنبية بانشاء قواعد عسكرية في اراضيها.

يتضح من هذه المعايير انها جاءت فضفاضة بحيث سهلت انضمام دول تنتهج سياسات موالية لاى من المعسكرين، وبالتالي أدت الى تقليص الانسجام بين مواقف دول عدم الانحياز، كما يتضح أن هذه المعايير تنسحب على النواحى السياسية فقط دون أن تمس الارتباطات الاقتصادية فسياسة عدم الانحياز والتي تقوم على تحقيق والحفاظ على استقلال كل دولة في كافة جوانبه لم تتطرق الى وضع أى من المعايير الاقتصادية ليتسنى عن طريقه الحكم على دولة ما بانها منحازة أو غير منحازة. مما يعطي للحركة صفة التحرر الاقتصادي اضافة الى السياسي. أى أن هذه المعايير ركزت على الجانب السياسي فقط دون الالتفات الى الجوانب الاخرى رغم أن الحركة تسعى لتحقيق الاستقلال بشقيه السياسي والاقتصادي، ويمكن أن يعزى هذا الموقف الى طبيعة الدول أعضاء الحركة والى الخشية من انسحاب عدد كبير منها أن لم ينفرط عقد الحركة ذاته ويقتصر على الدول ذات التوجهات التقدمية فقط.

ومع هذا فاننا نرى أن اعادة النظر في المعايير السابقة أمر ضروري في المرحلة الراهنة بعد أن تمكنت القوى الامبريالية بسياستها الحالية خاصة بعد تسليم الجناح اليميني العسكري الحكم في

الولايات المتحدة، وتمكنه من اختراق عدد من الدول النامية وجرها بموجب اتفاقات أو تسهيلات ثنائية الى فلكه حتى لايكون وجودها حصان طروادة في الحركة وعائقا دون انسجام مواقفها مما يشل فعاليتها.

عدم الانحياز ككتلة

ان ارساء المعايير السابقة كشرط للعضوية في حركة عدم الانحياز يستتبع اثارة التساؤل التالي: هل غدت الحركة كتلة دولية في مواجهة الكتلتين المتصارعتين؟

لقد جاءت فكرة عدم الانحياز ردا على التركز الثنائي للقوة وأحتكار الفعل على الساحة الدولية مما أدى الى قيام الحرب الباردة بما تحمله من امكانية لتصاعدها وتحولها الى حرب ساخنة. ومن هنا فان أقامة كتلة ثالثة يعني انخراطا في سياسة الكتل، وهذا ما رفضه الآباء الموجدون لعدم الانحياز، اذ أن هذه الفكرة ترفض المحاور وتدعو الى تعايش كافة الانظمة. وقد وجه «تيتو» عندما طرح رأيه أمام كل من نهرو وعبد الناصر بضرورة ايجاد سكرتارية للحركة باستنكار شديد منهما ورفض للفكرة(٤٠)، إذ أن تشكيل سكرتارية أو مقر دائم للحركة يعني برايها تحولها الى تنظيم أو كتلة دولية تقف الى جانب أو في مواجهة الكتل الاخرى مما سيؤدي الى مزيد من الصراع الدولي، والى عجز الحركة عن الاسهام الفاعل في قضية السلام والتنمية. وقد بقي الاصرار على رفض اقامة مثل هذه السكرتارية «الدائمة» قائما من قبل اعضاء الحركة حتى انعقاد مؤتمر الجزائر ١٩٧٣ حين أقر تشكيل مكتب تنسيق للحركة يهدف الى متابعة القرارات التى تصدر عن مؤتمرات القمة، بحيث يمكن اعتبار هذا المكتب مقدمة لسكرتارية دائمة.

نتيجة لعدم اعتبار حركة عدم الانحياز كتلة دولية يثور سؤال آخر يتعلق بكيفية تنسيق دول الحركة لمواقفها في مواجهة القضايا الدولية، ومدى الانسجام بينها ازاء هذه القضايا؟

يمكن القول ابتداء أن مجموعة دول عدم الانحياز تتمتع بقسط من الموقف المشترك كونته الظروف التاريخية التي مر بها اعضاء الحركة(٤١)، لكن دون أن يعني هذا أن أياً من هذه الدول لايسعى الى تلبية أكبر قدر من أهدافه الخاصة، ودليل ذلك أن مواقف دول الحركة لم تكن منسجمة بشكل كلي ازاء القضايا الهامة، أو إزاء الارتباط بأى من المعسكرين، وقد اجريت بعض الدراسات على مواقف دول حركة عدم الانحياز وطبيعة علاقتها بالقوى العظمى أوضحت أن عددا منها قد ارتبط بروابط التبعية مع واحدة من الكتلتين(٤٢)، أو على الاقل كان توجهها يتمشى وسياسة الكتل، كما أختلفت المواقف إزاء القضايا الهامة المتعلقة بالحرب الباردة بشكل خاص، ولم يقم الانسجام في اطار الحركة إزاء تلك القضايا.

في دراسة أجريت حول(٦٥)قضية من القضايا الهامة في الحرب الباردة في فترة الستينات(٤٣)، تبين منها أن عددا هاما من الحركة يجاوز نصفها قد التزم عدم التصويت في الجمعية العامة للامم المتحدة إزاء هذه القضايا بحيث كان موقف الحياد لديها أشبه بموقف سويسرا، كما توزعت أصوات الدول الاخرى بشكل يكاد يكون متساويا بين مواقف كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، كما تبين من خلال دراسة اخرى أجريت على توجيهات دول عدم الانحياز والتي حضرت مؤتمراته في الفترة بين مؤتمر باندونج ١٩٥٥ ومؤتمر القاهرة ١٩٦٤ عدم تماسك أو أنسجام توجيهات هذه الدول، وقد تراوحت المواقف بين:ـ

ـ التوجه نحو الكتلة الغربية.

ـ التوجه نحو الكتلة الشرقية.

ـ الوقوف في موقف وسط بين الكتلتين.

(٤) موقف القوتين العظمتين من فكرة عدم الانحياز

انسجم موقف الدولتين العظمتين حيال عدم الانحياز مع الاهداف العالمية التي تسعى كل منها لتحقيقها.

فقد تمثل الهدف الاساسي للولايات المتحدة في فترة الحرب الباردة في العمل على احتواء الاتحاد السوفيتي من خلال سياسة الردع الشامل مما يعني ضرورة استقطاب كافة الدول في مواجهته. لذا فلاعجب ان يصف وزير الخارجية الامريكية «جون فوستر دالاس» سياسة عدم الانحياز بانها مفهوم بال، بل ونظرة قصيرة المدى وغير خلقية(٤٤) منطلقا من أن العالم الغربي عامة والولايات المتحدة بشكل خاص تمثل الايمان والشرف والاخلاق والحق، وأن الطرف الاخر، أى الاتحاد السوفيتي هو نقيض هذه القيم، مما يعني أن من يقف الى جانب الاتحاد السوفيتي هو معاد للمبادئ «السامية» التي تعتنقها الولايات المتحدة(٤٥).

وخاضت الولايات المتحدة حربا شرسة لتأكيد الاستقطاب الدولي في اطار سعيها الحثيث لوراثة السيطرة الاوروبية على دول العالم الثالث حيث تجلى هذا الموقف في اوضح صوره في بيان «ايزنهاور» في ٥ يناير ١٩٥٧ أمام الكونغرس الامريكي والذي عرف بمبدأ أو نظرية الفراغ، اذ أدعت الولايات المتحدة أن خروج الاستعمار الاوروبي من أية منطقة لابد أن يترك فراغا يغرى الشيوعية بأن تشغله مما يؤدى الى أخلال ميزان القوى.

وقد أخذت الولايات المتحدة على عاتقها ملء الفراغ المزعوم من خلال المساعدات العسكرية والاقتصادية التي تقدمها لبعض الدول النامية والتي توافق على السير في فلكها بدعوى الحفاظ على استقرار واستقلال تلك الدول في مواجهة «الخطر الشيوعي»، كما اصرت الولايات المتحدة في اطار هذه السياسة على رفض فكرة عدم الانحياز بحجة أن من لايقف الى جانبها هو عدو لها ومنحاز لغيرها منطلقة من موقفها بأن تحقيق السلام لايتم عن طريق عدم الانحياز بل عن طريق الارتباط بتحالفات اقليمية تكون طرفا فيها أو مشرفا عليه(٤٦).

أن رفض قادة عدم الانحياز اذا لفكرة الاحلاف والاستقطاب الدولي قاد الولايات المتحدة الى العمل على منع الدول الحليفة لها من الاشتراك في مؤتمراته خاصة مؤتمر باندونج، الا أن فشلها في هذا المسعى جعلها تغير اسلوبها وتعمد الى تحطيم المؤتمر من الداخل وتحريف أهدافه عن طريق حلفائها من أعضائه، فعلى سبيل المثال بادرت «باكستان» الى تبني وجهة النظر الامريكية بالدعوة الى سياسة التكتل والاحلاف بدعوى حق الدفاع المشترك استنادا الى نص المادة (٥١) من ميثاق الامم المتحدة، كما تبنت دول اخرى تتبع المنهج الامريكي الدعوة الى المساواة في النظرة بين كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مطالبة بالتأكيد على «مكافحة التسلل الشيوعي»، اضافة الى محاولة مندوب «الفلبين» التقليل من أهمية وجدوى عدم الانحياز حين أدعى أن موقف دول عدم الانحياز يساوى صفرا، وأنه ليس أمام دول العالم الثالث إلا أن تختار التحالف مع الغرب.

بيد أن نجاح المؤتمرين في الوصول الى الحد الادنى بين الانحياز وعدمه جعل الولايات المتحدة تسعى الى استخدام ما دعى بسياسة العصا الغليظة لتطويع قيادات الحركة، وقد تمثل ذلك في فرض الحصار الاقتصادي وترتيب الانقلابات العسكرية المؤيدة لها(٤٧).

أما موقف الاتحاد السوفيتي فقد جاء مؤيدا لفكرة عدم الانحياز لتوافق أهداف دول عدم الانحياز في تخليص الشعوب المستعمرة وحديثة الاستقلال من السيطرة الاجنبية التي تفرضها القوى الامبريالية، مما يعني بالتبعية تقليص النفوذ الامبريالي بشكل عام، وتوسيع جبهة الدول غير الخاضعة له، وهذا ما يتفق والاهداف الاستراتيجية للاتحاد السوفيتي(٤٨)، علاوة على ذلك فقد تواكب قيام مجموعة عدم الانحياز مع

التغير الذي طرأ على السياسة السوفيتية عقب وفاة «ستالين» والتأكيد على سياسة التعايش السلمي والاشكال الممكنة للانتقال الى الاشتراكية.

أضف الى ذلك أن عدم الانحياز بطبيعته المعادية للامبريالية كان لابد بأن يتجه الى معاداة الولايات المتحدة والصراع معها حول سياستها العالمية خاصة سياسة الاحلاف مما يقدم كسبا للاتحاد السوفيتي الذي تسعى الولايات المتحدة الى تطويقه بسلسلة من الاحلاف(٤٩).

(٥) تطور أهداف وأولويات عدم الانحياز عبر مؤتمراته

تمثلت المشاكل الاساسية التي واجهت العالم في الفترة التي عقد فيها مؤتمر باندونج ـ ١٨ نسيان (ابريل) ١٩٥٥ ـ في الحرب الباردة والصراع بين الكتلتين الذي بدأ يزحف مهددا بأن يجذب الى خضمه الدول حديثة الاستقلال في آسيا وأفريقيا عن طريق زرع القواعد العسكرية فيها لتطويق الاتحاد السوفيتي وكذلك الثورة المعادية للاستعمار التي تخوضها الشعوب المستعمرة ضد بقايا الاستعمار القديم والامبريالية الحديثة، ومن هنا كان على قادة الدول المجتمعة الحيلولة دون تسرب هذه الحرب الى منطقتهم والى تأييد النضال ضد الاستعمار(٥٠). وقد استطاع المؤتمر وضع حد للحقبة الطويلة التي كانت فيها البلاد الآسيوية والافريقية مجرد حجارة للشطرنج في أيدي اللاعبين الغربيين، حيث تم تحدى هذا «الحق» الذي تدعيه الدول الغربية لنفسها وذلك عن طريق رفض الاحلاف العسكرية وانتهاج سياسة مستقلة عن أي من المعسكرين لتأمين عملية التطور في كل من الدول غير المنحازة، كما تمت الحيلولة دون وصول الحرب الباردة وتسللها الى القارتين الاسيوية والافريقية. وبذا فقد أستطاع المؤتمر تأكيد فكرتين أساسيتين هما:

* فكرة العالم الثالث.
* فكرة التعايش السلمى مع الكتلتين.

أما القضايا الاساسية التي دار حولها النقاش في المؤتمر فقد تركزت حول المشكلات السياسية دون اعطاء أهمية كبرى للقضايا الاخرى بسبب الحاح الاولى، وقد يكون من المفيد ايراد المبادئ العشرة التى توصل اليها المؤتمر لاعطاء صورة عن القضايا التي كانت تشغل اهتمام الدول غير المنحازة:(٥١)

١. احترام حقوق الانسان الاساسية وميثاق الامم المتحدة.
٢. احترام سيادة جميع الامم وسلامة اراضيها.
٣. الاعتراف بالمساواة بين جميع الاجناس والامم.
٤. الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر.
٥. احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها انفرادياً وجماعياً وفقاً لميثاق الامم المتحدة.
٦. الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى والكف عن استخدام وسائل الضغط على أى بلد.
٧. تجنب أستخدام العنف ضد السلامة الاقليمية أو الاستغلال السياسي لاى بلد أو التهديد بالعدوان.
٨. تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية.
٩. تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل.
١٠. احترام العدالة والالتزامات الدولية.

يتضح من قرارات المؤتمر عدم تقديم تأصيل كامل لمفهوم عدم الانحياز، وربما يرد ذلك الى كون المؤتمر في حد ذاته لم يكن مؤتمرا لعدم الانحياز، بل لرؤساء دول وحكومات آسيا وافريقيا التي يربط عدد منها باتفاقات أمن وتحالف مع المعسكر الغربي.

لذا فقد جاءت نتائجه متواضعة فيما يتعلق بالاستعمار، حيث تمت الاشارة الى اعتبار الاستعمار بكل مظاهره شر ينبغي القضاء عليه دون تحديد الاطراف الاستعمارية، أى أن المؤتمر توصل في القضايا السياسية الى الحد الادنى.

أما قضية الاستقلال الاقتصادي فقد تراجعت اهميتها في مواجهة القضايا السياسية، وتمت الاشارة اليها بما لايفيد التأكيد على التنمية المستقلة، واعادة صياغة العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة مع الغرب، اذ تمثلت القرارات الاساسية في هذا الصدد بما يلي:

ـ تشجيع التنمية الاقتصادية في المنطقة الاسيوية الافريقية على اساس المصلحة المتبادلة.

ـ الدعوة لانشاء صندوق خاص للامم المتحدة من أجل التنمية.

ـ انشاء مؤسسة مالية دولية لمنح المساعدات للبلاد الافريقية والاسيوية وتشجيع الاستثمارات فيها.

ـ تنشيط التجارة.

نتيجة لهذا الوضع كان لابد من جهود اخرى يقوم بها رواد عدم الانحياز لتأصيل هذا المفهوم. حيث تم تبلور فكرة الحياد الايجابي من خلال المحادثات التي جمعت كلا من «عبد الناصر ونهرو وتيتو» في «بريونى» بيوغسلافيا عام ١٩٥٦ عندما تم تحديد معالم السياسة المعادية للاستعمار والمناهضة للكتل باعتبارها وجهين لعملة واحدة من أجل تغيير الاوضاع الدولية غير العادلة، ومن أجل بناء نظام دولي لاتسيطر عليه الفكرة القائلة بأن القوة هي الحق(٥٢). كما تم اعتماد المبادئ العشرة لمؤتمر باندونج والتأكيد عليها.

لقد كان للجهود التي بذلها كل من «عبد الناصر وتيتو» دور هام في انجاز المؤتمر الاول للدول غير المنحازة الذى عقد في بلغراد في سبتمبر ١٩٦١م ـ وخشية أن تدعى للمؤتمر دول منحازة فقد عقد أجتماع تحضيري في القاهرة لتحديد مبادئ ومعايير عدم الانحياز ـ وقد عقد المؤتمر في جو دولى يسوده التوتر حيث سيطرت عليه ظلال مشاكل الحرب الباردة بين المعسكرين كأزمة برلين، وأسقاط طائرة التجسس الامريكية فوق الاتحاد السوفيتي مما يعني أن القضية التي حظيت بالاولوية في المؤتمر تتمثل في مشكلة الصراع بين الشرق والغرب.

ومن هنا فقد جاء هذا المؤتمر الى حد ما أمتدادا ـ من حيث طبيعة القضايا التي تم بحثها ـ لمؤتمر باندونج مع الاشارة هذه المرة الى قضية التخلف والتنمية في الدول النامية باعتبارها قضية تشغل العالم انطلاقا من ان حل هذه القضية سيزود سياسة عدم الانحياز بأساس مادي، ويضع الشروط المسبقة والتي لاغنى عنها للتعايش السلمي الحقيقي.(٥٣)

الا أن هذه القضية كانت أولوية ثانية مقابل قضايا السيادة من الناحية السياسية وقضايا الكفاح ضد الاستعمار التي أخذت مكان الصدارة

علاوة على ذلك فلم يسع المؤتمر الى ايجاد نظام اقتصادي دولى جديد يقضي على العلاقات غير المتكافئة، بل اعتبر التكتلات الاقتصادية المتمثلة سواء في السوق الاوروبية المشتركة أو منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي أو مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة بمثابة عقبة في سبيل التعاون التجاري بوجه عام. أى أن المؤتمر ادرج كلا من التكتلات الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية في نفس الموقع من حيث الاثار السلبية على الدول النامية، ولم يجر تفرقة بين الجهود التي تقوم بها الدول الاشتراكية من أجل القضاء على الاستغلال والجهود التي تقوم بها الكتلة الغربية من أجل استمرار عملية الاستغلال(٥٤).

بيد أن القفزة الكبرى في هذا الصدد تمت في مؤتمر عدم الانحياز الثاني الذي عقد في القاهرة في ٥ تشرين الاول ١٩٦٤ حيث أعطيت قضية التنمية الاقتصادية أهمية تعادل الاهمية المعطاة لقضية الحفاظ على السلام العالمي(٥٥)، اذ أنه الى جانب تأكيد المؤتمر على العمل المشترك لتحرير البلاد التابعة والقضاء على الاستعمار والامبريالية تم التأكيد على وجود علاقات غير متكافئة في المجالات الاقتصادية بين الدول المتطورة والنامية، وبالتالي أكد المؤتمر على حق الدولة المستقلة حديثا في التصرف في مواردها وثرواتها، كما أعتبر أن السلام العالمي لايمكن أن يقوم الا على اساس اقتصادي سليم ومتين اذ أن استمرار الفقر والتخلف يشكل تهديدا للسلام الدولى، وانطلاقا من هذا

المفهوم فقد دعا المؤتمر الى اقامة نظام اقتصادي دولي جديد عادل يعيش فيه الجميع بلا خوف أو حرمان، مع التأكيد على أن البنية الحالية للاقتصاد العالمي لم تستطع الحد من التفاوت الاقتصادي بين الدول.

ومن هنا جاءت الدعوة الى اجراء تقسيم جديد للعمل الدولى يهدف الى الاسراع في تصنيع البلدان النامية، ووقف أى اجراء تمييزي ضد أي بلد بسبب اختلاف النظم الاجتماعية والاقتصادية والى زيادة حجم التحويلات المالية العالمية تجاه البلدان النامية، وزيادة المتحصلات الخارجية لهذه البلدان، واتخاذ الاجراءات اللازمة لفتح اسواق البلاد المتطورة أمام المنتجات الاساسية والسلع المصنعة، كما أقترح المؤتمر أنشاء وكالة متخصصة للتنمية الصناعية.

وقد كان هذا المؤتمر بمثابة قوة دافعة لمؤتمرات عدم الانحياز اللاحقة في تركيزها على الجوانب الاقتصادية وعلى اعادة التكافؤ في العلاقات الاقتصادية الدولية، وتعديل بنية الانتاج في البلاد المتطورة وهذا ماظهر بوضوح في المؤتمر الثالث لدول عدم الانحياز الذى عقد في لوزاكا عام ١٩٧٠م حيث تقلصت في هذه الفترة أمكانية الصدام المسلح بين الشرق والغرب، وبدأ نوع من التقارب بينهما، وتم الى حد ما تصفية الاستعمار القديم.

لقد أغرى هذا التطور في أولويات عدم الانحياز ـ والتركيز على طبيعة العلاقة بين الشمال والجنوب بعد أن كان التركيز في فترة الخمسينات والستينات على العلاقة بين الشرق والغرب ـ القوى الامبريالية الى الادعاء بأن تغير الظروف الدولية وتراجع حدة الصراع بين المعسكرين قد أنهى أهمية ومحتوى عدم الانحياز منطلقين من فريضة مؤداها أن عدم الانحياز هو وليد الحرب الباردة لانتيجة لعوامل موضوعية جعلت هذه السياسة بمثابة تعبير عن الذات تتطور اولويات التعبير عنها بتطور الحياة الدولية ذاتها(٥٦).

إلا أنه مع ذلك لابد من الاعتراف بتراجع فعالية الدور الذي تقوم به حركة عدم الانحياز لكن دون أن يعني ذلك خطل الفكرة بل نتيجة لاوضاع ذاتية سادت دول عدم الانحياز نفسها وأخرى خارجية ارتبطت بالسعى من قبل الولايات المتحدة لاعادة بسط السيطرة على الدول النامية مستغلة في ذلك الاوضاع الدولية من جهة وفشل برامج التنمية أو تعثرها لعدد كبير من هذه الدول(٥٧).

ويمكن ايراد الاسباب التالية كعوامل أثرت في نهاية الستينات على تراجع فعالية دور حركة عدم الانحياز:

١. تضاعف عدد الدول اعضاء الحركة في الفترة بين مؤتمر بلغراد ١٩٦١م ومؤتمر لوزاكا ١٩٧٠م، ففي مؤتمر بلغراد كان عدد الدول الاعضاء (٢٥) دولة أرتفع في مؤتمر لوزاكا الى (٥٤) دولة مما يعني تقلصا لفرص الانسجام في المواقف بسبب هذا العدد الضخم.

٢. أختفاء عدد من الاعضاء الديناميكية والراديكالية لدول عدم الانحياز عن طريق انقلابات يمينية تؤمن بتوطيد العلاقات مع الولايات المتحدة أو بسبب الوفاة (نهرو، ناصر).

٣. التفاوت في الواقع الاقتصادي للدول النامية، فرغم انها جميعا دول متخلفة ألا أن عوائد البترول أوجدت تدرجا واضحا في مستويات الدخول لديها مما جعل عددا من الدول النفطية الغنية تنساق بشكل أكثر وضوحا للارتباط بالمعسكر الغربي والركون الى الواقع التقليدى للتقسيم الدولى للعمل.

٤. احتدام الصراع بين عدد من دول عدم الانحياز وتصاعده الى درجة الصدام المسلح مما مهد السبل عن طريق المساعدات العسكرية الى تدخل أى من الدولتين العظميين في الصراع، ويمكن الاشارة بشكل خاص الى الصراع الهندي الصيني والهندي الباكستاني.

٥. التعدد النسبي للاقطاب الدولية وظهور الصين الشعبية كقطب ثالث في الصراع.

٦. خفة حدة الحرب الباردة والانتقال الى فترة من الانفراج الدولى مع اقترانها بانتعاش الصراعات الاجتماعية، التي أخذت تهدد النظام الدولى كله،

وتفاقم ظاهرة التضخم وظهور بوادر أزمة اقتصادية خانقة.

ازاء هذا الواقع الذي مثل أزمة لحركة عدم الانحياز أضحت الحركة في منعطف خطير. فهي أما أن تطور في أولوياتها من أجل تحقيق السلام الذى لا يستقيم في ظل علاقات اقتصادية وسياسية غير متكافئة، أو أن تكتفي بأن تكون مؤتمراتها مجرد منبر ومتنفس خطابي لدول العالم الثالث.

وقد أختارت الحركة الطريق الاول الذي يفيد أن تحقيق الاستقلال السياسي لايمكن ان يتم الا اذا تضمن الاستقلال الاقتصادي، ومن هنا فقد دخلت الحركة مرحلة جديدة كانت ارهاصاتها الاولى عام ١٩٧٢م في أجتماع وزراء خارجية بلدان عدم الانحياز في «جورج تاون» حيث أقر برنامج للتعاون الاقتصادي ركز على تحقيق الاستقلال الاقتصادي كشرط أساسي لاى استقلال سياسي، كما دعا الى تأكيد السيادة الكاملة«أى السيطرة على الموارد الطبيعية القومية والى تعزيز وحدة مجموعة ال٧٧، وتنسيق نشاطاتها والى تركيز الدول النامية جهودها على التنمية الاقتصادية، وتكثيف التعاون بينها في هذا الاطار مع التأكيد على أهمية التصنيع في عملية التنمية، كما تمت إدانة نشاطات الشركات متعددة الجنسية باعتبارها اسلوب الامبريالية في تحقيق أهداف الاستعمار التقليدي(٥٨).

وقد جاء مؤتمر الجزائر الذي عقد في سبتمبر ١٩٧٣ ليعيد الى حركة عدم الانحياز عنفوانها، ويضعها على الطريق الصحيح من أجل تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي للبلدان النامية، والى اقامة علاقات اقتصادية دولية متكافئة تستند الى نظام جديد لتقسيم العمل الدولى.

فما هي الظروف التي عقد فيها هذا المؤتمر الهام، وما هي نتائجه(٥٩)؟

١ ــ ظروف عقد المؤتمر:

أ: الظروف السياسية: أتسمت بما يلي:ــ

١. تصاعد الغارات الجوية الامريكية على شعوب الهند الصينية.

٢. استمرار السياسة العدوانية للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

٣. استمرار السياسة التمييزية للكيان العنصرى في جنوب افريقيا.

٤. تصاعد نضال حركات التحرر في كل من افريقيا وامريكا اللاتينية.

٥. اتساع نطاق الاتصالات بين الدول الكبرى الثلاث «الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة، والصين الشعبية» من أجل مزيد من الانفراج الدولي.

٦. اتساع نطاق المفاوضات بين شرق أوروبا وغربها للاعداد لمؤتمر التعاون والامن الاوروبي في هلسنكي.

ب: الظروف الاقتصادية:

تميزت بتسارع تدهور شروط المبادلات التجارية للبلدان النامية وانهيار النظام النقدي الدولى وزيادة معدلات التضخم والبطالة وظهور بوادر الازمة الاقتصادية العالمية.

٢ ــ نتائج المؤتمر:

يمكن وصف هذا المؤتمر بانه للمواجهة والاعتماد على النفس حيث أدينت الرأسمالية والامبريالية بشكل واضح، كما تم التأكيد على ارادة البلدان النامية بالاعتماد على مواردها الخاصة بصورة فردية وجماعية وبالدفاع عن مصالحها الاساسية، وتأمين تنميتها معتمدة على نفسها، أى أن المؤتمر دعا الى ان يكون للدول النامية تأثير في طبيعة العلاقات الدولية بشقيها السياسي والاقتصادي، كما تم تكليف الرئيس الجزائرى «هوارى بومدين» رئيس المؤتمر بطلب الدعوة الى عقد دورة خاصة للجمعية العامة للامم المتحدة تخصص لدراسة المشاكل الاقتصادية العالمية ولبحث موضوع اقامة نظام دولى جديد(٦٠).

وقد تم عقد الدورة الخاصة ــ السادسة ــ للجمعية العامة حيث صدر القرار رقم ٣٢٠١ بتاريخ ١٩٧٤/٥/١ مؤكدا على المبادئ الاساسية

التالية للنظام الدولي الجديد(٦١): ــ

١. الاعتراف بحقوق البلدان النامية السياسية والاقتصادية، حيث أكد على الاعتراف بسيادة كل دولة على مواردها الطبيعية وعلى جميع فعالياتها الاقتصادية، وحقها في ممارسة الرقابة على مواردها الطبيعية وعلى جميع فعالياتها الاقتصادية، وبحقها في مارسة الرقابة الفعالة بالوسائل التي تراها مناسبة بما في ذلك حق التأميم ونقل الملكية الى مواطنيها لان هذا الحق تعبير عن السيادة الدائمة والكاملة للدولة وذلك يحتم استبعاد وسائل الاكراه السياسي والاقتصادي.

٢. الاعتراف بحقوق البلدان النامية فيما يتعلق بالمبادلات التجارية والنظام النقدى، حيث أكد الاعلان على ضرورة العمل على ايجاد علاقة عادلة بين اسعار المواد الاولية والمنتجات الاساسية والبضائع المصنعة ونصف المصنعة المصدرة من قبل الدول النامية، وأسعار المواد الاولية والمنتجات الاساسية والبضائع المصنعة والمعدات المستورة من قبلها بهدف تحسين هام في شروط التجارة وتوسيع الاقتصاد العالمي.

كما تم التأكيد على تسهيل مهمة قيام اتحادات المنتجين في مجال التعاون الدولى وطبقا لاهدافهم والتي من بينها الاسراع في تطوير البلدان النامية والمساعدة في نمو الاقتصاد العالمي.

كما وضع برنامج عمل لاقامة النظام الجديد تضمن عشرة نقاط هي:

١. المشكلات الاساسية المتعلقة بالمواد الاولية، واثرها على التجارة والتنمية.
٢. النظام النقدي العالمي ودوره في تمويل التنمية في البلدان النامية.
٣. التصنيع.
٤. انتقال التكنولوجيا.
٥. الاشراف والرقابة على الشركات متعددة الجنسية.
٦. ميثاق حقوق الدول وواجباتها الاقتصادية.
٧. تنشيط التعاون بين الدول النامية.
٨. مساعدة الدول في ممارسة سيادتها الدائمة على مواردها الطبيعية.
٩. برنامج خاص لمعونات طوارئ الدول التي تأثرت أكثر من غيرها بالازمات الاقتصادية ومنها الدول الاقل نموا والتي ليس لها منافذ بحرية.
١٠. دعم دور الامم المتحدة في مجال التعاون الاقتصادي والتنمية.

هذا علاوة على الدعوة الى بذل الجهود المختلفة لانهاء الاستعمار بشكليه القديم والحديث والسيطرة الاجنبية واستغلال الثروات الطبيعية.

أما مؤتمر عدم الانحياز الخامس المنعقد في كولومبو عام ١٩٧٦م فقد عقد في ظروف أتسمت بتصاعد التوتر والتناقض بين الدول النامية بشكل خاص نتيجة لارتفاع اسعار البترول وتأثر الدول النامية المستوردة ماديا وتراجع معدلات المعونة المقدمة من الدول الصناعية بدعوى أزمة النفط، علاوة على الاختلاف الواضح بين دول عدم الانحياز بالنسبة للعلاقة مع المعسكرين فيما يتعلق بسياسة الانفراج.

اما على الصعيد الاقتصادي فلم يتم اتخاذ اجراءات عملية لحل المشاكل الاقتصادية خاصة فيما يتعلق بضبط نشاط الشركات متعددة الجنسية، وتعديل شروط التبادل(٦٢)

ويمكن القول أن هذا المؤتمر حمل معه بذور التصدع والأزمة بسبب الخلافات التي احتدمت بين أطرافه، ومن هنا فقد كانت قراراته استمرارا لقرارات مؤتمر الجزائر والتأكيد على ضرورة أقامة نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي دولى عادل(٦٣)

أما بالنسبة للمؤتمر السادس لدول عدم الانحياز الذي عقد في «هافانا» ١٩٧٩ فقد كان مثالا واضحا لأزمة عدم الانحياز وتعمق الصراعات بين اطرافه، والتي يمكن أن ترد الى عملية الاختراق التي تمت من قبل القوى العظمى لعديد من الدول غير المنحازة. ولا أدل على ذلك من المحاولة التي قامت بها عدة دول ــ اعضاء في حركة عدم الانحياز ــ ولأسباب متفاوتة لمنع عقد المؤتمر في هافانا(٦٤) بدعوى أن الدولة المضيفة ــ كوبا ــ هي ذراع عسكري للاتحاد السوفيتي، وانها تسعى لنقل الحرب الباردة بين القوتين العظميين الى ساحات المؤتمر(٦٥).

ورغم الصراعات التي احتدمت في المؤتمر الا أن قيادة «كاسترو» الديناميكية له وانسجام موقف بعض الدول اليسارية من أعضاء المؤتمر تمكنت من تجاوز الخلافات وتم الخروج بقرارات يمكن أن تعتبر أمتدادا لمؤتمرى الجزائر وكولومبو(٦٦) مع التأكيد على إدانة الامبريالية الامريكية بشكل مباشر.

(٦) النظام الدولى «الجديد» والخروج من حلقة التبعية

يتميز النظام الدولي الحالي بتركيز القوة والنفوذ وبالتالي السيطرة في يد عدد قليل من الدول الرأسمالية التي سبقت الى الظهور على المسرح الدولي وقضت بالبؤس والتبعية على أكثر من ثلثى العالم عن طريق النهب الذي تمارسه لدول وشعوب العالم الثالث بحيث يزداد غنى وقوة الدول المتقدمة، ويتضاعف فقر وشقاء الدول والشعوب النامية مما وضعها في حلقة مفرغة من التخلف بعد أن تم تنظيم الاقتصاد الدولي استنادا الى التقاليد الليبرالية مما أدى الى تكريس علاقات غير متكافئة بين ما يسمى بالمركز «الدول المتقدمة» والمحيط «الدول النامية» بحيث يمكن القول أن الدول الثرية في العالم هي التي تحتكر القوة والسلطة في المجتمع الدولي، أى أننا بنوع من المقارنة نجد أن هذه القوى تمارس على المسرح الدولى نفس الدور الذي تقوم به الطبقات المسيطرة المستغلة في الاطار المحلي(٦٧) ومن هنا جاء الرفض من قبل العالم الثالث للطبيعة وللعلاقات التي تسود المجتمع الدولي والمطالبة بأقامة بنية جديدة للعلاقات الدولية تقوم على الديمقراطية وتؤمن تحقيق الاستقلال الحقيقي للشعوب والدول وتوفير ظروف ملائمة لتحقيق السلام والعدالة.

فما هي طبيعة وأهداف هذا النظام المرتجى؟

يمكن القول أن الدول العربية بأهمية نفطها وثقلها في منظمة «الاوبك» كانت المحرك الاساسي للجهود التي بذلتها الدول النامية من أجل أقامة النظام الدولى المرتجى، أى أن النفط وأزمته كانا المنطلق لطرح مسألة النظام المرتجى، اضافة لذلك فإن الدول المصنعة نفسها في اطار عملية تجديد وترشيد النظام الراسمالي وأعادة قسمة العمل الدولى عملت على ايجاد نوع جديد من العلاقات يؤمن لها استمرار عملية الاستغلال والنهب للشعوب النامية. ومن هنا فان السعى الى أقامة النظام المرتجى كانت هدف كل من الدول النامية والمصنعة، بيد أن طبيعة وأهداف هذا النظام اختلف لدى كل طرف(٦٨).

أ ــ وجهة نظر البلدان المصنعة:

نتيجة للمتغيرات التي استجدت على الساحة الدولية خاصة عقب الحرب العالمية الثانية عملت الدول الرأسمالية المصنعة على أعادة قسمة العمل الاستعمارية التي ارستها لتتناسب والواقع الجديد بغية تعزيز سيطرة رأس المال الدولى من خلال تعميق تبعية البلدان النامية المالية والتقنية والثقافية لها عن طريق أستغلال أكبر لكل من الايدى العاملة الرخيصة والطاقة والمواد الخام في الدول النامية، وذلك بنقل بعض الصناعات التقليدية والملوثة والتي تحتاج الى أيد عاملة ومواد أولية رخيصة مما يؤدى الى أنتاج سلع أقل تكلفة، وفتح اسواق اخرى لها أضافة الى الاستفادة من مزايا الصبغة الوطنية لتلك المشاريع.

ب ــ وجهة نظر البلدان النامية

لم تبلور الدول النامية موقفا موحدا ازاء مطالبتها بالنظام الدولى المرتجى نتيجة لاختلاف البنى الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية فيها مما دفع بعضها الى تحقيق مصالحه على حساب الموقف الموحد للبلدان النامية مما يؤدي الى تحجيم اهمية موقف هذه البلدان في مواجهة الدول المصنعة دون أن يعنى ذلك عدم وجود نقاط عامة تم الاتفاق حولها، ولكن لو نظرنا من الناحية الواقعية الى قيمة ما تطالب به معظم الدول النامية خاصة فيما يتعلق بسياستها التصديرية لوجدنا أن الوضع سيؤدي الى مزيد من التبعية

التكنولوجية والمالية للشركات متعددة الجنسية وسيساعد تلك الشركات على فرض شروطها على الدول النامية مما سيؤدي في النهاية الى أقامة نظام جديد يقوم على اساس نمطى الانتاج والاستهلاك الرأسماليين دون أن يحدث ذلك أى تغير جوهري في تقسيم العمل بين الدول المصنعة والنامية.

أى أن النظام المرتجى لن يتجاوز النمط الرأسمالي في مرحلته الانتقالية على الاقل، أما في حالة بعض البلدان التي تعتبره مقدمة للخروج من فلك النظام الرأسمالي فإنها غير قادرة على ذلك حاليا حيث أن قدرة الدول النامية على فرض مقترحاتها تعتمد على مدى نجاحها في اقناع الدول المتقدمة بان الوضع الحالى خطر على اقتصادياتها نفسها مما يتطلب قبول فكرة علاقات الاعتماد المتبادلة(٦٩).

الا أن قبول الدول المتطورة بهذه الفكرة لن يتم الا اذا تم تحقيق الفرضيات التالية:

ـ تدعيم وحدة الدول النامية وتكتلها في مواجهة الدول المتطورة.

ـ فك الارتباط مع النمط الرأسمالي للأنتاج، وضبط نشاط الشركات متعددة الجنسية.

ـ القيام بعملية التنمية الذاتية على الصعيد المحلي واعادة هيكلة كافة البنى لتدعيم موقفها في مواجهة أية ضغوط خارجية.

(٧) حركة عدم الانحياز في الثمانيات:

رغم الازمة التي تعيشها حركة عدم الانحياز في الفترة الحالية إلا أنها لازالت تحظى بالقبول لدى عدد كبير من الدول النامية رغم تقديم بعض الدول النامية لمصالحها الخاصة على الفكرة نفسها ـ عدم الانحياز ـ وقبولها بتقديم تنازلات تعيد الى الاذهان جو الأحلاف وسياسة الاستقطاب التي سادت العلاقات الدولية عقب الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الستينات تقريبا، أى أن الحركة لازالت تضم حاليا أكثر من حصان طروادة داخلها(٧٠)، مما جعل القضايا الاساسية التي ألحت على المؤتمر السابع لدول عدم الانحياز والمنعقد في نيودلهي ١٩٨٣ تتمثل في اعادة التماسك بين الدول النامية نتيجة للصراع والمواجهة الدائرابن بين الدول النامية نفسها أعضاء الحركة(٧١)، فقد سيطر على المؤتمر شبح القضايا التالية التي تناقضت حولها المواقف:

ـ قضية تمثيل كمبوديا.
ـ الحرب العراقية الايرانية.
ـ قضية افغانستان
ـ الموقف المصرى من قضية الشرق الاوسط والارتباط بالسياسات الامريكية.

وبسبب الحاح هذه القضايا فإننا نستطيع القول أن القضايا الكبرى لدول العالم الثالث قد تم القفز عنها لصالح الخلافات المحلية الاقليمية والايديولوجية.

خاتمة :

نتفق مع العديد من الدارسين الذين يرون أن حركة عدم الانحياز تعيش مرحلة أزمة، الا أننا لانعتقد أن فكرة عدم الانحياز ذاتها قد فقدت أهميتها أو فعاليتها بسبب تغير الظروف الدولية، بل أن هذه الظروف المستجدة تستدعى دورا حقيقيا لدول عدم الانحياز بعد أن تعيد ترتيب أولوياتها وفض المشكلات القائمة بين اعضائها والتي جاءت في معظمها نتيجة لعملية الاختراق التي تمت من قبل الامبريالية لعدد كبير من الدول النامية.

ويمكن تحديد الاولويات لدول عدم الانحياز بما يلي:

١ ـ تحقيق الاستقلال الحقيقي للدول النامية مع التركيز على التنمية الزراعية لحل مشاكل الغذاء، حيث أن الاستقلال أمر بعيد المنال دون تحقيق

الأمن الغذائي، وقد تنبهت الدول الامبريالية خاصة الولايات المتحدة الى أهمية العنصر الغذائي فغدا هذا العنصر اداة للسيطرة وممارسة الضغط، بل ويمكن القول أن أزمة النفط تتراجع وتتدنى أهميتها في مواجهة أزمة الغذاء، ومن هنا ينبغي على الدول النامية أعادة هيكلة بنيتها الزراعية وايجاد هياكل زراعية مرافقة للتنمية الزراعية ودليلنا على أهمية التوجه الزراعي أن عملية التنمية الصناعية التي انتهجتها عديد من الدول النامية على حساب التنمية الزراعية بغية توفير قاعدة مادية للنمو قد ادت في معظم الاحيان الى مشاكل تنموية تصل الى حد الازمة وعمقت التبعية للعالم الامبريالي خاصة التبعية التقنية والمالية، ومن ثم التبعية الغذائية.

٢ ـ النظام الدولى المرتجى القائم على العلاقات المتكافئة الخالية من التبعية، أى بمعنى آخر ديمقراطية العلاقات الدولية.

٣ ـ الحرب الباردة في اطار سياسة الوفاق.

قائمة المراجع

١. د. عبد المنعم زنابيلي، تطور مفهوم الحياد عبر المؤتمرات الدولية، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٧٧) ص٥.
٢. محمد مصطفى الشعبيني، الحياد الايجابي، اسسه ودوافعه الانسانية (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠) ص٥٧.
٣. حسين فهمي مصطفى، سياسة عدم الانحياز في المجال الدولي، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة كتب سياسية، بدون تاريخ) ص١٣.
٤. د. عبد المنعم زنابيلي، مرجع سابق، ص٨.
٥. حسين فهمي مصطفى، مرجع سابق، ص٧.
٦.
6 - Leo Mates, Nonalignment and the Great Powers P.P. 523 - 536 in Foreign Affairs. April 1970, Vol. 48, No. 3, P. 225
٧. ادوارد كارول، الجذور التاريخية لعدم الانحياز (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ، ١٩٧٦) ص.ص٤ ـ ٥
٨.
8 - Theodore L. Shay, Non alignment Si, Neutralism No. PP. 228 - 245 in the Review of Politics, Vol. 30 April 1968, No. 2 P. 228..
٩. وثائق عبد الناصر ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام القاهرة، بدون تاريخ، خطاب عبد الناصر الى المثقفين بجامعة القاهرة لشرح بيان ٣٠ مارس في ٢٥ أبريل ١٩٦٨، ص٤٢٥.
١٠. د. بوجانا تادجيتيش، تحديات اللانحيازية في العلاقات الدولية المعاصرة، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، مؤسسة الاهرام عدد ٤٥، السنة الثانية عشر، يوليو ١٩٧٦م، ص.ص ٢٩ ـ ٣٠.
١١. حسن الفكهاني المحامي، موسوعة جمال عبد الناصر، الجزء الاول، (القاهرة، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ١٩٧٣) ص٧٣.
١٢. د. سامي منصور، عدم الانحياز، رحلة على طريق بلا معالم، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام عدد ٤٨، ١٩٨١) ص٥١.
١٣. المرجع السابق، ص ٥٢.
١٤. حسن الفكهاني المحامي، مرجع سابق، ص ٧٣.
١٥. محمد مصطفى السعبيني، مرجع سابق، ص ٩٨.
١٦. د. أسماعيل صبرى مقلد، عدم الانحياز بين الايديولوجية والتطبيق، مجلة السياسة الدولية، عدد ٤٥، السنة الثانية عشر، يوليو ١٩٧٦، ص١٧.
١٧. د. الياس فرج، تطور الايديولوجية العربية الثورية، الفكر القومي، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة السابعة ١٩٧٩) ص٢٤.
18 - Neville Maxwell, Jawaharlal Nehru: of Pride and Principle, PP. 633 - 643 in Foreign Affairs, Vol. 52, No. 3, 1974, P: 635.
19 - Paul F. Power, India Foreign Policy, The Age of Nehru, PP. 257 - 286 in The Review of Politics, Vol. 26, April 1964, No. 2, P. 272.
20 - Neville Maxwell, op. Cit., P. 635.
21 - Samir Anabtawi, Neutralists and Neutralism, PP. 351 - 361, in The Journal of Politics, Vol. 27, 1965, May 1965, No. 2, P. 354.
22 - Neville Maxwell op. Cit., P. 635.
23 - Paul F. Power, op. Cit., P. 272.
24 - Neville Maxwell, op. Cit. P. 634.
٢٥. محمد حسنين هيكل، زيارة جديدة للتاريخ، جواهر لال نهرو، المثقف والسلطة، في مجلة المستقبل، الحلقة الخامسة، ١٣ نيسان ١٩٨٥، ص.ص ٤٧ ـ ٤٨.
٢٦. أنظر:
26 - John C. Campbell, Tito, The Achievement And The Legacy, PP. 1045 - 1095 in Foreign Affairs, Summer 1980, Vol. 58, No. 5.
٢٧. د. جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، (القاهرة: دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، يوليو ١٩٦٧) ص١٢٥.
٢٨
28 - Jean Lacouture, Nasser, A. Biography (New York, Alfred A. Knopf, 1974), P. 209.
٢٩. حسن الفكهاني المحامي، مرجع سابق، ص ٧٣.
30 - Hrair R. Dekmejian, Egypt under Nasir, " A study in Political Dynamics " (London University of London Press, 1972). P. 111
31 - Peter Mansfield, Nasser's Egypt (London Penguin Book, 1965), P. 84
٣٢. د. بطرس بطرس غالي، الناصرية وسياسة مصر الخارجية، في مجلة السياسة الدولية (القاهرة، العدد التاسع، ١٩٧١) ص٢٤.
٣٣. عدم الانحياز، من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة كتب قومية، عدد ٣٠٥، بدون تاريخ، ص١٢.
٣٤. وثائق عبد الناصر، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، مرجع سابق، حديث عبد الناصر الى صحيفة الاوبزرفر البريطانية في ٥ فبراير ١٩٦٧، ص ٤٤٢.
٣٥. عدم الانحياز، مرجع سابق، ص ١٠.
٣٦. وثائق عبد الناصر من ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، مرجع سابق، حديث عبد الناصر الى الصحفي ويليام أتوود رئيس تحرير مجلة لوك الامريكية في ٤ مارس ١٩٦٨، ص ٣٣٩.

٣٧. المرجع السابق، خطاب عبد الناصر في عيد الثورة السادس عشر في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الاول للاتحاد الاشتراكي العربي في ٢٣ مارس ١٩٦٨، ص ٤٩٧.

٣٨ 38 - Peter Mansfield, op. Cit., PP. 96 - 97.

٣٩. د. بطرس بطرس غالى، مرجع سابق، ص ٢٥.

٤٠. محمد حسنين هيكل، مرجع سابق، ص ٤٩.

٤١ 41 - Samir N. Anabtawi, op. Cit, P. 359

٤٢. د. سامى منصور، مرجع سابق، ص ٨٧.

٤٣. أنظر مزيدا من التفصيلات

44 - Theodore L. Shay, op. Cit., PP. 228 - 245, Hamilton Fish Armstrong, Neutrality Varying Tunes, PP. 57 - 71, in Foreign Affairs, Vol. 35, No.1, October, 1956, P. 57

٤٥ Ibid., P. 64

٤٦ Ibid., P. 66

٤٧. د. سامى منصور، مرجع سابق، ص ٦٠.

٤٨. د. أسماعيل صبرى مقلد، عدم الانحياز بين الايديولوجية والتطبيق، في مجلة السياسة الدولية، القاهرة، مؤسسة الاهرام، عدد ٤٥، السنة الثانية عشرة، يوليو ١٩٧٦، ص ١٦.

٤٩. د. سامى منصور، مرجع سابق، ص ١٣٤.

٥٠. جوزيب جيرجا، رصيد ثورة ٢٣ يوليو في حركة عدم الانحياز،ص ص ٤٠ ـ ٤٦، في مجلة الطليعة، القاهرة: السنة الثانية، العدد السابع، يوليو ١٩٦٦، ص ٤١.

٥١. حسين فهمى مصطفى، مرجع سابق، ص ٧٠.

٥٢. جوزيب جيرجا، مرجع سابق، ص ٤٢.

٥٣. المرجع السابق، ص ٤٣.

٥٤. حسين فهمى مصطفى، مرجع سابق، ص ص ٨٧ ـ ٨٨.

٥٥. د. بوجاتا تاد جيتيش، مرجع سابق، ص ٣١.

٥٦. Leo Mates, op. Cit.,P. 529.

٥٧. د. سامى منصور، مرجع سابق، ص ٥٢.

٥٨. د. عبد المنعم زنابيلى، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

٥٩. المرجع السابق، ص ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢.

٦٠. أحمد القاضى، حركة عدم الانحياز بين مثالية الاهداف وتحديات الواقع، ص ص ٥٤ ـ ٧٧، في مجلة البحوث، طرابلس، مركز البحوث والدراسات الاعلامية، السنة الاولى، العدد الرابع، اكتوبر ١٩٨٢، ص ٦٦.

٦١. د. عبد المنعم زنابيلى، سياسة المنتجات الاساسية والطاقة في هيئة الامم المتحدة، الدورة الاستثنائية السادسة (دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٧٥) ص ٢٦٣.

٦٢. د. عبد المنعم زنابيلى، تطور مفهوم الحياد عبر المؤتمرات الدولية، مرجع سابق، ص ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

٦٣. أحمد القاضى، مرجع سابق، ص ٦٨.

٦٤. د. سامى منصور، مرجع سابق، ص ١٦٤.

٦٥. أحمد القاضى، مرجع سابق، ص ٦٩.

٦٦. د. يعقوب سليمان، النفط العربي والنظام الاقتصادي الدولى الجديد اطروحة لنيل درجة دكتوراة الدولة في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاقتصادية، مايو ١٩٨٣، ص ٢٣٥.

٦٧. محمد بجاوى، من أجل نظام اقتصادي جديد، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠) ص٢٤.

٦٨. لمزيد من التفصيلات انظر د. يعقوب سلمان، مرجع سابق، ص ص ٣٢٥ ـ ٣٩.

٦٩. د. حسن السيد نافعة، المنظمات الدولية وقضايا التنمية في العالم الثالث، في مجلة السياسة الدولية، أكتوبر ١٩٨٠، عدد ٦٢، ص ٥٩.

٧٠. د. محمد الرميحى، صوت عدم الانحياز في مجلة العربي، الكويت، عدد ٢٩٣، ابريل ١٩٨٣، ص١٢.

٧١. دنيا الخواجة، قمة نيودلهى وأزمة عدم الانحياز، عدد ٧٢، ابريل ١٩٨٣، ص ١٠٦.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

دوافع ومبررات الاستعمار القديم

الاستاذ/ عامر رمضان أبوضاوية
كلية الاقتصاد/ جامعة قار يونس

تمهيد

يستهدف هذا البحث التعرف على الاصول التاريخية للاستعمار الاوروبي والدوافع التي قادت الدول الاوروبية للتوسع على حساب الشعوب الاخرى والحجج التي دافعت بها عن ميولها التوسعية، وهذا يعني ان هذا البحث لن يتعرض لصور اخرى للاستعمار كالاستعمار العثماني...الخ.

وعليه فقد قسمنا البحث الى مقدمة وقسمين وخاتمة. في المقدمة حاولنا أن نستعرض اشكال الاستعمار في صوره البدائية والقديمة محاولين التوصل الى معنى الاستعمار، وفي القسم الاول استعرضنا الدوافع النفسية، والاجتماعية والاقتصادية، وغيرها من الدوافع التي جعلت الدول الاوروبية تقدم على التوسع على حساب حرية الشعوب الاخرى.

وفي القسم الثاني استعرضنا الحجج التي حاول المستعمر أن يبرر بها توسعاته الاقليمية سواء ما كان منها يستند الى العاطفة أو الى المنطق (المغالط).

وفي الخاتمة حاولنا أن نخرج بنتيجة مفادها أن الضياع الاروبي كان الباعث الحقيقي للاستعمار في مختلف أشكاله.

وهذا ما سنراه بالتفصيل فيما يلي:

مقدمة:

سوف نستعرض في هذه المقدمة ثلاث نقاط هي الاستعمار في صوره البدائية والاستعمار في صوره القديمة ومعنى الاستعمار: ـ

(١) الاستعمار في صوره القديمة:

باستقراء تاريخ الشعوب في العصور القديمة جدا نجد أن فكرة الاستعمار بدأت في شكل الهجرة ثم تطورت وأخذت صورة الغزو.

أ ـ الهجرة:

خرج سيدنا ابراهيم (يتجول دون أن يعرف وجهته).

في ضوء هذه العبارة المقتضبة نستنتج أن الهجرة أخذت في بداية الامر شكل حركات سلمية غير معروفة الاتجاه ، فكانت أشبه بالنزوح أى انتقال جماعات من وطنهم الاصلى الى أقاليم اخرى بقصد اتخاذها أوطاناً جديدة.

وكنتيجة لهذا النوع من الهجرة جاءت فكرة الاستقرار الذى ينطوى ضمنياً على فكرة انشاء الدولة: دولة حديثة لا يربطها بالبلد الاصلى إلا وحدة العقيدة.

ونقصد بالعقيدة هنا ليست العقيدة السياسية أو

الدينية أو العنصرية بل مجرد الحنين الى الحضارة التي كان يعيش في ظلها السكان الاصليون فظهرت دولة جديدة لم تعرف العنصرية المبنية على الاحتقار أو العداء وان كانت تميزها عن الدول الاصلية اختلافات حضارية.

ب _ الغزو:

بالرجوع الى الصور البدائية للغزو نجده كان يتم بدافع الابهة الحربية أو السياسية وبالتالي نتج عن هذه الغزوات ظهور شكل الامبراطورية. إن لفظة إمبراطورية مشتقة من لفظة (Imperator) وهي تعني في اللاتينية (القائد) وأن (Imperium) تعني القيادة.

ومن هنا بدأت تظهر الامبراطوريات التي لم تقم على اساس شعبي ولم تستند إلى الهجرة بل قامت على أساس عسكري يستند الى الغزو الذي يعني الحملات العسكرية التي لم يتحول فيها المحارب الى مزارع بل ظل كما دخل مجرد غاز ومن أمثلة هذه الامبراطوريات: الامبراطورية المصرية وامبراطوريات ما بين النهرين.

(٢) الاستعمار في صوره القديمة:

سوف نكتفي في هذه المقدمة بالاشارة الى شكلين من أشكال الاستعمار الاوروبي في العصور القديمة هما الاستعمار الاغريقي والاستعمار الروماني تاركين صوراً اخرى للاستعمار كالاستعمار الفارسي والمقدوني والفينيقي... الخ

أ _ الاستعمار الاغريقي:

من المعروف أن اليونان القديمة قد اشتهرت بالصناعة وإن كانت بدائية والذى يعنينا هنا هو كيف قامت هذه الصناعة في حين أن اليونان في حد ذاتها كانت تفتقر الى الخامات اللازمة لقيامها. كما كانت تفتقر الى الاسواق التي تستوعب انتاجها؟

ان الاجابة على هذا السؤال تظهر في الاسلوب الذى اتبعه الاغريق لاستجلاب الخامات وتصريف المنتجات.

هذا الاسلوب هو إقدام ملاك الاراضي وأصحاب المراعي على طرد الفلاحين والرعاة الأجراء من أراضيهم باعداد متزايدة. فماذا فعل المطرودون؟ لقد هاجر هؤلاء المطرودون الى أقاليم ضمت فيما بعد الى الوطن الام (أثينا) حيث وزعت عليهم الاراضي الزراعية ليزرعوها. ولكن كيف هاجروا؟ لقد هاجروا في شكل منظم وان كان من هاجر قد وقع عليه الاختيار بطريق القرعة. إن تنظيم التهجير أخذ شكلا خطيراً فيما بعد يمكن تسميته بالتوسع الهيليني الذى سمى بالنظام الكونفدرالى الهيليني خلال الفترة المسماة تاريخياً بفترة امبريالية (أثينا).

حيث قسم العالم الى يونانيين وبرابرة أى متوحشين يندرج تحتهم جميع البشر من غير اليونانيين الذين عوملوا كعبيد.

من هنا بدأت تظهر فكرة العنصرية في الاستعمار وهذه بداية ترسيخ العلاقة بين المستعمر كجنس سام والشعوب الاخرى كاجناس متدنية.

هذه العلاقة طورّها فيما بعد الاسكندر المقدوني في شكل فلسفة سقراطية تحت عنوان (اتحاد القلوب) من أجل نشر الفكر الهيليني.

ب _ الاستعمار الروماني:

بدأ الاستعمار الروماني بزحف روما على كل شبه الجزيرة الايطالية، حيث أخذ هذا الزحف شكل سلب الشعوب الايطالية في هذه المناطق باجبارها على دفع الضرائب لروما ومد الاخيرة بافراد للعمل في العسكرية كوقود حرب وكذلك مصادرة الاراضي الزراعية.

ثم تطور الامر فبدأت روما بالتوسع فيما وراء البحار بان دخلت في حرب مع قرطاجنة لاثبات وجودها، ولقد أضفت روما طابعاً قانونياً لتوسعاتها الاستعمارية تمثل في شكل اصدار نوعين من القوانين:

قانون مدنى وينظم العلاقات فيما بين روما وبعض، وقانون الشعوب وينظم العلاقات التي يكون أحد طرفيها غير الرومان.

حيث قسمت اطراف هذه العلاقات بحسب ارتباطهم بالدولة (الام) الى مواطن ونصف مواطن ومواطن اتحادى ولاتيني مستعمر.

وبعد فترة من الحروب التي خاضتها روما وخرجت منها منتصرة تطورت السياسة الاستعمارية الرومانية تطوراً توسعياً أكبر، بان منحت الجنسية الرومانية لافراد الشعوب المستعمرة في محاولة لربط الشعوب ربطا رضائياً بالمستعمر بان جعلت الحصول على جنسيته مصدراً لشرف المستعمر (مقارنة مع الواقع الحديث).
ثم بدأت تأخذ السياسة الاستعمارية الرومانية طابعاً حضارياً بان أضفت على البلاد التي فتحتها طابعاً رومانياً أخذ شكل التوسع في بناء المدرجات والحمامات والمسابح..الخ.
والسؤال هو من بنى هذه الحضارة في المستعمرات؟
لقد بنيت هذه الحضارة الرومانية في المستعمرات بواسطة الشركات المتخصصة التي سميت (ديليكانى) ثم تطورت هذه الشركات فيا بعد وأصبحت تقوم باستغلال الاراضى والمناجم..الخ حتى استطاعت أن تقوى شوكتها في رسم السياسة الرومانية الخارجية الى حد انها خلقت حزبا جديدا عرف فى ذلك الحين (بحزب الفرسان).

(٣) معنى الاستعمار:

بعد هذا العرض التاريخي لقصة الاستعمار في عهوده البدائية والقديمة نتساءل عن معنى كلمة الاستعمار؟
إن العرض السابق يشير الى الاستعمار على انه الزحف والتوسع فهل الاستعمار في معناه الحديث ينطوى على نفس الشئ؟
في الواقع أن كلمة (الاستعمار) التي نستعملها في ايامنا هذه هى كلمة اصلها لاتينى (Colonus) (كولوناس) وهى في اللغة جمع ومفردها (Colonus) (كولون) وكولوناس تعنى (زراع الارض) أى اولئك الذين يفلحون الارض مقابل جزء من ثمارها.
ومن هنا أتت كلمة (Colonia) (كولونيا) وتعني في اللاتينية مزرعة أى مسكن تحيط به ارض فلاحية.
والرومان هم أول من استعمل لفظ كولونيا للاشارة الى مساحات الاراضى التي وزعت على الرومان الذين نزحوا الى خارج شبه الجزيرة الايطالية على غرار ما فعله الاغريق.
وعليه فالاستعمار وفقاً لهذا المعنى اللغوى يعنى العمل الذى ترتب عليه تأسيس مستعمرات في الاراضى القابلة للزراعة.
وتطور الامر بعد ذلك فاخذت كلمة الاستعمار تعني أكثر من الزراعة فأصبحت تعني تأسيس المستعمرات على اساس عنصرى.
إن هذا الاساس لايمت بصلة للمعنى الاصلى وهو زراعة الارض. ومن هنا بدات تظهر كلمة النظام الاستعمارى وهى تعبير مرادف لفعل التوسع والسيطرة التي تمت من خلال مؤسسات تنظيمية قام المستعمرون بانشائها وادارتها ليس بقصد الزراعة بل من أجل السلب والنهب.
لقد أصبحت هذه المؤسسات الاستعمارية تجد من يفكر في اساليب عملها بطريقة منهجية خاصة، فنشأ بذلك منهج جديد للاستعمار يبحث في كيفية فرض الحصار على المؤسسات المحلية للشعوب المستعمرة وشل حركتها بما يتيح المجال لتحقيق اهداف المستعمرين ومؤسساتهم دون منازع لهم.
وهكذا أخذ الاستعمار شكل توسع ادارى واع مدفوع بحافز اقتصادى مدرك أخذ في التزايد بشكل مضطرد الى حد أن جعل الاستعمار يعنى التوسع البغيض وهذا يعكس الصورة البدائية له الذى اخذ شكل توسع سلمى.

القسم الاول
دوافع الاستعمار الاوروبى القديم

سوف نستعرض فيا يلى مجموعة من الدوافع التي دفعت بعض (دول) اوروبا الى استعمار الشعوب الاخرى على النحو البغيض الذى انتهينا الى تصويره في المقدمة.

أولا: الدوافع النفسية:

لقد تأثر المستعمر في خوض مغامراته الاستعمارية

بعض الفلسفات والاساطير القديمة التي لعبت دورا كبيرا في تحديد تكوينه النفسي.

(١) الدوافع النفسية المتأثرة بالافكار الفلسفية:

إن من ابرز الفلسفات القديمة التى حكمت نفسية المستعمر الفلسفة اليونانية التى هي في جوهرها دعوة للانسان الى الاستيلاء على الطبيعة وتملكها واستخدمها.

ولكن لان الشعوب الاخرى كانت بدورها لها فلسفتها الخاصة التي في جوهرها دعوة للانسان الى الخضوع للطبيعة. من هنا بدأ التضارب بين الفلسفتين فاستثمر المستعمر هذا التضارب لمصلحته بأن استنبط نظرية جديدة هي نظرية (العقلية الديناميكية) وهي النظرية التي حكمت سلوك المستعمر مغلبا إياها على نظرية الشعوب والتي يمكن تسميتها بنظرية (العقلية الساكنة) وهذا يحتاج منا الى توضيح أكثر:

قامت الفلسفة اليونانية على المادية والنفعية فهي حاولت اقتلاع الجذور التي كانت تربط الانسان بالطبيعة تلك الطبيبعة المعبرة عن الألوهية، فخلقت بذلك عقلية الانسان النفعي المادى. في حين كانت فلسفة الشعوب الاخرى (المجاورة) تدعو الى عبادة الارض أو الطبيعة فهى بذلك قد خلقت عقلية الانسان المرتبط بالارض عقائدياً.

والسؤال: هو لماذا جاء هذا التضارب بين الفلسفتين؟

فى الواقع إن الفلسفة اليونانية لم تكن تنادى بهذا في البداية ولكن نتيجة لما تعرضت له أثينا من نكسة فى عقيدتها الروحية، ظهرت هذه الفلسفة المادية في محاولة لنبذ الروح التي كانت ساكنة في الانسان الاثيني الحر حتى يستطيع أن يتكيف مع الواقع المر الذى في اطاره اضحت اثينا مجرد قرية في امبراطورية كبيرة هى الامبراطورية المقدونية.

ومن هنا نستطيع أن نسمى الفلسفة اليونانية المادية بانها فلسفة نكسة روحية.

إن هذه الفلسفة استغلها الاوربيون الاخرون في حفز الافراد على الارتحال بحثاً عن الرزق الوفير. ومن هنا بدات تظهر الفلسفة الاستعمارية كفلسفة تدعو الى الاستيلاء والتملك خارج حدود الوطن الام.

٢ ـ الدوافع النفسية المتأثرة بالاساطير:

بالرجوع الى اساطير الاولين كاسطورة (نرسيس) واسطورة (بروميثيوسي) اليونانية القديمة نجدها إما أساطير تمجد العقيدة الهيلينية الفردية أو تدعو الانسان الى انتهاك اسرار الطبيعة.

ومن هنا بدات تظهر فكرة الانسان المخترع او الانسان الصانع على الترتيب وأثرت هذه الفكرة السطورية على نفسية الاوروبي القديم فدفعته الى أن يتحول بالتبعية الى انسان اسطورى أى الانسان المغامر (بوفوس) أى الانسان الباحث بالفطرة عن المجهول الذى لم يكتشفه أو الغامض الذى لم يعرفه.

وهكذا جاءت عقلية الانسان الاوروبي كانسان مستعمر عقلية نفعية مادية أو عقلية اسطورية مغامرة غير متأثرة أو مهتمة بأى عوامل روحية سامية فكانت في النهاية عقلية تميل الى السلوك الوحشي. ولعل ابسط مثال لذلك هو اسلوبهم في تنفيذ حكم الاعدام على من يتمردون عليهم. هنا ينطبق وصف (Fanon) بان الاستعمار عبارة عن آلة غير مفكرة.

إن هذه العقلية المادية الفردية هى التي حكمت في النهاية دوافع الاستكشافات الجغرافية التي خاضها الاوروبيون القدامى من أجل سلب ونهب خيرات الشعوب.

لقد كانت هذه الاستكشافات الجغرافية التي اظهرها الاوروبيون بمظهر الفخر هم هى في الحقيقة عار عليهم فهذه الاستكشافات لم تكتشف اراضى جديدة بقدر ما كشفت عن نفسية أولئك المستعمرين تلك النفسية التي تعاني من الفراغ وهذا الفراغ جاء كنتيجة لاعتناق هذه الفلسفات والاساطير التي جاءت كحل لما يعانيه الاوروبي القديم في وطنه الام من ضيق في مصادر الثروة بالمقارنة مع احتياجاته الاستهلاكية.

ثانياً: الدوافع الجغرافية:

(لقد اخذ الاستعمار الاوروبي القديم شكل التوسع فيما وراء البحار)

فماذا تعني هذه العبارة؟
بالرجوع للوضع الجغرافي للقارة الاوروبية نجدها تتميز بخصائص بحرية تتمثل في ضيق مساحة كل وطن قومي ومحدوديته بحزام بحرى وهو ما كان عليه الوضع بالنسبة للوطن الاغريقي والوطن الرومانى هذا بخلاف الاوطان الاخرى في قارة افريقيا أو آسيا حيث الاوطان متلاحقة جغرافياً وكانت تتصف بالخفة السكانية.

وعليه فشعور الاوروبي بالضيق داخل وطنه دفعه الى أن يتوسع متخطياً البحار وهذا هو مفهوم التوسع فيما وراء البحار بعكس ما كان يعنيه الافريقي أو الاسيوي...اذا كان يعاني من ضيق في وطنه الاصلي فما كان عليه اذا شعر بذلك ألا ان يتحرك داخلياً.

ثالثاً : الدوافع الاجتماعية :

من المعروف أن أوروبا قد تعرضت لغزوات بربرية، هذه الغزوات لم تجد حضارة قائمة تقاومها فكانت النتيجة أن أصبحت الشعوب الاوروبية خليط من قبائل بربرية كالقبائل الهندية والاوروبية والآرية والصقلية والجرمانية والقوطية...الخ وهكذا نشأت الدول الاوروبية الحديثة ككيانات سياسية انعكاساً لهذه الغزوات البربرية :

ففرنسا كدولة هى على أسم قبائل الفرنجة.
انجلترا كدولة على اسم قبائل الانجليز.
كاتالافيا (اسبانيا) على أسم قبائل القوط والالان.
والاندلس كدولة على أسم قبائل فاندالوسيا أى بلاد الوندال.
وروسيا كدولة على أسم قبائل الفيكنج (أى رجال الخلجان) الذين أعطاهم الفلنديون أسم الروس نسبة الى احدى مقاطعات السويد.
هذا عن كيفية نشأة الدول الاوروبية ولكن ما علاقة هذه المقدمة بالدوافع الاجتماعية للاستعمار الاوروبي؟
ذكرنا أن دول اوروبا نشأت كنتيجة للغزو البربرى، وكلمة البربر تعنى عدم المساواة أى العنصرية البشرية التي تعكس فكرة سيطرة القوى على الضعيف والرجل على المرأة...الخ.
من هنا نربط بين تاريخ نشأة دول اوروبا ودوافعها الاستعمارية ففكرة التسلط التي ذكرناها هى التي حكمت سلوك هذه الدول الناشئة ككيانات سياسية مستقلة، واتوضيح ذلك نعود الى ما كان يدور داخل اوروبا الاقطاعية خلال فترة العصور الوسطى، حيث كان نظام الاقطاع هو النظام المطبق. ان الاقطاع الاوروبي كان يعنى تجزئة الارض الى مقاطعات حيث لكل مقاطعة «أمير» أو سيد كان هو المتسلط على الفلاحين في الارض وهم عبيد له. ان هذه العلاقة الاستبدادية لم توجد في أى مكان آخر إلا في أوروبا (باستثناء اليابان) فاذا إستثنينا الصور الاخرى للرق نجد أن نظام عبيد الارض الذى كان مطبقاً في أوروبا في الاقطاعية يعكس ارتباط الفلاح (العبد) بالارض حيث السيد الاقطاعي مالكاً للارض والفلاح معا ومتسلطاً عليهما.
وهذا بعكس ما كان فى القارات الاخرى كافريقيا وآسيا حيث كانت الارض غير قابلة للتجزئة ولم يكن العبد ملكا للسيد وانما ملكا للجماعة القبيلة أو العشيرة وحيث كانت عبوديته سياسية أى عبودة عامة.

ومن افرازات هذه الطبقةالعنصرية أن تولدت الرغبة عند عبيد الارض الاوروبيين فى التحرر والتملك لينقلبوا من عبيد الى سادة كاسيادهم وبالفعل عندما انهار نظام الاقطاع العالمي في اواخر القرن الرابع عشر بهروب الفلاحين من الارض تحول هؤلاء الفلاحون الهاربون الى ملاك في المدينة الاوروبية أولا ثم هاجروا الى القارات الاخرى ليتصرفوا فيها كما كان يتصرف معهم اسيادهم أمراء الاقطاع.
ومن هنا شاهدنا الاوروبي الفار والغازى لما وراء البحار يتصرف باسلوب عنصرى تحقيقاً لرخائه الفردي. واصبح يتصرف متأثراً باسطورة ضرورة العبودية لخدمته، تلك الاسطورة المعروفة (بعقدة نيرون).

وهكذا وجدنا الانسان البربرى الاوروبي انساناً انتقامياً بطبعه وهو المستعمر الذي وجدناه في شكل المستعمر اليوناني أو المستعمر الروماني الذي تحول من عبد اقطاعى الى بورجوازى راسمالى وليس أدل على ذلك من هجرة (٢٥) مليون أوروبى مع بداية القرن التاسع عشر، حيث استوطنوا واستقروا فيا وراء البحار وهذا مانطلق عليه الاستعمار الاوروبى الاستيطاني. وهذا بخلاف شكل الاستعمار الاوروبى في القرون الثلاثة التي سبقته الذي يمكن وصفه بانه كان استعماراً تجارياً على النحو الذى سنفصله فيا يلى:

رابعاً : الدوافع التجارية :

من المعروف أنه عندما انهار نظام الاقطاع العالمي وبدأت تظهر الدول القومية ككيانات سياسية مستقلة ظهرت الحاجة الى تقوية مراكز هذه الكيانات فظهرت نظرية تعرف بنظرية الاقتصاد للقوة ومؤداها أن غاية الاقتصاد هى القوة والقوة في الثروة، والثروة هى الذهب والفضة وعليه سعت هذه الدول الناشئة الى الحصول على الذهب والفضة وباى وسيلة بما في ذلك الوسائل الميكيافيلية (غير الشريفة).

وعندما برز هذا الهدف بدأت الحملات الاستكشافية الجغرافية للبحث عن تلال الذهب بدليل أنه عندما فشل كريستوفو كولومبس في العثور عليه قاده ملوك اسبانيا مكبلا بالسلاسل بتهمة التهاون في تحقيق الهدف المنشود واستمر هذا النوع من الكشوفات الجغرافية فيا بين القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر ليس بدافع التعرف على الطرق البحرية كما كان ظاهراً بل من أجل البحث عن المال (الذهب) حيث كانت النقود تضرب من الذهب وبالفعل تحقق الغنى لأوروبا بفضل هذه الحملات الاستكشافية في ظاهرها والتجارية في جوهرها. وهذا ما أيده آدم سميث فى منتصف القرن الثامن عشر بقوله «ان اكتشاف امريكا وطريق (رأس الرجاء الصالح) الى غرب الهند هما أكبر حدثين تم تسجيلهما فى تاريخ الانسانية» وهذا بالطبع قد يكون حكما صحيحا من وجهة نظر الاوروبى المكتشف ولكن من وجهة نظر الشعوب التى تأثرت من جراء هذه الاستكشافات يعد هذان الحدثان من أقبح الافعال البشرية التي تعبر عن جرم المستعمر.

ومما ساعد على هذه التجارة المربحة قيام ملوك أوروبا المستبدين الجدد بأصدار القوانين التي تبيح للتجار تحقيق أرباح طائلة ضاربة بذلك تعاليم الكنيسة الكاثوليكية عرض الحائط بل وعندما نجحت هذه القوانين في تحقيق الربح التجارى الوفير لفئات التجار بدأت الكنيسة الكاثوليكية تعدل من تعاليمها فاقرت مبدأ الربح بعد أن كانت تجرمه فى زمن الاقطاع مدعية أن تحقيق المرء للربح دليل على رضى الله عليه.

وبعد فترة من تراكم الاموال لدى الاوروبيين بفعل هذه السياسات التجارية التي تنوعت في اساليبها ورسائلها التي تشكل فيا هو معروف في الادب التجارى بتعاليم التجاريين بدأت تظهر الشركات الاوروبية المتعددة المشروعات مثل شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية والشركة البريطانية للهند...الخ.هذه الشركات أخذت على عاتقها مهمة بسط نفوذ أوروبا التجارى حتى أضحت أضحت التجارة كلمة تعنى «مهنة ذوى الانفس الدنيئة لانها أخذت طابع السلب والنهب والسرقة والاغتصاب والغش وافقار الجار...الخ.

وكنتيجة لتراكم هذه الاموال قامت الثورة الصناعية كمجال خصب لاستثار هذه الاموال في تنفيذ الاختراعات الجديدة، وقد ترتب على وضع هذه المخترعات موضع التنفيذ بفضل الاموال التى جلبتها التجارة أن اتسع نطاق الانتاج الصناعى وظهرت الحاجة الى الحصول على الخامات اللازمة لهذا الانتاج والاسواق اللازمة لتصريفه، هنا بدأت تظهر الحاجة الى إستعمار المناطق الاخرى من العالم لاتخاذها كمناطق لتوريد الخامات أو لتصريف الانتاج فاحتلت دول أوروبا الكثير من الدول الافريقية والاسيوية والامريكية احتلالا مباشرا اشتمل على استغلال الارض والسكان، ولما كانت الاراضى الجديدة كلها تقع فيا وراء البحار

بالنسبة لاوروبا فنجد ان نصيب كل دولة من الدول الاوروبية من هذه الاراضى كان يتراوح طبقا لحجم قوتها البحرية، ولما كانت انجلترا هى الوحيدة من بين دول اوروبا التي تمتلك اسطولا تجاريا بحريا ضخما فقد كان الاستعمار الانجليزى هو أكثر صور الاستعمار الاوروبى اتساعا .

ولقد ترتب على هذا الاستعمار ظهور انماط للسلوك الاوروبى فى معاملته مع الشعوب المستعمرة وفقا لمخيلته التي املت عليه حتميات عملية فى علاقته وغزاواته واستكشافاته فيا بعد ، وكل الأنماط كانت تعبر عما يتمتع به من انتعاش ذهنى نتيجة تعدد اتصالاته وخبراته المكتسبة من هذه الاتصالات على عكس الحال بالنسبة لشعوب المستعمرة أو حتى بالنسبة له قبل هذه الاتصالات وكنتيجة لذلك هو ظهور الشخصية الاوروبية بمظهر اخلاقي يختلف عن المظهر الاخلاقى للشعوب التي استعمرت فالاوروبي ظهر بمظهر المدرك الواعى الحريص القادر، والمستعمر ظهر بمظهر الساذج الضعيف الاتكالى قليل الحيلة ومما يؤسف له أن كل من هاتين الشخصيتين مازالت محتفظة بملامحها المذكورة الى يومنا هذا ولعل احدى غايتنا من هذا المؤتمر هو الوصول الى بعض التدابير التي بها يمكن تغيير ملامح شخصية شعوبنا حتى نقف موقف الند، بل أكثر من ذلك فشخصيتنا تسمو على أولئك المستعمرين من حيث تمتعنا بالاصالة والشرف والدين والاخلاق.

القسم الثانى
مبررات وحجج الاستعمار الاوروبى القديم

سوف نستعرض فيا يلى بعض الحجج والمبررات التي برر بها المستعمر الاوروبى توسعاته على حساب الشعوب الاخرى :

(١) الاختلافات البيولوجية :

حاول المستعمر الاوروبى الايهام بأنه ينتسب الى جنس بشر أسمى من بقية أجناس البشر وليس جنساً بربرياً كما تشير الى ذلك بعض الدراسات التاريخية فعلى سبيل المثال نجد أن الجنس اللاتيني سمى هكذا نسبة الى وادى اوغوط (Latium) بالقرب من روما سمى فيا بعد باقليم لايتوم وهو اقليم أكتشف فيه جمجمة انسان ضخمة يرجع تاريخها الى ١٠٠٠ سنة وبدراسة هذه الجمجمة أدعوا أن الرجل اللاتيني كان يتميز بصفات تؤهله لان يكون رجلا مسيطراً حيث قوامه طويل ومؤثر ويوحى بالسيطرة وهكذا أدعوا أن الجنس اللاتيني جنس فوق كل الاجناس.

ومن هذه الفكرة انطلقوا في تبرير سيطرتهم على الشعوب الاخرى بحجة أن الشعب اللاتيني ذو حضارة لها صفات تؤهله للسيطرة التي تستند الى العنصرية. وقد استثمر هذه الفكرة فيا بعد موسولوليني في تبرير زحفه التوسعى مبتدئاً من (Neapel) (نابول حالياً) .

واذا رجعنا الى أصل تسمية امريكا الجنوبية بامريكا اللاتينية نجدها نسبة الى الشعب اللاتيني الذى غزا أمريكا الجنوبية فاتحاً ومتوسعاً ومسيطراً ومستغلا لثروتها الطبيعية.

وهكذا نجد ان الاستعمار الاوروبي في توسعاته قد استند الى فكرة بيولوجية تبرر غزواته مفادها أن الاوروبي الغازى يتمتع بصفات تفوقية تؤهله لان يكون غازيا وأخذت فكرة الاختلافات البيولوجية بعداً آخر يستند الى إختلافات في القوة الطبيعية للرجل الاوروبي بالمقارنة مع الرجل الافريقي أو الآسيوى مثلا فالرجل الاوروبى الذى يعيش فى مناخ بارد يتمتع بقوة في الجسم والنشاط في العقل يتيحان له القدرة على اداء أعمال شاملة وكبيرة بعكس الرجل الافريقي أو الاسيوي الذي يعيش في مناخ حار يفقده كل رغبة ومقدرة على أداء أى عمل ولكن الحقيقة أن هذه الاختلافات فى القدرات لاترجع الى اختلاف المناخ ولكن الى اختلاف الاطار البيئ الذى يعمل فيه كل من الرجل الاوروبي أو الافريقي.

كما ان هذه الاختلافات إن وجدت فلاتبرر الاستعمار الاوروبي للشعوب الافريقية أو الآسيوية الذى أخذ شكل توظيف الافريقيين والآسيويين

باجور زهيدة جدا بحجة انهم لايستحقون اكثر من ذلك بالنظر الى ضعف قوامهم وكسلهم.

(٢) الدين :

استثمار الدين أو العقيدة في تبرير الاستعمار فكرة قديمة جدا فعلى سبيل المثال هناك أسطورة أغريقية تقول أن هناك الهاً يدعى دلف أمر باستعمار السواحل الليبية الشرقية وتأسيس مدينة تدعى قورينا وبالطبع لم يكن هناك إله بهذا الاسم ولكنها فكرة سياسية اغريقية استهدفت استعمار ليبيا لاتخاذها مركزا حربيا لوقف توسع الفينيقيين وهكذا نجد ان الدين لعبة استعمارية قديمة لم يلعبها الاغريق فقط بل لعبها الرومان ايضا في حروبهم ضد القرطاجنيين واحتلال بلادهم ولكن في دراستنا للدين كمبرر للاستعمار الاوروبي سوف نقتصر على الاشارة الى التبريرات التي استندت الى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

أ ـ المبررات الدينية في اطار العهد القديم :

هذه المبررات تقوم في جوهرها على فكرة عنصرية أكثر من قيامها على أساس عقائدى وفقا لروايات الكتاب أن نوح كان له ثلاثة اولاد هم حام وسام ويافث وأن حام ارتكب من الرذائل ما جعل أباه يلعنه بعكس سام ويافث اللذين باركهما. وان بنو سام قد أقاموا في آسيا الشرقية والجنوبية وبنو يافث أقاموا في آسيا الصغرى واوروبا ورحل بنو حام (الملعون) الى فلسطين وبلاد افريقيا.

واستنادا الى هذه الرواية برر المستعمر الاوروبى استعباده للافريقيين بتبرير ديني يستند الى عقاب الهى على شعوب هذه القارة بل وأكثر من ذلك قامت الكنيسة الكاثوليكية بتسخير الدين للاغراض الاستعمارية فاصدرت فتوى تبيح تجارة الرقيق على أساس ان أولئك الزنوج (الافريقيين) من سلالة حام بن نوح الذى لعنه. وتستطرد الكنيسة فتقول انه لاينبغى ان يعامل هؤلاء الزنوج الانجاس معاملة البيض الاوروبيين المباركين وهكذا وجد الاستعمار الاوروبى القائم على العنصرية تبريرا دينيا.

ب ـ المبررات الدينية في اطار العهد الجديد :

يغطى الاستعمار الاوروبي توسعاته بستار ديني يتمثل في التبشير إستنادا الى قول السيد المسيح لتلاميذه «اذهبوا الى العالم أجمع. واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها (آية ١٥ أصحاح ١٦) ولكن الواضح أن دعوة السيد المسيح بالذهاب للتبشير ليست دعوة للذهاب للاستيلاء على أراضى وخيرات وحريات شعوب العالم .

ولكن الملاحظ أن الاوروبيين قد اضافوا في دعوتهم التبشيرية تحقيق اهداف أخرى تبعد عن نشر الدين روحيا بعدا تاما الا وهو السيطرة والتوسع على حساب حريات وثروات الشعوب المبشرة بذلك يكون التبشير الديني قد أخذ طابعا استعماريا ولو كان المبشرين بالمسيحية من الاوروبيين قد انتقوا نفس الطريق الذى سلكه دعاة الاسلام من حيث نشر الدين واللغة فقط لما كنا وصفناهم بانهم استعماريون. وان كان يرى البعض أن الفتوحات الاسلامية لم تخل من دوافع استعمارية؟

(٣) الحماية :

عرفنا فيا سبق أن الاستعمار الاوروبى قد أستخدم حيلا وألاعيب كثيرة في توسعاته الاستعمارية لم تكن تستند الى دوافع بريئة كما كان يصورها انطلاقا من ارتقاء حضارته وتخلف حضارتنا فعلى سبيل المثال لجأ الى فكرة قانونية في تبرير استعماره لنا بأن اتبع اصطلاحات في مجال القانون الدولى كاصطلاح الدولة ناقصة السيادة والدولة المحمية والدولة تحت الوصاية...الخ.

كل هذا لكى يصور لنا أن وجوده في دولنا وجود مؤقت ينتهى بانتهاء تحقيق الهدف وهو الارتقاء بمستوى حضارتنا الى المستوى الذى يؤهلنا للتعامل باسلوب سوي مع الدول المتحضرة.

ولكن الواقع يكشف عكس ذلك فعندما خرج الاوروبى قديما وجدناه :

١ ـ إما تاجر ذو نفس دنيئة يسعى للربح على الطريقة الميكياڤيللية.

٢ ـ أو مضطهد نتيجة السيطرة الاقطاعية والدينية ففر طلبا للحرية السياسية وخلاصا من جبروت الدين.

٣ ـ أو مجرما ارادت اوروبا ان تتخلص منه (كالمستعمرين الاوائل للبرازيل الذين كانوا

مجرمين ارادت البرتغال أن تتخلص منهم لا ان تصلح بهم البرازيل).

٤ ـ أو مبشرين من احبار اليهود الذين سخرهم المسيحيون الاسبان من أجل تحويل عقيدة بعض الشعوب البوذية حتى يتمكنوا من السيطرة عليهم (كما فعلوا مع الهنود الحمر في امريكا الجنوبية).

وهكذا لم يكن المستعمر الاوروبي في يوم من الايام ذا حضارة أرقى من حضارة الشعوب التي استعمرها بل على النقيض كان في مركز اقتصادى واجتماعى ادنى منها بكثير الى حد اننا نستطيع أن نقول باطمئنان أن الاوروبي الذي جاء يستعمرنا كان يعانى من فراغ نفسي لم يجد وسيلة لملئه الا بالاعتداء علينا طمعا في ثرواتنا.

وهذا الاعتداء لم يكن في شكل عسكرى بل كان في شكل دبلوماسى (فالقانون الدولى الذى ابتدع هذه الصيغ هو من صنع دبلوماسيي الدول الاوروبية التى أدعت انها متقدمة علينا حضاريا فجاءت الينا في ثوب قانونى ارتضاه المجتمع الدولى تحت تاثير الاقناع بصحة هذا الادعاء)

كما أن الاستعمار لم يتورع عن استخدام التنظيمات الدولية (كعصبة الامم) لتحقيق اغراضه ، وهذه مأساة إنسانية كبرى إذ تعتقد الدول الصغيرة أنه بانتمائها الى هذه التنظيمات تتحقق حريتها وسلامتها، وفي الواقع بهذه التنظيمات تنتفي هذه السلامة أو هذه الحرية.

خاتمة

الضياع الاوروبي هو الباعث على الاستعمار :

حاولنا في هذا البحث أن نبحث عن جذور ظاهرة الاستعمار الاوروبي وأستعرضنا الصور التي خرج بها علينا والحجج التي برر بها توسعاته وانتهينا الى أن الاستعمار الاوروبي في جوهره نظام عنصرى دولى يرفض حقوق الانسان مستخدما القوة والعنف فى تحقيق ذاته على حساب حرية ورفاهية الشعوب التي استعمرها وأن هذا المستعمر الاوروبي لم يكن يوما في مستوى حضارى يفوق حضارة الشعوب التي استعمرها بل كان في مستوى أقل منها كما كان يعانى من الضيق والفقر والاضهاد فلجأ فارا مما يعانيه من الام ملتجئا الى تعظيم ذاته مبرزا ايجابياته مقابل تحقير المستعمر مسفها بقيمته وهكذا يبدوا لنا ان رحيل المستعمر عنا لم يخلق فراغا عندنا بقدر أن مجئ المستعمر الينا كان وليد فراغ كان يعانى منه هذا المستعمر نفسه في اطار مفهوم معين للفراغ هو الضيق المؤدى الى البحث عن الاتساع وليس بالمفهوم الاخر للفراغ الذي يعني عدم وجود قوة فاعلة تحل محل قوة قد رحلت.

ومن الطبيعى أن نتوقع أن رحيل المستعمر عنا قد اعاده الى حالة الضياع التي كان يعانى منها قديما وهذا سوف يدفعه مرة اخرى للعودة الينا لملء الفراغ بالمفهوم الثانى المشار اليه .

ليس الفراغ الذى تركه برحيله بل الذى وجد نفسه فيه بعد رحيله عنا من هنا ناتى الى الهدف من هذا البحث وهو التنبيه باخذ الحيطة والحذر من الاساليب والانماط الجديدة التي سيلجأ اليها المستعمر والحجج الجديدة التي سيبرر بها رجوعه وبالتالي البحث عن الوسائل الكفيلة بتفويت هذه الفرصة عليه وابطال مفعول أى وسيلة أو أجراء يلجأ اليه للسيطرة علينا من جديد. وهذا ما نأمله في البحوث التي ستقدم في هذه الدورة حتي تكشف لنا الصيغ والانماط التي يمكن أن يعود بها الاستعمار من جديد والاساليب والوسائل التي يمكن ان نستخدمها لشل فاعلية هذه الصيغ والانماط.

مصادر البحث ومراجعه

(١) جلال يحي، الاستعمار والاستغلال والتخلف، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

(٢) الدكتور مصطفى خالد وآخرون، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٧م.

(٣) الدكتور زاهر رياض، استعمار القارة الافريقية واستقلالها، دار المعرفة، الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٤) عبد العزيز فهمي، الاستعمار عدو الشعوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٥) هارى ماجدون، عصر الامبريالية، ترجمة: د. عبد الكرية أحمد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧١م.

(٦) ر.ج هاريسون شوش، الاستعمار الحديث، ترجمة: الدكتورة دولت أحمد صادق وآخرون.

(٧) فيكتور بيرلو، اعمدة الاستعمار الامريكى، ترجمة: جورج حنا، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤م.

(٨) جورج هـ .ت. كمبل، مناطق الهجرة في العالم، ترجمة: دولت أحمد صادق وآخرون، دار سعد ، مصر.

(٩) هوبير ديشان، نهاية الاستعمار، ترجمة: زهير السعداوى، دار بيروت، ١٩٥٣م.

(١٠) البيرميمى، صورة المستعمر والمستعمر، ترجمة: جيروم شاهين، الطبعة الاولى، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م.

(١١) غي دوبوشير، تشريح جثة الاستعمار، ترجمة: ادور الخراط، دار لآداب، بيروت.

(١٢) كارل ماركس وفريد رش انجلتر ، نصوص بشأن الاستعمار، المطبعة الاردنية، ١٩٧٩م.

(١٣)ف. أ. لين، الاستعمار اعلى مراحل الراسمالية، ترجمة: الدكتور راشد البراوى، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، ١٩٥٤م.

14) David K. Fieldhouse
Fischer Weltgeschichte, Band 29, Die Kolomialreiche
Seit dem 18. Jahrhundert Frankfurt, 1965 S. 11 ff.

لابد لمعرفة السياسة الدولية الراهنة من الرجوع الى أصولها التاريخية القديمة.

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

الادارة العربية لبلاد فارس في القرن الاول الهجري اعادة تقويم

د. فاروق عمر فوزي
كلية الاداب / جامعة بغداد

فتح بلاد فارس:

لابد من الاشارة بدءا ان اصطلاح «بلاد فارس» يطلق على كل الاقاليم الايرانية رغم ان اقليم فارس هو احد الاقاليم الايرانية وهو يقع جنوبي غربي ايران. وكانت فارس في التاريخ القديم الولاية المركزية ومقر الحكومة في زمن الاخمينيين ولذلك استعمل اليونان اسم بلاد فارس (Perisis) ليدل على كل المملكة واستمر هذا الاستخدام الخاطئ في الكتابات الاوربية(١)، شأنه شأن الاصطلاحات الخاطئة الاخرى مثل «الخليج الفارسي» كذا حتى الوقت الحاضر.

كما وان اطلاق اصطلاح (بلاد فارس) على كل الاقاليم الايرانية كان معروفا لدى العرب المسلمين واستخدمه الرواة والمؤرخون المسلمون في كل العصور الوسطى الاسلامية.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أذن بالانسياح في بلاد فارس بعد سنة ١٧هـ/سنة٦٣٨م (٢) وذلك للحفاظ على مكاسب الفتوح وأمن الدولة العربية الاسلامية ولمنع الملك الفارسي من تجميع اعوانه وانصاره. ففرق الامراء وبعث بالالوية مع سهيل بن عدي فكانت سبعة ألوية لواء خراسان لواء أروشير خره وسابور لواء اصطخر لواء بساودار بجرد لواء كرمان لواء سجستان ولواء مكران.

والواقع ان معركة نهاوند سنة ٢١هـ/ سنة ٦٤١م كانت مفتاح النصر الحاسم على الجيش الساساني حيث قصمت ظهر القوة الفارسية ولم يعد هناك مقاومة منظمة ولا موحدة كما لم يعد هناك وجود الى قيادة واحدة. وغدا كل أمير او دهقان يقرر مصير مدينته او اقليمه كما يراه فمنهم من قاوم ومنهم من تعاهد على الصلح مع العرب المسلمين(٣).

ومن هنا جاءت تسمية معركة نهاوند «بفتح الفتوح»

بعد معركة نهاوند دخلت عمليات الفتوح مرحلة جديدة فبعد ان كان المسلمون يفضلون جبهة الشام على جبهة العراق بدأت جحافل جديدة تهاجر الى البصرة والكوفة المصريين الجديدين للاشتراك في الجهاد حيث امر عمر بن الخطاب بالاندفاع في بلاد فارس لقطع دابر الشغب وليبيأس الملك من عودة ملكه اليه حتى لايكون كالشوكة في جنب المسلمين فعين رؤساء الجند. ورغم ان الفرس تداعوا وتوافدوا وحاولوا تجميع انفسهم واثارة الحمية بينهم، حيث اجتمع علية القوم مع الملك يزدجرد بنهاوند وتباحثوا في الأمر وقالوا عن الخليفة عمر بن الخطاب :

(... ثم ملك عمر فطال ملكه وعرض حتى تناولكم وانتقصكم السواد والاحواز ثم لم يرضى حتى أتى اهل فارس والمملكة في عقر دارهم، وهو آتيكم ان لم تأتوه فقد أخرب بيت مملكتكم واقتحم بلاد ملككم وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من

جنوده وتقلعوا هذين المصريين ثم تشغلوه في بلاده وقراره. وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا في ذلك وتمالئوا عليه)(٤)

الا ان ذلك لم يغنهم من الامر في شئ. فقد انساحت المقاتلة العرب المسلمين في ديارهم واستولت عليها الواحدة تلو الاخرى.

ونكن لم تكن عملية فتح بلاد فارس سهلة ويسيرة. فقد كان المسلمون في العراق يحاربون في بلاد يعرفونها وساعدهم على تحريرها إخوانهم من عرب العراق. أما في بلاد فارس فهم يحاربون في بلاد غريبة عليهم وتضاريس وعرة ومناخ قارص كثير الثلوج. ثم ان سكان بلاد فارس من الايرانيين مختلفون في الجنس (آريين) واللغة والثقافة والدين (مجوس). كل هذا وغيره جعل الفتح العربي الاسلامي لبلاد فارس اكثر صعوبة من غيرها. بل ان بعض الاقاليم أبدت مقاومة شديدة ولم تخضع الا وتثور ثانية ثم يعاد فتحها من جديد وهكذا(٥). كان العراق بمصريه البصرة والكوفة قاعدة العمليات العسكرية في بلاد فارس. وكان مقر الجند سواء كانوا من قبائل العراق او من امتدادات اخرى من عرب الحجاز والشام. وهذا اضافة الى قاعدة عسكرية اخرى لعبت دورها في الفتوحات الاولى عبر الخليج العربي، وهذه القاعدة هي البحرين. وقد تولت البصرة فتح الاقاليم القريبة منها في بلاد فارس مثل تستر وارمهرمز والسوس وجنديسابور وكذلك الاحواز. ثم أنها شاركت بنصيب كبير في فتح اقليم خراسان بحيث بلغ عدد مقاتلة اهل البصرة في خراسان على عهد سليمان بن عبد الملك اربعين ألف مقاتل(٦).

اما الكوفة فقد انطلق منها المقاتلة العرب المسلمون الى اقاليم بلاد فارس الشمالية فكان من مفازيها الري واذربيجان وأرمينية وطبرستان وجرجان(٧).

اما البحرين فقد كان من مفازيها اقليم فارس وكرمان، حيث محاولة العلاء بن الحضري الجريئة والخطرة حين كاد يقع في مأزق حرج لولا الامدادات التي انقذته وجنده والتي وصلت في وقتها المناسب من البصرة. وقد تابعت البحرين فتوحاتها حيث هاجم الحكم بن أبي العاص اصطخر ثم امتدت الفتوح الى كرمان وسجستان(٨)

إن هذه القواعد الثلاثة لم تكن منعزلة عن بعضها في خططها العسكرية في بلاد فارس بل أن احداثاً عديدة جعلت التعاون والمشاركة ضرورة عسكرية وسياسية ملحة حيث كان اهل البصرة يساندوا اهل البحرين وأهل الكوفة يساندوا او يشاركوا أهل البصرة في عمليات عسكرية خاصة في الاقاليم او المدن التي تقاوم مقاومة شديدة او الاقاليم التي تستسلم ثم تثور ثانية.

لقد تقدمت قوتان إسلاميتان لفتح اقليم فارس إحدهما من البحرين بقيادة عثمان بن ابي العاص ونجحت في احتلال بعض مدن الساحل الشرقي للخليج العربي ولقيت مقاومة عنيفة(٩). اما القوة الاخرى فتقدمت في البصرة باتجاه اصطخر ولم تحقق مكاسب استراتيجية مهمة في البداية. ذلك لان المقاومة كانت عنيفة لما عرف من تعصب اهل اقليم فارس للدولة الساسانية التي ظهرت فيهم وبينهم ولهذا كانت معقل العصبية الفارسية ومن اهم مراكز المجوسية الزرادشتية بمعابد نيرانها. ومن هنا جاء حقدهم ضد العرب المسلمين حيث تشير رواياتنا التاريخية الى ان اصطخر (بيرسيبولس) القديمة نزعت السلطان العربي الاسلامي عدة مرات قبل ان تزعن للدولة الجديدة(١٠). لقد اكمل والي البصرة عبد الله بن عامر على عهد عثمان بن عفان فتح بقية المدن في اقليم فارس ثم فتح اقليم سجستان حيث عبر من هنا باتجاه خراسان. وكان لسياسة زياد بن ابيه والي فارس وكرمان على عهد علي بن ابي طالب اثراً في خضوعها للسيادة العربية الاسلامية.

اما اصبهان التي كانت تعتبر احياناً في اقليم الجبال واحياناً في اقليم خراسان(١١). فقد تم فتحها بعد معركة نهاوند. ثم تقدم المسلمون الى اقليم الري وهي من فتوح اهل الكوفة. فقد كتب الخليفة عمر الى واليه على الكوفة عمار بن ياسر يأمره بفتح الري وما حولها. فصالح ملك الري على جزية سنوية مقدارها ٣٠ ألف درهم سنة٥٢١ / ٦٤١م.

ثم فتح العرب المسلمون قم وقاشان وبهذا اتصلوا بارض الديلم. ولكن الري لم تذعن للسيادة

الجديدة فظلت تتمرد ويعاد فتحها حتى كان آخر من فتحها قرضة بن كعب الانصارى على عهد الخليفة عثمان ولم تستقم للمسلمين الا سنة ٥١هـ /٦٧١م في ولاية زياد بن ابيه على الكوفة.

اما اذربيجان(١٢) فكانت من فتوح الكوفة كذلك.ذلك ان بقايا المقاومة الفارسية تجمعت في اذربيجان بعد انسحابها من الري. وأمر الخليفة عمر حذيقة بن اليمان مع اهل الكوفة بفتح اذربيجان سنة٢٢هـ / ٦٤٢م وقد طلب مرزبانها الصلح على ان يدفع الجزية وان تترك لهم حرية العبادة ولايسبي او يقتل احد منهم.

ولكن أذربيجان شأنها شأن الاقاليم الايرانية الاخرى نقضت الصلح مرات ومرات ويبدوانها لما نقضت الصلح اتاها عتيبة بن فرقد السلمي من الموصل واخضعها. ثم عادت ونقضت على عهد عثمان بن عفان فأخضعها الوليد بن ابي معيط سنة ٢٥ هـ /٦٤٥م.

وكان والي الكوفة الوليد بن عقبة اول من اسكن العرب اذربيجان فقد ارسل جيشاً من اهل الكوفة مع الاشعث بن قيس الذى صالحهم على مثل صلح حذيفة وعتيبة واسكنها ناساً من العرب كانوا من اهل المصريين (الكوفة والبصرة) واهل الشام. وبنى مسجداً في اروبيل ومصرها. ويبدوا كذلك ان بعض العرب امتهنوا الزراعة وفضلوا الاستقرار هناك.

أما سجستان والتي اطلق عليها العرب المسلمين اسم (سجتان) فقد اشرنا الى اضطلاع عبد الله بن عامر والي البصرة بفتحها حيث ارسل اليها الربيع بن زياد الحارثي فقطع الصحراء وهاجمها فاضطرت لطلب الصلح. ولكنها عادت وتمردت فحاصر أهم مدنها زرنج ثم دخلها صلحاً واقام الربيع الحارثي بها اكثر من سنتين.

ثم نكث اهل زرنج الصلح فارسل اليها عبد الله بن عامر عبد الرحمن بن سمرة فحاصرها وصالح اهلها ثم اتم فتح الاراضي من ناحية الهند وفتح زابل وبست. وتمردت زرنج مرة اخرى بعد مقتل عثمان واعيد فتحها على عهد علي بن ابي طالب.

اما كرمان فقد هوجمت من قاعدة البحرين في عهد الوالي عثمان بن ابي العاص في خلافة عمر وأبدت مقاومة مما ادى الى قتل مرزبانها في جزيرة ابن كاوان. ولكن الذى استطاع فتحها هو عبد الله بن عامر والي البصرة الذى ارسل مجاشع السلمي ففتح الشيرجان عنوة وكذلك جيرفت حيث هرب العديد من اهلها الى مكران وسيستان.

اما مكران وهي في ارض السند فلم تحدث محاولة جديدة لفتحها الا في عهد معاوية وواليه على البصرة زياد بن ابيه الذى وجه سنان بن مسلمة الهزلي ففتح مكران عنوة ومصرها. وقد اكمل محمد بن القاسم الثقفي على عهد الحجاج بن يوسف مد الفتوحات الاسلامية الى السند باستيلائه على مدينة الديبل وبقتله داهر ملك السند حيث انفتح الطريق امامه الى المدينة المقدسة الملتان. اما اقاليم الدليم وهي ثلاثة قزوين وجرجان وطبرستان. فكانت قزوين اول من مصر على عهد عثمان بن عفان وولاية سعيد بن العاص على الكوفة. ولم تثمر محاولة الوالي نفسه في فتح جرجان و طبرستان سنة ٣٠، / ٦٥٠م، وبقي الوضع على ما عليه حتي جاء يزيد بن المهلب والياً على خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ/٧١٤م فسار بجيش كبير من اهل الكوفة والبصرة وخراسان والري والشام وتمكن من اخضاع جرجان وبنى فيها مدينة جرجان.(١٣)

ثم سار من هناك الى طبرستان جنوبي بحر قزوين فطلب الاصبهند الطبرستاني الصلح على جزية مقدارها ٤ ملايين درهم. ولكن اقاليم الديلم لم تهدأ وظلت تنتقض وتغدر خلال العصر الاموي والعباسي معاً.

أما خراسان(١٤) فهي من اهم المقاطعات الايرانية وتقع شمالي شرقي من ايران وكانت بعيدة عن مركز الامبراطورية الساسانية لذلك ظهرت فيها العديد من الطرق الدينية التي لاتدين بالمذهب الرسمي للدولة. ثم ان خراسان اقليماً مزدهراً تجارياً حيث تمر عبرها القوافل التجارية وفيها مراكز صناعية عديدة في مرو وهراة وينسابور وخاصة النسيج والاسلحة.

ونظراً لازدهار خراسان وثروتها ولبعدها ولقوة

حاميتها العسكرية فقد لجأ اليها الملك يزدجرد الثالث املا في الاعتماد عليها في مقاومة العرب المسلمين. كما لجأ اليها العديد من الزعماء والنبلاء الفرس الذين هربوا من المقاطعات الايرانية الغربية امام المد الاسلامي(١٥).

تم فتح خراسان في عهد الخليفة عثمان على يد عبد الله بن عامر وقائده الاحنف بن قيس. ولكن المدن الخراسانية كانت تثور بين حين وآخر وتبدي مقاومة عنيفة للعرب المسلمين الذين عقدوا مع مرزبان كل مدينة صلحاً منفرداً(١٦).

وحين ولي الخليفة معاوية عبد الله بن عامر على البصرة سنة ٤١هـ منحه صلاحيات حرب سجستان وخراسان مما يدل على استمرار الاضطرابات في مدن خراسان(١٧). ثم عين معاوية على خراسان قيس بن الهيثم السلمي الذي اعاد السيطرة على خراسان وقمع اضطرابات بلخ وهرات وباذغيس.

وقاد عمليات الفتح وخطط استقرار العرب المسلمين في خراسان خلال العصر الاموي وخاصة في زمن ولاية زياد بن ابيه على البصرة حيث ضمت اليه خراسان واهتم بأمرها اهتماماً كبيراً.

وفي خراسان بدأ احتكاك المسلمين بالترك في بلاد ماوراء نهر جيحون وتركستان. وكان اول من اصطدم بهم الاحنف بن قيس في عهد عثمان بن عفان ثم قام المسلمون في العصر الاموي بعدة حملات ناجحة في تلك المناطق. على ان الفضل كل الفضل في فتح بلاد ماوراء النهر يعود لقتيبه بن مسلم الباهلي. ولكن التقدم العربي الاسلامي في هذا المجال لايدخل ضمن نطاق بحثنا فهو خارج حدود بلاد فارس(١٨).

ولعل أهم مايميز الفتوحات العربية الاسلامية في الجبهة الشرقية (خاصة بلاد فارس) هو عنف المقاومة الفارسية للزحف الاسلامي واستمرار الارتداد ونقض الصلح. فلم تكد المقاطعة او المدينة تصالح حتى تنقض الصلح وتتمرد على الحكم العربي الاسلامي. ولعل ذلك طبيعياً في حالة كهذه فالشعبين مختلفين فى الدم واللغة والثقافة والعادات.. على ان الفارق المهم ان العرب كانوا اكثر اندفاعاً وحماساً لنشر عقيدتهم الجديدة التي تبث فيهم روحاً جديدة، فكان عصر العرب عصر النهوض الجديد بينما كان عصر الفرس عصر الانحسار والادبار.

واذا كانت فترة الامويين فترة إنتقال استطاعت خلالها الدولة الجديدة ان تسيطر على امور بلاد فارس روحاً من الزمن كما وان الفرس تنفسوا خلال تلك الفترة وأفاقوا من الصدمة الكبيرة التي حلت بهم بسبب الفتوحات الاسلامية، فإن العصر العباسي، شهد أعنف الاضطربات والقلاقل في بلاد فارس. ولانحيد عن الصواب إذا قلنا ان العباسيين لاقوا في الاقاليم الفارسية ومن المؤامرات الفارسية أشد وأعنف مما لاقوه من الاقاليم والشعوب الاخرى في الدول العربية الاسلامية. وقد انتهى هذا النزاع بتشكيل مايسمي الامارات الفارسية في بلاد فارس في العصر العباسي الثاني.

على ان عنف المقاومة لم تشمل كل شرائح المجتمع في بلاد فارس وطبقاته فلابد ان يكون هناك شرائح مستضعفة مغبونة وجدت في الاسلام منفذاً وفرصة تاريخية للتخلص من قيودها، وفئات تحققت من عدم جدوى المقاومة فقررت الدخول في الاسلام ولعل من يمثل الاتجاه الثاني الاساورة الذين كانوا يشكلون تنظيماً في الجيش الساساني ولكنهم قرروا الدخول في الاسلام بشرط السماح لهم بالنزول اينما شاءوا وان يلحقوا (بشرف العطاء) وحالفوا تميم في البصرة، ومنهم السيابجه والبخارية. ومن هذا الصنف ايضاً الكثير من الدهاقين والمرازبه والنبلاء الصغار الذين خضعوا للحكم الجديد بموجب اتفاقيات بينهم وبين الامراء العرب المسلمين، ونصوص هذه المعاهدات تظهر انها كانت مرنة ومتوازنة ضمنت مصلحة هؤلاء الامراء والدهاقين وحفظت كيانهم وضمنت كذلك مصلحة الفاتحين الجدد(١٩).

ان اهم الظواهر التي برزت من عملية الفتوحات على الاطلاق هو بروز دور العراق الطليعي في الحركات العسكرية والادارية بإعتباره قاعدة للعمليات العسكرية في كل البلاد الفارسية شمالها وجنوبها وباعتباره المهيمن على ادارة اقاليم بلاد

فارس كلها حيث كان ولاة العراق يعينون ويعزلون امراء الاقاليم الفارسية، ويعتبرون مسؤولين امام الخلافة الراشدة ثم الاموية عن هذه الاقاليم.

وهكذا وبعد ان كان العراق إقليماً تابعاً للدولة الفارسية اصبح المهيمن والمسيطر على كل بلاد فارس.

وبعد.. الايكفي هذا سبباً للعداوة والحقد الفارسي على العراق وعرب العراق. ذلك الاقليم الذي احتله الاخمينيون بقيادة كورش سنة ٥٣٩ ق.م وظل محتلا طوال العهد الفرثي والساساني ثم انقلب عليهم ولقنهم درساً قاسياً في ذي قار في بداية القرن السابع الميلادي ثم لقنهم في عصر الاسلام الهزائم تلو الهزائم في الحيرة والبويب والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند فكان العراق الساحة التي انهزم فيها الفرس عسكرياً وسياسياً، والساحة التي إنهزم فيها الدين المجوسي الفارسي عقائدياً.

ثم ألم يكن العراق منذ القدم وخلال العصر الاسلامي الوسيط حجر عثرة وعائقاً شديداً امام طموحات الفرس غير المشروعة لايجاد موطأ قدم لهم ومنطقة نفوذ في اقاليم الخليج العربي ممر التجارة الدولية واقاليم بلاد الشام المطل على البحر المتوسط موطن التجارة والحضارة.

إدارة بلاد فارس:

كانت اقاليم بلاد فارس تدار من قبل ولاة العراق في البصرة والكوفة ذلك ان عمر بن الخطاب قسم العراق الى ولايتين اثنتين إختلفتا في تشكيلاتها الادارية ومنابع ماليتها ومناطق فتوحاتها. فكانت الاقاليم الفارسية شمالي وشمالي شرقي الهضبة الايرانية مثل الري وقومس ونهاوند وطبرستان وزنجان واذربيجان من فتوح الكوفة. أما فتوح البصرة فكانت اقاليم بلاد فارس الجنوبية والجنوبية الغربية مثل الاحواز وفارس وكرمان وسجستان واصبهان وخراسان.

وقد سار الأمويون على هذا التقسيم مع بعض التعديلات والتغييرات حسبما تقتضيه الحالة الادارية أو الامنية أوالمالية للدولة.

وقد غدا والي العراق اكثر سيطرة على اقاليم بلاد فارس حين جُمع المصران (الكوفة والبصرة) بيد وال واحد اعتباراً من سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م وسار على هذا النظام اكثر خلفاء الامويين(٢٠). فكان العراق مركزاً للمشرق كله. يقول ياقوت الحمدي عن المدائني:(٢١)

«عمل العراق من هيت الى الصين والسند والري وخراسان وطبرستان الى الديلم والجبال...الخ وانما قالوا ذلك لأن هذا كله كان في ايام بني اميه يليه والي العراق.»

أما أقاليم بلاد فارس التي كانت تابعة للعراق في صدر الاسلام فهي(٢٢):

١ ـ اقليم فارس: وهو احد اقاليم بلاد فارس ويقع في جنوبي غربي ايران ويحده جنوباً الخليج العربي وشمالا المفازة وشرقاً كرمان وغرباً الاحواز. وقد بقيت التقسيمات الادارية الساسانية معمولا بها في هذه الاقاليم حيث قسم الى خمس كور هي: اردشير خره. سابور. أرجان. دار أبجرد. إصطخر.

٢ ـ اقليم سجستان: ومن اهم مدنها بست وزرنج. وكانت تضم ادارياً في بعض الاحيان الى خراسان ويعين على كليهما والياً واحداً. وقد لاقى العرب المسلمون مقاومة شديدةفيسجستان بسبب تمسك اهلها بدياناتهم وتقاليدهم الموروثة.

٣ ـ اقليم كرمان: ومن اهم مدنها الشيرجان. وقد سكنها العرب المسلمون مع بدايات الفتح بسبب هرب كثير من اهلها الى الاقاليم المجاورة. فاقطعت العرب منازلهم وارضيهم فعمروها واحتفروا القنى فيها.

٤ ـ اقليم مكران: وكانت تعتبر من ارض السند وتابعة لملكها. واهم مدنها الديبل والملتان. وكان للامويين الفضل الكبير في مد هذه الفتوحات الى مكران ثم السند. كما بنوا فيها مدناً جديدة اعتبرت مراكز لعمالهم منها المحفوظة والمنصورة.

٥ ـ اقليم الجبال: وهو المنطقة المحصورة بين حدود العراق الشرقية غرباً الى صحراء فارس شرقاً ومن الري شمالا الى الاحواز جنوباً. واصبحت

هذه المنطقة خلال الفترة السلجوقية تسمى بالعراق العجمي تمييزاً لها عن العراق العربي وكان احد القاب سلاطين السلاجقة «سلطان العراقين». ومن اهم مقاطعاتها ماسبذان ومدينتها السيروان. ومن مدن اقليم الجبال الصيمرة وهمذان والدينور واحياناً اصبهان.

٦ ـ اما قزوين وجرجان وطبرستان: فكانت تسمى ارض الديلم. واول مقاطعة مصرت فيها هي قزوين واهم مدنها ابهروزنجان ثم اخضعت جرجان زمن يزيد بن المهلب والي خراسان حيث بنى مدينة جرجان فأصبحت اشهر مدنها.

وقد طلب اصبهبذ طبرستان الصلح من يزيد بن المهلب والي خراسان اثناء حملته على جرجان فصالحه. ولكن طبرستان ظلت صعبة المراس غير منقادة للسيادة العربية الاسلامية الجديدة وقد ساعدها على ذلك تضارسها وانشداد اهلها الى ملكهم وتقاليدهم ودياناتهم المجوسية القديمة.

٧ ـ اقليم خراسان: ونظراً لاهمية هذا الاقليم من بين اقاليم بلاد فارس ولكون ماحدث على مسرحه السياسي من احداث تعكس في مجموعها طبيعة العلاقة بين الحكام الجدد من العرب المسلمين وبين الفرس ولامكان اعتبار اسلوب ادارته نمطاً لطبيعة الادارة الاسلامية في اقاليم بلاد فارس فاننا سنفصل في احداث هذا الاقليم.

يعني اصطلاح «خراسان» بلاد المشرق او بلاد الشمس المشرقة. وكان يشمل خلال العصر الساساني منطقة واسعة جنوبي نهرجيحون الذى يكون الحدود الطبيعية بين الشعوب الايرانية والشعوب التورانية.

اما العرب فقد أطلقوا هذا الاصطلاح على كل الاقاليم الشرقية حتى نهر الاندمس بما في ذلك بلاد أسيا الوسطى (تركستان).

ولعل اول مايثير انتباه الباحث هو ذلك الاهتمام الكبير الذي اعطاه العرب المسلمون للأمن والاستقرار واعادة النظام في اقاليم بلاد فارس المفتوحة. وهذا مانلاحظه في سرعة جنوحهم للسلم والمصالحة مع سكان المدن والاقاليم التي طلبت الصلح على مبلغ من المال يقدره الدهقان أو الامير الفارسي. وبالرغم من انتقاض المدن الفارسية المرة تلو الاخرى فإن الفاتحين الجدد رضوا ـ في الاعم الاغلب ـ بالصلح والسلام المرة بعد الاخرى.

ثم أن إندفاع الفاتحين وتوغلهم في مناطق جديدة كان في البداية يهدف الى حماية المكتسبات التي حققوها وذلك عن طريق فتح مناطق استراتيجية مهمة. ويبدو ذلك واضحاً من تقدم العرب المسلمين لفتح الاراضي الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي بعد ما ادركوا ان الفرس يخططون للقيام بحركة التفاف على الجيوش المتواجدة في العراق. كما يظهر ذلك جلياً من حركة الانقضاض الكبيرة التي قامت بها مدن بلاد فارس ضد الحكم الجديد ولذلك ارسل الاحنف بن قيس الى الخليفة عمر يقول:(٢٣)

«إن ملك فارس حي بين اظهرهم وانهم لايزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم. ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه. وقد رأيت انا لم نأخذ شيئاً بعد شيئ الابانبعاثهم وان ملكهم هو الذى يبعثهم. ولايزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته. فهنالك ينقطع رجاء اهل فارس ويضربوا جأشاً.»

وهنا أذن عمر بن الخطاب بالانسياح في بلاد فارس، ويبدو واضحاً ان احد الاسباب المهمة لذلك كانت أمنية ولحماية الانجازات التي حققتها الدولة العربية الاسلامية لحد ذلك الوقت. وقد ظل هذا الشعار هدف السياسة العربية الاسلامية خلال عصر صدر الاسلام لأن الثقة بالحكام الجدد لايمكن ان تأتي إلاباشاعة الأمان والاطمئنان بين سكان البلاد المفتوحة على انفسهم وعوائلهم واموالهم. فإذا ما نجح العرب المسلمون في تكوين الثقة المتبادلة انفسح المجال للتعاون المشترك ولانتشار الاسلام العقيدة التي حملها العرب الى هذه الديار. ويبدو أن المسلمين حققوا بعض النتائج الايجابية في بعض المناطق. ففي رواية

للطبري: أن اهل فارس صالحوا الاحنف بن قيس ودفعوا اليه بخزائن كسرى وتراجعوا الى بلدانهم وامواهم على افضل ماكانوا عليه زمن الاكاسرة «فكانوا كأنما في ملكهم الاان المسلمين أوفى لهم وأعدل».

ولكن الدولة وحدها لاتستطيع ان تشيع الامن والاستقرار عن طريق الوالي بل لابد من تضامن الناس وتعاون سكان المدن والمقاطعات مع اجراءات الدولة. وهذا ما اعلنه زياد بن ابيه سنة ٤٥هـ /٦٦٥م حين جمع له معاوية البصرة وخراسان وسجستان وكذلك الهند والبحرين وعمان. حين قال: «واني لأقسم بالله لأخذن الوالي بالموالى والمقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالعليل». ثم قال: «...فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم»(٢٥).

والمعروف أن الفرس المحتلين إنسحبوا هاربين من العراق، كما وأن الاسرة المالكة والنبلاء والامراء هرابوا من الاقاليم الفارسية الاخرى وتركوا اراضيهم واملاكهم بدون مالك شرعي ولذلك فقد صادرت الدولة أراضيهم بأسمها. وغدا للخليفة حق التصرف بها. اما المدن والضياع والاراضي الاخرى التي كانت تحت إمرة الامراء الصغار او الدهاقين والذين ادركوا أن قوة الحكومة الساسانية قد تحطمت الى غير رجعة وان ليس من نتيجة لثمرة المقاومة فقد عرضوا الصلح على العرب المسلمين فقبل العرب ذلك العرض. وتدل شروط الصلح، بصورة عامة، على المرونة والتسامح اللذين ابداهما العرب المسلمين تجاه سكان البلاد المفتوحة. فقد أقروا الدهاقين والامراء على مدنهم او قراهم واقروا الفلاحين واهل المناطق على اراضيهم واملاكهم على ان يؤدوا الجزية او الخراج او على مقدار من المال يؤدى سنوياً لايزيد ولاينقص ومناصحة المسلمين(٢٦). وتدل روايات تاريخية عديدة على ترك العرب المسلمين للادارة المحلية خاصة المالية على الدهاقين والمرازبة. في رواية ان الزينبي صالح نعيم بن مقرن «على اهل الري فمرزبه عليهم فلم يزل مشرف الري في اهل الزينبي». وكذا كان الحال مع اصبهند بلخ وملوك الطالقان والفارياب والجوزجان ومرو الروذ. وبذلك تركت الادارة المحلية المدنية بيد البيوتات الحاكمة في بلاد فارس قبل الاسلام.(٢٧)

واذا كانت الحكومة العربية الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب قد اتبعت الادارة المركزية فإن الخليفة عثمان بن عفان لم ينتهج النهج ذاته حيث خول ولاته سلطات واسعة وكان واليه على البصرة عبد الله بن عامر حيث جمع لها معها خراسان وسجستان اما واليه على الكوفة فكان الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص.

ولعل ماقام به عثمان بن عفان كان بداية لما تحقق في العصر الاموي في تطبيق الادارة اللامركزية بسبب تطور الاوضاع السياسية والاجتماعية والمالية في الدولة وباعتبار اللامركزية حلا جيداً لاعادة الاستقرار والنظام وسلطة الخلافة الى الاقاليم بعد فترة من القلاقل والاضطرابات. وبقدر مايتعلق الامر بالاقاليم الشرقية فقد كانت جميعها، ماعدا خراسان وسجستان أحياناً تابعة ادارياً وعسكرياً وسياسياً لولاة العراق كما اشرنا الى ذلك سابقاً. واعتمدت الخلافة على ولاة اكفاء من امثال سعد بن ابي وقاص وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وزياد بن ابيه والحجاج بن يوسف وخالد العشري وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ونصر بن سيار وغيرهم في ادارتها.

على ان نظام اللامركزية الادارية لم يكن واحداً في كل عهود الخلفاء الامويين بل نلاحظ ان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز ضيق في صلاحيات الولاة وقام ببعض التعديلات. ففي العراق مثلا أعاد النظام القديم بتعيين واليين الاول للكوفة والثاني للبصرة وجعل خراسان وسجستان مرتبطة بالخليفة وله حق تعيين والي لها كما ربط عمان به ايضاً.

واوقف عمر بن عبد العزيز الفتوحات في بلاد ما وراء النهر وأمر بانسحاب المقاتلة بذراريهم. وقد لاقى هذا الامر معارضة من المقاتلة المسلمين. كما كتب نفس الخليفة الى عقبة بن زرعة الطائي يوجهه في امر جباية الخراج من خراسان فيقول:

«..وليس من ثغور المسلمين أهم الي من خراسان، فاستوعب الخراج واحرزه من غير ظلم فإن يك كفافاً لأعطيائهم فسبيل ذلك، والا فاكتب الى حتى أحمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطيائهم»

والمعروف ان عمر بن بعد العزيز كان يعين عمال الخراج بأوامر منه ليجعلهم احراراً غير مقيدين بولاة الاقاليم او امرائها وليمنع تأثير هؤلاء الولاة عليهم خلال عملية الجباية.(٢٨)

إن السياسة العامة التي اتبعها غالبية خلفاء بني امية كانت الادارة اللامركزية ولهذا نلاحظ الخليفة معاوية بن ابي سفيان يعين زياد بن ابيه على العراق (الكوفة والبصرة) وجمع اليه خراسان وسجستانوالبحرين وعمان والهند، مانحاً إياه صلاحيات واسعة في الاقاليم الشرقية. ولعل حسن سياسته تتمثل في قول اهل فارس عنه:

«ما رأينا سيرة اشبه بسيرة كسرى انوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة»(٢٩).

وقد سار ولاة العراق بعد زياد بن ابيه على نفس السياسة تجاه اهل بلاد فارس ففي رواية الطبري ان والي العراق عمر بن هبيرة أمر مسلم بن سعيد أمير خراسان ان يستخدم عمال العذر ثم إستطرد يوضح له من هم فقال:

مر أهل كل بلد ان يختاروا لأنفسهم فاذا اختاروا رجلا فوله فاذا كان خيراً كان لك وان كان شراً كان لهم دونك وكنت معذوراً»(٣٠)

ومعنى ذلك ان على الوالي ان يطلب من اهل المدن والمقاطعات الخراسانية ان يختاروا اويعينوا هم بأنفسهم العمال المسؤولين عن الادارة المحلية والمالية.

ومع ان هذه الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها والي العراق وبلاد فارس استمرت، وبصورة عامة، خلال العصر الاموي. وكان مردودها كبيراً في تحقيق الامن الداخلي وفي الفتوحات على الساحة الشرقية. فإن تطور الاوضاع السياسية والاقتصادية ادى الى لجوء الوالي الاموي على العراق واستنجاده بالخليفة اثناء الازمات الحادة طلباً للعون العسكري. فحين ثار عبد الرحمن بن الاشعث على سياسة الحجاج الثقفي اعتمد هذا الاخير على المقاتلة من اهل الشام في قمع حركته. وحدث الشئ نفسه حين تمرد يزيد بن المهلب في فارس وكرمان والاحواز وحين ثار زيد بن علي في العراق(٣١).

إن المحصلة النهائية لما ذهبنا اليه ان هذه السياسة الادارية المرنة التي اتبعت في صدر الاسلام مع سكان البلاد المفتوحة كان لها فضل كبير في تثبيت سلطة الدولة واتساع رقعة الاسلام اولا ثم ما أدت اليه من امتزاج واختلاط مجموعة شعوب في أمة واحدة ودولة واحدة. ولكن هذا الهدف كان على طرفي نقيض منذ البداية مع النزعة «العنصرية» المتعالية للفئة المتعصبة من الفرس والمتمسكة بعقيدتها السابقة والتي ظلت تفرض قيادتها على شريحة كبيرة من المجتمع في بلاد فارس.

لقد كانت هذه الفئه من الفرس ضد الاختلاط والتمازج مع العرب اولا وضد نشر الاسلام في بلاد فارس ثانياً وضد انتشار اللغة العربية في تلك الربوع التي غدت ضمن الدولة العربية الاسلامية ثالثاً. وكانت المقاتلة العرب المسلمين قد هاجروا بعيالاتهم اثناء الفتوحات الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب على ان اول من اسكن العرب في بلاد فارس كان أمير بن أحمد ثم الربيع بن زياد الحارثي حيث استقرت العرب بمرو وسواها من البلدان في خراسان(٣٢)،ومقدرهم ولها وزن بحوالي ربع مليون عربي منهم حوالي ٥٠ ألف من المقاتلة(٣٣)، ولم يكن دفع هذه الاعداد الى بلاد فارس من اجل الحفاظ على مكاسب الفتوح كما يتوهم البعض بل لهدف اعمق وهو نشر الاسلام والعربية في تلك الربوع وبالتالي كسب جموع الناس من خلالها.

وليس ادل على عنف المقاومة التي ابداها السكان المحليون بقيادة الدهاقين ورجال الدين المجوسي لنشر الاسلام من الرواية التاريخية التي يوردها الزشخي وهو مؤرخ محلي حيث يشير الى ارتداد بخارى اربع مرات عن السيادة العربية الاسلامية مما جعل قتيبة الباهلي يأمر العرب المسلمين بالاقامة مع اهل بخارى ويناصفونهم بيوتهم ليختلطوا بهم ويراقبونهم في سلوكهم وعبادتهم وبهذه الطريقة «ألزمهم باحكام الشريعة وأزال اثار الكفر ورسم

المجوسية...»(٤٣)
على أن عملية الاختلاط لم تكن سريعة وميسورة فلم يكن من مصلحة الدهاقين الفرس ذلك لانه يسرع بانتشار الاسلام والتعريب، كما لم يكن كذلك في مصلحة بعض الولاة والقادة العرب لانه يعجل باستقرار العرب المسلمين وامتهانهم الزراعة او الصناعة او التجارة وتركهم الجيش في الوقت الذي كانت الدولة بأمس الحاجة اليهم كمقاتلة. الاأن عملية الامتزاج رغم هذا وذاك سارت بطيئة متعثرة ولكن الى أمام. وفي رواية لابن رسته(٣٥) ما يدلل على عناد الارستقراطية الفارسية ورجال الدين الزرادشت ووقوفهم حجر عثرة ضد انتشار الاسلام. يقول ابن رسته ان عاصم بن يونس عامل العباسيين على اصفهان _ والفترة العباسية فترة متأخرة _ لم يجد في هذه المدينة من المسلمين الذين يقرأون القرآن الا ٨٠(ثمانون) رجلا، ومن هؤلاء ثلاثة فقط يحفظونه.

ورواية إبن رسته انفة الذكر نفسها تصلح دليلا على بطئ انتشار اللغة العربية في بلاد فارس حيث لم يكن يقرأ العربية في مدينة اصفهان سوى ثمانين رجلا فقط!! ويعزز هذا الاعتقاد رواية للجهشياري(٣٦) تشير الى تأخير تعريب الدواوين في خراسان حتى فترة متأخرة من العصر الاموي. فقد بقيت الدواوين بالفارسية وكتابها من المجوس حتى عربها نصر بن سيار!!سنة ١٢٤هـ / ٧٣٢م وهو أخر امراء خراسان في العصر الاموي. وقام بنقلها من الفارسية الى العربية إسحق بن طليق!!

بل أن الفرس وقفوا حجر عثرة في طريق عملية تعريب الدواوين في العراق في ولاية الحجاج الثقفي لأن تعريبها في العراق سيؤول إلى تعريبها في سائر اقاليم بلاد فارس وسيؤدى بالتالي الى انتشار اللغة العربية على حساب اللغة الفارسية ثم الى سرعة تقبل الفرس للاسلام بعد اتقانهم العربية لغة القرآن والصلاة والحديث. يقول البلاذري(٣٧) إن الذي تولى مسؤولية نقل دواوين العراق من الفارسية الى العربية هو الكاتب صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم بأمر الحجاج الثقفي. وتمضي الرواية التاريخية فتقول بان مردانشاه بن فروخ الفارسي اتصل بصالح واغراه ب١٠٠ ألف درهم من اجل ان يمتنع عن عملية التعريب هذه ويظهر عجزه للحجاج ولكن صالحاً أبى ذلك ونقله!! وقد ادى ذلك الى اسراع الموالي من الفرس في تعلم العربية للاحتفاظ بوظائفهم. ثم ان تعلمهم العربية ادى الى زيادة تفهمهم بالدين الاسلامي.

أما لماذا كان الدهاقين ورجال الدين الزرادشت ضد انتشار الاسلام والعربية وضد الاختلاط فالسبب يعود الى كون الدهاقين والامراء المحليين _وحسب معاهدات الصلح_ مسؤولين عن جباية الضرائب من جزية وخراج وغيرهما وتسليم المقدار المتفق عليه منها الى الوالي العربي. فاذا ما انتشر الاسلام قل بطبيعة الحال عدد دافعي الجزية وقل مقدار الاموال المحصلة. فالدافع المالي كان أحد اسباب وقوف الارستقراطيه الفارسية ضد انتشار الاسلام والعربية. اما السبب الثاني وراء مقاومة الاستقراطيه الدخول في الاسلام فهو خوفها من فقدان نفوذها بين الفرس. فإذا ما اصبح الفرس موالي إنضموا بالولاء الى قبيلة عربية او ارتبطوا بالوالي العربي وبهذا يتضاءل نفود الارستقراطية الفارسية تدريجياً. ولقد كافحت الارستقراطية الفارسية يعاونها بعض الكتاب الفرس من اجل رد اعتبارها الاجتماعي والحصول على اعتراف من المجتمع الجديد على منزلتها «المرموقة» في المجتمع القديم واستمرار هذه المنزلة بطريقة او باخري في المجتمع الجديد. اما السبب الثالث وراء هذه الظاهرة فيعود الى النزعة العنصرية المتعالية للارستقراطيه الفارسية وفئة من طبقة الكتاب الموالي يتبعها بطبيعة الحال شريحة من شرائح المجتمع في بلاد فارس(٣٨).

ان هذا الوضع هو الذي يفسر رواية الطبري بان الدهاقين استمروا باستحصال الجزية ممن اسلم من فقراء الفرس وضعفائهم وفلاحيهم واعفوا منها النبلاء والمتنفذين الفرس الذين لم يسلموا. ويقول الطبري:(٣٩)

«واخذوا ضريبة الرأس ممن أسلم من الضعفاء»!! ومعني ذلك بقاء الحال على ما كان عليه زمن الساسانيين!! ولهذا حين حاول نصر بن سيار أخر

ولاة الامويين على خراسان اصلاح الوضع المالي وايقاف التدهور السياسي والاضطراب الاجتماعي لاحظ أن هناك ثمانين ألفاً من الفرس المشركين معفوين من الجزية وثلاثين الفاً من الفرس المسلمين (الموالي) يدفعون الجزية رغم إسلامهم(٤٠)..كل ذلك من تدبير الدهاقين المسؤلين عن الجباية!!

ولابد هنا ان نعيد الى الاذهان من أن العرب المسلمين أنفسهم كانوا كذلك منقسمين في بلاد فارس حول السياسات العسكرية والمالية الاموية، فمنهم من فضل الاستقرار والاختلاط وامتهان الزراعة والحرف الاخرى على استمرار الفتوحات في بلاد ما وراء النهر ومنهم على العكس من ذلك تماماً. كما وان الامويين حين أحسوا بالعجز المالي فرضوا ضرائب اضافية بعضها إحياءاً لتقاليد مالية ساسانية وبعضها جديداً، على ان هذه الضرائب لم تكن ثابتة او مستمرة وقد ألغاها عمر بن عبد العزيز في عهده ثم أعيدت من بعده. ودون شك فان هذه السياسات كان لها ردود فعل من شغب وقلاقل واضطرابات بين العرب والموالي في بلاد فارس. ثم أن هذا الوضع لاينطبق على العصر الاموي فحسب بل يستمر خلال العصر العباسي.

موقف الفرس من الدولة الجديدة:

إن موقف الفرس من النظام العربي الاسلامي الجديد تمثل بإتجاهين رئيسين: الاول _ الدخول في الاسلام عن عقيدة وإيمان لما فيه من مبادئ تفضل ماألفوه في المجوسية أو لأن الاسلام سينقذهم من التعسف الاجتماعي والاقتصادي الساساني القديم. اما الاتجاه الثاني _ فيتمثل في الفئة التي استسلمت للنظام الجديد بعد أن قاومته بشدة ثم ادركت عبث المقاومة فأسلمت ولم تؤمن بالاسلام بل تعثرت به واتخذته برقعاً لتحرير أهدافها وتنفيذ خططها.

اما الفئة الاولى التي سارت على خط الاسلام وضمن اطاره الفكري وكانت موالية للدولة العربية الاسلامية ولقيمها الحضارية فقد انتجت علماء متميزين من الموالي في شتى حقول الحضارة والمعرفة خاصة في العصر العباسي. كما وظهر من هذه الفئة مفكرين كانوا من اوائل من تصدوا للتيارات الشعوبية والخرَّمية والزندقة. وبعد هذا وذاك فإن هذه الفئة من الموالي اذا ما استنكرت سياسة وال او عارضت منهج أمير لم ترتد على عقبيها او تلجأ الى حركات هدآمة مخربة بل كانت تعبر عن معارضتها ايجابياً بالأنتماء الى مذاهب او حركات تعمل ضمن إطار الاسلام والعروبة مثل الشيعة والخوارج والنابتة والمعتزلة والمرجئه وغيرها لاضدها مثل الفلاة والخرَّميه والزندقة والشعوبية. فالحركات من الصنف الاول لم يكن من اهدافها تجزئة الامة وهدمها وإلغاء كيانها السياسي والحضاري بل ان بعضها نشأ وتولد فى خضم المعترك الفكرى بين خصوم الامة من الشعوبيين والزنادقة وبين المدافعين عن مبادئها وقيمها.

اما الفئة الثانية التي تبرقعت بالاسلام ورفعت إما شعارات اسلامية عامة او شعارات مذهبية خاصة لتحقيق غاية في نفسها.. هذه الفئة هي المسؤولة عن النزعة الهدامة في بلاد فارس التي شوهت الاسلام وعرقلت سبل إنتشاره وأعاقته عن تحقيق أهدافه. بل وادخلت على المذاهب الاسلامية طقوساً وقيماً مجوسية ليست من الاسلام في شئ. وهكذا فإن المذاهب الاسلامية التي دخلت بلاد فارس من خوارج أوكرامية اوشيعية حرفت وعدلت وذلك بعملية «توفيقية» بينها وبين القيم المجوسية القديمة لأن الغرض لم يكن تبني هذا المذهب اوذاك او فهمه وتطبيقه بصورته الصحيحة التي ظهرت في بلاد العرب بل كان القصد إستغلاله ورفعه شعاراً ضد الخلافة وعقيدتها الاسلام الصحيح.

لقد حاولت فئة من الفرس الايظهر الاسلام في بلاد فارس بمظهره الصحيح الذي جاء به رسول الله محمد(ص)، وحاولت كذلك الاتظهر المذاهب الاسلامية بطبيعتها واهدافها الصحيحة التي نشأت عليها بين العرب المسلمين وفي بلاد العرب. وقد ساعدت عدة ظروف منها مايتعلق بطبيعة الفرس وتعلقهم بتقاليدهم القديمة ومنها مايتعلق

بظروفهم الاجتماعية والاقتصادية قبل الفتح وبعده على ان تكون هذه الفئه العنصرية من الفرس صاحبة القيادة والريادة في توجيه حركة المجتمع الفارسي.

الاولى _ إظهار سياسة الدولة وجيه حركة المجتمع الفارسي.
لقد حاول بعض المستشرقين أمثال ڤان ڤلوتن وبيكر وبروكلمان وغيرهم التأكيد

الاولى _ إظهار سياسة الدولة العربية الاسلامية على أنها سياسية تعسفية تجاه الموالي (المسلمين من غير العرب) مما أدى الى بروز تمايزاجتماعي واقتصادي حاد بين العرب والموالي في المجتمع الجديد، فالموالي _على زعم هؤلاءالمستشرقين _ كانوا محرومين من المشاركة في الادارة ومحرومين من العطاء.

والثانية _ ان هذه الحالات ادت الى تذمر الموالي ودفعتهم للانضمام الى حركة الشيعة العلويه بإعتبارها حركة معارضة وباعتبارالعلويين البديل الطبيعي للأمويين.وهكذا ربط هؤلاء المستشرقين بين حركة الشيعة وبين الموالي الفرس وربطوا بين بلادفارس والمذهب الشيعي.

لقد شاعت هذه الاراء وغدت حقائق مسلم بها بعد ان نقلها بعض مؤرخينا المحدثين لابسبب إستنادها الى دلائل تاريخية موضوعية بل لكثرة تكرارها... فكأن الموالي الفرس تشيعوا منذ الايام الاولي لدخولهم الاسلام، وكأن بلاد فارس قبلت التشيع بعد فترة مبكرة من انضمامها للدولة العربية الاسلامية.
اما الزعم الاول فإن المبالغة والتشويه واضح فيه. فمع إقرارنا بوجود نوع من التمايز والمنافسة، الاأنها لم تكن مقتصرة على الموالي الفرس بل شملت العرب كذلك. فالتمايز والمنافسة ظاهرة طبيعية في كل المجتمعات قديمها وحديثها. والخلفاء الاكفاء هم وحدهم الذين استطاعوا ان يحققوا نوعاً من التوازن بين شرائح المجتمع المختلفة. واذا كان أصحاب هذا الرأي يوردون امثلة للدلاله على سوء حالة الموالي واحتقار العرب لهم، فإن هناك امثلة على احتقار الموالي الفرس للعرب والنيل منهم ثم هناك امثلة على التعاون والاختلاط والاشتراك في السلطة. اما أن نختار أمثلة عن حالات شاذة ونعتبرها سياسة عامة للدولة او موقف عام للمجتمع فهذا ما لايقره التاريخ. واذا فرضنا جدلا ان هناك سياسة مقصودة في عدم إشراك الموالي في الادارة والسلطة. أليس من الطبيعي ان يسيطر العرب صانعوا الدولة الجديدة على زمام الامور فيها ثم يأتي إشراك الاخرين في مهام الادارة مع مرور الزمن ؟

ولكن السؤال المهم هو لماذا يقتصر ذكر «مشكلة الموالي» على العراق وبلاد فارس؟ ألم يكن هناك موالي في بلاد الشام ومصر وغيرها من اقاليم الدولة؟ إن الجواب على ذلك ليس بالعسير فالنزعات الفارسية كانت قوية في الاقاليم الشرقية وكان يقودها الدهاقون ورجال الدين الزرادشت وكتلة الكتاب المثقفين من الفرس. إن هؤلاء هم الذين جعلوا من الموالي «مشكلة» وعملوا جهدهم على ديمومتها واستمرارها واستغلالها في خلق الاضطرابات للسلطة في العراق وبلاد فارس!! ولم يعمل المستشرقون اكثر من نقل روايات الشعوبيين والاعتماد عليها من اجل تشويه التاريخ العربي!! وليس هنا مجال الرد بأسهاب وسرد الامثلة على هذا الزعم الاستشراقي، لكننا نقول ان الموالي كان لهم نصيب جيد في المشاركة في الادارة حسبما تقتضيه الحاجة. بل ان نصيبهم في الادارة المحلية والدواوين كان اكبر من نصيب العرب. فمعاهدات الصلح وروايات التاريخ تشير الى ان العرب الفاتحين أقروا الدهاقين والامراء المحليين على وظائفهم ومسؤلياتهم التي كانت قبل الفتح. بل ان الموالي الذين لعبوا دوراً في تسهيل حركة الفتح أدخلوافي (شرف العطاء) او كان لهم نصيباً فيه. كما سمحت الدولة للموالي بالاستقرار في الاماكن التي يختارونها والالتحاق بمن يشاؤون من القبائل

كموالي لتلك القبائل او تشكيل تنظيمات مستقلة عن القبائل. وقد ظهر من الموالي في العصر الاموي ولاة وقادة عسكريين ورؤساء دواوين ومستشارين «وزراء»وعمال خراج. وعلى عكس ما يذهب اليه بعض المؤرخين فالموالي لم يكونوا محرومين من نصيب القضاء وشواهد التاريخ الاموي حافلة بأسمائهم امثال شريح القاضي وعامر الشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبير وعبد الله بن يزيد الصنعاني ويزيد بن ابي حبيب والليث بن سعد وغيرهم(٤١).

ويكثر المؤرخون من الاشارة الى أهمية الموالي في العصر العباسي وخاصة الى تعلق الخليفة المهدي بهم وكثرة إستخدامه لهم، ولكنهم يهملون عن قصد أودون قصد رأى زياد بن ابيه والي العراق والمشرق حين يوصى الخليفة معاوية بن ابي سفيان باستخدامهم لأنهم «أنصر وأغفر واشكر» ورأى عبد الله بن زياد الذي استخدمهم عن الخراج «لأنهم أبصر بالجباية واوفى بالامانة وأهون على المطالبة»(٤٢)!!

بل أن الدولة الاموية عاملت المجوس الفرس معاملة أهل الذمة تمشياً مع قول الرسول (ص) «سنوا بهم سنة اهل الكتاب» فكان كتاب زياد بن ابيه زادان بن فروخ المجوسي، وممايؤخذ على خالد العشري والي العراق والمشرق على عهد هشام بن عبد الملك كثرة إستخدامه المجوس في الادارة. بل ان اكثر كتاب الدواوين بخراسان كانوا مجوساًحتى أمر نصر بن سيار بنقله الى العربية في اواخر عصر بني امية!!(٤٣)

اما بالنسبة للزعم الثاني وهو ارتباط الموالي الفرس بحركات الشيعة العلوية وارتباط بلاد فارس بالتشيع منذ وقت مبكر فليس له أساس من الصحة ولايستند على ادلة تاريخية. فالحركات السياسية الاسلامية ومنها حركة الشيعة العلوية كانت عربية في نشأتها وتطورها وعربية في قيادتها وغالبية كوادرها وعربية في فكرها.

على ان الذى حدث هو ان بعض الزعامات العربية التي ثارت ضد الحكم الاموي هي التي نظمت الموالي واستغلتهم وكسبتهم الى حركاتها من شيعية او خارجية او سياسية بحته ليس لها لوناً مذهبياً وذلك من اجل زيادة عدد الانصار. كما وان الموالي انفسهم من جهة اخرى استغلوا هذه الحركات فأنضموا اليها وتبنوا شعاراتها الشيعية او الخارجية، بعضهم عن إقتناع وبعضهم الأخر من اجل تحقيق اهدافهم الهدامة.

فقد رفع الغلاة شعار التشيع لال البيت رغم انهم لم يكونوا يعتقدون بأحقية أل البيت في الحكم بل من اجل تحرير آرائهم غير الاسلامية في المجتمع وبهذا يحققون اهدافهم في تفتيت المجتمع من الداخل وهدم الاسلام... وليس هناك كبير فرق بين الغلاة والشعوبية فكلاهما من الفرس بقدر ما يتعلق الامر بالعراق وبلاد فارس وكلاهما اراد تحرير اهدافها في هدم الدين والدولة تحت شعارات لايعتقدون بها اصلا ولكنها براقة تستهوي الناس وتنال من عواطفهم. فالغلاة رفعوا شعار حق آل البيت بالخلافة والشعوبية عملوا تحت شعار «التسوية»اي النضال من أجل المساواة بين العرب والموالي!! وهم في واقعهم عنصريون متطرفون. والغريب ان العرب إنتبهوا من فترة مبكرة الى هذا «التكتيك» وان بعض الزعامات العربية الطموحة حاولت إستغلاله لتحقيق طموحاتها. في رواية للبلاذري أن المغيرة بن شعبة والي معاوية بن أبي سفيان على الكوفة قال وهوينظر الى جموع الناس في سوق الكوفة:(٤٤)

«ياها من غارة وياله جمعاً، اني لأعلم كلمة لونعق لها ناعق لاتبعوه ولاسيما الاعاجم الذين اذا ألقي عليهم الشيئ قبلوه، فقال له المختار:وما هي ياعم؟ قال المغيرة: يستأدون بآل محمد. فأغضى عليها المختار.»

وهذا ما فعله زعماء فرق الغلاة وما فعله أخرون من امثال المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وعبد الله بن معاوية. ولهذا تبرأ الائمة العلويون من الغلاة وافكارهم في اكثر من مناسبة.

والواقع أن التاريخ لايشير الى حركات موالية للعلويين ظهرت في بلاد فارس في صدر الاسلام (العصرين الراشدي والاموي)، ولكن العراق كان مسرحاً لحركات رفعت شعارات علوية وكسبت

اضافة الى فئات من العرب أعداداً من الموالي الفرس بالعراق. فالمختار الثقفي نظم موالي الكوفة وكسبهم الى حركته بوعود مغرية عديدة منها العتق من ارتباطاتهم بأسيادهم ومنها العطاء ولكن هذه الحقيقة ذاتها بالاضافة الى تنبيه لأراء الغلاة وتسامحه معهم كانت أحد اسباب فشل حركته، اضافة الى اسباب اخرى، فالموالي الفرس في الكوفة لم يكونوا قوة ضاربة يعتمد عليها ولم يكونوا ذوي صبر ومطاولة على القتال كما وان وعود المختار السخية للموالي اثارت القبائل العربية فسحبت تأييدها له ففشلت حركته.(٤٥)

ويربط بعض المؤرخين بين حركة المختار الثقفي وحركة عبد الرحمن الأشعث الكندي ويعتبرونها «محاولة جديدة للموالي من الفرس للمطالبة بحقوقهم». ولكن التاريخ يؤكد مرة اخرى ان دور الموالي في الحركة كانت ثانوياً وان اشتراكهم جاء طبيعياً بسبب مشاركة اسيادهم اوقبائلهم التي ينتمون اليها بالولاء.

واذا كان لبعض الرؤوس التي انضمت الى حركة ابن الاشعث ميولا علوية وسجلا حافلا في حركة سابقة هي حركة المختار الثقفي فإن ذلك لايضفي على حركة ابن الاشعث صبغة علوية. كما وان الحركة رغم اعلان عصيانها في بلاد فارس لم تكتسب اى تأييد من الموالي الفرس هناك.(٤٦)

ثم حدثت حركة زيد بن علي بالعراق على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فلم يتحمس لها موالي العراق كثيراً ولم يحرك الموالي في بلاد فارس ساكناً لتأييدها وحين قتل يحيى بن زيد في خراسان من قبل نصر بن سيار لم ينتفض الموالي الفرس هناك مطالبين بثأره.

ثم حدثت حركة عبد الله بن معاوية الطالبي في اواخر العصر الاموي وامتدت من العراق الى بلاد فارس حيث استولى عبد الله بن معاوية على همذان وقومس واصبهان والري وفارس. وانضم اليه فئات من الموالي الفرس بالعراق وعبيد اهل الكوفة... ولكن انضمام الموالي الفرس وتبني عبد الله بن معاوية لمبادئ الغلو (الجناحية) كانتا من اهم عوامل فشله تماماً كما حدث لحركة المختار الثقفي.(٤٧)

فأين هو تشيع الفرس للعلويين في الفترة موضوعة البحث، ولو كانت بلاد فارس قد اعتنقت التشيع منذ فترة مبكرة لانتفضت مدنها وقراها واقاليمها عن بكرة ابيها تأييداً لهذه الحركات التي رفعت شعارات «موالية» للتشيع «ومؤيدة»للمستضعفين من الموالي خاصة وان هذه الحركات حدثت في ارض فارس مثل حركة عبد الرحمن بن الاشعث وحركة عبد الله بن معاوية ويحيى بن زيد او وقعت بالعراق القريب من بلاد فارس مثل حركة المختار الثقفي او زيد بن علي.

ويحق لنا بعد ذلك أن نتساءل.. ماهي طبيعة هذه الحركات؟ والجواب كما تؤكده روايات التاريخ أن هذه الحركات رغم الشعارات التي طرحتها ورغم انضمام بعض الموالي الفرس اليها، كانت حركات سياسية عراقية قام بها أهل العراق ضد الامويين. ولم تكن الشعارات التي طرحوها الاوسيلة لتحقيق غايتهم(٤٨).

الخاتمة:

ولابد أن نشير قبل أن ننتهي من ملاحظاتنا الى ظاهرة واضحة وهي ان زعماء هذه الحركات مثل إبن الاشعث في عهد عبد الملك بن مروان، ويزيد بن المهلب في عهد يزيد بن عبد الملك، وعبد الله بن معاوية في عهد مروان الاخير لم يسفروا عن معارضتهم وتمردهم ضد السلطة الاموية بالعراق الاحينما كانوا في بلاد فارس. وهذا في رأينا له دلالته في تأثير ما اصطلح علي تسميته «بالعقدة الفارسية» وهو تأثير الجو العام في بلاد فارس المعادي للخلافة وللسلطة العربية بالعراق على هؤلاء بحيث شجعهم على التمرد. وستتكرر هذه الظاهرة بصورة اوضح خلال العصر العباسي فكل من يحكم بلاد فارس او جزءاً منها لابد ان يتقمص الشخصية الفارسية بكل عقدها تجاه الخلافة العربية الاسلامية وتجاه العراق خاصة وانه غدا مركز الخلافة والسلطة وموئل القيم الحضارية الاسلامية. والغريب أن حكاماً غير فرس وغير ايرانيين مثل الخوارزميه والسلاجقة والمغول

وماتبعهم من ايلخانيين ثم صفويين إتخذوا نفس الموقف الفارسي المعادي معبرة بطريقة او باخرى نظرياً او عملياً عن تأييدها لآمال الفرس وطموحاتهم وادعاءاتهم في العراق وتأكيد سيطرتهم على ما يستطيعون نيله من ارض العرب.

اننا لاندعي بأن «العقدة الفارسية» كانت العامل الرئيس وراء تمرد هؤلاء الزعماء العرب في بلاد فارس ولكنها كانت دون شك احد العوامل، ولعبت دورها في بلورة موقف معادي للسلطة بالعراق والا فما الذى غير موقف عبد الرحمن بن الأشعث من والي العراق الحجاج الثقفي بهذه السرعة المفاجئة مع العلم ان التاريخ يؤكد وجود علاقات ودية قوية تربط الرجلين قبل الثورة؟؟ ثم ما السبب الذي غير من إخلاص عبد الجبار الازدي(٤٩) صاحب شرطة المنصورة، الذي عينه على خراسان لثقته العالية فيه، بحيث يتمرد على السلطة العباسية بالعراق؟؟

بعد هذا كله فإن فريضة الربط بين الفرس والولاء لأهل البيت والربط بين «ايران والتشسيع» التي جاء بها الاستشراق وكررها بعض مؤرخينا ليس لها مايبررها تاريخياً وما يسندها منطقياً. وإن التشيع لم يتخذ منهجاً رسمياً في بلاد فارس الا في تاريخها الحديث حين اعلن ذلك الصفويون حكام ايران في اوائل القرن السادس عشر الميلادي معارضين بذلك مذهب أعدائهم العثمانيين. وهذا مع العلم ان الصفويين لم يكونوا فرساً ولا ايرانيين.

مختارات من مصادر ومراجع البحث

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ليدن ١٣٢٢هـ.
(٢) ابن الفقيه، البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ.
(٣) ابن مصعب الزبيري، نسب قريش، تصحيح بروفنسال.
(٤) ابو الفرج الاصبهاني، مقاتل الطالبين، القاهرة ١٣٦٥هـ.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، مصر.
(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، بغداد ١٩٧٥.
(٧) الدينوري، الاخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم التمر.
(٨) الطبري، تاريخ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم. عشرة أجزاء، القاهرة.
(٩) الزشخي، تاريخ بخاري، دار المعارف بمصر.
(١٠) الكوفي، ابن اعثم، الفتوح.

المراجع الحديثة:

(١) شكري فيصل، المجتمعات الاسلامية، بيروت، دار العلم للملايين.
(٢) صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بيروت.
(٣) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، بغداد ١٩٤٩. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت ١٩٦٩.
(٤) عبد الامير دكسن، الخلافة الاموية في عهد عبد الملك، بغداد، ١٩٧٢.
(٥) حسين مولوي، الادارة العربية (مترجم).
(٦) دنيت، دنيال، الجزية والاسلام (مترجم).
(٧) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة عبد دي ابو ريدة.
(٨) صالح العلي، إدارة خراسان، مجلة كلية الاداب ١٩٧٢. تقسيمات خراسان الادارية، مجلة كلية الاداب ١٩٧١.

الهوامش

(١) Le Stronge, The Lands of the Eastern Calipkate Cambridge, 1930 P. 248. E. 1

(٢) الطبري، تاريخ، ج٤ ص٩٤. ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص٣٨٨

(٣) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠،ص

(٤) الطبري، ج٤، ص٨٩ فما بعد.

(٥) صالح العلي، محاضرات في تاريخ الدولة الاسلامية، ص٣٨.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٣٧٨، ٣٨٤، ٣٠٨، ٣٧٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٣١٧، ٣٣٠، ٣٢١.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٧٨. ابن سعد، طبقات، ج٤ ق٢ ص٧٨.

(٩) البلاذري، ص ٣٧٩.

(١٠) الطبري، ج٤، ص ١٧٤. خليفه بن خياط، تاريخ، ص ١٤٦.

(١١) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦٩، ٢٧٤.

(١٢) البلاذري، فتوح، ص ٣٢٣.

(١٣) حول سيستان وكرمان ومكران: راجع البلاذري، فتوح، ص٣٨٤، ٣٨٥ فما بعد.

(١٤) الطبري، ج٥ ص ١٧٣ . البلاذري، فتوح، ص ٣٩٤. ابن الاثير، ج٤ ص ١١٤، ١٢٥.

(١٥) سبولر، إيران في العصور الاسلامية الاولى، ص ٢٠٧. صالح العلي، إدارة خراسان، مجلة كلية الاداب، ١٩٧٢، ص ٣١٥.

(١٦) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٤.

(١٧) الطبري، تاريخ، ج٥ ص ١٧٣.

(١٨) بارتولد، تركستان، (بالانكليزية) ص ١٨٠.

(١٩) صالح العلي، استيطان العرب في خراسان، مجلة.

(٢٠) الطبري، تاريخ، ج٥ ص ٣٤.ابن قتيبة، ص ٢٤٨.

(٢١) ياقوت، معجم البلدان، ج٤ ص ٩٤.

(٢٢) راجع: نجدة طماش، الادارة في العصر الاموي، ص ٦٤ فما بعد.

(٢٣) الطبري، المصدر السابق.

(٢٤) الطبري، المصدر السابق.

(٢٥) الطبري، تاريخ، ج٥ ص ٢١٨، ٢٢١.

(٢٦) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ٦٤ فما بعد.

(٢٧) الطبري، ج٤ ص ١٥٠. ج٦ ص ٤٢٦.

(٢٨) ابن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ١٩٥٤ ص ١٣٢.

(٢٩) نجدة خماش، المصدر السابق، ص ١٢١، ص ١٤٤.

(٣٠) راجع فاروق عمر، النظم الاسلامية، العين، ١٩٨٣، ص

(٣١) دكسن، الخلافة الاموية، بغداد، ١٩٧٣ الخربوطلي، العراق في العصر الاموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.

(٣٢) ثابت الراوي، العراق في العصر الاموي، بغداد، ١٩٦٥، ص ٢٠١، ٢٣٢.

(٣٣) وِلها وزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة، ص ٢٣١.

(٣٤) النرشخي، تاريخ بخارى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧٣.

(٣٥) ابن رسته، ص ١٩٦.

(٣٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب، القاهرة، ص ٦٧.

(٣٧) البلاذري، فتوح، ٢٩٨.

(٣٨) فاروق عمر، الحركة الشعوبية، بغداد، ١٩٨٦،(نشر نقابة المعلمين، المركز العام).

(٣٩) الطبري، ج٧، ص ٥٦.

(٤٠) الطبري، ج٧، ص ١٧٣.

(٤١) راجع مثلا: ابن خلكان: وفيات الاعيان،ج١ ص ٢٢٤. ابن قتيبة، عيون الاخبار، ج١ ص ٦٢.

(٤٢) البلاذري، أنساب، ج٤ ص ٢٣.

(٤٣) الجهشياري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٤٤) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي فكر القرن العشرين، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٨٠.

(٤٥) المصدر السابق.

(٤٦) دكسن، المصدر السابق.

(٤٧) دائرة المعارف الاسلامية

(٤٨) الدوري، مقدمة في دراسة تاريخ صدر الاسلام، ص ٤٢.

(٤٩) فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج١، ص ٦٣، دار الارشاد، بيروت، ١٩٧٠.

سهيل بن عمرو(١)
نفوذه الاجتماعى ، وحضوره التفاوضي

د . عبد الشافى صديق
كلية التربية / جامعة عدن

سهيل بن عمرو هو المفاوض باسم قريش يوم الحديبية، والموقع باسم القرشيين ـ يومها ـ أول معاهدة بين نظام المسلمين الجديد فى المدينة، والمشركين في مكة. ولكن الاشارة الى شخصيته في الأدب العربى ترد بوصفه خطيب قريش. ويتكرر ذلك فى الكتابات القديمة والجديدة على حد سواء.

غير ان المتقصي للنصوص الخطابية للرجل لن يحظى بالوقوف على نص خطبة واحدة تؤكد ذلك الزعم الشائع. كما لم يتسن لنا العثور ـ ولو على بعض ـ النماذج القصيرة أو المتوسطة كالتى نجدها عند بعض معاصريه أو سابقيه. هذا رغم موافقتنا فى «..أن الصحيح المنسوب اليهم أقل من المصنوع».(٢)

والشاهد أن وصف سهيل بخطيب قريش يستند على مواقفه الاجتماعية والسياسية، اكثر من استناده على خطبه المنبرية والتى لانجد شواهد لها كما أسلفنا.

وتقصينا لشخصية سهيل بن عمرو أبان وصفاً لموهبته، بينما هناك شحة بينة فى وصف هيئته، اذ ان هناك وصفاً واحداً له جاء على لسان الصحابى الجليل، الزعيم الانصارى الخزرجي: سعد بن عبادة، والذى كان قد وقع فى أسر قريش قبل الهجرة اذ قال: «فوالله انى لفي ايديهم اذ طلع على نفر من قريش فيهم رجل وضئ أبيض، شعشاع،(٣) حلو من الرجال». وهو بذلك كان يعنى رجلا لم يسبق له معرفته، وتبين فيما بعد أنه سهيل بن عمرو الذى كان احد من ساهموا في ايذاء سعد بن عبادة (أسير قريش).(٤)

ولكن كثرة تردد اسمه قبيل وبعيد الاسلام لتخضرمه، وكعنصر سياسى نشط هو الذى دفعنا للبحث الشامل عنه.

وقد قادنا البحث الى بروز حصيصة الحضور الاجتماعى والسياسى وشدة حضوره التفاوضي واتقاد بداهته. وهو الأمر الذى يسمو عن مجرد التسليم بذلك الوصف الذى أشتهر به: «خطيب قريش». فضلا عن تصورنا بأن ذلك هو الأدعى بالدراسة والتقصى من مجرد التسليم بحكم يفتقر الى التأسيس والتوثيق.

وتقصينا العام لشخصية سهيل بن عمرو قادنا

ايضا الى التعرف على أمرين هامين: أحدهما درجة النفوذ الاجتماعي لسهيل بن عمرو. وثانيهما توهج حضوره التفاوضي. ولقد تواصلت الصفتان فيما قبل الاسلام وبعده.

النفوذ الاجتماعي:-

ففيما يتعلق بالأمر الاول ترد الشواهد في ان سهيلا كان رجلا ذا هيبة ونفوذ إجتماعي.

ففي السيرة النبوية لابن هشام وفي باب: كيف اجار المطعم رسول الله (صلعم) قال: «...فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يجيبوه الى ما دعاهم اليه، من تصديقه ونصرته، سار الى حراء، ثم بعث الى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: انا حليف والحليف لايجير، فبعث الى سهيل بن عمرو...(الخ)».(٥)

وعليه، ما كان لرسول الله أن يطلب اجارة سهيل لولايقينه من نفوذه الاجتماعي. ومن جانب آخر نجد أن سهيلا ظل محتفظا بقدره ومقامه لدى قريش بل كان هو المفاوض باسمهم مع الرسول (ص) يوم الحديبية وذلك على الرغم من ان اثنين من اخوان سهيل من السابقين الى الاسلام وهما: سليط(٦) وحاطب(٧) أبنا عمرو.

ونجد أحد الشعراء من معاصري سهيل بن عمرو يشبهه بالبحر وسواه بالماء القليل اذ يقول عبد الله بن الزبعرى في رده على الشاعر: موهب بن رباح ابو أنيس حليف بني زهرة:

وأمسى موهب كحمار سوء
اجاز ببلدة فيها ينادي
فإن العبد مثلك لاينادي
سهيلا ضل سعيك من تعادي
ولاتذكر عتاب أبي يزيد
فهيهات البحور من الثماد(٨)

وفي شعر حسان بن ثابت _شاعر الرسول_ أبيات في تحريض الناس عند تجهيز الرسول لفتح مكة تنم عن الدور القيادي لسهيل بن عمرو اذ يقول حسان:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة
رجال بني كعب تحز رقابها
الا ليت شعري هل تنالن نصرتي
سهيل بن عمرو وخزها وعقابها(٩)

ويذكر أنه في يوم بدر الكبرى سأل الرسول: من القوة القادمة من قريشس؟ فقيل له، القوم مابين التسعمائة والألف، فقال: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكر للرسول سهيل بن عمرو ضمن من ذكروا ومنهم ابوجهل بن هشام وأمية بن خلف والحارث بن عامر بن نوفل.. واخرون.(١٠)

كما يذكر أنه عند تهيؤ المسلمين للخروج، قدم نعيم بن مسعود الأشجعي (وكان ذلك قبيل اسلامه رضي الله تعالى عنه) وأخبر قريشاً أن المسلمين قد تهيأوا للخروج لقتالهم ببدر فكره أبوسفيان الخروج لذلك، وخشي ان هو لم يخرج لملاقاة المسلمين فإن ذلك سيزيدهم جرأة لذا سعى الى اغراء نعيم الأشجعي وقال له: «لك عندي من الابل كذا وكذا ادفعها لك على يد سهيل بن عمرو ان نجحت ارجاف المسلمين بقوة القرشيين ليعدلوا عن قتال قريش. فجاء نعيم الى سهيل بن عمرو فقال له: يا ابا يزيد تضمن لي هذه الابل وانطلق الى محمد وأثبطه؟ قال نعم».(١١)

ونفوذ سهيل بن عمرو وأهميته لقريش يؤيد الاهتمام الشديد من قريش لفداء سهيل بن عمرو عندما وقع اسيراً بيد المسلمين يوم بدر. وفوضت قريش لذلك الغرض مكرز بن حفص.(١٢) احد وجهاء قريش، والذي رضي لنفسه ان يؤخذ كرهينة مقابل سهيل بن عمرو. وفي ذلك قال:

فديت بأزواد (١٣) ثمان سبافتي
ينال الصميم(١٤) غرمها لا المواليا
رهنت يدي والمال أيسر من يدي
علي، ولكني خشيت المخازيا
وقلت: سهيل خيرنا فأذهبوا به
لأبنائنا حتى نديرالأمانيا

وهنا نشير الى ان تلك الاهمية لم تكن أحادية الجانب، فالابتهاج بأسر سهيل قد جرى التعبير عنه في المعسكر المسلم ايضا، مما يؤكد أهمية سهيل بن عمرو وعظم قدره فها نحن نرى ان آسره يوم بدر قد اغتبط منتشيا لاسره سهيلا.

وقد كان آسره هو مالك بن الدحشم اخو بني سالم

بن عوف، والذى عبر عن ذلك منشدا قوله:

أسرت سهيلا فلا أبتغى
أسيرا به من جميع الامم
وخندف تعلم أن الفتى
فتاها سهيلا اذا يظلم
ضربت بذى السفر حتى انثنى
وأكرهت نفسى على ذى العلم(١٥)

اذا، فسهيل فى نظر قريش هو خيرهم، وبه يتوسلون لمطامحهم، ولعل دور سهيل بن عمرو فى المفاوضات الصعبة فى الحديبية ما يقف شاهداً على ذلك. وذلك لموهبته الجدلية ويقظة حجته التفاوضية. وهذا ما يقودنا الى الحديث عن ذلك الحضور التفاوضى لسهيل.

الحضور التفاوضى :

وهناك عدة شواهد تساند الرأى الشائع عن بلاغة سهيل بن عمرو، وحضوره، وشدة حجته.

وأولى تلك المواقف ينسب الى عمر بن الخطاب يوم بدر عندما مثل أمامهم سهيل بن عمرو أسيرا. اذ كان من رأى عمر بن الخطاب الحاق عاهة دائمة بسهيل بن عمرو تعطل قدرته الخطابية وتقضى على موهبته تلك اذ اشار عمر الى الرسول بقوله: «دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ويدلع لسانه. والأعلم اذا نزعت ثنيتاه(١٦) لم يستطع الكلام فلايقم عليك خطيباً فى مواطن ابداً». (١٧)

غير ان الرسول لم يوافق عمر وقال: لاأمثل به حتى لايمثل الله بي يوم القيامة. فخل سبيله وعسى ان يقوم مقاما لاتذمه.

وثانى هذه المواقف هو عندما سئل سعيد بن المسيب، من خطباء قريش في الجاهلية؟ فقال: الأسود بن المطلب وسهيل بن عمرو.(١٨)

وثالث هذه المواقف ما أورده الجاحظ اذ ذكر: «ومن الخطباء سهيل بن عمرو الأعلم احد بنى حسل بن معيص وكان يكنى أبا يزيد، وكان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الاسلام..»(٢٠).

والمهتمون بدراسة الاثار الأدبية العربية في عصرنا لم يفعلوا اكثر من تكرار ذلك الزعم الشائع. ومثال على ذلك ما أورده الدكتور احسان النص في كتابه: الخطابة العربية فى عصرنا الذهبي. والذى جاء فيه ـ وبلا شواهد ـ وباقتضاب قوله:

«ومن مخضرمى الجاهلية والاسلام سهيل بن عمرو الأعلم، وكان خطيب قريش»(٢١).

ولا جدال فى ان البراعة الخطابية انما تتأتى اساساً من يقظة الحضور المصحوبة بالقدرة الفائقة على الافصاح عن الذات. ولذا كان التوظيف الجيد لملكة الحضور ككفاءة ذهنية وقدرة تأثيرية شرطاً جوهرياً للقيادة والتبوؤ البارز للمراتب العالية والمواقف الحرجة.

ولذا لانتفق مع ما ذهب اليه الجاحظ فى أن أهمية الخطباء ـ وقتذاك ـ كانت بسبب كثرة عدد الشعراء كما نوافق الدكتور النص رأيه... بأن الزعامة كانت مقترنة بقوة البيان ولانوافقه.. (بأن الخطيب لايكون فى الغالب الاسيد القوم).(٢٢)

فالشاهد أنه: لا الغنى وحده معيار لقوة الخطابة. ولا القدرة على الخطابة وحدها أساس للزعامة، فهناك أثرياء كثر ومن ذوى النفوذ ولكن لم يشتهر عنهم الخطابة، وهناك خطباء كثر لم يعرفوا بالثراء. ولكن مما لاشك فيه ان القدرة الاقتصادية، وسعة الملكية الخاصة هما الأساس. فاذا ما اقترن الثراء بفصاحة البيان كان ذلك أدعى للزعامة والتسيد.

والجلى ان سهيلا كان يرتكز على قدر واسع من الملك الخاص فضلا عن بلاغته وقدرته على الافصاح وهذا ما مكنه من أن يكون هو المتحدث باسم قريش والمفاوض على حقها.

ولعل أنصح مثال على ذلك هو الدور الدبلوماسى الذى لعبه سهيل بن عمرو فى اتفاق الحديبية، ذلك الاتفاق الذى رمى الرسول من ورائه تحقيق مكاسب سياسية عظيمة مقدما لذلك تنازلات ايضا عظيمة كسبها الجانب القريشي، ولكن الى حين، ذلك لان مجرد الابرام كان يعنى اعترافا قريشيا بدولة المدينة، كما ان براعة الرسول فى استثمار خرق قريش لاحد بنود الاتفاقية هيأ السبب للرسول لشق الطريق الى مكة فتحا بالسلاح وفى وقت كان فيه المسلمين اكثر استعداداً من أى وقت مضى.

واتفاقية «صلح الحديبية» تمخضت عن المعارضة الشديدة في رغبة المسلمين بدخول مكة للاعتمار(٢٣) وهذا الموقف قد انشأه المسلمين للوصول بالأزمة الى دائرة التفاوض والاتفاق.

غير أن قريشا حشدت نفسها لتحول دون محمد وجماعته والبيت. ووصل الأمر الى شفا القتال، اذ اعلن الرسول: «لانبرح حتى نناجز القوم(٢٤) وذلك عندما احتبست قريش مبعوثه اليها مما اسفر عن بيعة الرضوان.

وما كان للأتفاق ان يتم بين مكة والمدينة لولا شخصية سهيل بن عمرو.

فقد سبق ـ ومع نشوب الازمة ـ ان أرسلت قريش ثلاثة من رجالها للتفاوض على التوالي وهم: مكرز بن حفص ثم الحليس بن علقمة، ثم عروة بن مسعود الثقفي. ولم ينجح أي منهم في الوصول الى اتفاق مع الرسول بعثت قريش بسهيل بن عمرو والذى استبشر بمقدمه الرسول حين بدا من بعيد، ذلك لأنه كانت للرسول احكام وأوصاف قاطعة عن كل قادم من قريش في ذلك اليوم حال ظهوره في الافق بحكم العارف بدقائق مجتمعه، وبطبائع افراد وطرائق تفكيرهم.

فعندما بدا على البعد مكرز بن حفص قال الرسول لأصحابه: هذا رجل غادر، وقال عن الحليس بن علقمه: انه من قوم يتألهون ، ويعظمون الهدي.

وأبدى الرسول حلما وصبرا شديدين مع عروة بن مسعود الثقفي والذى كان فظا وغليظا في مخاطبة الرسول وأصحابه..

ولكن ما ان لاح سهيل بن عمرو في الأفق وتبينه الرسول حتى قال عنه والآن أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

والثابت ان قريشا لم تجد من الاتفاق بدا شريطة أن يبقي لها ماء وجهها. اذ عندما بعثوا سهيل بن عمرو الى رسول الله قالوا له: «ائت محمدا فصالحه، ولايكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لاتحدث العرب انه دخلها علينا عنوة أبداً.(٢٥)

ويتأكد ذلك من رد قريش على مبعوثهم الحليس بن علقمه عندما أشار عليهم بضرورة اتفاق مع محمد، فزجروه بقولهم له: «مه! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».(٢٦)

اذن فقد كان التكليف القريشي لسهيل ليقينهم بأنه الرجل الوحيد القادر على انتزاع اتفاق مشرف.

وبالفعل«..فلما أن انتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله تكلم فأطال الكلام ثم تراجعا ثم جرى بينهما الصلح».(٢٧)

وعلنا نهتدى ـ مما دار من حوار بين طرفي التفاوض ـ ما تحلى به سهيل بن عمرو من حضور تفاوضي وقانوني رفيع خاصة والقوم ازاء وثيقة تعاهد، كل كلمة فيها تفيد معنى وتنشئ الزاما. ويتجلى ذلك في عدة وقفات لسهيل نمت عن حصافة راكزة وبداهة واثية في الاحاطة بعلم التشريع وألمعية الحضور التفاوضي القانوني وذلك في مسار تسجيل التصالح واقراره.

فأولى هذه الوقفات عندما انبرى سهيل بن عمرو ليعارض محمد الرسول اختياره من يكتب نص الاتفاق فقد أمر الرسول عليه السلام أوس بن خولي بالكتابة.

ولكن سهيلا يعترض ويقول: «لايكتب الا ابن عمك علي، أو عثمان بن عفان»، فأمر الرسول عليا بالكتابة.

ان الحيطة في هذا الاعتراض المبكر من سهيل قد انبنت لسبب هام في نظر سهيل، وهو أن أوسا خزرجي يثربي من الانصار، وليس في مكانة عثمان أو علي من قريش، فضلا عن أن عليا هو ابن عم الرسول وتسنده هاشم. وعثمان ابن عمومة لهاشم وتسنده أمية.

وثانية الوقفات ترد عندما رأى الرسول استهلال نص التعاهد بجملة: «بسم الله الرحمن الرحيم» تصدى سهيل من فوره للعبارة وقال: لاأعرف هذا.(٢٨) ولكن اكتب باسمك اللهم...

لقد رمى سهيل من هذا الاعتراض ان يجنب قريشا شرور الاعتراف الضمني، ذلك لانه لو قدر للبسملة ولوج النص لكان ذلك اعترافا ضمنيا بالذات الالهية التي يدعو لها رسول الله محمد. وهي ذات الله الأحد الصمد والذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له

كفوا أحد(٢٩). فضلا عن ان ذلك يعنى الاعتراف الضمني بالقرآن والذى تتصدر سوره تلك البسملة. بينما عبارة باسمك اللهم(٣٠) مطلقة، اذ يمكن لأى من الطرفين الاعتقاد والدفع بأنها تعنى الاله الذي هو يعبده.

ويثب سهيل للمرة الثالثة ليحول دون تمرير عبارة _قال بها محمد _ فى صلب النص وهى القائلة: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» ويبنى سهيل سدا من المنطق بدفعه: «لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك(٣١) ولم أصدك عن البيت «بل اكتب: اسمك وأسم أبيك».(٣٢) ولعمرى ذلك أوج اليقظة والحضور فى لجة التفاوض ذلك لان الاقرار (بأن محمد رسول الله) فى وثيقة رسمية لايعنى الا التسليم بصحة ماجاء به محمد، وهذا هو مرتكز، وجوهر الخلاف بين المعسكرين المتفاوضين.

وعليه فقد نزل الرسول عند اعتراض سهيل ووافق على النص بعبارة: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو».(٣٣)

فإلى جانب تجنبه لنص يلزمه بالاعتراف، يكون سهيل بن عمرو قد احتفظ بالندية الكاملة لنفسه ولمعسكره فى المقابلة والمعاهدة..

وفى سبيل تحقيق الهدف القريشي فى البعد عن موقف المنكسر والظهور بمظهر القوى سعى سهيل بن عمرو ليضمن الاتفاقية شرطا ينص على أن السماح للمسلمين بالحج لايقع فى عامهم هذا بل فى الذى يليه ووفقا لما زود به من توجيهات وهى «...حتى لاتتحدث العرب بنا انا أخذنا ضغطة»(٣٤) وذلك كتأكيد للحوار الذى جرى بين محمد ووفد قريش برئاسة سهيل بن عمرو وعضوية كل من مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى: «ليصالحوه على أن يرجع عامه هذا»(٣٥).

كما تعزز هذا النص بشروط لازمة على ضوئها يتحقق الاعتمار وهى...(..وانه اذا كان عام قابل خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة (أى ثلاثة أيام) معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، والقوس، لاتدخلها بغيرها).(٣٦)

اذاً ثمة ثلاثة شروط نجح سهيل بن عمرو فى تضمينها فى بند من بنود الاتفاق وهي:

١) ان يتم الاعتمار فى العام القادم وليس فى عامهم ذاك.
٢) ان يقيموا ثلاثة أيام فقط فى الحرم المكي.
٣) ان يتزودوا فقط بسلاح الراكب وهو السيف المغمد والقوس المعلق.

ثم ينجح سهيل بن عمرو من جديد فى أن يدفع الى متن الاتفاقية نصاً شرطياً يضمن لقريش هيمنتها على معسكرها وذلك بالنص على: «من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم. ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه».

ورغم ان هذا النص أحدث امتعاضا(٣٧) اذ رأى فيه البعض لونا من التراجع امام قريش،ورأى بعض كبار الصحابة تمنعاً فى قبوله.

وعلى المدى الذى استغرقه الحوار والتدوين للاتفاقية كان سهيل بن عمرو يتأكد يقظة وحضورا.

فقد حدث _وعلى غير انتظار ان فوجئ الجميع بشاب من قريش يرسف فى الأغلال وينفلت تجاه الرسول ملقياً بنفسه فى رحاب الاسلام مؤمنا مصدقا.

كان ذلك الفتى هو ابو جندل بن سهيل بن عمرو «فلما رأى سهيل أبا جندل قام اليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه».(٣٨)

وهنا نشب موقف قانونى صعب، فالشاب فار من قريش بإسلامه يلتمس القبول فى المعسكر المسلم. وسهيل بن عمرو والرسول مازالا يضمنان الاتفاقية ماتوصلا اليه من اتفاق. والمسلمون _بشعور النصير_ تأخذهم الواقعة ويرجون الترحيب. فقال الرسول لسهيل: (انا لم نفض الكتاب بعد).

ولكن سهيل بن عمرو يعترض بقوله: (بلى، لقد لجت القضية بيني وبينك)(٣٩).

ولاشك فى أن سهيلا يشير بذلك الى ماتم الاتفاق عليه نصا بالزام محمد بإعادة من يأتيه من قريش بدون اذن وليه. وعليه فقد امتثل الرسول لاعتراض سهيل.

وبعد الانتهاء من تدوين الاتفاق مالبث سهيل أن اثار نقطة قانونية أكدت هي الأخرى ما تأهل به سهيل من حرص نابه عندما طلب ان يكون اصل وثيقة الاتفاق عنده. وقال الرسول: «بل عندي». وعندها أمر الرسول كاتبه محمد بن مسلمة بكتابة نسخة ثانية(٤٠) احتفظ بها الجانب المسلم.
وأخيرا ما كان لمثل ذلك الحضور الفذ ان يتوهج لولا تخصيبه بذلك القدر من الدراية والالمام التامين بطبائع وتقاليد ونفسيات وأنماط تفكير الافراد والجماعات في المجتمع الذى يعيشه سهيل بن عمرو..،
ففي حواره مع حويطب بن عبد العزى بعد توقيع الاتفاقية والنص بدخول خزاعة في حلف محمد، وبكر في قريش اذ قال حويطب لسهيل: «...بادأنا اخوالك (يعني خزاعة) بالعداوة وكانوا يستترون منا فدخلوا في عهد محمد وعقده فقال له سهيل: «ما هم الا كغيرهم هؤلاء اقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد، وعقده فقال له سهيل: قوم اختاروا لانفسهم أمراً فما نصنع لهم؟؟ قال حويطب: ..نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر، قال سهيل: اياك ان يسمع هذا منك بنو بكر فانهم اهل شؤم فيسبوا خزاعة، فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه.(٤١)
وكما أشرنا فإن نفوذ سهيل بن عمرو ودبلوماسيته قد امتدت الى ما بعد وفاة النبي(ص) . وكان وقتها قد دخل الاسلام.
فقد حدث أن هاج أهل مكة عند الذى بلغهم من وفاة الرسول(ص) فتصدى سهيل للعاصفة متحدثاً اذ قال:
«أيها الناس ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يمت، وقد علمتم أني اكثركم قتباً في بر، وجارية في بحر، فأقروا أميركم، وانا ضامن ان لم يتم الامر ان اردها عليكم. فسكن الناس».(٤٢)
وذلك يعني ان سهيلا كان يتكلم وهو لم يزل يرتكز على دعامة مالية ضخمة.
وثمة حادثة أخرى برواية ابن هشام اذ قال: « فلما توفي رسول الله همّ أهل مكة بالرجوع عن الاسلام وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد (وكان والياً على مكة فتوارى. فقام سهيل بن عمرو ..وذكر وفاة الرسول وقال ان ذلك لم يزد الاسلام الاقوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس وكفوا عما هموا به، وظهر عتاب.(٤٣)

وذلك يعني علو شأن سهيل ونفوذه فهو ضامن لأموال الناس، كما عني موقفه أنه على الصعيد السياسي أشد قوة ونفوذاً من والي مكة نفسه.
وفي ذلك صدقت فراسة الرسول(ص) حين إمتنع عن خلع ثنيتي سهيل وحين قال: فقد يقف مقاماً تحمده.
وتتواصل النظرة الموضوعية الحكيمة للأمور كما يشهد بذلك موقف له في عهد عمر. اذ هو الذى قال يوم خرج آذن عمر وهو بالباب وعيينة بن حصن، والاقرع بن حابس وفلان وفلان، فقال الآذن: اين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ فتمعرت وجوه القوم، فقال سهيل: لم تتمعر وجوهكم؟ دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة اكثر.(٤٤)
ونلخص -في الختام- من هذه الدراسة الى تأكيد تصورنا بأن وصف شخصية سهيل بن عمرو: (خطيب قريش) كما يرد في الأدب العربي هو وصف يفتقر الى نصوص من خطبه كما ان ذلك الوصف المجرد تفوقه جوانب اخرى في شخصية سهيل مثل الحضور التفاوضي والدبلوماسية الرفيعة الحاذقة.

الهوامش

(١) يعرفه ابن هشام بأنه: «سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لوعى. (السيرة النبوية لابن هشام تحقيق د. محمد فهمي السرجانى المجلد الاول _الجزء الثانى _ دار التوفيقية للطباعة _ القاهرة ١٩٧٨ ص ٥٧٢ ويعرفه الجاحظ بانه: سهيل بن عمرو الاعلم، أحد بنى حسل بن معيص وكان يكنى أبايزيد، وكان عظيم القدر، شريف النفس ...وهو الذى تولى امر الصلح بالحديبية، وكان من المؤلفة قلوبهم...مات بالطاعون سنة ثمان عشرة). الجاحظ البيان والتبيين. المجلد الاول ٣ _٢ط/٤ _ بيروت (بدون تاريخ) ص٥٨ (تحقيق فوزى علوى).

(٢) انظر رأى جواد على: المفصل فى تاريخ العرب. ج _٨.ط/١ _ بيروت ١٩٧١ ص٧٣٤.

(٣) الشعشاع : الطويل الحسن.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية مجلد ٢/١. ط/٢ _القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٤٩ _ ٤٥٠.

(٥) نفسه : ص٣٨١.

(٦) سليط: هو اخو سهيل بن عمرو، وكان من المهاجرين الاولين، وهو الذى بعثه (صلعم) الى هوذة بن على الحنفى. والى ثمامة بن آثال الحنفى وهما رئيسا اليمامة وذلك فى سنة ست أو سبع وقتل سنة ١٤ هـ.(سيرة بنى هشام ج٢/١ ص٢٥٦.

(٧) حاطب: وهواخو سهيل وسليط والسكران ابناء عمرو، وقد اسلم حاطب قبل دخولهم (صلعم) دار الارقم. وقد هاجر الى الحبشة الهجرتين جميعا (نفسه ص ٢٥٩) .

(٨) سيرة ابن هشام م/٣/٤ _الصفحات ٣٢٤ _٣٢٥ ابن يزيد: كنية سهيل بن عمرو: الثماد : الماء القليل.

(٩) نفسه: ص ٣٩٨.

(١٠) ابن هشام: م/١/٢ ص ٦١٧.

(١١) على بن برهان الدين الحلبي: انسان العيون فى سيرة الامين المأمون ج٢ _ط/١ _ القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٧٩.

(١٢) كان مكرز بن حفص احد الذين بعثت بهم قريش لمفاوضة الرسول يوم الحديبية ولكن شروطه لم تسفر عن اتفاق.

(١٣) ازواد: جمع زود وهو من الابل ما بين الثلاث الى العشر.

(١٤) الصميم الخالص النسب.

(١٥) الاعلم: المشقوق الشفة العليا. اما المشقوق الشفة السفلى فهو الأفلح.

(١٦) ثنية: جمعها: ثناياوهى اسنان مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من اسفل (قاموس المنجد _باب الثاء) الطبعة العاشرة. بيروت ١٩٦٦.

(١٧) انظر ابن هشام:السيرة النبوية القسم الاول، الطبعة الثانية _القاهرة ١٩٥٥ _ ص٦٤٩. وكذا الجاحظ البيان والتبيين م/١/٢ ص٥٨.

(١٨) على برهان الدين الحلبي: انسان العيون فى سيرة الامين _المأمون الشهيرة بالسيرة الحلبية _ الجزء الثانى ط/١ _القاهرة ١٩٦٤ _ ص٤٥٥.

(١٩) نفسه : ص٤٥٥.

(٢٠) الجاحظ : البيان والتبيين تحقيق فوزى عطوى م/١/٢ ص٣١٧.

(٢١) الدكتور احسان النص : الخطابة العربية في عصرها الذهبي. دار المعارف ط٢ _القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٣.

(٢٢) نفسه : ص٢١.

(٢٣) كان بديل بن ورقاء قد جاء الى الرسول فى الحديبية، وأخبره باستعدادات قريش للقتال حين علمت بمقدم الرسول للحديبية فأخبره الرسول : انا لم نأت لقتال احد، وانما جئنا معتمرين.

(٢٤) نناجز : نقاتل.

(٢٥) محمد ابو الفضل _البجاوى : أيام العرب فى الاسلام _ ط _٣ _القاهرة ١٩٦٣ ص٨٣.

(٢٦) سيرة ابن هشام القسم الثانى ط٢ _القاهرة١٩٥٥ ص٣١٦ _ وكذا ايام العرب فى الاسلام ط٣ ص٨٣.

(٢٧) نفسه. وكذا ابن الاثير الكامل فى التاريخ: المجلد الثاني_ بيروت _ ١٩٧٨ _ ص _ ١٣٨.

(٢٨) ابن الاثير يورد العبارة فى صيغة الجمع: (لاتعرف هذا) . المرجع السابق ص ٢٠٤.

(٢٩) ما تفيده سورة الاخلاص وهى مكية.

(٣٠) لان اسم الجلالة _تحديداً وتعريفاً _ «بالرحمن الرحيم» هو بلا شك رب المسلمين. وصاحب السيرة الحلبية يؤرخ للبسملة بقوله: «كان اهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، وتقدم انه كتب ذلك فى أربع كتب حتى نزلت (باسم الله مجرها ومرساها) فكتب باسم الله.ثم نزلت (أدعو الله او ادعو الرحمن) فكتب باسم الله الرحمن، ثم نزلت: (انه من سليمان وانه باسم الله الرحمن الرحيم) أى فكتبها. وهذا السياق يدل على أن تأخر نزول الفاتحة من هذه الآيات. لان البسملة نزلت اولها، وتقدم الخلاف فى وقت نزولها. (انظر: انسان العيون _السيرة الحلبية ٧٠٧).

وقال الرازى: كانت العرب تكتب فى صدر كتبها: باسمك اللهم، وتكتب فارس باسم ولى الرحمة والهدى، (انظر السلوك فى طبقات الملوك.تحقيق الاكوع.ج١ط١ _أغسطس ١٩٨٣ _بيروت).

(٣١) وابن الاثير _مرة اخرى _ يورد تلك العبارة بالجمع فيقول «لو نعلم انك رسول الله لم نقاتلك» _المجلد٢ _ بيروت ١٩٧٨م ص ٢٠٢.

(٣٢) انظر سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية: باب ذكر يوم الحديبية وكذا : محمد ابو الفضل، وعلى البجاوى: أيام العرب فى الاسلام _ط _٣ _القاهرة ١٩٦٨ ص٨٤.

(٣٣) نفس المرجع السابق.

(٣٤) السيرة الحلبية ج _٢ ص ٧٠٦.

(٣٥) نفسه ص ٧٠٥.

(٣٦) السيرة الحلبية ج _٢ ص٧٠٩ وسيرة ابن هشام ج _٢ ص٣١٧.

(٣٧) عون الشريف قاسم: دبلوماسية محمد _قسم التأليف والنشر_ جامعة الخرطوم _ الخرطوم (بدون تاريخ) ص٥٢.

(٣٨) انظر أيام العرب فى الاسلام ص ٨٥.

(٣٩) انظر السيرة الحلبية ج _٢ ص٧١٠ _ وكذا ابن الاثير: الكامل فى التاريخ _م/٢ حيث يذكر الآتى:

«فلما رأى سهيل بن عمرو آبا جندل اخذه وقال: يا محمد تمت القضية بينى وبينك قبل ان ياتيك هذا. قال: صدقت، وأخذهليرده الى قريش.

(٤٠) السيرة الحلبية ج/٢ ص ٧١١.

(٤١) نفسه ص ٧١٢.

(٤٢) الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق فوزى عطوى م/١/٢ ص ١٦٧ _١٦٨.

(٤٣) علي وناجي الطنطاوي: اخبار عمر واخبار عبد الله بن عمر دار الفكر _ط _٣ بيروت ١٩٧٣ ص٣١.

(٤٤) الجاحظ : البيان والتبيين _بيروت ١٦٨ _١٦٨.

الأبحاث التأريخية الجادة تضيف أبعاداً جديدة لأحداث الماضي.

الأبعاد العسكرية والسياسية
لمعارك تحرير خيبر
دراسة في التاريخ العسكري

الدكتور هاشم الملاح
كلية الاداب/ جامعة الموصل

تعتبر المعارك الحربية التي خاضها العرب بقيادة الرسول(ص) من أجل تحرير خيبر من التسلط اليهودي من المعارك الخطيرة في تاريخ الامة العربية وذلك لسببن رئيسين هما:

١. طبيعة الخطط الحربية التي اتبعها الرسول (ص) في حصار وفتح قلاع خيبر المنيعة، مما يغني العقيدة العسكرية العربية بكثير من الدروس.

٢. إن الاثار العسكرية والسياسية التي ترتبت على تحرير خيبر كانت كبيرة، اذ انها أدت الى تصفية الوجود السياسي والعسكري لليهود في جزيرة العرب، وساعدت على تشتت وخضوع جميع القوى المعارضة للرسول (ص) مما أدى الى نجاحه في تحقيق وحدة الامة العربية في دولة واحدة.

حول الموقف السياسي العام:

لقد سعى الرسول محمد (ص) طوال حياته نحو تحقيق هدفين سوقيين هما نشر عقيدة التوحيد بين الناس وتحقيق وحدة الامة العربية على الارض(١). وقد توسل لتحقيق هذين الهدفين في البداية بالوسائل السلمية عملا بقوله تعالى «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»(٢).

غير ان زعماء المشركين في مكة «رجال الملآ» تصدوا لمعارضة الرسول (ص) لانهم أدركوا ان الاهداف التي يعمل على تحقيقها تتعارض مع مصالحهم الاقتصادية والسياسية وتؤثر على مكانتهم الاجتماعية والدينية(٣). ولم يكتف رجال الملآ بمعارضة الدعوة عن طريق الحجة والبرهان بل لجأوا الى استخدام وسائل الضغط الادبية والمادية لمنع انتشارها مما اضطر الرسول(ص) الى الهجرة الى المدينة حيث نجح في اقامة دولة فيها لتكون

قاعدة راسخة ينطلق منها لتحقيق اهدافه(٤).
وقد وجد الرسول (ص) ان الوسائل السلمية لم تعد كافية لتحقيق الاهداف التي يسعى لتحقيقها لان خصومه قد لجأوا الى القوة والاكراه لمقاومة الدعوة كما ان نجاحه في تأسيس دولة في المدينة قد يسر عليه سبيل بناء قوة مسلحة لاستخدامها في التصدي لاعدائه وتصفية قوتهم العسكرية(٥). لذا فقد أذن الله للرسول (ص) بالقتال بقوله: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير..».

لقد عمل الرسول (ص) على تقوية وتوسيع دولته الناشئة عن طريق كسب الاتباع والمؤمنين الجدد بدعوته كما سعى الى عقد المحالفات مع القبائل العربية التي تقيم على الطريق ما بين مكة والمدينة مثل قبيلة جهينه وبني ضمره وبني مدلج من أجل تأمين دولة المدينة من الاعتداءات الخارجية وقطع الطريق على تجارة مكة المتجهة نحو الشمال. اما قوى المعارضة لدعوته فكان يسعى لتفريقها واخضاعها عن طريق الضغط احيانا والتلويح بالقوة احيانا اخرى. وعند الاضطرار كان يلجأ الى القتال لحسم الموقف مع اعدائه(٧).

لقد تألفت المعارضة للدعوة الاسلامية في البداية من مشركي قريش وبعض القبائل البدوية المتحالفة معهم. ثم انضمت اليهم القبائل اليهودية التي بدأت تشعر بخطورة الدعوة والدولة الاسلامية على كيانها وخصومها بعد هزيمة المسلمين لقبيلة قريش في معركة بدر. وهكذا وجدت الدولة الناشئة نفسها تحارب على جبهتين:

١. جبهة مشركي مكة وحلفائهم من القبائل البدوية.

٢. جبهة اليهود وحلفائهم من ابناء القبائل العربية(٨).

واذا كانت الحرب مع مشركي قريش وحلفائهم قد اتسمت بالصراحة والوضوح فأن حرب الرسول(ص) مع اليهود قد اتسمت بكثير من الصعوبات والتعقيد وذلك للاسباب الاتية:

١. لقد كان يعيش في مدينة الرسول نفسها ثلاث قبائل يهودية هي بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظه. وكان لهذه القبائل علاقات تحالف مع قبيلتي الاوس والخزرج اللتين تألف منها الانصار..وقد استطاع اليهود التعاون مع المنافقين من أهل المدينة في مقاومتهم السرية والعلنية للرسول(ص).. وبذلك شكلوا «رتلا خامسا». ظل يهدد الجبهة الداخلية بالخطر حتى تمت تصفيتهم نهائيا بعد غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة(٩).

٢. لقد كانت هناك عدة مستعمرات يهودية الى الشمال من المدينة مثل خيبر وفدك وتيماء. وكان يهود هذه المستعمرات يرتبطون بعلاقات تحالف متينة مع بعض القبائل وعلى الخصوص قبيلة غطفان البدوية القوية. ويلاحظ ان مدينة خيبر قد تحولت الى ملجأ ليهود بني قينقاع وبني النضير الذين اجلاهم الرسول (ص) عن المدينة(١٠) وبذلك تحولت الى مركز للحاقدين والتآمرين على الرسول (ص) والدعوة الاسلامية.

لقد نجح زعماء يهود بني النضير المقيمين في خيبر في اقامة تحالف عسكري بين قبيلة قريش وحلفائها واليهود المقيمين في خيبر وحلفائهم من غطفان وغيرهم بحيث بلغ عدد القوة التي شكلتها (الاحزاب) عشرة آلاف مقاتل..وقد تمكنت هذه القوة من فرض الحصار على المسلمين في المدينة لمدة خمسة عشر يوما.. ولولا نجاح المسلمين في حفر الخندق امام المدينة وقيام الرسول (ص) باستخدام كافة الوسائل الحربية والدبلوماسية بنجاح في تفريق وتخذيل اطراف التحالف لتمكن هذا التحالف من القضاء على الرسول ودولته في المدينة(١١).

وهكذا نلاحظ ان خيبر قد غدت منذ معركة الخندق هي العدو الاول لدولة المدينة باعتبارها مركز لتجمع القوى الحاقدة والمحرضة على حرب الرسول (ص) والدعوة الاسلامية في الوقت الذي تراجعت فيه مكة الى المركز الثاني نتيجة للهزائم والاخفاقات المتلاحقة التي اصابتها نتيجة لحروبها مع دولة المدينة لذلك قد غدا من الواجب توجيه كافة الجهود السياسية والعسكرية نحو تصفية الوجود العسكري لخيبر واخضاعها لسلطة الدولة

العربية الاسلامية(١٢).
ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان من الضروري العمل على عزل مكة عن خيبر واتخاذ الخطوات الضرورية لمنعها من تقديم أي عون لخيبر في حالة توجه الرسول (ص) اليها لمحاربتها واخضاعها.

صلح الحديبية والتمهيد لتحرير خيبر:

لقد حاول الرسول (ص) استغلال الاثرالنفسي الذي خلفه اخفاق قريش وحلفائها من اليهود والبدو في غزو المدينة فسعى الى فصم عرى هذا التحالف عن طريق التقرب من قريش والاعلان عن عزمه على زيارة المسجد الحرام بأعتباره مكانا مقدسا بالنسبة للمسلمين كما هو بالنسبة العرب المشركين. وقد صحب الرسول (ص) في زيارته لمكة ١٤٠٠ من اتباعه. غير ان قريش منعت المسلمين من دخول مكة لانها في حالة حرب معهم وقد خشيت ان يفسر سماحها للمسلمين بزيارة الكعبة بأنه نوع من الرضوخ لارادة الرسول (ص). وبعد مفاوضات مطولة توصل الرسول (ص) الى اتفاقية كان من أهم بنودها اعلان الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وعلى حرية كلا الطرفين في التحالف مع من يشاء من العرب وعلى ان يسمح للمسلمين بزيارة الكعبة في موسم الحج القادم(١٣). وبذلك نجح الرسول (ص) في فصم عرى التحالف بين مكة وخيبر وضمن وقوف مكة على الحياد في صراعه المرتقب ضد التجمع اليهودي في خيبر.
لقد قابل المسلمين صلح الحديبية بعدم الارتياح في البداية لانهم كانوا يجهلون الهدف السوقي الذي يقف وراء موقف الرسول (ص) المرن من قريش وظنوا ان ذلك قد يفسر بأنه نوع من الضعف والرضوخ لارادة قريش ولكن الرسول (ص) تابع موقفه بجزم ولم يحاول الكشف عن الهدف الرئيسي الذي توخاه من وراء هذا الصلح لان من شأن كشف هدفه ان يفقد خططه في الهجوم على خيبر عنصر المفاجأة ويمنح اعداءه فرصة الاستعداد لملاقاته في ظروف مواتية لهم.

لقد أدى صلح الحديبية مع قريش الى ضمان وقوف مكة على الحياد في صراع الرسول (ص) الرتقب مع اليهود في خيبر. وكان ذلك امرا في منتهى الاهمية بالنسبة للمدينة التي تقع بين مكة جنوبا وخيبر شمالا ومن ثم فأن من شأن تعاون مكة وخيبر ضد المسلمين في المدينة ان يضعهم بيبن فكي كماشة اثناء الحرب.

جغرافية منطقة خيبر:

لقد ساهمت الطبيعة الجغرافية لمنطقة خيبر في توجيه خطط الرسول الحربية في مواجهة اعدائه على ساحة المعركة ومن ثم كان من الضروري تقديم وصف لجغرافية المنطقة لنتمكن من فهم سير المعارك الحربية وطبيعتها.
تعتبر خيبر واحة، تقع على الطريق ما بين المدينة والشام على مسيرة مائة ميل من المدينة. وترتفع عن مستوى سطح البحر بـ ٢٨٠٠ قدم. وقد وصف دوتي الذي مكث في خيبر حوالي خمسة أشهر ما بين عامي ١٨٧٧ ـ١٨٧٨م هذه الواحة بقوله: ((انها مجموعة من الوديان الفسيحة الكثيرة المياه، مجتمعة على هيئة جريدة النخل على حافة الحرة، وتسير جميعا بحيث تلتئم في واد كبير واحد. وهذه الوديان اغوار في منطقة الحرة تحتها طبقة من الحجر الرملي. وحيثما برزت هذه الطبقة اصبح لها لون حائل، لها منظر الشئ المحروق)).
ان الوصف الذي قدمه دوتي لخيبر، لايبعد كثير عن اوصاف الجغرافيين العرب القدماء لها، فقد ذكروا انها ((ولاية كثيرة الخصب، غنية بنخيلها وحقول قمحها الوافر الغلة)).
ويبدو ان يهود خيبر لم يكونوا يشكلون كتلة واحدة متماسكة تعيش في مكان واحد، بل كانوا متفرقين في اودية خيبر المتجاورة حيث كانت كل جماعة تحتل بعض المنازل الحصينة وسط بساتين النخيل وحقول القمح الغنية. وكان لكل موقع من هذه المواقع او الحصون اسمه الخاص. وقد ذكر المؤرخون العرب انها كانت سبعة حصون، هي حصن نعيم وحصن ابي الحقيق وحصن الشق وحصن النطارة

وحصن السلالم وحصن الوطيح وحصن الكتيبة(١٤).

ان توزيع اليهود في الوديان وسكنهم في عدة مواقع لم يكن مواتيا من الناحية العسكرية وهو يشكل ثغرة كبيرة في قدرتهم على الدفاع عن انفسهم في حالة تعرضهم للهجوم. ولكن الروايات التاريخية التي توردها مصادرنا التاريخية تشير الى ان يهود خيبر كانوا راضين عن قوتهم وتحصيناتهم الدفاعية. فقد ذكر الواقدي ان يهود خيبر كانوا ((لايظنون ان رسول الله (ص) يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، كانوا يخرجون كل يوم عشرة الاف مقاتل صفوفا ثم يقولون محمد يغزونا؟ هيهات هيهات))(١٥).

ورغم ان النص الذي يورده الواقدي حول عدد يهود خيبر وقوتهم يحتمل المبالغة لانه جاء في سياق افتخار اليهود بأنفسهم الا ان الباحث ليس لديه الادلة الكافية لرفضه لان الواقدي قد أكده في اكثر من موضع(١٦). اما المصادر التاريخية المعتمدة الاخرى مثل سيرة ابن هشام وفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري فأنها لم تورد شيئا عن عدد يهود خيبر(١٧). ومن ثم يبقى ما اورده الواقدي حول عددهم (عشرة الاف مقاتل) هو المعتمد حتى يظهر ماينقضه.

استعدادات الرسول (ص) للحملة على خيبر:

يبدو ان الرسول (ص) كان يدرك مدى قوة خيبر ويعلم جيدا مدى عظم الفارق بين عدد قواته الذي لم يزد في غزوة الحديبية على ١٤٠٠ مقاتل وبين عدد مقاتلي خيبر الذي قدر بعشرة الاف مقاتل عدا حلفاء اليهود من غطفان وغيرهم. لقد كان الرسول(ص) يعتمد على نوعية الرجال الذين يقاتلون معه وايمانهم العميق بالقضية التي يجاهدون من اجلها، لذلك أعلن قبل بدء الحملة: ((لايخرجن معنا الا راغب في الجهاد)) (١٨). واعتذر عن قبول انضمام الاعراب الذين تخلفوا عن الالتحاق في غزوة الحديبية والان جاءوا يريدون القتال الى جانبه ضد خيبر طمعا في المكسب والغنيمة(١٩).

وهكذا فقد خرج الرسول (ص) من المدينة في مطلع السنة السابعة للهجرة، في شهر محرم على أرجح الروايات(٢٠). على رأس جيش من المؤمنين مؤلف من حوالي ١٤٠٠ رجل ومعهم ٢٠٠ فرس متوجهين نحو خيبر وقد اخذوا معهم دليلين من قبيلة أشجع ليدلوهما على الطريق يقال لأحدهما حسيل بن خارجه والاخر بعد الله بن نعيم(٢١). وقد حرص الرسول (ص) على ان يضلل اعداءه عن هدفه الحقيقي من الخروج ((فعمى الله عليهم مخرجه الا بالظن حتى نزل رسول الله (ص) بساحتهم ليلا)) على حد تعبير الواقدي(٢٢).

الموقف العسكري لكلا الطرفين:

١. اليهود :

لقد اتسم موقف اليهود الحربي من الرسول (ص) بالتذبذب وعدم القدرة على اتخاذ موقف محدد في ميدان الصراع رغم انهم كانوا قد اختاروا موقف المناوءة والعداء للرسول (ص) وللدعوة الاسلامية فبعد فشل الاحزاب في حصار المدينة وقيام الرسول (ص) بمعاقبة يهود بني قريظة على غدرهم به اثناء القتال اجتمع يهود بني خيبر وسألوا زعيمهم سلام بن مشكم عما يمكن عمله لمواجهة الرسول (ص). فأجابهم: ((وما تصنعون برأي لاتأخذون منه حرفا؟...)) ثم قال لهم أرى ان: ((نسير اليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولانستعين باحد من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق ماصنعت بكم العرب بعد ان شرطتم لهم تمر خيبر، نقضوا ذلك وخذلوكم..)) فعارضه كنانه احد زعماء اليهود بقوله: ((اني قد خَبِرْتُ العرب فرأيتهم اشداء عليه، وحصوننا هذه ليست مثل ماهناك _حصون بني قريظة _ ومحمد لايسير الينا ابدا لما يعرف _عن قوتنا _ فقال سلام بن مشكم: ((هذا رجل لايقاتل حتى يؤخذ برقبته))(٢٣).

ويلاحظ انه كانت ليهود خيبر عيون من يهود المدينة يتجسسون لهم ويكتبون لهم عن تحركات الرسول (ص) فكتبوا الى كنانة بن ابي الحقيق زعيم اليهود في خيبر يخبرونه بقلة عدد جيش المسلمين وضعف تجهيزاتهم الحربية ويحثون على قتل المسلمين والتنكيل بهم(٢٤).

ويبدوا ان يهود خيبر قد اتخذوا بعض الاجراءات الحربية استنادا الى المعلومات التي تجمعت لديهم لمواجهة الرسول (ص) وان كانت لم ترتفع الى مستوى متطلبات الموقف وخطورته وربما كان ذلك بسبب اعتمادهم المفرط على قوة تحصينات مدينتهم(٢٥).

وكانت اهم الاجراءات التي قام يهود خيبر باتخاذها هي:

١) اتفق يهود خيبر مع قبيلة غطفان البدوية المقيمة قربهم بأن تقوم بمناصرتهم في الحرب ضد الرسول (ص) على ان يدفع لها اليهود نصف محصولهم من التمر لذلك العام(٢٦). وكانت لغطفان قوة عسكرية تقدر بحوالي اربعة الاف رجل(٢٧).

٢) كلف اليهود احد الاعراب بأن يتوجه الى الطريق الذي يتوقع ان يمر فيه جيش المسلمين ليحصل لهم معلومات عن مدى قوة المسلمين ثم يقوم بأعطاء صورة مبالغ فيها عن قوة اليهود للمسلمين في حالة سؤالهم له عن خيبر وأحوالها من أجل ادخال الخوف والرعب الى نفوسهم. ولكن المسلمين تمكنوا من القاء القبض على هذا الاعرابي فأعترف لهم بحقيقة المهمة المكلف بها من قبل اليهود واطلع المسلمين على مدى الخوف والرعب الذي يعيشون في ظله(٢٨).

٣) لقد نظم اليهود بعض الكتائب التي تقوم بحراسة خيبر ليلا، فكانوا يقومون كل ليلة قبل الفجر فينبسون السلاح ويصفون الكتائب(٢٩). خشية ان يباغتهم جيش الرسول (ص) بالهجوم.

٢. موقف المسلمين :

لقد كانت معنويات المسلمين عالية وهم يتوجهون نحو تحرير خيبر من التسلط اليهودي وربما كان ذلك راجعا الى نزول آيات من القرآن الكريم في طريق عودتهم من مكة بعد صلح الحديبية تبشرهم بفتح قريب: ((لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما))(٣٠).

لذا فقد بشر الرسول (ص) احد اصحابه الفقراء وهو في طريقه الى خيبر بقوله: ((انت والله يا أبا عبس واصحابك من الفقراء والذي بنفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلا ليكثرن زادكم، وليكثرن ما تتركون لاهليكم..))(٣١). ان ثقة الرسول (ص) واصحابه بنصر الله لهم لم تحملهم على التواكل والقصور، بل انها دفعتهم لمضاعفة الجهد واستكمال كافة شروط النصر.

وكانت اهم الخطوات التي اتخذها الرسول (ص) في هذا المجال ما يلي:

١) حاول الرسول (ص) ان يقطع المسافة الفاصلة بين المدينة وخيبر بسرعة قياسية من أجل مفاجأة خصومه بالهجوم وذلك لان اليهود كانوا يتوقعون مسير الرسول (ص) بقواته اليهم الاانهم لم يكونوا يعلمون موعد هذا المسير ولاكيفيته(٣٢).

٢) لقد عمل الرسول (ص) على اذكاء حماس جنوده اثناء توجههم للقتال عن طريق حث عامر بن سنان وهو احد الشعراء الذين كانوا يرافقونه في هذه الحملة بأن ينشد احدى اراجيزه الحماسية

فأنشأ يقول:

اللهم لولا انت ما اهتدينا
ولاتصدقنا ولاصلينا
فألقين سكينة علينا
وثبت الاقدام ان لاقينا
انا اذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا(٢٣)

٣) وحينما وصلت قوات المسلمين مشارف خيبر دعا الرسول(ص) الدليلين اللذين اصطحبها معه وقال لاحدهما ((حسيل)): (امض امامنا حتى تأخذنا صدر الاودية حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان)(٣٤). لقد كان هدف الرسول من هذه

الخطوة هو ان يضع قواته بين خيبر وحلفاء اليهود من غطفان وغيرهم من القبائل اليهودية في الشمال كي يمنعهم من تقديم اية معونة الى خيبر اثناء المعركة. وهو اجراء حكيم من الناحية التعبوية واثبتت وقائع الحرب فيما بعد فوائده من حيث حرمان يهود خيبر من تلقي المساندة من قبل حلفائهم(٣٥).

٤) ثم قام الرسول (ص) بأرسال قوة لاستطلاع المنطقة بقيادة عباد بن بشر وقد استطاعت هذه القوة ان تأسر احد عيون اليهود من قبيلة اشجع فأتت به الرسول (ص) فأعترف بالمهمة الموكلة اليه من قبل يهود خيبر ثم اجاب الرسول على استفساراته وزوده بالمعلومات التي طلبها(٣٦).

٥) لقد وصل الرسول (ص) خيبر ليلا ونزل بين حصون خيبر وبساتين النخيل فيها دون ان يشعر اليهود بوصوله، فلما اصبح الصباح جاءه الحباب بن المنذر بن الجموح من الانصار وكان خبيرا بالمنطقة فسأل الرسول (ص) ان كان اختياره لهذا المكان صادرا عن أمر من السماء ام هو اجتهاد منه فأخبره الرسول (ص) بأنه اجتهاد منه في أمر من أمور الحرب. فقام الحباب بأخبار الرسول ان اختيار هذا المكان ليكون ميدانا للمعركة ليس مناسبا للاسباب الاتية:

أ. انه يقع بين حصن النطاة وبين بساتين النخيل والمستنقعات مما قد يضع قوات المسلمين بين كماشة لو استطاع اليهود ان ينقلوا بعض مقاتليهم للقتال في البساتين مستفدين من الغطاء الذي توفره الاشجار لمقاتليهم.

ب. ان حصن النطاة يقع في مكان مرتفع بالنسبة للموضع الذي عسكرت فيه قوات المسلمين وبذلك سيقعون تحت رحمة النبال التي سيرميهم بها اليهود من الحصن.

ج. نظرا لكثرة الرطوبة والنز في هذا المكان فأنه يعتبر موضعا موبوءاً من الناحية الصحية، ربما لكثرة البعوض والحشرات التي تعيش فيه(٣٧).

لقد اقتنع الرسول (ص) بالعرض الذي قدمه الحباب بن المنذر فدعا محمد بن مسلمة فقال: (انظر لنا منزلا بعيدا من حصونهم، بريئا من الوباء، نأمن فيه بياتهم)(٣٨). ومع ذلك فقد اضطر الرسول (ص) أن يبدأ خوض المعركة في صباح ذلك اليوم من نفس المكان غير الملائم الذي عسكر فيه ليلا لصعوبة نقل قواته قبل اختيار المكان المناسب حيث ان اليهود ما كادوا يخرجون صباحا يحملون ((المساحي والكرازيل والمكاتل)) للعمل في مزارعهم حتى فوجئوا بجيش المسلمين معسكرا امام حصونهم فولوا هاربين الى حصونهم وهم يتصايحون «محمد والخميس» أي محمد ومعه جيشه عند ذلك بدأت المعركة بين الطرفين(٣٩).

خطط المعركة لكلا الطرفين

خطة اليهود :

لقد اعتمد اليهود اسلوب الدفاع في القتال مستفدين من موقع مدينتهم المرتفع المحاط بسلسة من الحصون المنيعة. وكانت هذه الحصون تمتاز بعدة مزايا منها:

أ. ان هذه الحصون كانت حصون مركبة لكل منها اكثر من جدار ((جدر دون جدر))(٤٠) مما كان يتيح للمدافعين فرص الانتقال في الدفاع عن الحص الواحد من جدار الى جدار آخر في حالة حصول اختراق في احد الجدران.

ب. ان حصون خيبر كانت تتوزع على ((ثلاث مناطق حربية، منطقة الكتيبة ومنطقة الشق ومنطقة نطاة، وكل منطقة من هذه المناطق عبارة عن مجموعة من الحصون وكانت منطقة مطاة اقواها وامنعها))(٤١).

ج. كانت حصون خيبر كبيرة وواسعة فقد كان في حصن الصعب بن معاذ وهو أحد حصون النطاة خمسمائة مقاتل اضافة الى تجهيزاتهم من ((الطعام والودك والماشية والمتاع))(٤٢).

د. لقد كانت حصون خيبر مجهزة بشكل جيد بكل مستلزمات الصمود لفترة طويلة في وجه الحصار من سلاح ومؤن غذائية وماء(٤٣).

على ضوء ما تقدم رسم اليهود خطتهم الدفاعية على

اساس ان يتجمع المقاتلة في حصون نطاة للدفاع عن خيبر وان يضعوا الذخائر والمؤونة في حصن ناعم وان يجمعوا اموالهم وعيالهم في حصني الوطيح والسلالم(٤٤).

خطة المسلمين :

لقد اعتمد الرسول (ص) في قتال خيبر مبدأ التعرض والهجوم على الخصم. وقد كانت خطة الهجوم تسير في شعبتين :

أ. توجهت الشعبة الاولى نحو غطفان حلفاء اليهود لمنعهم من نجدة خيبر اثناء الهجوم.

ب. وتمركزت الشعبة الثانية وهي الرئيسية حول حصون نطاة حيث يوجد الثقل الاساسي لمقاتلة اليهود.

وتتلخص خطة الرسول في الاستيلاء على حصون خيبر بتوجيه القوة الاساسية لقواته لمهاجمة احد الحصون في الوقت الذي يشاغل الحصون الاخرى بقوات صغيرة لمنعها من نجدة بعضها البعض اثناء القتال، حتى اذا تم له تحقيق هدفه في الاستيلاء على الحص وجه قواته الرئسية الى حصن آخر.

اما خطته في ادارة قواته اثناء المعركة فقد قسمها الى اقسام حسب القبائل والبطون التي تنتمي اليها وجعل لكل قسم قائد من اجل اذكاء روح المنافسة بين المحاربين اثناء القتال. وقد لوحظ ((ان هذه الخطة تتفق مع أحدث الخطط العسكرية الحديثة في قتال المدن والاحراش. ولو ان الرسول قام بالقتال بأسلوب الكر والفر او بأسلوب الصفوف في مثل هذا الموقف لما كتب للمسلمين النصر على اليهود))(٤٥).

سير المعركة :

لقد اعلن الرسول (ص) بدء الهجوم على خيبر بمجرد ان اكتشف اليهود عند الصباح وجود قواته امام حصونهم بقوله: ((الله اكبر، خرجت خيبر، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين))(٤٦).

ثم وجه شعبة من قواته نحوغطفان لادخال الرعب في قلوبهم لمنعهم من ارسال العون والعدد الى خيبر. وقد تمكنت القوة التي توجهت الى غطفان من ايهام هذه القبيلة بأن الهجوم الرئيسي متجه اليها وان قوة من المسلمين توشك ان تهاجمهم وتأخذ اموالهم وأهليهم اسرى(٤٧). فقد روى انهم ((سمعوا صائحا يصيح لايدرون من السماء او من الارض: يامعشر غطفان، أهلكم أهلكم الغوث، الغوث بحيفاء _صيح ثلاثة _ لاتربة ولامال، قال: فخرجت غطفان على الصعب والذلول(٤٨) وقد سيطر عليها الخوف والرعب الى اهلها منكفئة على نفسها وتاركة يهود خيبر يواجهون المسلمين لوحدهم(٤٩).

وقد ذكر الواقدي ان الرسول (ص) استخدم في البداية السياسة تجاه قبيلة غطفان من أجل حملها على التخلي عن مساندة اليهود وذلك بأن عرض عليهم ان يعطيهم محصول تمر خيبر لمدة سنة في حالة انتصار المسلمين على اليهود، الا ان عيينة بن حصن زعيم غطفان رفض هذا العرض وقال ((انا والله ما كنا لنسلم حلفاءنا لشئ))(٥٠). ورغم ان عيينة قد رفض هذا العرض السخي الا انه كان قد ترك بعض الاثر في نفسه وذلك لانه عاد الى الرسول (ص) بعد انتصاره على خيبر مطالبا اياه بأن يعطيه شيئا من الغنيمة فقال: ((اعطني يا محمد مما غنمت من حلفائي فأني انصرفت عنك وعن قتالك وخذلت حلفائي ولم اكثر عليك، ورجعت عنك بأربعة الاف مقاتل. فقال رسول الله (ص): كذبت، ولكن الصياح الذي سمعت أنفرك الى اهلك))(٥١).

اما الشعبة الرئيسيةمن الهجوم فقد قادها الرسول (ص) بنفسه من أجل فتح حصون نطاة التي تقع في مكان مرتفع بالنسبة لقوات المسلمين المهاجمة. وقد تعرض المسلمين من جراء ذلك لنبال اليهود المصوبة اليهم بحيث بلغ عدد الجرحى من المسلمين في ذلك اليوم وحده خمسين جريحا. لذلك امر الرسول(ص) بتغيير موقع قواته بناء على اقتراح الحباب بن المنذر بمجرد ان سترهم الليل بظلامه الى موقع آخر يدعى الرجيح(٥٢).

وقد استمر المسلمون في قتالهم ضد حصن ناعم وهو احد حصون نطاة الرئسية سبعة ايام اخرى بعد انتقال قاعدتهم الرئسية الى الرجيح فكان ((يغدو

كل يوم بالمسلمين على راياتهم متسلحين ويترك المعسكر بالرجيع ويستخلف عليه عثمان بن عفان (رض)، ويقاتل اهل النطاة يومه الى الليل، ثم اذا أمسى رجع الى الرجيع))(٥٣). وكان شعار المسلمين في هذه المعارك ((يامنصور أمت))(٥٤).

وقد اقترح الحباب بن المنذر على الرسول (ص) اثناء هذا الحصار ان يقوم بتقطيع نخيل خيبر كي يؤثر على معنويات اليهود المدافعين عن حصون النطاة فقال: ((يارسول الله ان اليهود ترى ان النخيل أحب اليهم من أبكار اولادهم فأقطع نخلهم))(٥٥) فوافق الرسول (ص) على ذلك وامر بتقطيع نخل خيبر. ثم امر بالتوقف عن ذلك لان هذا المقترح لم يحقق غرضه في حمل اليهود على الاستسلام.

لقد اتسم القتال خلال الايام السبعة بالشدة والاستبسال من جانب الطرفين وكان الرسول (ص) يرسل الكتيبة تلو الكتيبة من المهاجرين والانصار فيعودون ولم يحققوا شيئا. وقد عاد سعد بن عبادة زعيم الانصار من احدى الهجمات جريحا كما وجد اليهود لديهم الجراءة ليقوموا بهجوم مضاد ضد المسلمين حتى انكشفت راية الانصار وانتهوا الى حيث يقف الرسول (ص) فوجد الرسول (ص) في نفسه حدة شديدة وأمسى ذلك اليوم مهموما(٥٦).

وقد فكر الرسول (ص) بتقديم بعض العروض الى اليهود عسى ان تحملهم على الاستسلام فأمر احد اصحابه ان ينادي على اليهود بقوله: ((قولو لااله الا الله، ثم قد احرزتم بذلك اموالكم ودماءكم وحسابكم على الله، فنادوهم بذلك. فنادت اليهود: انا لانفعل ولانترك عهد موسى والتوراة بيننا))(٥٧).

في ظل هذه الظروف الصعبة استطاع المسلمون من أسر احد اليهود ليلا وأتو به الى رسول الله (ص) فطلب منحه الامان له ولاهله على ان يدل الرسول على ((عورة من عورات اليهود)) فوافق الرسول (ص) على ذلك: ثم طلب منه ان يحدثه عن احوال قومه فقال: ((خرجت من حصن النطاة من عند قوم ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة فقال الرسول (ص): الى اين يذهبون؟ قال: الى اذل مما كانوا فيه، الى الشق، وقد رعبوا منك حتى افئدتهم لتخفق..))(٥٨).

وقد قرر الرسول على ضوء ماحصل عليه من معلومات ان يقوم بهجوم حاسم على حصن ناعم فأعلن انه سيعطي الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه. حتى اذا كان الغد دعا عليا بن ابي طالب (رض) فدفع اليه اللواء ودعا له ومن معه من اصحابه بالنصر. وقد ادارت في هذا اليوم معارك عنيفة وحصلت فيه مبارزات فردية مثيرة انتهت بمقتل عدد من شجعان اليهود حتى تمكن علي بن ابي طالب في النهاية من فتح باب الحصن والاستيلاء على حصن ناعم وهواهم حصون النطاة الذي كانت فيه كميات كبيرة من الاسلحة، فغنمها المسلمون(٥٩).

لقد اضطر اليهود بعد هذه الهزيمة الى الانتقال الى حصن الصعب بن معاذ وكان من حصون اليهود المنيعة جدا وقد كدس فيه اليهود كميات كبيرة من الطعام والمؤونة فتوجه المسلمون بقواتهم الرئيسية نحو هذا الحصن وفرضوا عليه الحصار.

ويلاحظ ان جيش المسلمين قد بدأ في هذه المرحلة يشعر بالتعب والارهاق ليس نتيجة القتال وطول المعركة، وانما بسبب عاملين آخرين هما:

١. ان مناخ خيبر في ذلك الوقت كان حارا، شديد الحرارة(٦٠). كما ان منطقة خيبر كانت ((وبئة وخيمة))(٦١) لكثرة المزارع والرطوبة فيها. لذا فقد اصيب قوم المسلمين بالمرض والحمى(٦٢).

٢. لقد كانت ثمار النخيل في ذلك الوقت لما تزل خضراء غير ناضجة(٦٣). فلم يستطع جيش المسلمين الاستفادة من بساتين النخيل التي وقعت في ايديهم اثناء الحصار في توفير المؤونة والغذاء لهم. كما ان ما كانوا يحملونه من مؤونة وطعام قد نفذ. لذا فقد اخذ المقاتلون يشكون الى رسول الله (ص) من الجوع وقلة الطعام. وقام بعضهم بذبح الحمير الاهلية لطبخها وأكلها فنهاهم الرسول (ص) عن ذلك. غير انه عاد وسمح لهم بأكل لحوم الخيل ((فذبح قوم من المسلمين خيلا من خيلهم قبل ان

يفتح حصن الصعب بن معاذ(٦٤).

لقد دفعت هذه الظروف الرسول (ص) الى ان يوجه اقصى ما لديه من طاقة نحو التعجيل بفتح حصن الصعب بن معاذ من أجل الحصول على ما فيه من طعام ومؤونة لتلافي خطر المجاعة التي اخذت تهدد قواته . لقد عهد الرسول (ص) الى الحباب بن المنذر بأن يتولى قيادة الحملة لافتتاح هذا الحص نظرا لخبراته الجيدة في هذا المجال، وقد فرض الحصار على هذا الحصن لمدة يومين وكان في اثنائها يقاتل مع اصحابه ضد اليهود اشد القتال ولكن دون ان يحقق اية نتيجة، حتى اذا كان اليوم الثالث شرع اليهود بشن هجوم مضاد ضد المسلمين. وقد مهدوا له برمي النبال التي اخذت تتساقط على جيش المسلمين كأنها المطر فتراجع المسلمون الا ان قائد الحملة ثبت في مكانه واخذ الرسول (ص) يحث المسلمين على الثبات ويرغبهم في الجهاد ويخبرهم «ان الله قد وعده خيبر يغنمه اياها»(٦٥) فعاد الناس يلتفون حول قائدهم ثم زحف بهم ((فلم يزل يدنو قليلا قليلا، وترجع اليهود على ادبارها حتى لحمها الشر فانكشفوا سراعا، ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم(٦٦). واخذوا يقذفون قوات المسلمين من داخل الحصن بالحجارة حتى اضطرهم الى التراجع الى قواعدهم الاولى. ويبدو ان هذا التراجع اغرى اليهود بالقيام بهجوم ثان فخرجوا من الحصن وهجموا على قوات المسلمين وهم يستميتون في القتال. عند ذلك احتدم القتال بين الطرفين ودارت رحى المعركة عند باب الحصن. وقد استغل المسلمون محاولة اليهود ادخال قتلاهم الى الحصن فطاردوهم ودخلوا الحصن وراءهم وبذلك انتقلت المعركة الى داخل حصن الصعب بن معاذ مما افقد اليهود قدرتهم على الدفاع وجعلهم يرتبكون ويعملون على الهرب من هذا الحصن والانتقال الى حصن قلعة الزبير(٦٧).

وبذلك تمكنت قوات المسلمين من السيطرة على هذا الحصن المنيع فتعزز انتصارهم السابق واصبحوا قريبين من تحقيق النصر النهائي على يهود خيبر.

لقد كانت الغنائم التي حصل عليه المسلمون من هذا الحصن الكبير جدا وخصوصا من المؤن الاطعمة بحيث انها سدت احتياجاتهم طوال فترة اقامتهم في خيبر وزادت عليها. كما غنموا اعدادا كبير من الغنم والبقر والحمير واستولوا على كمية جيدة من الالات الحربية كالمنجنيق والدبابات وغير ذلك من العدد الحربية(٦٨). لقد كان اليهود على حد تعبير احد الرواة ـ ((يظنون ان الحصار يكون دهرا))(٦٩) فأستعدوا له كل هذا الاستعداد ولكنهم حينما ذاقوا مرارة القتال لم يصمدوا سوى ثلاثة ايام.

بعد ذلك زحف رسول الله (ص) على رأس قواته الى حصن الزبير وكان هذا الحصن ((في رأس قلعة لاتقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه))(٧٠) ففرض رسول الله (ص) على هذا الحصن حصارا شديدا لمدة ثلاثة ايام. وفي هذه الاثناء جاءه يهودي فطلب ان يمنحه الامان في مقابل تقديم معلومات للرسول (ص) عن قومه ((فأمنه رسول الله (ص) على اهله وماله فقال اليهودي انك لو اقمت شهرا لم يبالوا، لهم دبول ـ أي جداول ـ تحت الاراضي يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون الى قلعتهم فيمتنعون منك وان قطعت مشربهم عليم ضجوا))(٧١) فسار الرسول (ص) الى مصادر المياه فقطعها عنهم فلم يعودوا يطيقون البقاء في الحصن لشدة العطش، فخرجوا من الحصن فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا حتى تمكنوا من دحرهم وبذلك استولى الرسول (ص) على جميع حصون منطقة النطاة(٧٢). ومن ثم فقد وجد انه بات من الضروري ان ينقل قواعد جنده من منطقة الرجيع الى المنطقة الاولى التي بدأ قتاله منها بالمنزلة ليكون قريبا من حصون العدو في منطقة الشق(٧٣).

لقد بدأت قوات المسلمين هجومها على حصون الشق بالهجوم على الحصن المسمى سمران وبعد قتال شديد ومبارزات فردية مثيرة تمكن المسلمون من احتلال هذا الحصن(٧٤). ثم انتقلوا بعد ذلك لمهاجمة حصن النزار الذي استمات اليهود في الدفاع عنه ورموا المسلمين منه بالنبل والحجارة حتى

((اصابت النبل ثياب رسول الله (ص) وعلقت به))(٧٥). ولكنهم اضطروا في النهاية الى ترك هذا الحصن للمسلمين والانتقال الى حصن اهل الكتيبة والوطيح وسلالم معقلهم الاخير(٧٦).

ولم يترك الرسول (ص) لاعدائه فرصة للراحة فسارع الى فرض الحصار على حصونهم التي كانت فلول اليهود قد تحصنت بها ((وجعلوا لايطلعون من حصونهم مغلقين عليهم))(٧٧) ابوابها على امل ان يدرك التعب رسول الله (ص) فينصرف عنهم. ولكن الرسول (ص) واصل حصاره لهم ((حتى هم ان ينصب المنجنيق عليهم ولكنه لم يفعل لان اليهود ادركهم التعب والارهاق بعد مضي اربعة عشر يوما على محاصرتهم في هذه القلاع وايقنوا انه لاسبيل امامهم للنجاة بأرواحهم واموالهم سوى طلب الصلح(٧٨). لذا فقد ارسل كنانه بن ابي الحقيق الى رسول الله (ص) يطلب منه الموافقة على استقباله للمفاوضة فوافق الرسول (ص) على ذلك. فجاءه ابن ابي الحقيق ((فصالح رسول الله (ص) على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله (ص) وبين ما كان لهم من مال او ارض(٧٩).

لقد اعطت شروط الصلح هذه الرسول (ص) حق اجلاء يهود خيبر عن اراضيهم مقابل ضمان حياة المقاتلين وترك الحرية لذويهم الا ان الرسول (ص) لم يستعمل هذا الحق وسمح لليهود بالبقاء في اراضيهم واستثمار مزارعهم بأنفسهم على ان يقسم محصول هذه المزارع بينهم وبين المسلمين مناصفة(٨٠). وذلك لانهم ذووخبرة ودراية في زراعة اراضيهم. كما يبدو ان الرسول (ص) لم يشأ ان يشغل اصحابه عن الجهاد بالتفرغ لزراعة هذه الاراضي واستثمارهما.

وهكذا انتهت معارك خيبر بعد ان استمرت حوالي شهر كامل(٨١). خاض فيها المسلمون اقسى انواع المعارك ضد خصوم اقوياء متحصنين في قلاع حصينة ومزودين بكل الاحتياجات والمستلزمات التي تتطلبها الحروب. وكان النصر المؤزر حليفا للرسول (ص) وجنوده المؤمنين. فما هي نتائج هذا الانتصار، وما هي الدروس التي يمكن للباحث في التاريخ العسكري ان يخرج بها.

نتائج انتصار المسلمين في خيبر:

١. لقد خسر المسلمون في معارك خيبر خمسة عشر شهيدا مقابل خسارة اليهود لثلاثة وتسعين قتيلا(٨٢). وبذلك كانت خسائر اليهود اكثر من ستة اضعاف خسائر المسلمين في الارواح.

٢. لقد أدى انتصار المسلمين على اليهود في خيبر الى تصفية الوجود العسكري والسياسي لمدينة خيبر وتحولها الى جزء من الدولة العربية الاسلامية. ومن ثم فقد تحول يهود خيبر الى مواطنين في الدولة الموحدة.

٣. خضوع بقية المستعمرات اليهودية مثل فدك ووادي القرى الى سلطنة الدولة العربية الاسلامية وفق نفس الشروط التي اعطيت لخيبر بعد ان ادركت عدم قدرتها على الوقوف في وجهها، وبذلك زال الخطر السياسي الذي كان يهدد الدولة العربية الناشئة من الشمال وخصوصا حينما كان يتجه للتحالف مع قريش في الجنوب.

٤. لقد أدى انتصار المسلمين على خيبر الى تفكك تحالف القوى المضادة للدولة العربية الاسلامية واتجاها للتحالف او الخضوع لها الواحدة تلو الاخرى. وكان على رأس هذه القوى قبيلة قريش التي تمكن الرسول (ص) من دخول مدينتها مكة من دون مقاومة تذكر بعد انتصاره في خيبر بفترة وجيزة (سنة وبضعة اشهر).

٥. لقد ساهمت الغنائم التي حصل عليا المسلمون في خيبر والايرادات المالية التي اخذت تصل الى الدولة العربية الاسلامية منها سنويا في تحسين الاوضاع المالية لها مما زاد في قدرتها على النمو والتوسع من أجل الوصول الى اهدافها في نشر عقيدة التوحيد وتحقيق وحدة الامة.

الدروس المستفادة من انتصار خيبر:

لقد جاء انتصار المسلمين على اليهود في خيبر مناقضا لحسابات القوى المعادية للدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية التي بنت توقعاتها على اساس القوى المادية التي كان يمتلكها الطرفان فقط. فقد كان عدد مقاتلي خيبر يزيد على عدد مقاتلي المسلمين بسبعة اضعاف، كما ان يهود خيبر كانوا يتخذون في الحرب موقفا دفاعيا في قلاع حصينة جدا بينما كان جيش المسلمين يقوم بأعمال تعرضية من مواقع غير ملائمة نسبيا اضافة الى ان التجهيزات العسكرية والمؤن الغذائية التي كانت لدى يهود خيبر هي أفضل بكثير من تلك التي كانت لدى قوات المسلمين.

لقد كان المفروض ان تنتهي الحرب لصالح يهود خيبر لو كانت نتائج الحرب تقررها العوامل المادية وحدها. ولكن الحقيقة غير ذلك، اذ تقف دائما وراء العوامل المادية عوامل معنوية وفنية تلعب دورا حاسما من حيث التصرف بها وتوجيهها في المعركة بالشكل الذي يقود الى النصر او ينتهي الى الهزيمة.

ان هذه العوامل المعنوية والفنية هي ما سنحاول استخلاصه في دراستنا هذه من خلال المقارنة بين الكيفية التي تمت فيها ادارة وتوجيه القوى التي كان يمتلكها الفريقان المتحاربان لخوض المعركة والتي انتهت بالانتصار الحاسم للمسلمين.

١. الهدف من القتال :

لقد كان القتال في هذه المعركة وغيرها من المعارك بالنسبة للمسلمين جهادا من اجل قضية، فهم آمنو بالدعوة الاسلامية وكرسوا حياتهم لخدمتها والدفاع عنها..وقد توجه الرسول في هذه المعركة بالذات لمقاتلة يهود خيبر لانهم ارتضوا لانفسهم _وهم اصحاب دين سماوي يدعو الى التوحيد _ الى التعاون مع مشركي مكة في محاربة المسلمين وفرض الحصار على مدينتهم في غزوة الاحزاب بهدف القضاء عليهم..فهذه الحرب بالنسبة للمسلمين حرب دفاعية من أجل قضية عادلة فماذا كانت بالنسبة ليهود خيبر..لقد كان يهود خيبر كما لاحظنا في ثنايا البحث مترددين..لايستطعون اتخاذ قرار بشأن القتال حتى وصلت قوات المسلمين الى ديارهم وفرضت عليهم الحصار.. مما يدل على عدم وجود اهداف واضحة في اذهان زعمائهم..

٢. توعية المقاتلين :

لقد حرص الرسول (ص) على ان لايصحب معه لقتال خيبر سوى الرجال الذين صحبوه الى مكة اثناء صلح الحديبية والذين بايعوه على الموت في سبيل الله في بيعة الرضوان. لذا فقد رفض طلب الاعراب الاشتراك معه في هذه الغزوة طمعا في الكسب والغنائم لان الرسول (ص) كانت تهمه نوعية المقاتلين وليس عددهم. لقد كان اصحاب رسول الله (ص) جنودا ممتازين من حيث ايمانهم بالقضية التي يجاهدون من اجلها واستعدادهم الدائم للاستشهاد من اجلها وطاعتهم لقيادتهم والتزامهم الكامل بأوامرها وتوجيهاتها.

اما من ناحية كفاءة المقاتلين المسلمين الفنية ((التسليح والكفاءة في استخدام السلاح)) في هذه المعركة فقد كانت جيدة وذلك لانهم كانوا قد اكتسبوا خبرات عالية في معاركهم السابقة. كما ان الانصار منهم كانوا ذوي خبرة جيدة في قتال المدن ومهاجمة الحصون بسبب حروبهم السابقة في يثرب قبل الاسلام واطلاعهم على اساليب اليهود في القتال نتيجة لعيشهم مع يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة في المدينة.

اما بالنسبة لمقاتلي اليهود في خيبر فرغم ضروب الشجاعة والصمود التي ابداها بعض من مقاتليهم امام اسوار حصونهم الا انهم فشلوا في تحقيق انتصارات ملموسة. وربما كان ذلك راجعا الى غياب القضية الواضحة التي يقاتلون من اجلها. اضافة الى عدم استعدادهم الجدي لخوض المعركة

بدليل انه كانت لديهم انواع عديدة من اسلحة الدفاع عن الحصون كالمنجنيق التي لم تستعمل وبقيت مكدسة في مخازنها حتى استولى عليها المسلمون.

ويبدو من خلال دراسة وقائع المعارك غياب الاستراتيجية الواضحة في ادارة الدفاع عن الحصون وعدم توفر الانضباط الجدي لدى المقاتلين بدليل ان جميع الانتصارات التي حققها الجنود المسلمون جاءت نتيجة مغادرة مقاتلة اليهود لحصونهم خارج اسوارها مما كان يتيح الفرصة للمسلمين للتغلب عليهم على ارض المعركة ثم مطاردتهم اثناء الانسحاب ودخول الحصون وراءهم والاستيلاء عليها.

٣. نوعية القيادة :

لقد كان المسلمون في هذه المعركة يحاربون تحت قيادة الرسول (ص) وهي قيادة تتمتع بطاعة جنودها وثقتهم وحبهم. كما ان دراسة الاسلوب الذي اتبعه الرسول (ص) في تخطيط وتنفيذ هذه المعركة توصلنا الى انه كان يتمتع بكل الصفات التي يحملها القائد المثالي من قوة شخصية وبعد نظر وقدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة والسريعة ومتابعة تنفيذها بشجاعة وثبات حتى تتحقق له الاهداف التي يسعى للوصول اليها.

اما بالنسبة لليهود فلم يكونوا يتمتعون بقيادة موحدة بدليل اختلاف زعمائهم حول مايجب عمله لمواجهة الرسول (ص) وعجزهم عن التوصل الى قرار واضح بشأن الحرب او السلام.

كما ان دراسة وقائع المعارك لم توصلنا الى التعرف على قائد معين لليهود كان يشرف على ادارة معاركهم ضد المسلمين فلا عجب ان بدا قتالهم وكأنه سلسلة من ردود الافعال على مبادرات المقاتلين المسلمين في الحرب.

٤. معرفة وتطبيق مبادئ الحرب :

ان دراسة معارك خيبر وما سبقها من استعدادات توصلنا الى ان الرسول (ص) كان على معرفة جيدة بمبادئ الحرب وتطبيقها بصورة ناجحة وكما هو مبين ادناه :

أ. توخي الهدف :

لقد حدد الرسول (ص) هدفه في تحرير خيبر بصورة واضحة ثم قام بمهادنة قريش لمنع تعاونها مع خيبر اثناء الحرب. وفي اثناء توجهه الى خيبر عسكر بينها وبين قبيلة غطفان لمنع التعاون بينها اثناء القتال ثم قام بمجموعة مناورات عسكرية وسياسية بحيث اضطر غطفان الى عدم المشاركة في القتال وبذلك حصر جهده في تحقيق هدفه وهو تحرير خيبر.

ب. التعرض :

لقد كان الرسول (ص) يدرك على مايبدو ان خير اساليب الدفاع هو الهجوم. لذا بادر الى مهاجمة خيبر قبل ان تتاح لها فرصة اتخاذ قرار بالهجوم عليه خصوصا واننا قد وجدنا انهم بحثوا هذه المسألة فيما بينهم وعجزوا عن التوصل الى قرار بشأنها.

ج. المباغته :

لقد بذل الرسول (ص) اقصى جهده في مباغتة خيبر بالهجوم عليها كي يمنعها من الاستعداد واتخاذ الاهبة اللازمة للقتال ولم يكن تحقيق هذا الهدف بالامر السهل لوجود عدد من اليهود والمنافقين الذين يتجسسون لصالح خيبر في المدينة، ومع هذا فقد نجح الرسول (ص) عن طريق الكتمان وسرعة الحركة بحيث وصل اسوار خيبر قبل ان يعرفوا ذلك.

د. الامن :

لقد كان الرسول (ص) حريصا على تحقيق الامن لقواته ضد اية مفاجآت لذا فقد استعان بالادلاء الذين يدلونه على الطريق كما استفاد من خبرة بعض الصحابة في رسم الخطط الحربية التي تبعده عن المجازفة بحياة جنوده، كما حاول ان يكشف الثغرات في خطط خصومه من خلال استجواب بعض اليهود الذين وقعوا اسرى في يده مقابل منحهم الامان على حياتهم.

هـ. الاقتصاد بالقوة :

لقد كان الرسول (ص) حريصا على حياة جنوده لذا فقد كان يسعى الى كسب الحرب بأقل ثمن عن طريق استخدام السياسة وأساليب الاغراء لحمل اعدائه على الاستسلام وعدم القتال كما فعل حينما عرض على غطفان ان يعطيهم ثمار خيبر لمدة سنة لو انسحبوا من القتال. كما عرض على يهود خيبر ان يكف عن قتالهم ويضمن لهم حياتهم واموالهم لو قبلوا الاسلام.

اضافة الى ماتقدم فقد كان الرسول (ص) يلجأ الى تعديل خططه الحربية حينما يتبين له انها تكلفه الكثير من ارواح جنوده.

و. التعاون والمشاورة :

لقد حرص الرسول (ص) على الاستفادة من براعة اتباعه ومشاورتهم في رسم خطط الحرب والقتال وبذلك تجنب احتمالات الخطأ في توجيهاته الحربية قدر الامكان وضمن محبة وثقة جنوده.

س. اساليب جديدة في المواجهة :

لقد حاول الرسول (ص) ان يطبق اساليب جديدة في الحرب بحيث يفاجئ خصومه بها.. لذا فقد فأجأ غطفان بالصياح وأدخل الرعب الى قلوبهم مما حملهم على الرجوع عن القتال والبقاء في ديارهم. كما حاول الرسول (ص) ان يطبق اسلوبا جديدا في قتال خيبر بدلا من اسلوب قتال الصفوف او الكر والفر لعدم ملاءمتها لقتال المدن ومهاجمة الحصون.

ان ما تقدم يحدد اهم المبادئ التي طبقها الرسول (ص) في حربه ضد يهود خيبر. فما هي المبادئ التي طبقها اليهود في حربهم ضد المسلمين والى اي مدى نجحوا في هذا المجال. لقد حاول اليهود ان يطبقوا مبدأ الامن لحماية ارواحهم من خلال الاحتماء بالحصون المنيعة، كما تحالفوا مع قبيلة غطفان البدوية كي تساعدهم في قتال المسلمين لتحقيق مبدأ الاقتصاد في استعمال القوة. ولكن هذه المبادئ وحدها لم تجدهم شيئا وذلك لانهم لم يحسنوا تطبيق مبدأ الاحتماء بالحصون بسبب مغادرتهم لها بين الحين والاخر للقتال خارجها كما اوضحنا سابقا.

كما ان الرسول (ص) استطاع ان يبعد قبيلة غطفان من ساحة المعركة وحملها على عدم المساهمة فيها، وبذلك نجح في تحقيق نصر حاسم على اعدائه الذين كانوا يتفوقون عليه كثيرا من حيث استعداداتهم المادية للقتال.



تيماء
خيبر
حرات خيبر
فدك
مجمع الاسيال
جبل احد
المدينة المنورة
ذو القصه
حرة المدينة
ينبع البحر
بدر
الابواء
رابغ
الجحفه
ذات عرق
خليص
عسفان
قديد
مكة
جدة
الحديبية
قرن المنازل
الجعرانه
الطائف
مواضع
بعض الغزوات

المصادر والمراجع

(١) لمزيد من التفصيل تراجع دراستنا: الملاح، د. هاشم، دور العقيدة الاسلامية في تحقيق وحدة العرب الاولى، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، عدد ٨، سنة ١٩٨٤.

(٢) القرآن الكريم، سورة النحل: ١٦.

(٣) العلي، د. صالح، محاضرات في تاريخ العرب، الموصل، ١٩٨١، ص ٣٤٠ _٣٥٠.

(٤) الشريف، احمد ابراهيم، الدولة الاسلامية الاولى، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦٢ _٦٦.

(٥) سرور، د. محمد جمال الدين، قيام الدولة العربية، مصر، ١٩٦٤، ص ٨٠ _٨١.

(٦) القرآن الكريم، سورة الحج : ٣٩.

(٧) سرور، قيام الدولة العربية ص٨٢، وات، محمد في المدينة، ص ٧.

(٨) الحديثي، د. نزار عبد اللطيف، محاضرات في التاريخ العربي، بغداد ١٩٧٩، ص ١٠٥.

(٩) يراجع بحثنا: المنافقون في مدينة الرسول، مجلة كلية الدراسات الاسلامية، بغداد، ١٩٦٥، عدد ٥.

(١٠) وات، مونتمغمري، محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات ، بيروت، ص ٣٣٢.

(١١) ابن هشام، السيرة النبوية، مصر ١٩٥٥، قسم ٢، ص ٢١٤ _٢٣٣، وات، محمد في المدينة، ص ٥٤ _ ٥٩.

(١٢) الحديثي، محاضرات في التاريخ العربي، ص ١١٠ _١١٢.

(١٣) ابن هشام، السيرة، قسم ٢ ، ص ٣١٧ _٣١٨.

(١٤) كرومان، اودلف، خيبر، دائرة المعارف الاسلامية، المجلد ٩، ص ٥٤ _٥٦.

(١٥) الواقدي، مغازي رسول الله، بيروت ١٩٦٦ (تحقيق مارسدن جونز) ج٢، ص ٦٣٧.

(١٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٣٧، ص ٦٤٢.

(١٧) ابن هشام، السيرة، قسم ٢، ص ٣٢٨ _٣٠٧، البلاذري فتوح البلدان، لبنان، ١٩٧٨، ص ٣٦ _٤٢، الطبري، تاريخ مصر، ١٩٦٩، ج ٣، ص ٩ _١٦.

(١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٤.

(١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٤.

(٢٠) يراجع في تفصيل الخلاف حول تاريخ الغزوة: ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد، القاهرة (تحقيق محمد حامد الفقي) ج ٢، ص ٣٢٤ _٣٢٥.

(٢١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٧.

(٢٣)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣٠ _٥٣١.

(٢٤)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤١.

(٢٥)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٧.

(٢٦)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٢.

(٢٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٥٠.

(٢٨)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤١.

(٢٩)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٤.

(٣٠) سورة الفتح: ١٨ _١٩، يراجع دروس، محمد عزة، سيرة الرسول، القاهرة، ١٩٤٨، ج٢،ص١٢٤.

(٣١) الواقدي، المغازي، ح ٢، ص ٦٣٦.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٢،ص ٦٣٧.

(٣٣)المصدر نفسه، ج ٢ ،ص ٦٣٨.

(٣٤)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٩.

(٣٥)خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، بغداد، ١٩٥٨، ص ٢٠٤.

(٣٦)الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٤٠ _٦٤١.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٣.
(٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٤.
(٣٩)ابن هشام، السيرة، قسم ٢، ص ٣٢٩ _٣٣٠، الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٦٤٢ _٦٤٣.
(٤٠)الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٦٣.
(٤١)الشريف، الدولة الاسلامية الاولى، ص ٢١٩، راجع ايضا، الواقدي، المغازي،ج٢،ص ٦٦٧.
(٤٢)الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٥٨.
(٤٣)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٦ _٦٦٧.
(٤٤)الشريف، الدولة الاسلامية الاولى، ص ٢١٩.
(٤٥)خطاب، الرسول القائد، ص ٢١٦ _٢١٧.
(٤٦) الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٤٣.
(٤٧)محمد فرج، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، مصر، ١٩٥٨، ص ١٩٥.
(٤٨)الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٥١.
(٤٩)ابن هشام، السيرة، قسم٢، ص ٣٣٠، الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٥١ _٦٥٢.
(٥٠)الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٥٠.
(٥١)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧٦.
(٥٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٥ _٦٤٦.
(٥٣)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٥.
(٥٤)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٤.
(٥٥)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٤.
(٥٦)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٥٣.
(٥٧)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٥٣.
(٥٨)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٧.
(٥٩)المصدرنفسه، ج ٢، ص ٦٥٣ _٦٥٦.
(٦٠)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٠.
(٦١)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٠.
(٦٢)المصدر نفسه، ج ٢، ص٦٤٦.
(٦٣)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٦.
(٦٤)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٠ _٦٦١، ابن هشام، السيرة، قسم ٢، ص ٣٣١.

(٦٥) الواقدي، المغازي، ج ٢ ، ص ٦٦٢ _٦٦٣.
(٦٦)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٣.
(٦٧)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٣ _٦٦٤.
(٦٨)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٤ _٦٦٥.
(٦٩)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٤.
(٧٠)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٦.
(٧١)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٦ _٦٦٧.
(٧٢)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٧٣)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٧٤)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٧٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٨.
(٧٦)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦٩.
(٧٧)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧٠.
(٧٨)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧٠.
(٧٩)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧١، ابن سلام، ابو عبيد، كتاب الاموال (تحقيق محمد حامد الفقي) القاهرة، ١٣٥٣ه، ص ١٦٥.
(٨٠) الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٩٠.
(٨١)ابن سلام، كتاب الاموال، ص ١٦٥.
(٨٢)المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٠.

بوادر ضعف العرب في الأندلس وسقوط الثغر الأدنى- طليطلة

داود عمر عبيدان
جامعة اليرموك/الأردن

نجح الامير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) في الافلات من قبضة العباسين وبعد أن طوحت به الطريق الى المغرب. واثناء رحلته المرحلية أقام بين قبيلة مغيلة عند شيخ من زعماء البربر يدعى وانوس (يكن ابا قره). واكتشف امره في بيت ذلك الشيخ، فخبأته زوجته تكفات تحت ثيابها حتى لم يظهر له أثر«١».
وأخير وضع عصا التيار بين أخواله من قبيلة (نفزه) قرب طنجه«٢».
ومنها عبر البحر الى الاندلس واسس دولته الاموية هناك بعد ان اجتازت سنوات مشحونة بالاهوال والاضطرابات وحطم جميع الحواجز والعقبات أمامه«٣»، وانهى عصر الولاة، واختفى من الميدان آخر رجلين يمثلان تلك العهود«٤». وهكذا استقلت الاندلس عن الشرق وبدأت مناطق شمال افريقية بالانفصال تدريجيا عن جسم الدولة العباسية وذلك لاسباب منها: إن غالبية السكان من البربر الذين يعيشون حياة بدويه ميالين بفطرتهم للحياة الفردية البعيدة عن القيود، مع ابتعاد العباسين حين وصولهم للحكم نحو الشرق، فلم يعيروا المغرب الاسلامي اهتماما كالشرق وذلك لانصرافهم الى معالجة الحدود الشمالية ضد الهجمات البيزنطية التي استوعبت معظم قواتهم العسكرية، فضلا عن امتلاء المغرب بعدد من الطامعين بالجاه والحكم.

كالادارسة في فاس«٥» والاغالبه في افريقية«٦» والدولة المدرية في سملجاسه«٧» وتحكم دولة برغواطه في اقصي المغرب على شاطئ الاطلسي«٨» وتأسست الدولة الرسمية في مدينة تاهرت بالجزائر«٩» بالاضافة الى الدولة الصالحية التي تأسست في الريف المغربي«١٠». وعلى الرغم من النجاح الذي واكب الدولة الاموية وظهور خلفاء وقادة محظوظين. أمثال الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر اللذين وسعا حدود دولتها الى شمال افريقية وحصلت صدامات مسلحة مع الفاطميين ادت الى عقد اتفاقيات دولية عقدها الناصر مع ايطاليا وبيزنطه والاخدشيديين في مصر«١١». وورث هذا المجد المنصور بن ابي عامر الذي رافقه النصر طيلة حياته«١٢»، هذا القائد الداهية الذي غزا نصارى اسبانيا أكثر من خمسين غزوه ولم تفل له راية ولم يهزم له جيش واخضع شبه جزيرة ايبريه بكاملها تحت سلطانه«١٣». الا انه كان احدى الاسباب الرئسية لانهيار الخلافة الامويه في الاندلس. عندما بدأ يظهر على المسرح

السياسي«١٤» ويستبد بالامور دون الخليفة«١٥»، واتخذ شارات الملك وابتنى المدن واقتنى الضياع واستصغر شأن الخليفة هشام المؤيد وحجر عليه ومنع الاتصال به. ويبدو ان ابن ابي عامر يتحمل قسطا مهما في الانهيار الذي أصاب الخلافة، وادى بها الى السقوط حيث كانت عاملا أساسيا في وحدة مسلمي الاندلس، وطاعتها التي تعمقت في النفوس كانت نتيجة لتلك الهيبة وذلك الاجلال اللذين تكونا عبر الاجيال، وبفضل أعمال مشكوره دأب الامويون على القيام بها خلال ثلاثة قرون كانت تؤلف رابطه قوية بين مسلمي الاندلس. وكان معنى سلب المنصور للخلافة هيبتها واغتصابه لسلطانها وفرضه على الناس هيبته دون الخلافة وحقده على الامويين، كان معناه تحطيم عامل قوى موحد للمسلمين في شبه الجزيرة وجرها بعد ذلك الى التمزق والتفتت الذي استمر ثلاثين عاما مدة الدولة العامريةالتي انتهت بمصرع عبد الرحمن بن ابي عامر (شنجول) (١٠٠٩/٣٩٩)، وخلع هشام المؤيد وتنصيب محمد بن هشام خليفة مكانه الذي عينته الثورة«١٦». وعندما انتهت دولة بني عامر«١٧». ابتدأت فترة قاتمة في تاريخ الاندلس وكان في نهايتها انهيار الدولة الاموية (١٠٣١/٤٢٢)«١٨» التي تبعثرت الى كيانات سياسية متخاصمة، وابتدأ عهد ملوك الطوائف التي مزقتهم الحرب الاهلية.

اوضاع العرب في الاندلس إبان عهد ملوك الطوائف

اشرنا فيما سبق الى سقوط الخلافة الاموية وتأسيس ما يسمى بدول الطوائف (Pebby King)«٢٠» على انقاضها. الذين انتحلوا القاب الخلافة والامامة«٢١» وابتدعوا حدودا لدولتهم يضحون من اجلها واستطاعوا ان يستخفوا شعوبهم ويقنعوا انفسهم بخطأ الوحدة زمن تلك الدولة التي انهارت لاسباب :

وجود طوائف شتى غير منسجمة في المجتمع الاندلسي، مع عجز الخليفة هشام الثاني المؤيد عن القيام بمهماته بصفته خليفة وضعف الاسرة الاموية بشكل عام، علاوة على استبداد الحجاب العامريين منذ عام (٣٦٦/٩٧٧ـ٣٩٩/١٠٠٩) بالسلطة وعدم انجاب الخليفة المذكور وليا للعهد، كما لم يقم بتعيين من يخلفه من اسرته، فضلا عن انبعاث العصبية القبلية من مرقدها عندما انتقلت ولاية العهد الى يمني هو عبد الرحمن بن ابي عامر (شنجول) فعز على المضرية ان تنتقل الخلافة من قريش«٢٢».

وهكذا انتهت الخلافة الاموية من الاندلس في القرن الخامس الهجرى، فكان ايذانا بانتهاء الدولة العربية الموحدة، وفقدان الرابطة الجامعة لمسلمي الاندلس التي ما انفكت تقف حاجزا يسد جبال البرتان في وجه التدخل الاوروبي. وقامت مكانها دول اشتدت بينها الخصومة والاحتراب. حيث عمت الفوضى جميع جوانب المجتمع الاندلسي وجاوز التفسخ والانهيار العام مداهما، هنا أعزى الجانب النصراني (الاسباني الاوروبي) للقيام بالاجهاز على الوجود العربي الذي بدأ وكأنه فقد كل مقوماته وعناصر وجوده، وتمثل هذا التصميم ببث الوقيعة بين زعماء القبائل العربية، وبدء الغزوات المكثفة على كل المواقع الاسلامية وبخاصة الاماكن الاستراتيجية منها، بينما امراء الطوائف استمرأوا الانفصال وابتعدوا عن الوحدة. واسموها هازئين مخرقة قريش«٢٣». وابتدأت شن الغارات المتتالية كل ضد الآخر والاستعانة بالاعداء دون مبالاة. فدارت حرب ضروس بين امراء اشبيليه وقرطبه وبطليوس من جهه، وبين امراء طليطلة والقشتاليين النصارى من جهة اخرى (Castilians) واسفرت تلك الحروب عن انتصار الحلف الاول وجني ثمرة هذا النصر امير اشبيلية آنذاك المعتضد (Mu'tathid).

حيث غدر بجليفيه وبخاصة أمير قرطبه الذى خلعه ونفاه وافراد عائلته الى جزيرة شلطيش (١٠٦٠/٤٥٢)«٢٤». ولم تكد تنتهى تلك الحروب الدامية حتى تشتعل مرة ثانية وتظهر محاور

اخرى جديدة. ويشتبك المعتمد (أمير اشبيلية الذي خلف اباه) ١٠٧٠/٤٦٢ في حرب مع الادارسة، بينما بنو هود والتجيبيون في ولاية سرقسطة الشمالية يحتدمون في المعارك مع جيرانهم النصارى، في الوقت الذى كان فيه أمير طليطلة يصفي حسابه مع حلفاء اشبيلية واميرى مرسيه واريوله، وينتزع منهم أراضيهم بمساعدة القشتاليين النصارى«٢٥». وعلى الاثر اختل التوازن العسكرى بين طليطلة (Toledo) واشبلية (Sevilla) وصمم الطرفان على ان يسحق كل منها الاخر.

فاتجه المعتمد يطلب العون والمساعدة من الفونسو السادس ويستميله الى جانبه بموجب معاهدة بقيت موادها سريه للغايه«٢٦». وبعد مصادمات عنيفة بين الطرفين سارات الامور في اتجاه غاية في الخطورة، ووضع مشروع الفونسو السادس طبقا للمعاهدة السريه بينهما موضع التنفيذ«٢٧». واصبحت الطريق ممهدة أمام الفونسو لتنفيذ ما كان يتمناه ابان اقامته منفيا في مملكة طليطلة«٢٨». ويبدو نتيجة لتعدد الامارات والنزعات الملتهبة والاضراب المستمر بينها تبعا لذلك. كانت تغيب المصلحة العامة بين ذلك الصراع الذى نجم عن الانانية والاثره العمياء، هذا النهج الذى اتخذه ملوك الطوائف، فذهبوا وذهب ما اصطرعوا عليه ولم يبق الا قسوة التاريخ واسف الاجيال على توالى العصور.

سقوط طليطلة (٢٧ محرم ٢٥/٤٧٨ نيسان ١٠٨٥)«٢٩»

اعلن الفونسو السادس (Al Fonso) الحرب على طليطلة في عام ١٠٧٩/٤٧٢ وذلك وفقا للمعاهدة السريه المعقودة بينه وبين أمير اشبيليه المعتمد بن عباد (Mu'tamid). ودامت الحرب أعواما حتى تمكن الفونسو ان جرد القلاع المحيطة بها من كل واسطة للدفاع، ولم ينجد تلك المدينة المنكوبة خلال هذه الفترة سوى حاكمي بطليوس وسرقسطة بقوات رمزية لم تغن شيئا«٣٠». وحاول القادر بن ذى النون أمير المدينة انقاذها بفرض ضرائب باهظة على شعبه ويفتدى بها نفسه. ولكن ملك قشتاله زاد غلواً وصلفاً وطلب اضافة الى المال تسليمه جميع الحصون المحيطة بالمدينة«٣١». فضلا عن وجوب خضوع الاخيره وتسليمها دون قيد اوشرط. واخيرا استسلمت طليطلة فهجرها سكانها المسلمون واتخذها الفونسو حاضرة لملكه بعد ان تلقب ملك الملتين«٣٢» انقيادا لسياسة مستشاريه الفرنسيين وهكذا سقط الثغر الادني الذى سبب ضربة مذهله اهتز لصداها المسلمون في مختلف جنبات الاندلس«٣٣». وتقزموا امام خصومهم«٣٤» واخذوا يفكرون بهجر بلادهم جنوباً الى ما وراء البحار«٣٥» وكان لهم في استسلام أميرها المسلم، وهيامه على غير اتجاه«٣٦» اسوأ مثال في تأثيره السلبي على معنوياتهم. مما شجع الفونسو على المضي قدما في فتوحاته وانتشار قواته في كل اتجاه واحتلاله جميع القلاع والحصون المؤدية الى قرطبه التابعة لابن عباد (حليفه) ليبقى له السهل«٣٧» في الوقت الذى كان يحاصر فيه سرقسطه، ويجتهد في اسقاطها، واصبحت مهددة بمصير كمصير طليطلة، عندها وعي الامراء خطل السياسة التي اختطوها تجاه الفونسو من مهادنة وشراء امنهم ومسالمته بالمال«٣٨». فايقنوا بعد فوات الاوان عاقبة تشرذمهم. ولاول مره اجتمعت كلمتهم بعد جهد على وضع حد لاطماع القشتاليه النصارى، فتراءت لهم ثلاثة حلول: اما الرحيل عن الاندلس«٣٩» او الخضوع للنصارى وهذا مالا طاقة لهم به، واما الاستنجاد بالمغاربة المرابطين واختاروا بعد لأي الرأى الاخير وبات الناس يترقبون نهايتهم الحتمية والانهيار الكامل لوجودهم حتى لاح لهم الفرج بدخول اللمتونيين شبه الجزيره«٤٠» يقودهم ابن تاشفيه في لقاء الزلاقه (Zallaku).

ويبدوا ان نتائج هذه الكارثة تخطت كل التصورات وبها يرتبط الانعطاف الخطير في التاريخ الاندلسي فأدى الى دخول المرابطين، ثم الى سقوط الطوائف واندثارها.

المصادر والمراجع

(١) المقرى: نفخ الطيب، ص: ٣٣٣

ولما دخل عبد الرحمن الاندلس، ونجح في قبضته على الامارة، سار اليه وانسوس وزوجته، فاكرمهما، وعاشا تحت رعايته. وقال ابن معاوية مرة لتكفات مازحا، «ولقد عذبتني بريح إبطك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني يانتن من ريح الجيف. فكان جوابها له مسرعة، بل ذلك كان والله خرج لم تشعر به من فرط فزعك، فاستطرف جوابها، واغضى عن مواجهتها بمثل ذلك. وهذا من آفات المزاح.

(٢) اخبار مجموعة، ص: ٦٧

وقيل ان امه تدعى نفزه او راح وهي من طرابلس كما يذكر:

المقرى: نفح الطيب، ج ١، ص: ٣٢٧.

(٣) اخبار مجموعة، ص: ٧٧-١٠٩.

(٤) الرجلان هما: العميل بن حاتم، ويوسف بن عبد الله الفهرى، حاكما الاندلس حينئذ.

انظر ابن القوطية: افتتاح الاندلس، ص: ٦٣. ابن ،ج١، ص: ٨٣-٨٤.

(٥) تأسست على يد ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن ابي طالب في المغرب الاقصى. اثر معركة فخ بين العلويين والعباسيين في زمن موسى الهادى ١٦٩، بعد ذلك.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص: ٩٢-١٢٤

تأسست هذه الدولة على يد ابراهيم بن الاغلب (تونس). (١٨٤/٢٩١/٨٠٠-٩٠٩.) في زمن هارون الرشيد. واتسعت الدولة وضمت اليها صقلية.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص: ١٥٤

تأسست على يد ابي القاسم سمعون بن راسول المكناسي، ١٤٠-٣٤٩هـ وكان آخر ملوكها اليسع بن ميمون بن مدرار، فقتل على يد عبيد الله المهدى في سجلماسة.

(٨) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ص: ١٣٧-١٤٩. المصدر السابق والجزء ، ص: ٢٢٣ ٢٢٥.

تنسب الى يونس بن صالح بن طريف الذى ادعى النبوة، وسمى من اتبعه برباطي، وحرفت الى برغواطي (١١٠-٤٥٢هـ) الى ان قضى عليها المرابطون.

(٩) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ص: ١٣٧-١٤٩

تأسست على يد عبد الرحمن بن رستم بمدينة تاهرت، دامت من (١٤٤-٢٩٦)هـ

(١٠) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ص: ١٧١-١٧٨

تأسست هذه الدولة على يد صالح بن منصور (٦٣-٤١٠هـ)، ونزل صالح هذا قرب الناضور في شمال المغرب في اول قدوم له من الشرق.

(١١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص: ٢١٩-٢٢٠

محمود على مكي: التشيع في الاندلس، ص: ١٢٤

(١٢) المقرى: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٨٢

ابن ابي زرع: الروض، ص: ٩٤-١٠٨

(١٣) ابن الاثير: الكامل، ج٧، ص: ٧٨

(١٤) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ص: ٥٨

(١٥) ابن بسام: الداخيرة، ج٤، ص: ٥٠

(١٦) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ١٤٧-١٤٨

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقب بالمهدى، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية، سلطة الخلافة الاموية الاسمية، وسلطة بني عامر الفعلية، ولكن عودة الخلافة على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة، استمرت زهاء اربعين عاما، اضطربت فيها الاندلس بالفتن المدمرة، وغدت الخلافة الاسمية والسلطة الفعلية مغنما متداولا بين بني أمية، والفتيان العامريين والبربر وبني حمود، وقامت في وقت واحد في الاندلس اكثر من خلافة ومنبر، في قرطبة ومالقة واشبيلية، وغدت تلك المدن مسرحا لمعارك وحروب اهلية مدمرة، وتمخضت هذه المحنة في نهاية الامر عن مأساة جديدة.

* المقرى: نفح الطيب، ج١، ص: ٤١٧-٤٢٦

يقول ابن ابي عامر لبنيه موصيا «اياك ان تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فاني اعرف ذنبي اليهم».

ويقول كذلك لغلمانه:«.....ولاتغرنكم بوارق بني امية..فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى...»».

انظر هذه التفاصيل إبن حيان: المقتبس، ك٢١، ص: ٢٢-١٢٨

(١٧) التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس، ص: ١٩٥-١٩٦

(١٨) ابو الفداء: المتصر، ج١، ص: ١٤٧-١٤٩

(١٩) مذكرات الامير عبد الله: التبيان، ص: ١٨

(٢٠)- Lewis: Islam in History, P. 1

(٢١) وفي ذلك يقول الشاعر ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في ارض اندلس　　سماع معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها　　كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

المراكشي: المعجب، ص: ١٠٥

(٢٢) راجع المقرى: ج٢، ص: ٢٥٤

(٢٣) انظر اشباخ: تاريخ الاندلس في عهد الرابطين والموحدين، ج١، ص: ١١-٣١

(٢٤) الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٤٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥

شلطيش: مدينة بالاندلس قرب مدينة لبله، وهي جزيرة يحيط بها البحر من كل ناحية الا مقدار نصف رمية حجر وطول الجزيرة نحو ميل تقريبا. وهي قريبة من اونبه، والمسافة بينها اربعة اميال.

المراكشي: المعجب، ص: ١٩٥-١٩٨

(٢٥) ابن عذارى: البيان، ج٣، ص: ١٥٥-٣٠٣

(٢٦) اشباخ: تاريخ الاندلس، ج١، ص: ٦٠

حيث عقد المعتمد حلفا مع ملك قشتالة« Castila » الفونسو السادس ضد امير طليطلة، وابرم معاهدة كذلك مع امبراطور برشلونه « Barcele »

(٢٧) المرجع السابق.

كان المشروع ضمن المعاهدة السرية بينها، ان اتفق الطرفان على ان يحتل الفونسو السادى طليطلة، المعقل الاسلامي المنيع، ويقدم بدوره جندا مرتزقة من النصارى للمعتمد لمساعدته في حربه ضد اعدائه من المسلمين.

(٢٨) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص: ٢٣٢

(٢٩) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص: ٢٥

(٣٠) اشباخ: تاريخ الاندلس، ج١، ص: ٦٢-٦٥

(٣١) دوزى: تاريخ مسلمي الاندلس، ج٣، ص: ١٢

(٣٢) انظر اشباخ: تاريخ الاندلس، ج١، ص. ٦٣، وما بعدها

ومن الطريف ان نذكر ان (حسام الدولة بن رزين) حاكم السهلة وعاصمتها شنتمريه الشرق. جاء يهنئ الفونسو مع جملة المهنئين من ملوك الطوائف بنجاحه في سلب طليطلة وسيطرته عليها مقدما اليه انفس الهدايا واجودها، ليقره عاملا له في بلده، فرد الفونسو الهدية بهدية الى ابن رزين، وكانت تلك الهدية قرد يلعب امامه وهبه اياه. ورجع ابن رزين مفتخرا بتلك الهدية وعدها من اعظم النعم.

شكيب ارسلان: الحلل السندسية، ج١، ص: ٤٢٨

(٣٣)شكيب ارسلان: الحلل السندسية، ج١، ص: ٤٢٨

قال فقيه زاهد هو ابن عال الطليطلي:

باتت قلوب المسلمين برعبهم　　فحماتنا في حربهم جبناء

(٣٤) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص: ٢٨

وقال ابن عسال السالف الذكر:

ونلقى واحدا ويفر جمع　　كما عن قانص فرت حمير

(٣٥) المقرى: نفح الطيب، ج٢ ، ص: ٥٣٢

وقال الشاعر ابن عسال:

شدوا رواحلكم يا اهل اندلس　　فما المقام بها الامن الغلـــط
الثوب ينسل من اطرافه وأرى　　ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنــــا　　كيف الحياة مع الحيات في سفط

(٣٦) المصدر السابق.

امير طليطلة هو: القادر بن ذى النون الذى كان اول الراحلين عن المدينة المستسلمة، حين هام على وجهه يحمل اسطرلابا (آلة تشبه البوصلة لتعيين الاتجاهات) يهتدى بها.

(٣٧) ابن الاثير: الكامل، ج٨، ص: ١٣٨

(٣٨) انظر التفاصيل في اشباخ: تاريخ الاندلس، ج١، ص: ٧٤-٧٦

(٣٩) ابن خلكان؛ وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٢٨

حين عبر ابن عسال عن ذلك ادق تعبير وقال:

انترك دورنا ونفرعها　　وليس لنا وراء البحر دور

(٤٠) المراكشي: المعجب، ص: ١٣٧-١٣٨

مجتمع الصحابة
نشأته وتطوره حتى معركة بدر

الدكتور/ نزار عبد اللطيف الحديثي
عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

مقدمة:

يحتل صحابة النبي (ص) موقعاً مهماً في انتصار الاسلام وفي تطور الامة العربية تاريخيا بعد ذلك. فهم اداة انتصاره وانتشاره وهم النواة التي رسمت بحياتها وسلوكها صورة الامة. فلولا جهودهم وجهادهم وصمودهم لما تحقق للاسلام الانتصار الذى تحقق. ولما ترتب عليه ما ترتب، ولولا نموذجهم لما شبت الامة بالغة الرشد متحفزة مبدعة. والذى يجب ان نتذكره في هذا المجال ان أولئك الرجال الذين امنوا بالله ورسوله (ص) وصدقوه وجاهدوا معه صابرين صامدين في مكة مجازفين طموحين في المدينة بقوا طوال خمسة عشر عاماً المادة الاساسية في الامة الجديدة وفي صراع قبلي مرير وقاس، وشبكة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية السلبيه التي صنعها الاحتلال وعززها اليهود في يثرب متعاونين مع شبكة يهودية عالمية، ووسط قوى كبرى لكل منها عقيدتها وفلسفتها وقواها الخاصة بها.

وقد تنبه كُتّاب السيرة لاهميتهم واهمية دورهم فسجلوه بعناية فائقة وكتبوا حياتهم بدقة. واذا كانت الحصيلة التي وصلت الينا عظيمة. وعلى قدر كبير من الاهمية كما تعبر عنها جهود محمد ابن اسحق (ت ١٥١هـ) ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) ومحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) وخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) فأنها على اهميتها لايمكن ان تنسينا المصادر الاولى التي اعتمدوا عليها، والتي كانت كتاباتهم صياغة نهائية للتفاصيل الثرية التي جمعها أولئك الرواد الاول لمدرسة السيرة دون ان ننسى المنهجية الواضحة التي اتسمت بها كتابات المؤرخين الاربعة المشار لهم. ومن ابرز المصادر التي تكشف عنها الراويات كتابات ابي معشر نجيح المدني وعبد الله بن محمد بن عمارة الانصارى وموسى بن عقبة. وفيما يبدو محمد بن عمر الواقدي ابرز المتخصصين في شئون المهاجرين من الصحابة ، نجد ابي معشر ومحمد بن عمارة الانصارى مشاركين اكفاء لاتقل معلوماتهم قيمة

عن معلوماته اضافة لاهتمامهم بالانصار من الصحابة، رغم اننا لم نطلع على كتبهم لتحديد منهجيتهم. وعموماً نلاحظ في المعلومات المدونة عن الصحابة تبايناً باتجاهين

الاول. تميزت الروايات عن المهاجرين في الصحابة بما قدمت من معلومات عن اسلامهم وعن التواريخ الخاصة بحياتهم واسبقيتهم في الاسلام. بينما لم نجد هذه التفاصيل بوضوح فيما يتعلق بالانصار من الصحابة.

الثاني. ان الروايات التي تناولت الانصار من الصحابة قدمت معلومات قيمة عن شخصية الصحابي قبل اسلامه واشارت الى دوره في الاسلام قبل هجرة الرسول (ص) وعائلة الصحابي وفيما عدا هذا التباين فالروايات عموما تتماشى مع اهمية الدور الذي لعبه الصحابي من حيث التفاصيل التي حوتها، وتشترك جميعا في تسجيلها لدور الصحابي في المشاهد التي حدثت زمن الرسول (ص) غير ان هذا لايعني اننا نمتلك قوائم كافية ودقيقة . فالواقع اننا باستثناء قائمة معركة بدر لانمتلك قوائم عن المعارك اللاحقة وتكونها يحتاج الى تتبع دقيق للصحابة في المصادر الاولى، والى جهد اكبر مما تفرضه حاجة بحث محدود.

وفي محاولة تقصي الصعوبات التي واجهت الكتاب الاول وهم يكتبون تاريخ الصحابة تبرز القيمة الاجتماعية التي ترتبت على الصحبة واحدة من ابرز الضغوط، اذ بحكم ما ترتب على هذه القيمة من مكانة اعتبارية اجتماعية لاحقة معنوية، ومادية نسبياً، وبحكم تنافس الاتجاهات السياسية والقبلية، والدور الذى لعبه رواة القبائل أصبحت مهمة الاتفاق على التفاصيل مهمة شاقة وصعبة. ان الدارس للصحابة يكتشف كم هي قوية الضغوط التي تحكمت بمصادر الروايات وعقدت مهمة كتاب السيرة الذين صاغوا تلك الروايات في كتب. غير ان الصعوبة الاكثر هي التلقائية التى صورت بها مسألة تكوين مجتمع الصحابة. فالذى لاشك فيه ان الرسول (ص) أنتق اصحابه من مجتمع عصره الذين شكلتهم قبيلة قاسية، وصاغت تحالفاتهم ظروف اجتماعية أقسى، من ذلك الوسط الذى تضافرت قوى ذاتية وموضوعية، وقوى دوليه على صياغة وتشكيل البيان النفسي والاخلاقي للانسان العربي بشكل لايبدو معه عربياً ينتصب خلف ظهره زمن من الابداع الحضارى كلما اتجه جنوباً نحواليمن اوشمالا نحو العراق ومصر.

كان الرسول (ص) صاحب رسالة سماوية تقترن بشعور بالمسؤولية التاريخية ازاء امة، ومجتمع انساني فهو اذن ليس حاكماً يبحث عن نفوذ ومؤيدين انما وقد احدث الصدمة يختار الذين احدثت الصدمة في نفوسهم رداً ايجابياً ثم يمارس تربيتهم واعدادهم وفقاً لمتطلبات العقيدة الجديدة وضرورات الدعوة. ومع انهم عاونوه فوفروا قسطاً من الجهد «كنا اذا نزلت آية جلسنا الى رسول الله (ص) لانقوم حتى يعلمنا كيف نعمل بها» الااننا يجب ان لانهمل صعوبة التحول في ذات الانسان من حالة مرفوضة ترتبط برغبات وتغذيها ضغوط في الواقع الاجتماعي تفعل فعلها يومياً الى حالة تفرضها عقيدة تطلب من الانسان نفسه ان يحققها وترتبط بحياة لم تتوقع في الواقع بعد. هذا يعنى اننا امام مجتمع الصحابة لانقف امام تلقائية بل امام حالة تحويلية ثورية اساسها انقلاب ذاتي يمارسه الانسان ويقود انتصاره بنفسه ضد نفسه وضد ضغوط عديدة. ومع تشديدنا على هذا الجانب فهو لايقي اننا نهمل قيمة الاسس النظرية التي قدمها القرآن لصيغة بناء الامة وبناء انسانها الجديد وتأكيده على ضرورة التغيير. لذلك فهذا البحث ليس منقطعاً عن بحث سابق حول كيفية بناء الانسان في التاريخ العربي في عهده الاسلامي، انما هو محاولة لدراسة الصيغة التطبيقية لتلك الاسس النظرية ومحصلتها تهدف الى تكوين فكرة عن مجتمع الصحابة وامكانية ترتيب الصحابة حسب اسبقيتهم في الاسلام والالمام بالعناصر التي حددت دور وموقع كل منهم في الاسلام. وقد الحقت بالدراسة ملاحق اعتقد انها ضرورية مع محاولة تحليل المعلومات عن قبائل الصحابة ودورهم في الاسلام واستقرارهم هم او ابناءهم لاحقاً مع ضبط تواريخ حياتهم قدر الامكان وحسب المتوفر. لقد

اتبعت طريقة نسبية في تحديد سن الصحابي يوم اسلم تعتمد على طرح سني حياته في الهجرة وسني اسلامه قبل الهجرة من مجمل عمره في محاولة لتحديد عمره يوم اسلم قدر الامكان فبهذه الطريقة يمكن قياس اي الشرائح الاجتماعية اتجه لها الرسول (ص) في جهوده لتكوين قاعدة انصاره كذلك الافادة من العمر لتحديد مدى المطاولة والتحمل لدى الصحابة. كل هذا في حدود الصحابة الذين امنوا يوم سماعهم بالرسول (ص) وانتهى بهم المطاف جيشه في معركة بدر اهمال دور الصحابيات لقد افدت من المصادر المتأخرة فجهود ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الاثير في اسد الغابه وابن حجر في الاصابة ليست مجرد كتب يرجع اليها الباحث انما منهجية واراء ملزمة. غير ان الاشارة لها اقتصرت على الفروق في تفاصيل الروايات. كذلك جهود كتاب السيرة المتأخرون (ابن سيد الناس) و(ابن كثير) وكذلك شأن كتب الانساب وكتب الحديث. ان هذه المصادر جميعاً مع الدور المهم للصحابة في تاريخ الامة العربية والاسلام تجعل هذا البحث مؤشراً بسيطاً ومتواضعاً على طريق دراسة حياتهم لما لها من اثر في التكوين التاريخي للامة العربية.

الصحابة لغةً :

من الصحبة وتعني المعاشرة(١)، واصطلاحا: اسم يطلق على صحابة الرسول محمد بن عبد الله (ص). وقد ورد المصطلح في القرآن الكريم في (١٠٧) آيات(٢)، واحدة منها تخص الرسول (ص) وصاحبه ابا بكر «ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا(٣)»»، وفيما عدا هذه الاية فالايات الاخرى جميعا لاتتحدث عن صحابة الرسول (ص) بالتحديد. والراجح ان المصطلح اطلق زمن الرسول (ص) تخصيصا على صحابته بدليل وروده في العديد من الاحاديث النبوية(٤). غير انه من الصعب تقدير مدى انتشار المصطلح او استخدامه في الخطاب اليومي للجماعة خاصة وقد استخدمت مصطلحات اخرى منها: (المؤمنون، المسلمون، المهاجرون والانصار) اضافة الى تصنيف ديني وتاريخي للمؤمنين يشير الى مراتب من المؤمنين على اساس درجة الايمان او اسبقيته وصل الينا في آيات قرانية او روايات تاريخية.

من الصحابة :

يرى الرازى ان الصحابة هم: (الذين شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير والتآويل وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرته واقامة دينه واظهار حقه فرضيهم له صحابه)(٥). ويتضح من هذا النص ان للصحبة شرطين أساسيين الأول عقائدى: «شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير والتآويل» والثاني سلوكى «صحبة نبيه ونصرته واقامة دينه واظهار حقه». اى شرط الوعي والايمان مقرونا بمعايشة القائد «صحبة نبيه صلى الله عليه وسلم».

اما ابن حجر فيعرف الصحابي بأنه: «من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على الاسلام»(٦) ثم يتوسع في شرح «من لقي النبي» ليشمل من طالت مجالسته او قصرت، ومن روى عنه اولم يرو، ومن غزا معه اولم يغز، ومن رآهولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى....الخ.

والصحابي طبقا لرأى احمد بن حنبل: «من صحب رسول الله (ص) سنة أو شهرا، اويوما اوساعة او رآه فهو من اصحابه، له من الصحبة على قدر ماصحبه وكانت سابقته معه وسمع منه»(٧). ويذهب مذهبه الباقلاني عندما قال: «تقرر للامة عرف في انهم لايستعملون هذه التسمية الا فيمن كثرت صحبته واتصل لقاؤه ولايجرون ذلك على من لقي المرء ساعة ومشى معه خطى» وسمع منه حديثا، فوجب لذلك ان لايجرى هذا الاسم في عرف الاستعمال الاعلى من هذه حاله، ومع هذا فأنه خبر الثقة الامين عنه مقبول ومعمول به،وان لم تطل صحبته ولاسمع منه الاحديثا واحدا»(٨).

وميز ابن عبد البر بين من صحت صحبته ومجالسته ومن لقي الرسول (ص)، او رآه او سمع منه(٩). وهذه الاختلافات تعكس لنا اتجاهين:

الاول: ينطلق من مبدأ عام يقول بوجود لمن لقي الرسول (ص) او رآه تميزه ممن لم يلقه او يره وهو اتجاه اجتماعي نابع من الرضى على مثل اجتماعي يجسد المثل الاعلى.

الثاني: ينطلق من موقف مبدئي ويشترط في الصحبة أثرها في الدين وفي الحياة الاجتماعية فهي ليست حالة تميز سلبية لمجرد لقيا رسول الله (ص)، انما هي موقف ايجابي. دور في انتصار العقيدة مما يقتضي توافر الاساسين الذين اشرنا اليهما وهما استيعاب العقيدة، والسلوك الجهادي النابع منه مقرونين بمعايشة الرسول (ص). وهذا الاتجاه ينسجم مع الفلسفة التي اقترنت بتحديد المكانة الاجتماعية والاقتصادية في الاسلام زمن عمر بن الخطاب فيما يخص مسألة تقرير العطاء. ان تصفح كتب الصحابة يمدنا بانطباع عن التقيد الدقيق في درجات صحبتهم، عندما حرص الكتاب على ذكر مقومات وعناصر الافضلية وتحديد مقاييس الصحبة لاسيما الاسبقية في الايمان والمشاركة في الغزوات والمشاهد وحتى اولئك الذين يمكن تصنفهم ضمن الاتجاه الاول مثل ابن حجر وابن عبد البر فان التدقيق في كتبهم يوحي بعدم تخلصهم كليا من الاسس الفلسفية والمنهجية للاتجاه الثاني فابن حجر في الاصابة يقسم الصحابة اربعة اقسام يتضح فيها جيدا انه يعني في القسم الاول من تنطبق عليه شروط الصحبة لتوفر مقوماتها وعناصرها كاملة غير ناقصة. وفي القسم الثاني يعني ابناءهم الذين قدموا الى رسول الله (ص) يوم ولادتهم فدعا لهم وهكذا، وهذا يعني انه التزم منهجيا بما اعتمد في هذا الخصوص من مقاييس وجارى الحاجة الاجتماعية التربوية فيما ذكر من أشخاص في الاقسام الاخرى(١٠).

وقد قامت شروط في معرفة كون الشخص صحابيا اهمها: ان يثبت بطريق التواتر انه صحابي، ثم بالاستفاضة والشهرة، ثم بان يروى عن احد من الصحابة ان فلان له صحبة مثلا، وكذا عن احد التابعين، ثم بان يقول هو اذا كان ثابت العدالة والمعاصرة: انا صحابي(١١).

ومع ذلك لم يتوصل المؤرخون الى تحديد عدد الصحابة بدقة فقد ذكر الحافظ الذهبي في التجريد انهم ثمانية الاف وذكر ابن الاثير في اسد الغابة انهم سبعة الاف وخمسمائة وأربعة وخمسون.

ولم يقتصر مصطلح الصحابي على الرجال انما شمل النساء وقد ترجم كتاب السيرة الذين اهتموا بالصحابة للصحابيات من النساء، فقد خصص ابن سعد جزء من كتابه للنساء وحذا حذوه الاخرون. غير ان اطلاق المصطلح على النسوة الاتي لهن اسلام قديم يثير مشكلة تتعلق بالشرط الثاني في تعريف الرازى للصحابي (صحبة نبيه ونصرته واقامة دينه واظهار حقه) فليس كل الصحابيات قمن بهذا الدور. ولدينا معلومات عن صحابيات لهن قدم في الاسلام وهاجرن الى الحبشة والمدينة ولعبن دوراً في المغازى وبعضهن سبقن في اسلامهن دخول الرسول (ص) دار الارقم(١٢). وبعض نساء الانصار اسلمن قبل هجرة الرسول (ص) الى المدينة وكان ازواجهن مشركين(١٣). وباستثناء خديجة بنت خويلد ونساء النبي (ص) فمعظم المهاجرات من مكة الى المدينة هاجرن في وقت متأخر لاحق للحديبية. وقد تحيرت الروايات عن نساء الانصار بلقب (مبايعة) اشارة الى مبايعتهن الرسول (ص) فقد كانت امرأتان في بعة العقبة الثانية. واول المبايعات من الانصار في المدينة هي ليلى بنت الخطيم. وفي رواية بن سعد ان الرسول (ص) تلق بيعة نساء المدينة بشكل جماعي. وفي رواية اخرى ارسل لهن عمر بن الخطاب الى بيت اجتمعن فيه فأخذ بيعتهن(١٤). ومعظم الصحابيات من الانصار عملن في السلم والحرب بالطب ومداواة الجرحى، مثل كعيبة بنت سعد التي كانت لها خيمة في المسجد تداوي بها المرضى(١٥)، وبعضهن روين عن الرسول (ص) وبعضهن جمعن القرآن، وبعضهن يؤمّنَّ أهلهن في الصلاة.

التصنيف التأريخي للصحابة:

المهاجرون :

لاحظنا في متابعتنا التطور التأريخي للدعوة في

مكة وجود هجرتين الاولى الى الحبشة وتمت على مرحلتين والثانية الى يثرب.

ونجد مصطلح المهاجرين الاولين يرد اول مرة في حديث عمر بن الخطاب «اوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين(١٦)» والواقع ان المهاجرين لم يسلموا دفعة واحدة انما تضعنا الروايات امام مستويات في الاسبقية تلقي ضوءاً على الصورة التي تشكلت بها جماعة المهاجرين وهذه المستويات هي:

اولا ــ مسلمون نصت الروايات التي وصلت الينا على اسلامهم المبكر(١٧) مثل علي بن ابي طالب وزيد بن حارثة وابي بكر الصديق(١٨)، يليهم الخمسة الذين اسلموا على يد ابي بكر وهم الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص(١٩). غير ان هذا الترتيب غير مجمع عليه فسعد بن ابي وقاص مثلا يقول انه ثالث المسلمين(٢٠)، والزبير بن العوام يقول انه رابع او خامس المسلمين(٢١). ويقال عن خالد بن سعيد بن العاص انه اسلم ثالثا أو رابعا وفي رواية ابنته خامسا بعد علي بن ابي طالب وزيد بن حارثة وابي بكر الصديق وسعد بن ابي وقاص(٢٢). وقيل عن الارقم ابن ابي الارقم سابع المسلمين وقيل اسلم بعد عشرة(٢٣)، وابو عبيدة اسلم ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون. وفي رواية اخرى معهم عبيدة بن الحارث وابو سلمة بن عبد الاسد وهذا يقتضي أنهم جميعاً من السابقين ايضا(٢٤). وقيل عن عامر بن ابي وقاص انه أسلم بعد عشرة فكان حادي عشر(٢٥). وقيل نفس الشيئ عن نعيم النحام(٢٦).

ثانيا ــ ثم يليهم الذين اسلموا قبل دخول الرسول (ص) دار الارقم ابن ابي الارقم(٢٧) ويفهم من رواية ابن سعد عن اسلام الحمزة بن عبد المطلب ان الرسول (ص) اتخذ دار الارقم مكانا لاجتماعه بأصحابه في السنة السادسة من النبوة(٢٨) والواضح ان دخول الرسول (ص) دار الارقم حصل بعد عودة الوحي ونزول الامر بالتبشير وربما يكون ابن سعد حسب فترة انقطاع الوحي فقال عام ستة من البعثة ويؤيد هذا ماذكره ابن سعد عن اسلام عمر بن الخطاب عام ستة من البعثية فلما اسلم اعلن الرسول (ص) دعوته تنفيذا للامر الذى حمله الوحي في الاية «واصدع بما تؤمر(٢٩)..» اذ من غير المعقول ان يدخل الرسول (ص) دار الارقم عام ستة ويعلن دعوته في السنة نفسها فسياق الروايات يشير الى انه بقي في دار الارقم يشعر ان جماعته قليلة ضعيفة حتى اسلم عمر فأعلن دعوته فلابد ان يكون دخلها قبل سنة ستة من البعثة بعد اسلام الارقم (وتسلسله السابع) غير ان هذا لايعني ان الرسول (ص) دخلها بعد اسلام الارقم مباشرة فالواقع ان هناك سبعة عشر صحابيا اسلموا قبل دخول دار الارقم، وهذا الرقم ليس دقيقا تماما انما يمثل فقط الذين نصت عليهم الروايات التي وصلت الينا.

ثالثاً : ويشار الى بعض الصحابة ممن نصت الروايات على اسلامهم بعد دخول الرسول (ص) دار الارقم فترد الاشارة الى عاقل بن البكير واخوته عامر واياس وخالد الذين وصفوا بانهم اول من بايع الرسول (ص) في دار الارقم بن ابي الارقم(٣٠). ويشار الى صهيب وعمار بن ياسر ممن اسلموا في دار الارقم وتذكر الروايات بانها اسلما والمسلمون بضعة وثلاثون(٣١). والراجح ان المراد بهذا الرقم كل المسلمين حتى اسلام صهيب وعمار بن ياسر.

ويرتب ابن اسحق اسلام الصحابة الاول على وفق سياق يجعلنا نؤمن بانه ترتيب تاريخي حسب اسبقية اسلامهم(٣٢). الا ان هذا لاينسجم مع الاشارة الى عددهم يوم اسلم صهيب وعمار الى حوالى تسعة واربعين وليس بضعة وثلاثين، اضافة الى هذا فان لدينا رواية حددت عددهم في دار الارقم باربعين آخرهم عمر بن الخطاب «فلما تكلموا خرجوا» اى اعلنت الدعوة(٣٣). والواقع ان هذا الاختلاف قد يكون فعلا اختلاف في الروايات حصل بسبب ما ترتب على الاسبقية في الاسلام من امتيازات اجتماعية معنوية ومادية ومن ثم ادعاء الاسلام المبكر، غير انه قد يكون ناتج عن مناهج المؤلفين المختلفة فقد كان بعضهم يميز بين الرجال

والنساء من الصحابة لذلك فالرقم الذى يذكره قد لايشمل النساء(٣٤). وقد يحصل الخلاف بسبب طريقة الحساب فربما يسقط احدهم من الحساب الاربعة الاول الذين اسلموا ومعهم الستة الذين يتبعوهم وهكذا. لقد سجلت الروايات لنا اسماء الذين اسلموا في دار الارقم ابن ابي الارقم ويبلغ عددهم ستة عشر صحابيا(٣٥).

رابعا ــ وبعد نزول الامر بالكشف عن الدعوة والجهر بها «فأصدع بما تؤمر به(٣٦)» خرج الرسول (ص) وصحبه من دار الارقم معلنين عن عقيدتهم وقد راينا كيف تم ذلك ومتى. وبين الجهر بالدعوة والهجرة الى الحبشة آمن العديد من اهل مكة وردت اسمائهم ضمن المهاجرين الى الحبشة. ومع اننا لانملك اشارات تحدد آسلامهم في هذه المرحلة غير اننا نستطيع ان نرجع ذلك طالما ذكروا في الهجرة ولم ترد الاشارة اليهم في الروايات التي تحدثت عن اسلام الصحابة قبل الهجرة الى الحبشة، ويبلغ عدد هؤلاء حوالى (سبعاً وخمسون صحابيا)(٣٧).

خامسا ــ وهناك الذين اسلموا ولم يذكروا في معظم الاحداث التي ارتبط بها تاريخ الدعوة في مكة غير انهم ذكروا في عداد البدريين من المهاجرين مما يمنحنا قناعة انهم اسلموا بعد اعلان الدعوة والخروج من دار الارقم غير ان عدم الاشارة اليهم في احداث تلك المرحلة يجعلني اعتقد انهم اسلموا بعد الهجرة الى الحبشة. ويبلغ عدد هؤلاء الصحابة واحد وثلاثين صحابيا(٣٨). والملاحظ عليهم جميعا انهم من الموالي او الحلفاء وليس بينهم سوى ثلاثة من بني عبد المطلب وثلاثة من عدى بن كعب فلو انهم كانوا مسلمين قبل الهجرة الى الحبشة لهاجروا اذ من غير المعقول ان يهاجر ابناء قريش ممن هم عشائر تحميهم ويبقى الضعفاء من الموالي والحلفاء ممن ليس لهم من يحميهم. كذلك ليست لدينا اشارة الى انهم كانوا مسجونين في قبائلهم.

سادسا ــ ويرد مصطلح المهاجرين الاولين. واول من استخدمه فيما وصل الينا من روايات، عمر بن الخطاب يوم قتل وقال: «اوصي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين ان يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، واوصيه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم ان يقبل من محاسنهم وان يعفي عن مسيئيهم وأوصيه بأهل الامصار(٣٩)».. وليس واضحا ما قصده الخليفة (بالمهاجرين الاولين) وما اذا كان المعنى بهم الذين هاجروا الى الحبشة ويثرب او الذين هاجروا الى يثرب اولا والراجح انه يقصد المهاجرين الى يثرب فقط. وقد استخدم كتاب السيرة مصطلح الخليفة عمر في دراستهم للصحابة فابن سعد في تصنيفه للصحابة المشاركين في بدر قال: (الطبقة الاولى على السابقة في الاسلام ممن شهد بدرا من المهاجرين الاولين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم ومن الانصار الذين تبوؤا الدار والايمان(٤٠)). فهو اذن يقرن المهاجرين الاولين ببدر والذين هاجروا الى الحبشة لم يشاركوا في بدر. فالراجح انهم لم يشملوا بهذا اللقب. على اية حال كتاب السيرة وضعوهم في طبقة اخرى. والمهاجرين الاولون هم كل الذين آمنوا في مكة ولم يهاجروا الى الحبشة انما بقوا الى ان اذن الله لهم بالهجرة الى يثرب. وقد لاحظنا كيف هاجر المسلمون الى يثرب، ومع ان الروايات اشارت الى هجرة بعضهم افرادا او جماعات الا ان هذا لايعني ان الروايات تطرقت اليهم جميعاً ولكننا فجأة نجد انفسنا امام قائمة ابن هشام التي بلغ عدد من فيها واحداً وسبعين مهاجراً(٤١). وقد تطرق المؤرخون الى مصطلح المهاجرين الاولين وبحثوا في اصله ومدلوله فقالوا أن الفرق بينهم وبين بقية المهاجرين صلاة القبلتين فمن صلى القبلتين مع الرسول (ص) فهو من المهاجرين الاولين(٤٢)، وقالوا الفرق بيعة الرضوان، وقالوا فتح مكة(٤٣) والاول هو الارجح.

الانصار :

لاحظنا كيف تتعدد الروايات فيما يخص علاقة الرسول (ص) بأهل يثرب، وكيف ان نجاح الدعوة واقترانه ببيعة العقبة، قد سبب ارتباكا كبيرا في تحديد اسلام اهلها غير ان المعلومات التي حوتها

كتب الصحابة والرجال قدمت الكثير من التفاصيل تختلف كثيرا عن الصورة التي قدمتها المصادر في بيعة العقبة وتعود بنا الى زمن ربما سبق او قارب الدعوة في مكة وهي في طورها السرى. غير ان قبول هذه الروايات يفترض ان يتم بحذر شديد لما يفترض توقعه من دوافع وراءها ويمكننا عامة ان نميز اتجاهين في هذه الروايات:ـ

الاتجاه الاول ـ عبرت عنه روايات تحدثت عن اسلام مبكر لبعض الاشخاص من اهل المدينة.

الاتجاه الثاني ـ عبرت عنه روايات تحدثت عن وفود من اهل المدينة قصدت مكة لاغراض شتى واسلمت عند سماعها بالرسول (ص).

اولا:ـ الاتجاه الاول :

١. الرواية الاولى : تقرن اسلام اهل يثرب بالحارث بن انس الاشهلي الاوسي(٤٤). وتفيد بان ابا الحيسر والد الحارث اصطحب خمسة عشر رجلا من فتية الاوس بينهم الحارث وذهب الى مكة ونزل على عتبة بن ربيعة يطلب حلف قريش ضد الخزرج فلم توفق هذه السفارة وسمع بها رسول الله (ص) فذهب الى القوم فجلس اليهم وقال لهم: هل لكم الى خير مما جئتم له. قالوا: وما ذاك قال: انا رسول الله بعثني الله الى عباده ادعوهم الى ان يعبدوا الله ولايشركوا به شيئا، وقد نزل علي الكتاب. قال اياس بن معاذ وكان في الوفد: ياقوم هذا والله خير مما جئتم له. فاخذ ابو الحيسر كفا من البطحاء فرمى به وجهه وقال: ما قدم وفد اذا على قوم بشر مما قدمنا به على قومنا. انا خرجنا نطلب حلف قريش على عدونا فنرجع بعداوة قريش مع عداوة الخزرج، غير أن هذا اللقاء لم يدفع احدهم الى الاسلام.

٢. الرواية الثانية : تتحدث عن اسلام اسعد بن زرارة من بني النجار من الخزرج وذكوان بن عبد قيس الزرقي الخزرجي وكانا خرجا الى مكة يتنافران الى عتيبة بن ربيعة فسمعا رسول الله (ص) فأتياه فعرض عليهما الاسلام وقرأ عليهما القرآن فأسلما ولم يربا عتبة ورجعا الى المدينة فكانا اول من قدم بالاسلام الى المدينة(٤٥) ويكمل محمد بن عمر الرواية بقوله: ثم لقيه الستة (وفد من اهل مكة) قبل العقبة الاولى وهو سادسهم (اسعد)(٤٦).

٣. الرواية الثالثة : تتعلق بعقبة بن وهب، من حلفاء اسلم في اول من اسلم من الانصار ولحق برسول الله (ص) في مكة فلم يزل معه حتى هاجر فهاجر معه الى المدينة(٤٧).

والروايات الثلاثة تصف المعنيين بعبارة (مهاجرى انصارى) اشارة الى اسلامه ومجاورته للرسول (ص) في مكة ويمتاز ثلاثة منهم هم ذكوان واسعد وعقبة بانهم شاهدوا العقبتين وشاركوا في بدر وأحد واستشهدوا فيها بأستثناء اسعد فقد توفي قبل بدر وكانوا فيمن سمى رسول الله (ص) من الاوس والخزرج نقباء على قومهم يوم بيعة العقبة الثانية باستثناء عقبة اما الحارث بن انس فقد كان بدريا وشهد معركة احد واستشهد فيها.

ثانيا ـ الاتجاه الثاني:

الوفود الاولى ـ تطرقت الروايات الى بعض الوفود التي قدمت مكة، والملاحظة الغريبة والمشتركة بين هذه الوفود ان مجيئها اقترن برغبتها في التحالف مع قريش والاستعانة بها في الصراع الدائر بين الاوس والخزرج والراجح ان ذلك تم قبل يوم بعاث، فهي سفارات تدخل في باب الاستعدادات العسكرية. وفي سياق سعيها للتحالف التقت برسول الله (ص) او اتصل به افراد منها.

١. يشار اولا الى وفادة سويد بن الصامت وما دار بينه وبين الرسول (ص) من حوار لم ينته الى نتيجة حاسمة وربما كان مقتل سويد يوم بعاث احد الاسباب التي لم تجعل للقائه بالرسول (ص) اية نتيجة بالرغم من ان الروايات تقدم انطباعا عن سويد انه كان من المؤمنين بالتوحيد طبقا لما ورد في كتاب لقمان.

٢. ويرد ذكر وفد برئاسة ابي الحيسر انس من الاوس فيه خمسة عشر رجلا من فتية الاوس بينهم ابنه الحارث واياس بن معاذ، وانهم التقوا الرسول (ص) ولم يتسن للوفد ان يخرج بنتيجة لامع قريش ولا مع الرسول (ص) بالرغم من ان ابن سعد ذكر الحارث بن ابي الحيسر مع البدريين اى انه لم يذكره مع السابقين الى الاسلام من الانصار لافي الوفود

اللاحقة ولا في البيعتين فلو كان الحارث قد لقي الرسول (ص) وتأثر به لكان له شأن في تطور موقف الاسلام في المدينة.

٣. ويشار ايضا الى وفد من اثنين من الخزرج هما اسعد بن زرارة وذكوان بن قيس الزرقي وانهما لقي الرسول (ص) فأمنا فبقي ذكوان في مكة مجاورا وعاد اسعد الى يثرب ثم رجع الى مكة ثانية في وفد من ستة رجال من الخزرج لقوا رسول الله (ص) واسلموا.(٤٨)

٤. وتذكر الروايات وفدا من ثمانية تتكرر فيهم اسماء اسعد بن زرارة ورافع بن مالك وذكوان بن قيس الزرقي وابو الهيثم ابن التيهان مع اربعة اخرين لقوا رسول الله (ص) واسلموا وهي اول مرة يشار في الروايات الى وفد ضم الاوس والخزرج.(٤٩)

٥. وتشير الروايات الى وفد العقبة الاولى وفيه اثني عشر من اهل يثرب كلهم من الخزرج باستثناء اثنين كانا من الاوس. وانهم التقوا الرسول (ص) واسلموا وبايعوا وعادوا الى يثرب ومعهم مبعوث منه يعلمهم القرآن هو مصعب بن عمير.(٥٠)

٦. وتذكر الروايات اخيرا وفد العقبة الثانية الذى ضم ثلاثة وسبعين رجلا وأمرأتين بايعوا الرسول (ص) وعين عليهم النقباء الاثني عشر.(٥١)

ومع ان الروايات رجحت وفد الستة ثم وفدي العقبة الا ان وفد العقبة الاولى هو الوفد الذى ثبتته الروايات صراحة ولكن تكرار الاسماء التي تم استعراضها في الوفود او الاتصالات قبل بيعة العقبة في اكثر من مناسبة يجعلنا نميل الى قدم اتصال الرسول (ص) بأهل يثرب ومن ثم فأن تلك الروايات تخدم فكرة وضع ترتيب تأريخي حسب الاسبقية للصحابة من الانصار.

ولكن يبقى سؤال جدير بنا ان نثيره هل يمثل وفد العقبة الثانية كل مسلمي يثرب؟ ان السياق التأريخي للاحداث لايعزز الجواب بالايجاب فالروايات اشارت الى ان الاسلام انتشر في يثرب قبل هجرة الرسول(ص)حتى لم يبق دارالافيهامسلم او مسلمة(٥٢). اضافة الى هذا فصحابة الرسول من مهاجرى مكة نزلوا منتشرين على نطاق واسع في قرى يثرب وباعداد كبيرة تجعل امكانة اعالتهم من اسرة واحدة امرا صعبا وهذا يجعلنا قادرين على افتراض انهم انتشروا وتوزعوا في دور يثرب ونحن في بدر نقف امام قائمة تضم مائة واثنين وخمسين من الانصار عدا النساء وعدا الكثير من اعضاء وفد العقبة الثانية ممن لم يشاركوا في بدر(٥٣).

اما بقية الانصار الذين وردت اسماؤهم في(٥٤) فلدينا اشارة الى انهم شاركوا في معركة بدر اضافة الى ان بعضهم نصت الروايات مباشرة على اسلامه على يد مصعب بن عمير بعد العقبة الاولى.

تكوين مجتمع الصحابة

يسود الاعتقاد حتى الان بان الذين امنوا برسول الله (ص) في مكة خاصة ومن ذكرتهم الروايات من اهل المدينة انما اسلموا عفوياً، والواقع ان هذا ليس صحيحا تماما فالرسول (ص) كان صاحب دعوة، وكان لابد ان يطلع الناس على دعوته، حتى يؤمنوا به، والراجح ان الرسول (ص) يحكم وعيه بطبيعة مجتمع مكة وتناقضاته يدرك ان الرجال الذين يريدهم ليسوا في الخط الاول من رجالات قريش ممن خاضوا في الشرك واعتنقوا حياة وسلوكا وترسخ لديهم قناعات ومصالح فهو لابد اذا ان يكون فكر في الخط الثاني والثالث ممن لم يخوضوا في الشرك الى الحد الذى يجعله بالنسبة اليهم موقفا ثابتا، ومن ثم فاننا نفترض ان نجد في المؤمنين الاول نوعين من الناس: الاول فيه صفات معينة كانت وراء سعيه الى الرسول (ص) والايمان به، والاخر كان يعيش وضعا معينا دفعه الى الاسلام غير ان كلا النوعين من المؤمنين لابد ان يكون سمع اولا بالرسول (ص) ثم اتخذ قراره ليؤمن بما يدعوا اليه وتتوافر في الروايات بعض الاشارات بأن الرسول (ص) كان يفكر ببعض الناس وربما اختارهم ليؤمنوا. في حديث ابن كثير عن اسلام ابي بكر اورد حوار دار بين ابي بكر والرسول (ص) دعوتك يا ابا بكر الى الله وحده لاشريك له ولاتعبد غيره والموالاة على طاعته(٥٥).

فأستجاب لدعوته حتى انه (ص) كان يقول دائما: مادعوت احدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة وتردد ونظر الا ابا بكر ماعكم عنه حين ذكرته، ولاتردد فيه(٥٦). والراجح ان الرسول (ص) فكر في دعوة ابي بكر لما كان يراه فيه ويراه الناس ايضا فيه، فقد وصف بانه كان رجلا مألفا لقومه محبا سهلا، وكان انسب قريش، واعلم قريش بما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامور لعلمه وتجارته وحسن مجالسته(٥٧). وقد كانت توقعات الرسول (ص) في مكانها فما اسلم ابو بكر حتى دعا الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف الى الاسلام فاستجابوا وانطلق بهم الى رسول الله (ص)(٥٨). ثم اسلم عثمان بن مظعون وابو عبيدة بن الجراح وابو سلمة بن عبد الاسد والارقم بن ابي الارقم وعبيدة بن الحارث(٥٩).

ويشار في اسلام عمر بن الخطاب ايضا ان الرسول (ص) كان يقول «اللهم أيد دينك بعمر بن الخطاب(٦٠)». وقيل انه قال «اللهم أيد الاسلام باحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب او عمرو بن هشام(٦١)». فلما قصد عمر بن الخطاب دار الارقم اخذ الرسول (ص) بمجامع ثوبة وحمائل السيف قال : اما انت منتهيا ياعمر، حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما انزل بالوليد بن المغيرة(٦٢). مما يؤكد ان الرسول (ص) كان يرغب في اسلام عمر وان ثمة محاولات قد جرت لتحقيق ذلك. والواقع ان الذين تحدثت الروايات عن اسلامهم المبكر كانوا قادة الدعوة وفي مقدمة صحابة رسول الله (ص) وممن انتهى اليهم امر قيادة الناس بعده ومنهم العشرة المبشرون بالجنة، مما كان يجعلنا نعتقد انه خطط لدعواتهم، وهذا شئ طبيعي فالرسول (ص) قائد وصاحب عقيدة يسعى الى نشرها بين الناس وهي ليست من العقائد السهلة انها تحتاج الى رجال يمتلكون مزايا ومقومات تجعلهم قادرين على تنفيذ ما يطلب منهم، والقائد يجب ان يتضح لديه طراز الناس الذين يريدهم اعوانا له متميزين وليسوا من النمط التقليدى، يجمعون الناس حوله ويوفرون له عناصر النجاح وتلتقي فيهم المثل التي تشكل السمة المشتركة للناس جميعا، ولابد ان الصحابة استوعبوا هذا المبدأ في سياسة الرسول(ص) فمصعب بن عمير عندما ذهب الى المدينة منظماً للمسلمين فيها وجد الدعوة مقتصرة على الشباب فغير من نهج الدعوة واتصل بقادة القوم من الخط الثاني الذين تقدم الى القيادة وهو شباب بعد ان استنزفت حرب بعاث كل القيادات التقليدية في يثرب من الاوس والخزرج(٦٣). فاتصل بسعد بن معاذ واسيد بن خضير فلما اسلما لم يبق دار في يثرب الا وفيه من آمن بالدين الجديد لمكانتها في قومهما. ومن خلال استعراض قائمة المسلمين الاول من اهل يثرب ودراسة شخصياتهم نجد عددا منهم يتسم بصفات خاصة وكان يعرف بالكامل بين قومه. وهم الذين كانوا يقرأون ويكتبون ويجيدون العوم والرمي(٦٤). وهم الذين اصبحوا فيما بعد قادة الانصار ونقباءهم، ويكشف لنا تاريخ الاسلام موقع هؤلاء القادة من المهاجرين والانصار في تاريخ الدعوة ودورهم في نجاحها وقربهم من الرسول (ص)، وباستثناء الانصار الذين بقوا في احيائهم لأسباب تتعلق بأمن المدينة فان الرسول(ص) انزل قادة المهاجرين حول المسجد وقريبا منه. اضافة الى مساكنهم التي كانت منتشرة في احياء الانصار من الاوس والخزرج. وحتى عندما ما بدأ الرسول (ص) ينزل المهاجرين حول المسجد فانه حرص ان يجعلهم خلف قادتهم من المهاجرين.

يكشف لنا تاريخ الدعوة الاسلامية، وموقع هؤلاء الصحابة من المهاجرين والانصار في تأريخها، ودورهم في نجاحها، وقربهم من الرسول (ص) عن قوة شخصيتهم، واذا كان دورهم في الجهاد والحياة اليومية واضحاً لدينا، فأن هذا الدور مالم يقترن بصفات شخصية كانوا يتمتعون بها ما كان كافيا ليبرز مكانتهم، ولعله من الصحيح القول ان ذلك الدور ما كان ليكون بهذا الشكل مالم تدعمه صفاتهم. ان اقتران دورهم في

الاسلام بصفاتهم هو الذى اعطاهم تلك المكانة بين الصحابة خاصة والناس عامة.

لدينا صيغتان في تشكيل قيادات الصحابة.

الاولى تتعلق بالانصار

والثانية تتعلق بالمهاجرين.

يقول ابن اسحق عن الانصار: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم. فاخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا(٦٥).» وفي رواية اخرى انه عندما لقي الانصار السبعين اخذ منهم النقباء الاثنى عشر رجلا(٦٦). ومع ان بعضهم كان من الكملة، وبعضهم من المسلمين الاول غير ان الواضح انهم اضافة الى ذلك كانوا سادة قومهم وجمعوا الى السيادة صفات ايجابية واستجابة سريعة للاسلام فأسيد بن حضير اسلم قبل اشهر من الهجرة(٦٧). ومع اننا لم نقف في الروايات اللاحقة على مدى فاعلية النقباء غير اننا نجد في تولى بشير بن البراء الرئاسة في قومه ما يشير الى عدم قبول الرسول (ص) فكرة الموقع في الاسلام على اساس السيادة في القبيلة. فعندما سأل الرسول (ص) بنسي سلمة عن سيدهم وكان البراء بن معرور قد توفي اجابوه «الجد بن قيس» قال لهم بل سيدكم بشير بن البراء بن معرور(٦٨). اى ان الرسول (ص) كان يتدخل في اختيار القادة بحدود معينة لاسيا اذا كان وجود احدهما لاينسجم والمبادئ.

اما فيا يتعلق بالمهاجرين فليست لدينا رواية مباشرة ولكن لدينا حالة وضعية العشرة المبشرين بالجنة وهم :

١. ابو بكر الصديق.
٢. عمر بن الخطاب.
٣. عثمان بن عفان.
٤. علي بن ابي طالب.
٥. سعد بن ابي وقاص.
٦. الزبير بن العوام.
٧. عبد الرحمن بن عوف.
٨. ابو عبيدة عامر بن الجراح.
٩. طلحة بن عبيد الله.
١٠. سعيد بن زيد.

ومن غير الواضح لدينا الزمن الذى بشروا فيه بالجنة ولا الاسباب الكامنة وراء ذلك وكل مانعرف تمدنا به معلومات متناثرة في كتب الصحابة. فقد اورد ابن سعد روايتين عن سعيد بن زيد تشير الى تبشير رسول الله (ص) لهؤلاء العشرة بالجنة(٦٩).

واشار البخارى الى ابي بكر وعثمان في رواية نقلا عن ابي موسى الاشعرى(٧٠). وفي الروض الانف اشار السهيلي في حديثه عن سعيد بن زيد الى انه احد العشرة وذكر ذلك عن سعد وعبد الرحمن ايضا.(٧١) ان المعلومات الاولية عن العشرة تتضمن مزايا وصفات اسلامية، فأى من العشرة لم يكن سيدا في قومه وباستثناء ابي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف لم يكن بينهم من تجاوز السابعة والعشرين من عمره، بل ان خمسة منهم كانوا دون الخامسة عشر من عمرهم (سعيد بن زيد، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، علي بن ابي طالب، سعد بن ابي وقاص) يبقى اذن القول بأنهم نشأوا في الاسلام فصفاتهم مبدئية مستوحاة من العقيدة فهم اول المؤمنين، بعضهم كان متميزا بصفات البالغين الايجابية (ابو بكر الصديق، عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف) وبعضهم كان شجاعا له منزلته في مكة، ومكانة بين العرب (عمر بن الخطاب) غير اننا لابد ان نبحث عن مبررات تبشيرهم بالجنة ولابد ان يقترن ذلك بدورهم في الدعوة .

تشير رواية بن سعد الى ان بعضهم كان له دور اسلامي قيادى في مكة، وانهم ظلوا قريبين من الرسول (ص) فلم يستقروا خارج مكة(٧٢)، وحتى الذين اشير الى هجرتهم الى الحبشة عادوا سريعا وكانوا معه في الهجرة الى المدينة حيث انزلهم حوله، وشهدوا بدراً والمشاهد كلها، وقادوا له العديد من الحملات العسكرية. فنالوا رضاه ورضا الصحابة والناس.

بناء المجتمع الجديد :

ليست لدينا معرفة تفصيلية عن حياة الصحابة قبل الهجرة الى يثرب واقامة نواة المجتمع الجديد، غير ان الصورة التى ظهروا عليها تبرزهم جماعة قائمة بذاتها او قادة يقودون عملية احتواء مجتمع يثرب وتمدنا بانطباع عن مستوى النضج العقائدى والبناء الاخلاقي والنفسي الذى كانوا عليه، وتعكس سلامة السلوك المعبر عن مبادئ العقيدة وقيم البناء الاخلاقي، ومتانة الاستجابة لها.

ان حداثة السن التي كانوا عليها يوم اسلموا تفصح لنا عن اثر السياسة التي اتبعها الرسول (ص) في بناء شخصياتهم ودور الآيات القرآنية وما تضمنته من مبادئ وقيم في تحديد الاسس التي تم بموجبها بناء شخصياتهم كما تعطي فكرة عن اثر نضالهم ضد الشرك ودوره في صقل تلك الشخصية وتعزيزها، وفي هذا الصدد يفترض بنا ان ندرك حقيقة مهمة وهي ان اولئك الصحابة كانوا يمارسون تحقيق الانقلاب في انفسهم على حياة الشرك وافكارها وقيمها وما ورثوه من ابائهم ذاتيا ووفقا لفهمهم الاحكام التي تضمنتها الآيات القرأنية وتوجيهات الرسول (ص) فوضعهم في مكة لم يكن يسمح لهم بممارسة الفعاليات الثقافية او الاجتماعية التي تحقق هذه الاغراض اما بعد الهجرة الى يثرب فقد تغيرت الاوضاع واصبحوا هم قادة المدينة واصحاب الامر والنهي فيها والسلطة في ايديهم يقودها الرسول (ص) ويعاونوه في انجاز تفاصيلها اليومية. ومعلوماتنا عن هذه المرحلة طبقا لرواية ابن اسحق تبدأ ببناء الرسول (ص) مسجده واقامة صلاة الجمعة(٧٣). والقاء اول خطبة له في المسلمين في المسجد(٧٤). والراجح ان هذه الممارسات تعكس فكرة اظهار كيان الجماعة المؤمنة في مجتمع يثرب التي قوامها المهاجرون والانصار الذين آووهم ولابد انها تضمنت ايضا ما اشارت له رواية ابن اسحق (إقامة الحدود وفرض الحلال والحرام(٧٥)) اى تحددت قواعد سلوك الجماعة. والظاهر ان الرسول (ص) وقد اطمأن الى بناء الجماعة قدمهم الى مجتمع يثرب وفي هذا المجال نقف امام عملين اساسيين :

الاول ــ الصورة التي تم بها انزال المهاجرين على الانصار في احيائهم(٧٦)، ويظهر من الروايات ان الذين اسكنوا المهاجرين في دورهم كانوا عشرين انصاريا كل منهم انزل مجموعة واكبر المجاميع نزلت عند كلثوم بن الهدم يليه رفاعة بن المنذر في عمرو بن عوف بقباء وعبد الله بن سلمة العجلان في بلعجلان بقباء والمنذر بن محمد بن عقبة غير ان اكبر مجموعة كانت مجموعة العزاب الذين نزلوا عند سعد بن خيثمة. لقد حققت هذه الطريقة في الاسكان اشياء كثيرة، فعدا انها منحت المهاجرين الحماية الضرورية في مجتمع يقوم على العادات القبيلية فهي ايضا منحتهم فرصة التكيف في تلك البيئة وعززت الروح الجديدة التي تجمع المسلمين، وهي ليست روحاً قبلية فقد تجاوزت القبيلة الى الامة، كما انها اتاحت فرصة نشؤ علاقات القرابة القائمة على الزواج والمصاهرة ولدينا روايات عن ثمان زيجات من نساء الانصار، وزيجات من الانصار في مهاجرات(٧٧). مما دفع عملية التمازج الاجتماعي الى مديات اوسع. والى جانب اسكان الصحابة انجز الرسول (ص) المؤاخاة بين المهاجرين والانصار(٧٨). وهي صيغة اتاحت نشوء عواطف وعلاقات اجتماعية متينة لصالح الاحساس بالانتماء المشترك الى امة تتدرج فيها علاقات القرابة وتتنوع صيغها وممارساتها، وهي جميعا مما يقوى الروابط الودية والقانونية بين الجماعة وتزيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية وما كان شائعا من مقاييس اجتماعية تقوم على الثروة والنسب اضافة الى انها ممارسة جديدة لم يألفها العرب.

الثاني ــ وثيقة المدينة وما ورد فيها من فلسفة اجتماعية وقانونية ومفاهيم تتعلق بتنظيم الحياة الداخلية للصحابة، وهي فلسفة تقر بعض التقاليد القبيلية والمتعارف عليها في تنظيم علاقات الناس من دون ان تتعارض مع الاسلام،

غير انها تؤطرها بمبادئ العقيدة الجديدة وتعاليمها وقيمها على نحو ينظم السلوك الاجتماعي الفردي والجماعي.

والظاهر ان هدف الرسول (ص) من وثيقة المدينة، الى جانب اهدافه الاخرى التي سبق الاشارة اليها، اطلاع اهل يثرب على بعض من اسس الحياة الداخلية للصحابة بشكل يعجل في اسلامهم مما يولد لديهم من قناعات الثقة والاطمئنان الى الدين الجديد.

غير ان هذا لايعني ان الرسول (ص) ترك حياة الجماعة سائبة من دون تدخل فأذا شعر بوجود ضغوط من المجتمع القديم تهدد حياة الجماعة وتدفعها خارج اطار العقيدة الجديدة وقف لها بالمرصاد، وتعكس لنا الروايات عامة عن اتخاذ الاذان وعن تحويل القبلة الى الكعبة حرصه على تميز المسلمين عن اليهود والنصارى(٧٩). وعندما لاحظ ضغوطهم على المسلمين من خلال تجارة الخمر او الربا جعل الامر الالهي بالتحريم يؤثر تأثيرا اجتماعيا دقيقا وحاسما(٨٠)، وعندما لاحظ اثر اليهود فيما يثيرون من شكوك وما يمارسون من تأليب واثارة لنعرات الجاهلية جابههم بالامر الالهي في النهي عن موالاتهم ومباطنتهم نهياً قاطعا(٨١). في تحقيق الفصل الاجتماعي اللازم لمحاصرة اليهود وتحصين الجماعة. ولجأ الى تحكيم الانصار من الاوس والخزرج الذين كانوا يوالون اليهود في شأنهم يوم خالفوا الوثيقة وخرجوا على حكم الله ورسوله(٨٢). محققا صيغة قانونية واجتماعية في الفصل النفسي والحقوقي بين الانصار واليهود.

اتساع المجتمع الجديد :

اعلن المجتمع الجديد عن نفسه بمعركة بدر ووصلتنا عن عدد المشاركين فيها من المهاجرين والانصار (الاوس والخزرج) ارقام متعددة يوضحها الجدول المرفق. ويبدو ان الرواية التي اشارت الى ان عددهم (٣١٣) تحظي باكثرية التواتر فقد ذكرها اربعة رواه(٨٣). تليها الرواية التي ذكرت عددهم (٣١٤) وجاء بها اثنين(٨٤) وهو المجمع عليه تقريبا(٨٥).

ويبدو ان اسباب الخلاف ناتجة عن تباين في ذكر اسماء الذين شهدوا المعركة فقد اختلف ابن اسحق ومحمد بن عمر في ذكر عدد الانصار من الاوس حيث لم يذكر ابن اسحق كلا من الحارث بن قيس، والحارث بن عرفجة فيمن شهدها(٩٠). واشار ابن سيد الناس صراحة الى تناقض ارقامه عن المشاركين في بدر مع الارقام الاخرى واشار الى ان السبب يعود الى اختلاف الرواة في بعض الاسماء(٩١) اى وجود اسماء لم يحصل عليها الاجماع عند الرواة(٩٢) وفي احد اتسع مجتمع الصحابة ليصبح حوالي (٧٠٠)(٩٣) واستمر اتساع المجتمع مع كل معركة من معارك الرسول (ص) وبمن يلتحق به من العرب. في سنة خمسه وقيل سنة تسع من الهجرة وفد ضمام بن ثعلبة السعدى الى رسول الله (ص)، وخاطبه بقوله: آمنت بما جئت به وانا رسول من ورائي من قومي. ومع اننا لانستطيع تقدير حجم من كانوا وراءه الا ان الرواية تشير الى حالة الاقبال الواسع على الاسلام التي اتسعت نطاقا بعد معركة مكة سنة ٨ هـ وقد عبرت عنها

المشاركون ببدر

المشاركون	ابن سعد نقلا عن محمد بن عمر	محمد بن اسحق	ابو معشر	موسى بن عقبة	ابن سيد الناس	محمد بن عمر الواقدى	الطبرى
المهاجرون	٨٥	٨٣	٦١	٦٣	٩٤	٨٦	بضعة وسبعون
الاوس	٦٣	٦١	—	—	٧٤	٢٢٧(٨٧)	٢٣٦
الخزرج	١٧٥	١٧٠	—	—	١٩٥	—	—
المجموع	٣٢٣(٨٦)	٣١٤	٣١٣(٨٨)	٣١٦(٨٨)	٣٦٣	٣١٣	٣١٧، ٣١٣ ٣١٤، ٣١٨

(٨٩)

الوفود التي قصدت المدينة معلنة اسلام قبائلها والراجح ان عدد الجند لايطابق عدد المجتمع، انما عدد الذين كانوا ينتدبون للقتال فقط فما عدا النساء والاطفال بيد ان اعدادا من المسلمين لم تشارك في القتال ففي رواية بن كثير عن وضع المدينة يوم خرج الناس الى بدر اشارة واضحة الى ان بعض المسلمين لم يخرجوا للقتال فعندما ارجف المنافقون واليهود بما ارجفوا عن الرسول (ص) من اشاعات «غاظ المسلمين ذلك وخافوا»(٩٤) يعني عمليا ان هناك مسلمين لم يشاركوا.

خلاصة :

تكشف هذه الدراسة الاولية اهمية دراسة مجتمع الصحابة، فهي على محدودية نطاقها والنقص الكثير في المعلومات كما تكشف عنه الجداول، تعطي فكرة عن طبيعة تشكيل مجتمع الصحابة وعن الاسس التي نما عليها هذا المجتمع. والدور الواسع الذى لعبه الصحابة في انتصار الاسلام. وكما يبدو من سياق البحث هناك فرصة لاعادة ترتيب الصحابة حسب اسلامهم ففيما يتعلق بالمهاجرين لاحظنا التميز الواضح بين مسلمين امنوا بالرسول (ص) قبل دخوله دار الارقم ومسلمون امنوا به في دار الارقم ومسلمون امنوا بعد ذلك ثم تاتي الهجرة الى الحبشة لتشكل فاصلا بين نوعين من المؤمنين نوع هاجر ونوع بقي مع الرسول (ص) يتحمل اعباء ايمانه كما لاحظنا ان عدداً كبيراً من المسلمين المهاجرين ينتمون الى بطون قريش المعروفة بناءالعدد الكبير ممن امن بالرسول (ص) بعد الهجرة وربما قبلها وبقي معه من الذين لاينتمون الى بطون قريش.

ويلاحظ ايضا توزيع المؤمنين الاول على بطون قريش ينبئ بمعلومات جديدة عن تشكيلة المؤمنين الاول التي جاءت اكثريتها من بني مخزوم وعبد الدار تليهم حجج وبني مثر وبني عامرية لمؤي ثم زهره وعدي يليهم تيم وعبد العزى وعبد شمس. وتكاد تنسحب نفس الصورة على حلفائهم فاكثر الحلفاء اسلاماً عبد شمس وعدي وزهره. واقل بطون قريش اسلاماً من صلبهم وحلفائهم بنو هاشم والمطلب، وظهرت هذه الناحية واضحة في هجرته التي سبقت خيبر.

ويلاحظ ايضا التشكيلة الواسعة لبني اسد من دوران في مكة محالفين بني عبد شمس وعددهم ثلاثة وعشرون رجلا وثمان نساء امنوا جميعاً وكانوا مصاهرين لقريش. ويغلب على المهاجرين عموماً حداثة السن فمعظمهم دون سن الثلاثين وحوالي سبعة عشر صحابياً كانوا دون العشرين. وعموماً هاجر جميع الذين بقوا في مكة الى يثرب مع الرسول (ص) وبعض مهاجرى الحبشة عادوا في زمان ليست معروفة جميعاً وغالبيتهم عادت مجتمعة سنة ٧ وصادف عودتها يوم خيبر.

اما الانصار فيلاحظ عموماً اقبال الخزرج على الاسلام فقد بقوا اكثرية في الوفود التي اتصلت بالرسول (ص) وحتى العقبة الثانية خاصة بني النجاروبنى سلمة بينما لم يشهدها سوى احد عشر رجلا من الاوس غير ان الصورة تغيرت فدخول بني الاشهل من الاوس في الاسلام كان واسعاً وكان دورهم فيا بعد واسعاً. ومعظم الانصار كانوا بين الثلاثين والاربعين من العمر عندما اسلموا مع وجود عدد غير قليل وكانوا دون العشرين وبعضهم دون الثلاثين. ومعظم الذين امنوا من الانصار كانوا من وجوه قومهم وكانوا يعرفون بالكملي واكبر عدد من شهداءهم استشهدوا في احد ثم اليمامة وبدر ومؤتة اما المهاجرين فاكثر شهداءهم كانوا في اليمامة ثم الشام ثم احد وبدر.

ان هذه الدراسة تطرح اهمية دراسة متكاملة لمجتمع الصحابة تتناول دورهم في الاسلام وحياتهم الداخلية فهذه الجماعة رغم التنويع القبلي الذي درسهم به كتاب السيرة كانت جماعة متماسكة بدون اسيجة داخلية علاقاتها تقوم على الايمان وقد توطدت علاقاتها بالمؤاخاة والاسكان المشترك ثم الزواج وصقل الجهاد هذه الحياة فجعل اصحابها في حالة حمل دائم للمبادئ فكانوا نواة امة.

المصادر

١. الارزقي : ابو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد
اخبار مكة (دار الاندلس ــ بيروت، ط ٢، ١٩١٩)
٢. البخاري : ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي
صحيح البخاري (دار مطابع الشعب).
٣. البغدادي : عبد القادر الحسيني الهاشمي الكيلاني
نواقص الروافض : مخطوط (المكتبة القادرية ــ بغداد).
٤. ابن حجر : شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي العسقلاني
الاضافة في تميز الصحابة (مكتبة الكليات الازهرية ــ مصر، ١٩٥٧).
٥. ابن حنبل : ابو عبد الله احمد بن محمد
فضائل الصحابة (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣)
٦. الرازي : ابن ابي حاتم
الجرح والتعديل (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٢)
٧. الزبيدي : ابو الفضل محمد وفق الحسني
تاج العروس.
٨. الزبيري : ابي عبد الله المصعب بن عبد الله
نسب قريش (دار المعارف، مصر، ط٢).
٩. ابن سعد : محمد
الطبقات الكبيرة (ليدن ــ بريل، ١٣٢٥هـ)
١٠. السهيلي : ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي
الروض الانف (القاهرة، ١٩٧١).
١١. ابن سيد الناس : فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد
عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير (دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤).
١٢. ابن شبه : ابو زيد عمر بن شبه النميري
تأريخ المدينة المنورة (جده، ١٣٩٣هـ).
١٣. الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير
تأريخ الرسل والملوك (دار المعارف، مصر، ١٩٦٠).
١٤. عبد الباقي : محمد فؤاد
المعجم المعترى لالفاظ القرآن الكريم (دار احياء التراث العربي ، بيروت).
١٥. ابن عبد البر
الاستيعاب في معرفة الاصحاب.
١٦. ابن كثير : ابو الفداء اسماعيل
السيرة النبوية (دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨)
١٧. المحب الطبري : ابي جعفر احمد
الرياض النظرة في مناقب العشرة (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤)
١٨. ابن منظور : ابو الفضل محمد بن مكرم
لسان العرب (دارصادر، بيروت، ١٣٧٤هـ)
١٩. الواقدي : محمد بن عمر
المغازي (ليدبن، ١٩٦٦)
٢٠. ابن هشام : ابي محمد عبد الملك
السيرة النبوية (القاهرة، ١٩٧١).

الهوامش

١. تاج العروس : ٣٣٢/١ مادة صحب.
٢. المعجم المفهرس : ص ٤٠١،٠
٣. التوبة : ٤٠، وانظر ايضا صحيح البخارى ، مجلد ٢/ج٥/ص٤ الحديث الشريف «ان الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما (وردت هكذا) عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله. ثم قال (ص): ان من آمن الناس علي في صحبته وماله ابا بكر» كذلك ص٥.
٤. صحيح البخارى : م٢/ج٥/ص٢ ، المحب الطبري: الرياضى النظرة في مناقب العشرة، ١٧/١ وانظر ايضا: الاحاديث الاخري عن الصحابة.
ـ لاتسبوا اصحابي فلو ان احدكم انفق مثل احد ذهباً ما بلغ مد احدهم ولانصيفه. البخارى ١٠/٥/٢
ـ اذا اراد الله برجل من امتي خيراً القى الله حب اصحابي في قلبه.
ـ ان الله اختارني واختار لي اصحابا فجعل لي منهم وزراء وانصاراً واصهاراً.
ـ سئلت ربي عز وجل عن اختلاف اصحابي من بعدى فاوحى الاى يامحمد ان اصحابك عندى بمنزلة النجوم في السماء بعضها اقوى من بعض.
ـ اصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم.
عبد القادر الحسيني الهاشمي الكيلاني البغدادى ، نواقض الروافض مخطوط، الاوراق ٥أ، ب، ٢٥أ، ب
ـ الله الله في اصحابي
ابن حجر: الاصابة ١١/١ بخارى ١٠/٥/٢
ـ مثل اصحابي في امتي كالملح في الطعام لايصلح الطعام الا بالملح. ابن عبد البر/ الاستيعاب ١٧/١، ٣١/١
٥. الجرح والتعديل، (دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، ١٩٥٢) ج٧/١.
٦. الاصابة : ج٧/١
وانظر ايضا صحيح البخارى :٣:٧ من صحب النبي (ص) او رآه من المسلمين فهو من اصحابه. وانظر ايضا ابن حزم: الاحكام في اصول الاحكام (ص٨٦٦) وانظر ايضا رواية الباقلاني في: الكفاية في علم الرواية (ص١٠٠) منطلقا من وجهة نظر اللغويين ايضا غير انه اشتق له تعريفا اخر سوف نأتي عليه فضلا عن فضائل الصحابة ١٠/١.
٧. صحيح البخارى : ٣/٧.
٨. فضائل الصحابة : ١٠/١ (اسم الصحابي من حيث اللغة والظاهر يقع على من طالت صحبته للنبي (ص) وكثرت مجالسته له عن طريق التبع له والاخذ عنه. وانظر ايضا رواية سعيد بن المسيب الصحابة لانعدهم الا من اقام مع رسول الله (ص) سنة او سنتين اوعزا معه غزوة او غزوتين الكفاية: ص٩٩ بالرغم من أن باحثين يعترضون على الرواية لضعف في سندها.

٩. الاستيعاب : ٤٧/١.
١٠. الاصابة : ٥/١ وانظر ايضا ص ١٠.
١١. ابن حجر : الاصابة، ٩/١.
وقد عرفت العدالة والعدل بانه (الذى لايميل به الهوى فيجور في الحكم، والعدل من الناس المرضي قوله وحكمه. ورجل عدل رضي ومقنع في الشهادة).
لسان العرب : ٤٣٠/١١ ـ ٤٣١ تاج العروس: ٩/٨.
وانظر ايضا احمد بن محمد بن حنبل: فضائل الصحابة وفيه البحث القيم في تعريف الصحابي لوصي الله ابن عباس الجزء الاول ص٩ وما بعدها.
١٢. انظر ملحق رقم (٣ ـ أ)
١٣. انظر ملحق رقم (٣ ـ ب).
١٤. طبقات بن سعد: ٢/٨
١٥. طبقات بن سعد : ٢١٣/٨
١٦. صحيح البخارى : ٢١/٥/٢
١٧. تسلسلهم في الملحق رقم ١ : (١ ـ ١٩)
١٨. سيرة بن هشام : ٢٧٧/١، ٢٨٤، ٣٨٦، ٢٨٧
١٩. سيرة بن هشام : ٢٨٨/١ ، المحب الطبري: الرياض النظرة في مناقب العشرة، ٩/١
٢٠. طبقات بن سعد : ٩٧/١/٣.
٢١. طبقات بن سعد : ٣١/١/٣.
٢٢. ابن كثير : السيرة النبوية، ٦٧/٤.
٢٣. طبقات بن سعد : ١٧٣/١/٣. ابن حجر : الاصابة، ٢٨/١
٢٤. طبقات بن سعد : ٢٨٦/١/٣ وانظر ايضا ص ٢٩٧ وانظر ايضا ابن كثير: السيرة النبوية، ذكر اسلام ابي سلمة وابي عبيدة وعثمان بن عفان والارقم في يوم واحد ١٧٣/٣. وفي رواية عائشة ان جميع هؤلاء اسلموا على يد ابي بكر على مرحلتين في يومين متتالين. انظر المحب الطبري: الرياض النظرة في مناقب العشرة ٩١/١٠

٢٥. طبقات ابن سعد : ٩١/١/٤، ابن حجر : الاصابة، ٢٥٦/٤
٢٦. طبقات ابن سعد : ١٠٢/١/٤، ابن حجر : الاصابة، ٥٦٧/٣
٢٧. تسلسلهم في الملحق رقم ١ : (١٧ ـ ٣٥) الارقم بن ابي الارقم عبد مناف بن ابي جندب اسد بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم. نسب قريش ٣٣٤. ايضا الارزقي في اخبار مكة : ٢٦٠/٢ وداره التي عند الصفا كان يتوارى فيه النبي (ص) من المشركين ويجتمع واصحابه فيه عند الارقم بن ابي الارقم ويقرئهم القرآن ويعلمهم فيه . توفي في خلافة معاوية سنة ٥٣ ويقال ٥٥ وعمره خمس وثمانون سنة، انظر طبقات ابن سعد ١٧٢/١/٣.
٢٨. طبقات ابن سعد : ٤/١/٣.
٢٩. طبقات ابن سعد : ١٩٣/١/٣.
٣٠. طبقات ابن سعد : ٢٨٢/١/٣.
٣١. طبقات ابن سعد : ١٦١/١/٣.
٣٢. سيرة بن هشام : ٢٨٨/١ تتبع اسلام الصحابة حتى ص ٣٩٤.
٣٣. طبقات ابن سعد : ١٩٣/١/٣ ، ابن حجر : الاصابة ٤٠/١، انظر رواية عبد الله بن عثمان بن الارقم.
٣٤. مثلا سيرة بن هشام : ٧٠/٢ في حساب المهاجرين الى الحبشة ذكر اربعة عشر مهاجرا مع نسائهم غير انه ختم روايته بقوله: فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى ارض الحبشة مسقطا من روايته النسوة الاربعة الذين كانوا معهم.
٣٥. تسلسلهم في الملحق رقم ١ : (٣٦ ـ ٥١)
٣٦. الحجر : ٩٤.
٣٧. تسلسلهم في ملحق رقم ١ : (٥٢ ـ ١٠٩).
٣٨. تسلسلهم في ملحق رقم ١ : (١١٠ ـ ١٤١)
٣٩. صحيح البخاري : ٢١/٥/٢.
٤٠. طبقات بن سعد : ١/١/٣.
٤١. سيرة بن هشام : ٧٠/٢، وانظر الملحق رقم ١.
٤٢. ابن شبة : تأريخ المدينة، ٤٩١/٢ رواية سعيد بن المسيب
٤٣. المصدر السابق رواية الشعبي ثم رواية الحسن. وانظر ايضاً رواية انس ابن مالك خادم الرسول (ص) وكان عمره يوم هاجر الرسول (ص) الى المدينة عشر سنين وكان يخدمه يوم بدر، قال: انه اخر من صلى القبلتين مع الرسول (ص) وتوفي سنة ٩٠هجرى وقيل بعدها. ابن حجر: الاصابة، ١١٣/١
٤٤. طبقات بن سعد : ١٤/٢/٣ رواية محمد بن عمر قال: حدثني ابراهيم عن الحصين عن بن ابي سفيان عن ابيه قال سمعت محمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة ابن وقش وأبا الهيثم بن التيهان يقولون: (الرواية).
٤٥. طبقات بن سعد : ١٣٨/٢/٣ رواية محمد بن عمر قال: قال عبد الرحمن بن عبد العزيز عن حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب قال (الرواية).
٤٦. المصدر السابق، رواية محمد بن عمر عن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن عن عمارة بن غزية قال (الرواية) وانظر ايضا ١٢٧/٢/٣ (فيما يخص ذكوان) وانظر سيرة ابن هشام : ١٠/٢ العباس بن عبادة بن الصامت مهاجرى انصارى شهد العقبة الاولى ومعركة بدر واحد واستشهد فيها.
٤٧. طبقات بن سعد : ٩٣/٢/٣ نسبة (عقبة بن وهيب بن كلدة بن الجعد بن هلال بن الحارث الفطاني)، رواية محمد بن عمر قال عبد الرحمن بن ابي الزناد (الرواية).
٤٨. انظر الملحق رقم ٢ تسلسلهم (٤ ـ ٩)
٤٩. انظر الملحق رقم ٢ تسلسلهم (١٠ ـ ١٣) اذ ان بعضهم ذكر في وفد الستة.
٥٠. تسلسلهم في الملحق رقم ٢ :(١٤) ومعظمهم ورد اسمه في التسلسل السابق.
٥١. تسلسلهم في الملحق رقم ٢ : حتى (٨٩) مع العلم ان عدد البائعين كان ٧٣ رجلا وبين الاسماء المثبتة ١٦ شخص غير مجمع عليهم.
٥٢. سيرة بن هشام : ١٨٧/٢.
٥٣. انظر طبقات بن سعد : الجزء ٣ القسم ٢ خصص للبدريين من الانصار.
٥٤. تسلسلهم في الملحق رقم ٢ بعد (٨٩).
٥٥. ابن كثير : السيرة النبوية، ٤٣٣/١ وانظر ايضا ص ٤٣٨.
٥٦. ابن كثير : السيرة النبوية، ٤٣٣/١.
٥٧. سيرة بن هشام : ٢٨٨/١ واوردها ايضا ابن كثير : السيرة النبوية ٤٣٧/١ نقلا عن ابن اسحق ايضا.
٥٨. سيرة بن هشام : ٤٨٨/١ ابن كثير : السيرة النبوية، ٤٣٧/١ وانظر ايضا ص ٤٣٨ رواية طلحة.
٥٩. طبقات بن سعد : ٢٨٦/١/٣ ابن كثير : السيرة النبوية، ٤٣٩/١.
٦٠. طبقات بن سعد : ١٩٤/١/٣.
٦١. طبقات بن سعد : ١٩٢/١/٣ ـ ابن شبه : تاريخ المدينة المنورة، ٦٥٧/٢.
٦٢. طبقات بن سعد : ١٩٢/١/٣.
٦٣. صحيح البخاري : ٥٥/٥/٢ حديث عائشة عن يوم بعاث.
٦٤. انظر ملحق رقم ٢.
٦٥. سيرة ابن هشام : ١٨٩/٢ واوردها ابن سعد بصيغة اخرى : انظر ١٣٤/٢/٣.
٦٦. طبقات بن سعد : ١٣٤/٢/٣.

٦٧. سيرة ابن هشام : ١٨٦/٢.
٦٨. طبقات ن سعد : ١١٢/٢/٣.
٦٩. طبقات بن سعد : ٢٧٩/١/٣
– عن يحيى بن سعيد الاموى عن عبيدة بن معتب عن سالم ابن ابي الجعد عن سعيد بن زيد (الرواية) وفيها سمى تسعة ولم يذكر نفسه في التسعة ويقرن الروابية (بحراء).
– عن الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن الكلبي عن سعيد بن زيد (الرواية) وفيها عشرة اسماء هو احدهم. وانظر ايضاً المحب الطبري : الرياض النظرة في مناقب العشرة، ٣٤/١ رواية عبد الرحمن بن عوف،وص ٣٥ رواية ابي زر وص ٦٦ رواية ابي موسى الاشعري.
٧٠. صحيح البخاري : مجلد ٢/ج٥/ص١٠،١٢،١٧.
– محمد بن مسكن ابو الحسن، عن يحيى بن حسان عن سلمان عن شريك ابن ابي عمر عن سعيد بن المسيب عن ابي موسى الاشعري.
٧١. سيرة ابن هشام : ٢٨٨/١، ٢٨٩، ٢٩٠.
٧٢. طبقات بن سعد : ١٣٣/١/١ رواية محمد بن عمر عن بن وهب عن يعقوب بن عتبة.
٧٣. سيرة ابن هشام : ٢٣٨/٢.
٧٤. تأريخ الطبرى : ٣٩٤/٢. سيرة ابن هشام : ٢٤٠/٢.
٧٥. سيرة ابن هشام : ٢٥٣/٢.
٧٦. انظر ملحق رقم ٤.
٧٧. انظر ملحق رقم ٤. وانظر ابن سعد ١٧٧/٨، ١٨١.
٧٨. انظر ملحق رقم ٤.
٧٩. انظر سيرة ابن هشام : ٢٥٣/٢، ٢٧٣، وانظر ايضا ابن كثير : السيرة النبوية : ٣٧٢/٢. وانظر ايضا ابن سيد الناس : عيون الاثر ٢٠٣/١، ٢٣٠.
٨٠. صحيح مسلم : ٣٩/٥ – ٤٠.
٨١. سيرة ابن هشام : ٢٧٧/٢، ٢٨٢.
٨٢. ابن سيد الناس : عيون الاثر ٧٢/٢ تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة.
٨٣. طبقات بن سعد : ١٣٤/١/٣، تأريخ الطبرى ٤٣١/٣ حيث اشاروا الى روايات محمد بن عمر وابي معشر وغيرهم وانظر ايضا الواقدى ١٥٢/١ وما بعدها.
٨٤. سيرة ابن هشام : ٩٨/٣ وانظر ايضا طبقات بن سعد (اشارة محمد بن عمر) ١٣٤/١/٣ وتاريخ الطبرى ٤٣١/٣.
٨٥. لمزيد من الاطلاع انظر تاريخ الطبرى ٤٣١/٣.
٨٦. ذكر ابن سعد الرقم الذى ذكره محمد بن عمر اجمالا وهو (٣١٣) غير ان الروايات المفردة التي ذكرها عن محمد بن عمر تجمع (٣٢٣) ونسب اليه قوله ايضا انهم (٣١٤) انظر ٣٠٤/١/٣، ١٣٤/٢/٣، فما يتعلق بالخزرج ثم الرقم الاجمالي للمشاركين.
٨٧. لم يذكر الواقدى ارقاما مستقلة للاوس والخزرج في كتاب المغازى انما جعلهم تحت عنوان الانصار ورقمه يخالف جميع الارقام التي اوردها الرواة الآخرون وتخالف الروايات التي نقلها عنه ابن سعد، انظر ١٥٢/١ وما بعدها.
٨٨. لم تصل الينا ارقام تفصيلية للانصار من ابي معشر وموسى بن عقبة.
٨٩. لم ترد عنه تفصيلات دقيقة انظر ٤٣١/٢.
٩٠. طبقات بن سعد : ٤٨/٢/٣.
٩١. ابن سيد الناس : عيون الاثر : ٢٨٤/١.
٩٢. انظر الملحق رقم ١، والملحق رقم ٢.
٩٣. ذكر ابن اسحق عدد جيش الرسول (ص) يوم احد (١٠٠٠) مقاتل رجع عبد الله بن ابي بثلثهم وكانوا من المنافقين، اى ان المسلمين (٧٠٠) مقاتلا، انظر السيرة ١٤٩/٣٨. وانظر ايضا ابن كثير : السيرة النبوية : ٢٥/٣ ذكرهم الفا وذكر المنافقين ثلاثمائة.
٩٤. ابن كثير : السيرة النبوية، ٤٧١/٢.

الانحسار العربي في الاندلس في أواخر عصر الامارة
هل كان وراءه تفوق مسيحي؟

ابراهيم القادري بوتشيش

صورت معظم الدراسات الغربية المواجهات العسكرية بين عرب الاندلس والممالك المسيحية في الثغور الشمالية، واكتساح هذه الأخيرة للأراضي الاسلامية في أواخر عصر الامارة (٢٧٥ - ٣١٦هـ) أنها جاءت تعبيراً عن تفوق مسيحي في هذه الفترة المبكرة. ونظراً لما لهذا الزعم من تجاوزات على مستوى الحقيقة التاريخية فإن هذه الدراسة المتواضعة تطمح الى الاجابة عن التساؤلين التاليين:

١. هل تكمن عوامل الانحسار العربي في الاندلس خلال هذه الحقبة في تفوق أو «صحوة» عرفتها الامارة النصرانية المتواجدة في الشمال؟

٢. وفي حالة النفي، كيف استغلت القوى المسيحية هذا التفوق الوهمي لتمرير مخططاتها، وما هي نتائج تلك المخططات على الصعيد العسكري وعلى الوجود العربي بالأندلس؟

لاشك أن بعض الصعوبات تعترض من يتصدى للاجابة عن هذين السؤالين، وهي صعوبات يمكن إجمالها في شقين:

١. إن الوصول الى إجابة تشفي الغليل، تتطلب رصداً كبيراً لأحوال الممالك المسيحية في ثغور الاندلس الشمالية، وهو أمر لم تهتم به المصادر العربية للأسف. فباستثناء إشارات متناثرة وردت عن ابن حيان وابن عذاري، فإن أغلب المصادر العربية لاذت بالصمت تجاه هذه المسألة، واكتفت في الغالب الأعم بذكر أخبار الغزوات المتبادلة بين الامارة الاندلسية و«دار الحرب» دون التعرض الى أوضاع هذه الأخيرة، مما يشكل ثغرة خطيرة يصعب تجاوزها. ومما يزيد الأمر تعقيداً أن معظم هذه المصادر جاءت متأخرة عن الحقبة التي نتوخى معالجتها(١). ولسوء الحظ فإنها اقتصرت على نقل نصوص متناثرة غير منظمة بسبب طريقة الحوليات التي دأبت على تجزئة الحدث التاريخي عبر السنين، ناهيك عن عدم تفحصها ونقدها. وإذا أضفنا الى ضياع المصنفات المنقول عنها، أمكن فهم عسر مهمة الباحث نظراً لافتقاره الى إنتاجات مؤرخين عاصروا الأحداث، أو كانوا شهود عيان لها.

يضاف الى كل ذلك أن المصادر العربية، لم تتسم كلها بالموضوعية. فحتى ابن حيان (ت سنة ٤٦٩هـ) الذي يعتبر من انبه المؤرخين، وأكثرهم

دقة ونزاهة، لم يسلم من ظاهرة التحيز، وهو أمر بديهي بالنسبة لمؤرخ عرف بتحمسه لقوميته، ودفاعه عن هويته الاسلامية.

٢. وفي المقابل، فإن المصادر المسيحسة لم تسلم من هذه الآفة، بل إنها كانت أكثر حقداً على الاسلام والعرب في شبه الجزيرة الاندلسية، فانهالت عليهم باللائمة، وحاولت تشويه مواقفهم، واختلاق تحريفات خطيرة تنم عن حقدهم ومقتهم للوجود العربي.

وللأسف، فإن المدرسة الاستشراقية التي قدر لها أن تزدهر في القرن ١٩ الميلادي، نحت نفس المنحنى، ورددت نفس المغالطات انطلاقاً من نزعة مسيحية متشنجة... فبالرغم مما يحمد لها من مساهمات رائدة في الكشف عن مسار التاريخ الأندلسي، وإنارة جوانبه المظلمة، وحل ما استعصى من معضلاته، فإنها ابتعدت عن جادة الموضوعية كلما تعلق الأمر بهذا الموضوع بالذات. فإذا استثنينا بعض الأبحاث التي كتبتها ايادي أمينة كما هو الشأن بالنسبة «لبروڤينسال» وغيره من قلة قليلة حاولت الأخذ بخيط الحقيقة، فإن الأكثرية مما كتب عن تاريخ الاندلس والصراع العربي المسيحي جاء ناطقاً بالتعصب والنزعة الضيقة، وتبرز في هذا الشأن أسماء كل من دوزي Dozy (٢) ولوجندر Legendre (٣) وبراتراند Bertrand (٤) و Rosseewst (٥) وغيرهم ممن «اتفقوا» ،وكان مقدراً لهم أن يتفقوا، على أن الموقف العسكري الذي تحول لصالح القوى النصرانية في أواخر عصر الامارة جاء بفعل تفوق الجانب المسيحي على نظيره العربي.

والواقع أن هذا الزعم غير صحيح لعدة اعتبارات: منها أن ماتحقق للقوى المسيحية من تفوق في هذه الفترة لم يكن يستمد قوته الا من ضعف الجبهة العربية الداخلية، وما كان بمقدوره أن يحصل لولا الشرخ الذي أصاب هذه الجبهة، ومن ثم لم يكن سوى تفوق سطحي ومؤقت انتهى بمجرد إلغاء شروطه الموضوعية، وبالتالي فإن تغير تلك الشروط في عصر الخلافة الذي أعقبه حدد مساراً آخر لآلية تطور الصراع العربي ـ المسيحي، وأصبح في صالح عرب الاندلس.

يضاف الى ذلك أن المنصور بن أبي عامر، وجه ـ في فترة لاحقة ـ ضربة قاصمة للقوى المسيحية، وعمل على اجتثاث جذورها بعد أن دوخ الثغور وأثخن في ممالكها. ولولا الصراع الذي حدث بين ملوك الطوائف فيما بعد، لاستمر الزحف العربي، ولاتخذ بعداً ومساراً آخر.

إن عيب هؤلاء المؤرخين فيما أزعم، يرجع الى الطابع الاجرائي التعميمي الذي وظفوه في دراستهم، وبالتالي تغييب الدراسات العينية «المجهرية» على الصعيد الزمني ،التحقيقي، وهو ما يمكن أن يتيح الكشف عن خصائص كل مرحلة، وتحديد الفترة التي بدأ فيها التفوق المسيحي الذي لم يتحقق حسب ما أجمع عليه الباحثون سوى مع بداية حركة الكشوفات الجغرافية في نهاية القرن ١٥ الميلادى، وما صاحبها من امتياز للذهب، وسيطرة على الطرق التجارية العالمية.

من هنا آثرت إطلاق لفظ «انحسار» بدل «انهيار» أو ما شابه ذلك من الألفاظ المعبرة عن نفس المعنى على هذه الحقبة التي تعد معلماً هاماً في السيرة التاريخية العربية بالاندلس.

إن ما يمكن تسميته «تفوقاً» مسيحياً في شمال الاندلس، مقابل انحسار عربي، ما كان ليبرز لولا ضعف الجبهة الاسلامية. ومن هنا تظهر أهمية التعرف على البنية الداخلية للمجتمع الاندلسي كتفسير سوي وموضوعي مقابل أى تعصب أو تشنج سيكون على حساب النزاهة العلمية. ولبلوغ هذا المراد، سنعرض أولا لبنية المجتمع الأندلسي على صعيد السلطة السياسية، وما أفرزته من شرخ في الوضع السياسي، لنستجلي بعد ذلك الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بما يمكننا من فهم حقيقة ذلك الانكفاء الذي عرفته الاندلس خلال هذه الحقبة.

على المستوى السياسي يلخص ابن عذاري(٦) حالة الاندلس السياسية في إيجاز رائع أثناء حديثه عن أحد أمراء هذه الحقبة وهو الامير عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ) بقوله: «وأفضت إليه

الخلافة وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاش، وحل عراها النفاق، والفتنة مستولية والدجنة متكاثفة».

إن رواية هذا المؤرخ تعبر بحق عن واقع سياسي مأزوم لم تعرف الأندلس نظيراً له في كل مراحلها التاريخية إذ أصبحت في هذه الحقبة عبارة عن فسيفساء من الكيانات الانفصالية المتمردة على السلطة الشرعية. وتمكن كل مغامر من قادة العسكر من تأسيس «دويلة» لها جيشها ونظمها واستقلالها التام، في وقت وقفت فيه حكومة قرطبة عاجزة عن رأب الصدع، متزلفة الى هذا الكيان أو ذاك بعد أن وصلت الى أدنى درجات الضعف والانحطاط.

ولعل هذا الضعف كان وراء جلبها لعناصر من الجنود المرتزقة أتت بهم من الأطراف الهامشية في محاولة لفل شوكة قادة الجيش الرسمي الذين اشرأبت أعناقهم نحو المزيد من التوسع والسلطة(٧). وأسفر الصراع بين الطرفين عن دخول الأندلس في دوامة من الحرب الأهلية التي زادتها روح العصبية تفجراً، وأغرقتها في صراعات دموية(٨).

ونجم عن ضعف الحكم المركزي نتائج سياسية بعيدة الغور حيث أهدرت رسوم الامارة، وأصبح قادة العسكر المستقلين مستبدين بمناطقهم، بينما عمل قادة الجيش الذين بقوا موالين للسلطة على إذكاء التشاحن داخل القصر، فكثرت الدسائس والمؤمرات والاغتيالات(٩)، وأصبح النساء يتدخلن في شئون الحكم، وغدا البلاط مرتعاً للفساد والفضائح وميوعة الأخلاق(١٠).

ونظراً لأن قادة الجيش أفرغوا النظام القائم من فعالياته، فإن وجود الولاة في المدن والقرى أصبح شكليا، وهو مايعني عدم اعتراف الأهالي بشرعيته. مصداق ذلك ماذكره اليعقوبي(١١) من أن «أهل طليطلة يخالفون بني أمية» وأن أهل بلنسية «لم يعطوا لبني أمية الطاعة».

وغني عن القول أن اندلاع الثورات الاجتماعية في المدن والبوادي، وانتشار حركة قطع الطرق(١٢)، زاد من متاعب الامارة الأندلسية التي أصبحت تفضل إغماض العين تارة، وتستخدم أساليب الاستمالة بإغداق الأموال أو إقطاع الأراضى تارة أخرى(١٣).

هذا على المستوى السياسي، أما على الصعيد الاقتصادى فإن نمط الانتاج يكشف عن سيادة النمط الاقطاعي في وضعية الأرض حيث ظلت الفلاحة قوة الانتاج الرئسية حتى أنها اعتبرت «قوام الحياة»(١٤)، «والعيش كله والصلاح كله»(١٥). بل إن ابن خلدون نعت الاندلس بأنها «أكثر المعمور فلحاً»(١٦). ومع ذلك عانت الزراعة من مشاكل متعددة يأتي في مقدمتها الجفاف الذي عصف بها عدة سنين.

وزادت وضعيتها سوءاً بسبب العلاقات الاستغلالية بين كبار الملاكين ومزارعيهم، وجهلهم لتقنيات الزراعة، فضلا عما سببته الحروب التي دارت رحاها بين الأمراء المستقلين من خراب، ناهيك عن بقاء وسائل الانتاج بدائية غير متطورة.

ونفس القول ينطبق على الصناعة التي اتسمت بركودها ومحليتها وطابعها اليدوي البسيط المخصص للاستهلاك، لا للتسويق، ولذلك أقفلت دور الصناعة أو خربت، وتم تسريح الصناع، الشئ الذي زادها تدهوراً وتفاقماً (١٧).

أما التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي، فقد تقلصت واقتصرت على الموارد المعاشية، بينما اتسمت التجارة الخارجية بانغلاقها وتقوقعها نتيجة سيطرة القوى المسيحية على شرايين التجارة في البحر الأبيض المتوسط.(١٨)

وبالاضافة الى هذه المشاكل الاقتصادية فقد عرفت خزينة الدولة إفلاساً قل نظيره. ويعزى هذا الافلاس الى عدة أسباب منها ما جبل عليه قادة العسكر الانفصاليين وكذا حكومة قرطبة من حياة البذخ والترف، والتباري في الاسراف والتبذير، وما اعتاد عليه الجند المرتزق من شره وطمع في كسب العطاءات والانعامات، كما أن فراغ بيت المال يعزى كذلك الى انقطاع النواحي المستقلة عن أداء الجباية. ولانعتقد البت بصحة ما توصل إليه أحد الباحثين(١٩) من أنه «بالرغم مما عرفته

الاندلس من اضطرابات سياسية خلال هذه الفترة فإن بيت المال لم يعرف إفلاساً».

حقيقة أن أحد المؤرخين القدامى(٢٠) انفرد برواية يفهم منها عدم تعرض بيت المال لأى أزمة. ولكن روايات مؤرخين أكثر ثقة وأقرب زمناً تدل على عكس ذلك وتؤكد كلها «قلوص الأموال»(٢١)، «وقصور مقدور الجباية»(٢٢). ونرجح حسب ماتبين من التحليل أن هذا المؤرخ لم يميز بين فراغ خزينة الدولة. وسياسة التقشف التي نهجها الامير عبد الله المعروف ببخله وزهده، مما يجعل روايته قليلة الاهمية وغير موثوق بها. وهذه حقيقة وضحها ابن خلدون بالأرقام حين ذكر أن الخراج قبل ولاية الامير عبد الله وصل الى ثلثمائة ألف دينار «مائة ألف منها للجيوش ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة فأنفقوا الوفر في تلك السنين وقل الخراج»(٢٣)، مع العلم أن الخراج كان يمثل حصة الأسد في بيت المال. وكما أن التجاء حكام قرطبة الى الاستدانة لمحاربة الثوار(٢٤) ينهض دليلا على ما عانته الامارة الاندلسية من أزمة مالية.

يتضح مما سبق أن الوضعية الاقتصادية وصلت الى حد الافلاس، والقاعدة العامة هو أن الدول كلما تضعضعت اقتصادياً أصبحت لقمة سائغة في أيدي المعتدين، الشئ الذي يفسر لماذا سارع المسيحيون الى تدشين مشروعهم التوسعي.

ولم تكن الوضعية الاجتماعية أحسن حالا، إذ أن الصراعات الاجتماعية إندلعت بشكل مثير وظهرت في صورة نعرات عصبية.

وأسفر الصراع العربي ضد المولدين من جهة، وضد البربر من جهة أخرى عن هلاك الطاقة البشرية ،المصدر الاساسي للانتاج، كما أن التناحر الطبقي خلخل بنية المجتمع الاندلسي، وهو أمر يسر مأمورية المسيحين الذين استغلوا تلك الانقسامات الاجتماعية لتحقيق أغراضهم التوسعية.

من حصاد كل ماسبق ذكره، يستنتج أن الاندلس عرفت أزمة على المستوى الداخلي، وضعفا كبيرا لم يسبق أن شهدته من قبل ولعل هذا الضعف أعطى الفرصة للقوى المسيحية لكي تظهر بمظهر المتفوق فهل كانت حقاً في مثل هذه الوضعية؟

إن استقرار الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الممالك النصرانية المتاخمة للامارة الاندلسية يكشف النقاب على انها كانت في وضعية لاتحسد عليها. فمن المعلوم أن أهم هذه الممالك تمثلت في إمارة أشتوريس وناڤارا وقشتالة بالاضافة الى إمارة برشلونه. وقد تميز التاريخ السياسي لهذه الامارات الاقطاعية بكثرة الاضطرابات والقلاقل، ومحاولة الاستيلاء على السلطة التي كان يقوم بها من حين لآخر أفراد العائلة المالكة أو النبلاء، مما أدى أحيانا الى تكوين دويلات داخل الدولة الواحدة(٢٥). ورغم بطش السلطة المركزية بزعماء الحركات الانفصالية، واستئسادها في قمعهم فإن «برمندو» Vermendu تمكن من تأسيس كيان مستقل في أسترقه Astroga (٢٦).

ويظهر أن ألفونسو الثالث فطن الى خطورة هذه الوضعية فبحث عما يكفيه مؤونة تجدد الاضطرابات وحالة اللاستقرار، وكذا إيقاف تناحر أمراء الاقطاع، فوجد الحل في إشغال المسيحيين بالحرب ضد المسلمين(٢٧)، وأغراهم بما تزخر به أرضهم من خيرات اقتصادية ولشحذ أحلامهم بإقامة مستوطنات في الاندلس.

ورغم ما أحدثه مثل هذا الاغراء من صدى طيب تجلى في تكتل أمراء الاقطاع حول السلطة المركزية، واقامة مصاهرة بين ألفونسو الثالث وملك ناڤارا(٢٨)، فإن هذا التكتل لم يكن الامصلحيا ومؤقتا، ولم يشكل خطراً حقيقياً على عرب الاندلس كما أكد ذلك أحد الباحثين(٢٩) حين ذكر أنه بالرغم من انشغال حكومة قرطبة بالثورات والحروب الداخلية فإن ألفونسو قنع بتأمين حدوده من خطر الغزو الاسلامي، وهو حكم ينطوي على مغزى عميق، ذلك أن القوى المسيحية رغم وحدتها كانت لاتزال ترى أنها ضعيفة غير قادرة على مجابهة القوى العربية في الاندلس.

ولم يكن الواقع السياسي المتردي الا انعكاسا أمنيا لتدهور الاحوال الاقتصادية في الممالك

المسيحية. ذلك أن مجموع الأراضي التي كانت تقيم فيها عبارة عن هضاب جرداء وجبال قاحلة ذات موارد اقتصادية محدودة. ولذلك لم يكن لدى السكان أى ميل نحو النشاط التجاري(٣٠)، بل وجدوا ضالتهم في الغارات والسلب والنهب حتى أن المؤرخين نعتوهم بأنهم إحدى الشعوب المحبة للحرب لما كانت تدره عليهم من غنائم اعتبرت المورد الوحيد للدولة(٣١)، ولما وفرته من إمكانية الحصول على الأموال بواسطة الفديات(٣٢).

كما أن احتكار الارض وعائداتها من طرف أقلية تمثل طبقة النبلاء أحدثت مشاكل لمملكة أشتوريس(٣٣). وأدت العلاقات المتولدة عن النظام الفيدرالي الى إفتقار السواد الاعظم من الأقنان التعساء.

وزاد تدفق اللاجئين الهاربين من الاندلس من تفاقم حدة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في كل الممالك النصرانية. ذلك أن مجيئهم أحدث تضخماً في السكان نجم عنه خلل في التوازن بين الموارد الاقتصادية والكثافة الديموغرافية. وزاد من متاعبهم ماحملوه من عادة الاعتماد على زراعات غذائية تفتقر اليها المناطق التي هاجروا اليها مثل القمح وزيت الزيتون، فعانوا من سوء التغذية، الشئ الذي أجبرهم على البحث عن مورد آخر(٣٤).

وإذا أضفنا الى ذلك ماعانته شبه الجزيرة من سنوات عجاف، وماترتب عنها من مجاعات وأوبئة، أمكن الوقوف على تدهور الأوضاع الاقتصادية في الممالك النصرانية. كما أن عدم وجود نشاط تجاري فيها أدى الى انعدام أي عملة، وهوما يفسر بقاءها في المحور الاقتصادي للجنوب(٣٥)، فلاريب أن حركة التوسع النصراني تدخل في اطار محاولة التحرر من هذا المحور.

من حصيلة ماسبق، يتضح أن الامارة الاندلسية والممالك المسيحية معاً كانت تنخرها أمراض وضعية مأزومة، ولم يكن بمقدور أى منها التطاول على الآخر نظراً لفظاعة المشاكل التي كانت يتخبط فيها. غير أن الممالك النصرانية عرفت كيف تستغل الفرصة لتحول مشاكلها الداخلية على حساب عرب الاندلس الذين عجزوا عن خلق وحدة قادرة على ردع النصارى ومحاولة بسط هيمنتهم.

ففي الوقت الذي تعاظم فيه التمزق السياسي، وانتشرت الكيانات القزمية في طول بلاد الاندلس وعرضها، كانت الممالك النصرانية تعمل على تجاوز تناقضاتها وتحاول جاهدة توحيد صفها وتمتين تماسكها تحت قيادة ألفونسو الثالث، بل دخل واجب الحرب ضد عرب الاندلس ضمن بنود المملكة الأشتورية(٣٦)، ولقب ألفونسو الثالث «بأب الشعب» اعتباراً للدور العسكري الذي سيلعبه في غزو الأراضي الأندلسية(٣٧). فكيف قدر لهذا المشروع التوسعي أن يتحقق في ظل هذه المعطيات السلبية، وما هي نتائجه على الصعيد العسكري وعلى الوجود العربي بالاندلس؟

إن الاجابة على هذه التساؤلات تشكل الشق الثاني من هذه الدراسة.

لقد بدأ المسيحيون بخطة تكتيكية تعتمد على الهجوم عوض الدفاع لايقاف «الطوائف» الاندلسية التي كانت تمطر مواقعهم الأمامية بالغزوات المكثفة. وأعطت هذه الخطة ثمارها إذ ابتداء من سنة ٢٦٠هـ بدأت غزوات المسلمين تتميز بالشحة والضعف. وفي عام ٢٦٣ قاد الامير المنذر حملة موفقة ولكنها لم تظهر بمظهر القوة كما كان الحال سابقاً، فضلا عن أن خسائر الجانب العربي لم تكن هينة(٣٨). وبعد هذه السنة تختفي أخبار الحملات العسكرية نحو «دار الحرب» بعد أن كانت تقع كل سنة. ولم تكن الغزوات التي حملت المصادر أخبارها الا لأغراض دفاعية فحسب(٣٩). وحتى المهمة ذاتها أصبحت تقع على كاهل الامارات المستقلة في الثغور. مصداق ذلك ما أورده ابن عذاري(٤٠) عن أحد هؤلاء الأمراء المستقلين فذكر أنه «في سنة ولاية المنذر غزا محمد بن لب الى ألبة والقلاع ومعه جموع المسلمين وقتلوا المشركين قتلا ذريعا».

وبالمثل، لعب التجيبيون دوراً هاماً في رد هجمات النصارى. ولكن أبرز إمارة مستقلة في الثغور واجهت المد النصراني هي امارة وشقة

بزعامة محمد بن عبد الملك الطويل الذي أثخن في حصون المسحيين سنة ٢٩٠هـ حتى أن أحد الباحثين(٤١) لقبه ببطل الجهاد ضد المسيحيين.

غير أن الامارات الثغرية نفسها لم تتمكن ـ للوهن الذي أصابها من جراء حروبها وتفاقم مشاكلها الاقتصادية ـ أن تستأصل شأفة القوى المسيحية أو تفلح على الأقل في تغيير خطتها، بل انها رغم مقاومتها، تساقطت أمام الهجمة الشرسة للقوى النصرانية أولا بأول، ولم يقدر « لبطل الجهاد» أن يصمد كثيراً إذ حصدته سيوفها سنة ٣٠١هـ (٤٢).

واستفادت القوى المسيحية من معرفتها لجغرافية المنطقة، فأدركت المواقع الاستراتيجية التي تنطلق منها الهجمات. كما استفادت من عمالة بعض الامارات الثغرية لها. وهكذا استغل غرسية بن ونقة عمالة لب بن محمد فجره الى اقامة تحالف عسكري معه(٤٣). ونفس المنحى نحا ألفونسو مع ابن مروان الجليقي. وعرفت الممالك النصرانية كيف تحافظ على هذه التحالفات في أوقات الضرورة(٤٤)، ودعمتها بوسائل أخرى كالمصاهرة(٤٥)، مدركة أهميتها في المزيد من إضعاف الامارة الاندلسية.

وبعد أن مهدت القوى النصرانية بهذه الخطط، وتأكدت بعد جس النبض أن عرب الأندلس أصبحوا في موقف دفاعي، بدأت تصعد من هجماتها وأقامت مملكة أشتوريس ونافارا حلفاً عسكرياً، ثم بدأ ألفونسو الثالث سنة ٢٦٦هـ بمساعدة عميله ابن مروان بمباغتة حصن «دويل» القريب من بطليوس فنكل بمن فيه من المسلمين(٤٦). وفي سنة ٢٦٨هـ لحقت بالجيش الاندلسي سلسلة من الهزائم إذا انتزعت منه قلمرية بواسطة قوة قادها أحد الكونتات(٤٧). وحسب أخبار البلدة اللاتينية فإن ألفونسو قام بعد ثلاث سنوات بغزوة في منطقة البرتغال ونهر التاجو، ووصل في توغله الى جبل «أريڤر» وهو مكان لم يصل إليه أحد من الأمراء المسيحيين. وبلغت خسائر المسلمين إذا صدقنا الرواية النصرانية خمسة عشر ألف قتيل(٤٨)؟

أما سنة ٢٨٠هـ فقد اعتبرت كارثة بالنسبة للامارة الاندلسية، إذ فيها احتلت مدينة سمورة بعد جهاد مرير خاضه بعض المجاهدين(٤٩). وكان لفقدانها أثر بالغ الأهمية إذ تعد من المواقع الدفاعية الرئيسية، فأصبحت منذئذ قاعدة اتخذها ألفونسو الثالث لشن غارات على القوى الاندلسية، كما جعلها بداية مشروع الاعمار الذي نفذ بحماس منقطع النظير.

ولم يكن هجوم سنة ٢٨٨هـ على طرطوشة أقل خطورة في شكله ومضمونه، إذ دهمتها قوات إمارة برشلونة، وأثخنت في الأهالي قتلا وتدميراً(٥٠). ولم تتمكن حكومة قرطبة من رد هذا الهجوم نظراً للوهن الذي اخذ ينخر قوتها العسكرية، وانهماكها في إخماد القلاقل والحركات الانفصالية في الداخل واعتباراً لما كانت تمثله إمارة بجانة في جنوب الاندلس من قوة اقتصادية، وما لمينائها من أهمية ستراتيجية، فانها تعرضت لأطماع القوى النصرانية حيث أغارت عليها قوات بحرية يقودها شنير الثاني Sunier كونت أنبروس Ampirus وذلك سنة ٢٧٦هـ . وكادت هذه الحملة أن تحصد زهرة الامارة لولا مقاومة بعض المرابطين الذين أرغموا القوات المهاجمة على توقيع صلح يلزمهم بالانسحاب(٥١).

واستمر الغزو النصراني على أشده بعد سنة ٣٠٠هـ وهي المرحلة التي كان فيها عبد الرحمن الناصر يركز سلطته ويقلم أظافر الأمراء المنتزين، فاستغلت الممالك المسيحية هذا الظرف لمواصلة غزوها حيث قامت بهجوم عنيف سنة ٣٠١هـ على مدينة يابره انتهى بهزيمة أليمة لحقت بالجيش الاندلسي. وبلغت جسامة الخسائر ما جعل الروايات العربية تؤكد على أنه «لم تدر بالاندلس دائرة على الاسلام من قبل العدو وأشنع من هذه الدائرة»(٥٢). ولم يخف الخطر النصراني الا بعد إقرار نظام الخلافة حيث استمرت الهجمات في شكل مكثف الى حدود سنة ٣١٦هـ (٥٣).

وإذا كانت القوى المسيحية قد أبرزت عضلاتها العسكرية بما فيه الكفاية خلال هذه الحقبة، فانها دخلت بعد ذلك في مرحلة جديدة من تنفيذ

خطتها وهي إرغام عرب الاندلس على توقيع اتفاقيات استسلامية.

لقد لاحظ احد الباحثين(٥٤) ـ وهوعلى حق ـ طغيان سياسة السلم في عهد الامير محمد وابنيه المنذر وعبد الله وهي الحقبة التي تهمنا. ويمكن الوقوف على صحة هذه الملاحظة من خلال مقارنتها مع الحقبة السابقة التي لم تنقطع فيها الحملات العسكرية الموجهة ضد النصارى(٥٥). ولذلك فليس ثمة مايشجعنا على الاعتقاد بصحة وصف ابن عبد ربه(٥٦) للامير محمد بأنه «كان غزاء» في المرحلة الثانية من حكمه على الاقل، والا فإن هذا الوصف ينطبق على النشاط العسكري في الداخل حيث جرد الامير المذكور حملات متعددة لقطع دابر المتمردين على حكمه.

وعلى الرغم من أن فقهاء الاندلس حذروا من الصلح مع العدو، واعتبروه مكروهاً في أقصى الحالات(٥٧)، فانهم أغمضوا أعينهم ـ تحت تأثير هذه الظروف ـ تجاه ما قامت به حكومة قرطبة من مهادنات مع الامارات النصرانية.

والواقع أن الانطلاق من التحليل الاقتصادي السياسي الآنف الذكر، يكشف أن الامارة الاندلسية أصبحت مرغمة على الدخول في سياسة سلمية مع «عدو الاندلس التاريخي» على حد تعبير الاستاذ عنان(٥٨). فالتجزئة السياسية، والانهيار الاقتصادي، والتناحرات الداخلية، مقابل تكتل النصارى ،رغم ضعفهم، جر حكومة قرطبة الى الدخول في مفاوضات سلمية معهم، وصار موضوع إقامة السلم معهم يدخل في أولويات برنامجها السياسي، ولذلك أصبحت الهدنات تتخلل الاعمال الحربية. وتذكر المصادر في هذا الصدد عدة اتفاقيات سلمية. في سنة ٢٦٥ عقدت الامارة هدنة مع ملك أشتوريس لمدة ثلاث سنوات(٥٩). وفي سنة ٢٦٨ انتهت الحملة الدفاعية التي قادها المنذر بتوقيع اتفاقية سلام ثانية(٦٠) ولكنها لم تدوم طويلا، وعوضت باتفاقية أخرى سنة ٢٧٠هـ تعتبر هامة ولو من الناحية الشكلية إذ أرسل ألفونسو الثالث سفارة الى قرطبة تمخضت عنها شروط استسلامية(٦١).

وثمة اشارة الى اتفاقية أخرى وردت عند المسعودي(٦٢) عقدت بين قرطبة والممالك النصرانية دون توضيح لتاريخ عقدها.

والملاحظ أن المعاهدات السلمية لم تقم على قدم المساواة كما وأنها كانت عرضة للخرق من جانب القوى النصرانية عندما لاتستجيب لمصلحتها أو رغبتها في التوسع.

يمكن القول بعد كل هذا أن القوى المسيحية تمكنت من جني كل ثمار خطواتها السابقة بسبب ضعف الجبهة العربية، ومن ثم فانها بدأت في آخر مرحلة من مخططها حين شرعت في تنفيذ مشروع استيطاني يعرف بحركة الاعمار Repoblacion كهدف استراتيجي محدد في برنامجها العسكري فماذا تعني هذه الحركة، وما هي أهدافها؟ وما هو أثرها في تقلص النفوذ العربي في الاندلس؟

حدد أحد الباحثين(٦٣) المفاهيم الاساسية التي تقوم عليها هذه الحركة فذكر انها تعني «إقامة المسيحيين اللاجئين في الاراضي التي استولوا عليها، والعمل على إحيائها وتنميتها». وبالرغم مما يحويه هذا المفهوم من مضمون اجتماعي ـ اقتصادي فانه يظل بعيداً عن تجسيد المعنى التاريخي لهذه الحركة. فالصراع المسيحي الاندلسي الذي ساد هذه الحقبة لم يكن سوى حلقة من حلقات الصراع بين الجانبين منذ دخول العرب المسلمين الى الاندلس، ولكنه ظهر بارزاً خلالها نظراً لانتشار ظاهرة الاقطاع وما تمخض عنها من تدهور على جميع المستويات. فهل كانت هذه الحركة تسعى الى اسكان اللاجئين المسيحيين فحسب، أم كانت مقدمة لمشروع توسعي استيطاني؟

إن ما أثبته هذا العرض من وجود احتلال فعلي من جانب القوى النصرانية، وكذا الوقوف عند الأحداث التي تلت الحقبة موضوع الدراسة، يوضح أن حركة الاعمار مثلت الارهاصات الاولى للاستعمار والتوسع، وهذا ما يجب اضافته الى التعريف السابق. بل نميل الى الاعتقاد أن الحركة الصليبية والحركة الاستعمارية الاوروبية التي تلتها

في العصور الحديثة بدأت جذورها في هذه الحقبة بالذات. وقد وقف «ميندز بيدال» M. Pedel (٦٤) على هذه الحقيقة. فعندما طرح ظاهرة الاعمار رأى أنه من اللازم إعادة النظر في المعني الذي يحمله مصطلح «عمر» الذي استعملته الوثائق اللاتينية إبان القرون الأولى لحركة الاسترداد، وخرج من ذلك بنتيجة هامة وهي أن هذا المصطلح لايعني فحسب اسكان المسيحيين في أراضي فارغة قصد تعميرها، بل خلق ادارة سياسية لصالح سكان ظلوا يعيشون في فوضى طوال فترة الحكم الاسلامي (هكذا!) وهذا يعني أنها حركة سلكت طرق ومناهج الحركات التوسعية.

وعلى أية حال، فان هذا المصطلح بدأ يظهر في المدونات اللاتينية وعقود الملكيات منذ بداية القرن الثالث الهجري، ولكنه ظهر بشكل سافر في النصف الثاني منه(٦٥).

وقد ارتبطت حركة الاعمار في الاراضي التي انتزعت من المسلمين وأعطيت للاجئين المسحيين بضرورة الدفاع عنها وتنمية مواردها والقيام بواجب الحرب ضد المسلمين. وشجعت الممالك النصرانية هذه العملية فسنت سياسة اقتصادية تقوم على اساس أن كل من أصلح أرضاً يصبح مالكاً لها. ومن ثم تجلى المضمون الاقتصادي لهذه الحركة. وبما أن أمراء الاقطاع كانوا أكثر تحملا للحروب، فانهم استفادوا من هذه الملكية الخاصة(٦٦).

والجدير بالذكر أن حركة الاعمار لم تقم على أساس ديني، بل قادها نبلاء دنيويون وكنيسيون في آن واحد، وكان رجال الدين هم السباقين الى حيازة الأراضي(٦٧).

ولاشك أن الاستيلاء على «سمورة» وبعض المواقع الأمامية في الثغور كانت بداية الانطلاق لحركة الاعمار إذ بعد احتلالها من طرف النصارى، لم تعد المسافة الفاصلة بين المواقع الاندلسية والمسيحية شاسعة كما كانت من قبل، بل كادت أن تلتصق جيوش الفريقين في بعض المناطق(٦٨)، وهو مايعني تقدم الزحف النصراني.

وكان ألفونسو الثالث هو المتزعم لهذه الحركة إذا استطاع أن يوسع حدود مملكته على حساب أراضي الاندلس. كما تمكن من اعمار المنطقة الموجودة في الطرف الشرقي من الامارة في أعالي نهر إبرو، وأماية وأستراقة وبرغش Burgos ، ومن هذه المناطق بدأ بالاندفاع نحو الجنوب(٦٩). وبهذه الحملات العسكرية المتلاحقة بلغت مساحة الاراضي المعمرة التي استولت عليها القوى المسيحية سبعين ألف كلم مربع، وهنا تتجلى خطورتها كحركة توسعية(٧٠).

واذا اعتبرنا النتائج التي خلفتها حركة الاعمار على الامارات المسيحية ذاتها فإن الأراضي المقتطعة من مساحة الامارة الاندلسية هي التي حددت الوضع الاقتصادي والاجتماعي للدويلات التي عمرتها(٧١)، كما غيرت التقسيم الجيو ـ سياسي للدويلات المكونة لشبه الجزيرة الايبيرية. وفي كل الاحوال فإن الطرف الخاسر كان هو الجانب العربي، ولم يكن هذا الفصل سوى مقدمة الفصول التي سيخسر العرب في نهايتها فردوسهم المفقود.

خلاصة القول هو أن الوجود العربي في الاندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى عرف هزة عنيفة. ولم تكن هذه الهزة نتيجة تفوق أو «يقظة» مسيحية بقدر ما كان راجعاً الى انهيار الصف العربي وتشتت قوته وانعدام تماسكه وهو مايعني بداية تشكل «أزمة الذات العربية» وهي الازمة التي تحدرت في العصور اللاحقة ولاتزال ذيولها متواجدة لحد الساعة. فهل بإمكاننا اليوم أن نستنطق تراثنا، ونتجاوز أخطاء ماضينا للاستفادة من الحاضر في مواجهة المتربصين بوطننا العربي؟

الهوامش

١ ـ لازلنا نفتقر ـ حسب ما نعلم ـ إلى مصادر تاريخية معاصرة لهذه الحقبة التي نعالجها وهي أواخر القرن الثالث الهجري. إذ من المعلوم أن أقدم إنتاج تاريخي في الأندلس عثر عليه لحد الآن هو تاريخ عبد الملك ابن حبيب (توفي سنة ٢٣٨هـ) ولحسن الحظ، فإن مؤرخاً آخر يرجح دوزي أنه ابن أبي الرقاع أوصل هذا التاريخ الى سنة ٢٧٥هـ وهي الفترة التي يبتدأ بها بحثنا هذا. ولاشك أن عدة مؤرخين عاصروا هذه الحقبة كما يفهم ذلك من عند ابن حيان كالرازي ومعاوية بن هشام الشبيني وغيرهما، ومن انتاجاتهم تعدي حكم الفقود.

٢ ـ في كتابه: Histoire des Musulmans d Espazne 3T

٣ ـ في كتابه: Nouvelle Histoire d Espazne

٤ـ في كتابه: « «

٥ ـ في كتابه: Histoire d Espazne la premierstemps jusqu'a la mort de Fernand VII 2T.

٦ ـ البيان المغرب، ج٢، ص ١٢١. انظر ايضاً ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧.

٧ ـ انظر الرسالة التي هيئتها لنيل دبلوم الدراسات العليا: أثر الاوضاع في تاريخ الأندلس السياسي، ص ١٩٩ وما بعدها.

٨ ـ نفسه، ص ٢٣٣ وما بعدها.

٩ ـ عن هذه الاغتيالات. انظر ابن خرم: نقط العروس ص ٨٧. ابن القوطية: افتتاح الاندلس ص ١٢٤ وابن الخطيب: الاحاطة، ج٣، ص ٢٨٠ وانظر كذلك: Histoire de l Espazne Musulmane. Tom II p 335 L. Provencol

١٠ ـ حول مظاهر الفساد والميوعة الأخلاقية في البلاط: انظر النادرة التي ذكرها الضبي في كتابه بغية الملتقى ص ٣٣٥ حول استغلال الغلمان في ليالي السهر.

١١ ـ كتاب البلدان ص ١٠٦.

١٢ ـ أثر الاقطاع في تاريخ الاندلس السياسي ص ٢٦٢ وما بعدها.

١٣ ـ عندما استسلم ابن حفصون في المرة الاولى جعله الأمير محمد ضمن حاشية البلاط.

١٤ ـ الطغنري: زهرة البستان ونزهة الأذهان (مخطوطة) ورقة٢ الوجه٢ .

١٥ ـ ابن عذاري: حسبة ابن عذاري ص ١٩٥.

١٦ ـ المقدمة: ص ٣٠٤.

١٧ ـ أثر الاقطاع في تاريخ الاندلس السياسي ص١٠٧ وما بعدها.

١٨ ـ انظر مقالتنا في مجلة المناهل عدد ١٩٨٥/٣٢ ص ٢٣١ ـ ٢٤٧.

١٩ ـ مؤنس: فجر الاندلس ص ٥٣٣.

٢٠ ـ إبراهيم الاشبيلي: ريحان الألباب، وريعان الشباب في مراتب الاداب. ورقة ١٣٨ وفيها يقول:«وأغنى الأمير عبد الله ـ بيت ماهم واقتصر على مؤنته».

٢١ ـ ابن حيان: المقتبس. القطعة الخاصة بعهد الامير عبد الله. ص ١٣٢.

٢٢ ـ نفسه، ص ٣٩.

٢٣ ـ كتاب العبر، ج٤، ص ٣٣١ انظر ايضاً: المقري: نفح الطيب ج١، ص٣٥٢.

٢٤ ـ مجهول: ذكر بلاد الاندلس وصفاتها. ص١٨١ (مخطوطة).

٢٥. حجي: أندلسيات. المجموعة الثانية ص ٥٤.

٢٦ ـ نفسه ص ٤٧.

٢٧ ـ Loc. op. cit Tom II p 147 : Provencol

٢٨ ـ Histoire ds Arabes et des Maures d' Espagne. Tom I p.147 : Viardot

٢٩ ـ عنان: دولة الاسلام في الاندلس. ص٦٤.

٣٠ ـ جون برنارد ترن: تراث الاسلام ص ٢٠.

٣١ ـ Histoire d Espazne Tom I p. 358 : Rosseewst

٣٢ ـ ذكر صاحب كتاب الطبقات المالكية في ترجمته لعبد الله بن يحيى الليثي نقلا عن ابن الطليان في تاريخه أن هذا الفقيه المتوفي سنة ٢٧٨هـ وهو ما يوافق تقريبا وفاة ألفونسو الثالث زعيم الغزو المسيحي أنه كان كثير الفداء من أهل الحرب. انظر ص ٦٥ ـ ٦٦ من الكتاب المذكور.

٣٣ ـ Histoire e conomique et Aociale de l' Espazne Chrehenne anmoyen age p.1 : DUFOURCQ

٣٤ ـ Jbid. p 27

٣٥ ـ جون برناند ترن: م.س ص١٩.

٣٦ ـ Loc. op. cit. p 358 : ROSSEEWST

٣٧ ـ أخبار البلدة نقلا عن المرجع السابق ص ٣٥٨. وأخبار البلدة مصدر لاتيني.

٣٨ ــ ابن الاثير: الكامل في التاريخ. ج٧، ص٣١٠ ــ ٣١١.
٣٩ ــ ابن حيان: م.س هي القطعة الخاصة بعهد الامير محمد ص ٣٨٤. انظر ايضاً:
٤٠ ــ البيان، ج٢، ص ١١٥.
٤١ ــ Provencol : Loc. op. cit. p 393
٤٢ ــ ابن عذاري: م.س ج٢، ص ١٦٤.
٤٣ ــ العذري: ترصيع الاخبار ص ٣١.
٤٤ ــ ذكر ابن حيان أن سعدون السرنباقي أحد صنائع ألفونسو الثالث قال لهذا الاخير: «حتى ألجأتنا الضرورة لهذا الملك ــ يقصد ألفونسو ــ الذي لاأصرة بيننا وبينه فعاد علينا بفضله ووسع لنا في بلدة ووثق بنا على رعيته فعشنا الى الأن في كنفه».
٤٥ ــ مثل مصاهرة إمارة بني قسي مع حكام نافارا في الشمال. انظر حجي: أندلسيات. المجموعة ٢، ص ٨١ ــ ٨٢.
٤٦ ــ ابن حيان: م.س. القطعة الخاصة بالأمير محمد ص ٣٦٩.
٤٧ ــ Provencol. Loc. op cit p 320
٤٨ ــ إنها نص الرواية كما وردت في أخبار البلدة: «في سنة ٨٨١ (٢٦٨هـ) قاد ملكنا جيشه ودخل اسبانيا ثم تقدم على طريق لوسيتانا غازيا تاجور، ووصل الى حوالى عشرة كيلو متر من ماردة وجاز على الوادي الكبير حتى وصل الى أيفر في جبال الشارات وهو مكان لم يصله أحد من الأمراء المسحيين . وقد بقي ١٥ ألف منهم في المعركة. انظر
٤٩ ــ مجهول: ذكر بلاد الاندلس وفضائلها ص ١٨١ (مخطوط)
٥٠ ــ الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين ورقة ٥٥ الوجه ٢ (مخطوط) انظر ايضا: ابن الفرضي: تاريخ علماء الاندلس ص ٢٦٠.
٥١ ــ ابن حيان: م.س القطعة الخاصة بالأمير عبد الله. ص ٨٨، انظر ايضاً: السيد سالم: تاريخ البحرية الاسلامية. ص ١٧٠ ــ ١٧١.
٥٢ ــ مجهول: نص أندلسي، ص٤٥ ــ ٤٦. ومن الخسائر الجسيمة التي يذكرها: مقتل عامل يابرة ومعه سبعمائة رجل، وسبي أربعة الاف من النساء والولدان، ويذكر «أن جثث القتلى قد ركب بعضها بعضاً، الرجال والنساء في نحو قامة سور».
٥٣ ــ انظر تفاصيل الغزوات النصرانية في كتاب المقتبس، القطعة الخاصة بعهد عبد الرحمن الناصر خلال الستة عشر سنة الاولى من حكمه أي قبل قيام الخلافة.
٥٤ ــ حجي: أندلسيات. المجموعة الثانية ص ٧٤.
٥٥ ــ يفهم ذلك من خلال نص ابن عذاري الذي يقول فيه عن سنة ٢٥٠هـ: «ولم نكن في هذه السنة ضائقة استغنى بها بالغزوة المتقدمة وأريح بها العسكر فيها» فاعتبرت هذه السنة استشهاد.
٥٦ ــ العقد الفريد ج٤، ص ٤٩٥.
٥٧ ــ الونشريسي: المعيار، ج٢، ص ٢١٠.
٥٨ ــ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية. ص ١٧١.
٥٩ ــ Provencol : Loc. op. cit p.323
٦٠ ــ حجي: م.س ص٧٣.
٦١ ــ Viardot : Histoire des Arabes et des Maures d' espazne Tom I p 147
٦٢ ــ مروج الذهب ج٢، ص٣٩.
٦٣ ــ DUFOURCQ : Loc. op cit p6
٦٤ ــ BARBERO : La formacion del feudalismo en la peninsula Sberice P p 226
٦٥ ــ DUFOURCQ : Loc. op cit. p 6
٦٦ ــ Ibid p 42
٦٧ ــ Ibid p 42
٦٨ ــ لين بول: قصة العرب في اسبانيا ص ١٠٣.
٦٩ ــ Provencol : Loc. op. cit. p 319
٧٠ ــ Dufourcq : Loc op. cit p 28
٧١ ــ Ibid p 16

المصادر والمراجع المستعملة

أولا المصادر الأصلية:

١. ابراهيم الاشبيلي (كان على قيد الحياة في القرن السادس الهجري):

ريحان الألباب، وريعان الشباب في مراتب الآداب. مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط رقم ٢٦٤٧.

٢. ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (توفي سنة ٦٣٠هـ):

الكامل في التاريخ. الجزء السابع . طبعة بيروت ١٩٦٥.

٣. ابن حزم، أبو محمد علي أحمد بن سعيد (توفي سنة ٤٥٦هـ):

نقط العروس. قطعة حققها الدكتور شوقي ضيف ونشرها بمجلة كلية الآداب بالقاهرة. المجلد١٣. الجزء الثاني. ديسمبر ١٩٥١.

٤. ابن حيان، أبو مروان خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان (توفي سنة ٤٦٩هـ):

المقتبس من أنباء أهل الاندلس. القطعة الخاصة بآخر عهد الامير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الامير محمد. تحقيق وتعليق الدكتور محمود مكي. طبعة بيروت ١٩٧٣.

٥. ابن حيان: المقتبس، القطعة الخاصة بعهد الامير عبد الله. نشر ملشور أنطونيا. طبعة باريس ١٩٣٧.

٦. ابن حيان: المقتبس، القطعة الخاصة بعهد عبد الرحمن الناصر. نشر شاليطا، كورنيطي، صبح. طبعة مدريد ١٩٧٩.

٧. ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (توفي سنة ٧٧٦هـ):

أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام. تحقيق وتعليق الاستاذ ليفي بروفنسال. طبعة بيرووت ١٩٥٦.

٨. ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة. الجزء الثالث (دون ذكر تاريخ ومكان طبع).

٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (توفي سنة ٨٠٨هـ):

المقدمة. طبعة بيروت ١٩٧٩.

١٠. ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. الجزء الرابع. طبعة بيروت ١٩٧٩.

١١. ابن عبد ربه، أبو عمر بن محمد الاندلسي (توفي سنة ٣٢٧هـ):

كتاب العقد الفريد. الجزء الرابع. شرح وتصحيح أحمد أمين وابراهيم الابياري. طبعة القاهرة ١٩٦٥.

١٢. ابن عبدون، أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله (عاش في القرن الخامس الهجري):

رسالة في القضاء والحسبة. نشرها الاستاذ ليفي بروفنسال في Journal Asialique طبعة باريس ١٩٣٤

١٣. ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (كان حيا بعد سنة ٧١٢هـ):

البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب. الجزء الثاني. تحقيق الاستاذان كولان وبروفنسال. طبعة بيروت ١٩٨٠.

١٤. ابن القوطية، أبو بكر بن محمد (توفي سنة ٣٦٧هـ):

تاريخ افتتاح الاندلس. تحقيق وتعليق عبد الله أنيس الطباع. طبعة بيروت ١٩٥٨.

١٥. الخشني، محمد بن حارث (توفي سنة ٣٦١هـ):

أخبار الفقهاء والمحدثين. مخطوطة الخزانة الحسنية رقم ٦٩١٦.

١٦. الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (توفي سنة ٥٩٩هـ):

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس. تحقيق فرانسيسكو كوديرا. طبعة مدريد ١٨٨٤.

١٧. الطغتري: أبو عبد الله محمد بن مالك (كان على قيد الحياة سنة ٤٨٠هـ):

زهرة البستان ونزهة الأذهان . مخطوطة الخزانة الحسنية رقم ١٥٣٤.

١٨. العذري، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي (توفي سنة ٤٧٨هـ):

ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني. طبعة مدريد ١٩٦٥.

١٩. مجهول. (عاش في القرن الثامن الهجري):

ذكر بلاد الاندلس وفضائلها وصفاتها وأصقاعها. مخطوطة الخزانة الحسنية رقم ١٥٢٨.

٢٠. مجهول. (توفي بعد سنة ١٠٢٥هـ):

كتاب طبقات المالكية. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د ٣٩٢٨.

٢١. مجهول: نص اندلسي يتعلق بأخبار السنين الأولى من حكم الخليفة الناصر لدين الله . نشرة الاستاذان ليفي بروفنسال وغرسية كومس. طبعة مدريد ١٩٥٠.

٢٢. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (توفي سنة ٣٤٦هـ).

مروج الذهب ومعادن الجوهر. الجزء الثاني. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبعة القاهرة ١٩٦٥.

٢٣. المقري: أحمد بن محمد التلمساني (توفي سنة ١٠٤٠هـ)
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . الجزء الاول. تحقيق احسان عباس. بيروت ١٩٦٨.
٢٤. الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي (توفي سنة ١٩١٤هـ)
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والاندلس والمغرب. الجزء الثاني. نشر وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالمغرب . طبعة بيروت ١٩٨١.

ثانيا: المراجع العربية الحديث:

٢٥. جون برنارد ترن ومجموعة من المستشرقين: تراث الاسلام . تعريب وتعليق جرسيس فتح الله المحامي. طبعة بيروت (الثالثة) دون ذكر تاريخ الطبع.
٢٦. حجي، عبد الرحمن (دكتور): أندلسيات. المجموعة الثانية . طبعة بيروت ١٩٦٩.
٢٧. سالم عبد العزيز السيد (دكتور): تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس. طبعة بيروت ١٩٦٩.
وأحمد مختار العبادي
٢٨. عنان، عبد الله (دكتور): تراجم اسلامية شرقية واندلسية . طبعة القاهرة ١٩٧٠.
٢٩. : دولة الاسلام في الاندلس . طبعة القاهرة ١٩٦٠.
٣٠. القادري، بوتشيش ابراهيم: أزمة التجارة في الاندلس في أواخر عصر الامارة . مجلة المناهل . عدد٣٢، سنة ١٩٨٥.
٣١. لين بول ستانلي: قصة العرب في اسبانيا . ترجمة على الجارم . مطبعة دار المعارف بمصر .(دون ذكر تاريخ الطبع).
٣٢. مؤنس، حسين (دكتور): فجر الاندلس . طبعة القاهرة ١٩٥٩.

ثالثاً : المراجع الأجنبية الحديثة:

33 -BARBERO (A) Y MERCEL (V) : La formacion del feudalismo en la peninsula Iberica. Ed. BARCELNA.

34 -BERTRANO (L) : Histoire d' Espazne Ed. Paris 1932

35- DOZY (E) : Histoire des Musulmans d' Espazne Tom I, II. Ed Leyde - Brill. Paris Maisonneuve 1932

36- DUCOURCQ (CH) et GAUTIER (P): Histoire e'conomique et sociale de l' Espazne Chrehenna an moyen age. Ed Paris 1976

37- LEGENDRE (M) : Nouvelle histoire d Espazne. Ed Paris 1938

38- Provencol (L) : Histoire de e' Espazne Musulmane. Tom II. Ed. Paris (maisonneuve). Lieden J Brill 1950

39- ROSSEEWST (H.M) : Histoire d' Espazne depuis les premiers temps jusqu'a la mo;rt de Fernand VII. 2-Toms. Ed. Paris.

40- VIARDOT (L) : Histoire des Arabes et des Maures b' Espazne 2 Toms. Ed. Paris 1851.

الرستميون في تاهرت ١٦٢هـ ـ ٢٩٧هـ
انتشار الاباضية في المغرب
واثره في قيام الدولة الرستمية

الدكتور رشيد عبد الله الجميلي
كلية التربية / الجامعة المستنصرية

الأباضية من الفرق الخارجية التي تنسب الى عبد الله بن أباض المرى التميمي(١)، ومن أشهر أئمتهم جابر بن زيد الازدى العماني الذى يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة، وكان جابر ينادى بالرجوع الى نظام الشورى والعدل والمساواة الذى عرف في عصر الخلفاء الراشدين، وبسبب ارائه هذه نفاه الامويون الى عمان مدة عاد بعدها الى البصرة وتوفي بها في سنة ٩٣هـ، فخلفه على إمامة الأباضية أبوعبيد مسلم بن ابي كريمة الذى ابدى تمسكا شديدا بمبادئ جابر بن زيد مما دفع الحجاج الى سجنه مع جماعة من اتباعه، ثم أفرج عنه في خلافة سليمان بن عبد الملك، ويبدو ان ابا عبيدة ادرك صعوبة الترويج لمذهب الأباضية في المشرق فتطلع نحو بلاد المغرب لبعدها عن مركز الدولة العربية في دمشق وحيث قبائل البربر التي تسودها الروح القبلية، فعهد بهذه المهمة الى ابرز تلامذته سلمة بن سعد الذى انتشر على يديه مذهب الاباضية انتشارا واسعا بين تلك القبائل في المغربين الأدنى في طرابلس واقليم قسطيلية والاوسط من مليانة الى وهران(٢).

وقد حرص البربر على التعمق في دراسة المذهب الأباضي فشدوا الرحال الى المشرق لتلقي العلوم على يدى أبي عبيدة مسلم في البصرة(٣)، وكانوا اربعة رجال هم : عبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراتي وابو داود القبلي النفزاوى واسماعيل بن ضرار الغدامسي وانضم اليهم أبو الخطاب عبد الأعلى السمح المعافرى اليمني الذى اختاره ابو عبيدة لرئاسة الدولة الأباضية التي ينوى البربر إقامتها في بلاد المغرب(٤).

وقد امتدت اقامة زعماء الأباضية في البصرة خمس سنوات عادوا بعدها الى المغرب، واتفقوا على مبايعة ابي الخطاب بالامامة، وتم اعلان قيام الدولة الأباضية في شهر محرم سنة ١٤٠هـ في موضع غربي طرابلس ثم ما لبثوا ان استولوا على طرابلس واتخذوها مركزا لهم(٥).

ومن اهم الاحداث في عهد ابي الخطاب حملته ضد الخوارج الصفرية الذين دخلوا القيروان سنة ١٤١هـ واستحلوا المحارم واساءوا الى الاسلام فاستنجد به أهلها لانقاذهم من بربر ورفجومة الصفرية ، فخرج على رأس ستة الاف فارس فاستولى في طريقه على قابس ثم واصل زحفه نحو القيروان. وتمكن من هزيمة الصفرية في صفر من السنة المذكورة واجلاهم عن المدينة بعد ان خسروا معظم رجالهم وبضمنهم زعيمهم عبد الملك بن ابي الجعد الورفجومي، ودخل أبو الخطاب القيروان وأقام بها فترة قصيرة عاد بعدها الى طرابلس استعدادا لمواجهة الجيش الذى ارسله ابو الجعفر المنصور ودارت الحرب بين الفريقين في (مغمداس) سنة ١٤٢هـ واسفرت عن هزيمة الجيش العباسي وعودة فلوله الى مصر(٦).

وبلغت اخبار هذه الهزيمة المنصور فأمر بعزل محمد بن الاشعث عن ولاية مصر ليتفرغ لمعالجة الاوضاع في المغرب، وتنفيذا لاوامر الخليفة خرج ابن الاشعث لمواجهة الأباضية بجيش كبير بلغ تعداده اربعين الف مقاتل، وكان الأباضية قد اعدوا حشودهم التي قدرها ابن عذارى بمائتي الف في ارض سرت(٧).

وقد نجح الاشعث في تمزيق حشود الأباضية وقتل زعيمهم ابي الخطاب في صفر سنة ١٤٤هـ (٨).

وكان عبد الرحمن بن رستم في طريقه لنجدة ابي الخطاب فبلغته اخبار الهزيمة في طريقه اليه فأثر الرحيل عن المغرب الادنى والتوجه الى المغرب الاوسط بعيدا عن متناول ولاة بني العباس وحيث تتوفر هناك قاعدة كبيرة من الاباضية تساعده على اقامة دولة اباضية على غرار دولة ابي الخطاب(٩).

قيام الدولة الرستمية في تاهرت :

استطاع عبد الرحمن بن رستم الافلات من قبضة العباسيين والوصول الى المغرب الاوسط ونزل بوادى سوفجج بين مدينتي سلاله شرقا والسوفر غربا وجنوبي مدينة تاهرت القديمة وتحصن بهذا الموقع، وتسارعت اليه قبائل هوارة ولواته ومكناسة ومزاته ولماية وأظهروا تأييدهم له والتفافهم حوله مما هيأ له تحقيق اهدافه في تأسيس دولة اباضية في هذا الركن من ارض المغرب العربي بعد وصوله بفترة وجيزة، خصوصا بعد ان حاز على ثقة زعماء البربر وشيوخهم، فقد ذكر الشماخي انهم نظروا فيمن يولونه عليهم «فاتفق رأيهم على عبد الرحمن لفضله وكونه من حملة العلم... ولكونه عامل ابي الخطاب على افريقية وما والاها، ولانه لاقبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل»(١٠). وهكذا تمت مبايعة عبد الرحمن بن رستم اميرا واماما للأباضية في تاهرت، وأصبحت الدولة الرستمية تمتلك من اسباب القوة ما يمكنها من الدفاع عن حدودها والوقوف في وجه اعدائها، وبفضل الجهود التي بذلها ابن رستم ظلت الدولة قائمة حتى سنة ٢٩٧هـ حيث سقطت على يدى ابي عبد الله الشيعي الذى تمكن من دخول تاهرت وقتل اخر أئمة الدولة الأباضية يقظان بن ابي يقظان وكل من ظفر به من بني رستم وارسل رؤوسهم الى اخيه أبي العباس والى ابي زاكي خليفته برقادة، فطوفت بالقيروان ثم نصبت على باب رقادة(١١).

العلاقات الخارجية للدولة الرستمية:

أ. مع الخلافة العباسية:

لم تضع هزيمة الأباضية ومصرع زعيمهم أبي الخطاب نهاية للصراع بين عمال الخلافة العباسية والخوارج، ويبدوا ان نجاح ابن الاشعث في تمزيق حشود أبي الخطاب كان حافزا له على استئصال الاباضية من المغرب الاوسط بعد ان علم بأن عبد الرحمن بن رستم خليفة ابي الخطاب قد اتخذ من جبل سوفجج حصنا له ولاتباعه، فجهز جيشا لقتال ابن رستم قبل ان يستفحل أمره، فلما وصل الى معقله أمر جنده بالنزول على سفح الجبل، وحفر خندقا حول معسكره تحسبا لاى هجوم قد يقوم به الاباضية.

واستمر محاصرا الجبل من كل ناحية مدة فشل خلالها من الوصول الى معقل ابن رستم مما اضطره الى رفع الحصار والعودة الى القيروان(١٢)، على ان حملة ابن الاشعث هذه قد أكدت لابن رستم واتباعه بانهم ليسوا بمنأى عن متناول العباسيين لذلك كان لابد له من التفكير باختيار موضع منيع تحيط به الجبال لينشئ عليه مدينة تكون عاصمة لدولته الفتية، فوقع اختياره على موضع يبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال(١٣)، وتأتي اهمية هذا الموقع كونه يقع على سفح جبل جزول(١٤) ويشكل البحر المتوسط الحدود الخلفية للمدينة مما هيأ لها حصانة طبيعية جعلت عملية اقتحامها تكاد تكون مستحيلة.

وقد شرع عبد الرحمن بن رستم بتخطيط تاهرت الجديدة وحفر اسس اسوارها سنة ١٤٤هـ وكان موفقا في اختيار موقعها. اذ لم يلبث ان تفوقت على تاهرت القديمة بوفرة المياه حيث تتوفر فيها العيون الطبيعية ويجرى فيها ايضا نهر لاينقطع ماؤه اسمه نهر مينه(١٥). كما انها كانت تتحكم في الطريق التجارى الممتد من الساحل الجزائرى الى الصحراء، حيث تشرف على الطريق المار من منطقة التلول الى اسفل وادى شلف المؤدى الى البحر كما تهيمن على القوافل التجارية المارة عبر هذا الطريق(١٦).

وهكذا اصبحت تاهرت تضاهي باقي مدن المغرب كالقيروان وسجلماسة(١٧) وفاس وغيرها حتى اطلق عليها اسم (عراق المغرب)(١٨) بسبب كثرة الوافدين عليها من أهل العراق وغيرهم، حتى اصبح المرء «لايصادف داراً الا قيل هذه لفلان الكوفي والاخرى لفلان البصرى، وهذه سوق الكوفيين ومسجدهم وذاك سوق البصريين ومسجدهم(١٩).

عاد محمد بن الاشعث الى القيروان ولم يفكر بعدها بمهاجمة الرستميين بعد ان ادرك صعوبة اقتحام مواقعهم في جبل سوفجج وقد عبر عن ذلك بقوله «ان سوفجج لايدخله الا دارع ومدجج»(٢٠)، واستمرت ولاية ابن الاشعث حتى سنة ١٤٨هـ ، فوقع اختيار الخليفة المنصور على الاغلب بن سالم ليكون واليا على افريقية، ولاشك ان المنصور كان على علم بما يدور على ارض المغرب من احداث خطيرة تمخضت عن نجاح الخوارج في تأسيس دولة تاهرت وأخرى بسجلماسة في المغرب الاقصى، وقد جاء تعيين الاغلب تعبيرا عن اهتمام الخلافة العباسية بأمور المغرب وحرصها على استقرار الاوضاع هناك، فقد كان الاغلب من رجالات الدولة البارزين الذين اسهموا في نجاح الثورة العباسية فقد شارك مع أبي مسلم الخراساني في الدعوة لبني العباس في اقاليم المشرق، كما اشترك في القضاء على حركة عبد الله بن علي الذى خرج على طاعة المنصور، وحارب ابن هبيرة، وقام بدور رئيسى في القضاء على ابن مسلم(٢١). غير ان الاغلب هذا لم يلبث ان لقى مصرعه امام الحسن بن حرب الكندى خلال المعركة التي دارت رحاها خارج القيروان في شعبان من سنة ١٥٠هـ (٢٢)، وقد تلقت الخلافة العباسية خبر مقتل الاغلب بحزن بالغ وذكر ابن الأبار ان المنصور حين سمع بهزيمة الاغلب قال: «ان سيفي بالمغرب قد انقطع، فان دفع الله عن المغرب بريح دولتنا والا فلا مغرب»(٢٣)، وبادر المنصور الى عزل عمر بن حفص بن قبيصة عن ولاية السند وولاه على افريقية ادراكا منه لخطورة الاوضاع في المغرب(٢٤)، فقد عرف الوالي الجديد بشجاعته المفرطة في ميادين القتال مما جعل الفرس يطلقون عليه لقب (هزارمرد) وتعني الف رجل دلالة على شدة بأسه ومراسه(٢٥) و انطلق عمر بن حفص الى القيروان وتمكن في فترة وجيزة من اعادة الأمن والاستقرار الى ربوع المغرب الأدنى، فأرسل اليه الخليفة المنصور يأمره بالتوجه الى طبنه ــ قاعدة اقليم الزاب ــ والمباشرة بتحصينها لتكون قاعدة لعملياته المقبلة ضد الرستميين بتاهرت والصفرية في تلمسان وسجلماسة.

وتنفيذا لأمر الخليفة رحل عمر بن حفص عن القيروان بعد ان استخلف عليها حبيب بن حبيب المهبلي نائبا عنه، فاستغل البربر خلو القيروان من العساكر وشرعوا بشن سلسلة من الهجمات في نواحي المدينة مما اضطر حبيب الى محاربتهم غير انه لقي مصرعه، وتوجه البربر نحو طرابلس وولوا عليهم

أبا حاتم الأباضي فأسرع الجنيد بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس الى طلب النجدة فأمره الأخير بفرقة من الجند، غير ان أبا حاتم تمكن من هزيمته وحصره بقابس(٢٦).

والواقع ان هذه العمليات كانت مقدمة لهجوم واسع النطاق وفرت الأباضية له جميع امكاناتها، وقد صور المؤرخ ابن الأثير الموقف فقال «وانتفضت افريقية من كل ناحية ومضوا الى طنبه فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا منهم: أبو قرة الصفرى في اربعين الفا وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر الفا، وأبوحاتم في عسكر كثير، وعاصم السدراتي الاباضي في ستة الاف، والمسعود الزناتي الأباضي في عشرة الاف فارس، وغير ما ذكرنا»(٢٧).

وأمام هذه الحشود الهائلة شعر الوالي العباسي بحراجة الموقف، فعمد الى السياسة وحاول احداث صدع في جبهة اعدائه، فعرض على بعض زعمائهم الاموال مقابل انسحابهم ونجحت الخطة وانصرفت صفرية المغرب الأقصى بجزء كبير من الجيوش المحاصرة لمدينة طنجه، ثم استعد لمواجهة اعدائه كلاً على حدة، فأرسل معمر بن عيسى العبدى لقتال عبد الرحمن بن رستم، فاستطاع معمر الحاق الهزيمة بالرستميين في تهودة وانهزمت فلولهم الى تاهرت(٢٨)، في نفس الوقت الذى نجح فيه عمر بن حفص بدخول القيروان والانضمام الى المجاهدين للدفاع عن المدينة، وكانت تطورات الاحداث في المغرب قد بلغت الخليفة المنصور فقرر أرسال يزيد بن حاتم على رأس جيش كبير بلغ اربعين الف وقيل ستين الف مقاتل لانقاذ القيروان وفي نفس الوقت ارسل الى واليه عمر بن حفص يدعوه للصمود ريثما تصل اليه الامدادات(٢٩).

ويبدو ان عمر بن حفص عز عليه انتظار نجدة الخليفة لفك الحصار عن القيروان وأثر القتال حتى الموت اعتزازا بالنفس وانفة من الهوان وحتى لا «تتحدث نسوة العتيك ان يزيدا اخرجني من الحصار، وانما هي رقدة حتى ابعث للحساب»(٣٠)، وهكذا خرج عمر بن حفص يقاتل حتى قتل في ذى القعدة من سنة ١٥٤هـ (٣١). لقد كانت حملة يزيد بن حاتم هذه تعبيرا عن تصميم الخلافة العباسية وعزمها على الاحتفاظ بالمغرب الأدنى لتحول دون تحقيق تطلعات الخوارج في المغربين الاوسط: حيث تجمعات الاباضية بزعامة عبد الرحمن بن رستم وفي المغرب الاقصى: حيث تأسست في جنوبه دولة بني واسول بسجلماسة. وقد بلغ من اهتمام المنصور بهذه الحملة وقلقه على اوضاع المغرب ان خرج مصاحبا لها حتى فلسطين(٣٢)، وبلغت نفقات تجهيزها حسب رواه الذهبي ثلاثة وستين الف درهم «وقال: هذه نفقة لم يسمع بمثلها أبدا»(٣٣).

وقد تمكن يزيد من اعادة الامن والاستقرار الى المغرب الأدنى عبر سلسلة من المعارك ضد تجمعات البربر الصفرية بقيادة ابي حاتم الخارجي، ونجح في دخول القيروان رافعا الاعلام العباسية. واعاد مسجدها الجامع(٣٤).

على ان الصراع بين ولاة بني العباس والرستمين لم يعديكتسي طابع الحدة بعد وصول يزيد بن حاتم الذى كسر شوكة الأباضية في طرابلس ونواحي المغرب الأدنى، فقد عاد عبد الرحمن بن رستم بعد هزيمته امام قوات بن حفص الى حصنه بتاهرت بعيدا عن متناول الجيوش العباسية، بل ان العلاقات بين الرستميين وولاة بني العباس سجلت تحسنا ملحوظا بعد قيام دولة الادارسة في المغرب الاقصى التي باتت تشكل خطرا يهدد الرستميين والعباسيين في آن واحد.

واستنادا الى ماذكره ابن خلدون فان عبد الرحمن بن رستم سعى قبل وفاته بعام واحد الى مصالحة روح بن حاتم والى القيروان فأجيب الى رغبته، واستمر الهدوء يسود العلاقات بين تاهرت والقيروان حتى عكره عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم في عهد الأغالبه عندما هاجم طرابلس سنة ١٩٦هـ (٣٥). على ان الهدوء الذى ساد العلاقات بين القيروان وتاهرت خلال هذه الفترة لايعنى ان العباسيين قد غيروا من موقفهم نحو الرستميين. فلم تتوقف محاولاتهم الرامية الى القضاء على الخوارج في المغرب الاوسط على الرغم من ان هذا الهدف اصبح من اولى مهمات الاغالبة الذين اقاموا دولتهم بدعم وتأييد من الخلافة

العباسية ليقفوا في وجه اعدائها ويحولوا دون تقدمهم نحو الشرق.

وقد حرصت الخلافة العباسية على اثارة المشاكل في وجه ائمة الأباضية في تاهرت وشجعت القوى المضادة على التمرد ضد السلطة، كما حدث في عهد افلح بن عبد الوهاب الذى واجه ثورة قادها خلف بن السمح، وثورة فرج النفوسي المعروف بنفات بن نصر الذى اعلن التمرد على السلطة فلما تأهب افلح لقتاله غادر المغرب ملتجأ الى العباسيين في بغداد(٣٦).

كذلك عمد العباسيون الى الايقاع بالعناصر الرستمية البارزة القادمة الى المشرق قصد تأدية فريضة الحج، حيث تم القاء القبض على أبي اليقظان محمد بن أفلح من قبل والى مكة، واودع السجن ببغداد في خلافة الواثق بالله(٣٧)، وذكر الباروني ان جماعة الكوفيين المتواجدين في كنف الدولة الرستمية قد قامت بتحريض من العباسيين باثارة الفتن والاضطرابات في عهد أبي حاتم يوسف ابن محمد بن افلح(٣٨).

وقبل ان ننهى الحديث عن علاقة الرستميين بالخلافة العباسية لابد من الاشارة الى العوامل التي ساعدت على تصاعد الاحداث في منطقة المغرب التربي ويأتي في مقدمتها المشاكل والحركات التى كان العباسيون يواجهونها في اقاليم المشرق والتى استقبطت اهتمام الخلافة واستنزفت الكثير من طاقات الدولة، بالاضافة الى انشغال العباسيين بتصفية اعدائهم ومعارضيهم في الداخل.

وكان للعامل الجغرافي والسكاني في دوره في تطور الاوضاع في المغرب اذ لايخفي ان بعد مركز الخلافة عن مسرح الاحداث قد جعل عملية السيطرة على الاوضاع هناك تواجه صعوبات ومشاكل كثيرة في مقدمتها العامل الزمني، حيث كان وصول امدادات الخلافة الى مناطق الاضطرابات تستغرق وقتا ليس بالقصير مها يهيئ للخارجين على السلطة احكام سيطرتهم على الموقف هناك. ويجعل مهمة اعادة الاوضاع الطبيعية تكلف الخلافة المزيد من التضحيات والموارد.

وبالاضافة الى ماتقدم فان الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اقاليم المغرب العربي قد لعبت دورا كبيراً في خلق الصعوبات في وجه الخلافة العباسية، حيث اصبحت هذه المنطقة نقطة استقطاب للعناصر الخارجة عن طاعة العباسيين والتي وجدت ترحيبا وميلا من لدى بعض العناصر السكانية في المغرب العربي وفي مقدمتها البربر الذين شكلوا قاعدة واسعة لفرق الخوارج التي لجأت الى المغرب منذ العصر الاموى.

ولولا الجهود التي بذلها الولاة العباسيون لآل مصير المغرب الادنى (افريقية) الى ما آل اليه المغرب الاوسط والاقصى، وقد بلغت خطورة الاوضاع ذروتها خلال ولاية هرثمة بن اعين الذى كتب الى الرشيد طالبا اعفاءه من الولاية لما رأى ما يتهدد البلاد من اخطار جسيمة فعاد الى بغداد سنة ١٨١هـ (٣٩).

ولاشك ان افتقار الخلافة الى قوة بحرية فعالة تستطيع توفير امكانات الصمود للعناصر الموالية للعباسيين في شمال افريقية كان من اسباب اخفاق الخلافة في حسم الموقف هناك على الرغم من الحملات العديدة التي حرصت على توجيهها بين الحين والأخر، ومشاهير الرجال الذين اختارتهم لقيادة تلك الحملات(٤٠).

وهكذا اصبح وجود قاعدة ثابتة في المغرب الادنى تقف حائلا دون اتساع رقعة الكيانات السياسية التي قامت في المغربين الاوسط والاقصى امرا ضروريا عبرت عنه دولة الاغالبة التي يعتبر قيامها نقطة تحول في سياسة العباسيين نحو المغرب العربي، ويعلل فاندر هيدن موافقة العباسيين على منح الاغالبة الاستقلال بحكم المغرب الادنى بأنه تعبير عن فشلهم في مواجهة الاوضاع الجديدة في المغرب بعد قيام الرستميين والادارسة وبني مدرار بتأسيس كيانات سياسية توزعت على المغربين الاوسط والاقصى(٤١).

ب ـ العلاقات بين الرستميين والاغالبة:

تهيأت الفرصة امام ابراهيم بن الاغلب لأقامة امارة وراثية ترتبط اسميا بالخلافة العباسية بعد رحيل هرثمة بن أعين الذى اثنى على ابراهيم وأشاد بكفايته واخلاصه للخلافة العباسية واقنع الرشيد بتوليته على المغرب الادنى بعد ان اصبح يتمتع بتأييد السكان ودعمهم لحكمه(٤٢)، وقد اشار الانصارى الى ان ابن الاغلب لم يطلب امرة افريقية من الرشيد الااستجابة لالحاح سكانها(٤٣).

عهد الرشيد الى ابراهيم بن الاغلب بولاية افريقية (المغرب الادنى) في المحرم من عام ١٨٤هـ وكان ذلك ايذانا بانتهاء عصر الولاية وبداية عصر الاستقلال الذاتي، وتبعا لذلك استقل ابن الاغلب بحكم المنطقة واورثها اولاده من بعده. وقد استمرت دولة الاغالبة قائمة حتى سنة ٢٩٦هـ حيث سقطت تحت ضربات الفاطميين(٤٤).

لقد كان قيام دولة الاغالبة في اطار الولاء للخلافة العباسية ولذلك فأن علاقاتها مع دول المغرب والاندلس لابد ان تخضع لهذه السياسة وتتأثر تبعا لمواقف تلك الدول من الخلافة العباسية(٤٥)، ومن المعلوم ان عبد الرحمن بن رستم كان قد اقام دولته على انقاض نفوذ الخلافة العباسية المتداعي في المغرب الاوسط وكان يتطلع الى ضم المغرب كله(٤٦) وقد انعقدت آمال الخوارج على الدولة الرستمية في تاهرت لتكون ركيزة لدولة كبرى تشمل المغرب والمشرق على السواء، لذلك عمل خوارج المشرق على تدعيم حكم الرستميين وحرصوا على ارسال الاموال وتقديم المساعدات اليهم(٤٧).

والواقع ان سياسية الرستميين واهدافهم التوسعية في المغرب لاتحتاج الى دليل فقد قاموا بفرض نفوذهم على المناطق المجاورة لطرابلس كما قاموا باحراق مدينة العباسية التي بناها محمد بن الاغلب، وحرصوا على اثارة القلاقل في وجه امراء القيروان وعقد المحالفات مع الامويين في الاندلس(٤٨). لذلك كان من الطبيعي ان يسلك الاغالبة مسلكا عدائيا تمشيا مع سياستهم في معاداة اعداء الخلافة العباسية، وقد كان للخلاف المذهبي بين الاغالبة (المالكيين) والرستميين (الأباضية) قد زاد من حدة العداء بينهما بالاضافة الى تداخل الحدود وعدم وضوح معالمها، حيث احاط الرستميون بدولة الاغالبة من الجنوب والشرق والغرب، كما فرضوا سيطرتهم على الطرق المهمة التي تربط بين القاهرة والقيروان مما أوجب على الاغالبة ان يحصلوا على اذن سبق من سلطات جبل نفوسه الخاضع للرستميين في تاهرت(٤٩).

وانطلاقا من سياسة الرستميين نحو الاغالبة فقد اصبحت منطقة طرابلس وجبل نفوسه مسرحا للفتن والحروب بسبب التهديد المستمر الذى كان يمارسه البربر في جبل نفوسه والخوارج القاطنين في اقليم طرابلس(٥٠).

تدخل الرستميون في احداث طرابلس:

كان الامير ابراهيم بن الاغلب قد عين ولده عبد الله واليا على طرابلس الغرب غير انه لم يلبث ان ثار عليه الجند واخرجوه عن المدينة، ثم عاد لقتال اعدائه ونجح في دخول طرابلس، وذكر المؤرخ ابن الاثير ان ابراهيم بن الاغلب عزل ولده عبد الله (واستعمل بعده سفيان بن المضاء، فثارت هوارة بطرابلس، فخرج الجند اليهم، والتقوا واقتتلوا، فهزم الجند الى المدينة، فتبعتهم هوارة، فخرجوا هاربين الى الأمير ابراهيم بن الاغلب، ودخلوا المدينة، فهدموا اسوارها)(٥١)، ويعلل بعض الباحثين اصرار هوارة على اثارة الفتن والاضطرابات في وجه ولاة طرابلس انها كانت تستهدف من وراء ذلك الانفصال عن دولة الاغالبة والانضمام الى الرستميين في تاهرت(٥٢).

ولم يجد ابراهيم بن الاغلب بدا من التدخل لحسم الموقف في طرابلس، فأسرع بتوجيه ولده ابا

العباس عبد الله على رأس ثلاثة عشر الف فارس فتمكن من الحاق الهزيمة بالبربر واعادة الاوضاع الطبيعية الى طرابلس(٥٣).

ويبدو ان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان يتتبع عن كثب تطورات الأحداث في اقليم طرابلس ويستعد للتدخل في الوقت المناسب، فلما علم بهزيمة هوارة أمام عبد الله بن الاغلب سارع لنجدتهم وانضمت اليه جموع كثيفة من بربر نفوسه فنزل على مدينة (طرابلس محاصرا لها، ومحاولا دخولها في الطاعة والمصير الى ماعليه أهل الحق)(٥٤)، ويتضح من النص السابق الذى اورده أحد مؤرخي الخوارج ان الرستميين كانوا يخططون للاستيلاء على طرابلس والتوسع شرقا على حساب الاغالبة، في حين يرى أخرون ان عبد الوهاب بن رستم كان في طريقه لاداء فريضة الحج وانه توقف عن المسير استجابة لنصيحة قبائل نفوسه خوفا عليه من العباسيين، وذكروا أنه حارب الأغالبة رغبة في انقاذ بربر هوارة(٥٥).

استعد عبد الله بن الاغلب لمواجهة الرستميين وسارع الى غلق ابواب طرابلس وباشر الدفاع عن المدينة من باب واحد وحال بذلك دون اقتحامها من قبل الرستميين، ويبدو ان عبد الوهاب بن رستم رغب في الانسحاب بعد فشله في دخول طرابلس، وبينما هو يتأهب للرحيل وقع في ايدى اصحابه رجل يحمل كتابا الى عبد الله بن الاغلب يتضمن خبر وفاة ابيه ابراهيم في شوال من سنة ١٩٦هـ وتوليه الامارة من بعده، فعدل ابن رستم عن الرحيل وشدد الحصار حول طرابلس واطلق سراح الرسول ليبلغ عبد الله الرسالة، ووجد الأخير ان المصلحة تقتضي العودة الى القيروان لتولى السلطة، فأسرع الى عقد الصلح مع الرستميين على ان يكون البلد والبحر للاغالبة، وما كان خارجا عن ذلك للرستميين(٥٦).

وبمقتضى هذا الصلح دخلت هوارة ومن معها من القبائل في دائرة نفوذ الدولة الرستمية، وبادر عبد الوهاب بن رستم الى تعيين عماله على المناطق الجديدة، ويبدو انه لم يقتنع بهذه المكاسب التى حققها في طرابلس فتطلع الى توسيع نفوذه في المنطقة مستغلا رحيل عبد الله بن الاغلب عن طرابلس وارسل قائده قفطان بن سلمة الزواتي على رأس فرقة من الجند الى ميناء قابس واستولى عليها عنوة(٥٧). وذكر الشماخي ان عبد الوهاب بن رستم استولى ايضا على جزيرة جربة بعد توقيعه معاهدة الصلح مع الاغالبة.(٥٨)

ولم يطرأ اى تغير على العلاقات بين الاغالبة والرستميين خلال المراحل اللاحقة حيث كان مظاهر العداء من أهم ما يميز علاقاتها الخارجية خصوصا بعد التحسن الذى طرأ على العلاقات بين الرستميين والامويين في الاندلس الامر الذى ازعج امراء القيروان ودفعهم الى اتخاذ بعض الاجراءات لمواجهة الرستميين الذين باتوا يشكلون خطرا على امن وسلامة دولة الاغالبة في المغرب الادنى، وتنفيذا لهذه السياسة أمر محمد بن الاغلب بن ابراهيم (٢٢٦هـ ـ٢٤٢هـ) ببناء مدينة قبالة تاهرت سنة ٢٣٩هد اطلق عليها اسم (العباسية)، وهناك عدة اراء حول دوافع بناء هذه المدينة، فيرى البعض ان تأسيسها مرتبط بسياسة الاغالبة الرامية الى تحصين المناطق المواجهة للرستميين لحماية حدوددهم من اى هجوم من جهة الغرب واتخاذها كقاعدة يمكن استخدامها لعمليات عسكرية ضد الرستميين في تاهرت(٥٩)

ويرى أخرون ان بناء العباسية كان يستهدف انشاء مركز اقتصادى يضاهي مدينة تاهرت التي اصبحت في فترة وجيزة من اهم مدن المغرب ازدهارا وتستقطب العناصر الخارجة عن طاعة الخلافة العباسية(٦٠) وقد اولى محمد بن الاغلب اهتماما خاصا بهذه المدينة فذكر البارونى انه رتب (اسواقها على نسق عجيب وترتيب غريب)(٦١)، ويبدوا ان الرستميين اعتبروا تأسيس هذه المدينة على الحدود الشرقية عملا عدوانيا موجها اليهم. فما ان تم الاغالبة بناءها حتى قرر أفلح بن عبد الوهاب بن رستم مهاجمتها وتمكن من احراقها(٦٢).

وعلى الرغم من احراق العباسية فان الاغالبة لم يقوموا بأى عمل عسكرى ضد الرستميين في تاهرت، ويبدوا انهم ادركوا صعوبة تحقيق نصر حاسم بسبب حصانة موقع اعدائهم من جهة

واحتمال قيام انصارهم باثارة الاضطرابات في اقليم طرابلس من جهة اخرى، وانطلاقا من هذه السياسة عمد الاغالبة الى خلق المشاكل واثارة الاضطرابات في وجه الرستميين وذلك عن طريق تشجيع العناصر المناوئة لهم على الثورة، كما حدث خلال حكم ابي بكر بن افلح الذى تولي الامامة بعد ابيه سنة ٢٤٠هـ ، فذكر المؤرخون ان الأمير محمد بن الاغلب حرض أحد صنائعه في تاهرت ويدعى خلف الخادم الذى تمكن عن طريق بذل الاموال من اثارة الفتنة بين سكان تاهرت، فاندلعت الحروب بين مؤيدى ابن افلح ومعارضيه واستمرت طيلة عهده، حتى قضى عليها اخوه ابو اليقظان محمد بعد سبعة اعوام من توليه الحكم(٦٣).

على ان ابا اليقظان مارس هو الاخر اسلوب اعدائه فعمد الى اثارة الفتن والاضطرابات بواسطة حلفائه من الأباضية في اقليم طرابلس الذين ثاروا في جمادى الأخر سنة ٢٤٥هـ وتمكنوا من هزيمة عامل المدينة. واضطر الأمير الأغلبي احمد بن محمد الى توجيه الجيوش بقيادة اخيه زيادة الله فتمكن من هزيمة البربر (وقتل منهم خلق كثير، وسير زيادة الله الخيل في اثارهم، فقتل من ادرك منهم واسر جماعة فضربت اعناقهم، وأحرق ما كان في عسكرهم، فاذعن البربر بعدها، وأعطوا الرهن، وادوا طاعتهم)(٦٤).

هزيمة بربر نفوسه واثره في انهيار الرستميين:

تعرضت مدينة طرابلس الى هجوم الطولونيين بقيادة العباس بن احمد بن طولون الذى انتهز فرصة غياب ابيه في بلاد الشام وقاد حملة ضد املاك الاغالبة في المغرب الادنى وتمكن من هزيمة الجيش الذى ارسله ابراهيم بن احمد بن الاغلب سنة ٢٦٧هـ وحاصر طرابلس مدة ٤٣ يوما وقام الجند بالاعتداء على سكان البوادى التابعين لنفوذ الرستميين الذين استغاثوا بابي منصور قائد ابي يقظان الرستمي وكان مقيما بجبل نفوسه، فاسرع لنجدتهم ونجح في الحاق الهزيمة بجيش العباس بن طولون واجبره على الانسحاب الى برقه(٦٥).

وقد تركت حملة العباس هذه أثرا سيئا في نفوس الاغالبة الذين عقدوا العزم على مهاجمة الطولونيين، واعد ابراهيم بن احمد جيشا كبيرا لهذه الغاية سنة ٢٨٣هـ عهد بقيادته الى أبي بحر بن أدهم، وكان على هذا الجيش ان يجتاز الطريق التي تقع تحت سيطرة قبائل نفوسه بين قابس وطرابلس، فنعته نفوسه من المرور وخرجوا لقتاله في عشرين الف مقاتل بقيادة أفلح بن العباس والي جبل نفوسه ودارت معركة هائلة بين الطرفين عند موضع يقال له ــ مانو ــ انتهت بهزيمة نفوسه تاركة وراءها مايقرب من اثني عشر الف قتيل من بينهم اربعمائة من علمائهم، واستثمر الاغالبة انتصارهم الكبير هذا بالزحف نحو قنطارة ونكلوا بسكانها وأسروا ثمانين من علمائها وفعلوا الشي نفسه في نفزاوة(٦٦).

وتأتي اهمية هذا الانتصار في كونه قد قضى على أكبر قاعدة للرستميين في المغرب الادنى فقد كانت قبائل نفوسه بمثابة عصب الدولة الرستمية ودرعها الواقي ضد الاغالبة في القيروان، وبانهيارها تداعت الدولة الرستمية بعد ان حرمت من الدعم الذى كانت تقدمه نفوسه لها، مما دفع أمير القيروان ابراهيم بن احمد الى توجيه حملة جديدة قضت على مابقي لنفوسه من نفوذ في المنطقة وذلك في سنة ٢٨٤هـ (٦٧).

ج ــ علاقة الرستميين ببني واسول المدرارين في سجلماسة:

كان من نتائج انتشار الصفرية في المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية من ارض المغرب الاقصى اعتناق اهل سجلماسة من قبائل مكناسة الاسلام على المذهب الصفرى، وقد برز من زعمائهم عيسى بن يزيد الاسود المكناسي الذى نزل أرض سجلماسة سنة ١٣٨هـ والتف حوله عدد كبير من

زناته الصفرية، وشرع في تخطيط مدينة سجلماسة سنة ١٤٠هـ واتقن اسوارها (وأمر بغرس النخل والاستكثار منه)(٦٨).

غير ان اهل سجلماسة مالبثوا ان تخلصوا من عيسى هذا سنة ١٥٥هـ (٦٩)، واستنادا الى ما رواه ابن عذاري وابن خلدون فان أبا القاسم سمغون بن واسول المكناسي الملقب مدرار تولى أمر الصفرية بسجلماسة (١٥٥ ــ ١٦٧هـ) وبعد وفاته تولى ولده الياس الملقب ابي الوزير الذى خلعه اهل سجلماسة بعد سبع سنوات من الحكم وأمروا عليهم اخاه اليسع بن ابي القاسم الملقب بأبي منصور (١٧٤هـ ــ ٢٠٨هـ) الذى يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار(٧٠) فقد اخذت سجلماسة في عهده شكل دولة منظمة بعد ان اخضع الواحات (وذلل البربر واكمل بناء المدينة واخذ خمس مناجم درعه التي كانت تنتج الذهب الوفير، واظهر مذهب الصفرية وبنى سور المدينة)(٧١).

ويستفاد من الروايات التاريخية ان هناك عدداً كبيراً من الخوارج الصفرية سكنوا ضمن اراضي الدولة الرستمية، فذكر ابن خلدون وجود عشرة الاف منهم استقروا بحصن تالغمت في نفس الوقت الذى تواجدت فيه جاليات من البربر الاباضية بسجلماسة(٧٢). ولاشك ان وجود تلك الجاليات كان مصدرا لاثارة المشاكل والاضطرابات في كلا الدولتين، الا ان ذلك لم يصل الى مرحلة الصدام المسلح بينهما، بل حدث العكس من ذلك حيث سارت العلاقات في طريق التحسن عندما اقدم المداريون على مصاهرة بني رستم خلال حكم اليسع بن ابي القاسم الذى زوج ولده مدرار من اروى ابنة عبد الرحمن بن رستم(٧٣).

وقد انجب مدرار هذا من اروى ولدا سماه ميمونا كان يؤثره على بقية بنيه، وقد تهيأ لميمون ان يتولى الامارة في عهد ابيه غير انه لم يلبث ان خلعه ابوه عن الحكم. بعد ان ثبت تآمره عليه، ورفض أهل سجلماسة توليته العهد بعد ابيه وقدموا عليه اخاه ميمون ابن النقيه الذى حكم سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٦٣هـ (٧٤).

وعلى الرغم من حالة الهدوء التي كانت سائدة بين الرستميين والمدارين والتحسن الذى طبع علاقاتها الا ان ذلك لم يصل الى مستوى التحالف لمواجهة خطر الفاطميين الذى بات يشكل خطراً كبيراً مالبث ان أجهز على الدولتين معا.

د ــ العلاقات مع الادارسة:

كان العلويون قد اعلنوا الثورة على العباسيين بزعامة الحسين بن علي(٧٥) في ذى القعدة من سنة ١٦٩هـ ، فعهد الخليفة الهادى الى محمد بن سليمان بقتالهم، ودارت المعركة في مكان يسمى (فخ) على بعد ستة اميال من مكة، انهزم على اثرها العلويون وتمكن اثنان منهم الفرار من ارض المعركة هما: ادريس بن عبد الله واخوه يحيى فتوجه الاول الى المغرب الاقصى ونجح في تأسيس دولة علوية مستقلة هى دولة الادارسة التي استمرت قائمة حتى سقطت على يد القائد فضالة بن حبوس سنة ٣٠٧هـ .

والواقع ان قيام دولة الادارسة المناهضة للعباسيين في المغرب الاقصى قد زاد من احتمال عزل المغرب كله عن الخلافة العباسية، فقد ازداد خطر الادارسة بعد سيطرتهم على تلمسان التي قال عنها ابن ابي زرع انها: (باب افريقية ومن ملك الباب أوشك ان يدخل الدار)(٧٦). وتوفرت لادريس موارد هائلة واصبح لديه من المؤيدين مايمكنه من تحقيق اغراضه ويكون بحق (الامام الأكبر وصاحب المغرب كله)(٧٧).

وبالنسبة لطبيعة العلاقات بين الادارسة والرستميين فان تباين مرتكزاتها المذهبية والعداء التقليدى الموروث بين العلويين والخوارج كان من أهم عوامل التوتر والخلاف بين الدولتين، هذا بالاضافة الى العامل الجغرافي الذى اسهم هو الأخر في تصعيد حدة الخلاف بين الرستميين والادارسة حيث كانت حدودهما متداخلة مما جعل من الصعوبة تحديد انتماء بعض القبائل التي كانت تعيش تارة في كنف الدولة الرستمية وتارة اخرى تحول انتماءها الى الادارسة، كما كان الحال بالنسبة

لمغراوة وبني يفرن الذين خضعوا للرستميين ثم مالبثوا بعد ذلك ان تحولوا الى الادارسة وتنكروا لمذهب الأباضية(٧٨).

ولابد من الاشارة هنا الى ان مدينة تلمسان كانت قد استقطبت النزاع بين الرستميين والادارسة بسبب موقعها الاستراتيجي على الحدود والذى اصبح موضع تنافس بين الدولتين(٧٩)، وقد زاد من خطورة الأمر اقدام ادريس الثاني الاستيلاء على تلمسان سنة ١٩٧هـ ، وأصبحت منذ ذلك الحين مركزلمراقبة تحركات الرستميين أتاح لهم التدخل في شؤونهم الداخلية عن طريق تشجيع بعض العناصر على اثارة الفتن والاضطرابات(٨٠)، وفتحوا ابواب تلمسان امام العناصر المناؤة للرستميين وقدموا لهم الدعم وشجعوهم على الثورة. وقد تهيأ للادارسة فيما بعد التوسع على حساب الرستميين واقتطاع المزيد من اراضيهم(٨١).

العلاقات مع الامويين في الاندلس:

كان قيام دولتي الاغالبة والادارسة في المغربين الادنى والاقصى قد اغلق المغرب بوجه الامويين في الاندلس ولم يبق لهم منفذ سوى المغرب الاوسط، لذلك حرصوا على توثيق علاقتهم مع الرستميين في تاهرت، مستهدفين من وراء ذلك اضعاف اعدائهم الادارسة من جهة وتأمين استمرار اتصال الاندلس بالمشرق من جهة اخرى(٨٢). وانطلاقا من هذه السياسة قامت بين امراء بني امية في الاندلس وأئمة الرستميين في تاهرت علاقات صداقة ومودة انعكست على الناحية الاقتصادية التي شهدت نشاطا ملحوظا خلال هذه المرحلة، فقد ذكر البكرى ان مرسى فروخ لعب دورا بالغ الاهمية في ميدان التبادل التجارى مع الدولة الاموية(٨٣)، وكانت السفن تترد بين وهران والمرية حاملة المنتوجات الزراعية والمنسوجات الصوفية والكتانية والعطور(٨٤)، كما كانت هذه السفن تنقل العديد من العلماء والمسافرين الى كل من التغرين، ويذهب بعض المؤرخين الى القول بان قيام دولة الرستميين كان من أهم عوامل ترسيخ وازدهار الدولة الاموية في الاندلس(٨٥)، وتعبيرا عن علاقات المودة والصداقة بين الامويين والرستميين تبادل الطرفان الوفود والسفارات وقد اشار ابن سعيد القرطبي الى ان بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قد زاروا الاندلس سنة ٢٠٧هـ وانفق عليهم الامير عبد الرحمن بن الحكم الف الف دينار(٨٦) كما ذكر ابن القوطية ان عددا من الرستميين قد تقلدوا مناصب هامة في البلاط الاموى في الاندلس(٨٧).

وقد شجعت ظروف التقارب هذه على وجود جالية اندلسية كبيرة في تاهرت يشهد على وجودها تسمية أحد ابواب المدينة الاربعة بأسم باب الاندلس(٨٨) وذكر الباروني ان افلح بن عبد الوهاب بن رستم كان يتبادل الهدايا النفيسة مع امراء الاندلس (وله عندهم مقام رفيع، ينظرونه بعين الاجلال والاعتبار)(٨٩)، والجدير بالذكر ان أفلح هذا حين احرق مدينة العباسية كتب الى عبد الرحمن الاوسط يتقرب اليه بذلك، فبعث اليه بمائة الف درهم(٩٠). وقد بلغت العلاقات بين الرستميين والامويين ذروتها في عهد ابي اليقظان محمد بن افلح الذى قامت بينه وبين محمد بن عبد الرحمن بن الحكم علاقات متينة فكان ابو اليقظان على حد قول ابن عذارى المراكشي (لايقدم ولايؤخر في اموره ومعضلاته الاعن رأيه)(٩١).

على ان العلاقات بين الرستميين والامويين قد طرأ عليها الجمود بعد تفاقم خطر الفاطميين في المغرب الذين بداؤا زحفهم باتجاه المغربين الاوسط والأقصى بعد قضائهم على الاغالبة. بالاضافة الى الفتن والمشاكل التي واجهها الرستميون خلال تلك المرحلة مما جعل الامويين يوقفون اتصالاتهم بالمغرب حفاظا على سلامتهم.

أئمة الدولة الرستمية في تاهرت
١٦٢هـ ـ ٢٩٧هـ

١. عبد الرحمن بن رستم	١٦٢هـ ـ ١٧١هـ
٢. عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٧١هـ ـ ٢٠٨هـ
٣. أفلح بن عبد الوهاب	٢٠٨هـ ـ ٢٥٨هـ
٤. أبوبكر بن أفلح	٢٥٨هـ ـ ٢٦١هـ
٥. ابو اليقظان محمد بن أفلح	٢٦١هـ ـ ٢٨١هـ
٦. يعقوب بن أفلح	٢٨٢هـ ـ ٢٨٦هـ
٧. ابو حاتم يوسف بن ابي اليقظان محمد	٢٨٦هـ ـ ٢٩٤هـ
٨. اليقظان بن ابي اليقظان محمد	٢٩٤هـ ـ ٢٩٧هـ

الهوامش

١ ـ الطبرى، تاريخ الامم والملوك، ج٧ ص ٥١٩. ويرجع نسب عبد الله هذا الى أباض وهى قرية بالعرض من اليمامة، وكانت وفاته في سنة ٥٨٦ ، والجدير بالذكر ان أكثر المذاهب الخارجية انتشارا في المغرب: الأباضية والصفرية وهما أكثر الخوارج ميلا الى المسالمة والتسامح مع المخالفين، حيث انهم يخالفون اسلافهم من الخوارج حين يعتبرون دار مخالفيهم دار اسلام ـ باستثناء معسكر السلطان ـ وقد حددت الاباضية موقفها من المسلمين، فجعلوا من اخذ منهم بقولهم مؤمنا بينا من اعرض عنهم فهو منافق. والنفاق في عرفهم ليس شركا. انظر: ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص١٩ والايجي: شرح المواقف ج٣ ص ٢٩٢ والمبرد: الكامل، ج٣ ص ١٠٤٠، الشهرستاني: الملل والنحل، ج١ ص ١٣٥، الاشعرى: مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ج١ ص١٨٦.

٢ ـ أبو الربيع سليمان الباروني النفوسي: مختصر تاريخ الأباضية، تونس ١٩٣٨ ص ٢٩.

٣ ـ الباروني، مختصر تاريخ الأباضية ص ٢٩ ـ ٣٠

٤ ـ سالم، المغرب الكبير ج٢ القاهرة ١٩٦٦ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.

٥ ـ محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة ١٩٦٣، ج٣ ص١٣٥ ـ ٢٠٩.

٦ ـ ابن خلدون، ج٤ ص ، البكرى، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٧.

٧ ـ ابن عذارى، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ج١ ص٧١.

٨ ـ ابن الاثير، الكامل ج٥ ص٣١٧ بيروت ١٩٦٥.

٩ ـ سالم، المغرب الكبير ج١ ص٥٣٧ ـ ٥٣٨.

١٠ ـ الشماخي، كتاب سير علماء ومشايخ جبل نفوسه، طبعة الجزائر ص ١٤٠. اختلفت روايات المؤرخين حول تولية عبد الرحمن بن رستم ففريق منهم يرى انها تمت قبل بناء تاهرت وفريق اخر يقول انهاكانت بعد اكماله بناء المدينة،ويبدو أنه بويع بالامامة مرتين الاولى بعد وصوله المغرب الاوسط والثانية بعد تأسيس تاهرت واعلانه قيام دولته (الباروني، الازهارالرياضية ج٢ ص ٨٤.)

١١ ـ ابن عذارى، البيان المغرب ج١ ص٢٠٨.

١٢ ـ البارونى، الازهار الرياضية ص٣.

١٣ ـ البكرى، المغرب في بلاد افريقية والمغرب، باريس ١٩١١ ص٦٧.

١٤ ـ ابن خلدون، ج٦ ص١٢١.

١٥ ـ مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، تحقيق د. سعد زغلول، مصر ١٩٥٨ ص١٧٨.

١٦ ـ ابراهيم العدوى، بلاد الجزائر ص ١٩٢.

١٧ ـ سجلماسة: مدينة مندرسة في اقصى جنوب المغرب ذكر اليعقوبي انها تقع على نهر زيز وليس بها عين ولابئر وبينها وبين البحر عدة مراحل، البلدان ص١١٠.

١٨ ـ اليعقوبي، البلدان ص١٠٤ طبعة النجف ١٩٥٧.

١٩ ـ George Marcais: la Barberie Musulmane, P. 112

٢٠ ـ الباروني، الازهار الرياضية ص٣.

٢١ ـ ابن الأبار، الحلة السيراء ج١ ص٦٨، ٦٩ تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣.

٢٢ ـ ابن عذارى، البيان المغرب ج١ ص٧٥، السلاوى الاستقصا ج١ ص ١٢٩.

٢٣ ـ ابن الأبار، الحلة السيراء ج١ ص٧١.

٢٤ ـ ابن الاثير، الكامل ج٥ ص٥٩٥.

٢٥ ـ البلاذرى، فتوح البلدان ص٢٧٥، ابن عذارى، البيان المغرب ج١ ص٧٥.

٢٦ ـ ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٧٥، ابن خلدون، ج٤ ص١٩٣.

٢٧ ـ ابن الاثير، الكامل ج٥ ص٥٩٩.

٢٨ ـ الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تونس ١٩٦٧ ص١٤٥.

٢٩ ـ ابن الأثير، الكامل ج٥ ص٦٠٠، ابن عذارى، البيان المغرب ج١ ص٧٦.

٣٠ ـ الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، ص١٤٦.

٣١ ـ السلاوى، الاستقصا ج١ ص١٣٠ ـ ١٣١.

٣٢ ـ البلاذري، فتوح البلدان ص٢٧٥.
٣٣ ـ الذهبي، دول الاسلام ص١٠٥، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى القاهرة ١٩٧٤.
٣٤ ـ السلاوي، الاستقصا ج١ ص١١٩.
٣٥ ـ ابن خلدون، ج٦ ص١١٣.
٣٦ ـ الباروني، الازهار الأباضية ج٢ ص٢٠٦.
٣٧ ـ كان الواثق قد اقدم على سجن اخيه المتوكل فنشأت بين الاخير وابي اليقظان صداقة داخل السجن فلما بويع للمتوكل بالخلافة اخرج ابي اليقظان من سجنه وسمح له بالعودة الى بلاده، فقدم تاهرت في عهد اخيه ابي بكر بن افلح.
٣٨ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص٢٦٧.
٣٩ ـ ابن الاثير، الكامل ج٥ ص٩٦.
٤٠ ـ لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الابيض المتوسط، ترجمة احمد عيسى، القاهرة، ١٩٧٢ ص١٦محموداسماعيل عبد الرازق : الاغالبة، القاهرة ص١٦٢.
٤١ ـ Vanderheyden M. la Barberie orintale sous la dynastic des Benou la, lab. Paris 1927. P.8
٤٢ ـ محمود اسماعيل، الاغالبة ص ١٢٢.
٤٣ ـ اسماعيل العربي، دولة الادارسة. بيروت ١٩٨٣ ص ٤٩.
٤٤ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص٧٧، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية بيروت ١٩٧٩.
٤٥ ـ البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٧٦، النويري، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة٢٧ مخلوط.
٤٦ ـ الانصاري المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ج١ ص١٣، طبعة بيروت.
٤٧ ـ حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي في عصر الولاة، مصر ١٩٧٧ ص١٩٦.
٤٨ ـ محمود اسماعيل، الاغالبة ص١٦٦.
٤٩ ـ ابن عيسى، كتاب الاماكن فيا جاز ان يكون او كان، طبعة هجرية ص٥٥.
٥٠ ـ ابو زكريا، كتاب السيرة واخبار الأئمة مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٣٠ ج ص ٥٥.
٥١ ـ ابن الاثير، الكامل ج٦ ص٢٧٠.
٥٢ ـ Venderheyden, op. Cit. P. 39
٥٣ ـ ابن الاثير، الكامل ج٦ ص٢٧٠، ابن خلدون، ج٤ ص٤٢٠.
٥٤ ـ الدرجيني «ابو العباس»، طبقات الأباضية مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٥٦١ الجزء الاول ٣٠ ورقة.
٥٥ ـ ابو زكريا، كتاب السيرة ورقة ٢٣، الباروني، الازهار الأباضية ج٢ ص١٤٥.
٥٦ ـ ابن الاثير، الكامل ج٦ ص٢٧٠، ابن خلدون، ج٤ ص٤٢١.
٥٧ ـ الباروني، الازهار الأباضية، ج٢ ص١٤٦، ١٤٧.
٥٨ ـ الشماخي، كتاب السير ص١٦١.
٥٩ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص١٨٩.
٦٠ ـ ابن خلدون، ج٤ ص٢٠١.
٦١ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص١٨٩.
٦٢ ـ ابن خلدون، ج٤ ص٢٠١.
٦٣ ـ الباروني، الازهار الرياضية، ج٢ ص٢٢١ ـ ٢٣٠.
٦٤ ـ ابن الاثير، الكامل ج٧ ص٩١.
٦٥ ـ ابن عذاري، البيان المغرب ص١٥٨، الباروني، مختصر تاريخ الاباضية ص٤٦.
٦٦ ـ ابن عذاري ، البيان المغرب، ج١ ص١٧٣، الدرجيني، طبقات الاباضية ج١ ورقة ٤٠
٦٧ ـ الدرجيني، طبقات الاباضيه ج١ ورقة ٤١، الباروني، الازهار الرياضية ص٢٨٠ ـ ٢٨٤.
٦٨ ـ ابن الخطيب، القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام ص١٣٨ ـ ١٣٩.
٦٩ ـ ذكر ابن خلدون ان اهالي سجلماسة اخذوا على عيسى بعض مآخذانكروهاعليه،فقبضوا عليه وشدوا وثاقه الى اصل شجرة في سفح الجبل، بعد ان اطلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته النحل، انظر العبر ج٤ ص٢٩٧.
٧٠ ـ سالم، المغرب الكبيرج٢ ص٥٨٣ ـ ٥٨٤.
٧١ ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب الطبعة الثانية باريس ١٩٦٥ ص٧٨.
٧٢ ـ ابن خلدون، ج٢ ص٢٩٨.
٧٣ ـ ابن عذاري، البيان المغرب ج١ ص١٥٧ (ذكر ابن الخطيب ان اسمها هنو وليس اروى في حين يتفق البكري وابن خلدون مع عذاري على ان اسمها اروى).

٧٤ ـ ابن خلدون، ج٤ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
٧٥ ـ هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب (رض).
٧٦ ـ ابن ابي زرع، روض القرطاس ص٨.
٧٧ ـ الكتامي، الازهار العطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس طبعة حجرية فاس ١٣١٤هـ ص٣٣.
٧٨ ـ ابن ابي زرع، روض القرطاس ص٢١.

٧٩ ـ George Marcais, la Barberie Musulmane, P. 102

٨٠ ـ ابن الخطيب، اعمال القسم الثالث ص٢٠١ طبع دار الكتاب ١٩٦٤.
٨١ ـ اسماعيل العربي، دولة الادارسة ص١٣٧.
٨٢ ـ محمود على مكى، التشيع في الاندلس، صحيفة العهد المصرى بمدريد ١٩٥٤ ص١٢١.
٨٣ ـ البكرى، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٨١.
٨٤ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص١٨٥.
٨٥ ـ محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير ج٣ القاهرة ١٩٦٣ ص٣٥٠.
٨٦ ـ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب ج١ ص٤٨.
٨٧ ـ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس، مدريد ١٨٦٨ ص٧١.
٨٨ ـ البكرى، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٦٦.
٨٩ ـ الباروني، الازهار الرياضية ج٢ ص١٨٦.
٩٠ ـ ابن خلدون، ج٤ ص٤٢٩.
٩١ ـ ابن عذارى، البيان المغرب ج٢ ص١٦١.

مصادر البحث

اولا : المخطوطات

١ . ابوزكريا : يحيى بن ابي بكر (من مؤرخي القرن الرابع الهجرى):
كتاب السيرة واخبار الائمة ـ دار الكتب المصرية، رقم ٩٠٣٠ح.
٢ . الدرجيني : ابو العباس احمد (القرن السابع الهجرى).
طبقات الأباضية ـ دار الكتب المصرية رقم ١٢٥٦١ح.

ثانيا : المراجع العربية

١. ابن الأبار: ابو عبدالله محمد (٦٥٨هـ): الحلة السيراء، نشر موللر فرانز ١٨٦٦م
٢. ابن ابي زرع: محمد بن عبد الحليم (٧٢٠هـ): روض القرطاس فاس ـ طبعة هجرية.
٣. ابن الأثير: ابي الحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ : الكامل في التاريخ طبعة بيروت: ١٩٦٥
٤. ابن الخطيب: لسان الدين محمد (٩٤٠هـ): اعمال الاعلام نشر د. مختار العبادى وزميله ج٣ الدار البيضاء ١٩٦٤.
٥. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) : كتاب العبد.
٦. ابن سعيد: علي بن موسى بن محمد (٦٧٣هـ): المغرب في حلى المغرب ج١ القاهرة ١٩٦٤.
٧. ابن عذارى: ابو عبد الله محمد (ق ٧هـ) : البيان المغرب ج١، ج٢ بيروت ١٩٥٠.
٨. ابن عيسى: محمد بن يوسف (١٣٠٤)م: كتاب الامكان فيا جاز ان يكون او كان. طبع حجر.
٩. ابن القوطية: محمد بن عمر بن عبد العزيز (٢٦٧هـ): تاريخ افتتاح الاندلس مدريد ١٨٦٨.
١٠. الانصارى: احمد النائب الانصارى (١١١٣هـ): المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب. بيروت.
١١. الباروني: سليان بن عبد الله النفوسي (١٣٥٩هـ): الازهار الرياضية ج٢.
١٢. البكرى: عبد الله بن عبد العزيز (٤٦٠هـ): المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. باريس ١٩١١.
١٣. البلاذرى: احمد بن يحيى (٢٤٨هـ): فتوح البلدان القاهرة ١٩٥٦.
١٤. السلاوى: احمد بن خالد الناصرى (١٣١٩هـ)الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى ج١ الدار البيضاء ١٩٥٤م.
١٥. الشهر ستاني: محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ): الملل والنحل ج١ القاهرة ١٣١٧هـ
١٦. الشماخي: احمد بن ابي عثمان (٩٢٨هـ): كتاب السير. طبعة هجرية القاهرة.
١٧. الطبرى: محمد بن جرير (٣١٠هـ): تاريخ الامم والملوك.
١٨. الكتاني: ابو عبد الله بن محمد (١٣٤٥هـ): الازهار العاطرة الانفاس فاس طبعة هجرية.
١٩. مجهول: الاستبصار في عجائب الامصار ـ الاسكندرية ١٩٥٨.
٢٠. المراكشي: محي الدين ابي محمد (٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ القاهرة ١٩١٤.
٢١. الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب. تونس ١٩٦٧.
٢٢. الذهبي : دول الاسلام: تحقيق فهيم محمد شلتوت وزميله القاهرة ١٩٧٤.

المصادر العربية والاجنبية الحديثة:

١. لويس (ارشيبالد): القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط ـ ترجمة احمد عيسى ـ القاهرة.
٢. سالم (عبد العزيز): المغرب الكبير ج٢ القاهرة ١٩٦٦.
٣. العدوى (ابراهيم): الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط: القاهرة ١٩٥٧.
٤. محمود علي مكي: التشيع في الاندلس، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ١٩٥٤.
٥. حسن علي حسن: تاريخ المغرب العربي في عصر الولاة، مصر ١٩٧٧.
٦. اسماعيل العربي: دولة الادارسة، بيروت ١٩٨٣.
٧. محمود اسماعيل عبد الرزاق: الاغالبة، القاهرة ١٩٧٢.
٨. محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ج٣ القاهرة ١٩٦٣.

9 - George Marcais La Barberie Musulmane et I' orient au moyen age edition Montaigne
10 - Vanderheyden, M. La barberie orientale sous la dynastic des Benoulaglab. Paris 1927

كتابة التاريخ : عمل علمي متجرد ... مترفع عن الصغائر والأحقاد.

الملامح السياسية والحضارية لمدينة البصرة من خلال كتاب الف ليلة وليلة

د. خليل ابراهيم صالح السامرائي
كلية التربية/ جامعة الموصل

مقدمة البحث

في الوقت الذي إهتم به علماء الغرب بدراسة كتاب الف ليلة وليلة، دراسة متمعنة، وترجموا بعضه أو كله الى لغاتهم(١)، نرى اليوم دعوة فكرية يتزعمها تيار مصري يطالب بسحب هذا الكتاب من المكتبة وحرقه لانه أحد أسباب الفساد في المجتمع.

وبالرغم من هذا الموقف الذي جاء متأخراً، فان ذلك لم يقلل من أهمية الكتاب، الذي يعتبر ثمرة من ثمار التفكير والخيال والمشاعر الشرقية بصورة عامة والعربية بصورة خاصة(٢). ولعل الدراسات المتنوعة التي دارت حول هذا الكتاب، قبل تلك الضجة، تدل دلالة صادقة على أهميته، وقد عكس بصدق الملامح السياسية والحضارية للمجتمع الشرقي ولمجتمعنا العربي الاسلامي وبخاصة خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة(٣).

ولعل تلك الدعوة كانت حافزي الاول الذي دفعني الى دراسة هذا الكتاب بتمعن واستخراج هذا البحث منه، مع بحوث اخرى لاحقه بعون الله.

كتاب الف ليلة وليلة مجموعة قصص وحكايات مجهولة المؤلف(٤)، وهو بمثابة دائرة معارف شعبية، ومصدر تاريخي، ووثيقة اجتماعية، لدراسة المجتمع العربي الاسلامي، تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته، «وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته»(٥). وربما كان اختفاء اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات، واللذائذ الحسية، والدعارة الجنسية، تلك التي تلذ القارئ بمقدار ما تتجافى عن الذوق العربي ووقار العلماء، لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى الفرس، ثم انساح في افاق خياله(٦)، فبدأ الكتاب بقصة أخوين من ملوك ساسات (شهريار وشاه زمان) اللذين تركا الملك أولا بسبب خيانة زوجاتهما، ثم رجعا بعد فترة الى مدينة الملك شهريار وبدأ هذا الملك ظلمه لبنات الرعية الذي استمر في ذلك ثلاث سنوات حتى تزوج المنقذة لبنات جنسها شهر زاد(٧)، وينتهي الكتاب بقصة الرجل الاسكافي المصري الفقير الذي هرب من زوجته الشريرة ونقله الجن الى مدينة اختيان الختن وهناك أصبح ملكاً بالاخير يعرف باسم الملك معروف(٨). وهذا يفسر الدور الكبير للمرأة التي إحتلت معظم احداث هذا الكتاب بصور مختلفة(٩)، ويدل ايضا التعبير عن عناء وشقاء الطبقات الفقيرة التي تتطلع الى الجاه والسلطان والثراء، والتي وصلت اليه بواسطة الجن.

وكان أمر المؤلف المجهول لهذا الكتاب ، قد أدى المجهول لهذا الكتاب ، قد أدى الى اجتهاد الكثير من الباحثين على الاهتداء الى جنسيته، فمنهم من قال انه هندي، والأخر قال انه فارسي، وأخر قال انه يهودي أو مسيحي وأخر ذكر بان المؤلف عربي، وكل قدم أدلته، وبعضهم ارجع الكتاب الى عدة مؤلفين(١٠). ولعلي اشارك احد الباحثين رأيه بان مؤلف الكتاب واحد وان أصله عربي ودينه الاسلام، وان هذا المؤلف غني الموهبة، خصب الخيال، ذو إطلاع واسع على قصص العرب وكتبهم التي تدور في هذا المجال(١١)، كما أن كتاب الف ليلة وليلة من خلال حكاياته يدافع عن عروبته بوضوح(١٢). وهناك بعض الابحاث تشير الى زمن تأليف هذا الكتاب، فبعضها يرجعه الى مابعد العصر العباسي الرابع (٤٤٧ ـ٥٩٠هـ)(٤)

وبعضها يذكر ان الكتاب ألف مابين عام ٨٨٠هـ /١٤٧٥م وعام ٩٣٢هـ /١٥٢٥م(١٤). وبعضها يذكر بان أقدم نسخة للكتاب ترجع الى عام ٩٤٣هـ / ١٥٤٥م(١٥). وهناك أراء تذكر بان التاريخ الذي استقر فيه الكتاب على صورته الحالية هو ما بين ٩٢٣هـ / ١٥١٧م الى ٩٣٣هـ /١٥٣٥م(١٦). ومعنى ذلك ان الكتاب ظهر في عصر المماليك أى بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد عام ٦٥٦هـ بقرنين من الزمن(١٧)، ولعل مايؤكد هذا الرأي ان هذا الكتاب ذكر اموراً عن الخليفة العباسي هارون الرشيد واظهره بصورة الخليفة الماجن ـ على الرغم من ان الكتاب في اكثر حكاياته يمتدح هارون الرشيد ويشيد بعدله حتى عرف عصره بعصر الف ليلة وليلة ـ بحيث لايرتضي خلفاء بني العباس مثل هذا الكلام عن جدهم الاعلى الرشيد.

وعموماً مؤلف هذا الكتاب اعتمد أولا على ما عند العرب من قصص قبل الاسلام، وبعد الاسلام تلك القصص التى عززها القرآن الكريم ومعارك الجهاد فى سبيل الله ، أولا، ثم استفاد من كتب الهند والفرس المترجمة فى عصر الرشيد وعصر المأمون(١٨)، تلك الكتب التى أشار الى بعضها المسعودي (٣٢٦هـ)(١٩) وابن النديم (٣٧٨هـ)(٢٠)، ولعل ترجمة كتاب كليلة ودمنه لعب دوراً كبيراً لدى مؤلف الكتاب كرد فعل عربي منافس(٢١)، ثانياً، فضلا عن الخيال الشعبي الواسع الذي لعب دوراً كبيراً في حبك بعض الحكايات وبخاصة المتعلقة بالجن، ثالثاً(٢٢). وهناك أراء كثيرة ايضاً حول اسم الكتاب «ألف ليلة وليلة» وقد قدم كل باحث آراءه حول هذا الرقم(٢٣).

ويرجع الباحث احتالين لايستطيع البت فى أحدهما، الأول لعل الرقم يشير الى عدد النساء التي قتلهن الملك(٢٤)، حيث ذكر الكتاب ان الملك شهريار استمر على هذه الحالة ثلاث سنوات(٢٥)، (٣٦٠يوم×٣=١٠٨٠يوم)، ولعل الرقم مقارب. والثاني لعله يشير الى عدد الكتب التاريخة التى جمعتها بنت الوزير شهر زاد وعددها ألف كتاب(٢٦)، وان حكايتها مع الملك الظالم هي تمام الكتاب الواحد بعد الألف، وهو كتاب الانقاذ الذي خلص بنات جنسها من ظلم الملك، ولعلي أميل الى الرأي الأخير.

ولاتتشابه حكايات الليالي بعضها مع الآخر، فبعض الحكايات طويلة جداً وتتشعب منها حكايات قصيرة عديدة(٢٧)، مثل حكاية عمر النعمان وولديه مثلا(٢٨). وبعض الحكايات قصيرة جداً بحيث نجد حكايتين أو اكثر في الليلة الواحدة(٢٩).

ولغة الكتاب على الغالب خليط من الفصحى والعامية، ويميل إسلوبه الى البساطة في التعبير(٣٠).

ولايخلو الكتاب من السقطات التاريخية، ولكننا اعتمدناه في دراسة تاريخ البصرة لما فيه من ومضات سياسية وحضارية حقيقية، وحتى تلك الامور الخيالية التى تتعلق بحكايات البصرة فانها تعبر عن الواقع الاجتماعي والتفكير الشعبي للناس. وتتصدر بغداد والبصرة والاسكندرية والقاهرة في حكايات الليالي، ولعل هذا الحيز الكبير الذي اعطته الليالي لمدينة البصرة ناتج من موقعها البحري ومركزها التجاري(٣١).

والليالي تتكلم عن مدينة البصرة في العصر الاموي

وفي العصر العباسي، وبخاصة عصر هرون الرشيد.
ومن قراءة هذه الليالي يتبين لنا مايأتي:

١. ان بعض القصص عن مدينة البصرة وملوكها التي ذكرتها الليالي موجودة بالنص اوما يقارب ذلك في كتب اخرى، فمثلا قصة والي البصرة خالد بن عبد الله القشيري مع الشاب السارق(٣٢)، موجودة بما يقارب معناها في كتاب أبو علي المحسن بن علي التنوفي (توفى عام ٣٨٤هـ) والموسوم «كتاب الفرج بعد الشدة»(٣٣).

٢. قصة ابن الخليفة هارون الرشيد الزاهد الذي ترك ملك ابيه الواسع وإشتغل أجيراً يومياً بالبصرة الى ان مات(٣٤)، وجدت هذه القصة بكاملها في كتاب ابو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي (توفي عام ٦٢٠هـ) والموسوم «كتاب التوابين»(٣٥)، ودارت احداث القصة فيه تارة حول ابن الرشيد وتارة حول ابن المأمون الزاهد ايضاً(٣٦).

٣. بعض القصص التي ذكرتها الليالي عن مجتمع البصرة، نراها مكررة المعنى والهدف مختلفة الشخصيات بالاسماء فقط. فنفس أحداث القصة تقريباً، والتي تدور حول عشق الجارية لامير بني شيبان بالبصرة جبير بن عمير الشيباني(٣٧)، تتكرر في أحداث قصة الجارية العاشقة لأبي السخاء ضمرة بن المغيرة(٣٨).

٤. بعض الالفاظ التي وردت في بعض القصص التي تكلمت عن مدينة البصرة، مثلا حكاية الحسن البصري، وحكاية عبد الله بن فاضل، وردت فيها الفاظ تدل على حداثه القصة أولا وتدل على مصرية القصة ثانياً، على الرغم من ان أحداث الحكايات تدور في البصرة ومصر. فمثلا هناك لفظ القهوة(٣٩)، مع العلم ان القهوة لم تعرف في المشرق العربي الا في عصور تأخرة(٤٠)، ولفظ المعلم (المعلم عبيد، أى شيخ الصنعة)(٤١)، ولفظ الساعة(٤٢)، ولفظ التخطروان(٤٣)، ولفظ الدرفيل (الحوت)(٤٤)، ولفظ الغليون(٤٥)، ولعل هذه الحكايات لاتعاصر الخليفة هارون الرشيد، ولكن لها دلالتها في اعطاء صورة جيدة عن مدينة البصرة.

إعتمدت طبعة بولاق لكتاب الف ليلة وليلة، وذلك لانها أقدم الطبعات، والتى أعادت طبعها بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد، ووجدت فيها خطأً فنياً في موقع الليلة الثالثة (ص٩) والمفروض حسب سياق الكلام يوضع عنوان الليلة الثالثة في وسط صفحة ١٠ من المجلد الاول.

وسيجد القارئ الكريم في هوامش المقدمة اهم الكتب والمقالات التى تناولت دراسة كتاب الف ليلة وليلة.

ولعل بحثي المتواضع هذا مساهمة مني مع من سبقني من الباحثين حول هذا الكتاب، وسيتبع ببحث أخر بعون الله ـ عن تاريخ الاندلس من خلال كتاب الف ليلة وليلة.

وهذا البحث يتكون من مقدمة وفصلان، الفصل الاول يتناول دراسة الملامح السياسية لمدينة البصرة خلال العصر الاموي والعصر العباسي، فيما يتعلق بمنصب الوالي (الملك، السلطان، النائب، الامير) والوزير والحاجب والقاضي والمعين وغيرهم. والفصل الثاني يدور حول دراسة الملامح الحضارية لمدينة البصرة، فدرست فيه الناحية العلمية والناحية الاقتصادية والناحية الاجتماعية والناحية العمرانية لمدينةالبصرة منخلال كتاب الف ليلة وليلة.

ولعل الملاحظة العامة التي خرج بها الباحث من خلال استعراض القصص التى تكلمت عن مدينة البصرة وملوكها، انها ربطت هذه المدينة وحكامها بعصر هارون الرشيد ـ ماعدا خالد عبد الله العشري ـ هذا العصر الذي أصبح مجالا خصباً للقاص والراوي، امتزجت فيه الاساطير مع حقائق التاريخ، واعطت حكايات الليالي هذه صوراً متعددة لهارون الرشيد: منها الخليفة العادل الذي له سلطة مطلقة على ملوك البصرة، ويعمل على إحقاق الحق، كما في قصة علي نور الدين، وصورة الخليفة المولع بالجواري، في قصة الجارية تودد، وصورة الخليفة المحتاج الى تجار البصرة، في قصة التاجر ابو محمد الكسلان، وصورة الخليفة الذي يمتد سلطانه على الجن ايضاً، في قصة عبد الله ابن فاضل.

نسأله تعالى، ان يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، وان يسدد خطانا لخدمة الامة العربية وتاريخها الزاهر المجيد، انه سميع مجيب.

الفصل الاول
الملامح السياسية

مصرت مدينة البصرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، واسمها عتبة بن غزوان عام ١٧هـ على أرجح الروايات(٤٦)، وقد امتدحها الخليفة علي بن ابي طالب (رض) وروى على منبرها حديثاً ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفتح أرض يقال لها البصرة أقوم الارضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس...وتاجرها أعظم الناس تجارة...»(٤٧). وامتدحت البصرة ايضاً بانها: خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس، ووصفت بانها عين العراق(٤٨). وعلى العكس من ذلك قال عنها ابو العيناء محمد بن القاسم بن قلاد الهاشمي(٤٩)، لما سئل عن البصرة، فقال «ماؤها أجاج، وحرها عذب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم»(٥٠).

أصبحت البصرة المعسكر الامامي المسؤول عن فتح الاحواز وبلاد فارس وخراسان واصبهان، خلال العصر الراشدي. ونتيجة كثرة الخيرات التي وردت للبصرة من حركات الفتوح العربية، ونتيجة ايصال المياه العذبة الى البصرة _ لانها تأسست الى الغرب من نهر شط العرب (بمسافة ١٢ ميلا) فحفر نهر الابله ونهر المعقل ونهر الفيض، فبذلك قفزت البصرة خطوات حضرية واسعة، وازداد ذلك ايضاً في العصر الاموي واصبحت من الحواضر المهمة، كما انها أصبحت ميناء العراق التجاري في العصر العباسي(٥١).

وقد امدتنا الليالي بمعلومات وافية عن الملامح السياسية لمدينة البصرة، وذكرت لنا أهم المناصب الادارية فيها خلال العصر الاموي والعباسي، وهي:

١. الوالي :

أطلقت الليالي على ولاة البصرة لقب الامير والملك والسلطان والنائب، وذلك للدلالة على سلطتهم المطلقة.

ففي العصر الاموي أشارت فقط الى امير البصرة خالد بن عبد الله القشيري(٥٢) (القسري)(٥٣)، ووقفت الليالي من هذا الامير موقف الاحترام والتقدير لعدالته وبحثه عن الحقيقة قبل إنزاله العقاب بالمتهم.

واهم ما روته الليالي عنه، حكايته مع الشاب السارق، والتي تدل على حس الامير الفقهي قبل إقامة الحد(٥٤).

فقد إرتاب من هيئة الجاني، ولم يستدل منها على إمتهانه السرقة، فهو لم يقضي بما سمع بل حاول التأكد، وبعد ذلك اكتشف بان القصة تدور حول شابين متحابين. وتدل القصة ايضاً على طبيعة أهل البصرة الذين رضوا بحكم الامير الذي ستر عليهم من الفضيحة الاجتماعية، فزوج الشابين، وانقلب حزن أهل البصرة الى سرور(٥٥).

وقد وردت هذه القصة بمضمونها في مصادر اخرى، اشرنا اليها سابقاً، ولعل ذلك يبرهن على صحتها. هذا مع العلم ان بعض المصادر تخبرنا بان خالد بن عبد الله القسري اتخذ واسطاً مركزاً لولايته، وكان له نواب على البصرة أمثال مالك بن المنذر بن الجارود(٥٦).

اما في العصر العباسي، فاكثر حكام البصرة معاصرين للخليفة هارون الرشيد، وبعض حكايات الليالي عنهم لم تذكر لنا اسماءهم كما في اول حكاية عن البصرة مثلا(٥٧)، ولا لأي خليفة هم معاصرون(٥٨)، كما أعطتهم مكانة كبيرة لاتقل عن مكانة الرشيد(٥٨).

ولعل معظم حكايات الليالي تذكر والي البصرة الصريح وتعطيه لقب الملك والسلطان والامير والنائب، ومعاصرته للخليفة هرون الرشيد، وبعضها يذكر تلميحاً لقب امير المؤمنين(٦٠)، وهو يقصد بذلك هرون الرشيد، الذي ارتبطت معظم حكايات الليالي بعصره.

وعلى ضوء ما أوردته الليالي عن امراء البصرة يمكن

ان نقسمهم الى قسمين:
الأول: لم تذكر أسماءهم صراحة، بل ذكرت لقبهم بسلطان البصرة(٦١).
الثاني: ذكرت أسماءهم وهم على التوالي حسب ترتيب الليالي:

١. ملك البصرة محمد بن سليمان الزيني(٦٢).
٢. علي نور الدين بن الوزير الفضل بن خاقان، قلد حكم البصرة الا انه لم يباشر مهماته الرسمية وفضل البقاء في بغداد بجوار الخليفة(٦٣).
٣. أمير البصرة محمد الزبيدي(٦٤).
٤. سلطان البصرة محمد بن سليمان الهاشمي(٦٥).
٥. أمير البصرة عبد الله بن معمر التيمي(٦٦).
٦. أمير البصرة محمد بن سليمان الربيعي(٦٧).
٧. حاكم البصرة ابو الليث العميد(٦٨).
٨. سلطان البصرة أو نائب البصرة عبد الله بن فاضل(٦٩).

إمتاز أميران من امراء البصرة في القسم الأول بالتعسف والظلم، فالأول صادر أموال وممتلكات وزيره دون ذكر أي سبب، عدا ماذكرته الليالي من انقطاع وزير البصرة من ممارسته أعماله لمدة شهرين بسبب حزنه على والده الوزير السابق(٧٠). والثاني الذي فاق الأول في ظلمه حيث فرض على أهل البصرة وحيواناتهم بعدم التجول في المدينة يوم الجمعة قبيل الصلاة بساعتين، مع ترك أسواقهم مفتوحة، وذلك تلبية لرغبة إمرأة الشيخ ـ المعلم ـ عبيد شيخ الجوهرية في البصرة، إكراماً لزوجها الذي قدم خدمة بسيطة لسلطان البصرة تتعلق بحرفته، وهي ثقب جوهره ثمينة وصلت له من ملك الهند(٧١).

ثم تعود الليالي فتذكر السلطان الأول بانه رجع الى رشده، فأكرم اسرة وزيره المنكوب، واظهر حبه له وجمع شمل هذه الاسرة، وبعثها الى مصر معززة مكرمة(٧٢). والسلطان الثاني كذلك يصبح عادلا فيحبه أهل البصرة عندما يرفع عنهم عناء عدم التجول في يوم الجمعة. ويكرم زوجة الشيخ عبيد الجوهري الثانية المصرية، ويعيدها الى بلادها محاطة برعايته وبرفقة أحد وزرائه(٧٣). ونستدل من حكايات هذين الاميرين على مدى العلاقات الودية بين البصرة في العراق وبين مصر.

أما أمراء القسم الثاني فتذكر الليالي عنهم العدالة والمروءة وحب الرعية والتجاوز عن المسئ. فتذكر عن ملك البصرة محمد بن سليمان الزيني العدل وحب الفقراء ومساعدة المحتاجين(٧٤). وتصف سلطان البصرة محمد بن سليمان الهاشمي بالكرم واستقبال الضيوف الوافدين اليه ورعايتهم في دار الضيافة المخصصة لهم بالبصرة(٧٥). أما امير البصرة عبد الله بن معمر التيمي فقد فاق سابقيه في المروءة وحب الناس، بحيث أرجع جارية إشتراها بثمن غال الى سيدها الاول بدون ثمن عندما عرف بانها متحابان(٧٦). وأمير البصرة محمد بن سليمان الربيعي فقد اشتهر باكرام الشعراء والاغداق عليهم(٧٧). وقد فاق الجميع نائب مدينة البصرة عبد الله بن فاضل الذي رعى إخوته وعفا عنهم بعد ان قابلوه بالاساءة ونكران الجميل(٧٨).

ولم تشر الليالي الى سوء امراء هذا القسم، ماعدا حاكم البصرة ابو الليث العميد حيث وصفت تسلط ابنته جميلة وجبروتها، التي كانت تدعي كره الرجال، واشارت الليالي كذلك الى تخوف الرعية من التكلم بهذا الموضوع لكي لاينقل خبرهم الى حاكم المدينة فيعاقبهم(٧٩).

ومن خلال حكايات الليالي نرى أن معظم هؤلاء الحكام مطيعين للخليفة هرون الرشيد، وانهم ينفذون أوامره دون نقاش، وبخاصة إذا كانت هذه الاوامر مكتوبة ومختومة بتوقيع الخليفة. فنرى تدخل الخليفة شخصياً في زواج ابنة حاكم البصرة أبي الليث العميد دون ان يعارض والدها(٨٠) وتدخل ايضاً في العلاقة بين عبد الله بن فاضل وأخويه بشكل تحدى فيه أوامر الجن بصفته أمير المؤمنين وملك الانس وله سلطة على الجن كذلك(٨١).

وثمة أميران من امراء هذا القسم لعب الجن دوراً كبيراً في اكمال حكاياتهم التي روتها الليالي. فنرى دور الجن في نسج قصة غنى التاجر ابو محمد الكسلان على عصر أمير البصرة محمد الزبيدي(٨٢)، وكذلك دورهم في قصة الصائغ

حسن البصري مع بهرام المجوسي(٨٣)، ودورهم في قصة نائب البصرة عبد الله بن فاضل وعلاقته باخويه العاقين(٨٤).

وعلى الرغم من الخرافات التي نسجت حول هذه القصص التي ذكرتها الليالي، الا ان تأكيد الليالي على دور الجن في استمرارية بعض القصص لها دلالتها. فدور الجن في غنى التاجر أبو محمد الكسلان هو تنفيس عن حالة الطبقة الفقيرة المعدمة التي رفعت بواسطة الجن المؤمنين الى مقام عال بحيث احتاجتْ لهم الخلافة العباسية ببغداد. وفي قصة الصائغ حسن البصري وبهرام المجوسي، فتدل القصة على وفاء الجن وحسن تعاملهم مع الانس، خلافاً لغدر المجوس وخيانتهم. وتدل قصة عبد الله بن فاضل مع أخويه على ثلاثة امور: الاول مقابلة اساءة أخويه بالاحسان اليهم، فنصرته الجن على أخويه فسحروهم كلاباً، والثاني امر ديني يبرز أهمية صلاة الفجر، والثالث يدل على هيمنة هارون الرشيد أمير المؤمنين على الجن والانس بصفته سليل بيت النبوة(٨٥).

ومما يلفت النظر،ان الليالي اختلفت في ذكر لقب حاكم البصرة محمد بن سليمان، فلقبته مرة بـ (الزيني) وثانية بـ (الهاشمي) وثالثة بـ (الربيعي). الامر الذي يثير التباس القارئ فيظن وجود اكثر من حاكم واحد للبصرة بهذا الاسم، في حين هي ألقاب متعددة لحاكم واحد ليس غير، إقتضى مقام الحكايات تغيير اللقب لأمر احترازي عند المؤلف كما نرجح. ولعله الامير محمد بن سليمان الهاشمي ابن عم الرشيد، وزوج اخته العباسة كما هو ثابت تاريخياً(٨٦). ولهذا الامير ابن عاش بالبصرة وتزهد فيها باسم موسى.(٨٧)

وتخبرنا الليالي عن وجود مراسيم خاصة للمراسلات بين الخليفة وحاكم البصرة، فعندما يريد الخليفة إرسال كتاب الى أمير البصرة، يرسله مختوماً خشية التزوير، ويبعثه مع الوزير أو الحاجب أو النديم، ولما يصل كتاب الخليفة الى الوالي يهب واقفاً ويقبل الكتاب ثلاث مرات وينفذ ما جاء فيه فوراً وبدون تردد(٨٨). واحياناً يكلف الخليفة وزيره بكتابة بطاقة الى والي البصرة فيرسلها مع أحد موظفي القصر الخلافي - إحدى الرسائل حملها مسرور السياف الى امير البصرة محمد الزبيدي - ولم تخبرنا الليالي عن قيام والي البصرة وتقبيله الرسالة(٨٩).

كما ان الليالي تذكر لنا ان الوزير، بامر من الخليفة، يرسل شخصاً تعتمد عليه الخلافة الى البصرة في مهمات كبيرة، وان والي البصرة يستقبل مبعوث بغداد بالحفاوة والتكريم(٩٠)، كما في ارسال أبي اسحاق الموصلي النديم الى نائب البصرة عبد الله بن فاضل لجلب الخراج الذي تأخر وصوله(٩١).

وتخبرنا الليالي عن وجود علاقات تجارية ودية بين حكام البصرة وملوك بعض الدول، كالعلاقة بين حاكم البصرة وملك الهند الذي أهدى لوالي البصرة جوهرة ثمينة كانت سبب البلاء على أهل البصرة(٩٢). الى جانب العلاقات الودية مع مصر، كما ذكرنا.

وتذكر لنا الليالي بان ملك البصرة محمد بن سليمان الزيني الذي خلعه هارون الرشيد عن حكم البصرة وعين محله علي نور الدين الوزير الفضل بن خاقان، يرد ذكره بانه أصبح نائب مدينة دمشق(٩٣).

وكان يساعد حاكم البصرة مجلس استشاري يضم زعماء البصرة، فهناك جبير بن عمر الشيباني امير بني شيبان في البصرة(٩٤)، وكذلك ضمرة بن المغيرة المكنى بأبي السخاء الذي كان من أعوان سلطان البصرة محمد بن سليمان الربيعي(٩٥).

٢. الوزير :

لما أعطت الليالي، صفة الملوك والسلاطين لحكام البصرة، فمن المؤكد أن تجعل لهم وزراء يساعدون الملك في إدارة الحكم، وبذلك جاءت منزلة الوزير بعد منزلة حاكم البصرة. وعلى الرغم من تحفظ الباحث من هذا الاطلاق، فان وزير سلطان البصرة الذي ذكرته الليالي لايتعدى المستشار، وبخاصة من زعماء القوم فيها.

وأمدتنا الليالي بمعلومات عن وزراء البصرة، فهناك الوزير الواحد لسلطان البصرة(٩٦)، وهناك الوزيران أمثال المعين بن ساوي الشرير والفضل بن خاقان العادل وزيري الامير محمد بن سليمان الزيني(٩٧). وبعض حكام البصرة لم يعرف عدد وزرائه، الا ان الحكايات تخبرنا عن سلطان البصرة

الشيخ عبيد الجوهري، أرسل مع زوجته المصرية الثانية وزيراً من وزرائه يرافقها الى بلادها(٩٨).
وعموماً إمتدحت الليالي وزراء ملوك البصرة، ماعدا الوزير المعين بن ساوي الذي وصفته بالظلم، والذي اعدمه الرشيد فيما بعد(٩٩)، فتوضح صفات المروءة والشهامة لوزير سلطان البصرة الذي احتضن الفتى المصري الغريب وجعله بمثابة ابن أخيه، كما سعى لدى سلطان البصرة وجعله وزيراً من بعده(١٠٠). كما وصفت الليالي الفضل بن خاقان بانه اكرم اهل زمانه، «...حسن السيرة أجمعت القلوب على محبته»(١٠١). كما وصفت وزير سلطان البصرة الذي أرسله الى مصر برفقة زوجة الجوهري المصرية بالخير والصلاح(١٠٢).
وتخبرنا الليالي عن وجود مراسيم خاصة لتعيين الوزير، حيث ذكرت عن قبول سلطان البصرة ترشيح وزيره السابق لمن يخلفه في الوزارة، وبعد ذلك أنعم عليه بخلعة عظيمة، وبغلة خاصة لركوبه، وعين له الرواتب. ومن التقاليد تقبيل الوزير الجديد ليد السلطان اعترافاً منه بالولاء له والخدمة في ادارة مصالح المدينة، ويلازم الوزير السلطان ليلا ونهاراً، والسلطان يغدق عليه الاموال حتى أصبح الوزير من كبار التجار واصحاب الاملاك في البصرة(١٠٣). كما وجد صراع خفي بين الوزراء كما اخبرتنا الليالي أضر بينهما وعطل أحكامها، كالصراع بين الوزيرين الفضل ابن خاقان والمعين بن ساوي(١٠٤).
ويغضب سلطان البصرة على وزيره بدون سبب معقول، كما تقول الليالي، فيعزله ويصادر أمواله، ويعين وزيراً جديداً بدلا عنه، فيخاف الوزير المخلوع على نفسه ويهرب من البصرة بعد ان تصله الاخبار من أحد الأعوان(١٠٥).

ويسند سلطان البصرة الى وزيره تنفيذ مهمات اخرى، أشارت اليها الليالي منها النزول الى السوق وشراء أحسن الجواري للسلطان(١٠٦)، ومنها إرساله في مهمة خاصة الى مصر في رفقة زوجة الجوهري المصرية لكي يوصلها الى أهلها سالمة، اكراماً لها(١٠٧).

٣. الحاجب :

ومن المناصب الادارية التي اخبرتنا بها الليالي لدى سلطان البصرة هو منصب الحاجب، الذي ينظم دخول الرعية على السلطان حسب منازلهم كما هو معروف. وقد شغل هذا الحاجب ايضاً إدارة منصب الوزير في حالة غياب الوزير الى حين تعيين وزير جديد، فقد عين سلطان البصرة حاجبه وزيراً عندما عزل وزيره علي نور الدين(١٠٨).
ومن مهمات الحاجب ايضاً، هو إرساله في مهمات خاصة من قبل سلطان البصرة، فقد أشار الوزير المعين بن ساوي على سلطان البصرة محمد بن سليمان الزيني أن يرسل أحد حجابهالى بغداد للتأكد من صحة تقليد علي نور الدين ولاية البصرة(١٠٩)، كما يدل الامر على ان سلطان البصرة له عدة حجاب.
واخبرتنا الليالي عن أحد الحجاب باسم علم الدين سنجر فكان من اهل الخير الذي انقذ علي نور الدين من الخطر(١١٠).

٤. القاضي :

اخبرتنا الليالي عن وجود القاضي في البصرة، فهناك قاضي البصرة في عهد أميرها خالد بن عبد الله القسري، والذي كان يحضر مع الوالي عند إقامة الحد على الجاني، وهو الذي يقرر التهمة نهائياً أو يلغيها(١١١).
وكذلك من مهمات القاضي الاشراف على تقسيم إرث الموتى، وله من ينوب عنه في هذه المهمة ويسمى القسام(١١٢). ومن مهماته ايضاً الاشراف على عقود الزواج، ويعاونه في ذلك بعض الشهود(١١٣).
واخبرتنا الليالي عن وجود أربعة قضاة(١١٤)، حضروا مجلس سلطان البصرة محمد بن سليمان الزيني عندما أراد خلع نفسه تنفيذاً لأمر الخليفة هارون الرشيد(١١٥).

٥. الخازندار (المسؤول المالي) :

واخبرتنا الليالي عن وجود منصب الخازندار في البصرة، وهو الشخص المكلف بالامور المالية، فنرى سلطان البصرة محمد بن سليمان الزيني يكلف

خازنداره بأن يحمل عشرة آلاف دينار الى دار الوزير الفضل بن خاقان من أجل تنفيذ أمر سلطان البصرة في شراء أحسن جارية تعرض في السوق(١١٦).

٦. المعين :

من خلال قصة عبد الله بن فاضل يظهر لنا بان سلطان البصرة قد يستعين باخوته أو أقاربه بان يجعلهم مساعدين (معينين) له في ادارة المدينة، ويحكمون في حضوره وفي غيابه، ويكون حكمهم نافذاً بشرط تحقيق العدالة والابتعاد عن الظلم(١١٧).

٧. السجان :

ذكرت لنا الليالي اسم السجان قطيط على عهد السلطان محمد بن سليمان الزيني الذي عهدت اليه مهمة تعذيب علي نور الدين. وكان هذا السجان اكثر شفقة من سلطان البصرة ووزيره الظالم المعين بن ساوي حيث خالف الاوامر واكرم علي نور الدين في السجن ورعاه الى ان جاءه الفرج(١١٨). وكان في البصرة مكان عام يجتمع فيه الناس لمشاهدة مراسيم اقامة الحدود على الجناة، واحياناً يكون التجمع أمام قصر الوالي(١١٩).

الفصل الثاني
الملامح الحضارية

١. الناحية العلمية

من خلال استعراض ماذكرته الليالي عن مدينة البصرة، يمكن ان نستنتج منها فيما يتعلق بالناحية العلمية ما يأتي :

أ. شهرة البصرة العلمية، ويدل على ذلك مايتمتع به علماء البصرة من ثقافة عالية مع تنوع تخصصاتهم العلمية، ففيها القراء والعلماء والاطباء والفلكيون والشعراء والحكماء والمهندسين والفلاسفة(١٢٠).

وهذه الشهرة دعت هارون الرشيد ان يستعين بخيرة علماء البصرة عندما تعقد في مجالس الخليفة المناظرات العلمية، فكتب الى عامله في البصرة بان يرسل اليه ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام (توفي عام ٢٢١هـ /٨٣٥م)(١٢١) أعظم اهل زمانه في الفلسفة والبلاغة والشعر، ونخبة من خيرة علماء البصرة لمناظرة الجارية تودد المشهورة بثقافتها العالية التي أدت هذه الثقافة الى اغلاء سعرها أولا، والى افحام علماء البصرة كل في اختصاصه ثانياً، وقد أخذت منهم ملابسهم جميعاً حسب الاتفاق دليلا على انهزامهم امام هذه الجارية علمياً(١٢٢)، كما منحها هرون الرشيد جائزة قدرها خمسة آلاف دينار، ورجعت الى سيدها الاول(١٢٣).

وقد دلت هذه المناظرة على سعة اطلاع كل عالم من علماء البصرة في مجال تخصصه، كما دلت على سعة العلوم التي عرفتها هذه الجارية، بالرغم من اننا نجد اثناء سرد المناظرة، ان الجارية اشارت الى مذهب الشافعي(١٢٤) (توفى عام ٢٠٤هـ)، وقد وقعت في خطأ تاريخي لان مذهب الشافعي لم ينتشر ايام هارون الرشيد، ولكن سياق المواعظ والعبر في هذه المناظرة تطلب هذا الامر(١٢٥).

ب. واخبرتنا الليالي ايضاً عن وجود التعليم الخاص في البيوت، حيث كان كبار القوم في البصرة يهتمون بتعليم اولادهم في بيوتهم، ويخصصون لهم الفقهاء الذين يعلمونهم القراءة والكتابة وقراءة القرآن وحفظه، وبعض العلوم الاخرى(١٢٦).

ج. ودلت الاخبار التى أوردتها الليالي عن مدينة البصرة، على شهرة جواري البصرة العلمية، فكثر وجودهن فيها من جنسيات مختلفة، فكان غلاء سعر الجارية مرتبط بثقافتها وما تعلمته من علوم النحو واللغة والتفسير واصول الفقه والطب والضرب على آلات الطرب(١٢٧). ويدل على ذلك الاشعار التي قالتها الجارية السيدة بدور معشوقة امير بني شيبان في البصرة جبير بن عمير الشيباني(١٢٨).

وكانت على الاغلب القاعدة العامة فيما يتعلق بشراء الجواري، ان سيدها عندما يشتريها يختبرها في مثل هذه العلوم، فاذا وجدها ناقصة التعليم يؤدبها ويعلمها(١٢٩)، فتعليمها الجيد يكون سبيلا لحصول سيدها على الجاه والمال(١٣٠)، وبذلك اشتهرت جواري البصرة بسمعتهن العلمية،

وبخاصة في نظم الشعر وكتابة الرسائل، وقد ذكرت الليالي ولع جواري البصرة بالشعر، بحيث تعقد مسابقات شعرية، وتوضع جائزة كبيرة لمن تقول أحسن الشعر، ويستعان بأحسن الشعراء للتحكيم، كما جرى لعالم البصرة المشهور الاصمعي الذي أصبح حكماً بين ثلاث جواري تبارين في قول الشعر(١٣١). كما برعن في كتابة رسائل الحب المتعة باسلوب جذاب الى من أحببن، وتعبر هذه الرسائل عن ثقافة عالية واسلوب نثري خطابي جيد(١٣٢).

د. أشارت الليالي الى وجود الكتاتيب (المكاتب) في البصرة، التي يتعلم فيها الصبيان مختلف العلوم، وجاء عنها مشاركة صبيان المكاتب في الامور العامة، منها خروجهم مع العلماء والزهاد في اداء صلاة الاستسقاء عندما انحبس المطر عن البصرة(١٣٣)، كما شاركوا أهل البصرة حزنهم على فقدان وزير البصرة العادل الفضل بن خاقان(١٣٤). إن هذه الروايات لم تعطنا صيغة تعليم الصبيان في المكاتب واسسها.

٢. الناحية الاقتصادية :

اعطتنا الليالي معلومات جيدة عن حياة البصرة الاقتصادية، وعلى ضوء هذه المعلومات ندرسها كما يأتي :

أ. التجارة:

جعلت الليالي البصرة مركز العراق التجاري البحري، فكانت المحطة التي تخرج منها المراكب ماخرة البحار الى بلاد الهند والصين وجزرها، كما انها كانت محطة استقبال المراكب التجارية التي تجلب السلع المختلفة لأهل البصرة والعراق، كما يلاحظ ذلك من وصف أسواقهم ومتاجرهم وزينة دورهم وقصورهم، وغنى أهلها فكان التاجر البغدادي السندباد البحري ينزل من بغداد الى البصرة، ومنها يؤجر المراكب وفي احدى سفراته يشتري مركبا لحسابه الخاص وينطلق الى العالم الخارجي، وبعد ان تتهيأ له سبل السلامة يرجع الى بلاده ماراً بالبصرة قبل وصوله الى داره في بغداد ١٣٥)، وبذلك تدل مغامرات السندباد البحرية على مدى النشاط التجاري العباسي في البحر العربي والمحيط الهندي(١٣٦).

ويلاحظ من حكايات الليالي عن البصرة، ان ملوك البصرة كانت لهم علاقات تجارية مع ملوك العالم الخارجي، وبخاصة الهند ، وتبادلوا الهدايا، ومنها الجوهرة التي اهداها ملك الهند الى حاكم البصرة وكانت سبباً لحجز أهل البصرة وحيواناتهم في كل جمعة(١٣٧)، ومن ثم اهتمام ملك الهند بشراء القرص المعدني السحري، فارسل الوكلاء يجوبون المدن حتى اهتدوا اليه في البصرة فاشتروه بمبلغ ثلاثين الف دينار(١٣٨). كما ان بعض كبار تجار البصرة أمثال الشيخ ابو المظفر قد وصل في تجارته الى الصين(١٣٩). وكان للبصرة علاقات تجارية مع مناطق الخليج العربي، وبالذات مع مدينة عمان ، حيث كان وصول بعض فواكه البصرة الى أحد كبار تجار عمان سببا في شد رحاله الى البصرة، ومن ثم الى بغداد(١٤٠).

كما أصبحت التجارة رمز الثراء والغنى في عقلية أهل البصرة، حتى ان بعضهم كان لايخجل المشاركة بخمسة دراهم مع أحد كبار التجار (الشيخ ابو المظفر)، كما دلت على ذلك قصة أبي محمد الكسلان، فجلبت له هذه الدراهم المعدودة الثراء الواسع(١٤١). ونظراً لأهمية التجارة أصبح لتجار البصرة مكانة محترمة في مجتمع البصرة وعند ملوكها. فنرى وزير البصرة عندما أراد أن يعرف سلطان البصرة بابن اخيه المزعوم اقام وليمة كبيرة في قاعة الجلوس الكبيرة، ودعى اليها أكابر الامراء وتجار البصرة ليشهدوا مشروع الزواج الذي أعده الوزير لابن أخيه(١٤٢). وكذلك أحتاجت الخلافة العباسية في بغداد الى خدمات تاجر البصرة المعروف ابو محمد لكسلان(١٤٣). كما نرى بعض ولاة الامور في البصرة يهتمون بالتجارة، فامتلكوا المراكب واشرفوا على تجارتها، كما فعل وزير البصرة نور الدين الذي لم يقصر موارده على راتب الوزارة، بل امتلك المراكب التجارية واصبح من كبار التجار المعروفين بالبصرة(١٤٤).

وتخبرنا الليالي بان كبار تجار البصرة كان لهم وكلاء، ويسمى ايضاً خازندار(١٤٥)، ومهمتهم الاشراف على إدارة تجارتهم وضبط حساباتهم،حيث

ينظمون أعمالهم الحسابية في سجلات (دفاتر) يكتبون فيها المصروف والمدخول(١٤٦). وذكرت لنا الليالي ايضاً صوراً لطريقة البيع والشراء بين تجار البصرة، فهناك البيع المباشر وبالنقد، وهناك طريقة استعمال الحوالات في البيع، والتي كان بعض التجار يتخوف منها(١٤٧)، وهناك طريقة حضور التاجر الذي يشرف على بيع تجارته، ولكن لبعض الاسباب لم يحضر التاجر عملية البيع، فيكتب تعهدات يقر فيها بيع كل ما في مراكبه بالسعر المتفق عليه، وهذه التعهدات تغني عن حضور التاجر عملية البيع(١٤٨).

وارتبطت تجارة البصرة بامتلاك المراكب التجارية أو تأجيرها عندما يريد تاجر البصرة الابحار الى العالم الخارجي. وكان لكل مركب شيخ كبير يشرف عليه، ويعاونه مجموعة من العبيد يقومون باعمال الخدمة وتسهيل امور البيع والشراء، ويوجد في المراكب ايضاً الغطاسون الذين ينزلون الى اعماق البحار لاستخراج المعادن الثمينة(١٤٩). وقسم من هذه المراكب سمتها الليالي بالغليون ولها مخزن، وسطح لنوم الركاب(١٥٠)، وهي نوع من السفن الشراعية كما ذكرنا .

ب. الحرف والمهن :

ونظراً لاهمية البصرة التجارية، فقد اشتهرت باسواقها المتنوعة وحرفها المختلفة. فقد وردت اسواق البصرة في الليالي باسم السوق(١٥١)، كما ذكر اسم سوق العلافين ورئيسه الملقب بالشريف(١٥٢)، وسوق الجواهر وشيخه المعروف المعلم عبيد(١٥٣)، واحياناً تذكرها الليالي الاسواق بشكل مطلق(١٥٤).

وفي هذه الاسواق توجد محلات أودكاكين الأقمشة المتنوعة منها الهندي والرومي والخراساني(١٥٥)، أي الاقمشة المستوردة بواسطة التجارة، وهناك محلات صناعة النحاس، ومحلات صياغة الذهب، التي ارتبطت بصنعة الكيمياء _ أي تحويل النحاس الى ذهب _ التي ينفر منها أهل البصرة ويخشون من عملها(١٥٦)، وتوجد محلات صنع الحلوى، التي ارتبط أمرها بحياكة بعض المؤمرات. وتوجد كذلك محلات الخياطة، وكان بعضها من السعة بحيث يحتوي على مجموعة غرف، وهناك الخياط الخاص لكبار القوم كخياط السيدة جميلة بنت حاكم البصرة(١٥٧). وتوجد ايضاً محلات الحلاقة (المزين) والتي كانت مركزاً لمعرفة اخبار المدينة، وقد كشف الحلاق وامرأته سر اختفاء اهل البصرة وحيواناتهم يوم الجمعة(١٥٨).

وتوجد كذلك أفران الخبز، ومحلات الزيت، ودكاكين الشراب، ومحلات القهوة(١٥٩). وفي اسواق البصرة تباع الجواري بواسطة النحّاسين(١٦٠)، كما كان لمثل هؤلاء النحّاسين بيوت خاصة بالبصرة يبيعون فيها العبيد، ويذهب اليها من يريد الشراء(١٦١). ويوجد في السوق ايضاً موقف للعمال الذين يشتغلون باجور يومية(١٦٢).

وكان لبعض أصحاب الدكاكين وكيل يضبط حسابات الدكان ويشرف عليه وبخاصة عند سفر صاحبه، ويقوم بعمله بأجوريومية يتفق عليها. فأخبرتنا الليالي بقدر الأجر الذي حدد بدرهم يومياً، وحدد بعضهم الاجر بدرهمين يومياً مع الأكل واللبس، وبعض هؤلاء الوكلاء يصبح شريكاً لصاحب الدكان عندما يظهر له اخلاصه في عمله، ويتزوج من ابنة سيده(١٦٣).

وبحكم أهمية البصرة التجارية، وجدت الخانات فيها، وهي بمثابة الفنادق الأن، ويقدم صاحب الخان الخدمة للنزيل ولحيوانه الذي يركبه(١٦٤). وقد أخبرتنا الليالي عن جشع بعض أصحاب هذه الخانات الذين كان هدفهم الحصول على الاموال من نزلاء الخان، كما كان لصاحب الخان وزوجته دور كبير في تسهيل مهمة بعض النزلاء، مثل انجاز مهمة الفتى المصري الذي كان والده حاكم مصر الذي كان مغرماً بالسيدة جميلة بنت حاكم البصرة ابو الليث العميد(١٦٥). وذكرت لنا الليالي إسم خان حمدان الذي عرف صاحبه بالطمع(١٦٧)، وخان اليسيرجيه(١٦٨)، وكان يوجد ايضاً غرف على شاطئ البحر يؤجرها التجار بصورة خاصة من اجل استقبال المراكب(١٦٩).

ج. الزراعة :

لم تخبرنا الليالي عن أهم الحاصلات الزراعية في

البصرة، ماعدا إشارات الى وجود البساتين الكثيرة فيها، وبخاصة بساتين النخيل. وصورت لنا الليالي كثافة هذه البساتين بحيث أصبحت ملجأ للفارين والخائفين(١٧٠). الاان الليالي ذكرت لنا وجود البساتين الخاصة، والتي أطنبت في وصفها، فبعض هذه البساتين يعود للخليفة العباسي في بغداد، وقد حوى أنواع الثمار، وقد شدت اليه الرحال لجلب بعض ثماره المفقودة في بغداد تلبية لرغبة زوج مريضة في بغداد(١٧١). ومنها بستان اللؤلؤة العائد للسيدة جميلة بنت حاكم البصرة ابو الليث العميد والذي يقع على ساحل البحر، والذي وصفته الليالي بالجنة على ما حواه من أنواع الاشجار والطيور والحيوانات المختلفة(١٧٢).

ونستدل من حكايات الليالي ان خراج مدينة البصرة (الخراج ضريبة تؤخذ على الحاصلات الزراعية) كان مهماً بأهمية خراج بغداد وخراج خراسان(١٧٣). وكان كذلك موضع إهتمام الخليفة العباسي ببغداد بحيث يتفقد هذا الخراج ويسأل عنه عندما يتأخر وصوله الى بغداد، ويرسل البعوث لجلبه(١٧٤). ومن هذه الروايات نستدل على مدى رخاء مدينة البصرة ووفرة حاصلاتها الزراعية، كما تدل عليها بعض الحرف في السوق، ورخص الاسعار ايضاً(١٧٥).

٣. الناحية الاجتماعية :

أ. طبقات المجتمع :

صورت الليالي المجتمع الطبقي في البصرة، بأن قسمت الناس الى قسمين:

١. طبقة الخاصة : التي يمثلها ملوك البصرة ووزراءها وامراء القبائل فيها وكبار التجار، وقد استأثرت هذه الطبقة، بالثراء الواسع. فاعطتنا الليالي صورة الترف التي رافقت عملية تبني وزير البصرة للفتى المصري وحفلة استيزاره وزواجه، كما صورت مدى غنى هذا الوزير(١٧٦)

كما اعطتنا صورة للترف في قصر التاجر أبي محمد الكسلان: «...فرأوا في الدهليز ستوراً من الديباج الازرق المطرز بالذهب الاحمر...»، اما الحمام في داره فكانت : «حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزركش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد...»(١٧٨). ثم تصور الستور في القصر المطرزة بالذهب والمرصعة بالدر والجواهر، وتصور أواني الطعام الفاخرة، وهي أطباق الصيني المذهبة(١٧٩). كما تعطينا صورة لما هو موجود في دارمحمد بن علي الجوهري،فكانت كؤوسهم مذهبة ومرصعة بالدر والجوهر(١٨٠). هذا الى جانب ما تزخر به قصورهم من العبيد والمماليك وانواع الجواري مابين رومية وحبشية وشركسية وجرجية(١٨١)، وصورت لنا الليالي دار جبير بن عمير الشيباني في البصرة، واطنبت في وصف موائده المذهبة(١٨٢)، كما بالغت في وصف بستان السيدة جميلة بنت حاكم البصرة أبي الليث العميد حتى شبهته بالجنة(١٨٣). ونفس الصورة اعطتنا عن قصر نائب مدينة البصرة عبد الله بن فاضل(١٨٤).

ولم تنس الليالي التي تكلمت عن البصرة وسائل الاغنياء فيها للتخلص من حر البصرة الشديد، وبخاصة فيما يتعلق بطراز البناء وعمل الساباط ورشه بالماء وعمل النوافذ له(١٨٥).

٢. طبقة العامة : وتتألف من اصحاب الحرف والعمال والعبيد والفقراء الذين يحصلون على قوتهم بعناء.فتعطينا الليالي صوراً لحالة الفقر التي تعاني منها هذه الطبقة، فهناك العامل اليدوي الذي يقضي نهاره بالعناء، وهناك العامل بدرهم أو بدرهمين في محلات اسواق البصرة، وهناك المرأة الفقيرة التي تعمل خادمة في البيوت لكسب رزقها أمثال والدة أبي محمد الكسلان في بداية امرها(١٨٦).

وبجانب القصور الفخمة التي صورتها الليالي لاغنياء البصرة، نجد أن بعض الفقراء والزهاد يقيمون في دور خربة(١٨٧)، أو في مقبرة تظلهم خيام من قصب(١٨٨). وسمحت حكايات الليالي بانتقال فقراء من طبقة العامة الى طبقة الخاصة، واصبحوا من كبار التجار والاغنياء بعد ان خدمهم الجن(١٨٩). ولعل ذلك تعبير عن حالة البؤس والحرمان الذي تعاني منه الطبقة العامة، فنقلته بالخيال الخصب من حالته الفقيرة وجعلته

يسبح في عالم الكنوز والثراء الواسع(١٩٠).

ب. عناصر المجتمع :

اما عناصر مجتمع البصرة فيتألف _كما صورتها الليالي _ من العرب بالدرجة الاولى، فمعظم ملوك البصرة من القبائل العربية كما تدل عليهم كنيتهم. ووجد ايضاً فيها الاشراف (العلويون والعباسيون) الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة(١٩١). وهناك قبيلة بني شيبان المشهورة وزعيمها جبير بن عمير(١٩٢)، واشارت كذلك الى المهالبة (بني المهلب بن ابي صفرة) ومحلتهم بالبصرة(١٩٣). وبجانب العرب اشارت الليالي الى وجود العنصر الاعجمي الذي تصفه دائماً بالغدر والخيانة(١٩٤)، مع حذر أهل البصرة من هذا العنصر(١٩٥). كما ورد ذكر اليهود في البصرة ودورهم في إستئثار الناحية التجارية فيها(١٩٦).

ج. العادات الاجتماعية :

أعطت لنا الليالي نماذج جيده عن بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في البصرة، منها: عادة الذهاب الى الحمام، وتأتي اهميتها، ليس فقط لكونها دليلا على الاهتمام بالنظافة، وانما دليلا على كبر التقدير لشخص عزيز(١٩٧)، وتدل ايضاً على مدى اكرام أهل البصرة للضيف القادم بعد مشقة السفر، ومما يزيد أهمية هذا الذهاب، إرسال الملابس الجديدة ومجامر البخور، ومواد الزينة الأخرى دليلا على المبالغة في الاكرام(١٩٨).

وأخبرتنا الليالي عن فرح أهل البصرة في استقبال المولود الجديد، وعمل الولائم والاحتفال باليوم السابع من ولادته(١٩٩). ويقابل هذا شدة حزن أهل البصرة على الميت، وقد يستمر هذا الحزن لمدة شهرين(٢٠٠)، ويرافق ذلك الاهتمام الكبير بتشييع الميت وبخاصة اذا كان من كبار القوم، بحيث يشترك بالتشييع اهل البصرة جميعاً حتى الصبيان في المكاتب(٢٠١). كما يهتم اهل البصرة ببناء المشاهد على قبور موتاهم، ولاسيما الاغنياء منهم، مع عمل الختمات والولائم في يوم الاربعين(٢٠٢). وكذلك يعمل بعض اهل البصرة قبوراً للمفقودين في بيوتهم، يبكون حولها ويتذكر أعزاءهم على أمل العودة(٢٠٣). ومن عادات اهل البصرة توديع واستقبال المراكب التجارية، لانها سبب الرخاء لاهل البصرة عموماً(٢٠٤).

وتعطينا الليالي صوراً مشرقة، عن أخلاق أهل البصرة الطيبة، فتخبرنا عن احتضان وزير البصرة للفتى المصري الغريب ورعايته(٢٠٥)، كما تصور لنا خلق الجارية الرفيع الذي خلص الفتى المحب من إقامة الحد عليه، وكيف رضى أهلها بزواج ابنتهم منه(٢٠٦). ونفس الشئ خلق تجار البصرة، فأحدهم يعطي أموالا كثيرة لبدوي مجهول بمجرد انه روى حلماً خاصاً به(٢٠٧). وتمتدح الليالي خلق شيخ التجار ابو المظفر وامانته التي كانت سبباً في ثراء أبي محمد الكسلان(٢٠٨).

أما دور التجار في مساعدة الغريب المحتاج فقد اسهبت الليالي في ذكره، حيث كانوا يبيعونه أقل بكثير من سعر السوق ليتثنى له ممارسة التجارة واستعادة أمواله(٢٠٩). ويأتي في قمة خلق أهل البصرة ومروءتهم علاقة اميرها عبد الله بن فاضل مع أخويه، الذي كان يعفو عنهم كلما إزدادوا في الغدر به(٢١٠). وتخبرنا الليالي ايضاً عن صفاء نية أهل البصرة في التعامل مع الأخرين حتى ولو كان الأخر من الفرس المجوس. فيجعلون أكل الطعام شعاراً لهذه النية الصافية، حتى يكون بينهم «ملح وزاد». وهي عادة من أجود عادات العرب المعروفة، وقد تمسك أهل البصرة بهذا المبدأ عندما يريدون مؤاخاة شخص غريب(٢١١). وبالمقابل تصف الليالي المجوس الاعاجم بالغش والخداع والتدين الكاذب وممارسة صناعة الكمياء _التي حاربها الخلفاء _(٢١٢) وخيانتهم للعيش والملح الذي يعني للعربي المؤاخاة وقمة الوفاء، كما وصفتهم باقبح الالفاظ والاشعار(٢١٣).

ويلغ من تحقير الليالي للمجوس الذين يخونون هذا المبدأ، بان صورت بنات الجن أكثر اخلاصاً منهم ووفاء(٢١٤).

ونستدل من حكايات الليالي عن مدينة البصرة، بان دور الجن في مساعدة الفقراء ونقل حالهم الى الغنى(٢١٥)، ودورهم في جمع شمل الاحبة(٢١٦)، قد إحتل مكانة كبيرة في عقلية اهل البصرة. ولعل ذلك تعبير عن حالة الطبقة الفقيرة المعدمة

التي رفعت بواسطة الجن الى مقام الثراء، ولعله تعبير كذلك عن مدى خيانة الأخوة، تلك الخيانة التي عوضت بوفاء الجن. فهي حالات تعبر عن واقع اجتماعي تحكم به الطمع بسبب واقع البصرة الاقتصادي(٢١٧).

د. الاعياد والمناسبات :

اخبرتنا الليالي عن بعض الاعياد التي اشتهرت بها مدينة البصرة، حيث يخرج اكثر اهل البصرة فيها يقضون اوقاتاً جميلة ممتعة تحت ظلال الاشجار على نهر الابلة أو يركبون المراكب للنزهة في البحر (شط العرب) يرافقهم في ذلك أهل الطرب، واهم هذه الاعياد عيد النواريز (عيد النوروز) ويوم المتنعمين(٢١٨) (أي الاثرياء).

ومن المناسبات المعروفة في البصرة، كما تخبرنا الليالي، خروج اهل البصرة مع علمائها وزهادها حتى الصبيان بالمكاتب لاداء صلاة الاستسقاء، وهي صلاة معروفة تؤدى عند انحباس المطر(٢١٩). وكذلك تذكر الليالي وجود محل عام واحياناً يكون امام قصر الوالي ـ يجتمع فيه الناس عندما يريد ملك البصرة ان يقيم حداً على مجرم، ليكون عبرة للاخرين، ويكون الاشعار بذلك بالنداء في اسواق وطرقات المدينة(٢٢٠).

هـ. المرأة :

معظم الليالي التي تكلمت عن البصرة، حركت أحداثها المرأة، وبذلك أعطتنا صوراً متباينة لحالة المرأة في البصرة. فنرى المرأة العاشقة المحبة(٢٢١). والجارية غالية الثمن(٢٢٢)، والمرأة الجشعة التي دبرت الحيل لجمع شمل الاحبة(٢٢٣)، والمرأة المسترجلة المتجبرة(٢٢٤)، والمرأة الشاعرة(٢٢٥)، والمرأة الفقيرة الخادمة في البيوت(٢٢٦)، والمرأة الزاهدة التي تركت الدنيا(٢٢٧)، والمرأة اللعوب الخائنة(٢٢٨).

وتخبرنا الليالي بان ظاهرة العشق كانت سائدة في البصرة(٢٢٩)، كما تدل عليها معظم الحكايات. وهذا يدل على مشاعر أهل البصرة الرقيقة التي تتأثر بالجمال فتعشقه وتمتدحه: «...وكيف لم يمسك وأنت الهوى مقيمة في أرض البصرة»(٢٣٠)

٤. المنشآت العمرانية :

يمكن ان نقسم هذه المنشآت في البصرة، كما وردت في الليالي الى قسمين:

أ. المنشأت الدينية : تشمل هذه المنشآت المساجد التي وردت بصور مطلقة تارة باسم مسجد(٢٣١)، وتارة اخرى باسم الجوامع(٢٣٢)، دون ان تذكر لنا اسماء بعض هذه المساجد واين تقع. ومن هذه المنشأت الدينية كذلك إقامة المشاهد على القبور، وبخاصة على قبور الاغنياء، كما ذكرنا ذلك

ب. المنشأت المدنية : ويأتي في مقدمة المنشأت المدنية:

١. القصور، وأهمها قصور حكام البصرة، وقد كانت هذه القصور تقع على ساحل البحر وتحيط بها البساتين الغناء(٢٣٣). وفي هذه القصور قاعات كبيرة منها، قاعة الجلوس الكبيرة التي أعد فيها وزير البصرة حفلة التعريف بالفتى المصري(٢٣٤).

وكان لكبار القوم في البصرة قصورهم ايضاً ومن اشهرها قصر ضمرة بن المغيرة الملقب بابي السخاء في محلة المربد(٢٣٥). وقد بنى سلاطين البصرة وزعماؤها قصورهم من حجر الصوان والرخام المختلف الالوان وزينت بالذهب والفضة واسدلت عليها ستور الديباج المطرزة بالذهب(٢٣٦). وقد وصفت لنا الليالي بعض بيوت اغنياء البصرة، فذكرت بان له باباً كبيراً عليه حلقتان من النحاس، وبجانب الباب مسطبتان وفوقه دوالي العنب وقد ظللت على ذلك الباب، واسدلت على الباب ستور الديباج الاحمر(٢٣٧).

٢. الحمامات، ذكرت لنا الليالي نوعين من الحمامات في البصرة، الحمام العام، والحمام الخاص في بيوت الامراء والاغنياء(٢٣٨)، وقد اشرنا الى عادة الذهاب الى الحمام.

٣. الاسواق والخانات، وقد ذكرناها سابقاً.

اما فيما يتعلق بمحلات البصرة، فقد ذكرت لنا الليالي محلتين ، المربد أولا ومحلة المهالبة ثانياً(٢٣٩).

اما تخطيط مدينة البصرة، فذكرت لنا الليالي بان فيها سبعين درباً، وكل درب طوله سبعون فرسخاً

بالعراق(٢٤٠). فما المقصود بالفرسخ العراقي وما طوله؟ ذكرت لنا بعض المصادر ان البصرة قيست في عهد الوالي خالد بن عبد الله القسري فوجدوا طولها فرسخين، وعرضها فرسخين(٢٤١). ومن المعروف ان الفرسخ ثلاثة أميال، والميل ألف باع، وهو في اللغة منتهى مد البصر، والباع، أربعة أذرع (اي الميل ٤آلاف ذراع)(٢٤٢) أي ما يعادل ٢كم، ولعل البصرة على قياسها تساوي مايقارب ١٢كم طولا وكذلك عرضاً، لان طول الفرسخ يساوي ٦كم تقريباً. اما الفرسخ العراقي فقياساً الى ماذكرته المصادر أعلاه فان كل فرسخ اعتيادي (٣ميل) يساوي (٣٥) فرسخاً عراقياً. ولعل هذه الدروب التي ذكرتها الليالي هي الموصلة بين محلات البصرة، من الابلة الى المربد، وهكذا.

أى ان الميل الاعتيادي (الف باع) يساوي ١٢ فرسخاً عراقياً تقريباً. أي كل فرسخ عراقي يساوي ٨٠,٥ ذراع أي الفرسخ العراقي يساوي ٤٠م

٤٠ ×٧٠فرسخ عراقي _ يكون طول درب البصرة ٢٨٠٠م اي مايقارب ٣كم وهو أقرب الى الصواب والمعقول. ولعل هذه الدروب داخل مدينة البصرة فقط(٢٤٣)

الخاتمة :

نستدل من كل ذلك على مكانة البصرة السياسية والحضارية كما جاء ذكرها في كتاب الف ليلة وليلة، وقد اعطينا ملامح البصرة هذه كما هو موجود في الليالي وليس كما ينبغي ان يكون، لاننا رسمنا صورة مدينة البصرة على ضوء المعلومات التي اوردتها الليالي، ولعلها صورة قريبة من الواقع التاريخي، وبخاصة الملامح الحضارية.

ويدل الامر كذلك أن مدينة البصرة تأتي بالمرتبة الثانية بعد العاصمة بغداد، وشبهت سلاطينها بهارون‌الرشيد من حيث طبيعة حكمهم، وانواع المناصب الادارية فيها، ويدل ذلك على أهمية مدينة البصرة في العصر العباسي بالذات بعد ان أصبحت مركز العراق التجاري، ومازالت البصرة تحمل نفس الملامح عبر تاريخها الطويل مما يجعلها في طليعة المدن التي يهتم بها الباحثون وتدور بحوثهم في محاورها المختلفة.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر القديمة:

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون، (بيروت ١٩٧٨).
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ج٦، (القاهرة ١٩٥٦)
(٣) ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين، واسماء ماصنفوه من الكتب، ج٨ تحقيق رضا، تجدد المازنداري (طهران:١٩٧١)
(٤) التنوفي، ابو علي، المحسن بن علي، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، ج٤، (بيروت: ١٩٧٨)
(٥)الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج١ (بيروت:١٩٥٥)
(٦) الدينوري، عبد الله مسلم بن قتيبة، عيون الاخبار، ج١ (القاهرة:١٩٦٣)
(٧) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ج٨، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة:١٩٦٣)
(٨) المبرد، ابو العباس، محمد بن يزيد، الكامل، ج١ (القاهرة: بدون تاريخ)
(٩) مجهول، كتاب الف ليلة وليلة، (القاهرة:١٢٥٢هـ)، طبعة بولاق، مجلدين.
(١٠) المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، (بيروت: ١٩٧٣)
(١١) المقدسي، ابو محمد عبد الله احمد بن محمد بن قداحه، كتاب الثوابين _تحقيق: عبد القادر الارناؤوط _ (بيروت:١٩٧٤)

ب. المراجع الحديثة :

(١) الألوسي، عادل محي الدين، تجارة العراق البحرية مع اندونسيا (بغداد: ١٩٨٤)
(٢) الجومرد، عبد الجبار، هرون الرشيد، ج٢، (بيروت: ١٩٥٦)
(٣) الزيات، احمد حسن، في اصول الادب، ج١، (القاهرة: ١٩٣٥)
(٤) السامرائي، عبد الجبار، أثر الف ليلة وليلة في الاداب الاوروبية، الموسوعة الصغيرة، رقم ١١٨ (بغداد: ١٩٨٢)
(٥) الشحاذ، احمد محمد، الملامح الساسية في حكايات الف ليلة وليلة (بغداد: ١٩٧٧)
(٦) عبد الواحد، شريفي، الف ليلة وليلة واثرها في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة بغداد (بغداد: ١٩٨٣)
(٧) العقابي، عبد الصاحب، ديوان الف ليلة وليلة (بغداد: ١٩٨٠)
(٨) عواد، ميخائيل، الف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر الاسلامي (بغداد: ١٩٦٢)
(٩) القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج٢، (بيروت: ١٩٨٣)
(١٠) القلماوي، سهير، كتاب الف ليلة وليلة، (القاهرة: ١٩٦٦)
(١١) الكبيسي، عبد المجيد محمد صالح، عصر هشام بن عبد الملك (بغداد: ١٩٧٥)
(١٢) ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٧٨)
(١٣) المبارك، عبد الحسين (الدكتور) وآخر، من مشاهير اعلام البصرة (البصرة: ١٩٨٣)
(١٤) هنتس، ڤالتر، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: د. كامل العسلي (عمان: ١٩٧٠)

ج. المقالات

(١) البكري، عادل (الدكتور)، «الطب العربي في حكايات الف ليلة وليلة»، مجلة افاق عربية، العدد الثالث (بغداد: ١٩٨٥)
(٢) دوبر يشان، نيقولا، «دخول وانتشار حكايات الف ليلة وليلة في التراث الثقافي الروماني» مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني (بغداد: ١٩٧٧)
(٣) شلق، علي، «الف ليلة وليلة» مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع، (بغداد: ١٩٧٩)
(٤) لين، ادوارد وليام، «الحياة العربية في العصور الوسطى دراسات من الف ليلة وليلة»، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع، (بغداد: ١٩٧٩)
(٥) الملاح، عبد الغني، «رحلة حضارية ولمحات تراثية عبر الف ليلة وليلة»، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني (بغداد: ١٩٧٧)
(٦) النصير، ياسين، «البناء الفني للحكاية في الليالي»، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع (بغداد: ١٩٧٩)

الهوامش

(١) ينظر، القلماوي، سهير، الف ليله وليله، (القاهرة: ١٩٦٦)،ص ١٧ ومابعدها.
العقابي، عبد الصاحب، ديوان الف ليله وليله، (بغداد: ١٩٨٠)، ص ٥ ومابعدها.
عواد، ميخائيل، الف ليله وليله مرآة الحضارة والمجتمع في العصر الاسلامي، (بغداد: ١٩٦٢)، ص ٥ ومابعدها.

(٢) دوبريشان، نيقولا، «دخول وانتشار حكايات الف ليله وليله في التراث الثقافي الروماني»، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (بغداد: ١٩٧٧)، ص ٧٧.

(٣) السامرائي، عبد الجبار محمود، أثر الف ليله وليله في الأداب الاوروبية، الموسوعةالصغيرة، رقم ١١٨ (بغداد: ١٩٨٢)، ص٥ _٦
العقابي، المرجع السابق، ص ٣.

(٤) عبد الواحد، شريفي، الف ليله وليله واثرها في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، كلية الاداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٣، ص ٣٦.

(٥) الزيات، احمد حسن، في اصول الأداب، ج١، (القاهرة: ١٩٣٥)، ص ٤١.

(٦) شلق، علي «الف ليله وليله» مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع، (بغداد: ١٩٧٩)، ص ٦٣٤.

(٧) الف ليله وليله، (بولاق ١٢٥٢هـ)، مجلد ١، ص ٢ _٤.

(٨) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٩٥ _٦١٩.

(٩) ينظر، القلماوي، المرجع السابق، ص ٣٠٠ ومابعدها، _عبد الواحد ، المرجع السابق، ص ٧٨ ومابعدها.

(١٠) شلق، المرجع السابق، ص ٦٢٩ _٦٣١ _ عواد، المرجع السابق، ص ٧.

(١١) نفسه ص ٦٢٩ _ نفسه، ص ١٣.

(١٢) ينظر، الشحاذ، احمد محمد، الملامح السياسية في حكايات الف ليله وليله، (بغداد: ١٩٧٧) ، ص ٢٦١ ومابعدها.

(١٣) شلق، المرجع السابق، ص ٦٣٠.

(١٤) عواد، المرجع السابق، ص ١٣.

(١٥) القلماوي، المرجع السابق، ص٤٢.

(١٦) الشحاذ، المرجع السابق، ص ٣٢.

(١٧) ينظر، شلق، المرجع السابق، ص ٦٣٦ _ القلماوي، المرجع السابق ، ص ١٦.

(١٨) القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٦.

(١٩) مروج الذهب، ج٢،(بيروت: ١٩٧٣)، ص ٢٥١.

(٢٠) الفهرست، الجزء الثامن، تحقيق رضا _ تجدد المازنداري (طهران: ١٩٧١)، ص ٣٦٣.

(٢١) شلق، المرجع نفسه، ص ٦٣٠.

(٢٢) ينظر، الملاح، عبد الغني، «رحلة حضارية ولمحات تراثية عبر الف ليله وليله» مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (بغداد: ١٩٧٧)، ص ١٢٨
الشحاذ، المرجع السابق، ص ١٨ ومابعدها.

(٢٣) ينظر: عبد الواحد، المرجع السابق، ص ٦٢٧ ومابعدها _القلماوي، المرجع السابق، ص ٣٠ هامش ١.

(٢٤) ينظر، شلق، المرجع السابق، ص ٦٢٨.

(٢٥) الف ليله وليله، مجلد ١، ص ٤.

(٢٦) نفسه، مجلد ١، ص ٥.

(٢٧) ينظر، النصير، ياسين، «البناء الفني الحكاية في الليالي»، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع (بغداد: ١٩٧٩) ، ص ٦١٣.

(٢٨) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٣٩، ليله ٤٤ ومابعدها.

(٢٩) نفسه، مجلد ١، ص ٥٦٦، ليله ٣٨٤، مجلد ٢، ص ١٧٢ ليله ٦٨٦.

(٣٠) ينظر، العقابي، المرجع السابق، ص ١٩ _شلق، المرجع السابق، ص ٦٣٣.

(٣١) عواد، المرجع السابق، ص ٢١.

(٣٢) الف ليله وليله، مجلد ١، ص ٤٧٠، ويلقبه القشيري.

(٣٣) تحقيق عبود الشالجي، الجزء الرابع (بيروت: ١٩٧٨) ، ص ٣٠٦ _٣٠٨.

(٣٤) الف ليله وليله، مجلد ١، ص ٥٨١.

(٣٥) تحقيق عبد القادر الارناؤوط، (بيروت: ١٩٧٤).

(٣٦) ص ١٧٠ _ ١٧٣ (ابن الرشيد)، ص ١٨٠ _ ١٨٢ (ابن المأمون).

(٣٧) الف ليله وليله، مجلد ١، ص ٥٠٥.

(٣٨) نفسه، مجلد ٢، ص ١٨٢ _ ١٨٣.

(٣٩) الف ليله وليله، مجلد ٢ ، ص ٥٥٥، ص ٥٥٦ _ ٥٧٦.

(٤٠) عواد، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤١) الف ليله وليله، مجلد ٢، ص ٥٥٧، ص ٥٧٠.

(٤٢) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٦٤.

(٤٣) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٦٨.

(٤٤) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٩٤.

(٤٥) نفسه، مجلد٢، ص ٥٨٧. والغليون من السفن الشراعية التي استخدمها الاسبان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. البكري، عادل، «الطب العربي فى حكايات الف ليله وليله»، مجلة افاق عربية، العدد ٣، (بغداد: ١٩٨٥)، ص ٦٧.

(٤٦) الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الاخبار، ج١،(القاهرة: ١٩٦٣)، ص ٢١٧.

(٤٧) نفسه، ج١، ص٢١٦.

(٤٨) نفسه، ج١، ص ٢٢١، ص ٢٢٢.

(٤٩) ينظر، ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج٢، (القاهرة: ١٩٥٦)، ص ١٤٥.

(٥٠) المبارك، عبد الحسين (الدكتور) وآخر، من مشاهير أعلام البصرة، (البصرة: ١٩٨٣)، ص ١٨١.

(٥١) نفسه، ص ١١ _ ١٤.

(٥٢) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٠.

(٥٣) ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق، في عهد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ _١٢٥هـ) ومدة ولايته ١٠٥ _ ١٢٠هـ /٧٢٤ _٧٣٩م. ينظر، الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، تحقيق، محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: ١٩٦٦)، ص ١٤٢، ص ١٤٨ _ الكبيسي، عبد المجيد محمد صالح، عصر هشام بن عبد الملك، (بغداد: ١٩٧٥)، ص ١٢٩.

(٥٤) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٠.

(٥٥) الشحاذ، المرجع السابق، ص ١٤٣ _ ١٤٤.

(٥٦) المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد، الكامل، ج١، (القاهرة: بدون تاريخ)، ص١١٧.

(٥٧) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٥، ص٦١٦.

(٥٨) نفسه، مجلد ١، ص ٥٦٤ ، مجلد٢، ص ٥٥٧.

(٥٩) القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٦٠) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٤٥٩.

(٦١) نفسه، مجلد١، ص ٥٥، ص ٦١٦، مجلد٢، ص ١٧٣ _١٧٤، ص ٥٥٧، حتى الطبري احياناً لايعطينا اسم والي البصرة في سرده لبعض الاحداث، ينظر، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٤٠، على سبيل المثال.

(٦٢) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٠٦.

(٦٣) نفسه، مجلد١، ص ١٢٢، ص ١٢٥.

(٦٤) نفسه ، مجلد١، ص ٤٧٣.

(٦٥) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٣.

(٦٦) نفسه، مجلد١، ص ٥٦٤.

(٦٧) نفسه ، مجلد٢، ص ١٨١.

(٦٨) نفسه ، مجلد٢، ص ٥٣٦.

(٦٩) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٦.

(٧٠) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٨.

(٧١) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٧.

(٧٢) نفسه، مجلد١، ص ٦٨ _ ٦٩.

(٧٣) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٧٥.

(٧٤) نفسه، مجلد١، ص ١٠٦.

(٧٥) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٣.

(٧٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٦٤.

(٧٧) نفسه، مجلد٢، ص ١٨١.

(٧٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٦ وما بعدها.

(٧٩) نفسه، مجلد٢، ص ٥٣٧.

(٨٠) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٤٣.

(٨١) نفسه، مجلد٢، ص ٥٩٠ _ ٥٩١.

(٨٢) نفسه، مجلد ١، ص ٤٧٨ وما بعدها.

(٨٣) نفسه، مجلد ٢، ص ٢٩٦ _٢٩٧، ص ٣٠١.

(٨٤) نفسه، مجلد٢، ص ٥٨١ و٥٨١ وما بعدها.

(٨٥) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٩٠ _ ٥٩١ _ ينظر، الشحاذ، المرجع السابق، ص ٨٧ _٨٨، ينظر، عن دور الجن والشياطين، لين، ادوارد وليام،

«الحياة العربية في العصور الوسطى دراسات من الف ليله وليله» مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع، (بغداد: ١٩٧٩)، ص ٥٩٤ وما بعدها. (ترجمة الدكتور يحيى الجبوري).

(٨٦) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٣٧ _ ينظر، الجومرد، عبد الجبار، هرون الرشيد، ج٢ (بيروت: ١٩٥٦)، ص ٤٦٥.

(٨٧) المقدسي، كتاب التوابين، ص ١٨٨.

(٨٨) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٢٣.

(٨٩) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٣.

(٩٠) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٣.

(٩١) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٦، الشحاذ، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٩٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٧. وعن علاقات محمد بن سليمان الهاشمي الخارجية ينظر، الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٣٧.

(٩٣) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٣٥.

(٩٤) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٥.

(٩٥) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٣.

(٩٦) الف ليله وليله، مجلد ١، ص ٥٥.

(٩٧) نفسه، مجلد١، ص ١٠٦.

(٩٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٥.

(٩٩) نفسه، مجلد١، ص ١٢٥.

(١٠٠) نفسه، مجلد١، ص ٥٧.

(١٠١) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٠٦.

(١٠٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٥.

(١٠٣) نفسه، مجلد١، ص ٥٧.

(١٠٤) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٢٥.

(١٠٥) نفسه، مجلد١، ص ٥٨.

(١٠٦) نفسه، مجلد١، ص ١٠٦.

(١٠٧) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٥.

(١٠٨) الف ليله ليله، مجلد١، ص٥٨.

(١٠٩) نفسه، مجلد١، ص ١٢٤.

(١١٠) نفسه، مجلد١، ص ١١٤.

(١١١) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧١.

(١١٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٩ _ ٥٨٠، ينظر، القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج٢، (بيروت: ١٩٨٣)، ص ٤٠٧.

(١١٣) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥١٠.

(١١٤) وهم قضاة المذاهب الاربعة، وقد وجدوا في عصور متأخرة، واعل ذلك يدل على حداثة هذه القصة. ينظر، ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٧٨) ص ٤٦.

(١١٥) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٢٤.

(١١٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٠٦.

(١١٧) نفسه، مجلد٢، ص ٥٩٢ _ ٥٩٣.

(١١٨) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٢٣ _ ١٢٤.

(١١٩) نفسه، مجلد١، ص ٤٧١.

(١٢٠) نفسه، مجلد١، ص ٦١٦.

(١٢١) ينظر، المبارك، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(١٢٢) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٦١٦ وما بعدها، القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٩١ _ ٢٩٢.

(١٢٣) نفسه، مجلد١، ص ٦٣٦.

(١٢٤) نفسه، مجلد١، ص ٦١٨.

(١٢٥) القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٩٢.

(١٢٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٧.

(١٢٧) نفسه، مجلد١، ص ١٠٧.

(١٢٨) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٣ _ ٥٠٤.

(١٢٩) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٦٤.

(١٣٠) القلماوي _ المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(١٣١) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ١٧٣ _ ١٧٤.

(١٣٢) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٣.
(١٣٣) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٦٤١.
(١٣٤) نفسه، مجلد١، ص ١٠٩.
(١٣٥) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٤ ومابعدها.ينظر عن تجارة البصرة، الألوسي، عادل محي الدين، تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا،(بغداد: ١٩٨٤)، ص ٦٧ وما بعدها.
(١٣٦) عبد الواحد، المرجع السابق، ص ٧٦.
(١٣٧) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٥٧.
(١٣٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٣٢ _ ٥٣٣.
(١٣٩) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٥.
(١٤٠) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٢٨.
(١٤١) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٥.
(١٤٢) الف ليله وليله، مجلد١، ٥٦.
(١٤٣) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٣ وما بعدها.
(١٤٤) نفسه، مجلد ١، ص ٥٧، ص ٥٩.
(١٤٥) نفسه، مجلد١، ص ٥١٠.
(١٤٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١١٠.
(١٤٧) نفسه، مجلد١، ص ١١٢.
(١٤٨) نفسه، مجلد١، ص ٥٩.
(١٤٩) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٥.
(١٥٠) نفسه، مجلد٢، ص ٥٨٧، وعن انواع السفن ينظر، الألوسي، المرجع السابق، ص ١١٢ وما بعدها.
(١٥١) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٠٦ ، مجلد٢، ص ٢٩٦.
(١٥٢) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٧.
(١٥٣) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٧.
(١٥٤) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٥.
(١٥٥) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٧٨.
(١٥٦) نفسه، مجلد٢، ص ٢٩٤ _ ٢٩٥، ينظر، القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٧٨ وما بعدها.
(١٥٧) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٣٧ _ ٥٣٨.
(١٥٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٦ _ ٥٥٧.
(١٥٩) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٥٥.
(١٦٠) نفسه، مجلد١، ص ٥٦٤.
(١٦١) نفسه، مجلد١، ص ٦٤٢.
(١٦٢) نفسه، مجلد١، ص ٥٨١، ينظر، المقدسي، المصدر السابق، ص ١٧١.
(١٦٣) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٤٦٠، ص ٥٣١، ص ٥٧١.
(١٦٤) نفسه، مجلد١، ص ٥٥.
(١٦٥) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٣٦ وما بعدها.
(١٦٦) نفسه، مجلد٢، ص ٢٣٦.
(١٦٧) نفسه، مجلد٢، ص ٥٦٥ _ ٥٦٦.
(١٦٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٣١.
(١٦٩) الف ليله وليله، مجلد١، ص ١٠٩.
(١٧٠) نفسه، مجلد١، ص ٥٢.
(١٧١) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٣٨ _ ٥٣٩.
(١٧٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٣٤.
(١٧٣) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٦.
(١٧٤) نفسه، مجلد ٢، ص ٥٣٦.
(١٧٥) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٦ _ ٥٧.
(١٧٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٣.
(١٧٧) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٤.
(١٧٨) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٥.
(١٧٩) نفسه، مجلد١، ص ١١٢، ص ٤٧٦.
(١٨٠) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٦.
(١٨١) نفسه، مجلد٢، ص ٥٣٩.
(١٨٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٦.
(١٨٣) الف ليله وليله، ج٢، ص ١٧٣، ص ١٨١.
(١٨٤) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٥، ص ٥٨١.
(١٨٥) نفسه، مجلد١، ص ٦٤١ _ ٦٤٢.
(١٨٦) نفسه، مجلد١، ص ٥٨٢.
(١٨٧) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٤٧٥.
(١٨٨) عبدالواحد، المرجع السابق، ص ٧٤.
(١٨٩) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٤٦٠ _ ٤٦١.
(١٩٠) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٠٥.
(١٩١) نفسه، مجلد١، ص ١٨١.
(١٩٢) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٣.
(١٩٣) نفسه، مجلد٢، ص ٢٩٥.
(١٩٤) نفسه، مجلد١، ص ٥٩.
(١٩٥) نفسه، مجلد١، ص ٥٦.
(١٩٦) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٦، مجلد٢، ص ٥٥٦.
(١٩٧) نفسه، مجلد١، ص ٥٧.
(١٩٨) نفسه، مجلد ١، ص ٥٨.
(١٩٩) نفسه، مجلد١، ص ٥٧، ص ١٠٩

(٢٠٠) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٧٨ _ ٥٧٩.
(٢٠١) نفسه، مجلد ١، ص ٦٨، مجلد٢، ص ٤٦٠.
(٢٠٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٨٨.
(٢٠٣) نفسه، مجلد١، ص ٥٥ _ ٥٦.
(٢٠٤) نفسه، مجلد١، ص ٤٧١ وما بعدها.
(٢٠٥) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٢.
(٢٠٦) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٥.
(٢٠٧) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٣٢.
(٢٠٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٧٨ _ ٥٧٩.
(٢٠٩) نفسه، مجلد٢، ص ٢٩٦.
(٢١٠) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (بيروت: ١٩٧٨)، ص ٥٢٥.
(٢١١) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٢٩٦ _ ٢٩٧، الشحاذ، المرجع السابق، ص ٢٧٦ _ ٢٧٧.
(٢١٢) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٣٠١ وما بعدها.
(٢١٣) نفسه، مجلد١، ص ٤٨٠.
(٢١٤) نفسه، مجلد٢، ص ٥٩٥.

(٢١٧) العقابي، المرجع السابق، ص ١٥.
(٢١٨) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ١٨٢، ص ٤٦٠.
(٢١٩) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٦٤١.

(٢٢٠) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٠.
(٢٢١) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٢.
(٢٢٢) نفسه، مجلد ١، ص ١٠٦.
(٢٢٣) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٥٧ وما بعدها.
(٢٢٤) نفسه، مجلد٢، ص ٥٤١.
(٢٢٥) نفسه، مجلد٢، ص ١٧٣.
(٢٢٦) نفسه، مجلد١، ص ٤٧٥.
(٢٢٧) نفسه، مجلد١، ص ٥٨٢.
(٢٢٨) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٤ وما بعدها. ينظر عن المرأة في الليالي، القلماوي، المرجع السابق، ص ٢٣٣. عبد الواحد، المرجع السابق، ص ٨٠.عواد، المرجع السابق، ص ٢٣.
(٢٢٩) الف ليله وليله ، مجلد٢، ص ١٨٢.
(٢٣٠) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٢.
(٢٣١) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٦٤٢.
(٢٣٢) نفسه، مجلد٢، ص ٥٥٦.
(٢٣٣) الف ليله وليله، مجلد٢، ص ٥٩٤.
(٢٣٤) نفسه، مجلد١، ص ٥٦.
(٢٣٥) نفسه، مجلد٢، ص ١٨٣.
(٢٣٦) نفسه، مجلد١، ص ٦٨، ص ٤٧٣ _ ٤٧٤.
(٢٣٧) نفسه، مجلد ١، ص ٥٠٣.
(٢٣٨) الف ليله وليله، مجلد١، ص ٥٦، ص ١٠٧، ص ٤٧٣، ص ٥١٠.
(٢٣٩) نفسه، مجلد١، ص ١٨١، مجلد٢، ١٨٣.
(٢٤٠) نفسه، مجلد١، ص ٥٠٣.
(٢٤١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص ٢٥ ، الدينوري، عيون الاخبار، ج١، ص ٢١٦.
(٢٤٢) المقدسي، كتاب التوابين، ص ١١٥، هامش(١). ينظر هنتس، فالتر، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة د. كامل العسلي، (عمان: ١٩٧٠) ، ص ٩٤.
(٢٤٣) عن خطط البصرة، ينظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج١، (بيروت: ١٩٥٥) ، ص ٤٣٤ وما بعدها.

بعض نواحي التأثيرات الثقافية والحضارية والفنية التي عرفتها مدينة تونس من القرن السابع الى القرن الثالث عشر للهجرة

د. محمد الباجي بن مامي

طُعِّمَ المجتمع التونسي على مر التاريخ بعناصر اجنبية، لعبت دورا هاما في اعطاء الثقافة والفن والمعمار والحضارة بصفة عامة، نفسا جديدا، وصبغة اتسمت بأكثر حيوية خلال فترات الرخاء والازدهار، فالبلاد التونسية عرفت عدة فترات تاريخية، كل فترة منها امتازت بقدوم ممثلين لحضارات مختلفة، استقر أغلبهم بالبلاد. فقبل الفتح الاسلامي، قدم الفينيقيون (وذلك خلال القرن الثامن قبل ميلاد المسيح) فارسوا حضارة رفيعة، كان لها شأن لايستهان به بين قوات البحر الابيض المتوسط آنذاك. ثم أتى بعدهم احتلال البلاد من قبل الوندال ثم البيزنطيين، وبعد كل هؤلاء جاء دور العرب الفاتحين الذين اختلف عددهم حسب الفترات.

وقد قدم المسلمون الفاتحون من عدة جهات من الامبراطورية، الا أن زحف قبائل بني هلال وبني سليم في اواسط القرن الخامس للهجرة، مثل حسبما يبدو أهم الهجرات العربية، وكان تأثيرها على السياسة والاقتصاد وعلى الحياة الاجتماعية عميقا جدا.(١) لكن بداية من القرن الخامس هـ / الحادى عشر م، دخل شئ من الانقسام على العالم الاسلامي، نتج عنه تقسيم واضح بين شرقه وغربه، فأصبح لكل قسم شخصيته ونوعية هندسته المعمارية مع كيفية خاصة في بناءه، واتسمت كل جهة بمدارس فنية خاصة به.

وهكذا تنوعت مصادر التأثيرات في الناحية المعمارية التونسية. وكذلك في الناحية الثقافية، بتنوع البلدان الاسلامية التي صدرت عنها. واتسم كل عصر بطابعه الذي يميزه عن العصور السابقة. وهكذا نرى ان لكل دولة من الدول المتعاقبة على حكم البلاد التونسية طابعها الخاص، الا انه لم يوجد قط اي انقطاع في سلسلة الحلقات التي تربط بين مختلف هذه العصور، اذ أنه رغم الفوارق التي كانت في بعض الاحيان شاسعة بين الفترة والاخرى، وجدت أشياء ربطت بينها وجعلت لها شخصية اعطت طابعا خاصا لافريقية(٢).

أ. التأثيرات الأندلسية :

لكن بداية من الفترة الحفصية، تغير مصدر التأثيرات، وعرفت البلاد تأثيرات ثقافية وفنية ومعمارية مختلفة، من أهمها التأثيرات الاندلسية المغربية(٣) التي مازال بعضها موجوداً الى يومنا هذا. وقد دخلت هذه التأثيرات افريقية مع قدوم الموحدين، اي ابتداء من النص الثاني للقرن ٦هـ /١٢م، الا أنها اصبحت أكثر وضوحا عند

استيلاء الحفصيين على الحكم سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م، وقد كان مؤسس هذه الدولة _أبا زكرياء الاول _ قبل قدومه الى افريقية، واليا على غرب الاندلس، مما ادى الى ارتباط العديد من الاندلسيين به _وخصوصا منهم الاشبيليين(٤).

ونتيجة لهذه العلاقات الوطيدة، أتى الاندلسيون في مرات متتالية الى مدينة تونس، بداية من النصف الاول للقرن السابع هـ /الثالث عشر م. فالدفعات الاولى لهؤلاء المهاجرين قدمت ابتداء من سقوط بلنسية في ايدي الاسبان سنة ٦٣٦هـ /١٢٣٨م، وكذلك عند سقوط اشبيلية ايضا في ايدي المسحيين سنة ٦٤٩هـ / ١٢٤٨م.(٥) وقد شجعهم ما وجدوه من الترحاب والمواساة على الاتجاه الى مدينة تونس، اذ بقي ابو زكرياء ثم ابنه المستنصر مرتبطين بالتقاليد الاندلسية، الا ان عددهم تضاءل في القرن الثامن هـ / الرابع عشر م، لكن الامور لم تبق على هذا النسق، اذ تجدد قدومهم في القرن التاسع هـ / الخامس عشر م، وازداد عددهم خصوصا بعد سقوط غرناطة(٦).

لكن أهم دفعة وصلت الى تونس، تمثلت في عدد هام من «الموريسكوس» وهم مسلموا الاندلس الذين هربوا بدينهم من الاضطهاد المسيحي، وهو ناتج عن قرار فليب الثالث بطردهم الى خارج اسبانيا، وكان وصولهم سنة ١٠١٧هـ و ١٠١٨هـ /١٦٠٩م. ولم يجد هؤلاء نفس القبول بالمغرب والجزائر، اذ ان بهم الاعراب، ولم يبق لهم حتى ما يسدون به رمقهم، ولذلك، بعد توقف باحدى هذين البلدين توجه عدد هام منهم في رحلة ثانية الى البلاد التونسية، والبعض من أعضاء هذه الهجرة قدموا عن طريق آغد، او مروا بمرسيلياحيث سلبت اموال العديد منهم(٧). وتؤكد بعض الوثائق أن عدد هؤلاء المهاجرين بلغ ٨٠,٠٠٠ نسمة.

وان كان الكثير من هؤلاء المهاجرين، وزعوا على عدة قرى ومدن الشمال التونسي، فقد ابقي الاثرياء منهم واهل الحرف، خاصة المختصين في صنع الشاشية بالعاصمة وقد ساهمت هذه الصناعة في تدعيم الاقتصاد التونسي اثناء الفترة المعاصرة، كما بقي كذلك التجار والعلماء والمدرسون(٨). وكانت لكل هؤلاء خاصياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ولباسهم وتصرفاتهم الخ... و جلبوا معهم ثقافاتهم وانواع فنونهم وطرق بنائهم، فقد كانت اذن اختصاصاتهم مختلفة، فمنهم أصحاب الحرف من بنائين ونجارين وحدادين، ومنهم المثقفون والعلماء، ومنهم المهندسون والاطباء، وغيرهم، فكان تأثيرهم في المجتمع التونسي مختلف الوجوه.(٩)

تواجد اذن الكثير من العلماء والمثقفين الاندلسيين الذين أثروا في الحياة الثقافية والفكرية الافريقية، وهكذا مثلت الثقافة الاندلسية نخبة من العلماء البارزين، من أهمهم على الاطلاق، عبد الرحمن ابن خلدون صاحب «العبر» وهو احد احفاد المهاجرين الاوائل(١٠). وقد عرفت مدينة تونس بفضل هؤلاء ومن ساواهم من الافارقة في القرنين السابع هـ / الثالث عشر م والثامن هـ / الرابع عشر م، وكذلك النصف الاول من القرن التاسع هـ / الخامس عشر م، نهضة علمية شاملة، جعلت منها أهم المراكز الثقافية والتعليمية بالمغرب العربي(١١).

كما نجد خلال الفترة العثمانية أسماء علماء اندلسيين، أو من آباء اندلسيين(١٢) وهذا دليل على قدوم الكثير من المثقفين في هجرة ١٠١٧هـ _١٠١٨هـ / ١٦٠٩م.

من المؤكد أن بعض هؤلاء العلماء تعاونوا مع السلطة الحاكمة. اذ يبدو أن أبا زكرياء الاول ثم ابنه المستنصر وخلفائهم في الحكم، حاولوا استعمالهم لتدعيم المذهب الموحدي بين العامة. فنتيجة لارادة هؤلاء الخلفاء كان من بين المدرسين الاوئل بالمدارس التونسية بعض الاندلسيين(١٣) لكن السلاطين لم يكتفوا باستعمال الاندلسيين في ميدان الدراسة بل استعملوا البعض منهم لمحاولة الحد من تاثير رجالات الموحدين. ولذلك اهتم الكثير من الاندلسيين القادمين في الفترات الاولى بالسياسة وبلغوا مناصب سياسية عالية(١٤)، الا ان البعض

منهم كان مآله القتل(١٥) كابن الابار البلنسي (٥٩٥هـ /١١٩٩م ـ ٦٥٨هـ /١٢٥٦م) صاحب «الملة السيراء»(١٦) والنحوي ابي الحسن ابن عصفور (٥٩٧هـ /١٢٠١م ـ ٦٦٣هـ /١٢٦٥م) الذي تنسب اليه المدرسة العصفورية(١٧) وأبي العباس أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري (المتوفي سنة ٦٧٩هـ /١٢٨٠م) (١٨)... الخ

وقد كان من بين الاندلسيين المهاجرين الى تونس، بعض الاطباء الذين لعبوا دورا هاما في تكوين نخبة من الاطباء. الا أن المصادر لم تورد الا أسماء البعض منهم، ويبدوا أن أغلبهم عالجوا السلاطين والأمراء. والطب علم يتوارث أباً عن جد، مثال لذلك: «الحكيم أبو أسحاق ابراهيم بن الشيخ الحكيم أبي الظفر غالب بن الحكيم عبد الله بن محمد غالب الفي» المتوفي سنة ٦٥٤هـ /١٢٥٦م(١٩) وكذلك «الطبيب الماهر ابوزيد عبد الرحمن بن الشيخ الطبيب الماهر أبو عثمان سعيد الانصاري» المتوفي سنة ٨٧٢هـ /١٤٦٧م(٢٠). أما أبو يعقوب يوسف بن محمد بن اندراس، المتوفي سنة ٧٢٩هـ /١٣٢٩م(٢١) ـوقد درس الطب بمنزلهـ فقد أخذ العلم عن أبيه: أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن إندراس، المتوفي سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م(٢٢) وهو أصيل مرسية. فأكثر الاطباء الذين باشروا مهنتهم بتونس أصيلوا الاندلس(٢٣) أو صقلية(٢٤). وفي النصف الاول للقرن الثامن هـ /الرابع عشر م، أخذ عن ابن اندراس الابن، القاضي والعالم الشهير: محمد بن عبد السلام، كما أخذ كذلك عن ابن اندراس أشهر علماء البلاد: محمد بن عرفة(٢٥).

كما قدم كذلك عدد هام من المهندسين والعمال المختصين، فلدينا نصوص تفيدنا بان المهندسين الذين أشرفوا على بناء الكثير من المعالم الدينية والمدنية التي أمر ببنائها حكام البلاد، كانوا من الجالية الاندلسية(٢٦) وقد تواصل الاعتماد على هؤلاء خلال القرن الحادي عشر هـ / السابع عشر م، إثر هجرة سنة ١٠١٧هـ /١٦٠٩م.(٢٧)

ونتيجة لتواجد هذه اليد العاملة المختصة، وهؤلاء المهندسين الذين أتوا معهم بطرقهم في البناء، وبنوعية فنونهم، ظهرت تأثيرات اندلسية، خاصة من الناحية الفنية والمعمارية، تواصل العمل بها منذ القرن السابع هـ /الثالث عشر م، الى يومنا هذا، اذ وجد تمازج بين الفنين المعماريين: الافريقي والاندلسي، وتمثل التأثير في عدة عناصر فنية، خاصة النقش على الجص (والمعروف لدينا: بالنقشة حديدة) الذي أخذ أبعادا كبيرة ابتداء من القرن الثامن هـ /الرابع عشر م(٢٨) وتواصلت زخرفة جل المعالم بالنقش على الجص(٢٩). ومن بين الصناعات الاخرى الهامة التي أدخلها الاندلسيون صناعة الزليج. وهو المدعو بالمشرق: القاشاني لكننا لانعثر حاليا الا على القليل النادر من الزليج الاندلسي، الذي توجد أحسن أمثلة له بزاوية سيدي قاسم الزليجي(٣٠) وربما نتج هذا الاندثار عن الترميمات والتجديدات التي أدخلت على جل المعالم بالمدينة. كما أثر الاندلسيون ايضا في العمل على الخشب، مثل السقوف والابواب والنوافذ، التي مازالت أنماط منها ببعض جهات من البلاد.

وهكذا بلغ تأثير الاندلسين شأواً كبيرا في العديد من المجالات حتى أنه خلال القرنين الثاني عشر هـ / الثامن عشر م والثالث عشر هـ / التاسع عشر م، عند سيطرة التأثيرات العثمانية والايطالية على البلاد، لم يستغن الفنانون والصناع التونسيون عن العناصر الفنية الاندلسية التي تعودوا على استعملها منذ قرون.

بالطبع ذكرنا بإيجاز بعض عناصر التواجد الأندلسي بمدينة تونس، الا أنه تمثل في عدة نقاط اخرى، مثل بعض الصناعات (كالأسلحة) والفلاحة، والمأكولات والعادات والتقاليد التي ادخلوها معهم.

ب . التأثيرات المغربية:

كما أنه كان للتأثيرات المغربية، أهمية لايستهان بها، فمنذ قدوم الموحدين ـ واغلبهم من قبائل مصمودة وهنتاته ـ سنة الأخماس (أي ٥٥٥هـ) ظهر هذا التاثير للعيان، ولقد امتزج بما أتى به الاندلسيون نتيجة للروابط الوطيدة التي تواجدت بين البلدين.

لكن عدد المغاربة الذين قدموا الى تونس، لم يكن بنفس الاهمية الي بلغها عدد العلماء الاندلسيين(٣١)، ولم يكن تأثيرهم بنفس الدرجة، فلقد تمثل أكبر عدد منهم في المسافرين العابرين للبلاد والمتجهين الى أداء فريضة الحج. ويبدوا أن عدد الطلبة لم يكن ذا بال اذ لم تصلنا الكثير من الأسماء.(٣٢)

ونتيجة للتأثير المغربي، وجدت العديد من العناصر الزخرفية والفنية والمعمارية التي عرفتها البلاد بصورة غامة ومدينة تونس بصورة خاصة. ومن بين العناصر الهامة التي أدخلها الموحدون معهم، المئذنة المربعة الشكل بزخارفها الهندسية البديعة، التي نجد أول مثالا لها بجامع القصبة، التي أمر ببنائها ابا زكرياء الاول، مؤسس الدولة الحفصية، وبدأ البناء سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وتم سنة ٦٣٠هـ /١٢٣٢م، والكل منا يعلم أن هذا المثال من المآذن، قد تواجد أول الأمر بمراكش (الكتيبة) وبالرباط (جامع حسان) ثم بإشبيلية (الخيرالدة) خلال القرن السادس هـ /الثاني عشر م، قبل وصوله الى البلاد التونسية. الا أنه من الممكن، أنه نتيجة لامتزاج حضارة المغرب بالحضارة الأندلسية، لايمكننا التفريق بين العناصر المعمارية والفنية التى أدخلها كل من المغاربة والأندلسيين.

ج. التأثيرات المشرقية:

من أهم التأثيرات الاخرى التي عرفتها المدينة، التأثيرات المشرقية التي تمثلت معظمها فيا قدم عن طريق مصر، الا أنه بعد استيلاء الفاطميين على مصر، وتحريضهم قبائل بني هلال وبني سليم على القدوم الى أفريقية، اتسمت العلاقات السياسية بنوع من الفتور بين افريقية ومصر، ودام هذا الوضع مدة طويلة، خصوصا بعد دخول الموحدين الى مدينة تونس الا ان هذه العلاقات اختلفت نوعيتها بين الفترة والاخرى، فكانت تارة طيبة وتارة سيئة حسب المصالح والظروف(٣٣) لكن العلاقات السياسية لم تؤثر على سير العلاقات التجارية والثقافية اذ أنه يبدوان المبادلات التجارية لم تنقطع قط.

أما بالنسبة للثقافة المشرقية، فقد لاقت رواجا مطردًا بمدينة تونس، اذ جلبها معهم بعض الطلبة الافارقة الذين درسوا بمصر أو بالمدينة المنورة أو بدمشق(٣٤) وقد حمل هؤلاء الطلبة بدورهم تأثيرات إفريقية الى البلاد التي رحلوا اليها(٣٥) فالصلات الفكرية والعلمية بين مدينة تونس وبعض المدن الشرقية كانت قائمة باستمرار، وتواصلت حتى خلال الفترة العثمانية، اذ احتاجت البلاد في بداية القرن السادس هـ /الثاني عشر م الى نفس جديد في المجال الدراسي وذلك بعد فترات اضطراب عرفتها البلاد خلال القرن الخامس هـ /الحادي عشر م، نتيجة الاحتلال الاسباني، ونتيجة التصارع بين القوتين الضاربتين آنذاك في البحر الابيض المتوسط وهما: الامبراطورية العثمانية واسبانيا.

اما من الناحية الفنية والمعمارية، فقبل قدوم الموحدين وبداية من القرن الخامس هـ /الحادي عشر م ، انقسمت افريقيا الشمالية الى قسمين: فاضافت افريقية الى ما ورثته من الفترات السابقة تأثيرات قدمت من المشرق وخصوصا منها العراق وسوريا ومصر(٣٦) بينا تأثر المغرب الاقصى (كما ذكرنا) بجارته الاندلس.

الا أنه رغم تأثير بعض مناطق المشرق ــ العميق على افريقية خلال الفترات الاولى ــ فان تأثيره هذا تناقص بصورة ملحوظة في الفترات الحفصّية. ولكن الشئ المؤكد هو انه رغم عدم وجود أي ارتباط سياسي بمصر، وعدم تنقل الأشخاص من المشرق للاستقرار في افريقية، فإن هذه التأثيرات الفنية والمعمارية، رغم تضاءل أهميتها على مر الزمان فقد بقيت موجودة، وذلك نتيجة للصلات الاقتصادية والثقافية المتواصلة. وهكذا استطاعت مصر عن طريق هؤلاء الطلبة والحجيج الذين كانوا يمرون بها، أن تعرف أهل افريقية بما كان يجد من جديد على ارضها.

فعرفت بعض مدارس مدينة تونس تأثيرات مشرقية أتت عن طريق مصر، من ذلك مثلا مدرسة ابن تافراكين التي دفن فيها مؤسسها، اذ عاش الحاجب ابن تافركين مدة من الزمن بمصر في

أواسط القرن الثامن هـ /الرابع عشر م وجلب معه هذا النوع من التأثيرات التي لم تعرفها البلاد التونسية من قبل، والمتمثلة في دفن المؤسس بمدرسته أو مسجده. كما نجد ايضا تأثيرات مشرقية في هندسة بعض المدارس، وهي: الشماعية والعنقية والمنتصرية(٣٧) والمتمثل في وجود ايوانين في كل من الشماعية والعنقية، وثلاثة اواوين في المنتصرية، وتواجدت في بعض المدارس والمساجد أسبلة، ومن بين الاماكن التي احتوت على هذا النوع من التأثيرات: مدارس سيدي محرز والسيجومي ومدرسة زاوية باب بحر، وهي معالم متقرضة(٣٨).

د. التأثيرات العثمانية:

كان مجئ الاتراك العثمانيين مختلفا تماما عن هجرة الاندلسيين، اذ هو متصل باستيلائهم على البلاد، فاول القادمين كانوا من الجند، الا انه بداية من القرن السادس هـ /الثاني عشر م، ظهرت الحاجة إلى اعطاء نفس جديد للدراسة والعلم، فقدم في هذا المجال بعض العلماء من اسطنبول، وكان دورهم فعالا في تكوين نخبة من العلماء، فنستخلص من خلال بعض المصادر أن أحمد أفندي ــ القادم من اسطنبول في بداية القرن السادس هـ /الثاني عشر م، أعطى نفسا جديدا للتعليم، وكون جيلا جديدا من العلماء(٣٩) لكن الغرض من محاولة إحياء العلم، هو إصرار العثمانين على التأثير في البلاد من الناحية المذهبية، ولذلك بنوا بعض المدارس والمساجد، وأحيوا ما هدم منها، وحسبت على المذهب المتبعين له، ألا وهو المذهب الحنفي(٤٠)، وأدخلت العديد من المصنفات الفقهية التي ألفت في نفس المذهب.

كما كان لتأثيرهم الفني والمعماري أهمية لاتقل عن تأثيرهم الثقافي والمذهبي، مما أعطى صبغة جديدة لفن وعمارة المدينة، اذ أدخل العثمانيون تحويلات جذرية على الهندسة المعمارية وعلى أشكالها الزخرفية المستعملة الى حد ذلك الوقت. فمن بين المعطيات الجديدة التي جاء بها العثمانيون أو بالأحرى، التي أعيد إدخالها من جديد، وجود قبر المؤسس والسبيل معا، وذلك بالجامع أو المدرسة. والعديد من الجوامع التي بنيت في عهد يوسف دلي ثم في عهد المرادي (النصف الثاني للقرن السادس هـ /الثاني عشر م) والفترة الحسينية (القرني الثاني عشر هـ /الثامن عشر م والثالث عشر هـ / التاسع عشر م) أضيفت اليها مدارس، وفي آن واحد قبر المؤسس والسبيل(٤١) كما تحيط بها بعض الأسواق، وهو ما يذكرنا بنوع الكولولية التركية.

ولقد أدخل العثمانيون بعض التجديدات على تصميم الجوامع، فقد أصبح الصحن ببيت الصلاة من جوانبه الثلاثة، أي على هيأة ـ U ـ اللاتينية، عوضا عن الصحن المستطيل الشكل الذي تعودناه بجوامع البلاد، كجامع عقبة بن نافع بالقيروان، وكذلك جامع الزيتونة، وجامع مدينة سوسة وجامع المهدية...

أما المئذنة فقد أصبحت على شكل المثمن(٤٢) عوضا عن الشكل المربع، وهو الشكل المتداول في البلاد قبل دخول العثمانيين. بينما اصبح المنبر قارا، ومبنيا بالحجارة، وكسي بالرخام الثري والمتعدد الالوان، وهو ما نجده بجامع القصر، وجامع القصبة (تجديدات عثمانية) وكذلك جامع يوسف داي، وجامع حمودة باشا، وجامع محمد باي المرادي والجامع الجديد وجامع صاحب الطابع... وذلك على عكس المنابر التي عرفتها افريقية في السابق، وكانت كما هو معلوم منابر خشبية متحولة.

ومن مظاهر التجديدات التي أدخلها العثمانيون، امتياز جامع محمد باي المرادي، المعروف بجامع سيدي محرز ــ لوقوعه أمام مقام المولى الصالح محرز ابن خلف ــ عن غيره من الجوامع ببعض الخاصيات(٤٣) أهمها اعتماد السقف المتكون من قباب متفاوتة الاحجام، على أربع دعامات ضخمة، لذلك لانجد في بيت الصلاة الأعمدة التي اعتدنا وجودها في كل مساجد البلاد التونسية، فلا يحتوي هذا البيت على البلاطات والمسكبات المعهودة(٤٤)

أما من الناحية الفنية والزخرفية البحتة، فقد كان للعثمانيين أيضا، دور فعال لايستهان به، من ذلك مثلا دخول عدة أشكال زخرفية حلت

النقوش الجصية، والمتمثلة في النجمة ذات الثماني فروع، والمزهرية المتفرع عنها الغصون والاوراق والزهور، وكذلك كوز الصنوبر، وغيرها من الاشكال.

هـ . تأثيرات اخرى:

كما أدخلت خلال الفترة الحسينية تأثيرات اخرى جلبت من البلاد الاوروبية، وخاصة منها ايطاليا. فبداية من القرن الثاني عشر هـ /الثامن عشر م، وجدت بعض التحويرات الجذرية، نتيجة لتوقف هجرة الاندلسيين، وكذلك تكثيف المبادلات مع ايطاليا، ولهذا أدخلت تحويرات متعددة على أنواع الزخارف والمعمار بصفة عامة، وأصبحت التأثيرات التي أدخلها الايطاليون، سواء كان ذلك عن طريق هذه المبادلات، أو نتيجة لوجود أسرى أوروبيين وقعوا في أيدي القراصنة، واستعملوا في بناء بعض المعالم مثل جامع صاحب الطابع والجامع الجديد، وبعض المعالم المدنية كدار ابن عبد الله ودار لصرم، والتجديدات الحاصلة بدار حسين. أصبحت اذن هذه التأثيرات مسيطرة على الفن التونسي، من ذلك مثلا تيجان الاعمدة التي أصبحت أغلبها من الطراز الكوزنتي الجديد والدوريكي الجديد، وطراز الخليط، كما تتبين هذه التأثيرات من خلال استعمال الرخام المستجلب من ايطاليا لتأطير الابواب والنوافذ.
وقد تأثرت كذلك بعض الزخارف كالتي توجد في قواعد العضادات بأشكال جلبت هي الاخرى من ايطاليا والمدرسة والجامع الجديد (بالصباغين) وكذلك جامع ومدرسة وقصر صاحب الطابع (بالحلفاوين) أحسن دليل على ذلك.
الا أن الاتجاه الى أخذ الكثير من الاشياء عن الايطاليين نتج عنه جلب عدة مواد، كالرخام من كرارة(٤٥) ومربعات القشاني المصنوع في جنوب ايطاليا (بمدينة نابولي وغيرها) مما أدى الى انتياب ميدان الصناعة بمدينة تونس، ركود لم تعرفه من قبل.
فان كان للحضور الاندلسي والمغربي والمصري والتركي... تأثير يمكن أن نعده ايجابي في بعض جوانبه: كالحياة الثقافية والفنية والمعمارية والصناعية، فالمثال الايطالي لدليل على أنه لم تكن كل هذه التأثيرات ايجابية. وأن للتأثيرات السلبية هي الاخرى مكان في هذه العلاقات الخارجية.
الا اننا أمام كل هذه التأثيرات المختلفة المصادر، نتساءل: هل عرفت البلاد التونسية كيف تستغلها؟ وهل طعمتها بالتأثيرات التي تواجدت في البلاد منذ العصور القديمة؟ وهل استطاع الفنانون والعلماء استنباط أشياء جديدة واعطائها صبغة محلية بحتة؟ أي هل عرفت البلاد رغم قدوم العديد من التأثيرات الاجنبية، المحافظة على طابعها الخاص التي امتازت به من قبل؟

و. تنوع التأثيرات الأجنبية مع المحافظة على الطابع المحلي:

يمكننا الاجابة على هذه التساؤلات بالايجاب، اذ أنه من المؤكد أنّ الدور الذي لعبته التأثيرات المحلية، كان هاما جدا. وقد اتسمت الهندسة المعمارية الحفصية مثلا، بوجود تأثيرات مختلفة، البعض منها محلي، والبعض الآخر مستورد من الخارج، لكنها عرفا كيف يتعايشان. ونتج عنهما فن واحد أعطى الصبغة «الشخصية» للفن الحفصي. وهكذا عرفت البلاد كيف تكون لها شخصيتها، فقد استطاعت هضم التأثيرات الاندلسية والمغربية والمصرية ثم التركية والايطالية وغيرها، وخلقت أشياء بنفسها بقيت حية الى يومنا هذا. فهذا الفن الافريقي وهذه الهندسة المعمارية، جعلت لمدينة تونس طابعا خاصا مميزا لها عن المدن الاسلامية الاخرى.

الحواشي

(١) اختلفت الأراء حول قدوم هجرة الهلاليين في هذه الحقبة من الزمن، فقد رأى الكثير من المؤرخين (مثل مارسيه وبرونشفيك وادريس وغيرهم) أن دورهم كان سلبيا (وأنهم كانوا السبب الاساسي في ادخال الفوضى، وتقهقر الاقتصاد والثقافة والمعمار، وفي تخريب البلاد، الا ان مؤرخين آخرين اعتمدوا على نصوص ومعطيات اخرى، فأثبتوا ان الفوضى كانت سائدة بالبلاد قبل قدوم هؤلاء. وَبَيَّن هؤلاء المؤرخين أن دور القبائل العربية لم يكن سلبي فقط، فقد ساهمت بصفة ايجابية في تعريب قسم هام من البلاد (من بين هؤلاء المؤرخين: محمد الطالبي وكلود كاهين وغيرهما)

(٢) جمعت افريقية في آن واحد البلاد التونسية،حاليا، وجزء من شرق الجزائر ،قسنطينة وبجاية، وغرب ليبيا ،طرابلس، خلال الفترة الحفصية.

(٣) من الصعب التفريق بين التأثيرات المغربية من جهة ، والاندلسية من جهة اخرى، نظرا لتشابه هذين الفنين في تلك الفترة. اذ أدت العلاقات الوثيقة التي وجدت بين المغرب والاندلس الى انتشار الفن الاندلسي بالمغرب، والفن المغربي بالاندلس.

(٤) تحدث ابن خلدون عن علاقة هؤلاء بأبي زكرياء، فيذكر انه «كانت لاهل اشبيلية خصوصا من بني الاندلس صلة بالامير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبينه منذ ولايته غربي الاندلس» انظر العبر، ج٦، ص ٦٨٣.

(٥) يفيدنا الزركشي أنه: «بايع اهل بلنسية المولى أبا زكرياء صاحب تونس (انظر تاريخ الدولتين، ص ٢٧) كما بايعته اشبيلية والمارية سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م» راجع ابن قنفد، ص ١٠٩.

(٦) فيا يخص هؤلاء الاندلسيين: راجع المقري، ج٢، ص ٨٨١. ابن سعيد، ج١، ص ١٢٩. ابن خلدون «العبر» ج٦. ابن قنفد، ص ١١٦. الزركشي، ص ٢٨.

(٧) يفيدنا ابن أبي دينار أنه: «في سنة ١٠١٧هـ /١٦٠٩م و١٠١٨هـ /١٦٠٩م، جاءت الاندلس من بلاد النصاري، تفاهم صاحب اسبانيا وكانوا خلقا كثيرا، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد، وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا... واستوطنوا في عدة أماكن، ابن ابي دينار: «المؤنس» ص ٢٠٤. (وعثمان داي يعد اول الدايات الهامين بالبلاد، أخذ الحكم سنة ١٠٠٧هـ /١٥٩٩م، وتوفي سنة ١٠١٩هـ /١٦١٠م، (خوجة، ص ٩٢). من مخلفاته قصره بنهج المبزع الذي يقوم حاليا المعهد القومي للاثار والفنون بترميمه وصيانته).

(٨) لئن كان المستوى الثقافي والمادي للمهاجرين الأوائل مرتفعا، فان المهاجرين في سنة ١٠١٨هـ /١٦٠٩م، كانوا من جميع الطبقات، وكان تأثير هذه الهجرة الثانية هاما جدا، فقد طوروا طرق تبليط الطرقات والزراعة وصنع السلاح، حتى المأكولات اثريت بانواع جديدة.

(٩) من بين منجزات اعضاء الهجرة الاخيرة، المدرسة الاندلسية التي سميت ايضا مدرسة الفتح، ويقصد بها التفاؤل بالفرج بعد الشدة (التي لحقتهم من أذى اسبانيا)، ويمكن تأريخ هذه المدرسة عن طريق لوحة رخامية مثبتة في الجدار الجنوبي بصحن المدرسة، وهو أواخر رجب ١٠٤٣هـ / ماي ١٦٢٥م.

ومن بين مآثرهم الاخرى بنائهم في اوئل القرن الحادى عشر هـ / السابع عشر م، جامع سبحان الله، بجي باب السوقية، الذي سبق زمنيا تأسيس المدرسة.

(١٠) نرى من خلال ما يفيدنا به الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل، أهمية هؤلاء العلماء الاندلسيين المستقرين بتونس، وقد بهره محمد الخير المالقي بعلمه وأدبه، وقد هاجر الى تونس سنة ٨٤٦هـ / ١٤٥٩م. وأعجب كذلك بالشاعر الاندلسي ابن رزين الخزرجي الانصاري راجع:
R. Brunschvig: "Dense recits" p. 73

(١١) كما لاحظنا بعد، يبدو أن الشيوخ الاندلسيين الذين قدموا خلال هذه الفترة الحفصية (٦٢٥هـ /١٢٢٧م، ٩٨١هـ / ١٥٧٤م)، كان عددهم مرتفعا، نذكر من بينهم خاصة: القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الانصاري الخزرجي البلنسي (٦٠٩هـ /١٢١٢م، ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م) راجع الغبريني، ص ٧٠ _ ٧٢. والزركشي، ص ٣٨، ٤٤، ٤٥، ٥٣. مخلوف، ج١، ص ١٩٩ عدد ٦٧٣.

ومن بينهم ايضا: نور الدين ابو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي (٦١٠هـ /١٢١٣م، ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) راجع لوف، ج١، ص ١٩٧ عدد٦٦٨، وكذلك بعض أفراد عائلة ابن خلدون وابن حبيش، كما نزح العديد من العلماء الأخرين خلال هذه الفترة، من بينهم ابن الابار وابن عميرة، ويذكر الزركشي العديد منهم في كتابه: تاريخ الدولتين، وكذلك ابن خلدون في مؤلفه: «العبر» كما ذكرهم الرحالة ابن رشيد في كتابه: «السنن الابين» ومن خلال هذه المصنفات، تأكد أن عددهم يفوق بكثير عدد العلماء الأفارقة انذاك.

(١٢) نذكر مثلا: أحمد الشريف الاندلسي، وابراهيم الصرقصطي (خوجة ص ١٧٠، ١٨٧) وساسي نوينة الاندلسي (نفس المصدر، ص ١٨٤) ومحمد حجيج الاندلسي (السراج،ج١،قسم أ، ص ٧٦) وشعبان الاندلسي (أول من تولى التدريس بالمدرسة الاندلسية) ومحمد بن محمد الاندلسي المشهور بالوزير السراج (صاحب كتاب الحلل السندسية) وغيرهم كثير.

(١٣) يكفي ان نذكر مثال: الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، ٦٥٩هـ / ١٢٦١م) الذي درس بالمدرسة التوفيقية (راجع الغبريني، ص ٢٤٦، ٢٥٠، ابن خلدون العبر، ج٦، ص ٦٨٣. الزركشي، ص ٣٨ مخلوف، ص ١٩٤ عدد ٦٥٧، وكذلك. وأبو العباس أحمد بن محمد القرشي الغرناطي (المتوفي سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) وهو أول مدرس بالمدرسة المعرضية وألف كتاب «المشرق في علماء المغرب والمشرق» وكان ينتمي الى المذهب الظاهري: (راجع الغبريني، ص ٣٠١. والزركشي ، ص ٥١. مخلوف ،ص ١٩٩، عدد ٦٩٢).

(١٤) من بين العائلات الأندلسية التي لعبت دورا هاما في السياسة الحفصية: بنو سعيد وبنو سيد الناس، وبنو يعقوب وبنو أبن الحسن وبنو خلدون، وكذلك على المستوى الفردي: ابن الجبر، ويحيى بن عبد الملك الغافقي... راجع بصفة عامة: ابن خلدون، الزركشي وابن قنفد.

(١٥) يتحدث ابن خلدون عن قتل الكثير من العلماء الاندلسيين اثر محاولة تدخلهم في شئوون الدولة: (راجع العبر ٦، ص ٦٥٥).

(١٦) راجع الزركشي، ص ٣٥. الغبريني،ص ٢٥٧. خليفة، ص ٢٨٦و٣٧٢. الزركلي، ج٧، ص ١١. كحالة . ج١٠، ص ٢٠٤.

(١٧) الزركشي، ص ٣٩. العريني، ص ٢٦٦. العبدري، ص ٣٨. خليفة ج٢، ص ١٠٨٥. ابن العماد، ج٥، ص ٣٣٠. كحالة، ج٧، ص ٢٥١

(١٨) راجع الزركشي، ص ٤٤.
(١٩) عثرت على أسماء أفراد هذه العائلة على شاهد قبر، عرضته بمتحف سيدي قاسم الجليزي تحت رقم ٢٠٧.
(٢٠) عثرنا على اسمه هو الاخر على شاهد قبر، معروض بمتحف سيدي بوخريصان تحت رقم ٩٢٧.
(٢١) راجع ابن فرحون، ص ٣٦٠.
(٢٢) راجع الغريني، ص ١٠١. السراج، ج١ قسم ٣ ص ٥٨٨. الزركلي: الاعلام، ص ٢١٨.
(٢٣) من بين هؤلاء: محمد بن أبي العباس بن عيشون، وهو نفسه ابن طبيب، واحمد الخولاني، وأحمد بن محمد الانصاري (راجع ابن حجر العسقلاني: «الدرر الكامنة»، ج١، ص ٢١٩ عدد ٥٦٢. وصفحة ٣٠٦ عدد ٧٨٠، وطبيب أخر من قرطبة مشهور باسم العشاب (نفس المصدر، ج٤، ص١٦٠ عدد٤٢٠) وحكيم آخر من قرمونة عالج الخليفة أبا العباس أحمد اسمه: أبو الحجاج يوسف الاندلسي (ابن قنفد، ص ١٧٨)
(٢٤) نذكر من بينهم: عبد السلام بن ابراهيم الزيات الصقلي المتوفي سنة ٧٢٢هـ /١٣٢٢م. وابنه الشريف أبو العباس أحمد الصقلي الذي أخذ عنه العالم محمد بن عقاب (راجع الرصاع، ص ١٦٠) وكذلك تلميذه أبو سعيد الصقلي، وابنه عبد الرحمان المتوفي سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م.
(٢٥) راجع الرصاع، ص ٧٨.
(٢٦) يذكر ابن سعيد، وهو أحد المهاجرين الاندلسيين الهامين الذين تولوا مناصب سياسية مرموقة، أن أبا زكرياء بنى معالم دينية وقصوراً هامة، (كتب هذا سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م) وأنه اهتم بالحدائق وزرع أشجار العنب على طريقة الأندلسيين، وان كل المهندسين هم من أصيلي الاندلس، وكذلك نفس الشئ بالنسبة لاصحاب الصنائع من بنائين ونجارين ودهانين، والمشرفين على البساتين والحدائق الخ... ويعلمنا ابن سعيد أيضا، أن المعالم التي بنيت آنذاك قد قام بتخطيطها أندلسيون، أو نقلوا تخطيطها عن معالم أخرى توجد في بلادهم.
(٢٧) نحن نعلم مثلا أن المهندس الذي أشرف على بناء جامع يوسف داي ومدرسته ، سنة ١٠٢١هـ /١٦١٢م، هو أندلسي الاصل، واسمه ابن غالب الأندلسي، كما أشرف هذا المهندس على بناء بعض الاضافات بالقسم الشرقي لجامع الزيتونة، وتثبت ذلك نقيشة تعلو باباً يفضي الى الصحن. كما يذكر المنتصر بن أبي لحية المرابطي، أن العمال المختصين، الذين بنوا زاوية سيدي حديقة بأمر من أبي الغيث القشاش، الرجل المصلح الذي يعد حاليا من أهم الاولياء الصالحين بمدينة تونس، كانوا من الاندلسيين (انظر المرابطي: نور الارماش، مخطوط ورقة ٨٥أ).
(٢٨) لقد دلت الحفريات التي أجريت بموقع رقادة قرب القيروان والتي أشرف عليها الاستاذ محمد الشابي، والحفريات بموقع صبرة المنصورية قرب القيروان، والتي أشرف عليها الاستاذ حامد العجابي، على نقوش جصية ترجع الى القرن الرابع هـ/ العاشر م، وهي تأثيرات واردة من العراق، غير أننا فقدنا سلسلة الاعمال المتعلقة بهذا النمط من الفنون الاسلامية، ولم نعثر بعد ذلك على نقوش جصية اخرى حتى القرن الثامن هـ / الرابع عشر م.
(٢٩) تمثلت هذه التأثيرات خاصة في الأشكال الهندسية التي تختلف عن الأشكال الاولى البسيطة، التي عثر عليها خلال حفريات رقادة وصبرة المنصورية والمتمثلة خاصة في كتابات دعائية.
(٣٠) توفي قاسم الزليجي سنة ٩٠٢هـ /١٤٩٦م. واشتهر بأنه ولي صالح وقدم الى مدينة تونس من الاندلس وتثبت نقيشة قرب رفاته أنه اصيل مدينة فاس المغربية، وتعتبر الزاوية التي يوجد بها جثمانه مثالا هاما للتأثيرات الفنية والمعمارية والهندسية الاندلسية، والتي قام المعهد القومي للاثار والفنون أخيرا بصيانتها، ويحتوي المعلم على مجموعة من الزليج المعروف في الاندلس «بالكوردا سكا».
(٣١) من بين أهم الاسماء التي وصلتنا: أبو القاسم عبد العزيز بن موسى العبدوسي الفاسي، المتوفى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م (انظر التنبكتي، ص ١٨٠، السراج، ج١، قسم٢، ص ٦٧٥). وأبو يوسف يعقوب المصمودي، والسلاوي اللذان اخذ عنهما أبو عبد الله الرصاع، واثنى عليهما في عدة مواضع من «الفهرست» ص ١٢٦، ١٣٠، ١٣٦. أما خلال الفترة الحسينية فلدينا أسماء أخرى مثل عبد الله بن محمد السوسي، وهو أول مدرس بالمدرسة العاشورية، وعبد الله المغربي الفاسي وغيرهما.
(٣٢) لكن وصلتنا بعض الاشارات، فمثلا طبقت شهرة أبي حفصي عمر القلشاني الافاق، فكان الطلبة المغاربة وغيرهم يردون على المدرسة العنقية... (الرصاع، ص ١٨٨) كما مر بمدينة تونس بعض الرحالة الذين بقوا مدة من الزمن باحدى المدارس لتلقي العلم، نذكر من بينهم خاصة: العبدري والقلصادي وخالد البلوي.
كما قدم أيضا ابو الحسن المريني الذي قام بحملة قصد من ورائها توحيد المغرب العربي، امتدت هذه الحملة من سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م الى ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م. (انظر ابن خلدون ،ج٧، ص ٨١٣ وابن الشماع،ص ١٢٢) واصطحب معه كثيرا من العلماء الذين أخذ عنهم طلبة تونسيون عدة. كما جالسهم تونسيون في لقاءات علمية بحضرة أبي الحسن المريني سلطان المغرب، من بينهم القاضي محمد عبد السلام ومحمد بن عرفة (انظر: المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، القاهرة، ١٩٣٩، ج٣، ص ٢٨) وهكذا حصلت بفضل هذا الامتزاج فائدة عامة، وبالنسبة لفترة وجود أبي الحسن بتونس، يفيدنا ابن خلدون أنه : «قدم في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك افريقية، سنة ثمان واربعين، جماعة من اهل العلم، وكان يلزمهم شهود مجلسه». ويذكر ابن خلدون أسماء بعض هؤلاء العلماء ومادرسه عليهم، وكيفية استفادة أهل تونس منهم (راجع ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٨١٣ _ ٨٢٢).
(٣٣) انظر في مايخص هذا الموضوع:
— G.S Colin, contribution a l' e'tude des relations diplomatiques entre les musulmans d' occident et l' Egypte au XVeS. ; Memoires de l' Institut Franc. d' Arch. Orient. Le Caire T. XVIII, 1935 pp. 197—206
— A. Daoulatli, les relations entre le sultan Qala'un et l' Ifriqiya d' apre's deux documents e'gyptiens, dans revue de l'occident et de la me'diterranee, 1er semestre 1974, No 17, Aix en Provence.
(٣٤) من بينهم مثلا ابو الفضل ابو القاسم بن أبي بكر المعروف بابن زيتون الذي أدخل الى افريقية أعمال الفخر الرازي (راجع ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٩٧ و٤٣١ و٧٧٢، ابن فرحون، الديباج، ص ٩٩. الزركشي، ص ٤٤ و٥٢. ابن قنفد ص ١٣٢ ، ١٥٠. مخلوف ص ١٩٣ عدد ٦٥٠، والغبريني، ص ١١٤) اما في القرن العاشر هـ / السادس عشر م، فقد درس محمد بن ماغوش بدمشق (انظر السراج، ج١، قسم٤، ص ٨٤٤، ١٠٩٤) وغيرهما

كثير، وهكذا درست الكثير من المصنفات المصرية والسورية.... في مدينة تونس.

(٣٥) من بينهم خاصة: عبد الرحمن الذي أقام بالقاهرة ودرس بها وتولى مناصب هامة، وكذلك: أبو النور التونسي الذي نزل بالمدرسة المقدمية بحلب (انظر السخاوي، ص ١٤٨) ومجد الدين أبو بكر محمد بن قاسم المرسي التونسي المولود بتونس سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م (النعيمي، ج٢، ص ٢٩٦، ٢٩٧) وكذلك محمد بن محمد القرشي المالكي التونسي المعروف بابن القويع، المولود بتونس سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م (ابن حجر العسقلاني، ج٤، ص١٨١ ـ ١٨٤، الزركلي، ج٧، ص ٢٦٤).

(٣٦) يكفي أن نتذكر على سبيل المثال التأثيرات الموجودة الى الآن بجامع الزيتونة، والتي تبين التأثيرات الواردة من هذه البلاد بوضوح.

(٣٧) غابت هذه الناحية عن كل المستشرقين، وخاصة منهم G. Marcois A. Lezine L. Golvin الذين ذهبوا الى عدم وجود أي تأثيرات مشرقية خلال الفترة الحفصية.

(٣٨) يتمثل السبيل في حوض ماء من الرخام، يغذى بطريقة مستمرة بالماء الصالح للشراب عن طريق ماجل، ويوضع في الحوض اناء من النحاس وهكذا يمكن للمار ان يطفئ ظمأه.

(٣٩) يذكر حمودة بن عبد العزيز: «أن قبل قدوم الترك ارتفع العلم من تونس، حتى ورد عليها احمد افندي من أرض الروم لاول المائة الحادية عشر على عهد عثمان داي... فأخذ عنه جماعة كمحمد الغماد وابو يحيى الرصاع وقاسم عظوم... وانتشر بتونس العلم، وخرج منها جماعة من الاعلام والافاضل طبقة بعد طبقة، وكل طبقة أكثر عددا من التي قبلها انظر الكتب الباشي المخطوط ،ص ٢٢٥، وكان أحمد افندي يطلب من تلاميذه ألا يعيدوا حرفيا مايقرؤونه. وكان كذلك لرمضان افندي، أول مدرس بالمدرسة اليوسفية، دور هام في هذا المجال، اذ يبدو أن دوره لايقل اهمية عن احمد افندي. وقد قدم حوالي سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م، وهوكذلك أول خطيب بجامع يوسف داي، وأول من افتى بمذهب الامام أبي حنيفة في البلاد التونسية، توفي حوالي سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، (انظر: خوجة، ص ١٦٩، السراج، ج٢ القسم الاول، ص ١٦٧، بيرم الثاني: شرح قصيدة المفتيين، ص ١ ـ٣، السنوسي، ص ٢٩٧.

(٤٠) هكذا شيد الجامع اليوسفي والمدرسة اليوسفية سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م، على يدي حاكم البلاد: يوسف داي (١٠١٩هـ / ١٦١٠م الى ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م) وتم ترميم المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية، وجامع القصبة وجامع القصر، وحسبت هذه المعالم على المذهب الحنفي.

(٤١) نذكر على سبيل المثال. جامع يوسف داي والجامع الجديد بالصباغين وجامع صاحب الطابع. لكن في بعض الحالات، لايضاف الا قبر المؤسس كما حصل في جامع حمودة باشا المرادي.

(٤٢) أول المآذن المثمنة الشكل التي نعثر عليها بالبلاد هي مئذنة جامع يوسف داي (١٦١٢م) ولجامع حمودة باشا المرادي والجامع الجديد وجامع صاحب الطابع، مآذن هي الاخرى مثمنة الشكل.

واختلف المؤرخون في مصدر هذا النمط من المآذن، فيرى اغلبهم انها من تأثير عثماني، ويرى البعض الاخر أنها من تأثير اندلسي، ويستدل الاستاذ ايبالزا على ذلك بتواجد مئذنة بالمرِيّة تشابه نوعا ما هذا النمط من المآذن التونسية، لكن الشئ المؤكد أن المئذنة المثمنة الشكل قد وجدت بتركيا ومصر، وبعض البلاد الاسلامية الاخرى، ورغم أن المآذن المتواجدة بتركيا أكثر رشاقة من التي نجدها بمدينة تونس، فانه الواضح أن هذه متأثرة بطريقة غير مباشرة بتلك، وهي ربما تأثرت بطريقة مباشرة بالمآذن المثمنة الشكل الموجودة بسوريا ولبنان وخاصة بحلب، ولكن رغم هذا، نلاحظ أن الفنان المحلي أضفى عليها شيئا من شخصيته ومن تقاليده.

(٤٣) أسس هذا الجامع محمد باي المرادي، وكانت البداية في بناء الجامع سنة ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م، وتوفي المؤسس قبل اتمامه سنة ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م، فأكمل عمارته أخوه رمضان باي الذي توفي هو الاخر قبل اتمام الصومعة.

(٤٤) تأثر هذا الجامع، بالطبع، بهندسة جامع الأحمدية باسطنبول، اذ يعتبر صورة مصغرة منه، ولاتوجد الا بعض نماذج في العالم العربي لهذا النمط من المساجد المسقوفة بالقباب، وأول الجوامع المتأثرة بالاحمدية (خارج تركيا) هو جامع محمد باي بتونس، ثم لدينا مثالين أخرين، هما: جامع كتشاوة بالجزائر العاصمة، وجامع محمد علي بقلعة القاهرة.

(٤٥) اشترت البلاد التونسية مقاطع رخام بغزارة خلال النصف الثاني للقرن الثاني عشر هـ / الثامن عشر م، ودام استعمالها حتى أواخر القرن التاسع عشر م.

المصادروالمراجع المستعملة في هذه الدراسة

. ابن عبد العزيز (حمودة) : الكتاب الباشي، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٧٩٤.
. البلوي (خالد) : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٤٧٩٢.
. بيرم الثاني (محمد) : شرح قصيدة المفتيين، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٨٣٥٦.
. السراج (ابو عبد الله محمد) : الحلل السندسية في الاخبار التونسية، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٠٦٩٩، ١٠٧٠٠.
. السنوسي (ابو عبد الله محمد) :مسامرات الظريف بحسن التعريف، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٨٦٧٤.
. المرابطي بن ابي لحية (المنتصر) : نور الارماش في مناقب سيدي ابي الغيث القشاش، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٦٤٠٨.
. ابن ابي دينار (ابو عبد الله) : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس، ١٩٦٧.
. ابن ابي الضياف (احمد) : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان، تونس، ١٩٦٣ _ ١٩٦٦.
. ابن حجر العسقلاني (احمد) : الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، حيدر اباد، ١٣٤٨هـ.
. ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر، بيروت، ١٩٥٩.
. ابن رشيد الفهري «السنى الابين» تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٧٧.
. ابن الشماع (احمد) : الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق عثمان الكعاك، تونس، ١٩٣٦.
. ابن العماد (عبد الحي) : شذرات الذهب في اخبار من ذهب، بيروت، بدون تاريخ.
. ابن فرحون،«الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب»، القاهرة، ١٣٢٩هـ .
. ابن قنفد : «الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية»، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، ١٩٦٨.
. التنبكتي (احمد بابا) : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش الديباج المذهب، لابن فرحون، القاهرة، ١٩١١.
. خليفة (حاجي) : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، اسطنبول، ١٩٤١ _ ١٩٤٣.
. خوجة (حسين) : ذيل بشائر الايمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس، ١٩٧٥.
. الرصاع (ابو عبد الله محمد) : فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس، ١٩٦٧.
.الزركشي (محمد) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦.
. السخاوي (عبد الحمن) : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، القاهرة، ١٣٥٣هـ .
. العبدري الحيحي (ابو عبد الله محمد) : رحلة العبدري، المسماة بالرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨.
. الغبريني (احمد) : عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر،١٩٧٠.
. القلصادي (ابو الحسن علي) : رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد ابو الاجفان، تونس، ١٩٧٨.
. المقري: ازهار الرياض في اخبار عياض، القاهرة ، ١٩٣٩.
. الزركلي (خير الدين) : الاعلام، قاموس تراجم، دمشق ،١٩٥٤ _ ١٩٥٩.
. كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين، دمشق، ١٩٥٧ _ ١٩٦١.
. مخلوف (محمد) : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٤٩هـ .

—Brunschvig (R.), deux recits de voyages inedits en Afrique du Nord au XVe siecle, Abdelbasit B. Halil et Adorne, Paris, 1936.

— Brockelmann (F.) Geschichter der Arobichen littorotur, Leiden, 1937—1949

عبد الله بن وهب المصري (ت،١٩٧هـ)
حياته ومكانته العلمية

الدكتور/ محمد جاسم حمادي المشهداني
الجامعة المستنصرية/معهد الدراسات القومية
قسم الدراسات التاريخية

موارد دراسة عبد الله بن وهب:

لقد ترجم لعبد الله بن وهب عدد من المؤرخين، وعلماء الجرح والتعديل، وتختلف تلك المعلومات بين الاقتضاب والأطناب، وبين طبيعتها، إذا ما علمنا انها وردت في مصادر ومراجع متنوعة، وفي ازمان مختلفة ايضاً.

ان من اقدم الذين ترجموا لعبد الله بن وهب، كان محمد بن سعد (ت،٢٣٠هـ)(١)، ويحيى بن معين (ت،٢٣٣هـ)(٢)، وخليفة بن خياط (ت،٢٤٠هـ)(٣)، والبخاري (ت،٢٥٦هـ)(٤)، وابن ابي حاتم الرازي (ت،٣٢٧هـ)(٥)، وابن النديم (ت،٣٧٧هـ)(٦)، وابو اسحاق الشيرازي (ت،٤٧٦هـ)(٧)، وابن خير الاشبيلي (ت،٥٧٥هـ)(٨)، وابن الجوزي (ت،٥٩٧هـ)(٩)، وابن خلكان (ت،٦٨١هـ)(١٠)، والذهبي (ت،٧٤٨هـ) في كتبه التذكرة(١١)، ودول الاسلام(١٢)، والعبر(١٣)، والكاشف(١٤)، والمغني(١٥)، والميزان(١٦)، كما ترجم له ابن حجر(ت،٨٥٢هـ) في كتابيه، تهذيب التهذيب(١٧)، ولسان الميزان(١٨)، كما ترجم له السيوطي (ت،٩١١هـ)(١٩)، والخزرجي الانصاري (ت،٩٢٣هـ)(٢٠)، وحاجي خليفة (ت،٠٢٤٠هـ)(٢١)، كما كتب عنه عدد من المؤرخين والباحثين المعاصرين، وابرزهم الاستاذ الدكتور فؤاد سزكين(٢٢).

اسمه ونسبه :

هو أبو محمد عبد الله وهب الفهري مولى بني فهرقريش المصري(٢٣).

حياته :

ولد عبد الله بن وهب في عام ١٢٥هـ ، وطلب العلم وهو ابن سبع عشرة سنة(٢٤)، وقال عبد الله بن وهب: «..ودعوت يونس بن يزيد الأبلي لوليمة عرسي..»(٢٥) وقد اراد عباد بن محمد أن يوليه القضاء، فرفض ذلك بشدة وقال يونس بن عبد الأعلى: «عرض على ابن وهب القضاء فحبس نفسه ولزم بيته»(٢٦) وقال أحدهم لعباد: «متى طمع هذا الكذا والكذا أن يلي القضاء؟ فبلغ ابن وهب فدعا عليه بالعمى فعمي بعد جمعة»(٢٧).

شيوخه :

روى عبد الله بن وهب عن عدد من المشايخ،

وبالاخص المحدثين والفقهاء منهم، اضافة الى روايته عن عدد من الاخباريين والرواة، ويلاحظ ان اغلب شيوخه من المصريين والحجازيين، وبالاخص مكة والمدينة، ومن ابرز شيوخه الذين روى عنهم:

١. عياض بن عبد الله عبد الرحمن الفهري المدني، نزيل مصر (ت،بعد ١٠٠) وثقة بعضهم(٢٨)، واكد ابن حجر(٢٩)، والخزرجي(٣٠)، رواية ابن وهب عنه.

٢. حيوة بن شريح بن صفوان التجيبي ابوزرعه المصري (ت،١٨) وهو ثقة ثبت فقيه زاهد(٣١)، واكد الطبري(٣٢)، وابن حجر(٣٣)، والخزرجي(٣٤)، روايه ابن وهب عنه.

٣. حيمبي بن عبد الله بن شريح المعافري المصري (ت،١٤٨)، وهو صدوق(٣٥)واكد الذهبي(٣٦)، وابن حجر(٣٧)، والخزرجي(٣٨)، رواية ابن وهب عنه.

٤. عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصاري مولاهم، المصري ابو ايوب (ت،١٥٠).
وهو ثقة فقيه(٣٩)، احد الائمة(٤٠)، واكد الطبري(٤١)، والذهبي(٤٢)، وابن حجر، والخزرجي(٤٣)، رواية ابن وهب عنه.

٥. عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العمري المدني ثم العسقلاني (ت،قبل١٥٠)
وهو ثقة(٤٥)، واكد الذهبي(٤٦)، وابن حجر(٤٧)، والخزرجي(٤٧)، رواية ابن وهب عنه.

٦. ابو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الاموي مولاهم الملكي (ت،١٥٠): وهو ثقة فقيه فاضل(٤٩)، واكد الطبري(٥٠)، والذهبي(٥١)، وابن حجر(٥٢)، والخزرجي(٥٣)، رواية وهب عنه.

٧. سلمة بن وردان الليثي مولاهم ابو يعلى المدني (ت بضع و١٥٠): وهو ضعيف(٥٤)، وقد اكد ابن حجر(٥٥)، والخزرجي(٥٦) رواية ابن وهب عنه.

٨. حنظله بن ابي سفيان بن عبد الرحمن بن صفوان ابن اميه الجمحي المكي (ت،١٥١) وهوثقة حجة(٥٧)، واكد الذهبي(٥٨)، والخزرجي(٥٩)، رواية ابن وهب عنه.

٩. اسامة بن زيد الليثي مولاهم، ابو زيد المدني (ت،١٥٣):
وهو صدوق(٦٠)، واكد الطبري(٦١)، والذهبي(٦٢)، والخزرجي(٦٣)، رواية ابن وهب عنه.

١٠. عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع الانصاري المدني (ت،١٥٣):
وهو صدوق(٦٤)، واكد الذهبي(٦٥)، والخزرجي(٦٦)، روايته عنه.

١١. معاوية بن صالح بن حدير، الحضرمي، الحمصي، قاضي الاندلس (ت،١٥٨) وهو صدوق(٦٧)، وقد وثقه يحيى بن معين، واحمد بن حنبل (ت،٢٤١) (٦٨).

١٢. محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب العامري ابوالحارث المدني (ت،١٥٩):
وهو ثقة(٦٩)، اكد الطبري(٧٠)، والخزرجي(٧١) روايته عنه.

١٣. يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي مولى آل ابي سفيان (ت،١٥٩):
وهو ثقة(٧٢)، واكد الذهبي(٧٣)، وابن حجر(٧٤)، والخزرجي(٧٥)، رواية ابن وهب عنه.

١٤. هشام بن سعد المدني، ابو عباد القرشي مولاهم (ت،١٦٠):
وهو صدوق(٧٦) ، واكد ابن حجر(٧٧)، والخزرجي(٧٨)، رواية ابن وهب عنه.

١٥. سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (ت،١٦١):
قال الخطيب البغدادي: «كان الثوري اماماً من أئمة المسلمين وعلماً من اعلام الدين مجمعاً على امامته مع الاتقان والضبط، والحفظ والمعرفة والزهد والورع»(٧٩). واكد الذهبي(٨٠)، وابن حجر(٨١)، روايته عنه.

١٦. سعيد بن أبي أيوب الخزاعي مولاهم المصري (ت،١٦١):
وهو ثقة ثبت(٨٢)، واكد الطبري(٨٣)، وابن حجر(٨٤)، والخزرجي(٨٥)، رواية ابن وهب عنه.

١٧. عبد الرحمن بن شريح بن عبد الله المعافري الاسكندراني (ت،١٦٧):
وهو ثقة فاضل(٨٦)، واكد ابن حجر(٨٧)،

والخزرجي(٨٨)، رواية ابن وهب عنه.
١٨. عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم العمري (ت،١٧١):

قال يعقوب بن شيبة «صدوق»واكد الخزرجي رواية ابن وهب عنه(٨٩)، وكذلك الطبري(٩٠).
١٩. عبد الرحمن بن أبي الموالي مولى آل علي ابو محمد المدني (ت،١٧٣):
وثقة يحيى بن معين (ت،٢٣٣)(٩١)، واكد الطبري(٩٢)، والخزرجي(٩٣)، رواية عبد الله بن وهب عنه.
٢٠. ابو محمد بكر بن مضر بن محمد بن حكيم المصري (ت،١٧٣):
وهو ثقة ثبت(٩٤)، واكد ابن حجر(٩٥)، والخزرجي(٩٦) رواية ابن وهب عنه.
٢١.عبد الرحمن بن أبي الزناد القرشي مولاهم ابو محمد المدني (ت،١٧٤):
قال يعقوب بن شيبة: «ثقة صدوق»(٩٧) واكد الطبري(٩٨)، والخزرجي(٩٩) رواية ابن وهب عنه.
٢٢. ابو عبد الرحمن عبد الله بن عقبة الحضرمي الغافقي المصري (ت،١٧٤):
وهو صدوق(١٠٠)، واكد ابن حجر(١٠١)، والخزرجي(١٠٢)، رواية ابن وهب عنه.
٢٣. داود بن عبد الرحمن العطار ابو سليمان المكي (ت،١٧٤):
وهو ثقة(١٠٣)، واكد ابن حجر(١٠٤)، والخزرجي(١٠٥)، رواية ابن وهب عنه.
٢٤. أالليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ابو الحارث المصري (ت،١٧٥):
وهو ثقة ثبت(١٠٦)، عالم مصر وفقيهها ورئيسها(١٠٧)، وقد اكد الذهبي(١٠٨)، وابن حجر(١٠٩)، والخزرجي(١١٠)، رواية ابن وهب عنه.
٢٥. سعيد بن عبد الرحمن الجمحي المدني (ت،١٧٦):
وهو صدوق، ووثقه يحيى بن معين (ت،٢٣٣)(١١١)، واكد ابن حجر(١١٢)، والخزرجي(١١٣)، روايته عنه.

٢٦. ابو محمدبن سليمان بن بلال التيمي مولاهم المدني (ت،١٧٧):
وهو ثقة(١١٤)، واكد ابن حجر(١١٥)، والطبري(١١٦)، والخزرجي(١١٧) روايته عنه.
٢٧. ابو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني (ت،١٧٩):
الفقيه امام دارالهجرة، رأس المتقين، وكبير المثبتين(١١٨)، وقال ابو الطاهر بن السرح: «لم يزل ابن وهب يسمع من مالك من سنة ١٤٨ الى أن مات(١١٩)، واكد الذهبي(١٢٠)، وابن حجر(١٢١)، والخزرجي(١٢٢) روايه ابن وهب عنه.
٢٨. حفص بن ميسرة العقيلي، ابو عمر الضعاني نزيل عسقلان (ت،١٨١):
وهو ثقة(١٢٣)، وقد اكد ابن حجر، والخزرجي روايته عنه(١٢٤).
٢٩. ليث بن عاصم الخولاني (ت،١٨٢):
وهو امام جامع مصر ، واكد الخزرجي، رواية ابن وهب عنه(١٢٥).
٣٠. ابو صخر حميد بن زياد بن ابي المخارق، الخراط، صاحب العباء مدني سكن مصر (ت،١٨٩):
وهو صدوق(١٢٦)، وقد اكد الطبري(١٢٧)، والذهبي(١٢٨)، والخزرجي(١٢٩) رواية ابن وهب عنه.
٣١. سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي مولاهم الكوفي ثم المكي (ت،١٩٨):
قال عنه عبد الله بن وهب: «مارايت أعلم بكتاب الله من ابن عيينة»، وقال الشافعي: «لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز»(١٣٠) واكد ابن حجر(١٣١)، والخزرجي(١٣٢) رواية ابن وهب عنه.
٣٢. عبد الرحمن بن زيد بن اسلم المدني:
ضعفه النسائي (ت،٣٠٣)، وعلي بن المديني (ت،٢٣٤) واحمد ابن حنبل (ت،٢٤١)(١٣٣). واكد الطبري(١٣٤)، والخزرجي(١٣٥) روايته عنه
عبد الجبار بن عمر مولي عثمان ابوعمرو الايلي:
وثقه ابن سعد (ت،٢٣٠)، واكد الطبري(١٣٦)،

والخزرجي(١٣٧)، رواية ابن وهب عنه

٣٣.عبد الله بن عياش بن عباس ابوحفص المصري:

قال ابو حاتم (صدوق)، واكد الطبرى(١٣٨)، والخزرجي(١٣٩)، رواية ابن وهب عنه.

٣٤. ابن هانئ :

لم اقف على ترجمته، واكد ابن حجر روايته عنه(١٤٠).

تلاميذه :

روى عن ابن وهب عدد من المشايخ، من بينهم بعض شيوخه الذين تتلمذ عليهم، مما يؤكد علميته وجدية عمله، وفيما يأتي عرض لابرز الذين رووا عنه سواء من شيوخه أم من تلاميذه.

١. الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ابو الحارث المصري (ت،١٧٥):

وهو من شيوخه، واكد الذهبي(١٤١)، وابن حجر(١٤٢)، والخزرجي(١٤٣)، روايته عنه . وهو ثقة فقيه امام مشهور(١٤٤).

٢. عبد الله بن يوسف التنيسي ابو محمد الكلاعي (ت،٢١٨):

وهو ثقة متقن، من أثبت الناس في الموطأ(١٤٥)، واكد ابن حجر روايته عنه(١٤٦) روايته عن ابن وهب.

٣. هارون بن معروف المروزي، ابوعلي الخزاز (ت،٢٣١):

وهو ثقة(١٤٧)، واكد ابن حجر(١٤٨)، والخزرجي(١٤٩)، روايته عن ابن وهب.

٤. يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي مولاهم المصري (ت،٢٣١):

وهو ثقة(١٥٠)، وكان اماماً غزير العلم بالاثر(١٥١)، واكد ابن حجر(١٥٢)، والخزرجي(١٥٣)، روايته عن ابن وهب.

٥. يحيى بن ايوب المقابري البغدادي العابد (ت،٢٣٤):

وهو ثقة(١٥٤)، واكد ابن حجر(١٥٥)، والخزرجي(١٥٦) روايته عن ابن وهب.

٦. يحيى بن يحيى بن كثير الليثي مولاهم، القرطبي (ت،٢٣٤):

وهو صدوق فقيه جليل الحديث(١٥٧)، وقال ابن عبد البر: «كان ثقة عاقلا»(١٥٨).

٧. سعيد بن الحكم بن محمد بن سالم بن ابي مريم الجمحي بالولاء المصري (ت،٢٢٤):

وهو ثقة ثبت فقيه(١٥٩)، واكد الذهبي(١٦٠)، وابن حجر(١٦١)، والخزرجي(١٦٢)، روايته عن ابن وهب.

٨. ابو عبد الله اصبغ بن الفرج بن سعيد الاموي مولاهم المصري (ت،٢٢٩):

وهو ثقة(١٦٣)، واكد الذهبي(١٦٤)، وابن حجر(١٦٥)، والخزرجي(٦٦) روايته عن ابن وهب.

٩. سعيد بن منصور بن شعبة، ابو عثمان الخراساني، نزيل قلة (ت،٢٢٧):

وهو ثقة مصنف، وكان لايراجع عما في كتابه لشدة وثوقه به(١٦٧)، وقال ابو حاتم: «متقن ثبت مصنف»(١٦٨)، واكد الذهبي(١٦٩)، والخزرجي(١٧٠)، واكد ابن حجر(١٧١)، والخزرجي(١٧٢)، روايته عن ابن وهب.

علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم المديني البصري (ت،٢٣٤)ى

وهو ثقة ثبت إمام، اعلم اهل عصره بالحديث وعلله، حتى قال البخاري: «ما أستصغرت نفسي الا عنده» وقال النسائي: «كأن الله خلقه للحديث»(١٧٣)، واكد ابن حجر (١٧٤)، والخزرجي(١٧٥) روايته عن ابن وهب.

١١. ابراهيم بن المنذر عبد الله بن المنذر الاسدي المدني (ت،٢٣٦):

وهو صدوق(١٧٧)، واكد الذهبي(١٧٨)، وابن حجر(١٧٩)، والخزرجي(١٨٠) روايته عن ابن وهب.

١٢. عبد الملك بن شعيب بن الليث بن سعيد الفهمي مولاهم المصري (ت،٢٤٣):

وهو ثقة(١٨١)، واكد الذهبي(١٨٢)، والخزرجي(١٨٣)، روايته عن ابن وهب.

١٣. حرملة بن يحيى بن حرملة بن عمران التجيبي المصري، صاحب الشافعي (ت،٢٤٣):

وهو صدوق(١٨٤)، واكد الذهبي(١٨٥)، والخزرجي(١٨٦)، روايته عن ابن وهب.
حيث قال الخزرجي: «روى عن ابن وهب نحو مائة الف حديث». وكذلك اكد ابن حجر روايته عن ابن وهب(١٨٧).
١٤. احمد بن صالح المصري (ت، ٢٤٨):
وهو ثقة حافظ(١٨٨)، قال ابو نعيم: «ماقدم أحد اعلم بحديث أهل الحجاز من هذا الفتى». وقد اكد الذهبي(١٩٠)، والخزرجي(١٩١)، روايته عن ابن وهب..
١٥. محمد بن سلمة بن أبي فاطمة المرادي ابو الحارث المصري (ت،٢٤٨):
وهو ثقة ثبت(١٩٢)، واكد ابن حجر(١٩٣)، والخزرجي(١٩٤) روايته عن ابن وهب.
١٦. عيسى بن حماد بن مسلم الانصاري المصري الملقب زغبة (ت،٢٤٨):
وهو ثقة(١٩٥)، واكد ابن حجر(١٩٦)، والخزرجي(١٩٧)، روايته عن ابن وهب.
١٧. الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف المصري (ت،٢٥٠):
وهو ثقة فقيه(١٩٨)، واكد الذهبي(١٩٩)، والخزرجي(٢٠٠)، روايته عن ابن وهب.
١٨. الربيع بن سليمان بن داود الجيزي ابو محمد الازدي (ت،٢٥٦):
وهو من قرية الجيزة بمصر، وهو ثقة، واكد الخزرجي، روايته عن ابن وهب(٢٠١).
١٩. يونس بن عبد الاعلى بن ميسرة الصدفي ابو موسى المصري (ت،٢٦٤):
وهو ثقة(٢٠٢)، وقال حفيده عبد الرحمن بن احمد: «صاحب التاريخ» وقال يحيى بن حسان: «ركن من اركان الاسلام»(٢٠٣)، واكد الطبري(٢٠٤)، والذهبي(٢٠٥)، وابن حجر(٢٠٦)، روايته عن ابن وهب.
٢٠. احمد بن عبد الرحمن بن وهب بن مسلم الفهمي المصري (ت،٢٦٤):
وهو صدوق(٢٠٧)، واكد ابن حجر(٢٠٨)، والخزرجي(٢٠٩)، روايته عن ابن وهب. وهو ابن أخيه.

٢١. بحر بن نصر بن سابق الخولاني، مولاهم المصري (ت،٢٦٧):
وهو ثقة(٢١٠)، واكد الذهبي(٢١١)، وابن حجر(٢١٢)، والخزرجي(٢١٣)، روايته عن ابن وهب.
٢٢. محمد بن عبد الله بن الحكم بن أعين المصري (ت،٢٦٨):
وهو ثقة(٢١٤)، وقال ابن خزيمة: «مافي فقهاء الاسلام، اعرف بأقاويل الصحابة والتابعين منه»(٢١٥)، وقد اكد ابن حجر(٢١٦)، والخزرجي(٢١٧)، روايته عن ابن وهب.
٢٣. الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي ابو محمد المصري المؤذن (ت،٢٧٠):
كان مؤذن الفسطاط، وصاحب الشافعي، وهو ثقة(٢١٨)، واكد الذهبي(٢١٩)، والطبري(٢٢٠)، وابن حجر(٢٢١)، والخزرجي(٢٢٢)، روايته عن ابن وهب.
٢٤. عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري مولاهم البصري (ت،٢٩٨):
وهو ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، قال ابن المديني: «ما رأيت اعلم منه»(٢٢٣)، روى عن وهب، وهو اكبر من وهب، مات بالبصرة وكان يحج كل سنه(٢٢٤)، ولذلك يبدو انه أخذ منه بالحج. واكد الذهبي(٢٢٥)، وابن حجر(٢٢٦)، والخزرجي(٢٢٧)، روايته عن ابن وهب.
٢٥. سحنون بن سعيد:
لم أقف على ترجمته، واكد الذهبي روايته عن ابن وهب(٢٢٨).

توثيقه :

وثقه ابن سعد(ت،٢٣٠)(٢٢٩)، ويحيى بن معين (ت،٢٣٣)(٢٣٠)، والعجلي (ت،٢٦١)(٢٣١)، وابو زرعة (ت،٢٦٤)(٢٣٢) والنسائي (ت،٣٠٣)(٢٣٣)، واضاف: «ابن وهب ثقة ما اعلمه روى عن ثقة حديثاً منكراً»(٢٣٤)، كما وثقه الساجي (ت،٣٠٧)(٢٣٥)، وابن عدي (ت،٣٦٥)(٢٣٦)، وابن النديم

(ت،٣٧٧)(٢٣٧)، والخليلي (ت،٤٤٦)، واضاف بانه متفق عليه(٢٣٨)، ووثقه الذهبي (ت،٧٤٨)(٢٣٩)، الذي قال: «كان ثقة حجة حافظاً مجتهداً..» وقال ايضا: «تناكد ابن عدي بذكر في الكامل»(٢٤٠).

في حين وصف عبد الله بن وهب بانه صدوق، كما ذهب الى ذلك ابو حاتم الرازي (ت،٢٧٧)(٢٤١)، والنسائي (ت،٣٠٣)(٢٤٢)، واضاف بانه لابأس به، والساجي (ت،٣٠٧)(٢٤٣).

وممن اشاد به مالك بن أنس (ت،١٧٩)(٢٤٤)، وكان مالك يكتب اليه الى عبد الله مفتي أهل مصر ولم يفعل هذا مع غيره(٢٤٥)، وكان الناس بالمدينة يختلفون في الشئ عن مالك فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه(٢٤٦). وممن اشاد به سفيان بن عيينة (ت،١٩٨)(٢٤٧)، الذى قال عندما سمع بنبأ وفاة ابن وهب: «إنا لله وإنا اليه راجعون، اصيب المسلمون به عامة، واصبت به خاصة»(٢٤٨). كما اشاد بذكره الامام أحمد بن حنبل (ت،٢٤١)(٢٤٩)، ويحيى بن بكير(٢٥٠)، وأبو مصعب أحمد بن أبي بكر(٢٥١)، وابو زيد بن أبي الفهد(٢٥٢)، ويونس بن عبد الاعلى(٢٥٣)، وابو سعد بن يونس(٢٥٤)، الذي قال: «جمع ابن وهب بين الفقه والحديث والعبادة»(٢٥٥)، والحارث بن مسكين(٢٥٦)، وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه(٢٥٧)، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم(٢٥٨)، وابن حيان (ت،٣٥٤)(٢٥٩)، واحمد بن صالح المصري(٢٦٠)، والذهبي ايضا(٢٦١).

وكان ابن وهب ورعاً تقياً، فقد ذكر احمد بن سعيد الهمداني فقال: «دخل ابن وهب حماماً فسمع قارئاً يقرأ «واذ يتحاجون في النار»(٢٦٢)، فغشي عليه»(٢٦٣).

مؤلفاته :

كان عبد الله بن وهب من المؤلفين المكثرين، فقد ذكر ابو سعيد بن يونس عنه بقوله: «...وله تصانيف كثير...»(٢٦٤)، وقال ابن خلكان: «مصنفاته في الفقه معروفة»(٢٦٥)، وقال عبد الرحمن بن القاسم الفقيه: «لومات ابن عيينة لضرب الى ابن وهب اكباد الأبل، مادَوَّنَ العلمَ أحد تدوينه»(٢٦٦)، وقال عنه احمد بن صالح: «ما رأيت أحداً اكثر حديثاً منه، حدث بمائة الف حديث، وقد وقع عندنا سبعون الف حديث»(٢٦٧)، وقال ابوزرعة: «نظرت في نحو ثلاثين الف حديث لأبن وهب، ولاأعلم اني رايت له حديثاً لا أصل له»(٢٦٨)، وقال عنه ابن حيان: «جمع ابن وهب وصنف وهو حفظ على أهل الحجاز ومصر حديثهم ..وحديث الحجاز ومصر يدور على رواية ابن وهب وجمعه لهم مسندهم ومقطوعهم»(٢٦٩)

وقال الامام احمد بن حنبل (ت،٢٤١): «عبد الله بن وهب صحيح الكتب عن مشايخه..»

أما اهم الكتب التي صنفها ابن وهب فهي:

١. كتاب «الموطأ الصغير»، ذكره الشيرازي(٢٧٠)، وابن خلكان(٢٧١)، وحاجي خليفه(٢٧٢).

٢. كتاب «الموطأ الكبير»، ذكره الشيرازي(٢٧٣)، وابن خلكان(٢٧٤)، والذهبي(٢٧٥)، وقال الخليلي (ت،٤٤٦)ى «موطؤه يزيد على كل من روى عن مالك»(٢٧٦).

٣. كتاب: «الجنائز»: قال ابن عوانه: «كتاب الجنائز من صحيحه»(٢٧٧).

٤. كتاب: «تفسير ابن وهب»: ذكره حاجي خليفة(٢٧٨)، وذكره الثعلبي في كتابه «الكشف والبيان»(٢٧٩).

٥. كتاب: «أهوال القيامة»: ذكره ابن حجر(٢٨٠)، وذكر الذهبي عن خالد بن خداش قوله: « قرئ على ابن وهب كتابه في اهوال القيامة فخر مغشياً عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات»(٢٨١).

٦. جزء فيه تسمية رجال عبد الله بن وهب، ذكره ابن خير الاشبيلي(٢٨٢).

٧. كتاب: «الجامع في الحديث» مكتوب على بردية عثر عليها في «أذفو»، (الأن في فهرست المخطوطات بدار الكتاب بالقاهرة ٢٠٢/١، غير كامل، ٩١، ورقة، قبل سنة ٢٧٦هـ)، وتوجد قطعة

أخرى منه في تشستربيتي ٣٤٩٧ (٦١ ورقة في القرن الثالث الهجري)، ونشره فايل J. David Weill » بالقاهرة عام ١٩١٤م، ويوجد بعنوان «مسند في الظاهرية، مجموع ٤٠ من ١٠٦أ_١٧١ب، في القرن الخامس الهجري»(٢٨٣).

٨. قسم من أحاديثه برواية أبي صالح عبد الله بن صالح (المتوفى ٢٢٣هـ)، دار الكتب بالقاهرة، (٢) ١٠٨/١، حديث ١٥٥٨ (١٦ ورقة، في القرن الثامن الهجري)(٢٨٤).

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.
. البخاري، الامام محمد بن اسماعيل (ت،٢٥٦ھ).
. التاريخ الكبير، (حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨ ¯١٣٦٢هـ).ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت،٥٩٧ھ).
. المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن، ١٣٥٧ ¯١٣٥٩ھ) ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت،٣٢٧ھ).
. الجرح والتعديل، (حيدر آبان الدكن، ١٩٥٢ ¯١٩٥٦). حاجي خليفة، ومصطفى بن عبد الله (ت،١٠٦٧ھ).
. كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين يالتقيا ورفعت بيلكة الكيلسي (استانبول، ١٣٦٠ھ/١٩٤١م) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت،٨٥٢ھ).
. تقريب التهذيب، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف (بيروت ١٣٩٥ھ/١٩٧٥م).
. تهذيب التهذيب، (حيدر آباد، ١٣٢٥ ¯١٣٢٧).
. لسان الميزان، (حيد آباد، ١٣٢٩ھ).الخزرجي الانصاري، صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت،٩٢٣ھ).
. خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في اسماء الرجال، (بيروت ١٣٩١ھ/ ١٩٧١م) ابن خلكان، ابو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت،٦٨١ھ).
. وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق الدكتور احسان عباس، (بيروت ،١٩٦٨ ¯١٩٧٢) خليفة بن خياط، (ت،٢٤٠ھ)ز
. الطبقات،تحقيق الدكتور أكرم العمري (بغداد،١٩٦٧). ابن خير الأشبيلي، ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الاموي (ت،٥٧٥ھ).
. فهرسة، مؤرخ الاسلام شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت،٧٤٨ھ).
. تذكرة الحفاظ، تحقيق العلامة المرحوم عبد الرحمن المعلمي اليماني، المكي (حيد آباد ؛ ١٩٥٥ ¯١٩٥٨).
. دول الاسلام (حيدر آباد، ١٣٣٧ھ).
. العبر في خير من عبد، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الكويت، ١٩٦٠ ¯١٩٦٩).
. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة (القاهرة ، ١٩٧٢).
ب المغني في الضعفاء، تحقيق الدكتور نور الدين عتر (حلب، ١٩٧١).
. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة،١٩٦٣) ابن سعد، محمد بن سعد كاتب الواقدى (ت،٢٣٠ھ).
. الطبقات الكبرى، نشره الدكتور احسان عباس (بيروت، ١٩٦٨) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت،٩١١ھ).
. طبقات الحفاظ، تحقيق محمد علي محمد عمر (القاهرو، ١٩٧٢) الشيرازي، ابراهيم بن علي بن يوسف ابو اسحاق (ت،٤٧٦ھ).
طبقات الفقهاء، تحقيق الدكتور احسان عباس (بيروت، ١٩٧٠). الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت،٣١٠ھ).
. تهذيب الاثار، وتفصيل الثابت عن رسوا الله (صلى الله عليه وسلم) من الاثار قرأه وخرج احاديثه، أبو فهر محمود محمد شاكر (القاهرة،١٩٨٢) العيسوي، يعقوب بن سفيان (ت،٢٧٧ھ).
. المعرفة والتاريخ، تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري (بغداد،٧٤) فؤاد سزكين.
. تاريخ التراث العربي، نقله الى العربية د. محمود فهمي حجازي، ود. فهمي ابو الفضل (القاهرة ، ١٩٧٨)يحيى بن معين (ت،٢٣٣).
. التاريخ، دراسة وتحقيق الدكتود أحمد نور سيف (القاهرة، ١٩٧٩).

الهوامش

(١)ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٧/ق٢/نشرها د. احسان عباس (بيروت ،١٩٦٨) ٢٠٥
(٢) يحيى بن معين، كتاب التاريخ ،تحقيق د. احمد نور سيف، ج٢ (القاهرة) ٣٦٦
(٣) خليفة بن خياط، الطبقات ، تحقيق د. اكرم العمري (النجف،١٩٦٧) ٢٩٧
(٤) البخاري التاريخ الكبير، ج٣/ق١ (حيدر آباد، ١٣٥٨) ٢١٨
(٥) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح والتعديل،ج٢/ق٢ (حيدر آباد، ١٩٥٢ _١٩٥٦) ١٨٨ _١٨٩
(٦) ابن النديم، الفهرست، (طهران، ١٩٧١) ٢٥٢
(٧) الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق د. احسان عباس (بيروت،١٩٧٠) ١٥٠
(٨) ابن خير الاشبيلي، فهرست ، رواه عن شيوخه، (سرقسطة، ١٨٩٣م) ٢٢٣
(٩) ابن الجوزي، المنتظم، ج٤ (حيدر آباد، ١٣٥٧ _١٣٥٩هـ) ٢٨٤ _٢٨٥
(١٠) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٣ (بيروت، ١٩٦٨ _١٩٧٢) ٣٦
(١١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، ج١ (حيدر آباد، ١٩٥٥ _١٩٥٨) ٣٠٤ _٣٠٦
(١٢) الذهبي، دول الاسلام، ج١ (حيدر آباد، ١٣٣٧) ٨٩
(١٣) الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج١ (الكويت، ١٩٦٠ _١٩٦٩) ٣٢٢ _٣٢٣
(١٤) الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، ج٢ (القاهرة،١٩٧٢) ١٤١ _١٤٢
(١٥) الذهبي، المغني في الضعفاء، تحقيق د. نور الدين العتر، ج١ (حلب،١٩٧١) ٣٦٢
(١٦) الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، ج٢ (القاهرة،١٩٦٣) ٥٢١
(١٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٦ (حيدر آباد،١٣٢٥ _١٣٢٧) ٧ _٧٢
(١٨) ابن حجر، لسان الميزان، ج٧ (حيد آباد، ١٣٢٩) ٢٧٣
(١٩) السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق محمد علي محمد عمر (القاهرة، ١٩٧٢) ١٢٦ _١٢٧
(٢٠) الخزرجي الانصاري، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في اسماء الرجال، (بيروت، ١٩٧٩)
(٢١) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١ (استانبول، ١٩٤١)٤٤١
(٢٢) د. فؤاد سزكين ، تاريخ التراث،ج٢ (نقله الى العربية د. محمود فهمي حجازي، ود. فهمي ابو الفضل،القاهرة ١٩٧٨) ١٣٤ _١٣٥
(٢٣) انظر في ذكر ذلك مصادر ترجمته التي تكلمت بشكل مفصل عن ذلك
(٢٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧٢/٦
(٢٥) الذهبي، تذكرة، ٣٠٦/١، ميزان الاعتدال، ٥٢٢/٢
(٢٦) الذهبي، ميزان الاعتدال، ٥٢٣/٢
(٢٧) الذهبي، التذكرة، ٣٠٦/١
(٢٨) الخزرجي، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، ٣٠١
(٢٩) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٩٦/٢
(٣٠) الخزرجي، خلاصة التذهيب، ٩٦/٢
(٣١) ابن حجر، تقريب التهذيب، ج١ (بيروت، ١٩٧٥م) ٢٠٨، ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٣٢) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢ (القاهرة، ١٩٨٢) ١٠٤٣
(٣٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٣٤) الخزرجي، خلاصة، ٩٦
(٣٥) ابن حجر، تقريب، ٢٠٩/١
(٣٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٣٧) ابن حجر ،تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٣٨) الخزرجي خلاصة التذهيب، ٩٧
(٣٩) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٦٧/٢
(٤٠) الخزرجي، خلاصة، ٢٨٧
(٤١) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٤٢) الذهبي، تذكرة، ٣٠٤/١
(٤٣) تهذيب التهذيب، ٧١/٦ ،الخزرجي ، الخلاصة
(٤٤) الخزرجي، خلاصة التذهيب، ٢٨٦
(٤٥) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١

(٤٦) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٤٧) خلاصة التذهيب، ٢٨٦
(٤٩) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٥٢٠/١
(٥٠) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٥١) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٥٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٥٣) خلاصة التذهيب، ٢٤٤
(٥٤) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣١٩/١
(٥٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٥٦) خلاصة التذهيب، ١٤٩
(٥٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب ٢٠٦/١
(٥٨) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٥٩) الخزرجي، خلاصة التذهيب ، ٩٦
(٦٠) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٥٣/١
(٦١) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٦٢) الذهبي ، تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٦٣) الخزرجي ، خلاصة التذهيب، ٢٦
(٦٤) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٤٦٧/١
(٦٥) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٦٦) الخزرجي، خلاصة، ١٢١
(٦٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٢٥٩/٢
(٦٨) الخزرجي، خلاصة، ٣٨١
(٦٩) نفسه، ٣٤٨
(٧٠) الطبري، تهذيب، ١٠٤٣/٢
(٧١) الخزرجي، الخلاصة، ٣٤٨
(٧٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٣٨٦/٢
(٧٣) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٧٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٧٥) الخزرجي، الخلاصة، ٤٤١
(٧٦) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٢/ ٣١٨
(٧٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٧٨) الخزرجي، خلاصة، ٤٠٩
(٧٩) نفسه، ١٤٥
(٨٠) التذكرة، ٣٠٤/١
(٨١) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٨٢) تعريب التهذيب، ٢٩٢/١
(٨٣) تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٨٤) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٨٥) الخزرجي، الخلاصة، ١٣٦
(٨٦) تقريب التهذيب، ٤٨٤/١
(٨٧) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٨٩) الخزرجي، الخلاصة، ٢٢٨
(٩٠) نفسه، ٢٠٧
(٩١) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٩٢)الخزرجي، الخلاصة، ٢٣٥
(٩٣) تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٩٤) الخزرجي ، الخلاصة، ٢٣٥
(٩٥) تقريب التهذيب، ١٠٧/١
(٩٦) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٩٧) الخزرجي ، الخلاصة، ٥٢
(٩٨) نفسه، ٢٢٧
(٩٩) تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(١٠٠) الخزرجي، الخلاصة، ٢٢٧
(١٠١) تقريب التهذيب، ٤٤٤/١
(١٠٢) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٠٣) الخزرجي، الخلاصة، ٢١١
(١٠٤) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٢٣٣/١
(١٠٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٠٦) الخزرجي، الخلاصة، ١١٠
(١٠٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٣٨/٢
(١٠٨) الخزرجي، الخلاصة، ٣٢٣
(١٠٩) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١١٠) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١١١) الخزرجي، الخلاصة، ٣٢٣
(١١٢) نفسه، ١٤٠، ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣٠٠/١
(١١٣) تهذيب التهذيب ٧١/٦
(١١٤) الخزرجي، الخلاصة ١٤٠
(١١٥) ابن حجر ، التقريب، ٣٢٢/١
(١١٦) ابن حجر ، التهذيب، ٧١/٦
(١١٧) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(١١٨) الخزرجي، الخلاصة ١٥٠
(١١٩) نفسه، ٣٦٦، ابن حجر، التقريب، ٢٢٣/٢
(١٢٠) ابن حجر ، التهذيب، ٧٤/٦
(١٢١) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١٢٢) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٢٣) خلاصة التهذيب، ٣٦٦
(١٢٤) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٢٥) نفسه ، ٧١/٦، الخزرجي، الخلاصة، ٨٨
(١٢٦) الخزرجي، الخلاصة، ٣٢٣
(١٢٧) ابن حجر، القريب، ٢٠٢/١
(١٢٨) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(١٢٩) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١٣٠) الخزرجي، الخلاصة، ٩٤
(١٣١) نفسه، ١٤٥ـ١٤٦
(١٣٢) ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٣٣) الخزرجي، الخلاصة، ١٤٥ـ١٤٦
(١٣٤) نفسه، ٢٧٧
(١٣٥) تهذيب التهذيب، ١٠٤٣/٢
(١٣٦) الخزرجي الخلاصة، ٢٢٧
(١٣٧) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(١٣٨) الخزرجي، الخلاصة، ٢٢١
(١٣٩) الطبري، تهذيب، ١٠٤٣/٢
(١٤٠) الخزرجي، الخلاصة، ٢٠٧
(١٤١) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦، تقريب التهذيب،٥٣٠/٢
(١٤٢) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١٥
(١٤٣) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٤٤) الخزرجي ، الخلاصة، ٣٢٣
(١٤٥) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ١٣٨/٢

(١٤٦) نفسه، ٤٦٣/١
(١٤٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٤٨) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣١٢/٢
(١٤٩) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٥٠) الخزرجي، الخلاصة، ٤٠٧
(١٥١) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣٥١/٢
(١٥٢) الخزرجي، الخلاصة، ٤٢٥
(١٥٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٩
(١٥٤) الخزرجي، الخلاصة، ٤٢٥
(١٥٥) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣٤٣/٢
(١٥٦) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٥٧) الخزرجي ، الخلاصة، ٤٢١
(١٥٨) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣٦٠/٢
(١٥٩) الخزرجي، الخلاصة، ٤٢٩
(١٦٠) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٢٩٣/١
(١٦١) الذهبي، تذكرة، ٣٠٤/١
(١٦٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٦٣) الخزرجي، الخلاصة، ١٣٧
(١٦٤) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٨١/١
(١٦٥) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١٦٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٦٧) الخزرجي الخلاصة ،٣٩
(١٦٨) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٣٠٦/١
(١٦٩) الخزرجي، الخلاصة، ١٤٣
(١٧٠) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(١٧١) الخزرجي، الخلاصة، ١٤٣
(١٧٢) ابن حجر، التهذيب، ٧١/٦
(١٧٣) الخزرجي ، الخلاصة، ٤٢٩
(١٧٤) ابن حجر ، تقريب، ٣٩/٢ _ ٤٠
(١٧٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٧٦) الخزرجي ، الخلاصة، ٢٧٥
(١٧٧) ابن حجر، تقريب التهذيب، ٤٣/١ _ ٤٤
(١٧٨) الخزرجي، الخلاصة، ٢٢
(١٧٩) تذكرة الحفاظ، الأ٣٠٥
(١٨٠) ابن حجر، تهذيب، ٧١/٦
(١٨١) الخزرجي، الخلاصة، ٢٢
(١٨٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٥١٩/١
(١٨٣) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(١٨٤) الخزرجي، الخلاصة، ٢٤٤
(١٨٥) ابن حجر، تقريب التهذيب، ١٥٨/١
(١٨٦) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١٨٧) الخزرجي، الخلاصة، ٧٤
(١٨٨) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٨٩) ابن حجر، تقريب التهذيب، ١٦١/١
(١٩٠) الخزرجي، الخلاصة، ٧
(١٩١) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(١٩٢) الخزرجي، الخلاصة، ٧
(١٩٣) تقريب التهذيب، ١٦٥/٢
(١٩٤) تهذيب التهذيب، ١٦٥/٢
(١٩٥) الخزرجي، الخلاصة، ٣٣٨
(١٩٦) تقريب التهذيب، ٩٧/٢
(١٩٧) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(١٩٨) الخزرجي، الخلاصة، ٣٠١ _ ٣٠٢
(١٩٩) تقريب التهذيب، ١٤٤/١
(٢٠٠) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢٠١) الخزرجي، الخلاصة، ٦٩
(٢٠٢) نفسه،و١١٥
(٢٠٣) تقريب التهذيب، ٣٨٥/٢
(٢٠٤) الخزرجي، الخلاصة، ٤٤١
(٢٠٥) تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٢٠٦) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢٠٧) تهذيب التهذيب، ٧٢/٦
(٢٠٨) تقريب التهذيب، ١٩/١
(٢٠٩) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٢١٠) الخزرجي، الخلاصة، ٩
(٢١١) تقريب التهذيب، ٩٣/١
(٢١٢) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢١٣) تهذيب التهذيب، ٧١/٦
(٢١٤) الخزرجي، الخلاصة، ٤٦
(٢١٥) تقريب التهذيب، ١٧٨/٢
(٢١٦) الخزرجي، الخلاصة، ٣٤٥
(٢١٧) تهذيب التهذيب، ٧١/٦ _ ٧٢
(٢١٨) الخزرجي، الخلاصة، ٣٤٥
(٢١٩) نفسه، ١١٥، تقريب التهذيب، ٢٤٥/١
(٢٢٠) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢٢١) الطبري، تهذيب الآثار، ١٠٤٣/٢
(٢٢٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧٢/٦
(٢٢٣)الخزرجي، الخلاصة، ١١٥
(٢٢٤) تقريب التهذيب، ٤٩٩/١
(٢٢٥) الخزرجي، الخلاصة، ٢٣٥
(٢٢٦) التذكرة، ٣٠٤/١
(٢٢٧) تهذيب التهذيب، ٧١/١
(٢٢٨) الخزرجي، الخلاصة، ٢٣٥
(٢٢٩)تذكرة الحفاظ، ١/ ٣٠٥
(٢٣٠) ابن سعد، الطبقات، ق٢، ابن حجر، التهذيب، ٧٣/٦
(٢٣١) ابن ابي حاتم، الجرح والتعديل، ج٢، ق٢، ١٩٠، ابن حجر، التهذيب، ٧٢/٦
(٢٣٢) ابن حجر، التهذيب، ٧٣/٦
(٢٣٣) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ج٢، ق٧٣/٢، الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١، ابن حجر، تهذيب، ٧٢/٦
(٢٣٤) ابن حجر، تهذيب، ٧٤/٦
(٢٣٥) الذهبي، تذكرة، ٣٠٦/١
(٢٣٦) ابن حجر، تهذيب، ٧٤/٦
(٢٣٧) نفسه، ٧٢/٦
(٢٣٨) الفهرست، ٢٥٢
(٢٤٩) تهذيب التهذيب، ٧١/٦ _ ٧٢
(٢٤٠) تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١ _ ٣٠٦، المغنى، ٣٦٢/١
(٢٤١) الذهبي، المغني، ٣٦٢/١

(٢٤٢) الجرح والتعديل، ج٢/ق١٩٠/٤، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧٢/٦
(٢٤٣) ابن حجر، تهذيب، ٧٤/٦
(٢٤٤) نفسه، ٧٤/٦
(٢٤٥) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ١٥٠، ابن خلكان، وفيات، ٣٦/٣، الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١
(٢٤٦) الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١
(٢٤٧)ابن حجر ، تهذيب، ٧٢/٦
(٢٤٨) نفسه، ٧٢/٦
(٢٤٩) الذهبي، تذكرة، ٣٠٦/١، ميزان الاعتدال، ٥٢٣/٢
(٢٥٠) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ج٢/ق١٨٩/٢ _١٩٠، ابن حجر، تهذيب، ٧٢/٦
(٢٥١) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ج٢/ق١٩٠/٢، الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١، ابن حجر، تهذيب، ٧٢/٦
(٢٥٢) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح، ج٢/ق١٩٠/٢، ابن حجر، تهذيب، ٧٢/٦
(٢٥٣) الذهبي، تذكرة، ٣٠٦/١
(٢٥٤) ابن خلكان، وفيات، ٣٧/٣
(٢٥٥) الذهبي، تذكرة، ٣٠٤/١، العبر، ٣٥٢/١
(٢٥٦) الذهبي، تذكرة، ٣٠٤/١
(٢٥٧) ابن حجر، تهذيب، ٧٣/٦
(٢٥٨) نفسه، ٧٣/٦، الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١
(٢٥٩) ابن حجر، تهذيب، ٧٣/٦
(٢٦٠) نفسه، ٧٢/٦
(٢٦١) ابن ابي حاتم، الجرح، ج٢/ق١٨٩/٢، الذهبي، تذكرة، ٣٠٥/١، العبر ، ٣٢٢/١
(٢٦٢) دول الاسلام، ٨٩/١
(٢٦٣) سورة غافر، الايه (٤٧)
(٢٦٤) الذهبي، تذكرة، ٣٠٦/١
(٢٦٥) الذهبي، العبر، ٣٢٢/١
(٢٦٦) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٣٦/٣
(٢٦٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢٦٨) نفسه، ٣٠٥/١
(٢٦٩) نفسه، ٣٠٥/١
(٢٧٠) نفسه، ٣٠٥/١
(٢٧١) العيسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢ (بغداد، ٧٤_١٩٧٥) ١٨٣
(٢٧٢) طبقات الفقهاء ، ١٥٠
(٢٧٣) وفيات الاعيان، ٣٦/٣
(٢٧٤) كشف الظنون ، ١٩٠٧/٢
(٢٧٥) طبقات الفقهاء ، ١٥٠
(٢٧٦) وفيات الاعيان، ٣٦/٣
(٢٧٧) تذكرة الحفاظ، ٣٠٤/١
(٢٧٨) ابن حجر ،تهذيب التهذيب، ٧٤/٦
(٢٧٩) نفسه، ٧٣/٦
(٢٨٠) كشف الظنون، ٤٤٠/١
(٢٨١) ذكره الثعلبي في صفحة(٧) من كتابه «الكشف والبيان» انظر سزكين، تاريخ التراث
(٢٨٢)تهذيب التهذيب، ٧٣/٦
(٢٨٣) الذهبي، العبر في خبر من عبر، ٣٢٢/١، تذكرة، تذكرة الحفاظ، ٣٠٥/١
(٢٨٤) ابن خير الاشبيلي، فهرست ما ودر عن شيوخه، ٢٢٣
(٢٨٥) سزكين، تاريخ التراث، ١٣٤/٢
(٢٨٦) نفسه، ٢/ ١٤٣

الموضوعات بالانجليزية:

ـ ناصر والرأسمالية الوطنية.

د. محمود متولي
جامعة كالجاري ـ كندا

ـ قيادة القوى العظمى وتناقضات العالم الثالث. حالة الشرق الأوسط والخليج.

د. غازي صالح النهار
جامعة المستنصرية

REFERENCE

(1) *Industrial Production Statistics Yearbook,* 1952, Table No.5.

(2) *Federation of Egyptian Industries.* Yearbook, 1951/52, p.6-10.

(3) *Al Ahram*Newspaper; 15 December 1954.

(4) *Nasser's address* in the 2nd Anniversary of the Revolution, July 1954.

(5) *Misr Bank Report,* 31 December 1955.

(6) M.Metwally: *Egyptian Historical Principles and Its Effects on Egypt:* 1920-1961, p.245.

(7) Safran, N; Egypt in Search of Political Community, Cambridge University Press, 1961, pp.185-189.

(8) *The Industrial Bank:* Annual Report, 1956, p.15.

(9) O' brien Patric: *The Revolution in Egypt's Economic System.* Oxford University Press, Oxford, 1966, p.84.

(10) *U.A.R. Temporary Constitution,* March 1958.

(11) *Nasser's address in the 7th Revolution anniversary,* 23rd July 59.

(12) *The Presidential Resolution No. 1327 for the year 1960.* The First Five-Year Plan was for the period 1960-1965 and its main objective was to double the national income in 10 years.

(13) *A Lecture by Dr. A. Kysouni,* The Egyptian Minister of Finance, delivered in the Faculty of Commerce, Ain Shams University, 5th March 1960.

(14) National Bank of Egypt: *National Capitalism within a Socialist Economy,* A series of articles, 1967.

(15) Patric O' Brien: *The Revolution in Egypt's Economic System,* Op. Cit.

(16) The consumer price index in Egypt (1980=100) did not show any rise during the period 1962-64 and increased from 35.2 in 1965 to only 42.2 in 1971.

The situation was far from being optimal. Signs of inefficiency and corruption began to appear in the public sector and traces of exploitation, concentration and monopoly were still found at a significant scale in the private sector. This may be explained partly by lack of experience (particularly administrative experience) of those who were put in charge of the projects in the public sector. Also the socialist ideology in Egypt is still at its infancy. Moreover, satisfactory performance of the public sector needs more surveillance and a better system of incentives than existed during the transformation. Furthermore, it may not be the best policy to appoint ex-capitalists as directors of public enterprises. In addition, a comprehensive scheme of training in management, marketing, auditing etc. would be needed to ensure optimal performance of the public sector. The lessening of bureaucracy would enchance greatly the performance of the public sector. And perhaps more important is to divorce the politicians' interest from the economic performance of the public sector.

There are many areas in which the performance of national capitalism was disappointing. Exploitation, black markets, commodity shortages, excessive profits and low quality servics prevailed in many lines of private activities. In the area of housing, it became difficult to rent any accommodation without paying a bribe to the landlord as a cost of moving in. Private education and private health schemes were also subject to many forms of exploitation and sometimes charged formidable fees for their services. Excessive profits emerged in the private section of the manufacturing sector. The service of local transport in the metropolitan areas deteriorated.

It would seem that the government can not take the performance of national capitalism for granted. Here again a system of sharp surveillance and severe penalties would seem to be desired. Also the public sector may need to expand in order to fill the gaps created by national capitalism.

One must however give allowance to the transitional problems. Once things settle down and a state of certainty and confidence prevails and once the socialist ideology becomes widely accepted and the economy moved into a higher stage of development many of the problems in the public sector and the private sector would disappear.

Two last points may be raised here. First, the Egyptian must realise that Egypt is still a poor developing country. Its income per head is far too low to realise their dreams of having a standard of living similar to that enjoyed by richer countries. Unless their domonstration effect is checked, the country could run into heavy foreign debt and / or develop a pattern of income distribution(through corruption, theft and other illegal activities) which would end in a state of unrest and tears the society apart.

The second point is that no "public sector" or national capitalism can perform satisfactorily unless those in charge or in control observe the public interest as much as their own private interest.

period 1961-1970 particularly in the areas of local transportation, personal services and internal trade.

Thus the socialist laws did not put a brake on the performance on national capitalism. Both the public sector and the private sector worked together in achieving economic development during the period 1961-1971.

TABLE 4

THE SHARE OF NATIONAL CAPITALISM IN EGYPT'S MANUFACTURING INDUSTRIES 1963-68

Industry	Percentage of total industry's output				
	1963-64	1964-65	1965-66	1966-67	1967-68
Food	18.5	17.5	20.5	23.6	25.1
Wood and Products	85	85	84	86	87
Metalic Industries	4.2	7.9	14.9	12.6	14.7
Machienery	15.3	22.3	23.8	24.1	25.6

Source: The Centre of Statistics.

III

CONCLUSION AND RECOMMENDATIONS

The argument put forward by this paper suggests that "national capitalism" has an important role to play in Egypt's socialism. However, it is imperative to distinguish between "national capitalism' as defined by Nasser in the 1962 Charter and the 'classical capitalism' which operates in free-market economic.

It should also be noted that the Egyptian economy performed between after transformation into a socialist economy than during the period 1952-56 which we called the period of free enterprise and the period 1957-61 which we called the period of controlled capitalism. The improvement in the economic performance was attributed to the achievements of both the public sector and the national capitalism.

The transformation to socialism in Egypt was not as arbitary as some people think. The free market mechanism was given plenty of chance but proved to be incapable of realising the country's targets of economic development. The movement towards controlled capitalism did not help much either. Per capital income remained at a standstill and the economy was left in a state of semi-stagnation. So after ten years of experiment with the private system the road to socialism became inevitable.

However, Egypt's socialism did not mean eradication of private ownership. A large volume of the means of production remained with the Egyptian capitalists; but only the 'national capitalists'. Together with the public ownership of the basic means of production, national capitalism achieved significant progress in the areas of social, political and economic development in Egypt.

TABLE 3
ECONOMIC PERFORMANCE OF EGYPTIAN ECONOMY DURING THE PERIOD 1961-1971

Year	Gross Domestic Product (Million Pounds)	Income Per Capita (Pounds)
1962	1513	55
1963	1685	60
1964	1888	66
1965	2214	75
1966	2403	80
1967	2481	80
1968	2533	80
1969	2696	83
1970	2971	89
1971	3146	92

Source: Calculated from data in I.M.F: *International Financial Statistics, 1982 Yearbook,* page.205.

It is clear that the growth in both Gross Domestic Product and per capita income was much faster after the transformation into socialism than during the period 1961-62. Thus while GDP increased by only 43 million pounds per annum during the free - enterprise period (i.e. 1952-56) and by only 47 million per annum during the period of controlled capitalism (i.e. 1957-61) it increased by over 163 million pounds per annum during the ten years which followed the transformation to socialism. In other words Egypt's Gross Domestic Product more than doubled in the ten years from the transformation until Nasser's death. Also, while per capita income increased by only a mere one pound per annum during the years 1952-1961, it increased by 3.7 pounds per annum during the ten years following the transformation. True, the general price level increased at a faster rate after 1961 than before, but even after allowance is given for the rise in the prices, the statistics still support the conclusion that the Egyptian economy performed much better after the transformation into socialism than during the periods of free-enterprise and controlled capitalism. 16

The improvement in the performance of the Egyptian economy can not be attributed only to the performance of the public sector but also to the achievements of national capitalism as may be suggested by the following:

(1) The private sector increased its exports of manufactures from 2 million pounds in 1965 to 13.5 million pounds in 1970.

(2) The value of the private sector industrial output increased from 213 million pounds in 1964/65 to 376 million pounds in 1970/71.

(3) The percentage contribution of the private sector to total industrial output increased in all lines of production as can be seen from the data in Table 4.

(4) Egypt's exports of cotton increased from 84 million pounds in 1961 to 175 million pounds in 1971.

(5) The service sector in the hands of the private enterprise also expanded during the

(2) Private ownership was encouraged where it is needed to have scattered projects of small size e.g. groceries and workshops.

(3) National capitalism was allowed to exist as long as there was no risk of concentration of wealth or power and no risk of monopoly or exploitation.

(4) Private enterprise was allowed where it was difficult to administer the projects either because there were too many of them or because they depended more on personal efforts.

(5) Private ownership was encouraged in areas where family ties or personal service and contact is needed e.g. small agricultural holdings.

(6) National capitalism was allowed to expand and grow as long as it kept within certain limits; otherwise it would be transformed to public ownership.

2 - 4 The Size of National Capitalism in Egypt

The following table give the relative contribution of the public sector and national capitalism in Egypt in 1970.

TABLE 2

THE RELATIVE CONTRIBUTION OF THE PUBLIC SECTOR AND NATIONAL CAPITALISM IN EGYPT 1970/1971.

Economic Activity	Share of the Public Sector	Share of National Capitalism
	%	%
Agriculture	20	80
Extractive Industries	88	12
Manufacturing Industries	60	40
Internal Trade	14	86
Transport & Communications	52	48

Source: *Ministry of Planning,* Egypt.

The data in Table 2 clearly indicates that national capitalism continued to play a very important role in Egypt's socialism. In particular, private enterprise dominated the areas of agriculture and retail trade and played an important role in the areas of transport and communications and even in manufacturing industries. Thus the private sector employed 49 percent of all employees in Egypt's manufacturing industries in 1970/71. This sector also contributed 25 percent of total manufacturing output and 31 percent of total manufacturing value added in the same year.

2 - 5 The Performance of the Egyptian Economy and National Capitalism During the Period 1962 - 71

The transformation to socialism was not without merit. Egypt performed much better after 1961 than in any of the two previous periods i.e. the period 1952 - 56 and the period 1957 - 61. This can be seen from the information in Table 3.

concertrated in the hands of a few persons but was spread amongst a large section of the community. The "big" private ventures did not exist anymore. They have been nationalised. Small business was the mode of national capitalism in Egypt.

One can see the merit in the argument put forward by those thinkers who belive that capitalism can be harmful in a socialist society. But their argument would have taken a different turn had they realised that natioal capitalism in Egypt satisfied at least three main conditions:

(1) Control and supervision: National capitalism operated within the planning framework outlined by the public via its socialist sectors which are owned by the people. Thus national capitalism was not a free - enterprise system as classical capitalism.

(2) Size limitation: Private ownership within national capitalism could not be allowed to grow beyond a certain recognised size. Thus there was a safeguard against wealth (and hence power) concentration. Once the limit was exceeded, nationalisation would take place.

(3) The rate of return: Private firms operating within national capitalism would not be allowed to gain rates of return on their capital beyond some recognized levels. These levels would take into account the sale price of the goods or services and the wage rate paid to the employees. This would safeguard against exploitation of the people as consumers and workers.

2 - 3 Areas of Economic Activities of National Capitalism

The 1962 Charter defined the area in which national capitalism may operate. As for agriculture, the Charter contented with the laws of land reform which limited private ownership of land to 50 acres. A number of laws passed to regulate the relationship between the land owners and the peasants. Also the lines of production and the prices were subject to state control.

Small industries and crafts were left to private ownership on the ground that these industries did not employ much capital and depended largely on industrial skills. Moreover, the public sector extended its control over these industries through the provision of capital goods and raw materials.

In the area of trade, the Charter confined the role of national capitalism to 25 percent of export trade and to 60 percent of internal trade. But later on wholesale trade was nationalised after it was discovered that only 219 persons controlled wholesale trade in Egypt.

Most of the building sector was left for national capitalism, on the gorund that this sector would be regulated by progressive taxation, rent limitation and laws which govern the relationships between the tenants and landlords. However, it was proven later that these measures were not enough to eradicate all means of exploitation. 15

Personal services including entertainment; local taxis, some limited private education were left to the private sector since they depended mostly on individual effort.

A number of variables were responsible for determining the above limitations. These may be summed up in what follows:

(1) The private sector was given the largest role in areas where only a small volume of capital was needed e.g. the cottage industries and personal services.

TABLE I

GROSS DOMESTIC PRODUCT AND PER CAPITA INCOME IN EGYPT BEFORE THE TRANSFORMATION INTO SOCIALISM: 1952 - 1961

The Stage of Free Enterprise 1952-56			The Stage of Controlled Capitalism 1957-61		
Year	Gross Domestic Product (Pounds)	Per Capita Income (Pounds)	Year	Gross Domestic Product (Pounds)	Per Capita Income (Pounds)
1952	941	44	1957	1224	51
1953	943	43	1958	1291	52
1954	1076	45	1959	1375	54
1955	1054	46	1960	1376	53
1956	1166	49	1961	1459	55

Source: Calculated from the data given by I.M.F., *International Financial Statistics*, 1982 Yearbook, p.205.

The value of the nationalised projects exceeded 453 million Egyptian pounds. This has resulted in a shift in the ownership of most means of production from the private hands to the state.

The transformation to socialism did not mean eradication of private ownership in Egypt. This was made very clear in Chapter Six of the 1962 National Charter which outlines the inevitable of the socialist solution. The Charter recognizes private ownership which is free of exploitation, monopoly and independent of foreign interference. Such ownership was called **National Capitalism.** Thus after July 1961 capitalism in Egypt (or what remained of it entered) a new era: The era of "national capitalism".

2 -2 The Controversy Over national Capitalism

The years of transformation to socialism in Egypt witnessed hot discussions among politicians, economists etc. regarding the role of capitalism in a socialist society. Some believed that there is inconsistency in having a socialist economy with some of means of production still in the hands of the private sector(14). The supporters of this view did not make a clear distinction between capitalism in its old dress (with all symbols of exploitation; monopoly, foreign dependence and pursuing of private interests) andNATIONAL CAPITALISM which interacts with the public sector in order to achieve optimal utilisation of resources and realise the object of self-sustained economic growth. Also private ownership within national capitalism differed from the traditional capitalism in that wealth was no longer

investment in the First Five - Year Economic Plan.[12] However, the private sector was not too responsive. This convinced the government that the private sector is neither interested nor capable of achieving the desired economic targets, and that the state must take the largest share of responsibility in the process of industrialisation. This fired the spark for the engine of development through the public sector. A process of nationalisation took place starting with the nationalisation of Misr Bank on 13th February 1960. This was the largest trading bank in Egypt. By its nationalisation, the state controlled not only a major source of finance but also a very large section of the industrial sector. The bank owned over 50 percent of the industrial shares and its affiliated companies were responsible for over 20 percent of total industrial production and over 50 percent of the textile production in Egypt. The government felt that this bank was a symbol of financial authority and its nationalisation was needed to avoid misuse of this authority.[13]

In June 1960 Egypt nationalised the company for local transportation in Cairo on the ground that it failed to offer the required services at the appropriate price.

In July 1960 Egypt nationalised the internal and external trade in tea and medicine.

(d) The state invaded the sector of retail trade since 1957 by the establishment of a chain of consumer co operative societies to compete with the private sector.

(e) A number of laws were passed to regulate the industry. A Ministry of Industry was established in 1956. The 1958 Act (No.21) made it compulsory for industrial firms to obtain a license from the Ministry of Industry before embarking on the establishment of a new factory or the expansion of an existing factory or changing the production line or place. The state established a Public Agency to support industry. Also established was an Agency for Industrial Control to ensure the optimal utilisation of the industrial resources.

The above clearly suggests that private capital in Egypt was not as free as before 1956. It has become subject to severe controls, direction and planning. It is logical, therefore, to call this stage in Egypt's history "the stage of controlled capitalism". It started with the establishment of a mixed economy followed by an expansion in the public sector then a total control over the private sector. This stage was followed in July 1961 by a stage of socialism and what Nasser labeled "National Capitalism".

II

CAPITALISM IN EGYPT AFTER 1961

2 - 1 The Transformation to Socialism:

The Revolution was not satisfied with the economic performance niether during the stage of free enterprise (1952 - 1956) nor during the stage of controlled capitalism (1957 -1961). The growth in Gross Domestic Product during the two periods was quite mild and per capita income was almost at standstill, as indicated in Table 1.

It can be seen from the data in Table 1 that Gross Domestic Product increased by only 43 million pounds per annum during the period 1952 - 1956 (i .e . the period of free enterprise) and increased by 47 million pounds per year during the period of controlled capitalism (i . e . 1956 - 1961). Per capita income increased by a mere one pound per annum during each of the two periods.

This slow performance has led the revolution to believe that Egypt needs a more radical solution than control and planning. So in July 1961 a number of resolutions were passed nationalising a great number of private projects in all areas of production. The size of the public sector expanded and the growth in the private enterprise slowed down.

and protects the free market mechanism and private ownership of the means of production, article 9 stressed that private capital should be directed towards serving the national economy.

(4) The introduction of economic planning as a means of co ordination of economic decisions was not the type of economic policy favoured by the Egyptian capitalists. Thus article 7 of the 1956 constitution which talked about economic planning was not the right bait for the Egyptian capitalists.

(5) The nationalisation of the Suez Canal and the British and French firms and the Egyptianisation of the foreign banks created an environment of fear among the Egyptian capitalists.

(6) The industrial priorities of the Revolution differed greatly from that of the Egyptian investors. The latter believed that Egypt did not have the resources, the experience or the abilities to establish successful heavy industries. The Revolutionists, on the other hand, had the views that light industries could not achieve accelerated economic development and that Egypt should manufacture its own capital goods. Thus the iron and steel industry was on the top of the list of priorities. This has created a real conflict between the government and the Egyptian capitalists, particularly since most of the investment projects suggested by the government were risky and required long gestation periods. Thus the object of profit maximisation, which is the heart of the private system, would not be realised in such projects.

(7) The political decisions taken by Nasser to isolate some politicians and dress them of their political rights or even detain them had a detrimental effect on the private system in Egypt since most of these politicians had close ties with Egypt's capitalists and feudalists.

1 - 5 The Revolution and Controlled Capitalism

Despite the conflict between the Revolution and the capitalists, it can be said that the period 1952 - 1956 was one of free enterprise in the Egyptian economic history. [9]

The Revolution felt that free enterprise is not achieving economic development at the necessary pace. It decided to take a more active role in the process of development. Hence the idea of directed capitaism was born. The Egyptian economy moved from a state of free private enterprise to a state of a mixed economy. This transformation has come through the following major economic steps.

(a) The establishment of an Economic Agency in 1957 whose aim was to mobilise domestic savings and direct them towards investment in independent industrial projects.

(b) The declaration by Nasser at the end of 1957 of the creation of a socialist -democratic - co operative society". The aim of such a society was to protect the people against the exploitation of greedy capitalists. The state was seeking a more responsible role in taking the economic initiative needed for accelerated development. [10] The creation of the union between Egypt and Syria, however, delayed the implementation of these economic ideas. Since it was difficult to speak of a socialist - co operative society in a union with a capitalist economy as Syria. So Nasser declared that the state did not intend to control private industrial establishment but only to ensure that these establishments operate in the public interest. [11] This gave the Egyptian capitalists a second chance. It was also a better chance since they could operate in a bigger market (namely that of Egypt and Syria combined). Unfortunately this chance was missed too and the private enterprise continued with its rigidity and did not want to take the risk by going into the area of heavy industry.

(c) The government decided to share the private sector up to 25 percent of its industrial

exemptions (applied to incomes and profits) protection of infant industries, loans at easy terms and loan guarantees. The Revolution also encouraged small savers to direct their savings towards the economic development of the country. In 1954 a decree (No.26) was issued to regulate investment in public companies in order to encourage small savers.

The minimum share price was reduced from £ E 4.00 to £ E 2.00. The managers were required to retire at the age of 60 and their remunerations were limited to 10 percent of the final profits and after distributing 5 percent of these profits on the shareholders. Also no members of the board of directors was to receive over £ E 25,000 annually and no person could become a member in boards of more than six companies or a managing director of more than two public companies. 6

The Revolution's encouragement to the private system was also clear from the following actions:

a - The state appointed the big businessmen as members of the Boards of National Development.

b - The state kept away from the industrial sector which was left entirely to the private sector.

c - The state consulted the Federation of Egyptian industries on every industrial measure before action was taken.

d - The state followed, sometimes unjustifiably, the advice of the Federation of Egyptian Industries on all matters related to custom duties, taxes etc.

e - The state requested all companies whose capital exceeded £ E 10,000 to join the Chamber of Industries which was a part of Federation of Egyptian Industries.

1 - 4 The Beginning of Conflict Between the Revolution and Capitalism:

The wave of trust which hit the economic system of the immediate years following the revolution did not last long. A conflict emerged due to actions on both sides. The Revolutionists lost confidence in the private system because the Egyptian capitalists chose to direct their resources only to projects with guaranteed quick (and high) profits. The government wanted to build a heavy industry but the private capital prefered light industries. 7 This has pushed the government into taking certain economic measures to direct investment away from building and construction towards other industrial productive projects. New buildings valued at more than £ E 500 were subject to official licensing. 8 Also the government thought that the Federation of Industries, went too far when asking for guarantees of a minimum amount of projects on all investments. Further more, the government did not accept the Federation objections against the establishment of public projects in areas which the private investment did not find attractive.

The capitalist on the other hand, began to doubt the revolution's intentions for a number of reasons:

(1) The laws of land reform in September 1952 created an environment of fear among the Egyptian capitalists, although these laws did not hit them directly and were designed to liquidate the feudalist system; to put an end to the misery of millions of peasants and to ensure a transformation of the economy towards more industrialisation.

(2) The foreign policy followed by the Revolution and, in particular the Czechoslovakian arms deal in 1955, resulted in loss of confidence of many businessmen, particularly Western traditional capitalists.

(3) The 1956 constitution was not as pro free market enterprise as hoped by the Egyptian capitalists. Although article 3 of the constitution made it clear that Egypt respects

Also this sector suffered a number of setbacks due to the political instablity which prevailed in the immediate years before the revolution. 2 Moreover, trade (particularly external trade) and finance were controlled by foreigners whose administrative decisions were designed to benefit foreign interests. Thus, the revolution was faced with a number of serious economic problems:

a - Per capita income was very low and declining.

b - Distribution of income and wealth was extremely skewed in favour of the few rich.

c - The taxation system was inefficient, unjust and relied heavily on indirect taxes which put a higher burden on the poor.

d - Public service was of low quality and carried high price.

e - A large section of the economy was owned and / or controlled by foreigners.

f - There was no plan or even co ordination for serious development of the national economy.

1 - 2 The Economic Ideology of the Revolutionists:

It can be said that the men who led the 23rd July Revolution did not have any distinguished economic ideology. The only noticeable thing was their thoughts regarding land reform.

Thus in its first years in power, the revolution supported free market mechanism and private ownership. This support was given to create confidence among the Egyptian capitalists and investors and to put an end to the determental effects of the political instability which prevailed during the few years before the revolution. Those years witnessed major political events starting with the 1948, Palestine War, the burning of Cairo on 26th January, 1952 and the Egyptian Revolution on 23rd July 1952 had major effects on business expectations in the country.

The Revolution issued a number of statements to ensure that it did not bind itself to any particular economic system. Thus the Minister of Finance issued a statement declaring that the "state will encourage private projects". 3 Two years later, Nasser issued a statement declaring that the government of the Revolution was a government of all classes and professions and stands equally besides workers, peasents, businessmen, employees, students, the rich and the poor. 4

However, businessmen did not respond favourably to the Revolutionist's statements until late 1955. Private investment increased noticeably in 1956 and the pioneer capitalists began to praise the Revolution's policy towards capitalism. 5

1 - 3 The Revolution and Private Enterprises:

The Revolution main policy was to support the private system. But it found it necessary to ensure optimal utilisation of economic resources particularly capital. In 1952 a decree (No.213) was issued for the establishment of **The Permanent Council for the Development of national Product** whose function was to outline economic and social policies for the development of the economy.

Apart from this and the laws of land reform, the Revolution directed its efforts to encourage the performance of the private system. It offered many concessions and incentive schemes to private (domestic as well as foreign) investment. These measures included tax

"NASSER AND NATIONAL CAPITALISM"

Research by Dr. Mahmoud Mitwally
Professor of Recent and contemporary history

Offered to the International conference for the Middle East studies
Calgary University - Canada 31 / 7 / 1986 — 3 / 8 / 1986

Free market mechanism and private ownership in Egypt went through heavy regulations and structural changes during Nasser's Regime: 1952 - 1970.

The aim of this paper is to evaluate the impact of the 23rd July Revolution on the capitalist system and the emergency of what Nasser called "National Capitalism".

The study is divided into three sections: Section one examines the Revolution's stand towards the operation of free market mechanism during the period 1952 - 1961. The impact of the 1961 Socialist laws and regulations are assessed in Section two. Section three summarizes the main findings and offers some recommendations.

1

FREE MARKET MECHANISM AND PRIVATE OWNERSHIP DURING THE PERIOD 1952 - 1961

1 - 1 The Economic System Prevaililng at the eve of the Revolution:

The 23rd July Revolution inherited a mixed feudal - capitalist system with all known characteristics especially private ownership of all means of production and concentration of wealth (particularly agricultural land) in the hands of a few families. Government ownership was restricted to public utilities: irrigation projects, railways, postal and other communication services and hospitals.The role of the government in the economy was confined to the traditional areas of justice, police and army.

Most of the industries in the private sector were family ventures and quite small in size, Thus, well over 75 percent of the establishments in the manufacturing sector employed less than 10 workers. (1)

28. N.Firzli, The Iraq-Iran War, op cit, p.103.
29. Le Monde, September 29th, 1980.
30. N. Firzli, op cit, p.103.
31. For more details about the Algerian Agreement in 1975, see for example: N. Firzli, op cit, pp.100.
32. Department of Defence Security Assistance Agency, Foreign Military sales and Military Assistance Facts, (Washington. D.C) December 1976, pp.8-27.
33. Ibid pp.8-16.
34. A. Hessing Cahn: USA Arms to the Middle East 1967-1976, A Critical Examination Cited in: Great Intervention in the Middle East, by M. Leitenberg, New York 1979, pp.101-107.
35. US Arms Control and Disarmament Agency, World Military Expenditure and Arms trade 1966-1976, Washington D.C) 1978, pp77-80.
36. M. Leitenberg, op cit, pp.101-118.
37. Based on data in US Central Intelligency Agency: Communist Aid to the less Developed Countries of the Free World, 1976, Washington, D.C) 1977, p.3 and, projections from US Department of State, Communist States and Developing Countries, Aid and Trade in 1974, (Washington, D.C. January 1976, p.30.
38. The International Institute of Strategic Studies (IISS), The Military Balance 1980-1981, London, 1980.
39. See: T.Y Ismael: Iraq and Iran Roots of Conflicts, Syracuse University Press, 1982, p.27.
40. The 1968 Revolution in Iraq, The Political Report of the Eight Congress of the Arab Baath Socialist Party in Iraq, January 1974, London, Ithaca Press, 1979, pp.130-31.
41. A. Iskander: Saddam Hussein, The Fighter, The Thinker and the man, Iraq 1980, Chapter 10.
42. International Institute for Strategic Studies, The Military Balance 1971-72 and *1974-75*, and IISS, p.28.
43. See: R.D Maclaurin and others: Middle East Foreign Policy, Praeger Publishers, New York, 1982, pp.73-131.
44. Ibid, p.118.
45. FBIS, October 2, 1978, p.E.1.
46. Baghdad voice of the Masses (February 8, 1980) as reported in FBIS, February 11, 1980, P.E.2.
47. FBIS, February 11, 1980, P.E. 4.
48. See, R.D. Maclaurin, Op cit, pp.120-125.
49. Gorgie Ann Geyer, "War in Iran: The view from Baghdad, "Washington Star, December 24, 1980, p.A5.
50. Dawish, A: "Iraq the Wests's opportunity, " Foreign Policy, NU 41, Winter 1980-81, p.138.
51. Ibid, pp.137-138.
52. Al-Thawrah, January 4th, 1980, (Iraqi Newspaper).
53. New York Times, September 17th, 1980.
54. For more details see: G.S. Nahar, op cit, Chapter 4.
55. Official Memorandum about the Iraq-Iran border conflict, see Firzli, N. Op cit, pp.105.115.
56. C.F. :Iraq-Iran conflict, "Course on French Linguistic of Professor Georges Matore" at the University of Paris IV - Sorbone, Appendix IX, P.217.
57. Ibid, Appendix and P.219.
58. Date compiled by the Stokholm International Peace Research Institute (SIPRI) indicate that the number of suppliers of major weapons to Iran has increased to fifteen since the war began, while suppliers to Iraq have increased to nineteen. See for example: The (SIPRI) data is presented in MERIP Reports 125/126, July-September, 1984. See also, the Gulf War, organized by the committee for the Defence of the Democratic Rights of the Iranian People, New York, 8 September, 1984, pp.19-2.
59- See: M.S. EL-Azhary: The Iran-Iraq war: An Historical, Economic and Political Analysis, Croom Halm, London and Canberra, 1984, p.95.
60. Amos perlmutter et, al, Two Minutes over Baghdad, London, Vallentine Mitchell and Co. Ltd, 1982, p.130.
61. Haaretz Reported in FBIS, Middle East and North Africa, June 9, 1981.
62. Foreign Broadcast Information Services (FBIS) Western Europe, July 31, 1980, PK.1.
63. J.C. Snyder: "Te Road to Osiraq : Baghdad's Quest for the Bomb" The Middle East Journal, Vol. XXXVII, 1983, p.582.
64. "Military Action" on Iraqi Nuclear Research Centre and its implications for the Agency", IAEA General conference, 25th Regular Session, p.2.
65- FBIS, Middle East and North Africa, June 11, 1981, PE 4.

REFERENCES

1. Evan Luard, "Super Powers and regional conflicts", Journal of Foreign Affairs, Summar 1986, pp. 1006-1026.
2. John, W. Burton: World Society, Cambridge University Press, 1972, p.3.
3. Karl. W. Deutsch: The Analysis of International Relations, Second Edition, Prentice-Hall, INC, 1978, Preface.
4. Martin Wight: Power Politics, Penguin Book Ltd, England, 1979. p.23.
5. C.A. Leeds: Political Studies, Macdonald and Evens Ltd, 1981. p.310.
6. David. W. Ziegler: War, Peace, and International Politics, Second Ed, Little Brown and Company INC, 1981, p.99.
7. Cited in: John Herz: International Politics in the Atomic Age, New York Columbia University Press, 1959, pp.52-61.
8. Hugh Seton-Watson: Nations and States, an enquiry into the origins of Nations and the Politics of Nationalism,Methucn-London, 1982,pp.1-5.
9. Martin Wight, Power Politics, op cit, p.96.
10. Karl, W. Deutsch, Op cit, pp.99-100.
11. Johan Galtung: "International Sociological Association Plenary Session, September 4-11, 1986. See Marshal, R. Singer: Weak States in a World of Powers, New York, 1972, p.56.
12. Markshall, R. Singer, Op cit, p.56.
13. Ibid, p.57.
14. Sisir Gupto, Cited in Carsten Holbroad: Super - Powers and World order, Australian National University Press Canberra, 1971, pp. 105-109.
15. Geoffrey Kemp: Arms Traffic and Third World Conflicts, New York March 1970, no. 577, pp.6-8.
16. Dabo, Bangaly: "Peaceful Settlement of Disputes and Conflicts between the Non-aligned, Journal of Institute of International Politics and Economic Review of International Affairs, Belgrade 1982, pp.373-374.
17. See for example: D.G. Pruitt/R.C. Snyder: Theory and Research on the causes of war, Prentic-Hall, INC, Englewood, Cliffs, N.J. 1969 pp.4-16 see also, Martin Wight, Power Politics, op cit,p.138.
18. See, Lenin. V.I.: Imperialism: The Highest form of Capitalism, Moscow, Foreign Languages Publishing House, 1950, Cited in, D.G. Pruitt, op cit,p.18.
19. Ibid, pp.18-19.
20. Milton Leitenberg and Gabriel Sheffer: Great Powers Intervention In The Middle East, New York, Pergaman Press Ltd, 1979, pp.3-5.
21. N. Firzli: The Iraq - Iran War. Paris, 1981.
22. Intonious: Arab Awakening, London, 1969, p.261.
23. Ibid pp.260-62. See also, G.S. Nahar: The Non-aligned movement; Its Development up to 1982, with Particular Reference to Iraq, Ph.D. Thesis, England 1984, Ch.4.
24. Burch, Briton Cooper: Britain, India and the Arabs, 1914 - 1921, London, 1971, p.92.
25. For more details, see for example: Porat: From Riots to Rebellion, The Palestinian - Arab National Movement, 1929-39, p.58. and see: B. Kimmerling, Zionism and Territory, The Socio - Territorial Dimensions of Zionist Politics, (Berkeley: Institute of International Studies, University of California, 1983, Table 2.1.
26. Paul Marantz and Blema. S. Seteinberg: Superpower involvement in the Middle East, Dynamics of foreign policy, West view Press, INC, 1985, pp.265-274.

    *The essential commonality of interests between the Western Europe, USA and the Zionist State is well known, and the fundamental basis of 'NATO-Isreali' relations is quite sound.

    The NATO values (Zionism state) as a strategic asset, one that provides a wide range of military and intelligence benefits for the NATO policy of containing the military expansion of the WARSAW pact in the Middle East.

    However, it is quite important to mention here that, from time to time, we could here there have been dispute about a variety of issues, such as sales of USA advanced weapons to the Arab regimes, the amount of USA aid to the Zionist state, or Zionist invasion of Lebanon...etc. But of course, such dispute have generally been temporary, and after the issue has been decided, the fundamental equilibrium of NATO-Zionist state cooperation has been restored.
27. Le Point, C.F, no.419, September 29th 1980.

(27) J. Herz: International Politics in the Atomic Age, New York. Columbia University Press, 1959.
(28) J.W. Burton: World Society, Cambridge University Press, 1972.
(29) J.L.Sutton and Kemp G.: "Arms to Developing Countries, 1945 - 1965. Adelphi Papers Press, No. 28, London, 1966".
(30) Karl. W. Deutsch: The Analysis of International Relations, Second, Ed, Prentice Hall, INC, 1978.
(31) Le Monde, September 29th, 1980.
(32) Le Point, C.F. Nu 419, September 29th, 1980.
(33) Martin Wight: Power Politics, Penguin Book Ltd., England, 1979.
(34) M.R. Singer: Weak States in a World of Powers, New York, 1972.
(35) M. Leitenberg and G. Sheffer: Great Powers Intervention in the Middle East, New York, Pergaman Press Ltd., 1979.
(36) M.S. El - Azhary: The Iran - Iraq War: An Historical Economic and Political Analysis Croom Halm, London, 1984.
(37) New York Times, September 17th, 1980.
(38) N. Firzli: The Iraq - Iran War, Paris, 1981.
(39) P. Marantz and B.S. Seteinberg: Superpowers Involvement in the Middle East, Dynamics of Foreign Policy, West View Press, INC, 1985.
(40) The Political Report of the Eight Congress of the Arab Ba'ath Socialist Party in Iraq, January 1974, London Ithaca Press, 1979.
(41) R.D. Mclaurin and Others: Middle East Foreign Policy, Praeger Publishers, New York, 1982.
(42) T.Y. Ismael: Iraq and Iran Roots of Conflicts, Syracuse University Press, 1982.
(43) U.S. Arms Control and Disarmament Agency, World Military Expenditure and Arms Trade 1966 - 1976, Washington, D.C, 1976.
(44) V.I. Lenin: Imperialism: The Highest Form of Capitalism Moscow, Foreign Languages Publishing House, 1950.

BIBLOGRAPHY

(1) A. Darwish: "Iraq the West's Opportunity", Foreign Policy, Nu. 41, Winter 1980 - 81.
(2) Al - Thawrah, January 4th, 1980.
(3) A. Iskander: Saddam Hussein, The Fighter,The Thinker and The Man, Iraq, 1980.
(4) Amos Perlmutter: Two Minutes Over Baghdad, London, Vallentine Mitchell and Co. Ltd. 1982.
(5) B.B. Cooper: Britain, India and the Arams, 1914 - 1921, London 1971.
(6) C.A. Leeds: Political Studies, Macdonald and Evens Ltd. 1981.
(7) Carsten Holbroad: Superpowers and world order, Australian National Univrsity Press Canberra, 1971.
(8) The Committee For The Defence of The Democratic Rights of The Iranian People, New York, 8 September 1984.
(9) D. Banglay: Peaceful Settlement of Dispute and Conflicts,between the non . aligned, "Journal of Institute of International Affairs, Belgrade, 1982."
(10) D.G. Pruitt/R.C. Snyder: Theory and Research on the Causes of War, Prentic Hall, INC, Engleword, Cliffs, 1969.
(11) D.W. Ziegler: War, Peace and International Politics, Second Ed, Little Brown and Company INC, 1981.
(12) Department of Defence Security Assistance Agency, Foreign Military Sales and Military Assistance Facts, Washington, D.C. December, 1976.
(13) E. Luard: "Journal of Foreign Affairs, Summar 1986".
(14) FBIS, October 1978.
(15) FBIS, February, 11, 1980.
(16) FBIS, July 31, 1980.
(17) FBIS, Middle East and North Africa, June 9, 1981.
(18) FBIS, Middle East and North Africa, June 11, 1981.
(19) G.S. Nahar: The Non - aligned Movement; Its Development up to 1982. With Particualr Reference to Iraq, Ph.d, Thesis, England, 1984.
(20) G.A. Geyer: War in Iran: The view From Baghdad, Washington Star, December 24, 1980.
(21) G.Kemp: Arms Traffic and Third World Conflicts, New York, March 1970.
(22) H. Seton - Watson: Nations and States, an enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism, Methucn - London, 1982.
(23) Institute of International Studies, University of California, 1983.
(24) Intonious: Arab Awakening, London, 1969.
(25) The International Institute of Strategic Studies, IISS, the Military Balance 1980-1981, London, 1980
(26) International Institute for Strategic Studies, The Military Balance 1971-72 and 1974 - 75.

This situation dragged on until 1968 when the Arab Ba'ath Party gained power in Iraq. The top priority of the party was Arab unity and to finish the Kurdish revolt as well as the Zionist movement extended hence eliminating Great Powers, influence from the Arab Middle East area. This was done alongside a process of nationalisation during which the country regained control of its national resources.

By mid' Seventies' with a stable political system and growing economy backed by enormous financial resources, the time had come for Iraq to enhance its position in the Arab-Zionist struggle, adhering to its principles, the government and the party started sharing resources with Arab countries, Also, Iraq proposed to send troops to Syria to confront Zionist movement and expressed its readiness to host an Arab summit conference for consultation and agreement on "Serious joint Arab Steps" needed to overcome the "dangers of division and disintegration within the Arab World. Iraq's emerging role within the Arab-Zionist struggle came to be recognised though it is not acceptable for the Zionist racial movement and for the Khomiene regimes in Iran. So, to weaken Baghdad they came together, co-operated and acted against the Iraqi regimes through the Iraqi-Iranian war (as we argued earlier).

Having discussed the above, one could safely argue that the weak states i.e. Third World countries are now subject to heavy pressures emanating from Great Powers political, military and economic factors. To conclude one might argue that, there are two potential senarious for the future of the Third World political social and economic independence, i.e. independent policy. One is that the pressures might be more than the weak states can handle hence it may be subject to disarray. The second is that the Third World countries may be able to cope with the arising problems and sooner rather than later, it will overcome these problems. They should co - operate to solve their border problems in a peaceful ways rather than fighting each other and not seeking assistance from more powerful states for their protection. This kind of military assistance will leave the door open for Great Powers, and this means that through which imdependent decision making in Third World countries can be threatened in time of hardship, and therefore the political independence given to certain countries after a military struggle may be controlled even after such military action is done away with.

Hacer Fidan

here that, this war led to many points, the most important of which are,both sides, Iran and Iraq lost and are still losing hundreds of people in addition to billions of dollars buying weapons and damaging their economics.

While the Iraqi-Iranian conflict was not the only one, it was most important issue that has faced the Third World co-operation in facing Great Powers ways and means, i.e. imperialism.

However, we saw in the previous sections that the Third World countries are spending many times as much on weaponary as they receive in development aid. On the other hand, arms imports make the developing countries depend not only on the economic side, but also have other aspects forming in the end a pressure to redirect developing countries' policies.

CONCLUSION

Third world countries in general and the Middle East in particular are sometimes pictured as a highly unstable group of nations, continually buffeted by the struggles of the Great Powers and bereft of continuity and identity. Yet we have shown the competition over spheres of influence between the Great Powers in the world has been increasing very rapidly through new ways and means of domination.

The disappearance of the direct colonialism in Third World areas made the Great Powers seeking and finding other ways and means to keep their interests alive as long as it is necessary to do so. Therefore once a developing area gains political independence these new means are put into operation. Among these ways and means one is created racial movements as well as created border problems.

These ways make new independent countries usually keep dependant on the previously colonizing country for their security and means of survival. Hence this means that, even if these countries leave the area physically, the re - enter through the back door and they have enough leverage to continue their domination and exploitation of the independentcountry.

Also, a newly independent country would not normally have enough productive capacity to protect its people, therefore arms supply and dependency is usually used to enhance this dependency. This obviously increase the political clutch the dominating country would still have even after independence.

In several parts of this research, there have been discussionsof the role and interventions of Great Powers in some Third World areas. However, focusing on one specific area entails a review of the two whole process of interaction between the Great Powers and the Third World areas. The Middle East and the Gulf conflicts were taken as a case study in order to examine in some detail how this process takes place.

Before 1914, the Middle East area was ruled by the Ottoman Empire under the name of Islam, but after that time and up to 1948, the Arab World was occupied by British imperialism, and the British government created the Zionist movement as a racial movement in the Middle East area. By the late forties a new Great Powers came to invlove in the Middle East area and tried to regain influence in that are through supporting the Zionist movement in Palestine as well as through supporting the Kurdish movement in Iraq. This process was also supported by the fact that the Arab economy was dominated by the international companies. It is therefore rather obvious that at this stage, even though Arab regimes revolt against the above mentioned interventions, they were nevertheless not in a position to contribute significantly to the situation.

Zein Al - Qaws.

The Iraqi - Iranian war has been one of the most protracted and most devastating conflicts since the end of world war II, in terms of casualties and economic damage. Perhaps the most significant consequence of this war in terms of the international arms trade is the expansion and diversification of the ranks of major arms suppliers. Political constraints on the Great Powers have meant many third party sales, as Soviet arms have found their way to Iran through North Korea, Cuba and Libya, while US supplies have reached Tehran through Zionist state and South Korea. This war also has been a boon for Third World arms producers such as Chile, Brazil and Egypt.(58)

The Great Powers have supplied both belligerents in the course of this war, but some of them have done so largely through third parties. While France has been the major western suppliers to Iraq, providing an estimated $ 5 billion worth of Arms since the war began, Iran has turned to a number of countries in Eastern and Western Europe as well as to Zionist state, Syria, Libya and North Korea. One estimate puts the figure at between $ 200 million in arms, spare parts and ammunition delivered to Iran from western Europe in the first eighteenth months of the war. Approximately half of this amount was supplied or arranged by the Zionist state, the remainder by dealers on the international market, some of whom also may have connection with the zionist movement.(59)

The Zionist state, through the use of electronic surveillance technique, has been providing Iran with Iranian forces to strike at weak spots. Furthermore, the Zionist state in co - operation with Iran to weaken Baghdad, they attacked the Iraqi reactor facility in June, 1981. According to one account, the Zionist pilots had been training for this attack since October 1980.(60)

After the attack, the Zionist government declared that under no circumstance would it "allow the enemy to develop weapons of mass destruction against our nation; we will defend (Israel's) citizens with all means at our disposal".(61)

However, despite that France denied any real danger of nuclear proliferation existed at Osiraq and replied that: "Iraq like any other country, has the right to the peaceful uses of nuclear energy and (France) does not see any reason for this right to be refused",(62)despite this was denied by the French government, the official Zionist government report on the attack listed many reasons for the decision to bomb the reactor among which were:

(1) Imminent realization by Iraq of its plans to acquire a military nuclear capability, (2) Iraq's declared maintenance of a state of war with (Zionist) and its persistent denial of Zionist's right to exist, (3) The failure of Zionist's diplomatic efforts to prevent the extension of foreign assistance to Iraq in the implementation of its nuclear program.(63)

The implication of this attack was and still is that the Zionist movement will oppose with force any nuclear weapons program or any progress of development in the Arab Middle East countries in an effort to maintain its monopolistic position. On the other hand, one could say here that the two mevements, namely the Khomieni and Zionist continued their attack to stall Iraq's progress.

The fact is that, condemnation of the Zionist attack was Universal. For example, the UN passed resolution 487, condemning the Zionist attack as a violation of the UN charter. (64)The Iraqi reaction to the attack was prompt and outspoken. The Iraqi government stated that, the attack was:

> "Tangible and blatant evidence that Zionist entity is nothing more than a racist, aggressive and expansionist entity hostile to all the values of freedom, justice, and right" (65)

We have seen the reason which led to the war between Iraq and Iran,one could mention

Government to prevent her from moving closer to the Soviet Union.(51)

To protect its oil wealth from becoming totally dependent upon the US dollar or upon western economies, Iraq has adopted some ways among which were (1) The Iraqis have carefully controlled the ratio of oil production to capacity in order to maximize revenues in the long term, (52) particularly when they expect the real value of oil to be higher,(2) It has tended not to keep its surplus funds in US dollars, preferring its holdings to be in a mixed basket of currencies, (3) Iraq has attempted to channel its oil revenues into direct investment projects, (4) It has transferred large sums into gold holdings under Iraqi control, (5) It has arranged bilateral "oil for imports" barter agreements with some Western European States and Japan, by which Iraq receives needed military or development product in exchange for crude oil (53)

This policy has allowed Iraq to use oil for political leverage without fearing economic repercussions and generally to pursue Iraqi national interests independently of super -power related concerns. For example, it used it against USA for supporting zionism. On the other hand, as oil prices climbed and Iraq's revenues increased,the Iraqi leaders also began to exert greater independence of the Soviet bloc in economic policies and military supply. The Iraqi armed forces during 1970 - 1977 for example were completely supplied by the Soviet bloc, but after oil nationalisation, Iraq widened its policy, buying some arms and weapons from western Europe, especially from France. Also, the financial independence of Iraq made the Iraqi Government ambitions to develop projects with others. (54)

Alongside, it could be said that the Arab Ba'ath Partys' solution to the Kurdish problem on the one hand and to that of the communist Iraqi party gave stability and solidarity to the country and such solidarity between all of the Iraqi political parties could give Iraqi leaders a chance to play a role in international affairs within the non - aligned movement.

It is quite clear from the above points that the Iraqi developments during the 1970s made Iraq a new power in the Middle East as well as a master of the Gulf. But, the fact is that, this new power would not be acceptable to the Great Powers as well as to the Iranian and Zionist movement, simply because the Iraqi leaders adheres (as we mentioned before) to an ideology that is basically nationalist and anti - imperialism and anti - zionism.

So, to destabilize Iraq and bring about the downfall of the regime there in particular and the Arabian Gulf in general, the Great Powers, the Iranian and Zionism co - operated together against Iraqi government.

For example, the new Iranian leaders (Khomeiny regime) have declared that the territories forcibly annexed by the Shah would remain Iranian. They even went so far as to claim Iraq and even the Arab Gulf countries as persian territories. Furthermore, they adhered to a policy of interference in the internal affairs of the Arab regimes, especially that of Iraq. The Iranian forces for example had committed 244 border violations or acts of aggression against Iraq by air, sea and land in the period from February 23rd, 1979 to July 26th, 1980.(55)The Iraqi forces answered these aggressions by trying to limit them.

Meanwhile, Iraq sent 240 official notes to the Embassy of the Iranian Republic, in Baghdad, giving an account of the aggressions, their date, form and consequence.(56) Moreover, Iraq sent official notes to most of the regional and international organisations such as the Arab League, the United Nations, the non - aligned movement, the conference of Islamic Nations etc. Tehran did not take the notes of protest into consideration, thus violating international laws and rules as well as the conventions concluding between the two countries. (57)

The Iranians were still doing so until the Iraqi army was moved in September 1980 to the border and following a violent struggle, forced the Iranians to retreat from Iraqi land called

a number of regional and systemic factors that have favoured a more assertive foreign policy, for example the growing importance of oil in the mid - 1970s which did not only enhanced the strategic importance of the Gulf, but also provided Iraq with the cash to purchase technology. Capital goads, and weapons from some western European countries and USA rather than relying almost exclusively on the Soviet bloc. This enabled Iraq to pursue a more independent foreign policy, particularly in Arab affairs.

Also, the signing of the Camp David agreement in March 1979, between Egypt and the Zionist state and the Khomeini regime, which soon appeared to pose a serious threat to both Iraq and the Arab Gulf, these events created the need to prevent Iran and the Zionist from exporting their threat to the Arab side.

So, apart from the self - evident goal of national defence, Iraq's putatine military capabilities are presumably intended to buttress the government's bid for Pan - Arab leadership, supremacy in the Gulf, and independence from Great Powers hegemony. In Arab nation, the armed forces must be prepared to defend the Arab nation beyond the country's own borders. For example, during the period 1968 - 1972, Iraq military supplies were nearly 95% from the Soviet Union.(42) The dependence perhaps happened for many reasons among which was the fact that the western multi - national oil companies controlled Iraqi oil and on the other hand, USA and her allies supported Iran and zionist movement against the Arab countries. But this has changed. (see later P.29)

In keeping with Iraq's overriding foreign policy goals, Iraqi training and maneuvers since 1973 have been concentrated and were reportedly successful in developing, a highly mobile armed and mechanized force that could overcome some of the military's logistical problems.(43)

Also, Iraq in his relations with Arab countries, moved to slove the territorial dispute, with Kuwait, Saudi Arabia and Jordan.(44) At the same time, Iraq proposed to send troops to Syria to confront zionist movement and expressed its readiness to host an Arab summit conference for consultation and agreement on "serious joint Arab steps" needed to overcome the "dangers of division and disintegration" within the Arab World.(45)

According to the Arab Ba'ath Party's principles, the Iraqi government issued a charter embodies Iraq's view of its own place in the Arab World and the foundation upon which Arab politics ought to be based. The principles of the charter are grounded in the premise that Iraq must not only be responsible for the defence of its own territory, but must also assume responsibility for the defence of the "Arab Nation's honour, principles, and Pan - Arab struggle".(46) Therefore Iraq must be willing to work with any Arab country in order to prevent the division of the Arab homeland by the superpowers.(47) The charter was not a plan of action against any Middle East country, including Iran. (48)

Also, during the dispute between South and North Yemen in which South Yemen forces supported by Soviet and Eastern European advisors, occupied part of North Yemen's territory, Iraq's effective mediation of this conflict defused the situation, particularly after the Iraqi government warned South Yemen saying:

> "I called you in to express my strong concern about your attitudes toward North Yemen. Unless you withdraw you will be facing the Iraqi army."(49)

In fact as a result of the above warning South Yemen withdrew its forces from the North. Furthermore, the Iraqis have announced the formation of a United front of all groups opposed to the Soviet supported Marxist regime of South Yemen with the intention of " Liberating South Yemen from the Communist agents and their Masters".(50) In March 1980 also, the Iraqi Government gave aid of about $ 300 million to the North Yemen

6. The Gulf War: Motives, Developments and the Great Powers Interventions.

As noted above, Great Powers in order to secure their interests in Third World areas, created a racial movements such as zionism, as well as borders problems like Shatt Al - Arab dispute. Also, we noticed earlier that, the origin of the Shatt Al - Arab dispute goes back to the Ottoman Empire, which prior to world war I controlled both sides of the river. This dispute led to war between Iraq and Iran since 1980.

One could mention here that, the conflict between Iran and Iraq represents a conflict of two diametrically opposed ideology On the one hand, Iraq adheres to an ideology that is basically secularist and nationalist, while Iran's claim as a religiously oriented ideology with a universalist doctrine. The ideology of the Arab Ba'ath socialist party is based on the idea that Arabs have always constituted a single nation despite the divisions that have characterized their modern history, coupled with a nostalgic notion of reviving the glory of the umayyad and Abbasid empires.(39)

Accordingly, the Arab Ba'ath party preoccupation with Palestine and the Arabian Gulf becomes understandable. For example, the political report of the Arab Ba'ath Party in the Eighth congress in 1974, drew a parallel between Palestine and the Gulf problem:

> "It saw the center of the conflict as a struggle between Arab nationalism on the one hand, and zionism and persian nationalism on the other hand, Iranian immigration to the Gulf region and Iran's occupation of the three Arab islands were seen as an imperialist Plot whose objectives was to " circumscribe centers of revolution, primarily Iraq, and to work for their enfeeblement and fall"(40)

The firm belief in Arab Unity puts Iraq in a direct conflict with what it seems as western imperialism, which created one problem in Palestine and is planning to create another in the Gulf. Therefore, and in order to face such problems, the Iraqi government followed many ways among which are (a) Internally, The Iraqi government has nationalized western oil interests in 1973 and reduced trade relations with some western European countries and USA replacing these by trading with countries considered friendly because they refused to support zionism in the wars of 1967 and 1973, such as France, Italy and Spain. (41)

On the other hand, to get more stability and to stop the foreign powers such as Iran, USA and Zionism intervening in its country,the Iraqi government seriously consedered the Kurdish question and tried to slove this problem in the Algiers agreement of 1975.

(b) Externally, the Iraqi government led by the Arab Ba'ath socialist party opposed and is still opposing to the recognition of zionism in Palestine.

Iraq's geographic location, population, resources base, industrial development, and the Algiers agreement of 1975 largely ended the Kurdish problem (eliminating an opportunity for external subversion), these points have permitted Iraqi government to play a more active role in Pan-Arab and Gulf affairs based on a policy of rapproachment and pragmatism within an ideological framework of Arab Nationalism.

It could be said that, the consolidation of the Iraqi internal position has coincided with

East region.[32]Military assistance programs and foreign military sales orders for the Middle East countries totalled about $ 398.8 million in 1967 and ten years later had increased fourteen fold to $ 5.7 billion.[33]

Under its foreign military program, the USA has also established and managed logistics systems built and supported military hospitals, schools, baracks, military headquarters as well as provided training for more than 4.500 Middle Eastern military personnel in the period of 1970s.[34]

Also, the French Arms Transfers to the Middle East area during 1966 - 1976 was about $ 544 million. This amount represented about 26 percent of her total Arms exports to Third World areas.[35]Despite the fact that definite data on annual British exports to the Middle East are not available, but for the ten years period as a whole, Britain transferred about $ 775 million in arms to that area. This amount represented about 33 percent of total arms transfer by all suppliers to the area.[36]

In the Soviet Union drive to weaken the position of the (NATO) pact in the Third World areas, arms aid has emerged as perhaps the most effective instrument in Moscow's diplomatic repertion. Between 1966 - 1975, the Middle East accounted for mearly 70 percent of total Soviet deliveries to the Third World areas, excluding, China, Cuba, North Korea and North Vietnam.[37]

Despite the fact that, the exact figures as I mentioned before are very difficult to calculate, the available figures make it clear that very large amount of capital have been spent by the Arab World on armaments. Also, it is worth to note that these figures have increased during the following decade very rapidly. If we take Saudi Arabia for example, we would find that its declared military spending has been increased very rapidly from $ 6.8 billion in 1979 to over $ 20 billion in 1980 or about $ 2,518 per capita. [38]

The nature of the Arab/Zionist movement confrontation along with the strategic importance of the Arab World, either from a geopolitical point of view or its oil and financial resources, in addition to the international confrontation between the Great Powers to dominate the area, make armaments dependency much more important than a purely economic relationship despite the importance of the economic aspects. It is a strategic relationship which tends to strengthen and widen this military dependency, which in the end plays an important role in changing the mutual Arab international unequal relationship into one of dominance and dependence. This dependency does not only have an economic side, but also has other aspects forming in the end an introduction to pressure to redirect developing countries' policies.

The net outcome of this dependency has its impact on the societies of the Middle Eastern countries in particular, and on the societies of Third World countries in general not only through their devoting high percentages of their national income to armaments, but also through the levels. Whenever we look now a days, we find local and regional conflicts around the Third World, the beneficiaries of which are no doubt the Great Powers.

During the past six years and so, unfortunately we have been witnessing the conflict between, two rich oil, muslim and neighbouring countries, namely, Iraq and Iran. This conflict made one asked: is there any relationship between this conflict and the Arab -Zionist one? or this has happened like any other conflict in the world?

In answering the above questions one must seek and look through the roots of this conflict and its developments. Therefore my attention will be concentrated in the following sections in the Gulf war: motives and its developments.

To put their aims in practice and to secure their interest, the Great Powers follows new ways and means in the Middle East conflicts.In what follows therefore I will shed some light in the direction of military and Economic dependency in the Middle East area, ways by which the Great Powers secure their interests.

4. The Great Powers Interests and the Middle East Conflict: The Direction of Military and Economic Dependency: Ways by which the Great Powers Secure their Interests in that area.

Every government in world society needs some sort of military establishment whose primary stated purpose has been protection of the population from external attack. Third world countries, with but few exceptions, individually, have never had the power to protect themselves from the military onslaught of stronger states. Thus weak states have traditionally been forced to seek assistance from more powerful states for their protection.

It is quite well to note that, protection against external military threat is not the only reason weak states seek military supply and assistance from Great Powers. In fact, it might be in some cases that some weaker governments seek military assistance for many purposes among which are: for offensive motive.* For example, the Zionist movement seeks and receives military support because of aggressive designs on Arab Lands, which are perceived to fit the interest of certain powers in keeping the Middle East under their own domination.

The fact is that, the circumstances in which the Arab world find itself today are similar to those of other developing countries. Having this in mind, one cannot look into Arab Military supply dependencies without taking account of military challenges from the occupying Zionist forces on the one hand and the international eagerness to control Arab resources, particularly oil, on the other hand.

At the start of this century, the Arab World was, and is still is indeed faced with pressures from colonialist countries. The area, as we mentioned earlier, was subject to European colonial occupation from the Atlantic Ocean in the West to the Gulf in the East. Now a days the Zionist movement has served as the direct instrument of Western Colonial strategy to dominate the Middle East area, hence creating the need for the Arab world to arm itself to face the quantity and quality of Arms guaranteed to the Zionist state by Western Powers,Particularly the United States of America.

The net outcome of this is necessarily the draining of Arab resources under continous military threat, and therefore helping Western military industries out of their current problems as well as affecting the international military dependency by the Arab world in particular, and the rest of the Third World countries in general, has military, strategic economic and financial effects.

Therefore, it is quite necessary, in order to analyze the Armament Dependency relationship, to look into the volume of military expenditures and Arms transfers to the Middle East countries after the establishment of the Zionist movement in Palestine, so called (Isreal). Therefore, in what follows I will shed some light on the Great Powers Arms transfers to the Middle East area.

5. Great Powers Arms Transfers to Middle East Area, 1966 - 1976:*

Given the fact that the Middle Eastern area has been and is still the Great Power's best Third World market. For example, during the period of 1966 - 1976, the USA transferred over $ 7 billion in Arms, ancillary support equipment, spare parts and services to the Middle

Also, following the 1958, revolution in Iraq, the United States of America, Iran and the Zionist movement supported the Kurdish movement, fighting against the Iraqi revolution in order to weaken Baghdad, Although Baghdad attempted to negotiate a settlement of the dispute soon after regaining power in 1968, the talks proved fruitless, and a series of border clashes began in 1972.(27)

After the construction of refineries in Abadan, close to the east coast of the Shatt Al-Arab, Iran extended its claims to the islands in the Gulf, immediately after Britain's declaration regarding its retreat from the zone, eastward of the Suez Canal.(28)In 1971, the Shah of Iran occupied the three islands in the Strait of Hormus, belonging to the United Arab Emirates, believing that he was to become the policeman of the Gulf.(29)Iraq was the only Arab country to protest against this annexation but this objection was not followed up by other Arab countries. (30)

Meanwhile, before the 1973 war with the zionist movement and the subsequent rapid rise in oil price, the Gulf - Peninsula sub region was insulated as well as conceptually discrete from the levant of the states in this sub region, only Iraq was also very active in the Arab - Zionist environment, and Iraq has historically vacillated in orientation and interest between West (the levant) and South.

The tension in the relation between the two countries continues until a climax was reached towards the beginning of 1975, after which both sides were brought to sign a border agreement,namely the Algerian agreement.

Despite the fact that, the Algier's agreement was not to be respected by the Iranian side any more than the proceeding ones.The relations between Iraq and Iran have deteriorated since the return of Khomeiny to Teharn and even before, as a study of each country's declarations will confirm. (31)

As we have seen the Great Powers interventions in the Middle East and the Gulf area, the question should be asked : what were the Great Powers motives and what were the considerations which induced the Great Powers Governments to involve in the Middle East region?

It may be said that, the Great Powers were moved - as the British did so as I mentioned before - by many motives and considerations among which were : Firstly, historical considerations; secondly, imperialistic one: and finally, Anti - Arab nationalism and Anti -Arab Unity.

The historical reason was that since the nineteenth century, the Middle Eastern region has been a constant target for the expansion of new European Empires. The powers always regarded that region as geostrategically and geopolitically important. Later, the Great Powers became more interested in the oil which was discovered mainly in significant quantities in the 1930s.

The imperialistic reason was and still that, in recent years, the presence of he Great Powers in the region has been connected to the need on the part of the regional states for various types of aid that only the Great Powers can supply, such as arms supply and other resources needed for the processes of modernization in the regional states.

Finally, and to control the Arab World, the Great Powers have created as an Anti -Arab Unity, a puppet regimes in the area, as well as the Great Powers have supported and are still doing so the Zionist movement against the Palestinian people. Such things among others has weakened the Arab Unity and made some Arab regimes dependent, economically, politically and military upon Great Powers themselves.

The first is the growing interests of Arab countries on the peripheries of the conflicts, i.e. Arab regimes have intervened actively at various junctures.Meanwhile, the increased number of interested Arab states and the diversity of their attitudes toward the direct participants in the conflict have enhanced the importance of the coalition factor in regional developments since the end to world war II.

The second fact is an international one by which the American government and France, immediately as Great Powers after the establishment of the Zionist state at Palestine were its main supports. Also, the Soviet Union presence and the fate of its alliance with regional powers is a further example of changes in the fortunes of Great Powers in the Middle East. He recognized the zionist state as an independent state in Palestine.

Thus, it was clear from the above mentioned points that, when it became clear that Britain's domination in the region was approaching its end after the second world war, the new super powers namely, the USA and USSR, were already competing for influence on the region, as well as on the Third World regions in general.

Also, the Arab - Zionist conflict has been as a conflict between two movements under the jurisdiction of the British mandate, the establishment of the Zionist state transformed the conflict between Jews and Arab mainly Palestinians into an interstate conflict between the Arab states on the one hand,and the Zionist movement supported by the (N.A.T.O.) pact on the other.

Violence between the two movements broke out on several occasions, 1921, 1929, 1933, 1936, 1939 and in 1947 - 1948 in what was called the Arab Revolt. Of course, the British government reacted by taking direct action against the Arab rebels and even cooperated with zionist forces to defeat the rebellion. Further more, since the inception of inter-communal conflict in Palestine, the balance of power shifted steadily in the favour of the Zionist movement. In the period between the end of world war I and 1936 for example, the Jewish Arab Population ratio grew from 1:9 to around 1:3 the total land owned by Jews during that period almost trippled. (25)

With development in international relations after the second world war, the British as I mentioned earlier, could not longer play her traditional role of a great power as she began her forced retreat from empire. The management of order in the international system shifted to the new emerging global powers, namely the USA, and the USSR. The new great powers in fact support for a Jewish state, and this has promoted a new structure in the conflict. For example USA mobilization of votes in the UN General Assembly to counter the Arab and even some communist bloc, and an American veto at the Security Council allowed the (Zionist) to maintain its position.(26)

However, after the 1967 war between the Arab regimes and the Zionist movement supported by the Great Powers, the conflict consisted of several factors among which are:

First, the Zionist state enjoyed superiority in the existing military balance of power, but it seems that not enough to dictate to the Arab national movement a negotiated peace agreement.

Secondly, with Egypt out of the military equation and Iraq engaged in its war with Iran, the zionist state policy - makers may have calculated that they had a free hand to destroy the PLO as well as to enforce Palestinian acceptance of existing structure.

To conclude, one could say here that, up to 1948, only one great power, Great Britain, was involved because of the particular nature of a pure intercommuned conflict that was almost exclusively within its domain. Since 1948 the involvementof France, the USA and the USSR have included diplomatic support, economic assistance,arms supply, and ultimately military threats and mutual deterrence about not direct military action. *

3. The Great Powers and the Middle East and the Gulf Conflicts: Historical Background and Developments.

One could say here that the roots of the Middle East and the Gulf confrontations discernible at the turn of the last century. The conflicts started with the simultaneous emergence of modern Zionist, Iranian and Arab nationalism and the attendant appearance of organized political movements. Each movements made initial progress in their struggle for political influence during the period when Turkey ruled the Middle East area, each aimed at achieving Ottoman Political support for its own movement.(20)

The fact is that, Britain's occupation of Palestine and its 1917 recognition of the right of the Jews to a national homeland in Palestine there institutionalized the Middle East conflict. While the tension in relation between Iraq and Iran in the modern history started and continued since the later occupied Arabistan in 1925.(21)

However, the government of Great Britain was moved in its recognition of the right of the Jews to a national homeland - as I mentioned before - by many considerations and motives among which were: Firstly: imperialistic motive and Secondly, political one.(22) The poliltical strategic reason which led Britain to issued the Balfour Declaration in 1917 against the Arabs was that she hoped to win over the powerful Zionist elements in Germany and Austria and to mitigate the hostility of Jews in allied countries towards Russia and give those Jews who had been active in overthrowing the Tsarist regime an incentive to keep Russia in the war and also to persuade the Jews to use their financial and political influence to bring the USA into the war on the side of the anti - German entente.

The imperialistic motive was that it had been first propounded by Kitchener, of securing Palestine or a Portion of it as a bulwark for the British position in Egypt, Iraq and an overland link with the East.(23)It was perhaps that these motives were the important ones and whatever role other considerations, whether religious or humanitarian may have played, there is no doubt that they sufficed by themselves to bring about the Balfour Declaration.

So and to put her motives in practice Great Britain supported the Arab's revolt against the Ottoman Empire, not to get their independence, but to control them, i.e. she did not want to give all the Arabs a single independent state, because she thought that a strong Arab state might be more dangerous to western interests in the Middle East than a strong Ottoman state.(24) Britain therefore divided the Arab world under the Sykes - Picot agreement with France on May 16th 1916. Indeed the outcome of the above agreement was that the Arab world was divided up between Britain and France.

Meanwhile, in the Gulf, after occupying Arabistan in 1925, the tension in relation as I mentioned before - between Iraq and Iran continued. But up to 1958, the boundry dispute between both countries was not esclated because the two countries participation in the Baghdad Pact prompted both to subordinate their boundary dispute to their broader purpose of the common defence of the two puppet regimes, dependent by Great Powers against radical Arab nationalism and an impending Soviet Policy in that area.

With the development of the Middle East and the Gulf conflicts during the past few decades, new actors have been added to the Middle Eastern imbroglio, and others have lost either the interests or the capability to intervence in the conflict.This facts are not only for regional actors, but particularly for international participants. It seems to me that, it is important to note two facts in connection with the regional participants.

Unfortunately, during the past few decades the world had witnessed many conflicts between some Third World countries such as the conflict between India and Pakistan, Mali and Upper Volta, Angola and Zaire, Ethiopia and Somalia etc. Further more, at the present time we are witnessing conflict between Iraq and Iran.(16)

One could conclude here that, the above most obvious of common problems of the weak states, particularly the conflicts between these weak and developing nations open the door to a direct and indirect interference in their independent decision making in times of hardship by the Great Powers and bloc states.

However, my attention will be concentrated in these area of concern in the Middle Eastern conflict and the Gulf. This will be done for a number of interrelated reasons, the most important of which are:

First, this regional conflict has acquired unique features which have served to differentiate it from other international conflicts in the period following world war II. Secondly, this conflict has a large number of direct and indirect regional and international participants and the issues involved have become multidimensional. Thirdly, the Great powers have regarded this region as a sensitive spot, which can easily explode and probably trigger a comprehensive war involving the Great powers. Finally, in the past, episodes of fighting have threatened the production and export of oil which has become vital to Western economics. Meanwhile, this conflicts has created other conflicts in this region, (see later).

According to the above view point, this section will deal with the Middle East and the Gulf conflicts and wars. But before I go further in this area, I could ask the following question: what are the motives and perceptions underlying entry into war or conflict? Could not they solve their problem in a peace way? In answering these questions, we should shed some light on the motives of war and conflicts.

2. The Motives of War and Conflict:

Some writers and scholars of international relations considered that, the motives that lead men to involve their states in war, or to place them on the road toward war, can be organized around many motivational and perceptual among which are: (1) war has been traced to a variety of economic or political goals, i.e. motive of imperialism, (2) Motive of gain, (3) Motive of Fear, and (4) Wars of Doctrine (17)

Theories of imperialism are based on an analysis of the capitalist system. For example, Lenin traced imperialism to an oversupply of Capital, and he asserting that imperialism would ultimately lead to major war between the great capitalist powers.(18) In the same view, Hobson considered that imperialism develops during a period of economic imbalance, in which there is an oversupply of both capital and goods in the capitalist power. Such an imbalance forces businessmen to seek outlets abroad, and since foreign investments and markets generally need protection, these businessmen prevail on their government to seize and administer the territories in which they are conducting their operations. (19)

Also, a number of motivational and perceptual factors have been cited by other scholars of international relations, each of which conceivably play a part in moving states toward war such as ideological differences, etc

However, whatever the motives of wars and conflicts are, it seems to me that it is not important merely to know the above motives of war without also knowing the motive of Britain in supporting the Zionist movement against the Palestinian People. Accordingly, in what follow our analysis will be concentrated in the Middle East area, i.e. the Middle East and the Gulf Conflicts.

However, the most obvious of common problems of the weak states are that they are poor (with some exception of course) and that the gap between them and the Great ones is widening. Secondly, most of the weak state or virtually all of them are going through the first phases of modernisation of their societies and are engaged in adapting their political institutions and values to the needs of social changes and economic growth. Hence, most of them, in varying degrees, are showing signs of political instability of one kind or another. A third common characteristic of the weak states is that an overwhelming majority of them have, till recently, been under the direct colonialism of western nations. Even those states which formally retained their independence were brought under an overtly† unequal relationship with one or more of the Great Powers.

Finally, most of the Third world states are relatively powerless and weak. Many of them are just not big enough to acquire military strength of any consequences, others are not technologically well-equipped to build up their forces on the basis of self-reliance. So, most of those Third World countries, i.e weak states which have set out to build up strong national defence forces have done so with the help of one or more of the Great Powers.(14)

To solve these problems and achieve development and to follow independent foreign policy, the Third World countries, need to adopt and follow: First, pursuit of political and economic independence by national leaders and national movements, because the country will not be able to achieve any appreciable level of development if itis still subject to external influence.

Secondly, government control, by this I mean, the government must adopt planning to achieve the desired level of development on the one hand, and the government role should not be merely to the extent of formulating the plan but also securing the implementation and monitoring of the plan by creating the necessary organization, with qualified personnel regulating and controlling the foreign trade sectors, controlling the banking system and credit facilities, and regularising and determining the participation of any permitted private sector in the economic development process etc. The government must do that because leaving such things to market forces would not be desirable, i.e. because such a policy would lead straight back to dependence and continued underdevelopment.

But it is known that the Third World countries' natural resources have been and are still dominated by the Great Powers multi-national corporations. Also, as I mentioned before for the foreseeable future and for the strategic interests of the Great Powers,they have created a number of problem borders as well as racial movements in some areas in the Third World countries. These problem borders as well as the racial movement which lead to wars and conflicts between Third World countries, will open the door to direct or indirect interference in their independent decision making in times of hardship by the Great Powers and bloc states. I could say that because as mentioned earlier that nearly all the weapons used in these conflicts have originated from the factories of the Great Powers.

Furthermore, these conflicts threaten the national security of developing countries, i.e. Weak States, because more often Great Powers find themselves drawn into Third World conflicts. Sometimes these Great Powers involvement may take the form of political, moral, and economic support and, at other times, of mililtary backing. The degree of Great Power involvement in some Third World conflicts and the extent of the danger of direct confrontation between the big powers corresponds to the degree to which they come to identify their interests with those of the parties involved in the local conflicts.(15)

but by foreign policy and internatonal relations.(3)

In the same view (Martin Wight) considered the study of international politics and states - system is important because, this science and system included the relationship between independent powers, and implies two conditions (4)

First, there are imdependent political units acknowledging no Political superior, and claiming to be ' sovereign , and secondly there are continuous and organized relations between them.

As far the independent political Units in the states - system, (C.A.Leeds) says, these units in their internal and external applications might be not subject to legal control by another state.(5)Internally, a state could be supreme power over citizens and subjects, and unrestrained by Law.(6)External sovereignty, as (Gottfried, W.Leibniz) argued, should be judged by a state's ability to survive in peace or war, by diplomacy or strategy.(7)

In addition to the above analysis of states-system, some writers pointedout, as the state is located in international states-system it must has some characters, such as interests, rights and duties of Nations. Moreover, it should work to achieve its Peoples' aims and interests, in an equal basis with other nations or states.(8)Such an entity must meet some criteria among of which are: (1) It must be an associations of people, (2) and these people must be politically organized, and must be capable of acting together, and (3) states is located on a definite territory. On the other hand, and to be a power, a state needs other elements such as, size of population, strategic positions and geographical extent, in addition to economic resources and industrial production, technological skill, administrative and financial efficiency and moral cohesion(9)

A quick glance over definition and position of the state in states-system advanced by some writers and scholars of international relations shows that, international society and states-system in theory, is only the tally of sovereign states. But in practice, could we say that all the states member in the states-system are working as a sovereign and independent states particularly with developments in international relations?

The fact is that the states member in the states-system should deal first in their foreign policy with the preservation of their independence and security and second with the pursuit and protection of their other interests such as economic, social, political interests and the likewise(10)Deeply involved with these interests, the states in the states-system are a concern with resisting any penetration and manipulation by other nations.(11)

Accordingly, states tend to try to maximize their power in order to prevent others from being in a position to influence others when they perceive the need. To do so, the states follow that in different approaches and ways. These deferentations some times have generated some heated controversies, and divided the international system as (Johan Galtung) has described it as analogous to a feudal system. At the top are a few powerful countries, which he calls, disarmingly the 'topdog nations Ranked in order of descending power under each of them are different groups of countries he calls 'underdog nations.' Galtung also considered these underdog states will remain weak and the topdog states will remain the most powerful(12)Despite the fact that the international states-system, i.e. world society is divided and contains great powers and weak ones, but it is not necessarily that weak states will remain weak and the great ones will remain very powerful. Because historically it has not been true that very powerful states remain very powerful. Meanwhile, it is not necessarily true that weak states remain part of a particular power system even when the leading state in that system is at, or near, the highest of its power.(13)

-colonies and dependent territories in Third World countries.

Meanwhile,and to dominate these areas of Third World countries, and for the strategic interests of the Great Powers themselves and also for the foreseeable future it seems likely that the Great Powers created many problems among which are (1) racial movements, such as Zionism, (2) Created borders issues and problems, and finally; (3) they created a puppet regimes" and also will remain intensely interested in the type of governments pursue, in areas of special concern to themselves". Great Powers have therefore taken the view that their security interests can be safeguarded only if they are in a position to control the type of government that comes to power in particular areas.

This means that some areas may be seen as important to the interests of Great Powers. The Middle East for example, is essential to the interest of West Europe and the United States of America because of their dependence on Middle East oil, as well as of U.S.A and other European Countries links with the Zionist movement.

On the other hand, the Middle East is important also to the Soviet Union because it almost adjoins the USSR's own borders. (1) So, to control and dominate the Middle East area, the Great Powers have - as I mentioned before - created the Zionist States in Palestine, the so called (Israel).

It is in the light of the above that this study seeks to present some of the new ways and means followed by Great Powers to dominate or to lead Third World countries, such as being involved in the latter's conflicts and military supply. Areas through which independent decision making in Third World countries can be threatened in time of hardshi , and therefore the political independence given to certain countries after a military struggle may be controlled even after such military action is done away with.

It is not intended to say here that these are the only areas of importance in this respect, but wars, conflicts and Arms supply are central problems, which affect most other aspects of international relations. One of the goals of this paper is to analyze the way by which the Great Powers lead and dominate the weak one in international relations. The first section of this paper discusses these characteristics of the States - System, i.e. the principles of international relations. Within the framework we will then examine the motive of wars as well as the impact of the Great Powers on the evolution of some Third World conflicts,in the following sections. The Middle East conflicts and the Direction of Military and economic Dependency, ways by which the Great Powers secure their intersts in that area points will be discussed in sections four and five. Finally we will shed some light on the Gulf conflict, followed by Great Powers interests in weak states military supply and ties.

1. The States - System: The Principles of International Relations:

One could generally say that the theoretical justification for the new state in the states -system and its power goes back to the social contract advanced by, Hobbes, Locke and Russue. But before we go further in this point we can stop and ask the following question: why do we study states - system or world society?

According to scholars and writers of international relations, we study world society and international politics, simply because we are a member of a society which is member of world society. (2) Karl Deutsch, advanced other argument saying that: "International relations is that area of human action," ....and added......"the study of international relations in our time is an introduction to the art of and science of the survival of mankind. If civilization is killed within the next thirty years, it will not be killed by famine or plague,

GREAT POWERS STRATEGY AND THIRD WORLD CONFLICTS: THE CASE OF THE MIDDLE EAST AND THE GULF

By

DR. GHAZI SALEH NAHAR

B.A. (Military Science) Jordan, B.A., (Politic, Scie. Baghdad) M.A. and Ph.D,(Keele University England) Visiting Fellow Exeter and Oxford Universities, England.

Member of Staff of International studies Department, Al Mustansiriyah University, Baghdad -Iraq. Research fellowship at the Middle East Technical University, Ankara, Turkey, on the Exchange Program between the Ministry of Education of Turkey and Iraq, at the period from April to November 1986.

TO THE MEMORY OF THOSE WHO LOSE THEIR LIVES

IN DEFENDING THE ARAB NATION

Great Powers Strategy and Third World Conflicts: the case of the Middle East and the Gulf

INTRODUCTION

It is well known fact that, a few decades ago a direct military interference in order to subjugate Third World countries was the principal means used by the Great Powers to control others. For example, after the first world war,the Imperial European countries dominated when they were at their most power, a large proportion of Third World countries for many reasons or purposes, most obvious of which were the extraction of raw materials to supply their imperialistic economy at that time and to extend their power both politically and militarly to the widest area possible in the world. The result of this policy was that at the end of the second world war, there were a large number of colonies, semi

السياسي الناجح قارئ واعٍ للتاريخ ملم بأحداثه.

عرض الرسائل الجامعية

تطورات واتجاهات السياسة الداخلية التركية
١٩٢٣ ـ ١٩٢٨

تاليف: قاسم خلف عاصي الجميلي
عرض: محمد رشيد عبود الراوي

ان دراسة التطورات والاتجاهات السياسية الداخلية في الدولة التركية المعاصرة مابين عامي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٨ تنطوي وبلاشك على أهمية استثنائية وذلك لأعتبارات جغرافية وتاريخية وسياسية متداخلة ومتفاعلة لعبت دورها المؤثر في صياغة القيمة الاستراتيجية للدولة التركية، ولذلك فإن تحديد مستوى وطبيعة العلاقات القائمة بينها وبين دول العالم، اضافة الى اسهامها البناء في تقرير الشكل النهائي للنظام السياسي التركي واتجاهاته العامة داخلياً وخارجياً. وهنا فأن اهم ما يمكن ملاحظته على تركيا جغرافيا انها وان لم تقع تماماً في آسيا واوربا لكنها وما تزال تمثل بالنسبة لهاتين القارتين حلقة وصل ونقطة حدود بينهما، وفي هذا الوضع فان تركيا قد اثرت وتأثرت بالاحداث في كل من اوربا والشرق الاوسط خلال حقب تاريخية متلاحقة وللدلالة على اهمية موقع تركيا الجيوستراتيجي للمصالح الحيوية للقوى الكبرى تكفي الاشارة الى تصريح الرئيس الامريكي روزفلت بهذا الخصوص في ٣ كانون الاول ١٩٤١ اكد فيه على ان الدفاع عن تركيا امر حيوي للدفاع عن الولايات المتحدة وهنا اشارة واضحة الى هذا الموقع الحيوي الذي ترسمه الخارطة التركية باعتبارها الجناح الشمالي والشمالي الشرقي للوطن العربي لذلك فان الفترة المعنية بالبحث هنا تمثل ثبتا زاخرا بمنجزات واحداث لانغالي اذا قلنا بانها بالغة التأثير وذات مساس مباشر فيما يتعلق بتثبيت هوية النظام التركي، وللتأكيد على ذلك فان اهم مايلاحظ على هذا النظام ومؤسساته منذ اقامة الجمهورية التركية وحتى اعلان علمانية الدستور فان ملامحه العامة قد اتضحت واستقر تقريبا بناؤه العقائدي كما تحددت اتجاهاته الرئسية الى مدى معين.

لقد توزعت الرسالة على اربعة فصول رئسية، حاول الباحث في الفصل الاول التمهيدي منها تقديم صورة مركزة عن الموقع الجيوستراتيجي وأثره في تعرض تركيا لبعض المداخلات في فترات زمنية متعاقبة مع استعراض عام للاوضاع التي مرت بها تركيا بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة، بدأ بهزيمة الاتحاديين وما اعقبها من احتلال اجنبي لاجزاء من الاراضي التركية ومروراً بظروف نمو وتطور الحركة الوطنية التركية وحرب الاستقلال وقرار الغاء السلطنة، ثم انتهاء بمعاهدة لوزان للسلام التي وضعت حدا فاصلا لمرحلة متكاملة من النضال الوطني التحريري الذي خاضه الشعب التركي وقيادته الوطنية ضد قوى الاحتلال الاجنبي حيث يشكل كل ماسبق ذكره اساساً مهماً لفهم التطورات السياسية الداخلية والاتجاهات السياسية الداخلية في تركيا للفترة اللاحقة.

في حين بحث الفصل الثاني من الرسالة التطورات السياسية الداخلية التي شهدتها تركيا في الفترة مابين ١٩٢٣ ــ ١٩٢٥، والمتضمنة احداثا لها ثقلها في تحديد وتثبيت طبيعة واتجاهات النظام السياسي التركي في عشرينات هذا القرن، والتي تتمثل في تاسيس حزب الشعب الجمهوري (في ٩ ايلول ١٩٢٣) والغاء الخلافة والمؤسسات الدينية (٣ اذار ١٩٢٤) وانتخابات المجلس الوطنى التركى الكبير الثاني (١ نيبسان ١٩٢٣) واعلان دستور تركيا لعام ١٩٢٤ (في ٢٠ نيسان ١٩٢٤)

ويعالج الفصل الثالث الحركات القومية والأحزاب السياسيةالمعارضة لنظام الحكم في تركيا، وقد تم من خلاله عرض ابرز الدوافع العامة لتصاعد حركة المعارضة ضد هذا النظام منذ عام ١٩٢٥، مع التركيز على دراسة الحركات المسلمة التي قام بها الاكراد في تركيا عامى ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ وذلك لما ترتب عليها من اثار سياسية واقتصادية واجتماعية على الصعيد الداخلي وما رافقها من ملابسات ومداخلات على الصعيد الخارجي، كما تطرق الفصل الثالث ايضا الى بقية قوى المعارضة الاخرى مثل حزب الترقي الجمهوري والنشاط الشيوعي.

اما الفصل الرابع فقد تناول انتخابات المجلس الوطنى التركي الكبير الثالث (ايلول ١٩٢٧)، والمؤتمر الثاني لحزب الشعب الجمهوري (١٥ تشرين الاول ١٩٢٧)، واهم المبادئ التى تقررت فيه الجمهورية والقومية والشعبية والعلمانية، اذ تمثل جميعها مفردات حيوية لايمكن فهم تاريخ تركيا المعاصر من دونها فضلا عن ذلك خصص في هذا الفصل ايضا مكان التي من خلاله الضوء على مواقع غاية في الاهمية كالاتجاه نحو الغرب في تركيا قبل وبعد اعلان الجمهورية، وكذلك مسألة تطبيق الديمقراطية الغربية فيها.

ان هذه الدراسة رغم ما اعتمدته من مصادر ومراجع مهمة فانها تبقى بحاجة الى مصادر وثائقية اساسية من ارشيفها الرسمي الخاص لو سمحت الفرصة للباحث الحصول عليها لجاءت الدراسة اكثر علمية، ومع ذلك فان هذا البحث يعد اضافة الى المكتبة العراقية وهي بحاجة ماسة اليه.

ميناء البصرة
دراسة تاريخية ١٩١٥ ـ ١٩٥٦

اعداد: طالب جاسم محمد الغريب
عرض: كفاح كاظم الخزعاب

ان هذا البحث هو رسالة ماجستير حصل بها الباحث على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من كلية الآداب / جامعة البصرة في شباط ١٩٨٤.

يؤكد الباحث، ان الدراسات التي سبقته تناولت هذه المؤسسة (الميناء) بجوانب مجتزأة كدراسة قضايا العمال في الميناء، والنقل في شط العرب وجغرافية الميناء، والجانب الاقتصادي في اطار اقتصاديات الموانى العراقية، لذا يعتبر الباحث دراسته محاولة اولى لدراسة ميناء البصرة، فدراسته استكمال للنواحي السياسية في تاريخ العراق لأن مؤسسه الميناء ارتبطت في نشأتها وطبيعة الخدمات التي كانت تقدمها للاستعمار البريطاني الذي حرص على ابقائها تحت نفوذه لخدمة مصالحه الاستراتيجية سواء الاقتصادية منها او العسكرية.
ولقد ضم البحث بين دفتيه، تمهيداً وخمسة فصول رئيسية، وخاتمة وعدد من الملاحق.

تناول التمهيد الاهمية الجغرافية والاقتصادية والسياسية لموقع البصرة ومؤثرات تلك المزايا وانعكاساتها بالنسبة للمصالح البريطانية في تأسيس قاعدة تعبوية لخدمة مصالحها العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية.

اما الفصل الاول فقد تناول المنشأت والمرافق في تلك القاعدة منذ بداية تأسيسها على ايدي القوات البريطانية المحتلة للعراق، وما ادخلته قوات الاحتلال من توسع وتطور في مرافق الميناء مؤكداً على ارتباط هذا التوسع بتحقيق الاهداف البريطانية. كما تناول الفصل، التطور الاداري الذي صاحب التوسع في مرافق الميناء، وتشكيل اول لجنة استشارية للميناء، والتغيرات التي صاحبت تشكيل هذه اللجنة حتى انتهاء مهمتها. وتقصى الفصل ذاته محاولة تعريف الميناء منذ تعيين اول عراقي فيه كاشفاً الاسباب التي دفعت ادارة الميناء الى الاعتماد على بعض العراقيين في تولي رئاسة بعض الاقسام الادارية في الميناء.

اما الفصل الثاني فقد تطرق الى دراسة مشروع (حفر سد الفاو) واهميته بالنسبة الى بريطانيا لاحكام سيطرتها على مدخل شط العرب، وتتبع علاقة المشروع بأعمال شركة النفط البريطانية الفارسية، فضلا عن علاقته بتطور

الميناء، وتعرض الى اهم المحاولات التي اجريت عام ١٨٢٥ حتى عام ١٩١٩ لمسح شط العرب وتتبع المحاولات البريطانية لتأسيس ادارة مستقلة تأخذ على عاتقها حفر المدخل، وكشف عن المراسلات بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية وشركة النفط البريطانية الفارسية حول اعمال الحفر مع الاشارة الى التوسع الذي ادخل على المشروع بعد التنفيذ والتغيرات التى طرأت على مدخل شط العرب وحفر قناة جديدة فيه، وايضاح موقف ادارة الميناء من اشتراك بعض الشركات البريطانية في تنفيذ هذه العملية، وموقف الحكومة العراقية من ذلك.

وخصص الفصل الثالث لدراسة المحاولات الاولى لتشغيل العراقيين عمالا في الميناء باعتبارها الخطوة المتممة لتطور الميناء، مبيناً العلاقة ما بين انشاء المرافق وتوسيعها من جهة وبين استغلال العمال من قبل الادارة في توسيع هذه المرافق من جهة اخرى، كما تتبع الفصل تطور وعي العمال السياسي وبدايات اتجاهاتهم الوطنية وتحركهم السياسي ضد ادارة الميناء مع التعرض الى تأسيس اول نقابة لهم. متطرقا الى دورهم النضالي من اجل تحسين ظروفهم، واسهامهم مع الحركات الوطنية في فضح مخططات الاستعمار واساليبه اذ كانت دائرة الميناء تشكل ابرز رموزه.

وقد تناول الفصل الرابع بعض النواحي السياسية والاقتصادية لادارة الميناء حيث تتبع الاجور والعوائد والرسوم التي فرضتها ادارة الميناء وتذبذبها بين آونة وآخرى واسباب هذا التذبذب. كما تعرض الفصل الى المشاريع الخدمية التي قامت بتنفيذها ادارة الميناء مع التأكيد على مشروع الكهرباء وماء البصرة، كما تتبع موقف ادارة الميناء من تنفيذ المشاريع التي تسهم في تطور الاقتصاد العراقي.

اما الفصل الخامس فقد اهتم بدراسة العلاقات الدبلوماسية بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية حول نقل ملكية الميناء مع الاشارة الى الظروف التي استجدت خلال مناقشة قضية الميناء في مجلس الوزراء في اطار المفاوضات العراقية البريطانية والمناقشات التي جرت في المجلس التأسيسي للميناء وموقف المعارضة منه.

وفي الخاتمة، ذكر الباحث اهم النتائج التى توصل اليها في بحثه، منها، ان ميناء البصرة كان مؤسسة بريطانية من حيث التنظيم والادارة، انشئ لخدمة المصالح البريطانية في العراق بصورة خاصة والمنطقة المجاورة بصورة عامة. ويرى الباحث ان الغرض من تأسيسه عام ١٩١٥ ليكون قاعدة حربية، ونقطة انطلاق للحملة العسكرية البريطانية لاحتلال العراق خلال الحرب العالمية الاولى.

وعلى الرغم من تحوله الى ميناء تجاري بعد ذلك، الا انه ظل قاعدة عسكرية في مخططات السياسية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية باعتباره مركزاً لتمويل الجبهة الشرقية والاتحاد السوفيتي بما تحتاجه من مؤن عسكرية خاصة بعد سيطرة المانيا على منافذ البحر المتوسط الحيوية. لهذا فأن التوسعات التي طرأت على مرافق الميناء، قد تركزت في الفترة الممتدة من سنة ١٩١٥ الى ١٩١٧، والفترة بين سنة ١٩٤١ الى سنة ١٩٤٥، اي سنوات الحربين العالميتين الاولى والثانية في حين لم تشهد الفترة التى تخللت الحربين الا توسعات ضئيلة جداً قياساً بالفترة السابقة .

اعتمد البحث على مصادر متنوعة، وهذا اعطى البحث اهمية خاصة، فكانت الوثائق العمود الفقري لبحثه، وخاصة غير المنشورة المتعلقة بأرشيف ميناء البصرة وتشمل التقارير الادارية ومرسلات الميناء، يضاف الى ذلك وثائق المركز الوطني لحفظ الوثائق في بغداد. كما استقى الباحث معلوماته من الوثائق الرسمية المنشورة العربية والاجنبية والمخطوطات والمراجع والدوريات العربية والاجنبية والصحف والمقابلات الشخصية لمعاصري الاحداث.

من كل ذلك، نستطيع القول، ان البحث اضافة مهمة للمكتبة التاريخية.

* * * * * * * * *

مدارس مدينة تونس
من العهد الحفصي الى العهد الحسيني
(القرن السابع هـ/ الثالث عشر م
الثالث عشر هـ/التاسع عشر م)

د. محمد الباجي بن مامي

ان اهتمامي بتاريخ مدينة تونس وعمارتها، يرجع الى عدة سنوات مضت، اذ كنت اتساءل دوما عن اسباب عدم الاهتمام بتاريخ مدينة تونس، في حين أن مدن المشرق لقيت حظها من الدرس. ففي كل مرة حاولت فيها الاطلاع على بعض النقاط التي تهم هذه المدينة، والتي يمكن ان توضح ماغمض من النواحي الثقافية والمعمارية والفنية، واجهتني عدة نقاط استفهام، اذ أنه رغم توفر بعض الدراسات التي تهم تاريخها السياسي والثقافي خاصة، فإن بعض الجوانب الاخرى، خصوصا منها ما يهم الفن والمعمار، بقيت مجهولة نوعا ما، وهو نفس ماحدث بالنسبة لأغلب مدن المغرب الاسلامي. وهكذا فان اختياري دراسة المدارس التي تمثل احدى العناصر المكونة لرصيد مدينة تونس التاريخي والحضاري، أردته مساهمة في القاء المزيد من الاضواء على التاريخ العام لمدينة تونس العتيقة.

وبودي قبل كل شئ التعريف بمفهوم كلمة مدرسة وأصلها. فاقدم نص نجد فيه كلمة مدرسة هو في قصيدة لدعبل بن علي الخزاعي (٢٤٦هـ / ٨٦٠م) رثى فيها أهل البيت.

كما أحصى وستنفيلد أقدم النصوص التي نجد فيها كلمة مدرسة ولاحظ بمعية ريبيرا بأن شافعية خراسان هم الاوائل الذين استعملوا هذه الكلمة (أواخر القرن الرابع هـ ./ العاشر م) بمفهومها الحالي.

إذن كلمة مدرسة ترجع الى القرن الرابع هـ / العاشر م، وهي آتية من فعل دارس، أى تعلم. وعلى هذا الاساس فالمدرسة هى المكان الذي يقع فيه التدريس، الاان وظيفتها لاتتمثل في الدراسة فقط، فالمدرسة قامت بمهام هامة جدة، اهمها الوظيفة السكنية، اذ ان جل القادمين للدراسة من خارج المدينة ينتمون في غالب الأحيان الى طبقة ضعيفة الحال لايمكن لها توفير معلوم الكراء بسهولة، وهذه الخدمة كونت الفارق الاساسي بين المدرسة والجامع. ولولاها لما استطاع العديد من الطلبة مزاولة التعليم والاخذ عن علماء عصرهم في

تونس.

ومن الغلط أن نعد التدريس مثل وظيفة المدرسة الاساسية، اذ ان المسجد كان بامكانه تحقيق هذه الوظيفة بمفرده، اذن فان غرف الطلبة هي التي شكلت العنصر الرئيسي الذي كيف نظام المدرسة، والا لما كانت الحاجة تدعو الى تأسيسها.

ونظرا الى أن أول مدرسة أسست حوالى سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م فإن الدراسة انطلقت من هذا التاريخ وانتهت الى اواسط القرن الثالث عشر هـ / التاسع عشر م، اذ توقفت انذاك المهمة التعليمية بالمدارس، وانفرد جامع الزيتونة وفروعه بهذه المهمة بينما اقتصرت مهمة المدارس على رواية الحديث.

ومن الطبيعي ان عملا كهذا يحتوى على جانب تاريخي واخر معماري، لذلك تطرقت الى صنفين من البحث:

أ: القسم الاول تاريخي، ويحتوي على تسعة ابواب تغتني ب:

١. التعليم قبل نشأة المدارس.
٢. نشأة المدارس وانتشارها.
٣. المدرسة، مهامها وعلاقتها بالنظام الحاكم.
٤. المذاهب الفقهية وتأثيرها في نوعية الدراسة.
٥. الدراسة ومواردها.
٦. الشيوخ والطلبة.
٧. العوامل التي ساهمت في نشر المدارس.
٨. الفترات التي مرت بها مدينة تونس وارتباط انشاء المدارس بها.
٩. موقع المدارس، تصميمها والتأثيرات الفنية التي شهدتها.

وقد حرصت في هذا الباب على الاعتماد على كل المصادر التي من شأنها أن تلقي بعض الضوء على هذه النقاط، وهكذا التجأت الى كل من كتب التاريخ العام، وكتب الطبقات والفهارس والرحلات ومصنفات الفقه والفتاوي، وكذلك وثائق الارشيف، التي كان لكل صنف منها اهميته لتوضيح هذه النقطة او تلك.

ب: القسم الثاني فيمثل دراسات احادية (Monographies) لكل معلم، تطرقت فيها الى كل ما يهم المدرسة:

ــ المؤسس، وتاريخ التأسيس، وموقع المدرسة، والمدرسون والطلبة، والاوقاف، والترميمات ــ ثم بعد ذلك اهتميت بنواحيها الفنية والمعمارية، المتمثلة بصفة عامة في المداخل والسقفية والصحن والغرف والمسجد الخ...

وان اختياري لهذا التصميم املته عليّ نوعية الدراسة، اذ تشتمل في قسمها الاول على جانب تاريخي عام، يهم المدارس كمؤسسة وكنمط تعليمي وسكني خاص، الى غير ذلك من النقاط الهامة التي كان يحسن التطرق اليها بطريقة تأليفية (Synthetipue) وأعني بذلك جمع وتحليل كل المعلومات التي تفيدنا بها المصادر حول نشأة المدارس وانتشارها، وسير التعليم والحياة اليومية بها.

اما قسمها الثاني، ففيه أفردت لكل مدرسة وتعتبر تكملة للمعلومات الواردة في القسم الاول.

ولم يخل هذا العمل من المصاعب وقد تمثلت خاصة في محدودية المعلومات التي تتضمنها المصادر حول الموضوع، وعدم التمكن من النفاذ الى البعض منها لاستغلالها على أحسن وجه، وهنا أعني خاصة وثائق الارشيف الموجودة قرب ميناء مدينة تونس.

فمن البديهي أن الموضوع لم تتطرق اليه المصادر مباشرة وبطريقة مسهبة، لذلك، كان على أن أجمع الاشارات المتفرقة خصوصا بالنسبة لكتب الفقه والفتاوى التي لايزال أغلبها مخطوطا، ولكن مثل هذا العمل، رغم طوله، أفرز في النهاية مقدارا لابأس به من المعلومات في خصوص العديد من النقاط.

واتضح لي من خلال هذه الدراسة أن مدارس مدينة تونس تنقسم الى قسمين: مدارس ذات طابع رسمي، وأخرى يمكن ان ننعتها بكونها خاصة أو حرة: فالاولى أسست من قبل اشخاص ينتمون الى النظام الحاكم كالسلاطين والأمراء والأميرات والدايات والبايات، أما الثانية فهي مؤسسة من قبل بعض الخواص، من بينهم بعض المتصوفين وقواد الجيش وغيرهم، وان كانت علاقة الصنف

الاول وطيدة بالنظام الحاكم، فللثانية حرية شبه مطلقة. كما اتضح لي أنه كان للمدارس الرسمية أهمية أكبر، اذ كان يعين بها أهم علماء العصر، وكانت تحبس عليها أوقافا هامة لم تكن تتمتع بها المدارس الخاصة، وبذلك بلغ المستوى العلمي للبعض منها، درجة عالية، فاقت بعض الاحيان مستوى التعليم في الكثير من الجوامع. كما أن الفرق بين المدارس الرسمية والحرة لم تقف عند هذا الحد، اذ يوجد فارق جذري آخر يتعلق بالناحية الفنية والمعمارية، إذ أن الاشخاص المنتمون الى النظام الحاكم، كانوا من الثراء بمكان مما سمح لهم بالتالق في زخرفة مدارسهم وتجميلها، هذا عكس ما كان يحصل للخواص الذين خلت جل مدارسهم من كل زخرف، وكانت في أغلب الاحيان على قدر كبير من البساطة.

ونظرا لانتشار المذهب المالكي بافريقية، فإن مدارس مدينة تونس حبست خلال الفترة الحفصية على هذا المذهب فقط، وتواصلت سيطرته على المدارس حتى قدوم الأتراك العثمانيين، واولى نتائج قدومهم هي محاولة بث المذهب الحنفي، واعتبروا أن نشره لايكون الا عن طريق المدارس التي يعين فيها أساتذة موالين لهم، إلا أن أكثر المدارس حبست على الطلبة المالكيين، وهي تفوق بكثير عدد المدارس الحنفية.

ومدارس تونس كلها أحادية أي على مذهب واحد ماعدا المدرسة الطابعية والمدرسة الحسينية الكبرى اللتين جمعتا المذهب المالكي والمذهب الحنفي في آن واحد وهي تختلف في هذه النقطة عن مدارس الشرق، فلتشعب المذاهب هناك، وجدت مدارس، منها التي كانت مفردة لمذهب من المذاهب الاربعة، لمذهبين، او ثلاثة أو أربعة مذاهب في نفس الوقت.

والى جانب هذا توجد ايضا فوارق بين المدارس المؤسسة في الفترة الحفصية من ناحية، والمدارس المؤسسة خلال الفترة المرادية ثم الحسينية من ناحية اخرى، وهذه الفوارق تشمل خاصة المساحة، وطريقة البناء. كما ان الناحية الفنية المتمثلة في الزخارف عرفت خلال الفترة الحسينية العديد من العناصر الجديدة التي تمثلت في تأثيرات مختلفة قدمت من تركيا وايطاليا وغيرهم من البلدان.

كما ان الاختلافات بين مدرسة واخرى تتمثل في عدة نقاط: فرغم أن التصميم الهندسي متقارب نوعا ما، فان المساحات والابعاد تختلف بين المدرسة والاخرى، ولاتنتهي الفوارق عند هذا الحد، فالعناصر المكونة لكل مدرسة من سقفية وصحن وغرف الى غير ذلك، تختلف في عدة نقاط من معلم الى اخر.

وقد اتسم تصميم مدارس مدينة تونس ببساطته اذ لكل مدرسة نجد صحنا تختلف مساحته حسب كبر أو صغر المدرسة، ويحيط به في الكثير من الاحيان من جهاته الأربع أروقة. وفي العادة، تمتد غرف الطلاب على ثلاثة جوانب من الصحن أما الجهة الرابعة فيتصدرها المسجد. وفي زاوية من زاويا المدرسة نجد عنصرا هاما لاتستغني عنه أي مدرسة، وهو ما يعبر عنه بالمصالح، المتمثلة في المراحيض والميضات. كما أضيفت خلال الفترة التركية عنصران هامان جلبا من المشرق: وهما السبيل ومدفن مؤسس المدرسة أو ــ التربة ــ

ورغم أن نفس الطرق استعملت لبناء وتصميم المدارس سواء كان ذلك بالمشرق أو المغرب، فإن الشكل والمحتوى يختلفان اختلافا تاماً عبر أقسام العالم الاسلامي اذ اتسم تصميم مدارس مدينة تونس كما لاحظنا بالبساطة، وهو عكس ما عليه الامر بالنسبة لاغلب مدارس المشرق الاسلامي والمغرب الاقصى. فإن كانت المدارس بهذه الأصقاع تحتوى على طابقين، فان مثال الشماعية بمدينة تونس فريد من نوعه خلال الفترة الحفصية وكذلك الشأن بالنسبة للمدرسة المرادية والحسينية الكبرى، خلال الفترتين المرادية والحسينية. ونتيجة لهذه الفوارق وغيرها، المتمثلة خاصة في النواحي الفنية والزخرفية، فإنه من الصعب القيام بمقارنة جدية بين مدارس مدينة تونس، والمدارس بالمشرق والمغرب الاقصى نظرا لانعدام نقط التشابه بينها في أغلب النواحي.

وقد كان لبعض المباني الدينية كالمسجد

والزاوية والرباط، وكذلك المدنية كالمنازل، تأثير عميق على تصميم المدرسة التونسية، فلبعض هذه المدارس تشابه مع دور مدينة تونس، من ذلك مثلا الجاسوسية والمرجانية والعنقية وغيرها.

وان كانت المدارس الأولى قد بنيت قرب الجامع الأعظم، فقد بنيت العديد من المدارس بعيدا عنه، وذلك انطلاقا من القرن الثامن هـ / الرابع عشر م، نتيجة لاكتظاظ الابنية حول الزيتونة، وذلك لما لهذا المعلم من أهمية لدى الخاصة والعامة.

ومما لاحظناه أن مصادر التأثيرات الفنية كانت مختلفة، ومن أهمها التأثيرات الاندلسية والمغربية وكذلك المصرية، ثم التركية والايطالية، لكن رغم تعدد مصادر هذه التأثيرات، فإن العنصر المحلي كان له دور لايستهان به، فالفنان التونسي، استطاع التوفيق بين العناصر الفنية والمعمارية المحلية والعناصر الاخرى القادمة من خارج البلاد، فنتج عن هذا الامتزاج فن افريقي بحت اعطى للبلاد نوعا من الشخصية الذي يميزها عن البلدان الاخرى.

لقد لقيت الحركة التعليمية اهتماماً واقبالا ملحوظاً لدى المدارس التونسية وكان الاقبال متزايداً على العلوم الانسانية والدينية كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ والفرائض، أما العلوم العلمية فلم تلق من العلماء والطلبة الا اهتماماً محدوداً.

إلا أنه لم يوجد جمود في محتوى التعليم، والتغيير في الكتب المُدَرَّسَة يدل على شئ من الحركية في صلب مواد التعليم وفي محتواها عبر العصور.

لكنه من الراجح أن المهمة التعليمية للمدارس توقفت في أواسط القرن الثالث عشر هـ /التاسع عشر م نتيجة للجمود الذي اتسمت به طريقة التدريس إذ نلاحظ انه لم تدخل عليها تحويلات جوهرية طيلة القرون الفاصلة بين تأسيس أول مدرسة بالبلاد وسنة ١٢٥٨هـ /١٨٤٢م حيث ظهرت بعض الاصلاحات الجذرية التي أدخلها احمد باشا باي على التعليم بصفة عامة، بينما عرفت المصنفات المدرسية بعض التغييرات والاضافات عبر القرون مما يدل على شئ من الحركية في صلب مواد التعليم.

مما لاحظناه ايضا أن انشاء المدارس، ارتبط ارتباطا وثيقا بالحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تكون عليها البلاد في مختلف الفترات. فاذا ما كانت الفترة متسمة بالرخاء والازدهار، تكون انذاك الحظوظ اوفر لانشاء مدرسة او أكثر، وان كانت الفترة تطغى عليها الاوبئة والمجاعات والحروب يكون من الصعب اقامة أي معلم.

ومن خلال نص اورده ابن ناجي التنوخي في كتابه «معالم الايمان» يتبين لنا أن الطالب كان يلاقي مصاعب عديدة، تتعلق خصوصا بالناحية المادية الا أن هذه المعطيات التي تهم القرن السابع هد/ الثالث عشر م قد تغيرت بعد ذلك اذ ساهمت المنح المرصودة للطلبة بقسط وافر في إزالة العديد من هذه المصاعب، لكن رغم تواجد هذه المنح، فلدينا أمثلة عديدة لطلبة سكنوا المدارس، واضطروا للعمل حتى يسدوا رمقهم، وهذا دليل على ان الاوقاف المحبسة على المدارس لم تكن دائما كافية لمد الطلبة بكل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية، أو أن التصرف فيها لم يكن دائما بطريقة نزيهة، اذ أن البعض من الموكلين على الأحباس بصفة عامة، استغلوا مناصبهم للاستحواذ على قسط من الاموال.

وعلى كل من المؤكد أن المدرسة وفرت فرصا للطلبة القادمين من خارج العاصمة، لم تكن تتوفر لهم لولا تواجد هذا النوع من المؤسسات.

ويتضح لنا عند الاطلاع على تراجم شيوخ المدارس، ان الكثير منهم كان لهم مستوى علمي لايستهان به. كما ان البعض منهم استطاع جمع ثروات ضخمة، ولهذا تهافت الكثير من العلماء على منصب التدريس بالمدارس.

لكن استغلالي لوثائق الارشيف لم يكن على الوجه الذي تمنيته وذلك للاسباب التالية :

فاهم الاحباس التي تهم المدارس توجد حاليا بمحل منفرد، غير ان الحالة العامة لهذا المحل وطريقة حفظ الوثائق لاتسمح باستغلالها بصفة معمقة

لذلك اكتفيت بالاطلاع على جل الاحباس بصفة جميلية، نظرا لعددها الهائل، وانوى القيام بهذا العمل عن طريق مجموعة من الابحاث ساتولى انجازها قريبا.

كما ان صاحبة المدرسة الحسينية الصغرى التي شوهت معالم المدرسة وقسمتها الى ثلاث منازل مستقلة بنفسها، منعتني من الدخول، لذا لم استطع رسم تصميم المدرسة، ولم اتمكن من وصف نواحيها الفنية والمعمارية، فكانت دراستي لها تاريخية بحتة، وأملي كبير ان يقع في القريب العاجل تجاوز مثل هذه العوائق المادية والبشرية التي تعرقل السير الطبيعي للابحاث.

كما انني قمت باحصاء جميع سكان المدارس، اذ ان أغلب مدارس مدينة تونس، مستعملة حاليا لاسكان بعض العائلات، وهي مشكلة اساسية، اذ ان بعض هؤلاء قد غيروا وجه العديد من المدارس، فازالوا بعض نقاطها او اضافوا اليها بعض الجوانب التي لم تكن تحتوى عليها، وعسى ان تساهم هذه الدراسة في الفات النظر الى الحالة التي تردت فيها المدارس والتي تنذر في كثير من الحالات بالطمس والاندثار، ولاشك في ان انقادها سيبرز من جديد قيمتها الاثرية ودورها الحضاري، وفعلا قامت منذ فترة قصيرة جمعية صيانة مدينة تونس والمعهد القومي للاثار والفنون بترميم بعض هذه المدارس، وتم توظيفها: كمدرسة النخلة (التي أصبحت مدرسة لتعليم القرآن الكريم) وكذلك المدرسة المرادية التي تدرس فيها بعض الحرف المهددة بالتلاشي، والمدرسة العاشورية التي اصبحت مقر الجمعيات الثقافية والمدرسة السليمانية التي خصصت لجمعيات الاطباء. وآخر هذه المدارس المرممة هي الشماعية.

ان الحاضر لايكرر الماضي وإنما قد يتشابه معه، وإن مهمة المؤرخ أن يعرف ويحدد أوجه التشابه والاختلاف وأن يوظف ذلك لرسم طريق المستقبل.

الحروب الصليبية
بدايات الأستعمار الأوربي

رسالة مقدمة الى عمادة كلية الاداب
جامعة الموصل
وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير آداب في التاريخ الاسلامي

قدمها الطالب: راغب حامد عبد الله في عام ١٩٨٣
عرض: معتز محي عبد الحميد

أحتوت الرسالة على اربعة فصول في دراسة الحركة الصليبية قدمت في الفصل الأول أستعراضا لأهم الآراء التي دارت حول طبيعة الحركة الصليبية ودوافعها في ضوء الأوضاع العامة للقرب الأوربي باعتباره موطن هذه الحركات فتناول الباحث الدافع الديني من خلال الدور الذي أضطلعت به البابوية في روما ومحاولتها فرض سيادتها على العالم المسيحي آنذاك. وبين علاقتها مع السلطات الزمنية وبالأخص مع الأمبراطورية الجرمانية والأمبراطورية البيزنطية ومسألة أستغاثة الأخيرة بالقرب الأوربي لدرء الخطر السلجوقي، كذلك تأثير الكنسية في حياة الفرد الأوربي وأثر الحجج في الدعوة الى الحركة الصليبية. أما الدافع السياسي والاجتماعي الذي شكل بدوره دافعا آخر للمجتمع الاوربي للمساهمة في هذه الحركة فقد ركز الباحث فيه على دراسة النظم الأقطاعية السائدة آنذاك واثارها الأجتماعية والسياسية التي كانت تلحق ضررا كبيرا بحياة الفرد أضافة الى ظهور الرومان كقوة فتية مؤثرة في حياة المجتمع الأوربي، وفي بحث آخر تناول المؤلف دراسة الدافع الاقتصادي من حيث الاوضاع المعاشية الصعبة للفرد الاوربي وكذلك دور المدن التجارية التي كانت تحاول فرض هيمنتها على منافذ التجارة العالمية آنذاك أضافة الى ما كانت تشكله المنطقة العربية من أهمية أقتصادية بالنسبة لأوروبا آنذاك.

الفصل الثاني ..أشار المؤلف فيه للغزو الاستعماري للمنطقة العربية ودرس الاوضاع السياسية للمنطقة آنذاك باعتبارها العامل الرئيسي في تسهيل مهمة الغزو الصليبي ثم أوضح العناصر الاستعمارية للدعوة الى الحركة مبيناً ذلك من الخطب وتشكيلية الصليبية وموقف بيزنطه منها ثم النوازع الاستعمارية لقادتها وماترتب عليها من تأسيس المستعمرات الصليبية في الرها وأنطاكية والقدس.

الفصل الثالث...درس فيه المؤلف سياسة الصليبيين في المنطقة العربية التي أرتكزت على ثلاثة محاور أساسية وهي السياسة الاستيطانية ثم السياسة الاقطاعية وذلك من خلال نظم الحكم التي أقاموها وعلاقاتهم بسكان المنطقة والقوى العسكرية التي أعتمدوها في إحكام سيطرتهم، وقد أفرد الباحث لسياستهم التوسعية حيزاً واسعاً من الدراسة بأعتبارها أحدى الوسائل التي كشفت عن مطامعهم في المنطقة وأتجاهات هذا التوسع سواء أكان في بلاد الشام أم في مصر والبحر الاحمر أم في شمال افريقيا موضحا الدوافع التي كانت تقف وراء سياسة التوسع هذه.

الفصل الرابع...خصصه الباحث لتأثيرات هذه الحروب على المنطقة العربية وأوربا وركز البحث على التأثيرات السياسية والاقتصادية لهذه الحركة على المنطقة العربية من خلال توضيح أبعاد المقاومة العربية وما تمخض عن ذلك من تغيرات سياسية، أما في مجال تأثيراتها على أوروبا فقد أوضح الباحث التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي حصلت فيها بفعل هذه الحروب.

أعتمد الباحث في كتابة رسالته على عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والاجنبية ولاحظ المؤلف على أن معظم المصادر العربية التي عاصرت الحروب الصليبية قد ركزت على الجانب الحربي والسياسي دون الاهتمام بالجوانب الاخرى التي تتعلق بسياسة ونظم الصليبيين في المنطقة.

«نضال العرب من أجل الاستقلال في سورية الطبيعية بين الحربين»

الدكتور : جهاد صالح العمر

ملخص لاطروحة الدكتوراه باللغة العربية

تتناول الاطروحة بالبحث مسائل مهمة لاتقتصر على سورية بمفهومنا الحالي الضيق وانما تشمل تلك الرقعة الجغرافية بمفهومنا الاوسع (سوريا، لبنان، فلسطين، وشرق الاردن). تنقسم الدراسة الى اربعة فصول مع مقدمة. يبحث الفصل الاول الظروف الاقتصادية لسوريا الطبيعية فيذكر ان المنطقة من حيث الجوهر كانت حتى اواخر القرن التاسع عشر تسودها العلاقات الاقطاعية، الا انه نتيجة للتغلغل الاجنبي، وخصوصا البريطاني منه، فقد شرع باكتساح البلدان ذات الانتاج السلعي وخصوصا في السوق السورية، والرأسمال الاجنبي المتدفق ساعد الزراعة المحلية لتغدو منتجا «سلعيا»، وبدأت عملية التخصص الانتاجي،وهكذا نجد ان سورية الداخلية قد تخصصت بشكل رئيس في انتاج الاقطان والحبوب والاصواف، بينما تخصص لبنان في انتاج الحرير ويتضح من التحليل بأنه على الرغم من كل ذلك فلم يواكب الانتاج السلعي انتشار قوى للرأسمالية، ومن بين الأمور التي اسهمت في ذلك دور البنوك الاجنبية في سورية وقد اقتصرت على دعم التجارة مع الخارج ولم تمد يد العون الى تنميه القوى الاقتصادية المحلية، ولذا فقد غدا الفلاح تابعا الى السوق الرأسمالية العالمية، الا انه بقي في الوقت نفسه على حاله السابق والارتباط بمالك الارض.

اما الفصل الثاني فيشمل الظروف الاجتماعية والاقتصادية وكذلك يشمل التاريخ السياسي لشرق الاردن حيث ان الارث البدوى يعتبر الاقوى من نوعه حتى اليوم، وتورد الاطروحة بان العقبة الرئيسية في وجه التطور جاءت نتيجة للضرائب المضاعفة التي تحتم على المنتج المباشر دفعها لكل من القبيلة، والاقطاعى مالك الارض، والسلطات العثمانية، اى انه اقتصاد مزدوج الطابع ومتميز، فقد تعايشت الشروط شبه الاقطاعية مع الشروط المميزة للمجتمع القبلي. وتتحدث الاطروحة عن اقدام القبائل على تأجير اراضيها للفلاحين بينما تستمر علاقات الملكية القبلية مستمرة في اطار القبيلة، وعلى الرغم من التطور للعلاقات الطبقية الا ان روابط الدم والاسرة والقبيلة والدين ماتزال تلعب دورا «حاسما» في حياة المجتمع.

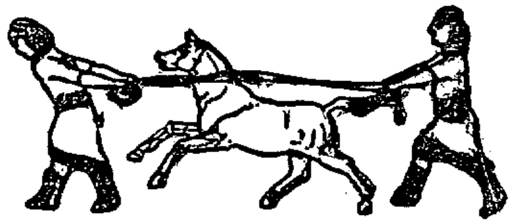
يتناول الفصل الثالث بالبحث القومية العربية من حيث مصادرها وتشكيلها وسيرتها والافكار الرئيسية التي تتسم بها، ويلقي الضوء على التنظيمات السياسية في تلك الفترة وخاصة عصبة العمل القومى التي كان لها تأثير كبير في بث الروح القومية بين الشباب في تلك الفترة، كما تناول بعض الشخصيات القومية مثل ساطع الحصرى وهو أحد ابرز منظرى القومية العربية، وان لم يكن اكثر المنظرين أصالة، ثم تناول بالبحث حزب البعث العربي الاشتراكي والمقالات الاولية التي كتبت فاستعرض دور حزب البعث في محاربة الاستعمار الفرنسي في سوريا مستنداً على الوثائق (البيانات) التي كان الحزب يصدرها.

اما الفصل الرابع من الاطروحة فانه يتضمن استعراضاً مجملا لسيرة احداث المنطقة وخاصة حركة التحرر العربية والاحزاب التي كانت في تلك الفترة الزمنية.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

تعريف ببعض الكتب

الرياضة بدأت في وادي الرافدين



تأليف.. طارق الناصري
عرض : معتز محي عبد الحميد

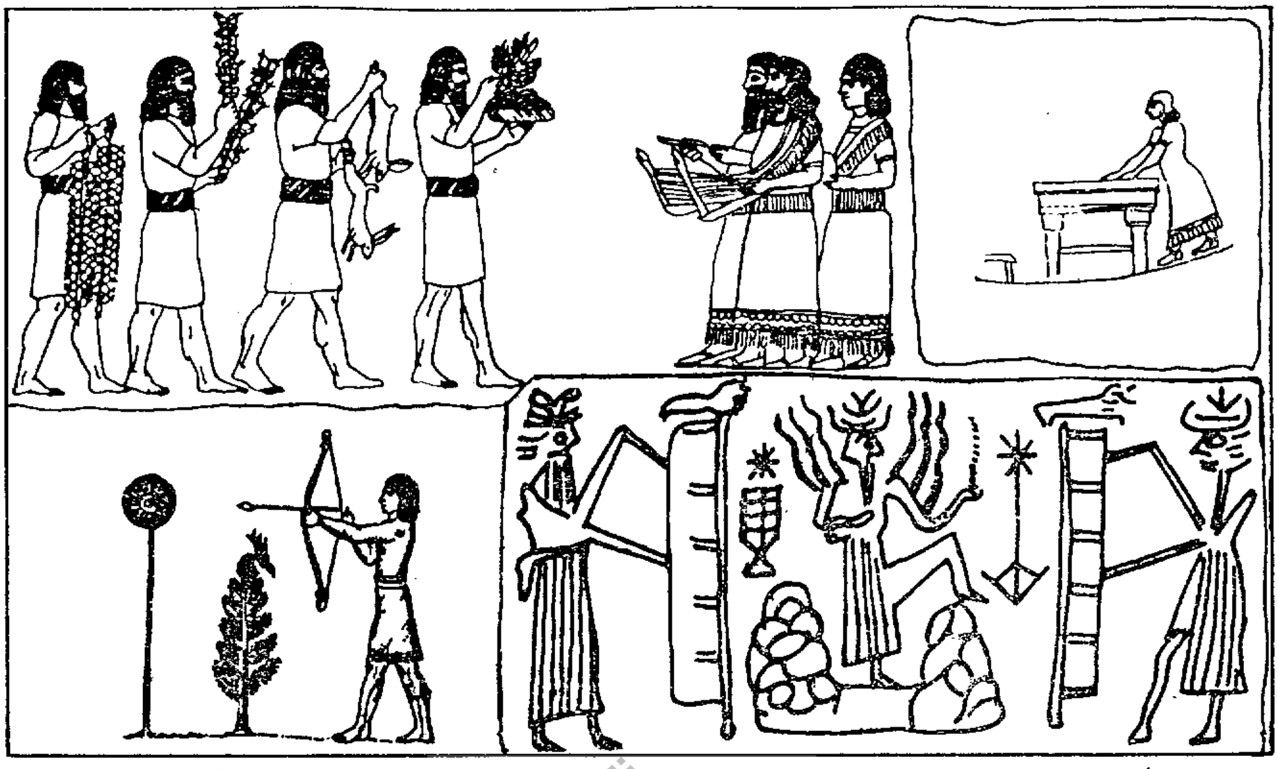
مثلما بدأت الكتابة في الوركاء، كما يجمع عليه الباحثون والمؤرخون الذين سجلوا ورصدوا تاريخ الحضارات في العالم القديم، كذلك بدئ القضاء في هذا البلد، وأنشئت المكتبات الاولى وعرفت المشاريع الأروائية وأبتكرت فنون الرسم والنحت والعمران والرياضة كظاهرة حضارية نجد أصولها في وادى الرافدين. فمن هنا أنطلقت لتعم العالم القديم بأسره ولتواصل مسيرتها عقب القرون والأجيال حتى تصل الى ماوصلت اليه في يومنا هذا من رفعة وأزدهار، والكتاب جاء دراسة وثائقية يستقرئ النصوص المسمارية ويحاول التوصل من خلال ماحملت عبر السنوات الى معلومات هامة تصحح الكثير من الاراء التي بقيت راسخة في الفكر عالقة ببطون الكتب، لقد آن للقارئ أن يعرف الحقيقة ليلمس من خلالها الروح الرياضية السائدة من آلآف السنين في بلاد مابين الرافدين.

خير شاهد للمؤلف على آرائه وهو يستنطق ما أخرجته الحفريات وما ضمته المدونات والرقوم الطينية من أخبار وأشعار وتهاليل الى الآلهه تلك الآثار التي بقيت صامته حقباً مظلمة من عمر الزمان وآن لها اليوم أن تجلى ليعرف العراقي في يومه ماكان عليه أجداده في أمسهم الضارب في أعماق القدم.

لقد حملت الآثار والتماثيل وقصة الخليقة وصراع جلجامش وأنكيدو وصراع الانسان والحيوان ومهرجانات الصيد والطرد صفات بارزة لما كانت عليه فنون الرياضة في هذا الوادى من عهده السحيق، ولقد أحسنت دار القادسية الأختيار حين جعلت من الغلاف الأول صورة ناطقة لمحتواه. وفي هذه الدراسة التاريخية الموثقة من النصوص ما يصحح الكثير من الآراء ويقوم نظرات تاريخية ظلت سائدة على شكلها الخاطئ طوال سنين عدة ، ولعل هذا الكتاب من جملة الدراسات السابقة على موضوعها أذ أن الكثيرين من الكتاب الذين عكفوا على تسجيل تاريخ الحضارات التي سادت ثم بادت في وادي الرافدين لم يلتفتوا الى هذه الناحية الحضارية التي تجمع بين الصحة والفن وتقويم الأبدان.

وفي الوقت الذي يكون القارئ فيه مع مؤلفه في صعوبة الموضوع لقلة الكتابات التي تناولته فأنه سيجد سهوله ذلك من خلال كثرة المدونات التي أبقت عليها الأيام، فأبقت لأجيالنا صورا خالدة من السباحة

والركض وصيد الحيوان والتجديف بالقوارب والقفز العالي والطفر العريض وحمل مشاعل النيران والركض بها مسافات غاية في البعد.



وحتى التماثيل التي بقيت مفخره للشعب العراقي الى يومنا هذا جاء ت ناطقة من خلال ماأبرزه النحاتون فيها من عضلات بارزة وأكتاف ضخمة ورؤوس مرتفعة وهامات عالية وحركات رياضية في حالات المصارعة وحمل الأثقال ورمي السهام وتصويب الهدف البعيد. ومن عهد نبوخذ نصر وليث عشتار وآروكا جينا وحمورابي نجد ان الرياضة أتخذت تسلية في ساحات الملوك وأثناء الأحتفالات والأستعراضات في أعياد الآلهه، وكان الملوك يثنون بالجوائز المالية الثمينة الغالية للمتفوقين منهم، بل أن عقيدتهم في ذاتها كانت تحمل طابعا رياضيا رغم ماتنطوي عليه من وثنية، فالقوي هو الذي نفخت فيه الآلهه من روحها، والأقوياء الأشداء من المصارعين والعدائين هم الذين يتم أنتخابهم لحراسة بوابات المدن والحراسات الخاصة.

وكان الملوك ربما لجأوا الى رياضة نعتبرها اليوم بعيدة عن الروح الأنسانية وهي مصارعة الأنسان والحيوان، حيث كثيرا مايقع الأنسان فريسة الحيوان ويذهب ضحية مخالبه وأنيابه، ولقد عرفت في أنهار دجلة والفرات رياضات كثيرة لم تعرفها البيئة الصحراوية لجزيرة العرب ولكن عرفتها شطآن بلاد الرافدين وهناك موسوعات عالمية لورجع اليها الأستاذ المؤلف لخرج منها بحصيلة واسعة من المعلومات بأمكانه أضافتها الى ماتوصل اليه من جهد، وهو جهد مشكور لاسيما أذا علمنا أن الذين كتبوا في هذاالباب كانوا من القلة بحيث يمكن تعدادهم بأصابع اليد.

لقد أستطاع الأستاذ المؤلف أن يستفيد من الشواهد والأثار التي أخرجتها حضارات السومريين والبابليين والآكاديين والأشوريين وهي محاولة تحتاج الى الصبر والدقة والتثبت ومعرفة المناخ الذي سادت فيه هذه الحركات في زمانها ثم نقشت بعد ذلك على شكل أعمال فنية قد يكون القائم بها قد عملها عن غير قصد لتوثيق الحركة الرياضية في وادى الرافدين، أنه جهد مثمر وصفحات تدل على مالقيه المؤلف من تعب وهو يجمع أجزاء بحثه هذا الذي عهدت دار القادسية مشكورة بمراجعته الى الدكتور سامي الأحمد لذلك أتسم هذا العمل بالنجاح المطلوب.

تطور الدبلوماسية عند العرب

تأليف : الدكتور سهيل حسين الفتلاوى
عرض : معتز محي عبد الحميد

اصطلاح الدبلوماسية الذى جعله الدكتور المؤلف عنواناً لكتابه هذا هو مانعني به فن تمثيل الدول واجراء المفاوضات بواسطة أجهزة اطلق عليها بالبعثات الدبلوماسية التي تتألف من عدد من الاشخاص يطلق عليهم بالمبعوثين الدبلوماسيين يقومون بمهمة تمثيل دولتهم واجراء المفاوضات نيابة عنها، وتنقسم البعثات الدبلوماسية الى نوعين:البعثات الدبلوماسية الدائمة: وهي تتولى تمثيل دولها في الدولة المعتمدة بها بصورة دائمة وهي مايطلق عليها بالسفارات والبعثات الدبلوماسية الخاصة، وهي تلك التي ترسلها الدولة الى دولة اخرى لغرض معين مؤقت ويطلق عليها الوفود الدوليه. ولم يستخدم مصطلح (الدبلوماسية) لدى العرب الافي وقت متأخر من تاريخهم حيث كانوا يستخدمون تعابير متعددة منها: السياسة، الكياسة، الاخلاق، اما مصطلح المبعوث الدبلوماسي فقد اطلقوا عليه تعبير رسول وسفير ومستأمن، فالرسول والسفير بمنزلة واحدة، في حين ان المستأمن يعني الرسول الاجنبي القادم من (دار حرب) الى دولة الاسلام وقد اطلقوا على البعثة الدبلوماسية تسميات: رسل سفارة، وفد، بعثة، كما استخدم العرب مصطلح (قنصل) كما هو رغم انه مصطلح لاتيني، لذا فقد ظهرت المفاهيم الدبلوماسية عند العرب منذ القدم اذ حفلت الحضارة العربية بالنظم السياسية المتطورة على مختلف العصور، والكتاب يتناول ذلك كله من خلال اربعة فصول:

الفصل الاول : تطور الدبلوماسية عند العرب قبل الاسلام، كان الرسول كما اشارت التحريات الاثرية ... الود والاحترام اثناء ادائه مهمته بصورة لم تألفها المجتمعات الغربية القديمة وفي العصور الوسطى، بل تم العثو... عام ٩٦٨ على وثيقة في احافير (تل حرمل) مكتوبة بالخط المسماري البابلي تضمنت حق المرأة في تولي وظيفة سفير (مارشيوم) وتفيد بأن السومرين والاكديين كانوا اقدم الامم في تخطيط السياسة الخارجية وفي تل العمارنة عثر على قوائم الهدايا المتبادلة بين ملوك مصر وملوك العراق وتبادل السفراء والرسل بصورة مستمرة وعقد زواج سياسي بينهم بقصد زيادة العلاقات الدبلوماسية. ومما ساعد على تطور القواعد الدبلوماسية لدى الدويلات التي سكنت الوطن العربي هو دخول هذه الدويلات الى مسرح التجارة العالمية لان البحث عن اسواق دولية لتصريف المنتوجات الزراعية والصناعية يتطلب ضمان طرق المواصلات وتأمين القوافل والاتصال بالدول المعنية، وهو امر يتطلب عقد اتفاقات دولية بواسطة ارسال مبعوثين لهذا الغرض، وقد اهتم العرب قبل ظهور الاسلام بالرسل ومنحهم الامان والرعاية الكاملة وتشير الموارد العراقية القديمة التي تعود الى ماقبل التاريخ الميلادى وفي الموارد اليونانية واللاتينية ان اتصالات دبلوماسية كانت تجرى بين ملوك جزيرة العرب والعراق وبين ملوك الروم، واعتبر العرب

الرسول مرآة قومه يفصح عن مكانها ويجلي عنها غبار اعدائها ويمكن استجلاء ذلك من خلال قراءة النصيحة التي قدمها النعمان بن المنذر ملك الحيرة الى الوفد العربي الذى ارسله الى احدى الدول، ولقد عقدت قريش عدة احلاف مع المدن االاخرى الموجودة في الحجاز فكانت صلتها قوية مع مكة والطائف تجمع بينها روابط قوية من المصالح المشتركة كما اهتمت قريش اهتماماً كبيرا بتوطيد العلاقات الدولية مع الدول المجاوزة كالدولة الساسانية والبيزنطية والحبشة لعقد الاتفاقيات التجارية بينها وبين السلطة في مكة قبل الاسلام، وكانت مكة مركزا تجاريا وحلقة الوصل بين اليمن والحبشة وبيزنطية والفرس والصين والعراق...

الفصل الثاني : الدبلوماسية عند العرب بعد الاسلام، اعتمد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الدبلوماسية كوسيلة مهمة في نشر الدين الاسلامى الحنيف فاستخدم الرسل لهذا الغرض كما اولى اهتمامه بالرسل الاجانب الموفدين اليه فكان يستقبلهم ويكرمهم، والشخصية تلعب دوراً مهما في الدبلوماسية حيث ان مواهب الشخص وثقافته لها اثر بالغ في التأثير على المقابل فقد كان رسول الله يتمتع بمواهب فذة نادرة، اذ كانت له فراسة قوية وشخصية نفاذة واطلاع واسع وكان خطيباً مفوها وحكيما وبليغا ملما بالتاريخ، وحكم وبلاغة العرب تشهد بذلك دقة التعابير الجزلة في احاديثه البليغة ورسائله والمعاهدات التي ابرمها مفعمة بالحجة ساطعة البيان، وقد كان ارجح الناس عقلا وافضلهم رأيا، لين الجانب سهل الخلق وكان عنده القريب والبعيد والقوي والضعيف في الحق سواء، ان استثمار هذه المثل حقق النجاحات الباهرة واعتبر تجربة تاريخية رائدة للامة العربية في عصر تكونها كأمة لها اصولها التاريخية المشرقة، وكان من نتيجة الاهتمام بالرسل والاعتماد عليهم في نشر الدين الاس لامي الى مناطق متعددة من العالم ان اصبح مصطلح الرسول يحتل مكانة خاصة عند المسلمين بحيث اطلق هذا المصطلح على الانبياء باعتبارهم رسل الله الى البشر يحملون الرسالة السماوية الى اهل الارض ويرى المستشرق (نولدكه) ان جهود وخطط النبي الكريم كانت ترمي الى ميادين اوسع من حدود الجزيرة العربية، وعلى الرغم من عداء دولتي الفرس والروم للاسلام فقد كان النبي كريما معهما الى ابعد حدود الكرم وفي سنة ٦٣٠ _ ٦٣١م استقبل العديد من الرسل الاجانب لذا سميت بسنة الوفود. ولقد اتبع الخلفاء الراشدون سيرة النبي عليه السلام في الاعتماد على الرسل في نشر الدين الاسلامي لاسيما وانهم كانوا رسل النبي الى الاقوام الاخرى. وفي عهد الدولة الاموية ازدهرت العلاقات الدولية بينها وبين الشرق وبخاصة الصين ولم تمنعهم حالة الحرب من اللجوء الى الدبلوماسية لحل الكثير من القضايا والمشاكل الدخلية، ولما قامت الدولة العباسية عام ٧٥٠م تطورت الدبلوماسية في ظلها تطورا كبيرا واقيمت علاقات متطورة مع جميع الدول وخاصة المسيحية منها، وكان اساس هذه العلاقات تبادل السفراء وكانت اجمل مواكب الزينة في الدولة العباسية واظهار هيبتها هي مواكب استقبال الوفود الاجنبية حين تفد الى الدولة العباسية من الملوك والامراء المعاصرين لها كوفود الهند والروم والفرنجة...

الفصل الثالث : الحصانة الدبلوماسية عند العرب، لقد أقرت الاعراف القبلية عند العرب ان يمنح الرسول الامان بمجرد ان يدخل الدولة العربية ويتمتع بالحماية اللازمة له التي تسمح له بان يؤدي مهمته، وقد برع فقهاء الشريعة الاسلامية في تنظيم القواعد التي تمنح الرسول الامان والحقوق والامتيازات التي يتمتع بها المستأمن الذي يأتي الدولة الاسلامية. وجرت العادة ان يرافق الرسول الاجنبي عامل خاص منذ دخوله ارض العرب المسلمين وان يستقبل بحفاوة ومراسيم خاصة تفوق كثيرا المراسيم التي يستقبل بها رسل المسلمين الى الدول الاجنبية، وعندما يدخل الرسول العاصمة الاسلامية بغداد يدخلها في موكب يجتاز الشوارع ويصطف الجنود له ويطاف على القصور والاماكن المهمة وتغدق عليه الهدايا بسخاء اكراما لمنزلته عند المسلمين ويحق للرسل الاجانب الرواح والمجي داخل الاراضي الاسلامية بحرية تامة وفي اي وقت يشاؤن وبالنسبة للرسول فقد ذهب فقهاء الشريعة الاسلامية الى ان مدة اقامتهم تكون مطلقة وغير محددة ويجوز للمستأمن ان يقيم في دار الاسلام مهما كانت المدة لغرض انجاز مهمته وقد اقر العرب المسلمين اعفاء الرسول من التكاليف التي تفرض على المسلمين، فلايجوز تكليفه بدفع ما هو

مفروض على المسلمين كالخمس والزكاة والجهاد لانه ليس مسلما ولايجوز تكليفه بدفع الجزية التي تفرض على الذميين لان وجوده في دار العرب بصفة عارضة ينتهي بانتهاء المهمة المكلف بها. ويتمتع الرسول بالصيانة الشخصية فلايجوز الترض له، ويلزم رئيس الدولة بتوفير حمايته من اى انتهاك وضمان تمتعه بحرية العقيدة واداء اعماله بحرية تامة، فلايجوز قتله او اسره او استراقاقه او التعرض لامواله، لقد اصبحت حماية شخصية الرسول من المبادئ المسلم بها عند العرب وذهب الفقهاء الى اكثر من ذلك فاجازوا اعانه الرسول ومساعدته والانفاق عليه من بيت المال، لان الاحسان مطلوب من كل انسان. وذهب الامام ابوحنيفة الى ان جرائم الحدود والقصاص لايخضع لها الرسل.

الفصل الرابع : الدبلوماسية في الوطن العربي بعد الاحتلال الاجنبي، تناول المؤلف ثلاثة عهود ضمن الاحتلال المغولي ثم العثماني ثم الاوربي لارض العرب حيث ان التطور الذي شهده الوطن العربي في المفاهيم الدبلوماسية خلال الفترات السابقة لم يتواصل وذلك لتوالي النكسات على ارض العرب ولقد تأثرت المفاهيم الدبلوماسية تبعا لتباين انظمة الحكم التي تولت السلطة منذ اجتياح المغول وسقوط الدولة العباسية سنة ١٢٥٨م وحتى الحرب العالمية الاولى، حيث اصبح الوطن العربي تحت سيطرة الدولتين بريطانيا وفرنسا. واستطاع المؤلف في دراسته هذه ان يثبت كون العرب اول من عرف القواعد الدبلوماسية في علاقاتهم الدولية فهم المصدر الرئيسي للقانون الدبلوماسي الذي يطبق في الوقت الحاضر بل ان البعض من القواعد الدبلوماسية التي عرفها العرب لم تطبق لحد الان بسبب عدم امكان المجتمع الدولي المعاصر من استيعابها واختلاف النزعات الدولية، ولقد ساهم العرب قبل ظهور الاسلام في تطوير العلاقات الدبلوماسية بالنظر لوقوع اراضيهم بين دول متعددة ولانهم يعرفون مسالك الصحراء وطرق مراكز التجارة فأمنوا طرق المرور للقوافل والرسل وهيأوا سبل الامان لهم... لقد استخدم العرب الرسل في حل المنازعات الحدودية مع الدول المجاورة كما استخدموا الرسل للوساطة والمساعي الحميدة لحل المنازعات الناشئة بين الدول الاخرى واستقبلوا الرسل في وقتي السلم والحرب وعرفوا درجات المبعوثين.

سياسة بريطانيا في عسير اثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨

تأليف الدكتور فاروق عثمان اباظة

عرض د. حسين محمد القهواتي
اتحاد المؤرخين العرب

من منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، عام ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م كتاب سياسة بريطانيا في عسير اثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨، لمؤلفه الدكتور فاروق عثمان اباظة، الذي تتبع في كتابه القيم هذا، معتمدا على الوثائق البريطانية والمصادر الاولية، تطور مركز العثمانين والبريطانين في منطقة البحر الاحمر منذ مطلع العصور الحديثة وحتي قبيل اندلاع الحرب الاولى، ليوضح طبيعة الصراع العثماني البريطاني في اقليم عسير في بداية تلك الحرب، وليسلط الضوء على سياسة بريطانيا في الاقليم خلال سنوات الحرب. ومن اجل ذلك قسم الدراسة الى تسعة مباحث تناول في المبحث الاول موضوع تطور مركز العثمانيين والبريطانيين في منطقة البحر الاحمر قبل الحرب العالمية الاولى، وفي المبحث الثاني تطرق الى موقف العرب من الصراع العثماني البريطاني في مطلع الحرب، وفي المبحث الثالث تناول ظهور الادارسة وتطور حركتهم في عسير وتحدث عن نسب الادارسة وعن مؤسس البيت الادريسي السيد احمد بن ادريس المغربي وكيف وصل الى مكة عام ١٧٩٩ ووضح انتقاله الى اليمن واستقراره في «صبيا» التابعة لاشراف ابي عريش واستيطانها، وبعد تفاصيل دقيقة يتوصل الباحث الى ان علاقة الايطاليين بالادريس بعد نجاحهم بالسيطرة على طرابلس الغرب، بدأت تتغير تدريجياً، وضعفت مساندتهم له في صراعه ضد العثمانين مما يؤكد ان هدف الايطاليين الحربي كان اهم بكثير من اهدافهم الاخرى. ومن هنا وجد الادريس نفسه في حاجة الى حليف جديد وبخاصة بعد ان تخلى عنه الامام يحيى، بعقده الصلح مع العثمانين سنة ١٩١١، بينما رفض العثمانيون صلح مماثل معه رغم ما كان يتمتع به من مكانة وتفوق في عسير. وهكذا اصبح الادريس يواجه عدوين متعاونين هما الدولة العثمانية والامام يحيى في وقت اتحدت فيه اهدافهما للقضاء عليه، وكان هذا الموقف من شأنه ان يجعل الادريس مهيئاً بحكم الظروف المحيطة به لتقبل عرض البريطانيين بالتحالف معهم في مطلع الحرب الاولى وتلقي الدعم والمساعدة المادية والعسكرية منهم لمواصلة الحرب ضد العثمانين في عسير.

وفي المبحث الرابع يستعرض المؤلف سياسة بريطانيا في عسير اثناء الحرب، وتحالفها مع الادريس وتوقيعها معاهدة معه شملت ثمانية بنود، يستطيع القارئ المهتم متابعة تفاصيلها في الكتاب، ويوضح المؤلف في هذا المبحث كيفية محاولة بريطانيا تحريك قوات الادريس ضد العثمانين في عسير بمساندة الاسطول البريطاني من جهة البحر وقد ازعجت تلك التحركات العثمانيين ايما ازعاج واضعفت من تركيزهم على الجبهة الجنوبية المواجهة للقاعدة البريطانية في عدن. ومما هو جدير بالذكر ان القوات العثمانية كانت قد سيطرت على لحج في ٥ حزيران

١٩١٥ وزحفت على قرية «الشيخ عثمان» الواقعة شمال عدن غيرانالبريطانيين نجحوا في اجلاء العثمانين عن هذه القرية في ٢٠ حزيران ١٩١٥ فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها حيث ظلوا هناك حتى نهاية الحرب الاولى، ونظرا لان الادريس لم ينجح نجاحا كاملا في حربه ضد العثمانين في عبر، فقد كان على بريطانيا ان تعمل على دعمه عسكريا واقتصاديا حتى يواصل اداء مهمته في محاربة العثمانين واشغالهم في عير وشمالي اليمن.

وفي المبحث الخامس انتقى المؤلف، مختارات من الوثائق التاريخية المتعلقة بالعلاقات البريطانية الادريسية وعلق عليها وبخاصة وثائق مكتبة وزارة الهند بلندن والتي ضمت تقارير ومذكرات بعض المسؤلين البريطانيين منهم جورج بونك هازنبد Young husband المقيم السياسي في عدن، وحاكوب " Jacob " المساعد الاول للمقيم السياسي البريطاني في عدن بشأن قيام الايطاليين في مقاديشو بتجنيد عشائر من شبه الجزيرة العربية عام ١٩١٥ وخطة بريطانيا السياسية في المنطقة المحيطة بعدن، وهي تقارير تنشر لاول مرة وتوضح حقائق تاريخية هامة، وتشير تفاصيلها الى استراتيجية البريطانيين البحرية في عدن والبحر الاحمر اثناء الحرب العالمية الاولى، التي اقتضت فرض حصار بحري محكم حول الموانى التابعة للعثمانين والحيلولة دون وصول اية امدادات اليهم، كما اقتضت تلك الاستراتيجية ايضا حماية السفن البريطانية وسفن الحلفاءالفرنسيين والايطاليين،فضلا عن السفن التابعة للادريس التي حرص البريطانيون على ضمان استمرار تسييرها وسلامتها حتى تظل موانيه مفتوحه لاستقبال الامدادات، كما يستمر نشاطها التجاري على ماهو عليه بكل مايحدثه ذلك من انتعاش مادى وسياسي له اثاره على تعزيز مكانة حلفاء البريطانيين في المنطقة. وقد حرص البريطانيون كل الحرص على ربط الموانى التابعة للحلفاء على جانبي البحر الاحمر بميناء عدن الهام الذي يعتبر مركز تنفيذ هذه الاستراتيجية ومحورها الرئيسي.

وفي المبحث السادس، تطرق المؤلف الى تطور العلاقات البريطانية الادريسية معتمداً في دراسته على تحليل عناصر خطاب الجنرال برايس Price المعتمد السياسي البريطاني في عدن والمراسل الى سكرتير حكومة بومباي في ٢٧ كانون الثاني ١٩١٦ والذي يشير فيه الى زيارة الكولونيل «جاكوب» لمحمد الادريس في عبر. ومن يتبع هذا البحث بدقة يفهم بوضوح استراتيجية السياسة البريطانية في عدن والمناطق المجاورة لها وبخاصة وقد افلح الباحث في عرض مادته الوثائقية باسلوب شيق وعبارات واضحة. ويتضح من خطاب برايس ان مساعدات بريطانيا للادريس كانت قاصرة حتى عام ١٩١٦ على تزريده بالذخيرة وبعدد قليل من البنادق، ولكن برايس اقترح زيادة المساعدة وطلب موافاته بكميات من الذخيرة «وبخاصة العثمانية» في حالة الاستيلاء عليها من العراق للاستفادة منها فيما دعت الضرورة.

وتناول الكاتب في المبحث السابع موقف البريطانيين من الادارسة في اعقاب سيطرةالعثمانيين على لحج ويظهر ذلك الموقف من خلال تقرير «جاكوب» الذي وردفيهان خلافةالعثمانيين ومكانتهم يمكن النيل منها على مقربة من الاماكن المقدسة الاسلامية حيث يستمد العثمانيون مكانتهم في العالم الاسلامي باشرافهم وحمايتهم لتلك المقدسات، وهو يعني بذلك قيام البريطانيين بتشجيع الشريف حسين على الثورة ضدالعثمانيين في الحجاز.

وتوصل المؤلف في المبحث الثامن الى معالم الاوضاع القائمة في اليمن اثناء الحرب الاولى من خلال تحليله الدقيق للرسالة السرية المرسلة من قبل الجنرال والتون Walton القائد العام للقوات البريطانية في عدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية في ١٣ مارس ١٩١٦.

اما المبحث التاسع والاخير فانه يتناول سياسة بريطانيا في التنسيق بين حركة الادريس في عبر والشريف حسين في الحجاز اثناء الحرب العالمية الاولى، ويعتمد المؤلف في هذا المبحث ايضا على الوثائق البريطانية وبخاصة الخطاب السرى الموجه من قبل الجنرال والتون القائد العام والمقيم السياسي البريطاني في عدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية في ٢٩ مارس ١٩١٦ ويتوصل الباحث الى ان حكم الادارسة قد اعتراه الضعف والانهيار بعد وفاة محمد الادريس في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣ ولم يستطع ابنه الامير على تسيير دفة الامور لصغر سنه، مما جعل امارة الادارسة تمر خلال السنوات التي مضت بين عام ١٩٢٣ ـ ١٩٣٠ في ادوار اضطراب داخلي، فصارت

مثاراً لاطماع جيرانها وخاصة الامام يحيى الذي تمكن من طرد الادارسة من الاراضي اليمنية التي كانت تحت يد «العثمانيين».قبل جلائهم وان يحصرهم في الجزء الشمالي من عسير فقط. وقد حدد الواسطي في كتابه تاريخ اليمن انتصارات الامام يحيى على الادارسة بقوله: واستلم الامام يحيى باجل ثم الحديدة من دون حرب واستلم الموانئ التي تطل على ساحل البحر الاحمر «ابن عباس» و«الصليف» واللحية وحيدي ثم مدن الضحى والزهرة والمغيرة والزيدية والمراوغة وغيرها وعين الامام فيه عمالا وحكاما.. بل ان الامام يحيى احتل بعض اراضي عسير وواصل الزحف شمالا مما حمل الادارسة على خلع الامير علي، ونصبوا عمه السيد حسن الادريس مكانه. وكان ابن سعود قد احتل الحجاز فعقد معه معاهدة تحالف عام ١٩٢٦ بعد ان توسط بينهما السيد احمد الشريف السنوسي الكبير الذي سارع من ليبيا لينقذ امارة نسيبه حسن الادريسي، وظل الامر كذلك الى ان ضغطت المطامع على هذا الامير فاضطر في النهاية ان يطلب ضم ما بقي في يده من بلاده الى ملك حليفه ابن سعود، فطويت بذلك صفحة الادارسة في عسير على الساحل الشرقي للبحر الاحمر، كما انتهى الدور الذي لعبته بريطانيا في عسير اثناء الحرب العالمية الاولى.

واخيراً نقول ان الباحث الكريم قد بذل جهداً كبيراً لمتابعة تفاصيل عدد غير قليل من الوثائق البريطانية ليكتب بحثاً اكاديمياً دقيقاً، الا انه وقع احياناً تحت تأثير تلك الوثائق ولغتها فهو يسمي العثمانيين بالاتراك والدولة العثمانية بتركيا واحياناً يترك بعض العبارات غير الدقيقة وغير الواقعية الواردة في التقارير البريطانية دون تعليق... ولكن رغم هذا وذاك فان هذه الدراسة لها نكهتها الخاصة وتعتبر متميزة ورائدة.

إن أعظم الافكار تظل أحياناً حبيسة في رؤوس أصحابها... ولاتنطلق منها إلا إذا اقتنع بها الرجال الأقوياء الذين يستطيعون تحويل الدراسات إلى سياسات، والتصورات إلى قرارات.

من ملفات المؤرخين العرب

الدكتور احمد ابراهيم دياب

. التخصص العام : حديث ومعاصر
. التخصص الدقيق : افريقي

. الدرجة العلمية : استاذ
. الجنسية : سوداني

. موضوع رسالة الماجستير : العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ ـ ١٩٢٤
. اسم الجامعة التي حصل منهاعلى الشهادة : القاهرة ـ الخرطوم
. سنة الحصول : ١٩٧٣

. موضوع رسالة الدكتوراة : مؤتمر الخريجين وتطور الحركة الوطنية في السودان
. اسم الجامعة التي حصل منها على الشهادة : القاهرة ـ الخرطوم
. سنة الحصول : ١٩٧٥

. العنوان الدائم : ص.ب ٢٥٣ ام درمان السودان
. العنوان الحالي : ص.ب ٤٠٦٤ بغداد

الكتب المنشورة :

. ثورة ١٩٢٤ في السودان
. لمحات من تاريخ افريقيا الحديث
. تطور الحركة الوطنية في السودان
. العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ ـ ١٩٢٤
. تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى القرن ١٩
. العلماء الافارقة ومساهمتهم في خدمة الحضارة العربية الاسلامية

الندوات والمؤتمرات التي شارك فيها :

اكثر من خمسة وعشرون مؤتمراً منها
. مؤتمر العلاقة بين اللغة العربية واللغات الافريقية ، داكار ١٩٨٤
. مؤتمر العلماء الافارقة ومساهمتهم في خدمة الحضارة العربية الاسلامية، الخرطوم ١٩٨٣
. مؤتمر مسألة الرق في افريقيا، تونس ١٩٨٥
. مؤتمرات العلاقات العربية التركية (الاردن/ تونس/ ليبيا/ تركيا)
. مؤتمرات في امريكا

النشاطات العلمية الاخرى :

. عضو الجمعية التاريخية المصرية
. عضو الجمعية التاريخية السودانية
. رئيس قسم البحوث والدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية

نشاطات اخرى :

اشرف على قيام الندوات العلمية الاتية وطبعها وهي :
. ندوة تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا حتى القرن ١٩
. ندوة مسألة الرق في افريقيا
. ندوة العلماء الافارقه ومساهمتهم في خدمة الحضارة العربية الاسلامية
. ندوة التراث العربي الاجتماعي
. ندوة العلاقات بين شرق افريقيا والخليج العربي
. ندوةالاستعمارالبرتغالى في الخليج العربي

الدكتور عبد الله بن يوسف بن عبد العزيز الشبل

. التخصص العام : تاريخ
. التخصص الدقيق : تاريخ حديث

المؤهلات :

. بكالوريوس آداب من قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
تاريخ الحصول عليه : ١٣٨٢هـ ١٩٦٢/ ١٩٦٣م.

. دبلوم اتقان اللغة الانجليزية من معهد الادارة العامة بالرياض لمدة سنتين.
تاريخ الحصول عليه : ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

. درجة الماجستير في الآداب بتقدير ممتاز من قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الاسكندرية في جمهورية مصر العربية.
وموضوع الرسالة : تاريخ نجد في مخطوط الفاخرى.
تاريخ الحصول عليه : عام ١٩٧٦/١٩٧٧م.

. درجة الدكتوراة في الآداب بمرتبة الشرف الأولى من قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الاسكندرية، في جمهورية مصر العربية.
وموضوع الرسالة : دراسة في أهم المصادر النجدية لتاريخ الدولة السعودية.
تاريخ الحصول عليه : عام ١٩٧٩/١٩٨٠م.

التاريخ تجربة اكتملت
تنير الطريق الى تجربة
مازالت في دور
التشكيل.

الدكتور محمود محمد متولى

. المهنة : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، جامعة المنيا.
. الوظيفة : رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة المنيا.
. التخصص العام : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
. التخصص الدقيق : أستاذ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

المؤهلات :

. ليسانس في الآداب، جامعة عين شمس.
. ليسانس في الحقوق، جامعة القاهرة.
. دبلوم معهد الرأى العام والاعلام بمرتبة الشرف الأولى.
. دبلوم معهد السياحة العالي بدرجة جيد جدا.
. ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس بدرجة الامتياز.
. دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى.

المؤلفات :

. الأمم المتحدة والسلام العالمي.
. الفكر التاريخي.
. المذاهب الاقتصادية والاجتماعية.
. حادث ٤ فبراير في التاريخ المصرى المعاصر.
. التنظيمات الشعبية في جمهورية مصر العربية.
. اتفاقية رودس بين العرب واسرائيل.
. افريقيا في العلاقات الدولية.
. افريقيا والسيطرة الغربية.
. افريقيا المعاصرة.
. ثورة الجزائر.
. الامبراطورية العثمانية وعلاقتها بمصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.
. مصر والحياة الحزبية والنيابية قبل سنة ١٩٥٢.
. اسرائيل الحقيقة والمستقبل.

. مأساة العصر في تاريخ مصر.
. تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية.
. مصر والحركة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية.
. دراسات في تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي.
. مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، ج١.
. الفيلسوف الاقتصادي الراحل.
. طغاة التاريخ.
. طوائف العالم الاسلامي.
. الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية.
. مناهج البحث التاريخي.

الخبرة العلمية :

. التدريس في الجامعة.
. الأمين الفنى للجنة تسجيل وثائق ثورة ٢٣ يوليو.
. مشرف في مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة.
. مدير مركز الدراسات التاريخية بمؤسسة التحرير والنشر بالقاهرة.

عضوية الجمعيات العلمية :

. عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
. عضو بالجمعية الجغرافية بالقاهرة.
. عضو بجمعية الاقتصاد والتشريع السياسي بالقاهرة.

المواد التي يدرسها :

. تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر.
. تاريخ افريقيا المعاصرة.
. تاريخ العرب الحديث والمعاصر.
. تاريخ اوربا الحديث والمعاصر.
. تاريخ مصر الحديث والمعاصر.
. منهج البحث التاريخي.

العنوان :

. الاقامة : جمهورية مصر العربية، القاهرة، مصر الجديدة، الميرغني، ٥ش محمد أنيس، دور ٥، شقة ٥، تليفون ٦٦٥٤٣٦.
. العمل : رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة المنيا، جمهورية مصر العربية، محافظة المنيا.

التاريخ مرآة الحضارة بمختلف أبعادها.

من نشاط الاتحاد العلمية

أ ـ تشكيلات الاتحاد في مجال النشر

أولاً: الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الامة العربية:

١ ـ الدكتور محمد عدنان البخيت ممثل مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام/المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور عبدالجليل التميمي ممثل مشروع كتابة التاريخ العثماني/الجمهورية التونسية
٣ ـ الدكتور عبدالرحمن الانصاري ممثل كتابة تاريخ الجزيرة العربية/المملكة العربية السعودية
٤ ـ الدكتور نبيه عاقل ممثل لجنة كتابة تاريخ العرب/الجمهورية العربية السورية
٥ ـ الدكتور سلمان سعدون البدر ممثل هيئة كتابة تاريخ الأمة/دولة الكويت
٦ ـ الدكتور صالح احمد العلي ممثل هيئة كتابة تاريخ الأمة العربية/الجمهورية العراقية
٧ ـ الدكتور محي الطاهر الجراري ممثل مؤتمر تاريخ الأمة العربية/
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ثانيا : لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور فاضل عبد الواحد (رئيسا)
٢ ـ الدكتور حسن فاضل زعين
٣ ـ الدكتورة رجاء حسني الخطاب
٤ ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
٥ ـ الدكتور عبد الامير عبد دكسن
٦ ـ الدكتور فاروق عمر فوزي
٧ ـ الدكتور هاشم صالح التكريتي
٨ ـ الدكتور يحيى الشاهرلي
٩ ـ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (مقررا)

ثالثا : اللجنة الاستشارية للمنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور صالح الحمارنة المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور سلطان القاسمي دولة الامارات العربية المتحدة
٣ ـ الدكتور سعيد خليل هاشم دولة البحرين
٤ ـ الدكتور محمد الهادي الشريف الجمهورية التونسية
٥ ـ الدكتور محمد البشير شنيتي الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
٦ ـ الاستاذ سعيد احمد درسمة جمهورية جيبوتي
٧ ـ الدكتور يوسف الثقفي المملكة العربية السعودية
٨ ـ الدكتور تاج السر احمد حران جمهورية السودان الديمقراطية
٩ ـ الدكتور احمد طربين الجمهورية العربية السورية
١٠ـ الاستاذ محمد علي كريم جمهورية الصومال
١١ـ الدكتور ابراهيم خليل احمد الجمهورية العراقية
١٢ـ الاستاذ علي احمد الشنفري سلطنة عمان
١٣ـ السيد احمد العناني فلسطين
١٤ـ الدكتور سلطان جاسم جابر دولة قطر
١٥ـ الدكتور عبد المالك التميمي دولة الكويت
١٦ـ الدكتور عمر عبد السلام تدمري الجمهورية اللبنانية
١٧ـ أ.دكتور محمود محمد متولي جمهورية مصر العربية
١٨ـ الدكتور محمد المختار بن ريان جمهورية موريتانيا الاسلامية

١٩ـ الدكتور عبد الهادي التازي — المملكة المغربية
٢٠ـ الدكتور حسين عبد الله العمري — الجمهورية العربية اليمنية
٢١ـ الدكتور محمد عكاشه — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ب ـ نشاطات الاتحاد في مجال النشر:

اولا: الكتب المنشورة

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية:

١ ـ كتاب يوميات البصرة بجزئين تأليف الدكتور مصطفى عبد القادر النجار والدكتور الامير محمد امين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانجليزية.
٢ ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانجليزية والعربية واشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتي والدكتورة عاليه سوسة.
٣ ـ الحركة الصهيونية في تونس من الفترة ما بين (١٩١١ ـ ١٩٢٧) تأليف الاستاذ التيمومي (بيروت ١٩٧٩).
٤ ـ نشأة الحركة الأباضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨)ش.
٥ـ ملامح النهضة العلمية في العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين)٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ)(١٠٤٥م ـ١٠٥٨م) للدكتور محمد حسين الزبيدى (بيروت ١٩٨٠).
٦ ـ ديوان جواهر الملوك في مدايح الملوك، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العماني تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩).
٧ ـ القبائل العربية في المشرق خلال العهد الأموى (٤٠ـ ١٣٢هـ/٦٠٠ ـ٧٤٩م) للدكتور ناجي حسن (بيروت ١٩٨٠).
٨ ـ حضارات الوطن العربي كخلفية للمدينة اليونانية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بيروت ١٩٨٠).
٩ ـ الامير مسلمة بن عبد الملك بن مروان، للدكتور عواد مجيد الاعظمى (بيروت١٩٨٠).
١٠ ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني للدكتور فاروق عمر فوزى (بغداد١٩٧٩).
١١ ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بغداد١٩٨١).
١٢ ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي للدكتور مصطفى عبد القادر النجار (بيروت١٩٨١).
١٣ ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عز الدين غربية (بيروت١٩٨١).
١٤ ـ كتاب المسعودي مؤرخا للاستاذ عبد الرحمن العزاوى (بغداد١٩٨٣).
١٥ ـ مقدمة في التصوف وحقيقته للامام ابي عبد الرحمن السلمي البغدادي تحقيق الاستاذ الدكتور حسين امين (بغداد١٩٨٤).
١٦ ـ فهارس مجلة المؤرخ العربي للدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (بغداد١٩٨٤).

ثانيا: الكتب التي تحت الطبع:

١ ـ كتاب مخطوطة المفاخر في اخبار العرب الاواخر، تحقيق الدكتورة رمزية الاطرقجي.
٢ ـ كتاب المستنصرية في التاريخ، لنخبة من المؤرخين والباحثين.
٣ ـ كتاب ملجأ الاضطراب، لابن الهائم، تحقيق السيدة نجلاء قاسم عباس وآخرون.
٤ ـ كتاب تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، للدكتور خالد جاسم الجنابي.
٥ ـ كتاب النظام الاساسي المعدل لاتحاد المؤرخين العرب.
٦ ـ كتاب دليل المؤرخين العرب.
٧ ـ كتاب دليل رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ.
٨ ـ كتاب دليل المراكز التاريخية الدولية (باللغة الانجليزية).
٩ ـ كتاب دليل اتحاد المؤرخين العرب في الصحافة العراقية والعربية والعالمية.

ثالثا: المجلة

قام الاتحاد باصدار مجلة تاريخية علمية وهي (مجلة المؤرخ العربي) تحتوى على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب.

ان الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربي وجعلها أكثر ملائمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية، وهي تصدر بانتظام اعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الأول وحتى الآن.

ج ـ نشاطات الاتحاد في مجال الندوات والمؤتمرات:

أولا : المؤتمرات والندوات التي نظمها الاتحاد

أ ـ المؤتمرات التي تم عقدها خلال عام ١٩٨٥:

١ ـ ندوة تأصيل المقام العراقي تاريخيا ـ بغداد	١ ـ ١٩٨٤/١٠/٩
٢ ـ الشهيد في التاريخ العربي الاسلامي ـ بغداد	١٩٨٤/١٢/١
٣ ـ المخطوطات والتراث	١٩٨٤/١٢/٢٢
٤ ـ مكانة الاسير في التاريخ العربي والاسلامي	١٩٨٥/١/٨
٥ ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية	١٩٨٥/٢/١٨
٦ ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية)	١٩٨٥/٥/٤
٧ ـ حركة مايس ١٩٤١	١٩٨٥/٥/٢
٨ . تطور الفكر العربي القومي (اتحاد المؤرخين العرب،بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية، والمجمع العلمي العراقي، ومركز البحوث والدراسات العربية)	٨ ـ ١٩٨٥/٥/١٠
٩ ـ الندوة العلمية الاولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية	١٩٨٥/٦/٢٧

ب ـ المؤتمرات والندوات التي عقدها الاتحاد حتى نهاية عام ١٩٨٥

١ ـ البطل في التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام	١٠(أو) ١٩٨٥/١١
٢ ـ الاسطورة بين الواقع والخيال في حضارة العراق القديم	شهر تشرين/١٩٨٥
٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية	١٩٨٥
٤ ـ الاسلام والقومية	١٩٨٥
٥ ـ المستشرقون والتاريخ العربي	١٩٨٥
٦ ـ التحدى الشعوبي للأمة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين)	١٩٨٥
٧ ـ جوانب من تاريخ ايران الحديث والمعاصر	١٩٨٥
٨ ـ الشواهد التاريخية في احاديث. السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله	١٩٨٥

ثانيا : المؤتمرات العربية والعالمية التي شارك بها الاتحاد ـ خلال الاعوام ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦ ـ

اسم المؤتمر أو الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
١. مؤتمر الثروة النفطية واثرها على السياسة العربية المعاصرة	ولاية نيوجيرسي الامريكية	جامعة روجر	آب/١٩٨٤
٢. ندوة الحوار العربي الاوربي	ميلانوا، كادينانبا ايطاليا	المعهد الدولي العالي التابع لمؤسسة كونراد أديناور	١١/٢٥ ـ ١٩٨٥/١٢/١
٣. الاجتماع الثالث للتنسيق بين الأمانة العامة/الجامعة العربية/الادارة العامة لشئون الاعلام والمنظمات والاتحادات العربية	تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشئون الاعلام	٩ ـ ١٩٨٥/٢/١٠
٤. المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	جامعة اليرموك	جامعة الاردن جامعة اليرموك جامعة مؤته	٢٠ ـ ١٩٨٥/٤/٢٥
٥. ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي	سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخليج العربي	١٥ ـ١٧ شعبان ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م
٦. اجتماعات الدورة(٤٢) للّجنة الدائمة للاعلام العربي	تونس/ مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشئون الاعلام	٢٩ ـ ١٩٨٥/٦/٣٠

٧. الدورة العادية(٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربي	تونس/ مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الامانة العامة لشئون الاعلام	٢ ــ ١٩٨٥/٧/٣
٨. اجتماع الامانة العامة للخليج العربي والجزيرة	جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمني	١٩٨٥/٧/٥
٩. اجتماعات الدورة (٣٧) للمجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم	تونس/ مقر الجامعة العربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والامانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام	١ ــ ١٩٨٥/٧/٩
١٠. الدورة التدريبة العربية في طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	قابس/ تونس	الاتحاد العربي التقني بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي التونسية	٦/٢٨ ــ ١٩٨٥/٧/١٢
١١. ندوة حول ثورة اكتوبر والعالم	شتوتجارت/ المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمي السوفيتي	آب/١٩٨٥
١٢. الاجتماع السادس عشر لمؤتمر العلوم التاريخية الدولي	شتوتجارت / المانيا الاتحادية	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	٨/٢٥ ــ ١٩٨٥/٩/١
١٣. الحلقة الدراسية في ادارة وتطوير معاهد التعليم التقني العربية/ بغداد	بغداد	الاتحاد العربي للتعليم التقني/ الامانة العامة	١٩٨٥/١٠/٢٩/٢٥
١٤. افريقيا المحررة (بمناسبة مرور مائة عام على مؤتمر برلين حول تقسيم أفريقيا١٨٨٤)	جمهورية اثيوبيا	وزارات الاعلام الافريقية	١٩٨٥/١١/٧
١٥. ندوة العراق في الثورة (المنظور التاريخي)	جامعة الموصل ــ كلية الاداب		١٤ ــ ١٩٨٥/١١/١٦
١٦. ندوة الموانئ في الخليج العربي	بغداد	مركز علوم البحار الخليج العربي/ جامعة البصرة	١٤ ــ ١٦/ كانون ١٩٨٥
١٧. ندوة الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها	جامعة صنعاء	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	٧ ــ ١٩٨٦/٢/١٢
١٨. المؤتمر السنوى لجمعية دراسات الشرق الاوسط	مدينة أورليانز / الولايات المتحدة الامريكية		١٩٨٦
١٩. المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبد العزيز آل سعود	الرياض /جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية		١٩٨٦
٢٠. الندوة العلمية الاولى لدراسة مصادر تاريخ البصرة			١٩٨٦
٢١. ندوة اليمن عبر التاريخ	جامعة عدن عدن		١٩٨٦
٢٢. ندوة آفاق واستراتيجية السياسة العربية	بغداد	الجمعية العربية للعلوم السياسية في بغداد	١٩٨٦
٢٣. اجتماع الدورة التاسعة للامانة العامة لمراكز الخليج والجزيرة العربية	بغداد		١٩٨٦

Review Of University Theses

1. The Development and Trends of the Internal Policy of Turky (1923-1928) M. A Thesis by Qasim Khalaf Asi Al-Jumaili, Reviewed by : Mohammed Rasheed Abood Al-Rawi.
2. Al-Basrah Sea Port (A Historical Study) (1915-1956)
   By Taleb Jassem Mohammed Al-Ghareeb.
   M.A Thesis
   Reviewed by : Kifah Khadheem Al-Khazaali.
3. The schools of Tunis City from Al-Hafsi era to Al-Huseini era.
   Ph.D Thesis
   Reviewed by Dr. Mohammed Al-Baji Bin Mami.
4. The Crussade Wars - Beginning of European colonialism
   M.A Thesis
   Reviewed by Raghib Hamid Abdulla.
5. The Arab's strife for independent in natural Syria between the two world war,
   Ph.D. Thesis, Reviewed by Dr. Jihad Saleh Al - Omar

Book Review

1. Athletics started in Mesopotamia,
   By Tariq Al-Nasiri.
   Reviewed by Muataz Muhyi Abdul Hameed.
2. The Development of Arab Diplomacy,
   By Dr. Suheil Husein Al-Fatlawi,
   Reviewed by Muataz Muhyi Abdul Hameed.
3. British Policy in Aseer During First World War (1914 - 1918)
   Written by : Dr. Farouq Uthman Abadha
   Reviewed by : Dr. Hussain M. Kahwati.

From the Files of the Arab Historians

1. Dr. Ahmed Ibrahim Deyab
2. Dr. Mahmoud Mitwally
3. Dr. Abdulla Bin Yousef Bin Abdul Aziz Al Shibal

From the science activities of the Arab Historians

INDEX

Papers On Contemporary History

Papers On Islamic History

The Arab Historians

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad

Designed by Al Ta'awon Est., Ras Al Khaimah

تنفيذ وتصميم مؤسسة التعاون ــ رأس الخيمة

Printed by Al Nakheel Printers., Ras Al Khaimah

طبعت في مطبعة النخيل ــ رأس الخيمة

